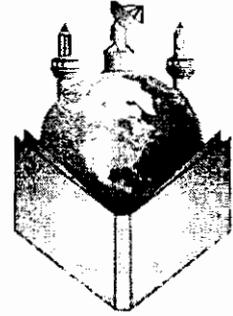




الجامعة الأمريكية المفتوحة  
كلية الدراسات الإسلامية والعربية

ناتج الأول والثاني الإسلامي



## حقوق الطبع محفوظة لدار الأندلس للطباعة والنشر

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

المملكة العربية السعودية - جدة

الإدارة: ص.ب. : ٤٢٣٤٠ جدة ٢١٥٤١ هاتف : ٦٨١٠٥٧٧ -

فاكس : ٦٨١٠٥٧٨

المكتبات : حي السلامة - خلف مسجد الشعبي هاتف -

فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩

حي النور - شارع باخشب - هاتف : ٦٨١٥٠٢٧ - فاكس : ٦٨١٠٥٧٨

مكتب الرياض : هاتف / فاكس : ٢٤٣٤٩٣٠

الموقع : [www.alandalos.com](http://www.alandalos.com) -

البريد الإلكتروني : [info@andalos.com](mailto:info@andalos.com)

## الجامعة الأمريكية المفتوحة

مؤسسة تعليمية  
مستقلة غير ربحية

Web Location:  
[www.aou.edu.com](http://www.aou.edu.com)

٤٢١٢ King Street  
Alexandria, VA  
٢٢٣٠٢ U.S.A

مكتب الجامعة بالقاهرة  
Eamil: [Info@aou.edu.com](mailto:Info@aou.edu.com)

هاتف : ٤١١٥٢٧٦

فاكس : ٤١١٥٢٦٠

مركز البحوث وإعداد  
المناهج بالجامعة

٢٠ ش عبد العزيز عيسى المنطقة

التاسعة - مدينة نصر - القاهرة.

تليفاكس:

٠٠٢٠٢٦٧٠٩٢٦٩

حقوق الطبع © ١٤٢٥هـ. لا يُسمح بإعادة نشر  
هذا الكتاب، أو أي جزء منه بأي شكل من  
الأشكال، أو حفظه ونسخه في أي نظام رقمي، أو  
إلكتروني يُمكن من استرجاع الكتاب، أو أي جزء  
منه، ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب، أو  
ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن من  
دار الأندلس للطباعة والنشر.

## لجنة إعداد وتطوير المناهج بالجامعة

مكتب القاهرة - مكتب جدة



أعدَ مادةَ هذا الكتاب:

أستاذ التاريخ الإسلامي  
مدرس بأكاديمية الفراعنة  
باحث متفرغ

أ.د/ عبد الحليم عبد الفتاح عويس  
د/ يحيى أبو المعاطي العباسي  
د/ عبد الوهاب حسن القرش

إشراف ومتابعة

د/ محمد يسري إبراهيم

رئيس مركز البحوث وإعداد المناهج بالقاهرة

# بسم الله الرحمن الرحيم

## رسالة إلى الدارس

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

لإخوة والأخوات طلبة وطالبات الجامعة الأمريكية المفتوحة:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.....وبعد:

فمرحباً بكم على طريق التفقه في الدين، وأهلاً بكم أوفياء لدينكم في زمن الغربة الثانية للإسلام، ونرف إليكم بشرى إمام الأنبياء والمرسلين ﷺ أن: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين"<sup>(١)</sup>، وأن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يفعل، وأن من سلك طريقاً يتغي فيه عنماً يسر الله له به طريقاً إلى الجنة.

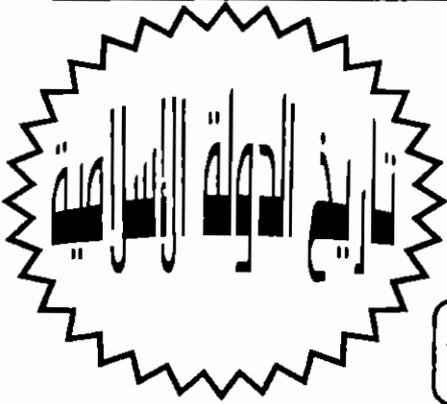
عزيزي الدارس... عزيزي الدراسة: يطيب لنا أن نلتقي بكم مجدداً في مرحلة البكالوريوس مع مقرر تاريخ الصلوة الإسلامية. وقد تم إعداد هذه المادة وتنظيمها في صورة وحدات تضم فصولاً، تحتوي كل وحدة على عناصر أساسية هي: (مبررات دراسة الوحدة - الأهداف التعليمية - الرسومات الخطية - اختبار الوحدة- الأنشطة التعليمية).

وإننا لنوصي إخواننا وأخواتنا - طلبة الجامعة - بأن يسيروا في دراسة هذا المقرر وفقاً لنظام تصميم الوحدات الذي أعد به هذا الكتاب وذلك حتى يتحقق أكبر قدر من الاستيعاب والفائدة، والله ﷻ هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

(١) رواد البخاري، كتاب العلم، باب: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، حديث رقم: ٦٩، ومسلم،

كتاب الزكاة، باب: أُنهي عن المسألة، حديث رقم: ١٧٢١.





الخلافة العباسية

الوحدة  
الأولى

الدولتان الطولونية والإخشيدية

الوحدة  
الثانية

دولتا الأغالبة والأدارسة

الوحدة  
الثالثة

الدولة الفاطمية

الوحدة  
الرابعة

الدولة الأيوبية

الوحدة  
الخامسة

الدولة المملوكية (البحرية والبرجية)

الوحدة  
السادسة

المغول

الوحدة  
السابعة

الخلافة العثمانية

الوحدة  
الثامنة

تاريخ الأندلس

الوحدة  
التاسعة



## الوحدة الأولى

### الخلافة العباسية

مبررات دراسة الوحدة:

يرى المؤرخ الكبير (ول ديورانت) أن الخلافة العباسية بقيت بعد سقوطها أكثر من أربعة قرون تشع حضارة على العالم، وبقيت أقوى وأرقى حضارة إلى نهاية العصور الوسطى، ومطلع العصر الحديث في القرن السادس عشر الميلادي.

ولم تكن دولة فتوحات، ولكنها كانت دولة مهيبة، تفرض سنطتها بحضارتها لا بجيوشها، وحتى مع سيطرة البويهيين والسلاجقة عليها، واستقلال بعض البلدان عنها، بقي اسمها هو الراية الإسلامية الحضارية الخفاقة.

وقد نقلت الحضارات القديمة، ولا سيما حضارات اليونان، والرومان، والفرس وغيرهم، وصبغتها بالصبغة الإسلامية، ووقفت في وجه الفاضيين في الداخل- كحركة انشقاق فكري- وفي وجه النصلييين الزاحفين من الخارج، حتى قضى عليها التتار، سياسياً وعسكرياً سنة ٦٥٦هـ، لكنها نجحت في استقطابهم للدين الإسلامي، والحضارة الإسلامية، فتحولوا إلى جنود للإسلام؛ لأنها كانت الحضارة الأقوى، التي تحمل الدين الأذكى والأنقى، والفقّه الصحيح للحياة والكون والإنسان.

إن رحلة الخلافة العباسية التي استمرت أكثر من خمسة قرون، رحلة خصبة طويلة، تستحق منا أن نسعى جادين إلى اكتشافها وفهم جوانبها، وأساليبها في التفاعل مع الحضارات، وفي صناعة حضارة علمية كانت أرقى حضارة عرفها البشرية قبل العصر الحديث. إنه -بحق- هدف عظيم يجب أن نسعى إلى تحقيقه.

الأهداف التعليمية للوحدة:

عزيزي الدارس: يرجى بعد دراستك لهذه الوحدة أن تصبح قادراً على أن:

أ- تُعرّف مصطلحات:

نكبة البرامكة.

العصر البويهي.

صحوة الخلافة.

ثورة الزنج.

ب- تذكر العناصر الأساسية لـ:

سياسة الخلفاء العباسيين تجاه آل البيت.

السياسة الداخلية والخارجية للخليفة هارون الرشيد.

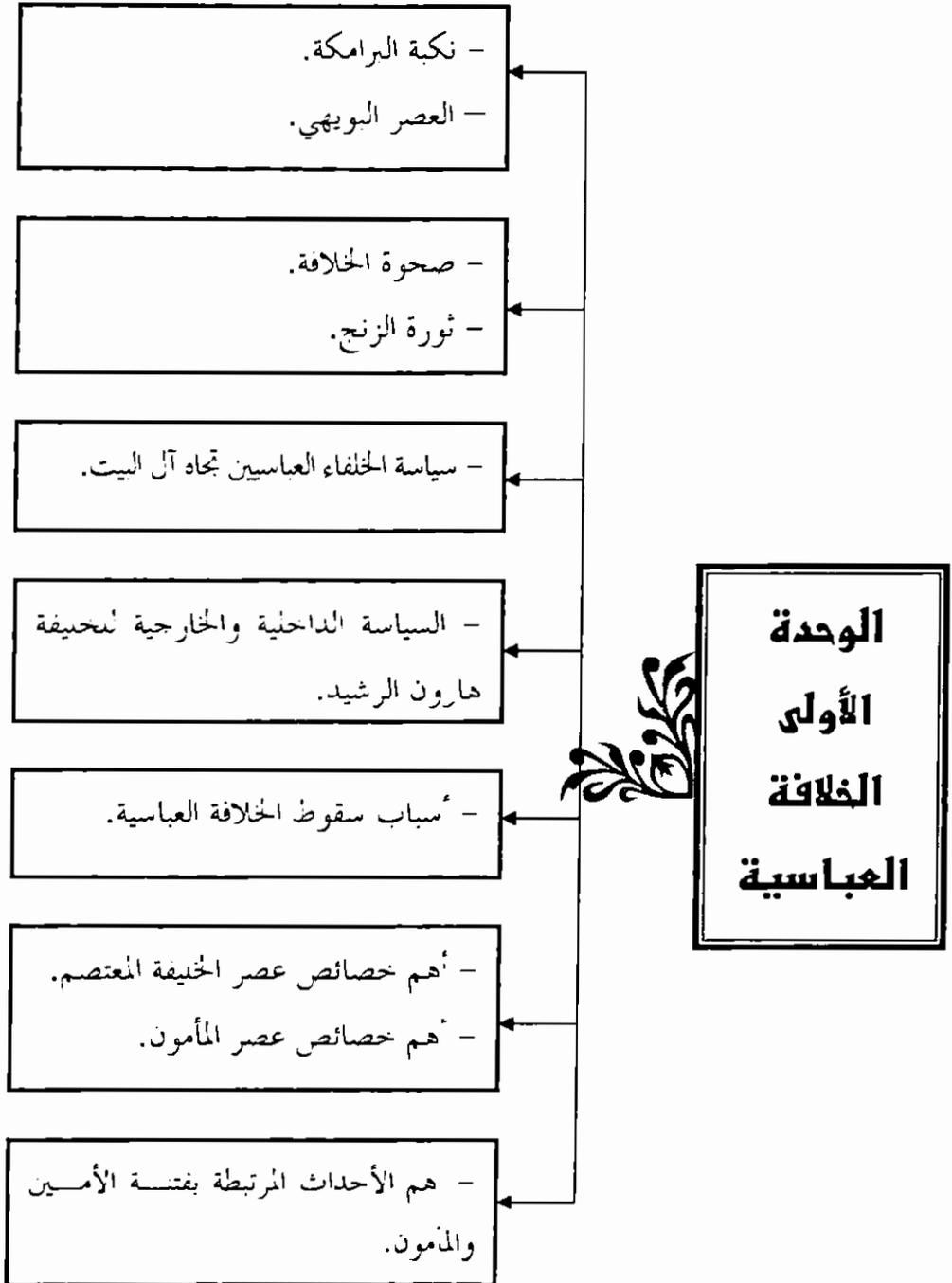
أسباب سقوط الخلافة العباسية.

ج- تستنتج أهم خصائص لـ:

عصر الخليفة المعتصم و(عمورية).

عصر المأمون.

فتنة الأمين والمأمون.



## الخلافة العباسية

(١٣٢-١٣٦١هـ/٧٥٠-١٢٥٦م)

نسب العباسيين.

الدولة العباسية في عصرها الأول (١٣٢-١٣٦١هـ/٧٥٠-٨٤٧م).

الدعوة العباسية. - بنو العباس واستثمار الولاء لآل البيت.

أبو جعفر المنصور. - هارون الرشيد. - حرب الأخوين.

المأمون خليفة. - أبو إسحاق محمد المعتصم. - الواثق بالله.

الدولة العباسية في عصرها الثاني (٢٣٢-٢٣٦١هـ/٨٤٦-١١٩٣م).

أولاً: الأتراك:

الظهور الحقيقي للأتراك على المسرح السياسي العباسي.

الأتراك بعد المعتصم. - خلفاء هذا العهد ونهائيتهم.

أهم أحداث هذا العصر.

ثانياً: بنو بويه:

نشأتهم ودخولهم بغداد - خلفاء هذا العصر.

أهم أحداث هذا العصر.

ثالثاً: السلاجقة:

نشأتهم ودخولهم بغداد.

خلفاء هذا العصر وعلاقتهم بسلاطين السلاجقة.

الدولة العباسية في عصرها الثالث والأخير (٥٩٠-١٣٦١هـ/١١٩٣-١٢٥٨م)

- تدهور السلاجقة. - استقلال بغداد وخلفاء ذلك العصر.

- عوامل سقوط العباسيين.

حضارة العباسيين:

أولاً: الإدارة ونظم الحكم:

- الخلافة. - الوزارة. - الحجابة. - الكُتَّاب. - الدواوين.

ثانياً: النظام القضائي:

- القضاء والقاضي - الشرطة والحسبة - قضاء المظالم

ثالثاً: النظام الحربي:

- الجيش - الأسطول

رابعاً: تطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العصر العباسي:

- الزراعة - الصناعة - التجارة - الأصناف

خامساً: الحياة الثقافية في بغداد.

نسب العباسيين:

تنسب الدولة العباسية إلى العباس عمّ النبي ﷺ، فمؤسس الدولة العباسية هو عبدالله السفاح بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس، وبعد قيامها انتصاراً للفكرة التي نادى بها بنو هاشم عقب وفاة الرسول ﷺ بإسناد الخلافة إلى أهل الرسول ﷺ، وذويه، وقد هُزمت هذه الفكرة في مطلع الإسلام، وانتصر التفكير الإسلامي الصحيح، وهو أن الخلافة ملك المسلمين يولون على أنفسهم من يشاءون.

استمرت الدولة العباسية من سنة (١٣٢-٥٦٦هـ/٧٥٠-١٢٥٨م) فمدَّتها (٥٢٤ سنة)، وفي عام (٥٦٦هـ/١٢٥٨م) زحف التتار على العالم الإسلامي وقتلوا الخليفة أبا أحمد عبدالله المستعصم (٦٤٠-٥٦٦هـ/١٢٤٢-١٢٥٨م) وكثيرين من أهله، وأعلنوا نهاية الخلافة العباسية<sup>(١)</sup>.

(١) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي (١٩/٣) الخلافة العباسية، الطبعة السادسة، مكتبة النهضة

والمدة الطويلة التي قضاها بنو العباس في منصب الخلافة لم تكن بطبيعة الحال على نمط واحد من ناحية قوة سلطة الخلفاء، وإنما تفاوتت هذه السلطة، مما جعل المؤرخين يقسمون مدة الخلافة العباسية إلى عصور.

وقد اختلفت وجهات نظر المؤرخين في اتجاه التقسيم وسببه، والذي نراه أن نقسم مدة الدولة العباسية إلى عصور ثلاثة تختلف ملامح كل عصر منها عن سواه. وهذه العصور هي:

العصر العباسي الأول (١٣٢-٥٢٣٢هـ/٧٥٠-٨٤٦م)؛ وكانت السلطة خلاله في أيدي الخلفاء.

العصر العباسي الثاني (٢٣٢-٥٥٩٠هـ/٨٤٦-١١٩٣م)، وقد ضاعت السطة خلاله من أيدي الخلفاء.

العصر العباسي الثالث (٥٩٠-٥٦٥٦هـ/١١٩٣-١٢٥٨م)، وفيه عادت السلطة إلى أيدي الخلفاء ولكن في بغداد وما حولها.

## الدولة العباسية في عصرها الأول (١٣٢-١٣٣٢هـ/٧٥٠-٨٤٦م)

الدعوة العباسية:

لم يكن سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية مجرد تغيير في الأسر الحاكمة، وإنما يشكل في حقيقة الأمر ثورة جذرية حاسمة في تاريخ الإسلام على انظام القديم، تحققت بفضل دعوة وتنظيم ثورين ناجحين واسعي الانتشار يعبران عن سحق عناصر هامة من الأمة الإسلامية على الحكم الأموي، ورغبة مشتركة في إسقاط النظام الحاكم.

ولم يكن للدعوة في بادئ الأمر اسم تميز به؛ إذ كانت ترتكز على حزب آل البيت -أقوى الأحزاب المعارضة للأمويين- وهو حزب الهاشمية الذي يضم علويين وعباسيين -على السواء- وأنصارهم من الموالي العجم الذين آثروا الانضمام إلى حزبهم دون غيره من الأحزاب المعارضة الأخرى، وقد تعرض الشيعة العلويون على مختلف فرقهم لتكيد بني أمية لادعائهم أنهم أصحاب الحق الشرعي في الخلافة، كما استشهد أعلام كثيرون من آل البيت الذين خرجوا يقاومون النظم المستبدة الجائرة ويدعون لأنفسهم<sup>(١)</sup>.  
العباسيون ومسألة الخلافة:

مرّ ادعاء العباسيين بحقهم في الخلافة بمرحلتين مختلفتين، تميزت كل منهما عن الأخرى، ففي الدعوة السرية ضد الحكم الأموي رفعت الدعوة شعارات عامة مش: (حق أهل البيت) أو (بني هاشم) في حكم المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ،

(١) استشهد الإمام الحسين بن علي في كربلاء في محرم عام ٦١هـ، عندما خرج إلى الكوفة تلبية لدعوة أهل العراق، واستشهد زيد بن علي زين العابدين سنة ١٢٢هـ، عندما خرج على الأمويين في الكوفة، واستشهد ابنه يحيى بن زيد في سنة ١٢٥هـ، عندما استنكر ما شمل الناس من الجور.

السعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر (٣/٢٠٧-٢٠٨، ٢١٣)، عبدالعزيز سالم: تاريخ الدولة العربية (ص ٦٥٤ وما بينها). دار الفكر ٣٩٣ هـ/١٩٧٣م.

حيث نادى الدعاة العباسيون بحق العباسيين في الخلافة اعتماداً على وصية أبي هاشم عبدالله بن محمد بن علي بن أبي طالب لمحمد بن علي العباس، وبعد نجاح الثورة العباسية وقيام الدولة الجديدة تناسى العباسيون روابطهم بأبي هاشم ومنظمتهم السرية (الهاشمية) وبدأوا يؤكدون بأن حقهم في الخلافة يرجع للعباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ.

وتتفق المصادر الإسلامية على الحقيقة التاريخية للوصية، وتذكر أنها في سنة (٨٩٧/٧١٥م)، وفي سنة (٨٩٨/٧١٦م) مات أبو هاشم وهو في طريق عودته من الشام إلى الحجاز بعد زيارته لسليمان بن عبد الملك، إما بسبب السم الذي دبره له الخليفة "وهي رواية ضعيفة" أو بسبب مرض طبيعي - وكان في منطقة الشراة- فأمر أصحابه بالتوجه إلى الحميمة مقر العباسيين حيث أوصى هناك لمحمد بن علي العباسي، وجعله إماماً؛ لأنه أعلم من غيره، وكيف لا؟ وقد أخذ محمد العلم على يدي أبي هاشم نفسه. وقد حول محمد المنظمة الهاشمية إلى منظمة عباسية صرفة<sup>(١)</sup>.

### مرحلة التخطيط النهائي

ويعدّ محمد بن علي العباسي شخصية مستترة تميزت بالذكاء الحاد والنشاط والاتزان، وقد أهّله هذه الصفات ليقدّر أبعاد الموقف تقديراً واقعياً، فأدرك بثاقب نظره أن الدعوة يجب أن تتخذ منطلقاً بعيداً عن مركز الخلافة الأموية، وأن تتوافر لها العناصر المؤيدة لآل البيت والمناهضة للأمويين، كما أدرك أهمية التزام السرية التامة لأهدافها البعيدة، مع اتخاذ هدف قريب تستر وراءه وهو (الرضا من آل البيت) درءاً وتقيّة لما قد يصيب الدعوة من أخطار إذا ما اكتشفت السلطات الأموية سرّها، وفي الوقت نفسه كسباً لأنصار جدد من شيعة فارس الذين كانوا يميلون -سواء عن إيمان عقائدي راسخ أو بدافع من الشعور القومي-

(١) فاروق عمر: بحوث في التاريخ العباسي (ص ٦٤) نشر دار العلم، بيروت.

للعلويين<sup>(١)</sup>، وزيادة في تعمية الأمر على الأمويين والعلويين، وتجنباً لإثارة الشبهات في نواياه الحقيقية.

وقد اختار محمد -بتوجيه من أبيه علي- الكوفة وخراسان مراكز لدعوته، أما الكوفة فلأنها قاعدة الشيعة ومهد التشيع لآل البيت منذ أن اتخذها الإمام علي مركزاً له، وأما خراسان، فليبعدها عن دمشق دار الخلافة الأموية من جهة؛ ومن جهة ثانية أنه أدرك أن الخراسانيين أسهل قياداً لتأييد الدعوة العباسية من العراقيين بسبب عداها أهدى الفرس للأمويين العرب<sup>(٢)</sup>.

وأراد محمد بن علي أن يصرف نظر الأمويين وأنصارهم عن المركز لرئيسي لنشاطه التنظيمي وهو الحميمة حيث قام هو في حياة أبيه ثم بعد وفاته في سنة (١١٨هـ/٧٣٦م) على تنظيم الدعوة.

ولضمان السرية التامة للدعوة في خراسان والكوفة رأى أن يكون الطريق الذي يسلكه الدعاة في ترددهم ما بين خراسان والحميمة من الطرق الرئيسية التي يكثر استخدامها حتى لا ينكشف سر الدعوة، ولهذا اختار طريق الكوفة - خراسان التجاري، وأوحى إلى الدعاة والنقباء بالتكسر في زي التجار، ولم يسمح لأحد منهم أن يتصل بالحميمة إلا عن طريق داعي الدعاة بالكوفة<sup>(٣)</sup>.

### مرحلة التنفيذ العملي:

لقد تولى إبراهيم بن محمد بن علي العباسي الأمر عندما توفي والده محمد بن علي العباسي في سنة (١٢٥هـ/٧٤٢م) بعد أن أوصى بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم.

(١) لأن الحسين بن علي كان قد تروح من شهر بالوه بنت كسرى يرد جرد الثالث آخر أكاسرة الدولة الساسانية، ولهذا السبب أيدوا أئمة الشيعة؛ لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربي وأشرف دم فارسي.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: العصر العباسي الأول، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ١٣٩٨هـ، (٣/٢٢- هامش رقم ١).

(٣) البعقوي: تاريخ البعقوي (٢/٤١٨-٤١٩)، مطبعة التحف، بغداد ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م.

وفي عهد إبراهيم بدأ دور جديد من تاريخ الدعوة العباسية، هو دور العمل والنضال الحربي والذي تألفت فيه شخصيتان بارزتان كان لهما أعظم الأثر في نجاح الدعوة؛ وهما:

حفص بن سليمان المعروف بأبي سلمة الخلال الذي تولى رئاسة الدعوة بعد وفاة بكير بن ماهان، وشخصية أبي مسلم الخراساني الشاب المغامر الذي يرجع إليه الفضل في قيادة الثورة العباسية إلى النصر في الفترة من (١٢٩-١٣٢هـ/٧٤٦-٧٥٠م)<sup>(١)</sup>.

وقد استطاعت هاتان الشخصيتان تهيئة الأمور للخلافة العباسية، بحيث اكتشف الأمويون فجأة أنهم فقدوا الأرضية الشعبية التي يقفون عليها، وأن الأرض مادت بهم، وصح قول الشاعر نصر بن سيار:

أقول من التعجب ليت شعري أأيقـاظ أمية أم نيام

فقد ظلوا نياما أو أشباه نيام حتى وقعت معركة الزاب الكبرى التي قادها أبو العباس السفاح الذي أصبح أول خلفاء بني العباس (١٣٢-١٣٦هـ/٧٤٩-٧٥٤م).

ففي جمادى الآخرة من عام (١٣٢هـ/٧٥٠م) اشتبك في معركته الحاسمة مع الأمويين حيث استطاع أن يقضي -على ضفاف نهر الزاب- على جيش مروان بن محمد الذي لاذ بالفرار. فتعقبه الجيش العباسي بقيادة عبدالله بن علي عم أبي العباس إلى حران، ولكن مروان فرّ منها إلى الشام، حيث لم يجد نصيراً، فلحق به جيش عباسي آخر بقيادة عمّ آخر لأبي العباس هو صالح بن علي، فاندحر جيش مروان بن محمد، أما هو فهرب ثانية، وصالح بن علي يتعقبه حتى عثر عليه في كنيسة في (بوصير) بيني سويف فأحاطوا به وقتلوه في شهر ذي الحجة من عام (١٣٢هـ/ أغسطس ٧٥٠م)، ليسدل

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء (ص ٢٩٠)، دار نضرة مصر القاهرة ١٩٧٥م.

محمد عبدالحى شعبان: الثورة العباسية (ص ٢٥٩).

بدلك الستار نهائياً إلى الأبد على حكم بني أمية في الشام ومصر<sup>(١)</sup>.

وفي السنة التالية (٥١٣٣/٧٥٠م) استسلمت واسط إلى أبي جعفر المنصور وكانت آخر قلاع بني أمية في العراق، وكان يزيد بن هبيرة - آخر ولاة بني أمية في العراق - قد صمد في واسط لحصار القوات العباسية لمدة عام كامل، ثم قبل الأمان من أبي جعفر، واستسلم له، ولكنه ما لبث أن قتل غيلة وغدراً<sup>(٢)</sup>.

وهكذا قامت الدولة العباسية ودخل في حوزتها هذا الملك الطويل العريض، الذي وضع أساسه خارج جزيرة العرب أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ وشاد بنيانه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ومكن قواعده وزان جوانبه بنو أمية من بني عبد شمس. وكان أبو العباس في غاية الرضا والسرور لقبول منصب الخلافة على الشروط الخراسانية، فأبقى أباسلمة اخلاً في وظيفته وزيراً له، رغم ما في هذا الإجراء من تقليل لسلطات أبي العباس الزمنية.

وهكذا - ومنذ البداية - افترق العباسيون عن العلويين بانحرافهم عن الشعار الذي ارتضوه معهم للإمام أمير المؤمنين، ولذلك استمرت الشيعة في تأليب الرأي العام لتحقيق أهدافها الدينية والسياسية طوال العصر العباسي.

ومع أن أبا العباس عرف بلقب (السفاح) فإن هذا اللقب ألصقه به بعض المؤرخين المتأخرين، لاختلاف لقب ملكي لأمر المؤمنين العباسي الأول على غرار الألقاب التي اصطفاها من تلاه من حلفاء بني العباس لأنفسهم<sup>(٣)</sup>، وقد قصد أبو العباس أن تبقى سلطته في حدود الحد الأدنى تمثيلاً مع ظروف مرحلة التأسيس.

(١) محمد عبد الحفي شعبان: الثورة العباسية (ص ٢-٢)، ترجمة عبد الحميد حبيب القيسي، دار الدراسات الخنيجية أبوظبي ١٩٧٧م.

(٢) المرجع السابق (ص ٢٦٣).

(٣) الطبري: الرسل والملوك (ص ١٤٨)، دار المعارف القاهرة ١٣٨٦/١٩٦٦م.

وكما نرى فقد قامت دولة العباسيين مساء يوم الخميس السابع عشر من شهر ربيع الأول (١٣٢/٧٤٩م)، في مدينة الكوفة، وكان أبو العباس السفاح (عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس) أول خليفة للدولة العباسية التي ظلت تعمل لعشرين سنة أو أكثر - بطريقة سرية تحت شعار (الرضا من آل البيت) لتقويض دعائم البيت الأموي، وقيام دولة آل البيت العباسي، نسبة إلى العباس بن عبد المطلب ﷺ.

وكانت الدولة الأموية الآيلة للسقوط المتناحرة داخليا قد قدمت لهم - كذلك - مساعدة كبيرة؛ فالتقت عوامل الانهيار الأموي، مع التخطيط العباسي المعتمد على الشحن العاطفي القوي لآل البيت، فحقق ذلك انتصار العباسيين على الرغم من القوة العددية الكبيرة التي كانت مع آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد في معركة (الزاب) وهي المعركة الفاصلة التي انتهت بنهايتها دولة بني أمية وقامت بعدها دولة بني العباس عام (١٣٢هـ).

أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨/٧٥٤-٧٧٥م):

لما آلت الخلافة لأبي جعفر المنصور عام (١٣٦هـ/٧٥٤م) استهزلَّ عهده بخروج عمه (عبدالله بن علي) عليه. فندب أبا مسلم لقمع حركة عمه، وكان الوفاق بين أبي جعفر وأبي مسلم ما زال قائما، ولم تقع النفرة بينهما إلا بعد نجاح أبي مسلم في حملته هذه ضد عبدالله بن علي؛ إذ أرسل أبو جعفر لأبي مسلم يقطن بن موسى ليحصي أموال الغنائم، وهو ما رفضه أبو مسلم، معتبرا أن ذلك ليس من حق أمير المؤمنين، ولا من سلطته، وفي الوقت نفسه رأى المنصور أنه لن يكون حاكما فعليا إلا إذا أزال من طريقه، بل ومن الوجود كله أبا مسلم الخراساني.

وفعلا تخلص أبو جعفر المنصور من أبي مسلم الخراساني عام (١٣٧هـ/٧٥٥م)

دون أن يثير عمله هذا معارضة تذكر من أنصار أبي مسلم، في وقت كان بنو العباس قد بدأوا يكتسبون هالة من شرعية في عيون الرعية<sup>(١)</sup>.

وقد ظل المنصور طيلة حكمه يزاول السلطات الأمنية بنفس أسلوب بني أمية. فلم تزد سلطات وزير المنصور آنذاك (أبي أيوب المورياني) عن كونه مجرد حاجب تنفيذي لدى المنصور<sup>(٢)</sup>.

وفي عام (١٤٥هـ/٧٦٢م) قصى عيسى بن موسى ولي عهد الخليفة المنصور على ثورة قام بها العلويون بقيادة الأخوين محمد النفس الزكية في المدينة، وإبراهيم بن عبدالله بن الحسب في البصرة وقد قتل الأخوان<sup>(٣)</sup>.

ويقترن اسم المنصور بمدينة بغداد التي شيدها في عام (١٤٥هـ/٧٦٢م)، ويرجع سبب بنائه ها إلى أنه لما ثارت الراوندية في الهاشمية الواقعة بنواحي الكوفة كره المنصور سكانها، وكره أيضاً حوار أهل الكوفة؛ لأن الواحد منهم لا يأمن على نفسه كما أن الجند قد تناولوا وفسدوا<sup>(٤)</sup>. فخرج المنصور بنفسه يرتاد له موضعا يسكنه هو وجنده، فاهتدى إلى موضع بغداد الذي يجمع بين الماء والزروع في موقع يمكن أن تصل إليه السفن من الشام والرقعة، والميرة من الصين والهند والبصرة وواسط والموصل وأرمينية، وبين أنهار لا يصل إليها عدوه إلا على قنطرة، فأعجبه المكان، وعزم على اختياره لإنشاء بغداد، وتم البناء في سنة (١٤٦هـ/٧٦٣م)، وجعلها المنصور مدورة وفتح في سورها أربعة أبواب<sup>(٥)</sup>.

(١) محمد عبدالحى شعان: الثورة العباسية (ص٢٦٤).

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (٢/٤٢٤).

(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (٢/٢٧٦).

(٤) ابن طاباطبا: الأحكام السلطانية والدول الإسلامية (ص١٤٩) طبعة ١٩٣٨م.

(٥) ابن الأثير: الكاس في التاريخ (٥/٥٥٨)، المطبعة الأزهرية القاهرة ١٣٥٧هـ.

وفي وسط المدينة أقام قصره، والجامع، ودار حرسه، ومنازل أولاده، ومنازل من يقومون بخدمتهم، وقصور الأمراء ورجال الدولة، ودور الأهالي تتخللها الأسواق، وقد حرص على تحصينها؛ لتحاكي في العظمة والفخامة والمناعة مدينة القسطنطينية<sup>(١)</sup>.

وفي عهد المنصور غزا البيزنطيون بعض أراضي الشام في سنة (١٣٨/٧٥٥م) في عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس، واستولوا على ملطية وهدموا سورها، ولكن المنصور تمكن من استردادها في العام التالي، وأقام فيها حامية عسكرية كبيرة<sup>(٢)</sup>.

وفي عهده استقل عبدالرحمن بن معاوية - المعروف بعبدالرحمن الداخل - بالأندلس عن الخلافة العباسية، فأراد المنصور أن يقضي على سلطات عبدالرحمن الأموي فبعث العلاء بن مغيث اليحصبي إلى الأندلس لمحاربة عبدالرحمن الداخل، ولكن الأمير عبدالرحمن تمكن من إيقاع الهزيمة بالعباسيين في قرمونة<sup>(٣)</sup>.

وتوفي المنصور في سنة (١٥٨/٧٧٥م) بالقرب من مكة وهو في طريقه للحج<sup>(٤)</sup>. وتولى بعده ابنه الخليفة المهدي (١٥٨-١٦٩/٧٧٥-٧٨٥م) الذي نعمت الدولة في عهده بالسلام، وعكف على الفنون وخاصة العمارة، فأقام سور الرصافة، وبنى مسجدها، ووسع المسجد النبوي بالمدينة، وجمهه بالفسيفساء<sup>(٥)</sup>، وكان المهدي شديدا على أهل الضلال والزندقة، ولم تأخذه في إهلاكهم لومة

(١) السيد عبدالعزيز سالم: العصر العباسي الأول (ص ٦٤).

(٢) Theophanes: Chronographia. P.G.M. Tone. Cix. Paris. ١٨٦٤. col ٩١٢.

(٣) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأنديلس، بيروت ١٩٦٢، (ص ١٩٨).

(٤) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (٢/٣٩٢-٣٩٥).

(٥) المصدر السابق (٢/٣٩٦).

لائم<sup>(١)</sup>، وفي عهد المهدي ساءت العلاقات بين البيزنطيين والعباسيين، فلم تنقطع الحروب البرية والبحرية بينهما، فمذ عام (١٥٩هـ/٧٧٥م) توالى حملات المهدي على البيزنطيين، وقد ردَّ البيزنطيون على تلك الغارات، فأغاروا على مرعش وأحرقوها، فجعل المهدي ابنه هارون في حلب لمهاجمة البيزنطيين، وعمل هارون على مقاتلتهم، فوصل جيشه إلى سواحل البسفور، وأرغم الإمبراطورة (إيرين) لوصيةً على ابنها قنسطنطين السادس، على أن تدفع للمسلمين مبلغاً قدره سبعون ألف دينار سنوياً، وعقدت الهدنة بين (المهدي) و(إيرين) لمدة ثلاث سنوات<sup>(٢)</sup>.

وتوفى المهدي عام (١٦٩هـ/٧٨٥م) وتولى ابنه المهدي الخليفة (١٦٩-١٧٠هـ/٧٨٥-٧٨٦م) وفي عهده التصير ضعفت الخلافة العباسية، فقد أصبحت أموال الدولة تصرف على المقرين والمتصلين بالخليفة من الشعراء وغيرهم، كذلك بدأ نساء القصر يتدخلن في شؤون الدولة، مما قتل هيبتها<sup>(٣)</sup>، وبدأت ظاهرة استقلال الأطراف في الدولة العباسية في الظهور، وقامت في الداخل ثورات العلويين والزنادقة<sup>(٤)</sup>.

هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٨٧٦-٨٠٩م):

هو أبو جعفر هارون بن محمد لمهدي، من أعظم خلفاء الدولة العباسية وأكثرهم ذكراً في التاريخ الإسلامي؛ لما اتصف به من كرم وجود، ونا وصنت إليه الدولة الإسلامية في عهده من نهضة حضارية بلغت الأوج، فقد أصبحت عداد في أيامه كعبة العلم والأدب ومركز التجارة والصناعة، حتى أصبح اسمه

(١) ابن طباطبا الأحكام السطانية والدول الإسلامية (ص ١٦١)، السيد عبدالعزيز سالم: العصر العباسي الأول (ص ٦٦-٦٧).

(٢) Theophanes: OP. Cit., Col ٩٢٠-٩٢٢. Bar Hebraeus: Chronography. Tv from the syrian by (٢) E.A. Wa lis Bidge London ١٩٣٧. PP. ١١٦-١١٨. تاريخ الرسل والمنوك (١٥٢-١٥٣).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٦/١٠٠ وما بعدها)، السيوطي: تاريخ الخلفاء (ص ١٦) وما بينها.

(٤) ابن الأثير: الكامل (٦/٨٩)، السيد عبدالعزيز سالم: العصر العباسي الأول (ص ٦٨-٦٩).

مقرونًا بعبارة: (العهد الذهبي)، وظهر في أيامه شعراء عظام أمثال: (أبو العتاهية) و(العباس بن الأحنف) و(مروان بن أبي حفصة). ومؤرخون أمثال: الأصمعي والواقدي. وفي عهده ظهر التأثير الفارسي في الحياة الاجتماعية، فاحتفل الناس بالأعياد الفارسية القديمة كالنوروز الذي أصبح يحتل منذ قيام الدولة العباسية ما كان له من عظمة وروعة، ولم يقتصر الاحتفال بهذا العيد على الفرس حسب تقاليدهم القديمة، بل أصبح عيدًا شعبيًا عامًا، كما احتفل به الخلفاء احتفالاً رسميًا<sup>(١)</sup>، وأصبحت الأزياء تتبع الخط الفارسي، كما انتشرت الأطعمة والأشربة الفارسية، ومن أنواع الأطعمة الفارسية التي شاعت في هذا العصر المأكولات الفارسية مثل السكباج والإسفديجاج، ومن أمثلة الحلوى الفارسية الفالودج والخشكناج<sup>(٢)</sup>.

ويتميز عصر الرشيد بقيام عدة ثورات: منها ثورات العرب في الشام ومصر والموصل، وفننة الخوارج في الجزيرة، وخروج العلويين في طبرستان وإفريقية<sup>(٣)</sup>.

وفي عصره نكب البرامكة سنة (١٨٧هـ/٨٠٢م)، وأساس هذه النكبة، هو ما أدركه الرشيد، وما يرجحه الواقع التاريخي، من أن البرامكة كانوا يطبقون سياسات تستهدف في النهاية التسلّط على الدولة والاستئثار بالنفوذ والسلطان، أو ما عير عنه بعض المؤرخين بأن البرامكة كانوا يشكلون دولة داخل دولة، وهذا ما تبرزه بكل وضوح عبارة صاحب الأغاني: "إن في دولة الرشيد دولة أخرى ملوكها البرامكة"<sup>(٤)</sup>.

ويبدو أن الرشيد كان واعيًا تمامًا بالأسلوب الذي استخدمه جدّه المنصور في مجاهدة أبي مسلم، وبالتالي فإنه سار على هديّه، وفي بضع ساعات من إحدى الليالي في شهر صفر سنة (١٨٧هـ/٨٠٢م) نجح الرشيد في القضاء على البرامكة

(١) فؤاد عبدالمعطي: النوروز وأثره في الأدب العربي، بيروت ١٩٧٢، (ص ٤٨).

(٢) السيد عبدالعزيز سالم: العصر العباسي الأول (ص ٧٠).

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٤) الأصفهاني: الأغاني (٤/٣٩)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠هـ/١٣٩٠م.

واستئصال خطرهم، فلا غرّو أن ينظر إلى هذا التصدي الموفق بأنه نجاح في حماية الدولة العباسية من الوقوع تحت سيطرة أسرة البرامكة الفارسية<sup>(١)</sup>.

أما عن علاقة الدولة العباسية بالدولة البيزنطية فقد كانت علاقة حرب بخلاف علاقتها بالدولة الكارولنجية التي ارتبطت عاھلها شارلمان (١٥١-١٩٩/٧٦٨-٨١٤م) مع هارون الرشيد بعلاقات المودة والصداقة، وتبادل الجانبان الهدايا والسفارات.

ومن المعروف أن هارون الرشيد قاد الحملات ضد البيزنطيين بنفسه، ففي سنة (١٨١/٧٩٧م) خرج على رأس جيش ضخم إلى آسيا الصغرى، وافتتح حصن الصفصاف، كما غزا قائده عبدالمك بن صالح بلاد البيزنطيين في نفس السنة، فبلغ أنقرة فاضطرت الإمبراطورة (إيرين) إلى شراء سلم مهين لبيزنطة من العباسيين<sup>(٢)</sup>.

وفي آخر شوال (١٨٦هـ) ٣١ أكتوبر (٨٠٢م) - وبينما إيرين تعاني المرض - تزعم نقفور المسئول عن الخزانة، ومعه سبعة من الخصيان ثورة أجبرت إيرين على التنازل، وفي اليوم التالي توج نقفور إمبراطورا (١٨٧-١٩٦هـ/٨٠٢-٨١١م)، ولم يكدهمضي وقت طويل منذ اعتلاء نقفور العرش حتى رفض مواصلة دفع الجزية المفروضة على (إيرين) إلى هارون الرشيد وفقاً للمعاهدة التي كانت قد عقدت بين الطرفين وأرسل خطاباً إلى هارون الرشيد ورد فيه:

"من نقفور ملك الروم إلى الرشيد ملك العرب، أما بعد:

فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ<sup>(٣)</sup>، وأقامت نفسها مقام

(١) السيد عبدالعزيز سالم: العصر العباسي لأول (٧١/٣).

(٢) Theophanes: Chronographia.. Col ٩٥٢-٩٥٣.

(٣) الرخ: له معنيان الأول: طائر ضحى في جزر بحر الصين، والثاني: قطعة من أدوات الشطرنج الكار. فالعني

الأول كناية عن القوة والعظمة، والثاني: يرمز لقطعة التي تمثل الملك، الأصهباني: الأغاني (٨/٢٣٩).

البيدق<sup>(١)</sup>، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن. فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها. وأفتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك"<sup>(٢)</sup>.

ويقال: إن هارون الرشيد حينما قرأ هذا الخطاب سيطر عليه الغضب حتى خشيه الحاضرون، وأمر بدواة وكتب على ظهر الخطاب:

"بسم الله الرحمن الرحيم. من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم. أما بعد: فقد قرأت كتابك، يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه لا ما تسمعه. والسلام"<sup>(٣)</sup>.

وعلى إثر ذلك زحف هارون الرشيد بجيوشه مخترباً آسيا الصغرى حتى نزل على هرقله، ففتحها وغنم غنائم كثيرة، وانتصر على انبزنطين في عدة مواقع، وأرغم الإمبراطور نقفور على إبرام معاهدة صلح تعهد له فيها بدفع الجزية من جديد<sup>(٤)</sup>. ولكن البيزنطين نقضوا هذه المعاهدة مرة ثانية، وهاجموا الدولة العباسية وهارون الرشيد في طريق عودته، وهزموا المسلمين في جنوبي آسيا الصغرى منتهزين انشغال الخليفة ببعض الفتن الداخلية، ولكن الرشيد خرج في سنة (٨١٩٠/٨٠٥م) وفتح هرقله والصفصاف وملقونية وغيرها، وأسر من البيزنطين ستة عشر ألفاً، وفرض عليهم جزية قدرها خمسون ألف دينار<sup>(٥)</sup>.

وتوفي هارون الرشيد وهو غاز بخراسان، فدفن بطوس في ٣ جمادى الآخرة سنة (٨١٩٣هـ)، وكان قد أوصى بولاية العهد لأولاده الثلاثة: الأمين (٨١٧٥/٧٩١م)، ثم المأمون (٨١٨٢/٧٩٨م)، ثم المؤمن (٨١٨٦/٨٠٢م)، وقد

(١) البيدق: من أدوات الشطرنج الصغار. النويري: نهاية الأرب (١٥٣/٢٢).

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٣٠٧/٨).

(٣) المصدر السابق (٣٠٨/٨).

(٤) النويري: نهاية الأدب (١٥٥/٢٢) وما بعدها.

(٥) Cadrenus: Historiarum Compendium. P.G.M Tone Cxxi - Cxxvii. Paris. ١٨٦٤. Cols ٩١٠-٩١٩.

قسم دولته بينهم، فعهد بالقسم الشرقي إلى المأمون، وبالجزيرة والعوادم إلى المؤمن، أما الأمين فتولى الشام والعراق إلى آخر المغرب<sup>(١)</sup>.

حرب الأخوين (١٩٣-١٩٨هـ/٨٠٨-٨١٣م):

عندما اعتلى الأمين عرش الخلافة العباسية (١٩٣-١٩٨هـ/٨٠٩-٨١٣م) لم يلتزم بوصية أبيه، فبايع ابنه موسى بالخلافة بدلاً من المأمون<sup>(٢)</sup>.

ولما علم المأمون بما أقدم عليه أخوه الأمين، كلف طاهر بن الحسين بمهمة محاربة محمد الأمين، وحشد قوات على حدود ولايته خراسان، وأمرهم بمنع أي فرد من العراق من الدخول إليه خراسان دون استجوابه؛ وذلك خوفاً من الدعايات السيئة التي قد تثير الخراسانيين، وتدفعهم للثورة والتمرد. أما الأمين فقد أخذ للأمر عدته، وأعد حملة بقيادة "علي بن عيسى بن ماهان" بعث بها إلى اري، وهناك التقت هذه الحملة بقوات لمأمون، ودارت بين الفريقين معارك الهزم في نهايتها جيش الأمين، وقتل قائد قوات الأمين "علي بن عيسى بن ماهان"<sup>(٣)</sup>.

ولما رأى الأمين تدهور الموقف، عمل على أن يبعث عدة جيوش من بغداد الواحد تلو الآخر، إلا أنها جميعاً لم يكتب لها التوفيق أو النصر على قوات المأمون واستطاع "طاهر بن الحسين" الاستيلاء على فارس وواسط والمدائن، وأنفذ الولاية إلى اليمامة والبحرين وعمان، ثم تقدم إلى بغداد نفسها، وحاصرها من ثلاث جهات لعدة أشهر، حتى نفذ ما كان لدى الأمين من مال، وضاق ذرعاً مما اضطره إلى بيع كل ما في خزائنه من متاع، وتحويل ما كان لديه من آنية الذهب والفضة إلى دراهم ودنانير، ليوزعها على جنوده وأعدائه<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن الأثير: الكامل (١٧٣/٦).

(٢) المصدر السابق (٣٤١/٩).

(٣) ابن طباطبا: الأحكام السلطانية والدولة الإسلامية (ص ١٩٣ وما يليها).

(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء (ص ٢٧٧-٢٧٨).

وبالطبع كان لابد لبغداد أن تصاب من مضارّ الحصار المضروب عليها من كلا الفريقين المتصارعين، خاصة بعد أن انضم إلى قوات الأمين المستون والرعا، الذين عاثوا في المدينة سلباً ونهباً وفساداً، وحاربوا "طاهر بن الحسين" بحماس شديد. أما بقية الجند فقد حل بهم الإعياء ودب بينهم شعور القنوط واليأس، فتقاعسوا عن مواصلة القتال مع الأمين، مما ساعد على ترجيح كفة قوات المأمون، وبدأت تتضح معالم الصورة التي سيتمخض عنها الصراع بين الأخوين. ذلك أن "طاهر بن الحسين" لم يهدأ ولم يكلّ عن مواصلة الحرب ضد الأمين وقواته، على الرغم مما تكبده من خسائر، فقد أمر بهدم وإحراق دور من يخالفه، ومنع الاشتغال بالتجارة في الأماكن التي سيطر عليها بقواته، وحول سفن البصرة وواسط إلى الفرات<sup>(١)</sup>.

ولذلك كله ساءت أحوال بغداد وغلت الأسعار، وضاق الناس ذرعاً بهذا الحصار، ورأى تجار الكرخ -إنقاذاً لمواقفهم- أن يعثوا لطاهر بن الحسين برسالة أوضحوا فيها محبتهم له وترحيبهم بالدخول في طاعته؛ "لما بلغهم عنه من إثاره لطاعة الله والعمل بالحق"<sup>(٢)</sup>، وهي في الواقع دعوة حق أريد بها باطل.

غير أن هذا الكتاب لم يكن له أثر في إنقاذهم من ويلات الحصار. فظل طاهر بن الحسين يحارب أتباع محمد الأمين ويتعقبهم، ونادى مناديه بالأمان لكل من لزم داره. واشتد الحصار حول الأمين، فمنع عنه الدقيق والماء، ولما رأى قواد محمد الأمين أنه لا قبل لهم بمقاومة الحصار، وخشوا وقوعهم في يد طاهر بن الحسين، أشاروا على الأمين بالانتقال إلى منطقة الجزيرة -الجزء الأعلى من بلاد العراق والشام- ليقيم هناك دولة جديدة، وليكون قريباً من أنصاره العرب<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن الأثير: الكامل (٦/٢٥٩-٢٦٠).

(٢) ابن طباطبا: الأحكام السلطانية والدولة الإسلامية (ص ١٩٥).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٦/٢٦٠).

وقد استحس الأمين رأي قواده، وعزم على تنفيذه، لكنه أفلح عن ذلك العزم، بتأثير فريق من قواده وكبار رجال بغداد، الذين هددهم ظاهر بن الحسين بمصادرة كل ممتلكاتهم وثروتهم، إذا ما أفلت الأمين أو هرب من بغداد. فاضطر الأمين - وقد تخرج موقفه بشدة بسبب قسوة الحصار المضروب حوله- إلى طلب الأمان، وخرج لمقابلة ظاهر بن الحسين لكن بعض أتباع ظاهر رشقوا سفينة الأمين في نهر دجلة -وهو بما- بالسهام والحجارة فغرقت السفينة وقفز الأمين في الماء، واستمر يسبح حتى وصل إلى البر الشرقي، ثم لحق به بعض الفرس في الدار التي آوى إليها وقتلوه أوائل سنة (١٩٨هـ/٨١٣م).

وبذلك انتهت خلافة الأمين التي دامت أربع سنوات، يقول عنه ابن العبري: "إنه في الجملة لم يوجد في سيرته ما يستحسن ذكره"<sup>(١)</sup>.  
المأمون "خليفة" (١٩٨-١٩٨هـ/٨١٣-٨٨٣م).

بالرغم من أن البيعة تمت للخليفة المأمون، وذلك عقب مقتل أخيه "محمد الأمين" إلا أن الفوضى استمرت لسنوات عديدة في أرجاء الدولة العباسية نتيجة الحرب بين الأخوين، بل تفرعت عنها مشاكل أخرى عديدة، مثل: ثورة إبراهيم بن المهدي في عام (٢٠١هـ/٨١٧م)<sup>(٢)</sup>، كما قامت دولة مستقلة عن الخلافة العباسية هي الدولة الظاهرية (٢٠٥-٢٥٩هـ/٨٢٠-٨٧٢م)<sup>(٣)</sup>، كذلك دخل الأندلسيون مدينة الإسكندرية إلى أن تمكن عبدالله بن ظاهر من إخراجهم إلى كريت بعد ذلك<sup>(٤)</sup>، كذلك حاول والي مصر عبدالعزيز الجروي الاستقلال بمصر<sup>(٥)</sup>.

(١) Bar Hebraeus: The Chronographia. P. ١٣١.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (١٧٦-١٧٧).

(٣) المصدر السابق: (١٨٣-١٨٥).

(٤) الكندي: الولاة والقضاة (ص١٨٣-١٨٤)، بيروت ١٩٠٨م.

(٥) المصدر السابق (ص١٧٠).

وكان الأهم من ذلك كله انقسام الناس إلى فريقين: الأول أنصار العنصر العربي الذي كان يؤيد الأمين على اعتبار أنه هاشمي الأبوين؛ والثاني أنصار العنصر الفارسي الذي كان يؤيد المأمون على اعتبار أن أمه فارسية<sup>(١)</sup>.

وقد انحاز المأمون للعنصر الفارسي فقد اتخذ من الفارسيّ الفضل بن سهل وزيراً له، ولقبه بزدي الرياستين لجمعه بين السيف والقلم، كما أسند لأخيه الحسن بن سهل ولاية العراق، وأصبح بنو سهل وأهل خراسان - وهم من الفرس - يسيطرون على أمور الخلافة، ومما يذكر أيضاً أن المأمون قد أقام في خراسان، واتخذ من مرو عاصمة له؛ لذا قامت العناصر العربية بثورة بقيادة (نصر بن سيار بن شيث العقيلي) الذي استولى على سميساط<sup>(٢)</sup> وهدد الخلافة العباسية بعد أن اجتاح شرق الفرات، فندب المأمون قائده طاهر بن الحسين لمحاربهه لكن طاهراً تخاذل في قتاله في البداية لأسباب تتعلق بأطماعه في العراق، ولقي نصر حتفه بعد ذلك، وانتهت الثورة<sup>(٣)</sup>.

وأخطر ما في هذه الثورة، أن زعيمها كاد يعقد تحالفاً مع الإمبراطور ميخائيل الأول رانجاي، فكتب خطاباً بهذا المعنى إلى أحد البطاركة البيزنطيين ويدعى (مانويل). وما إن علم الإمبراطور بهذه الرغبة حتى أرسل إليه رسله، فوصلوا إلى كيسوم، إلا أنهم وجدوه قد خرج إلى سروج، وكان أنصار (نصر بن سيار) قد عارضوا فكرة التحالف مع بيزنطة<sup>(٤)</sup> فافتنع نصر بذلك، بل وأسرع بقتل رسل الإمبراطور الذين كانوا في انتظاره في كيسوم<sup>(٥)</sup>.

(١) المسعودي: التنبيه والإشراف (ص ٣٤٩).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٦/٢٩٧، ٣٠٨).

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٨/٥٢٧). ابن الأثير: الكامل (٦/٢٩٧-٣٠٨).

(٤) Michal le Syrien: Chronique., Tome III. PP. ٣٦-٣٧.

(٥) Ibid: PP. ٣٧-٣٨.

ومن أبرز ما يذكر للخليفة المأمون ثقافته الرفيعة وحبه للعلم وخدماته الثقافية التي جعلته في القمة بين الخلفاء المسلمين، فقد جمع في بيت الحكمة كنوز العلوم الأجنبية، وأمر بأن تشتري وتجمع له المؤلفات الأجنبية، ثم أمر بترجمتها إلى اللغة العربية وفي عهده ظهر الفيلسوف العربي الكبير: "الكندي" الذي كتب في عدة علوم، وترجم الحجاج بن يوسف بن مطر للمأمون: مصنفات إقليدس وكتاب بطليموس الشهير عند العرب بالمجسطي<sup>(١)</sup>.

وكان العفو من أبرز صفات المأمون، وهو كما يصفه شيخ كوفي: "يوسف العفو في قلة التثريب"<sup>(٢)</sup>. وقد عفا المأمون في مواضع قل من يعفو في نظائرها، وعفا عن أشخاص جلت ذنوبهم وعظمت جريرتهم إليه، وكان يقول: لو عرف الناس حيي للعفو لتقربوا إلي بالذنوب ولا معنى لعقوبة بعد قدرة<sup>(٣)</sup>.

ومن المسائل التي أثرت في عهد المأمون مسألة خلق القرآن، أو محنة خلق القرآن كما اصطُح على تسميتها -وهي من مثالب المأمون التي تؤخذ عليه-، وقد وقف فيها المعتزلة مؤيدين بالمأمون ضد أهل السنة والمحدثين الذين رفضوا فكرة خلق القرآن، وأهان المأمون الإمام أحمد بن حنبل وسامه سوء العذاب<sup>(٤)</sup>.

وفي عهد المأمون قامت في الدولة البيزنطية ثورة يترجمها "توماس الصقلي" ضد الإمبراطور البيزنطي "ميخائيل الثاني" في سنة (٢٠١هـ/٨٢١م) كادت تطيح بعرش الإمبراطور، وقد أيد المأمون ثورة توماس وأمدّها بقوة إسلامية مقابل أن يتنازل له توماس -بعد أن يتحقق هدفه- عن بعض الحصون البيزنطية، ولكن

(١) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي (٣/١٨٠).

(٢) المسعودي: مروج الذهب (٢/٣١٩).

(٣) الفخري: الآداب السلطانية (ص١٩٥).

(٤) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي (٣/١٨٠).

ثورة توماس فشلت بعد عامين في سنة (٢٠٣/٥٢٣م)<sup>(١)</sup>.

أبو إسحاق محمد المعتصم (٢١٨-٥٢٧/٨٨٣-٤٢م):

هو ابن الخليفة هارون الرشيد من ماردة التركية، بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه المأمون وهو في غزوته الأخيرة إلى الدولة البيزنطية في رجب سنة (٥٢١٨/٨٣٣م)<sup>(٢)</sup>.

وقد سار المعتصم على سياسة المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن، فأهان ابن حنبل إهانة بالغة<sup>(٣)</sup>، كذلك تشدد المعتصم مع العلويين، فتخلص بالقتل من الإمام محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى في الخامس من ذي الحجة سنة (٥٢١٩/٨٣٤م)<sup>(٤)</sup>، كذلك قبض على محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن الحسين العلوي فسجنه ثم قتله<sup>(٥)</sup>.

وكان المعتصم شجاعاً قوياً من أشد الناس بطشاً، وكان قائداً موفقاً في حروبه، حتى لقد استحق لقب الخليفة القائد، وهو أول من أدخل الأتراك في الديوان، وكان يتشبه بملوك الأعاجم، ويمشي مشيتهم<sup>(٦)</sup>، واعتمد المعتصم اعتماداً كلياً على الجيش<sup>(٧)</sup>، وأسقط العرب من ديوان العطاء، وأهمل الفرس فقويت شوكة الأتراك، وارتكبوا الكثير من أعمال الشغب ببغداد، مما أثار عليهم العامة<sup>(٨)</sup>، فاضطر المعتصم إلى تأسيس مدينة تسع لجنده الأتراك، فأسس مدينة سامرا في

(١) Symeon Nagister: Chronographia. P.G.M. Tome. Cix. Paris ١٨٦٣. Col. ٩٢٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل (٤٤٥/٦).

(٣) المصدر السابق: (٤٤٦/٦).

(٤) المسعودي: مروج الذهب (٤٦٤/٣-٤٦٥).

(٥) المصدر السابق (٤٩٠/٣).

(٦) السيد عبدالعزيز سالم: العصر العباسي الأول (ص ٩٢).

(٧) المسعودي: مروج الذهب (٤٦٥/٣).

(٨) المصدر السابق (٤٦٦/٣).

سنة (٥٢٢١/٨٣٦م)، وانتهى من بنائها في عام (٥٢٢٣/٨٣٧م)، وأقام فيها مسجداً جامعاً، وأفرد سوقاً لأرباب الحرف ولصاعات، ونقل إليها الأشجار والثمار، وأقام القصور العظيمة التي بلغ عددها سبعة عشر قصر<sup>(١)</sup>.

وفي عهد المعتصم ازداد خطر الرنديق (بابك الخرمي) الذي لاذ بالأقاليم الجبلية الشمالية الشرقية منذ سنة (٥٢٢١/٨٣٦م)، ولكن المعتصم وضع كل إمكاناته العسكرية للقضاء عليه، وعهد بهذه المهمة إلى قائده الأفشين الذي نجح في القبض عليه، وسيره إلى الخليفة بسامرا حيث قتل شر قتلة في سنة (٥٢٢٣/٨٣٧م)<sup>(٢)</sup>.

والمعتصم هو بطل موقعة (عمورية)، ففي عهده ساءت العلاقات بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية، وكان الإمبراطور البيزنطي (ثيوفيل) يُعين بابك الخرمي بمعونات عسكرية؛ انتقاماً لما فعله العباسيون زمن المأمون من مساعدته لتوماس الصقلي، فقد أغار البيزنطيون في سنة (٥٢٢٣/٨٣٧م) على مدينة عمورية، وفتحوها بالسيف، ثم أغاروا على ملطية وقتلوا ونهبوا وسبوا، فاستنفر المعتصم قواته، وسار على رأس جيش ضخم يقوده الأفشين وأشناس، وتمكن من هزيمة الإمبراطور البيزنطي في أنقرة، ثم حاصر عمورية ودخلها بالسيف، وتركها أربعة أيام نهباً للسلب والتدمير، وأراد المسير إلى القسطنطينية ومحاصرتها برا وبحرا، فبلغه عزم العباس بن المأمون على الخروج عليه ومكاتبة الإمبراطور البيزنطي، فعجل المعتصم في مسيره، وقبض على العباس وأنصاره، وفي منبج منع عنه الماء فمات بها<sup>(٣)</sup>.

وفي أيام المعتصم خرج (المازيار بن قارن) صاحب جبال طبرستان - وكان

(١) يعقوبي: تاريخ يعقوبي (٤٧٤/٢).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٤٧٨/٦).

(٣) Genesis. J: Historia De Rebus Constant nopolitanis., P.G.M., Tome.

Cix., Paris. ١٨٦٣. Col. ١٠٢٤-١٠٢٦. تاريخ يعقوبي: (٤٧٦/٢)

على ما يظهر من الحرّمية - على المعتصم في سنة (٨٢٢٤/٨٣٨م)، وتمكن الحسن بن الحسين من أسره وقتله<sup>(١)</sup>.

وفي أيام المعتصم خرج أيضًا أبو حرب المبرقع اليماني بفلسطين سنة (٨٤٠/٨٢٦م)، وتوفى المعتصم ولم يكن قد انتهى بعد أمر أبي حرب المبرقع اليماني، وتمكن رجاء بن أيوب من أسره وقتله في عهد الواثق بالله<sup>(٢)</sup>.

الواثق بالله (٢٢٧-٢٣٢/٨٤٢-٨٤٧م):

هو أبو جعفر الواثق بالله هارون بن المعتصم، وأمه أم ولد رومية اسمها قراطيس، وكان الواثق يشارك أباه المعتصم في ميوله وآرائه الفلسفية، فتشدد مع الفقهاء، وألزمهم باعتناق آرائه، وانتصر للمعتزلة<sup>(٣)</sup>، وقد أثار بهذه السياسة مشاعر أهل بغداد، فسخطوا عليه، وأنكروا القول بخلق القرآن، وتزعم هذه الحركة أحمد بن نصر الخزاعي في سنة (٨٤٦/٨٢٣١م)، ولكن الواثق توصل إلى القبض على زعماء الحركة، وجلس لهم مجلسًا عامًا فيه أحمد بن أبي داود قاضي القضاة، وناظر أحمد بن نصر في مشكلة خلق القرآن، فأنكر عليه ابن نصر ذلك، فقام إلى سيف يقال له الصمصامة وضربه على رقبة ثم طعنه بطرف سيفه في بطنه وأمر بصلب رأسه عند باب الخزمية ببغداد<sup>(٤)</sup>.

وبوفاة الواثق في سنة (٨٤٧/٨٢٣٢م) ينتهي خلفاء العصر العباسي الأول<sup>(٥)</sup>.

الدولة العباسية في عصرها الثاني (٢٣٢-٨٤٦/٨٥٩٠-١١٩٣م):

لقد تميز العصر العباسي الثاني بسيطرة ثلاث قوى متتالية على الخلفاء

(١) المسعودي: مروج الذهب (٣/٤٧٤).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٧/٢٢٢).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٧/٢٢٢).

(٤) السيوطي: حسن المحاضرة (ص ٣١٥).

(٥) السيد عبدالعزيز سالم: العصر العباسي (ص ٩٥)، صابر محمد دياب حسين: دراسات في تاريخ الدولة

الإسلامية (العصر العباسي) (ص ١٢١)، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي (٣/٢٠).

العباسيين ممثلة في الأتراك ثم بني بويه والسلاجقة، وخلال فترات هذا التسلط وقع التفكك الذي تكونت بسببه الدول المستقلة.

### أولاً: الأتراك:

لقد تميز العصر العباسي الثاني باعتماد الخلافة على الترك وعناصر أخرى في الجيش والبلاط، ثم ازدياد نفوذهم وسيطرتهم على مقاليد الحكم.

وقد ازداد اهتمام خلفاء بني العباس بالترك، إلى أن جاء المعتصم بالله (٢١٨-٢٢٧/٨٣٣-٨٤١م) فتوسع في استعمال الترك في الجيش؛ لما تميزوا به من البأس والجرأة والشجاعة والإقدام، إلى جانب أجناس أخرى كالعرب (اليمانية والقيسية)<sup>(١)</sup>، وعلى هذا فلم يقتصر الجيش العباسي في عهد المعتصم على الترك دون غيرهم، وبالتالي فليس من الصحيح تعليل كل المصائب والأزمات التي حلت بالخلافة العباسية بتدخل الأتراك في السيادة والحكم، فقد كانت هناك عوامل أخرى. وعليه لا يمكن تحميل الترك وحدهم مسؤولية تصدع الخلافة العباسية؛ إذ لم يزد وضعهم عن كونهم أحد اثنين:

- ١- إما طبقة من المماليك خدمت الخلافة العباسية وتدرج بعض أفرادها حتى وصلوا إلى أرفع المناصب، مثلهم مثل الفرس من قبلهم أمثال البرامكة وآل سهل، وقد تحكّم بعض الترك في الحكم فأساءوا إلى الخلافة والسلطة.
- ٢- وإما أنهم منقذون للخلافة العباسية من الديلمة، الذين جاء بهم البويهيون، والدخلاء، ومن البيزنطيين والصليبيين، ونخص هنا بالذكر السلاجقة ومن تبعهم من الأتابكة. ولعل الصورة التي رسمها لنا المؤرخون العرب المحدثون، وتسمية العصر بعصر النفوذ التركي، تعد أمراً غير مقبول على إطلاقه وبخاصة في العصر العباسي الثاني.

ذلك أن الظروف التي مرت بها الخلافة العباسية -منذ الحرب الأهلية بين

(١) صابر محمد دياب حسين: دراسات في تاريخ اندولة الإسلامية (العصر العباسي) (ص ١٥٠-١٥١).

الأمين والمأمون وحتى خلافة المتوكل (١٩٣-١٩٣٢هـ/٨٠٨-٨٤٦م) - هي التي أدت لاستخدام العنصر (التركي) الجديد؛ لأن حياة الاستقرار والازدهار الاقتصادي النسبي، عودت الناس على حياة التحضر والترف والدعة، حيث لم يعد سكان العراق عنصراً محارباً يُعتمد عليه، مما حدا بالعباسيين إلى البحث عن عنصر جديد قوي ومحارب، فوجدوا ضالّتهم في سكان بلاد ما وراء النهر وتركستان<sup>(١)</sup>.

### الظهور الحقيقي للأتراك على المسرح السياسي العباسي:

وعلى أي حال فقد فتح المعتصم الطريق للترك ليصلوا إلى جيش الخلافة العباسية، وقد استقدمهم المعتصم من بلاد ما وراء النهر، وبدأ بأن أسند لهم أمر سلامته الشخصية فجعل منهم حرسه الخاص، ثم أدخلهم في جيشه المحارب واستطاعوا بشجاعتهم وبطولاتهم أن ينالوا تقدير الخليفة، وأن يصلوا إلى القمة في أمور الحرب، وحرصاً على مكائهم عملوا على إسقاط أسماء كثيرين من العرب من الجيش الإسلامي؛ ليخلو لهم الجو، وأهم القادة الأتراك في عهد المعتصم (الأفشين، وإيتاخ وأشناس وبُغا الكبير).

وقد بدأ شرّ الأتراك يظهر في عهد المعتصم فاعتدوا على كثير من الناس في بغداد، واعتدى الناس عليهم، ولما كثرت الشكوى منهم بنى المعتصم مدينة سامرا وانتقل إليها ونقل إليها جيشه. وعلى كل فإن شخصية المعتصم لم تدع للأتراك فرصة للطغيان<sup>(٢)</sup>.

### الأتراك بعد المعتصم:

وصل القواد الأتراك في عهد الواثق إلى مكانة مرموقة، وقد خلع الواثق على أشناس لقب السلطان، وبذلك اعترف له بحقوق تعدو نطاق المهام العسكرية الخاصة، فلما توفي الواثق في سن مبكرة كان (وصيف) - الذي خلف أشناس -

(١) المرجع السابق (ص ١٥١-١٥٢).

(٢) أحمد شلي: موسوعة التاريخ الإسلامي (٣/٣٩٩-٤٠١).

قد أمسى من القوة بحيث يستطيع أن يرفع إلى العرش الرجل الذي يرتضيه، وبخاصة أن الواثق لم يختار أحدا لولاية عهده، وقد نَصَّبَ (وصيف) بادئ الأمر محمد بن الواثق خليفة للمسلمين، وكان لا يزال دون سن الرشد، ولكنه سرعان ما استبدل به عمه جعفر المتوكل على الله، وقد حاول الخليفة الجديد أن يتخلص من صانعي الملوك، فأوقع بابين الزيات، وقضى على إيتاخ، ولكن محاولته لم تتم؛ لأن الأتراك ثاروا ضده مع ابنه المنتصر واستطاعوا قتله، واكمل لهم بذلك السلطان وبدأ عصر ضعف الخلافة<sup>(١)</sup>.

ومن زعماء الأتراك الذين ظهروا في هذا العصر غير الذين مر ذكرهم (بغا الصغير) المعروف (بالشرابي)، وقد عاصر المتوكل والمنتصر، وفي عهد المستعين ظهر (بايكباك) وأتامش وسيما الشرابي وكلباتكين)، وفي عهد المعتز ظهر (صالح بن وصيف وموسى بن بغا)، وفي عهد المهدي برز (مفلح)، وفي عهد المقتدر ظهر (مؤنس المظفر)<sup>(٢)</sup>.

وقد احتفظ هؤلاء الزعماء بقيادة الجيش، وأحيانا تولى بعضهم الوزارة مثل أتامش الذي تولى وزارة المستعين، وعن طريق قيادة الجيش كان للأتراك السلطان الكامل تقريبا في شؤون القصر وشؤون الدولة فيما عدا فترة خلافة المعتمد والمعتضد.

خلفاء هذا العصر:

المتوكل	(٢٣٢-٥٢٤٧/٨٤٦-٨٦١م).
المنتصر	(٢٤٧-٥٢٤٨/٨٦١-٨٦٢م).
المستعين	(٢٤٨-٥٢٥٢/٨٦٢-٨٦٦م).
المعتز	(٢٥٢-٥٢٥٥/٨٦٦-٨٦٨م).
المهدي	(٢٥٥-٥٢٥٦/٨٦٨-٨٦٩م).

(١) المرجع السابق (٣/٤٠١).

(٢) المرجع السابق (٣/٤٠٢).

المعتد	(٢٥٦-٥٢٧٩/٨٦٩-٨٩٢م)
المعتضد	(٢٧٩-٥٢٨٩/٨٩٢-٩٠١م)
المكتفي	(٢٨٩-٥٢٩٥/٩٠١-٩٠٧م)
المقتدر	(٢٩٥-٥٣٢٠/٩٠٧-٩٣٢م)
القاهر	(٣٢٠-٥٣٢٢/٩٣٢-٩٣٣م)
الراضي	(٥٣٢٢-٥٣٢٩/٩٣٣-٩٤٠م)
المتقي	(٣٢٩-٥٣٣٣/٩٤٠-٩٤٤م)
المستكفي	(٣٣٣-٥٣٣٤/٩٤٤-٩٤٥م)

وقد عاصر المستكفي آخر نفوذ عهد الأتراك ومطلع نفوذ البويهيين.

ولقد كانت نهاية معظم خلفاء هذا العصر أليمة. فقد هجم الأتراك على الخليفة المتوكل وقتلوه، وقد استمر الاعتداء القاسي الظالم المتهور على الخلفاء طيلة سيطرة الأتراك، وامتد إلى عصر البويهيين، فتعرض الخلفاء خلال هذين العهدين بسبب وغير سبب إلى عنف شديد، شمل القتل وسمل العينين والإيقاف في الشمس المحرقة، والضرب، وكان خلع الخلفاء أيسر ما ينزل بهم، وقل من الخلفاء من نجا من هذا المصير. وقد دون السيوطي وابن طباطبا صوراً من هذه النهايات الأليمة. ومن الذين مسهم هذا الهوان المعتز بالله الذي أوقف في الشمس وضرب ثم قتل صبراً، والمقتدر الذي قُطعت رأسه وألقيت جثته بالطريق عدة أيام، والقاهر الذي خلع، والمستكفي الذي خلع وسُملت عيناه واعتقل حتى مات، والطائع الذي قبض عليه بقسوة وخلع<sup>(١)</sup>.

### أهم أحداث العصر:

بالإضافة إلى سلطان الأتراك الذي طغى على سلطان الخلفاء، هناك أحداث

هامة وقعت في هذا العصر، نلم بها فيما يلي ومنها:

(١) انظر: السيوطي تاريخ الخلفاء، والفجري: الآداب السلطانية عن نهاية كل من خلفاء هذين العهدين.

١- صحوة الخلافة: كانت المشاغبات والمؤامرات والفتن طابع هذا العصر، وتوالت انتصارات صاحب الزنج -الذي ستحدث عنه فيما بعد- وكثرت الحركات الاستقلالية، واختل النظام، كما اختتم ميزانية الدولة، لذلك اتفق الأتراك فيما بينهم على ترك قيادة الجيش لأحد العباسيين ليكون له السلطان عليهم رغبة في تهدئة الأحوال، ومن هنا تركوا للخليفة المعتمد أن يختار قائد الجيش من أسرته، فاختار أخاه الموفق، واسترجع العباسيون بذلك السلطان من الأتراك، وتعتبر هذه الفترة صحوة الخلافة العباسية، وبعد وفاة الموفق تولى ابنه المعتضد قيادة الجيش، فلما توفي عمه الخليفة نودي بالمعتضد خليفة للمسلمين، وكانت صحوة بني العباس هذه من سنة (٢٥٦هـ) (٢٨٩هـ ٩٠١م)، وعاد بنو العباس بعد المعتضد إلى ضعفهم ولكن السلطان لم يعد للأتراك على نحو ما كان عليه من قبل، فقد برزت سلطة نساء القصر، كما برز منصب أمير الأمراء الذي تركزت فيه السلطة، ولم يكن هذا المنصب خاصا بالأتراك، وإنما قفز له رجال من هنا وهناك<sup>(١)</sup>.

٢- ثورة الزنج: بدأت في منطقة البصرة وواسط التي تعج بألاف الزوج الإفريقيين الذين كانوا أرقاء أو أجراء لدى كبار الملاك في هذه المنطقة، وزعيمهم رجل فارسي اسمه (علي بن محمد) ادعى أنه رسول العناية الإلهية لتحريرهم، وبدأت معارك ضارية بينه وبين جيوش الخلافة العباسية، وقتل القائد التركي (جعلان) في إحدى معاركه ضد صاحب الزنج، وكانت ثورة الزنج مدمرة تحرق المدن وتبهد الزرع، وقد استولى الزوج على مدينة الأبله، والأهواز وواسط والبصرة وعبادان، واتخذوا مدينة (المختارة) عاصمة لهم. ولجأ الخليفة المعتمد إلى أخيه الموفق ليحارب الزنج فابتنى قلعة تراجة مدينة المختارة، وأقام كل فريق يربط

(١) أحمد شبي: الموسوعة (٣/٤٠٥-٤٠٦).

ضد الفريق الآخر، وفي آخر الأمر كانت الغلبة للجيش العباسي الذي أباد الزنج قتلاً وأسراً، وقتل صاحب الزنج ودمرت مدينته، وقد استمرت ثورة الزنج أكثر من أربعة عشر عاماً (٢٥٥-٥٢٧/٨٦٨-٨٨٣م)<sup>(١)</sup>.

٣- هناك دول استقلت خلال هذا العصر ومثلت ظاهرة استقلالية، ومنها: الصفارية بفارس، والسامانية بخراسان، والزيدية بطبرستان والري والجليل، واليعفرية بصنعاء، والحمدانيون بالموصل وحلب، والطولونيون والإخشيديون بمصر والشام، والفاطميون في الشمال الإفريقي، ولم يبق في يد الخليفة وابن رائق غير السواد والعراق<sup>(٢)</sup>.

٤- زواج قطر الندى ابنة خمارويه من الخليفة المعتضد: ويعدّ من الأحداث الاجتماعية البارزة، وتعدّ هذه الزيجة من أبرز الزيجات التي دونها التاريخ ولا يضاهاها في عظمتها ومواكبها وما أنفق عليها إلا زواج الرشيد من زبيدة بنت الخليفة المهدي، وزواج المأمون من بوران بنت الحسن بن سهل، وإنه ليعدّ من الإسراف والتبذير الشديد ما أنفقه آباء الزوجات الثلاث في هذه المناسبات<sup>(٣)</sup>.

ثانياً: بنو بويه:

نشأهم:

بنو بويه من بلاد الديلم أو من بلاد جيلان الواقعة في الجنوب الغربي من بحر قزوين، وقد فتح المسلمون هذه البلاد زمن الخليفة عمر بن الخطاب، وظل أهلها على ديانتهم القديمة، والبويهيون ينتسبون إلى جدّهم بويه بن فناخسرو الملقب بأبي شجاع وأولادهم علي والحسن وأحمد، وكانوا جميعاً جنوداً مغامرين<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن طباطبا: الأحكام السلطانية والدولة الإسلامية (ص ٢٢١ وما يليها).

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء (ص ٢٢٣-٢٢٤).

(٣) المقرئزي: الخطط (١/٢١٩). أحمد شليبي: الموسوعة (٣/٤١١-٤١٣).

(٤) محمد حسين الزبيدي: العراق في العصر البويهي، نشر دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٩م (ص ٢٩-٣٣).

وكانت الأحوال - كما قلنا - قد ساءت في بغداد، وضعف الأتراك وأمراء الأمراء عن تسيير دفة الأمور على نحو ما ذكرنا من قبل. وفي سنة (٥٣٣٤/٩٤٥م) كتب قادة بغداد إلى أحمد بن بويه ليدخل بغداد ويتولى السلطان بها، ففعل، وقد رحّب به الخليفة العباسي وعينه "أمير الأمراء" وخلع عليه ولقبه معز الدولة، ولقب أنحاء عليا عماد الدولة، والحسن ركن الدولة<sup>(١)</sup>، وخضع خلفاء بني العباس حيناً من الزمن لبني بويه، وأصبح مصير العالم الإسلامي مرتبطاً بمؤلاء السلاطين الجدد، ولم يبق للخلفاء معهم نفوذ ولا سلطان، وذهبت هيئة الخلافة طيلة هذا العهد<sup>(٢)</sup>. ويقول في ذلك ابن الأثير: "وإزداد أمر الخلافة إدياراً، ولم يبق لهم من الأمر شيء البتة، وقد كانوا يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل واحرمة قائمة بعض الشيء. فلما كانت أيام "معز الدولة" زال ذلك جميعه، بحيث إن الخليفة لم يبق له وزير، وإنما كان له كاتب يدير إقطاعاته وإخراجاته لا غير، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزرُ لنفسه من يريد"<sup>(٣)</sup>.

وكان من أهم أسباب سوء معاملة البويهيين للخلفاء العباسيين تعصبهم للشيعه، وقد حاول معز الدولة أن ينقل الخلافة لأحد العلويين، لولا تحذير بعض خواصه من مغبة هذا العمل؛ لأن عامة الناس اعتادوا الدعوة العباسية ودانوا للعباسيين طاعة منهم لله ورسوله<sup>(٤)</sup>، ولذلك ألق معز الدولة عن عزمه في ذلك، وفضل أن يستبد بالسلطة بجانب خليفة عباسي ضعيف، على أن يكون تابعا لخليفة قوي يعترف بإمامته<sup>(٥)</sup>.

ولم يراع البويهيون في معاملتهم للخلفاء العباسيين ما لهم من حرمة، فأقدم

(١) ابن الأثير: الكامل (٦/٣١٤-٣١٥).

(٢) محمد حسين الزبيدي: العراق في العصر (ص ٦١).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٦/٣١٥).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) صابر محمد دياب حسين: دراستاً في تاريخ الدولة الإسلامية (العصر العباسي) (ص ٣٧٣).

معز الدولة ابن بويه بعد دخول بغداد على خلع الخليفة "المستكفي" لآتهامه بالتآمر عليه والاستنجد بالحمدانيين، وقد جرى هذا الخلع بصورة مهينة ومزرية؛ فقد أحضر المستكفي وشهد على نفسه بالخلع، وسملت عيناه، وظل معتقلاً حتى توفي عام (١٩٤٩/٥٣٣٨م)<sup>(١)</sup>، وفي هذا أبلغ دليل على مدى ما وصلت إليه الخلافة من تدهور وانحيار. ولا غرو فقد كانت سياسة البويهيين مع الخلفاء العباسيين تنطوي على إضعاف نفوذهم والاستئثار دونهم بالسلطة والنفوذ والحكم<sup>(٢)</sup>، كما شاركوهم في شارات الخلافة التي كانت تمثل السلطة السياسية، فصارت أسماءهم تذكر إلى جانب اسم الخليفة في الخطبة منذ عهد عضد الدولة. كما سُكَّتْ أسماءهم على العملة مع اسم الخليفة، وحذفوا لقب "أمير المؤمنين" من السكة، واكتفوا بذكر اسم الخليفة مجرداً من اللقب، بينما حرصوا على ذكر أسمائهم وكناهم وألقابهم<sup>(٣)</sup>، ولم يبق بيد الخليفة من شارات الخلافة شيء سوى نفوذه الديني الذي تمسك به الخليفة العباسي "القائم بأمر الله" واعتبره السلاح القوي الذي يقاوم به استئثار البويهيين بالسلطة، الأمر الذي أوضحه البيروني قائلاً: "إن الدولة والملك قد انتقلا من آل العباس إلى آل بويه، والذي بقي في أيدي خلفاء الدولة العباسية إنما هو أمر ديني اعتقادي لا ملك دنيوي"<sup>(٤)</sup>، كما احتفظ الخلفاء بحقهم في تفويض أمراء الأقاليم والولايات حكم البلاد<sup>(٥)</sup>.

وخلفاء ذلك العهد هم:

المستكفي (٣٣٣-٥٣٣٤/٩٤٤-٩٤٥م)

(١) ابن طباطبا: الأحكام السلطانية والدول الإسلامية (ص ٢٥٧).

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء (ص ٢٦٧).

(٣) ابن الأثير: الكامل (١٤٧/٧-١٤٨)، صابر محمد دياب حسين: المرجع السابق (ص ٣٧٤).

(٤) البيروني: الآثار الساقية عن القرون الخالية، طبعة أولى، حيدر آباد ١٣٥٥هـ (ص ١٣٢).

(٥) صابر محمد دياب حسين: المرجع السابق (ص ٣٧٥).

وقد عاصر آخر عهود الأتراك ومطلع عهد بني بويه.

المطيع	(٣٣٤-٣٦٣/٩٤٥-٩٧٣م)
الطائع	(٣٦٣-٣٨١/٩٧٣-٩٩١م)
القادر	(٣٨١-٤٢٢/٩٩١-١٠٣٠م)
القائم	(٤٢٢-٤٦٧/١٠٣٠-١٠٧٤م)

وقد عاصر "القائم" آخر عهد البويهيين ومطلع عهد السلاجقة.

ثالثاً: السلاجقة.

السلاجقة من قبائل الغزّ التركية في أواسط آسيا هاجروا إلى بخارى حوالي عام (٥٣٨٩/٩٩٨م)، واعتنقوا الإسلام على المذهب السنيّ، ثم دخلوا في خدمة الدولة الغزنوية في إيران وأفغانستان والهند، ولكن ما لبثوا أن تمردوا عليها، وبدأوا في الاستيلاء على أملاكها حتى أسقطوها، ودخلوا عاصمتها خراسان عام (٥٤٢٩/١٠٣٧م)، فتأسست الدولة السلجوقية هناك بقيادة طغرل بك<sup>(١)</sup>، ثم بدأ السلاجقة مرحلة امتداد وتوسع داخل الأراضي الإسلامية أوصلتهم عام (٥٤٤٧/١٠٥٥م) إلى الموصل، حيث ظهروا ولاءهم للخليفة العباسي القائم بأمر الله فثبّتهم الأخير على ما ملكوه من بلاد، ثم زوج ابنته لطرغل بك عندما نجح عام (٥٤٥١/١٠٥٩م) في القضاء على البساسيري الداعي الفاطمي الذي عزل الخليفة العباسي ودعا للخليفة لفاطمي المستنصر بالله على منابر بغداد. وكانت الخلافة العباسية في أشد الحاجة إلى قوة الأتراك السلاجقة السنية للوقوف أمام الخطر الشيعي ممثلاً في البويهيين من جهة والبساسيري من جهة أخرى، مما

(١) ابن طباطبا: الفحري في آداب السلطنة (ص ٢٥٥)، أحمد شني: الموسوعة (٤٢٦/٣-٤٢٨)، نادية

عمود مصطفى وآخرون: الدولة العباسية من التحي عن سياسات الفتح إلى السقوط، المعهد العالمي

للفكر الإسلامي، القاهرة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، (ص ١١٣).

جعل المصاهرة بين السلاجقة والعباسيين حدثا هاما، وذلك أنه بحدوث هذا التصاهر اعتبر السلاطين أنفسهم وارثين للخلافة العباسية فانعكس هذا على علاقاتهم مع القوى الإسلامية الأخرى، ومع القوى غير الإسلامية حيث بدأوا مرحلة نشطة عملوا فيها على استعادة ما فقدته الدولة العباسية، ودار هذا النشاط على محورين: الأول: محور الدولة الفاطمية، والثاني: محور الدول البيزنطية.

فإذا نظرنا إلى محور الدولة البيزنطية وجدنا أن ظهور السلاجقة كان سببا في قلب موازين القوى مرة أخرى لصالح الإسلام، حيث عاد الصراع بين الدولة البيزنطية ودولة الإسلام ممثلة في السلاجقة على أشده من جديد، فما أن وطّد طغرل بك ملكه في فارس واتصلت حدوده بالأراضي البيزنطية في أرمينية حتى دفع بفتوحاته غربا فأغار على أرمينية عام (١٠٤٩/٥٤٤٠م) واستولى على ملطية (١٠٥٧/٥٤٤٩م) وفي عام (١٠٧١/٥٤٦٤م) كانت موقعة (ملازكرد) الشهيرة التي انتصر فيها السلاجقة على الدولة البيزنطية وأسروا الإمبراطور البيزنطي ذاته<sup>(١)</sup>.

خلفاء هذا العصر وعلاقتهم بسلاطين السلاجقة:

وخلفاء العباسيين خلال العهد السلجوقي هم:

القائم (٤٢٢-٤٦٧/١٠٣٠-١٠٧٤م)

وقد عاصر آخر عهد البويهيين ومطلع عهد السلاجقة.

المقتدي (٤٦٧-٤٨٧/١٠٧٤-١٠٩٤م)

المستظهر (٤٨٧-٥١٢/١٠٩٤-١١١٨م)

المسترشد (٥١٢-٥٢٩/١١١٨-١١٣٤م)

الراشد (٥٢٩-٥٣٠/١١٣٤-١١٦٠م)

المقتفي (٥٣٠-٥٥٥/١١٣٥-١١٦٠م)

(١) نادية محمود مصطفى وآخرون: المرجع السابق (ص ١١٤).

المستجد (٥٥٥-٥٥٦٦/١١٦٠-١١٧٠م)

المستضيء (٥٦٦-٥٧٥/١١٧٠-١١٧٩م)

الناصر (٥٥٧-٥٦٢٢/١١٧٩-١٢٢٥م)

وقد عاصر الناصر آخر عهد السلاجقة ثم استقل يغاندا وما حولها سنة (٥٥٩/١١٩٣م). وكانت العلاقة بين الخلفاء العباسيين وسلطين السلاجقة مغايرة تماما للعلاقة بين هؤلاء الخلفاء وسلطين البويهيين، ويذكر المؤرخون أن أهم سبب لذلك هو الاتفاق المذهبي، فهؤلاء وأولئك يدينون بالمذهب السني، مما يسّر التعاون بين الجانبين، ودفع السلاجقة إلى إجلال الخلفاء واحترامهم احتراماً عميقاً<sup>(١)</sup>. وخلال العهد السلجوقي استعادت بغداد بعض مكانتها، فأصبحت العاصمة الروحية حيث يعيش الخليفة متمتعاً بسلطاته الدينية، أما السلطة السياسية فكانت في عاصمة السلاجقة؛ نيسابور أولاً ثم الرّي، ولعل انفراد الخليفة العباسي ببغداد مع إجلال السلطين واحترامهم له قد هيا له صوراً من النفوذ، وأعاد له ما كان قد فقد من قبل من هبة وجلال<sup>(٢)</sup>.

### تدهور السلاجقة:

تجمعت عدة عوامل على إضعاف السلاجقة، بعضها خارجي وبعضها داخلي، فالعوامل الخارجية تتمثل في الحروب الصليبية التي أطاحت بدولتهم، والعوامل الداخلية تتمثل في ثورة الإسماعيلية ممثلة في الحشاشين من غلاة الشيعة، ومنها الانقسامات الداخلية التي كانت نتيجة طبيعية لتأسع ملك السلاجقة وبخاصة في عهد الاتصالات البطيئة، وتمرد بعض الحكام الذين كانوا عبيداً لسلطين السلاجقة وولاة من قبلهم، فأعلنوا استقلالهم، أمثال: شاهات خوارزم وشاهات الغور<sup>(٣)</sup>.

(١) أحمد شلي: الموسوعة (٣/٤٣٠).

(٢) المرجع السابق (٣/٤٣٠-٤٣١).

(٣) المرجع السابق (٣/٤٣٥).

على أن أهم عوامل الانحلال الداخلي تتمثل في قيام إمارات الأتابك، وكانت نواة هذه الإمارات تلك الإقطاعات التي أقطعها الوزير نظام الملك للقادة والميرزين في الدولة بدل رواتبهم، وعمد كل مالك إلى إقطاعه وعاش فيه سيدا وأميرا، واستقل عن السلاجقة، ومن هذه أتابكية دمشق، وأتابكية الموصل، وأتابكية الجزيرة وغيرها، وقد استغل بعض الأتابكة أفرادا من البيت السلجوقي، وحركوهم كالدمى، وراح الأتابكة باسم أمراء السلاجقة ينشرون سلطاهم ويوسعون نفوذهم<sup>(١)</sup>.

الخلافة العباسية في عصرها الثالث والأخير (٥٩٠-٦٥٦هـ/١١٩٣-١٢٥٨م):

استقلال بغداد وخلفاء ذلك العصر:

وقد انتهز الخليفة العباسي ببغداد فرصة ضعف السلاجقة وقيام هذه الحركات الاستقلالية، فأعلن استقلاله ببغداد وما حولها، وبدأ بهذا الإعلان الدخول إلى العصر الأخير من عصور الخلافة العباسية، وخلفاء هذا العصر هم:

الناصر (٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٧٩-١٢٢٥م) وقد عاصر الناصر آخر

السلاجقة ثم استقل ببغداد عام (٥٩٠هـ/١١٩٣م)

الظاهر (٦٢٢-٦٢٣هـ/١٢٢٥-١٢٢٦م)

المستنصر (٦٢٣-٦٤٠هـ/١٢٢٦-١٢٤٢م)

المستعصم (٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢-١٢٥٨م)

والمستعصم هو الخليفة العباسي الأخير، وقد قتله المغول الذين اكتسحوا

العالم الإسلامي، وقضوا على الخلافة العباسية<sup>(٢)</sup>.

أسباب سقوط الدولة العباسية:

١- إن أخطر العوامل التي أسقطت الخلافة العباسية، إهمالهم لركن مهم من أركان

(١) المرجع السابق (٤٣٦/٣).

(٢) المرجع السابق (٤٣٦/٣).

الإسلام، وهو الجهاد فبعد المعتصم المتولي أمور الدولة سنة (٥٢١٨/٨٣٣م) لم نسمع عن معارك ذات شأن قامت بها الدولة، ولم يكن مبدأ "الجهاد الدائم" حماية لهذه الدولة المترامية الأطراف أحد أركان السياسة العباسية، وكان بإمكانهم أن يشغلوا الأجناس المختلفة التي ضمتها الدولة في هذه الحروب الجهادية المستمرة ضد الغزاة وضد الوثنيات المختلفة، لكنهم لم يفعلوا، فتحركت النعرات القومية الجاهلية لتفتت الدولة، وتقسم جسمها تحت رايات مختلفة ليست لها بالإسلام أو الجهاد صلة<sup>(١)</sup>.

٢- فقدت الخلافة العباسية أي وجود حقيقي وفعال لها، كما أن حمايتها من السلاحقة انشغلوا بأنفسهم وطموحاتهم السياسية، ومنازعاتهم الداخلية، وتركوها ظلاً باهتاً لمجد غابر وسيادة ماضية، فإذا ما طرقتها جحافل المغول في منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) سقطت في سرعة تنفق وحقيقة الخواء والضعف الداخلي الذي كانت تعانيه.

٣- كثرة الحركات الثورية الداخلية التي أنهكت موارد الخلافة العباسية، أمثال: ثورة بابك الخرمي، وثورة الزنج، وثورة القرامطة التي هزت أركان الخلافة العباسية طوال القرن التاسع الميلادي<sup>(٢)</sup>.

٤- صار الخلفاء العباسيون - في القرن العاشر الميلادي - العوبة في أيدي الأمراء الأتراك، فاتخذ كبيرهم لنفسه لقب "أمير الأمراء" وبات صاحب السلطة الفعلية في الدولة<sup>(٣)</sup>.

٥- ظهرت في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين كثير من الحركات الانفصالية، وقيام الأسر الحاكمة المستقلة في الشرق والغرب.

(١) عبد الحليم عويس: دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية. دار الوفاء (ص ١٢٥-١٢٦).

(٢) المرجع السابق (ص ١٠٩-١٢٤).

(٣) عبد الحليم عويس: المرجع السابق (ص ١٢٣-١٢٤).

## حضارة العباسيين

أولاً: الإدارة ونظم الحكم:

أ - الخلافة: إن السمة الأساسية التي اتسمت بها الخلافة العباسية، بل تحددت بها هويتها، هي البحث عن لون من الألوان، يكون أقرب إلى مقتضيات الإسلام بدرجة أكبر مما كان في العهد الأموي، وفي هذا الصدد أفادت الدولة العباسية من المذاهب المتباينة، ومن العناصر التي كانت حديثة العهد بالإسلام، فلم تقنع الأسرة العباسية بالطموح إلى ولاية الرسول ﷺ، باعتبار هذه الولاية حقا يتدثر به الخليفة في الاحتفالات، بل إنها ادعت لنفسها قيمة إسلامية خاصة، فلم يكن الخليفة "حاكما زمنيا" فقط إنما هو أيضا "أمير المؤمنين" أو بالأصح "إمام المسلمين"<sup>(١)</sup>.

والحق أن العباسيين لم يقصدوا من وراء ذلك إلى ما قصد إليه غلاة "الشيعية" ممن نسبوا أنفسهم إلى سلالة الرسول ﷺ، بل طالب آل العباس بأن يكون ورثة النبي سادة الأجسام، وأن يكونوا أئمة الأرواح، في كل ما يتصل بمسائل الشرع، وزعموا أن المشيئة الإلهية هي التي فرضت هذا الحق لبني العباس.

وقد أحاط الخليفة العباسي نفسه في كثير من الأحاديث داخل حاضرتيه بأسمى مظاهر الترف، التي لا يقوى على بلوغها إنسان غيره، وسلك في طريقة عيشته مسلكا تغاضى فيه عن بعض مراسم الزهو والخيلاء، حتى غدا الحاجب - وهو الذي ينظم مشول الأفراد بين يديه - من أعظم شخصيات ذلك العصر، لكن الخليفة كان يظهر للناس في المناسبات الكبرى، وحين ذاك تغمره هالة من الأبهة والبذخ الباهظ، سواء في ذلك الأعياد التقليدية، أو في أيام الانتصارات أو في استقبال السفراء<sup>(٢)</sup>.

وهذه - لا شك - سلوكيات لا علاقة لها بسلوك رسول الإسلام ﷺ، وفيها

(١) ابن خلدون: المقدمة (ص ٤٢٢).

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية، مصر ١٢٩٨ هـ (ص ٣).

مبالغات غير معقولة شرعاً.

ويوضح الخليفة تلك المهمة للناس -على غرار أسلافه- في صلاة الجمعة في مسجده، وحين يتولى القضاء على مشهد من الجمهور، وحين يترأس -في كثير من الأهمية- تلك الحملات العسكرية، التي يوجهها إلى بلاد الكفر. كذلك يمارس الخليفة رسالته الرفيعة حين يفرض على رعيته تطبيق الشرع الإسلامي على الوجه الأكمل، وحين يتعمق في مضمون هذا الشرع ليوضح أسرره وفلسفته على نحو أفضل من غيره<sup>(١)</sup>.

وقد عرف العباسيون كيف يوضحون للناس هذا المظهر من نشاط الخلفاء، وكيف يستخدمونه في صالحهم.

ب- الوزارة: اقتبس العباسيون نظام الوزارة من نظم الإدارة الفارسية القديمة، بل عملوا على اختيار وزرائهم من الفرس، وكان أبوسلمة الخلال أول من وزر لبني العباس وسمي وزير آل محمد<sup>(٢)</sup>.

واختصاص الوزراء الأول لبني العباس كاختصاص الكتاب عند الأمويين، فكان الخلفاء العباسيون يحرصون دائما عند اختيارهم لوزرائهم أن يكونوا ممن يجيدوا الكتابة<sup>(٣)</sup>. وكانت الوزارة في العصر العباسي تنقسم إلى نوعين:

١- وزارة تنفيذ (وهي أيضاً وزارة القلم وسلطتها محدودة): وتقتصر مهمة الوزير فيها على تنفيذ أوامر الخليفة وعدم التصرف في شؤون الدولة من تلقاء نفسه.

٢- وزارة تفويض (وتعرف أيضاً بوزارة السيف): وهي أن يكمل الخليفة الوزارة إلى شخص يثق فيه، ويفوض إليه النظر في أمور الدولة والتصرف في شؤونها دون الرجوع إليه، بحيث لا يبقى للخليفة بعد ذلك من السلطان إلا ولاية

(١) صابر محمد دياب حسين: العصر العباسي (ص ٣٨٠).

(٢) السيد عبدالعزيز سالم: العصر العباسي الأول (٣/٢٥٢).

(٣) ابن طباطبا: الفجري (ص ١٦٦).

العهد وحق عزل من يوليهم الوزير<sup>(١)</sup>.

ومن شروط الوزارة أن يكون الوزير أميناً صادقاً شجاعاً فطناً حازماً، بالإضافة إلى صفات الكرم والرفق والأناة والحلم والوقار، ونفاذ القول<sup>(٢)</sup>.

ج - الحجابة: اتخذ الخلفاء العباسيون السُّحُجَابَ أيضاً، وبالغوا في ذلك؛ تشبُّهاً بالأكاسرة، وحمية لأنفسهم من الساخطين عليهم، وزادوا في منع الناس من ملاقاتهم إلا في عظيم الأمور! وازدادت أهمية هذه الوظيفة منذ عهد المهدي العباسي<sup>(٣)</sup>.

د- الكُتَّاب: كان يعين للوزراء وأصحاب الدواوين في مهامهم أعوان من أرباب الأقلام عرفوا بالكُتَّاب، وكانت لهذه الطائفة أهمية خاصة لارتباطهم بالوزراء وأصحاب الدواوين، بدليل أن الكثيرين منهم تدرجوا في الرقي حتى وصلوا إلى منصب الوزارة، وقد شارك الكُتَّاب ومن وصل منهم إلى منصب الوزارة في نشر الثقافة؛ لأنهم -بحكم مناصبهم- كانوا مضطرين إلى معرفة أحوال الناس الاجتماعية وأن يعرفوا طرفاً من اللغة والأدب وعلوم الدين والفلسفة والتاريخ؛ لاحتياجهم إلى هذه العلوم في مواقفهم<sup>(٤)</sup>.

هـ- الدواوين: توسع العباسيون في الدواوين بحكم اصطناعهم لنظم الإدارة الفارسية، وكلمة الديوان كلمة فارسية تعني: (السجل الذي يكتب فيه ما يختص بشؤون الإدارة)، ثم أصبحت تدل على المكان الذي يعمل فيه الكُتَّاب على اختلاف مهامهم، وقد أصبح لموظفي الدواوين في العصر العباسي شأن كبير في الدولة، وكانت لهم علامات تميزهم عن غيرهم من رجال الدولة

(١) المصدر السابق (ص ٢٠٢).

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية (ص ١٨).

(٣) المصدر السابق (ص ١٥).

(٤) الجهشيارى: الوزراء والكتّاب (ص ١٨٣-١٨٤).

كالدواة والكرسي والوسادة والمسند والخشبة، وهي أدوات كانت تستخدم في الكتابة والجلوس في الديوان، ويرجع الفضل في تنظيم إدارة الدواوين في العصر العباسي الأول إلى خالد بن برمك. وأهم الدواوين في الدولة العباسية: (ديوان الرسائل، ديوان الخاتم، ديوان البريد، ديوان الزمام أو الأزمّة)<sup>(١)</sup>.

ثانياً: النظام القضائي:

أ- القضاء أو القاضي:

لم ينشئ العباسيون الجهاز القضائي إنشأً، بل استكملوه وقام الخلفاء شخصياً بتعيين القضاة؛ حتى يمنعوا تحكّم الولاة، وحتى يحسنوا رقابة كفاءتها أو رقابة ولائهم. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أنشأ العباسيون - منذ عهد هارون الرشيد - منصب قاضي القضاة، وكان أبو يوسف أول من شغل هذا المنصب الذي لا يعني اختصاصاً قضائياً أعلى من اختصاص سائر القضاة، فهم جميعاً على قدم المساواة، يتولون إحقاق الحق، ولا ينقض حكمهم إلا من قبل الخليفة أو الوالي الذي يحل محله، وإنما يعني هذا المنصب وجود حق الإشراف على الهيئة القضائية؛ لأن "قاضي القضاة" يمثل الخليفة، عند النظر في مؤهلات المرشحين، كما يمثله في رقابة الكفاءة المهنية للقضاة، وربما أنشئ هذا المنصب ليكون شبيهاً بما كان معروفاً في العهد الساساني - الزرادشتي - بمنصب المؤبد "مؤبدان" وهو ترجمة دقيقة للفظ "قاضي القضاة"<sup>(٢)</sup>.

ويحيط بالقاضي مستشارون ومساعدون أهمهم "الشهود" وهم ليسوا شهوداً حقيقيين، كما هو مألوف في قضائنا الحديث، بل مهمتهم النظر في بسط الإجراءات وتقديم ما يفيد ذلك.

وقد توصل المسلمون إلى مبدأ انتقاء الشهود والتأكد من انتفاء الشبهة

(١) المصدر السابق (ص ٥٩).

(٢) صابر محمد دياب حسين: العصر العباسي (ص ٤١٧).

عنهم، بعد التثبت من حسن أخلاقهم، كما هو معهود بالنسبة للمحلفين في القضاء الحديث.

وقد أدى ازدياد أعباء القضاة إلى أن يعهدوا بجزء من أعمالهم لمساعدتهم وعلى رأسهم الشهود.

وإذا كانت العقود المكتوبة لا تقف على نفس مستوى أهمية الشهادة الشفهية في بداية عهد الدولة الإسلامية، إلا أنه بمرور الوقت أصبحت الحاجة ماسة إلى إثبات أية اتفاقات أو معاملات في صحائف مكتوبة يُستند إليها كعنصر إضافي للشهادة، وأمكن لهذه العقود أن تحمل محل الشهادة الشفهية في كثير من الأحوال. فحررت صيغ من العقود عُرفت باسم الشروط، وبالتالي تكوّن جهاز من الكتاب الشرعيين الذين لا يختلفون كثيراً عن الشهود.

#### ب- الشرطة:

وإذا كان للقاضي سلطته المعنوية أو الاجتماعية، إلا أنه لم يكن من مسؤوليته ملاحقة المذنبين، وتنفيذ العقوبات التي يقضي بها؛ لأن هذا يدخل في اختصاص الشرطة التي عرفت - منذ مطلع الفتوحات العربية - بأنها جهاز مساعد للولاة في سبيل الحفاظ على أمن الدولة. وعلى مر الزمان أنشئت في الحواضر الكبرى شرطة بالمعنى الحقيقي مزودة بعناصر من أهالي البلاد إلى جانب الجيش المرابط فقط في بعض المناطق المحصنة، ومن الناحية العملية كانت الدولة وحدها - عدا مساعدتها للقاضي - تُعنى - خارج نطاق الشريعة - بالقضاء الجنائي وأعمال القمع<sup>(١)</sup>.

#### ج - الحسبة:

في بداية العصر العباسي نُظمت الحسبة، وسمي متوليها المحتسب، والحسبة بمعناها الواسع الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي إلزام بالنسبة

(١) المرجع السابق (ص ٤١٨).

للأمير، وواجب قدر الطاقة على كل مسلم.

وفي العهد العباسي تبلور مفهوم الحسبة أكثر، وأصبح على المحتسب رقابة السوق، والإشراف على التجارة الداخلية، وكانت هذه الرقابة وقتئذ تتصل بالأمن العام، والحياة الاقتصادية.

وقد عُهد بوظيفة المحتسب في الحواضر التي لم تكن إسلامية في الأصل إلى الذميين، ولكن بعد انتشار الإسلام، وبعد أن احترف العرب حِرَفًا مختلفة بدأ لزاماً أن تصطبغ الرقابة العامة بصيغة أقرب إلى الإسلام. فاختصَّ بالحسبة رجل مسلم، لم يقتصر عمله على رقابة الناحية الأخلاقية في الأسواق حسب الشريعة، بل كُفِّ - بشكل أوسع - بالإشراف على جميع الأحلاق العامة، في إطار مجتمع يسوده الدين الخفيف، مثل: ممارسة الشعائر، وحسن سلوك الرجال والنساء أثناء التعامل، وإلزام الذميين باتباع القواعد التي تحصنهم... إلخ، وكلمة (الحسبة) تفيد هذه المعاني جميعاً.

وللمحتسب - في الحواضر الكبرى - مساعدون يستعين بهم، ومن المسلم به ألا يمارس المحتسب صلاحياته إلا في المدينة، فهو عون للقاضي، أو يشاركه في أعماله، وكان مثله وثيق الصلة بالخليفة، بل ليس القاضي بأوثق صلة بالخليفة من المحتسب، لكن عمل هذا الأخير يظل في مستوى الرقابة اليومية للمهن وصغار التجار والإدارات العامة، ومراعاة أداء الشعائر<sup>(١)</sup>.

#### د- قضاء المظالم.

كانت تنشأ - في بعض الأحيان - مشكلات وقضايا يستعصي حلها، أو البتَّ فيها أمام القضاء العادي، كما يصعب التعامل معها بمقتضى سلطات المحتسب، كأن يكون الخصم صاحب مركز سامٍ ومقام كبير، والمظلمة مرتبطة بالدولة، في شكل والٍ أو عاملٍ أو ديوان خراج أو بيت مال، ما استدعى ذلك

(١) المرجع السابق (ص ٤١٨-٤١٩).

إنشاء هيئة لها هيئتها ورهبتها، لتبت في الأمر المستعصي على الحل، وتقضي في الخلاف الشائك، الذي يحتاج إلى حزم وبت، وإيجاد سلطة قوامها العدل، ودستورها الحسم والشدة. وإن ديواناً كهذا، لمتاح إلى رئيس نافذ الكلمة والرأي، بصير بالأمر، عادل حازم مهيب<sup>(١)</sup>.

على أنه ليس ممكناً في هذا المقام تتبع المراحل التي مر بها تأليف "ديوان المظالم" حتى انتهى إلى ما انتهى إليه خلال القرن الخامس الهجري، وهو العصر الذي كان يحيا فيه الماوردي، وأبوالفراء يعلى الخنيلي؛ إذ تركنا لنا صورة كاملة عن مجلس مهيب، لا تتم أسباب انعقاده، ولا يكون شرعياً إلا بعد أن تجتمع فيه أصناف خمسة من الرجال من الحكام والرعية، وهؤلاء الخمسة لا يستغني عنهم ناظر المظالم، ولا ينتظم نظره في الأمور إلا بهم، وهو ما يمكن تسميته بتشكيل هيئة ديوان المظالم، وتتكون من:

١- الحماية والأعوان: لجلب القوي، وتقويم الجريء، الذي يحاول العبث أو الفرار من وجه القضاء.

٢- القضاة والحكام: لاستعلام ما يثبت عندهم من الحقوق، ومهمتهم الإحاطة بما يصدر من الأحكام، لرد الحقوق إلى أصحابها، والعلم بما يجري بين الخصوم.

٣- الفقهاء: ليرجع إليهم فيما أشكل، ويسألهم عما اشبهه لديه من أمور تختص بعمله.

٤- الكتّاب: ليثبتوا ما جرى بين الخصوم، ويدونوا ما توجه لهم أو عليهم من الحقوق.

٥- الشهود: ليشهدهم على ما أوجبه من حق، وما أمضاه من حكم، كما أن مهمتهم إثبات ما يعرفونه عن الخصوم، والشهادة بأن ما أصدره القاضي من الأحكام لا يتناقى مع مبادئ الحق والعدل<sup>(٢)</sup>.

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية (ص ٧٤).

(٢) صابر محمد دياب حسين: العصر العباسي (ص ٤٢١-٤٢٢) (بتصرف).

فإذا استُكمل مجلس المظالم بما ذكرنا من الأصناف الخمسة شرع حينئذ في نظر القضايا. ومما لا شك فيه أن نظم القضاء في الدولة العباسية قد أصابت حظاً من التقدم والتطور، حتى ساءغ للفقهاء أن يضعوا لها كل هذه القيود والشروط، ولا ريب في أن فقهاء الإسلام - وهم يؤصلون تلك الأصول والقواعد - كانوا يصغون إلى صوت القرآن يتعالى في قلوبهم قبل ألسنتهم ويهيب بهم قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

فإذا أضيف إلى هؤلاء الأصناف الخمسة، رئيس المجلس، صاروا ستة أعضاء وشرع الديوان في مباشرة مهامه.

فإذا نظر في المظالم من انتدب لها، جعل لنظره يوماً معروفاً، يقصده فيه المتظلمون، ويراجعه فيه المتازعون ليكون ما سواه من الأيام لما هو موكول إليه من السياسة والتدبير، إلا أن يكون من عمال المظالم المتفردين بها، فيكون مندوباً للنظر في جميع الأيام<sup>(١)</sup>.

وكان من حق والي المظالم النظر في غلاء الأسعار إذا زادت عن حدها، بحيث تدخل في نطاق الاستغلال البشع، أو الريح الباهظ، أو الجشع التجاري، بما يضر بالرعية. كما ينظر أيضاً في ظاهرة إيداع السجون من غير نظر دقيق في دعاوهم (ما يعرف حالياً بالاعتقال أو الحبس التحفظي لدواعي الأمن).

وقد ظهر في العصر العباسي ما يسمى بـ "ديوان الاستخراج"، وهو عبارة عن دائرة رسمية، مهمتها تتبع أخبار نوزراء والكتّاب والحجاب والعمال والولاية المتهمين بالمحسوبية، والرشوة، واستغلال النفوذ، لإحصاء أسمائهم وتحديد أوضاعهم، تمهيداً لمصادرة ما جمعه حراماً من أموال، بأمر من الخليفة، وهذا التصرف الذي يقوم به "ديوان الاستخراج" يعتبر في نطاق ديوان المظالم أيضاً، فهو بذلك دائرة مساعدة لدائرة المظالم على أداء مهمتها التي كان من أزمها

(١) ابن طباطبا: الفحري (ص ١٦١).

وأهمها النظر في "جور العمال"، فيما يجبونه من الأموال.

وحرصا من بعض الخلفاء العباسيين على هيبة والي المظالم وهيئة مجلسه وديوانه فقد بنى قبة بما أربعة أبواب كان يجلس فيها، سماها قبة المظالم، وكان يلتقي فيها بالعامّة والخاصة<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: النظام الحربي.

#### ١ - الجيش:

اعتمد الخلفاء العباسيون حتى عصر المعتصم على العناصر الخراسانية بوجه خاص والفرس بوجه عام أكثر من اعتمادهم على العرب، وأصبح للفرس من المكانة ما كان للشاميين في العصر الأموي، ومع ذلك فقد كانت فرق الفرسان عند العباسيين تشكّل من العرب في حين كانت فرق المشاة من الفرس، وخاصة أهل خراسان<sup>(٢)</sup>.

ولما تولى المعتصم الخلافة، رأى أن يُطعّم جيشه بعنصر حربي جديد فاستكثر من الأتراك، وآثرهم على العرب والفرس، بل وعمل على عزل الأتراك عن سائر الناس فبنى لهم مدينة سامراء، وأفرد لهم قطائع متميزة حتى لا يختلطوا بالعرب<sup>(٣)</sup>.

وكان الجيش العباسي ينقسم إلى كراديس بين كل كردوس وكردوس قدر رمية سهم<sup>(٤)</sup>، ومنها كراديس للرجال وكراديس للفرسان، وبعض كراديس الرجال تحمل النشاب، وكانت الكراديس تقسم جميعاً إلى مقدمة وميمنة وميسرة وقلب يتولى كل منها قائد، ثم يلي ذلك الساقة وفيها الأثقال والمجانيق وآلات الحديد والألفاظ والأزواد<sup>(٥)</sup>، وكان يشترك في الجيش طليعة من الأدلاء يعرفون

(١) صابر محمد دياب حسين: العصر العباسي (ص ٤٢٣).

(٢) السيد عبدالعزيز سالم: العصر العباسي الأول (ص ٢٨١).

(٣) اليعقوبي: البلدان (ص ٢٦).

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (١٠/٣٢٠).

(٥) المصدر السابق (١/٣٣٦).

المسالك والطرق والجبال<sup>(١)</sup>، وكان المحاربون يتخذون على رؤوسهم خوذةً من الخوص أو تروسا من الخوص، أما الفرسان فكانوا يضعون على صدورهم الجواشن، وهي كسوات حديدية من حلقات متصلة تغطي الصدر، وقد تصل إلى الخوذات وتسمى بالزرديات السابلة، ويكسون حيولهم التحافيف، ويمسكون بالرماح والدرق التبتية (أي: المصنوعة في التبت)<sup>(٢)</sup>.

## ٢- البحرية:

توقف النشاط البحري العباسي فترة دامت ما يقرب من خمسين سنة بسبب انصراف الدولة العباسية -التي انتهجت منذ قيامها سياسة شرقية وتطلعت بوجهها نحو خراسان- عن شئون البحر، ونفضت يدها من محاربة البيزنطيين في البحر المتوسط، بسبب تفرغها لمشاكلها الإقليمية، وقد ساعد على تجميد النشاط البحري الإسلامي في شرق البحر المتوسط انصراف الدولة البيزنطية هي الأخرى عن المصادمات البحرية مع المسلمين بسبب الفتن الداخلية، والمشاكل الخارجية التي عصفت بها، كالنزاع اللأيقوني، وثورة توماس الصقلي والصراع مع البلغار<sup>(٣)</sup>.

ومع ذلك كله فقد أبدى خلفاء بني العباس ابتداءً من عهد هارون الرشيد اهتماماً خاصاً بالشؤون البحرية، فالبلاذري يشير إلى ذلك بقوله: "وقد رأينا من اجتهاد أمير المؤمنين هارون الرشيد في الغزو ونفاذ بصيرته في الجهاد أمراً عظيماً: أقام من الصناعة (أي: دار صناعة الأسطول) ما لم يقم قبله، وقسم الأموال في الثغور والسواحل، وأشجى الروم وقمعهم، وأمر المتوكل على الله بترتيب

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) السعدي: مروج الذهب (٣/٤٠٣).

(٣) فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري (١/٣٨٢)،

(٢/٣٤٧)، القاهرة ١٩٦٧م.

المراكب في جميع السواحل، وأن تشحن بالمقاتلة"<sup>(١)</sup>.

وكان للأسطول العباسي عدة قواعد بحرية هامة في حوض البحر المتوسط؛ منها: جزيرة كريت، والإسكندرية، ودمياط، وطرسوس<sup>(٢)</sup>... وغيرها.

رابعاً: تطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العصر العباسي:

لم تكن الدولة العباسية دولة فتوحات، وإنما غلب عليها الحفاظ على ما في أيديها، والاهتمام بالجوانب الحضارية، مع تأمين الحدود ببعض العمليات العسكرية الحدودية أو الدخول في بعض المعارك عندما يستخف الأباطرة البيزنطيون بالدولة، أو يشجعون بعض المستهينين بالخلافة العباسية، أو يعتدون على بعض المسلمين تجاراً كانوا أو غير تجار.

وقد ورث العباسيون عن بني أمية معظم ما يملكون في المشرق، ونتيجة سعة الأرض الإسلامية، وسيادة السلم والاهتمام بالجوانب الحضارية، -ساد الرخاء العصر العباسي الأول (١٣٢-٥٢٣٣هـ/٧٥٠-٨٤٧م)؛ فقد أدى التحول الاقتصادي الذي شهده العصر العباسي إلى ظهور طبقة رأسمالية تضم كبار التجار وأصحاب المعامل وكبار الموظفين، وقد زاد من قوتها وتوسيع فعاليتها ظهور طبقة من أصحاب المصارف أخذوا يتاجرون بالنقود<sup>(٣)</sup>، وساعد على الازدهار الاقتصادي أيضاً دخول العرب الفاتحين بحال الزراعة بعد انتهاء عصر الفتوحات، وبرز عناصر غير عربية على الساحة السياسية.

## ١- ازدهار الزراعة:

إذا كانت (أرض الخراج) بأيدي أصحابها يدفعون عنها الخراج، فإن هناك

(١) البلاذري: فتوح البلدان (١/١٩٣).

(٢) السيد عبدالعزيز سالم: العصر العباسي الأول (ص ٢٨٥-٢٩٧).

(٣) محمد عبدالستار عثمان: المدينة الإسلامية، عالم المعرفة الكويت ١٤٠٨هـ، (ص ٣٦١).

نصيباً كبيراً فاز به العرب من أرض لعشر، (وهي الأرض التي يقسمها الإمام بين الذين غنموها)، وأرض القطائع، وهي الأرض التي كانت للملوك وسدنتهم، وكانت الدولة الإسلامية تقطعها بهدف إحيائها واستثمارها، فظهرت منها ومن سابققتها أيضاً ملكيات زراعية واسعة بدأت تؤتي ثمارها اليانعة في العصر العباسي، بعد أن وصل العرب - كذلك - إلى مستوى من القدرة على الاستيعاب والمنافسة في مجال الزراعة والحرف مع أصحاب البلاد المفتوحة بعد أن تتلمذ كثير من العرب عنى أرباب الصناعات الفنية في تلك البلاد<sup>(١)</sup>. أما قدرتهم التجارية فهي أفضل من غيرهم بكثير.

أما في حالة سعة الأرض المملوكة (الإقطاعية) أو عدم وجود الخبرة الكافية للزراعة الواسعة المتطورة، فقد كان العربي يستعين ببعض العسكرين، والعمالة الرخيصة من النبط والزنج، والعبيد بعامته، والعمال الزراعيين من ذوي الخبرات.

وكما ازدهرت مصر زراعياً، فقد ازدهرت المدن العراقية، بحيث أصبحت معظم المدن - فضلاً عن القرى - محاطة بمناطق زراعية كثيرة.

## ٢- الصناعة:

أدى الازدهار الزراعي إلى الازدهار في الحرف والصناعات؛ لوجود فائض كبير من رؤوس الأموال يحتاج إلى استثمار، ولأن كثيراً من الحرف والصناعات تعتمد على الزراعة والنباتات، فقد اعتمدت صناعة النسيج على القطن والخزير والكتان. كما اعتمدت صناعة العطور في الكوفة على الزهور والرياحين، وصناعة السكر في البصرة على قصب السكر. في حين اعتمدت صناعة الزيوت والشموع، وصناعة الصابون على حاصلات السمسم والزيوت<sup>(٢)</sup>.

ونحن نلمس بين العمال الزراعيين - الأحرار والعبيد - نوعاً من التخصص

(١) ركي محمد حسن: فنون الإسلام، القاهرة ١٩٤٨م، (ص ٣٢).

(٢) صباح الشحلي: الأوصاف في العصر العباسي (ص ١٩) تنصرف.

وشيثاً من التنظيم، فقد ظهر بينهم من يسمون "بالجرائين" وهم الأجراء الذين يحرثون الأرض للمالكها مقابل أجر نقدي، كما نجد "الحواصد" وهم العمال الموسميون الذين يشتغلون خلال موسم الحصاد فقط.

كما نجد بين الفلاحين رتبا منها "الرئيس" أو "الشيخ" وهناك من يسمّى بالعريف، وهو مسؤول عن تجهيز عمال الريّ مقابل أجر يعرف بحق العرافة أو رسم العرافة. وقد ذهب بعض الباحثين إلى القول بوجود تنظيمات لهؤلاء الغرماء شبيهة بتنظيمات النساجين والكناسين<sup>(١)</sup>، وشبيهة بما يعرف حديثاً بالنقابات المهنية، وكانت تعرف في العصر العباسي بالأصناف.

### ٣- التجارة:

وكما كان لوجود الثروة أثره القوي في نمو الحرف، كان له أثره في نمو الحركة التجارية، بل وفي نموّ نظام مَصْرْفِيّ يساعد على الحركة بالأموال وتداولها دون خوف عن طريق (الحوالات) أو (السفاتيح) التي تغني عن حمل الأموال وتسمح لحاملها بأخذ ما يودعه في بلده في البلد الذي يذهب إليه، وكان للنظام الذي أشرنا إليه سلفاً، والقاضي بتوحيد الأسواق، بالنسبة لكل حرفة، بل وتوحيد المساكن لكل صنف، دوره في ازدهار التجارة وظهور صور من التكتل التجاري (النقابي) لمواجهة الأزمات الخاصة والعامة.

### ٤- الأصناف:

ولم يكن تخصيص سوق لكل صنف عملاً محدوداً على النحو السابق في الدولة الأموية أو فيما سبقها. بل شهد العصر العباسي توسعاً كبيراً في الأسواق، جعل مساحة الأسواق تقترب من أن تكون مدينة كاملة ملحقة بالمدينة الأم. فعندما طغت الناحية السوقية أو التجارية على بغداد لدرجة تعذرت معها معيشة الناس في جو

(١) المرجع السابق (ص ٢٠-٢١) بتصرف.

هادئ، حتى إن الخليفة المنصور تأثر نفسه بغلبة مناخ الأسواق على المدينة، فأمر ببناء مدن تجارية (السوق العظمى - المدينة - السوق) وهي مدينة الكرخ، وفي هذه (السوق العظمى) لكل وتجار شوارع معلومة، وصنوف في تلك الشوارع، وعراض. ولا يختلط قوم بقوم، ولا تجارة بتجارة، ولا يباع صنف مع غير صنفه، ولا يختلط أصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم، ويفرد كل سوق وكل أهل تجارة بتجارهم، وكان يجري لأهل الكرخ وما يتصل به نهر، يقال له "الدجاج" ونهر آخر يسمى نهر "طابق"، والمهم نهر عيسى الأعظم الذي يأخذ معظم المياه من الفرات، وتدخل فيه السفن الكبيرة والتجارات من الشام، ولا تنقطع في وقت من الأوقات<sup>(١)</sup>.

ومن جانب آخر ظهرت في العصر العباسي عوامل أخرى مشجعة على النمو الاقتصادي وازدهار الأصناف وتأكيد دورها أمام التوسع التجاري في داخل الأرض الإسلامية الفسيحة وخارجها.

وبتأثير هذه العوامل أنشأ اليهود -وربما غيرهم- الشركات التجارية والمصرفية التي تشي المشاريع، وتقرض النقود للمشروعات، وتنظم القوافل التجارية الكبيرة البرية والبحرية، وتستورد وتصدر من القارات الأخرى.

وأدى هذا التوسع الكبير إلى ظهور لون جديد من النقابات أو الأصناف مهمته مراقبة المعاملات التجارية، ومنع التدليس والغش، وهذا اللون من النقابات يساعد على اختيار رئيس للتجار ينتخب من بين الأعضاء البارزين في النقابة، الذين يسمون الأمناء.

ويرى بعض الباحثين أن الصيارفة اليهود أسسوا نقابة خاصة بهم أيضاً، ويُقَوِّي هذا الرأي أننا نجد نوعاً من التنظيم المهني بينهم، مثل وراثة المهنة، فقد اعتاد أبناء الصيارفة وراثة مهنة آبائهم، كما كان التسمي بالجهذ والصيرفي أمراً رائجاً، فتنظيمات التجارة والصيارفة وتكتلاتهم ربما كانت ذات أثر في تحفيز

(١) رمزية محمد الأطرقجي: بناء بغداد في عهد أبي جعفر المنصور، مطبعة النعمان النجف ١٩٧٥م، (ص ١٦٣).

الصنّاع على التكتّل والتضامن فيما بينهم<sup>(١)</sup>.

ويضاف إلى ذلك كثرة بناء الأمصار والحواضر مما أدى إلى زحف الكثير من الأيدي العاملة للمشاركة، في بنائها وتعميرها، ولا سيما ودار الإسلام مفتوحة لكل المسلمين ولأهل الذمة، والمجرة إلى المدن متاحة للجميع، وعندما شرع المنصور في بناء بغداد أدرك أنه مقبل على أمر عظيم، فليس بناء حاضرة كبرى بالأمر الهين السهل؛ لذا أعدّ لكل أمر عدته، فبعث في طلب المهندسين وعمال البناء من الشام والموصل والجليل والكوفة وواسط، واشترط تفوقهم بالخبرة الهندسية من جهة، وبالأمانة والعفة من جهة أخرى. فبلغ عدد هؤلاء الوافدين حوالي مائة ألف من أصناف المهن والصناعات.

وقد حفظت لنا المصادر اسم مهندسين خبيرين كبيرين اشتهرا بالخبرة في الهندسة والرياضيات، وهما الحجاج بن أرطاة، وعمران بن الوضاح<sup>(٢)</sup>، وهما من أبرز من أشرفوا على بناء بغداد مدينة المنصور.

لكن نموذج (المدينة - السوق) لم يكن وحده في العصر العباسي، فقد يكون السوق في جزء من المدينة، كما في أسواق الكوفة، وقد تكون على طول الشوارع من الجانبين، على كل جانب صفّ منها، كما في أسواق مصر وسورية، وقد توجد أسواق تعرف بالقبصرية، أي السوق الإمبراطوري، وهي مجموعة حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن في مكان واحد، يقيم فيها الصنّاع والتجار بأجرة، وقد وجدت خانات مساعدة للتجارة، فهناك خانات في بغداد للتجار على دجلة يطرح فيها المتاع الوارد من الموصل، وكان هناك سوق للغزل خاص بالنساء، وهن يععن ويشترين<sup>(٣)</sup>.

(١) صباح الشبخلي: الأصناف في العصر العباسي (ص ٢٦-٢٧) بتصرف.

(٢) رمزية محمد الأطرقجي: بناء بغداد في عهد أبي جعفر المنصور (ص ٨٣) بتصرف.

(٣) صباح الشبخلي: الأصناف في العصر العباسي (ص ٤٠).

وفي مكان خارج المدينة كانت تقوم مهمة من الصعب وجودها داخل المدينة مثل محلات الصباغين، ومعاصر الزيت، ومطاحن الحبوب، وغيرها. ومما يعدّ من مظاهر تطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العصر العباسي، قيام الخلفاء ببناء عدد من الحواضر والمدن مثل الكوفة والبصرة وسامرا وبغداد. ويدلنا الاسم الرسمي لمدينة بغداد الذي يعني (مدينة السلام) على التوجه الخارجي للدولة العباسية، وهو التوجه القائم على التفاعل الحضاري والتعايش مع أقطاب النظم الدولية الأخرى المعاصرة لها. ولقد أقرّ المنصور عند اعتزامه بناء بغداد في الموقع الذي استقر رأيه عليه، -بعد مشاورات عدة مع مختصين -أقرّ ضمناً بأن هدفه من بنائها أنما ستكون المركز التجاري للعالم كله، ولهذا اختير موقعها بعناية؛ لوقوعها في منطقة زراعية وفيرة المياه أولاً، ولكونها في ملتقى الطرق والمواصلات والتجارة بين الغرب والشرق ثانياً. وفي اجتماع هاتين الخصيصتين ما يؤكد رغبة الدولة العباسية في الابتعاد عن اقتصاد الحرب الذي كان يحكم الدولة الأموية عندما كان معظم دخل بيت المال يأتي من موارد مرتبطة بأعمال الغزو مثل الجزية والخراج والغنيمّة<sup>(١)</sup>.

ولقد بلغ من انشغال الدولة العباسية بأمر التجارة العالمية أن أضحت المشاريع الكبيرة التي تخطط لها مشاريع تجارية، وليست مشاريع حربية من قبيل بحث الخليفة هارون الرشيد في مشروع شق قناة تصل بين البحرين: الأبيض والأحمر؛ لتسهيل التجارة وتقصير المسافات. ولقد انعكس تغير هيكل البناء الاقتصادي للدولة العباسية على شكل التركيبة الاجتماعية لها حيث أضحت الطبقة العليا في الدولة العباسية هي طبقة التجار<sup>(٢)</sup>.

(١) نادبة مصطفى: الدولة العباسية (ص ١٠-١١).

(٢) المرجع السابق نفسه.

### خامساً: الحياة الثقافية في بغداد:

أصبحت بغداد في العصر العباسي الأول مركزاً ثقافياً هاماً، وكان من العوامل التي ساعدت على ذلك، حركة الترجمة والنقل إلى العربية، فقد اتجهت ميول الخلفاء العباسيين - بعد أن اختلطت الفرس والعرب بالروم - إلى معرفة علوم الفرس واليونان. فاهتم أبو جعفر المنصور بترجمة الكتب، وكان "ابن المقفع" من أشهر المترجمين، وقد نشأ بالبصرة وقضى من حياته في العصر العباسي نحو عشر سنوات، أما بقية حياته فقضاها في العصر الأموي، وقد ترجم "كليلة ودمنة" من اللغة الفهلوية "الفارسية القديمة"، وكتاب "إقليدس في الهندسة" إلى اللغة العربية. وقد اهتم هارون الرشيد - بعد أن وقعت في يده بعض المدن البيزنطية - بترجمة ما يصل إليه من كتب اليونان، فنشطت حركة الترجمة بفضل تشجيع البرامكة للمترجمين وإجزالهم العطاء<sup>(١)</sup>.

ولم يكن الخليفة المأمون أقل اهتماماً من الرشيد بالترجمة، فقد بعث البعث إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة في الفلك والهندسة والموسيقى والطب، وقد روى ابن "النديم" أن المأمون كان بينه وبين إمبراطور الروم مراسلات، فكتب إليه يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة، فأجاب الإمبراطور إلى ذلك بعد امتناع، فعهد المأمون إلى الحجاج بن يوسف وابن البطريق وغيرهما بإحضار بعض الكتب من القسطنطينية، وبعد أن عادوا إليه مزودين بالكتب التي وقع اختيارهم عليها أمرهم بنقلها للعربية<sup>(٢)</sup>.

ولما هادن المأمون صاحب جزيرة قبرص "أرسل إليه بطلب خزانة كتب اليونان، فأشار على وجوه الجزيرة، فأفتى أحد بطاركتها بالسماح بهذه الكتب؛

(١) صابر محمد دياب حسين: العصر العباسي (ص ٤٠٤).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (١٨٤/٦).

لأن هذه العلوم العقلية ما دخلت على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها، فأجاب صاحب قبرص المأمون إلى طلبه<sup>(١)</sup>.

وكان أشهر المترجمين أيام المأمون هو "حنين بن إسحاق" الذي ولد عام (٨٠٩/١٩٤هـ) من أب عربي من قبيلة كانت تقطن الحيرة، وكان نصرانياً على المذهب النسطوري. وقد ذهب في بداية حياته إلى بلاد الروم حيث تعلم اليونانية ثم عاد إلى البصرة ولازم الخليل بن أحمد، فأخذ عنه العربية. وكان حنين بن إسحاق يجيد أربع لغات وهي: الفارسية واليونانية والعربية والسريانية. وقد أسند إليه المأمون الإشراف على بيت الحكمة، الذي كان يزخر بالمكتبة اليونانية التي نقلت من آسيا الصغرى والقسطنطينية. فأخذ يترجم فيها إلى السريانية أولاً، ثم إلى العربية. وقد واصل حنين بن إسحاق نشاطه أيام المعتصم والواثق والمتوكل، ومات سنة (٨٢٤/٨٧٧م). كذلك عني جماعة من الأثرياء بالترجمة، مثل بنى شاكر المنجم، الذين أرسلوا حنين بن إسحاق إلى بلاد الروم، ليحضر إليهم كثيراً من طرائف الكتب والمصنفات. وقد كان إنشاء بيت الحكمة في بغداد عاملاً قوياً على ازدهار الحركة العلمية فيها، ومن المرجح أن الرشيد هو الذي وضع أساسه، وقد عمل المأمون من بعده على إمداده بمختلف الكتب والمصنفات.

وقد وجد في العصر العباسي الأول نوعان من الدراسات: دراسة دينية حول القرآن والحديث وعلومهما، ودراسة دنيوية حول الطب والفلسفة اليونانية والكيمياء والمنطق. وقد عبر ابن خلدون في مقدمته عن هذين النوعين تعبيراً صادقاً فقال: "إن العلوم صنفتان: صنف طبيعي للإنسان سيهتدي إليه فكره، وصنف ثقلي يأخذه عن وضعه"<sup>(٢)</sup>، الأول: العلوم الحكيمية الفلسفية، وهي التي يمكن أن يقف

(١) المصدر السابق (٦/٢١١).

(٢) ابن خلدون: المقدمة (ص ٦١٠).

عليها الإنسان بطبيعة فكره ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها. والثاني: العلوم النقلية التي اشتغل بها المسلمون في بغداد في القرن الثاني للهجرة، وهي التفسير والحديث والفقه. وقد اعتُبر التفسيرُ في صدر الإسلام جزءاً من الحديث أو فرعاً من فروعِهِ.

وقد شهد القرن الثاني للهجرة إقبال المسلمين على جمع الحديث وتدوينه، وأُتيحت بذلك الفرصة لظهور طائفة من أئمة الحديث أشهرهم في هذا العصر "أبو حنيفة النعمان" الذي ولد سنة (٥٨٠/٦٩٩م) بالكوفة ومات في بغداد سنة (٧٦٧/٨١٥م). وكان أبو حنيفة - بجانب اشتغاله بالعلم - يحترف التجارة، ويجلس في الأسواق، مما أكسبه خبرة عظيمة، وجعله يعرف حقيقة ما يجري في الأسواق من معاملات الناس في البيع والشراء. وقد تعلم أبو حنيفة الفقه في مدرسة الفقه، وكان يتشدّد في قبول الحديث، ويتحرى عنه وعن رجاله. فلا يقبل عن رسول الله ﷺ إلا ما رواه جماعة عن جماعة، أو ما اتفق فقهاء الأمصار على العمل به.

وكان "أبيوسف يعقوب بن إبراهيم" من تلامذة "أبي حنيفة"، وقد ولد سنة (٧٣١/٨١٣م) ومات سنة (٧٩٨/٨١٢م)، وتولى القضاء لثلاثة من الخلفاء العباسيين وهم: المهدي، والهادي، وهارون الرشيد، وقد تقلد في أيام الرشيد منصب قاضي القضاة. ولا شك أن بقاء أبي يوسف في منصب القضاء هذا العهد الطويل، ساعد على نشر مذهب الإمام أبي حنيفة. وقد ألف أبو يوسف عدة كتب في الفقه، ولم يبق لنا من كتبه سوى "كتاب الخراج".

وعلى الرغم من أن اسم هذا الكتاب هو "الخراج" إلا أنه يبحث في ماهية الدولة الإسلامية ونظمها فيقول في أوله: "إن أمير المؤمنين - أيده الله تعالى - سألني أن أضع له كتاباً جامعاً، يعمل به في جباية الخراج، والعشور والصدقات، والحوالي،

وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به ويعني بذلك ضريبة الأرض<sup>(١)</sup>، ويعني بالعثور ما يحصل من الأراضي التي أسلم أهلها كأرض المدينة واليمن، ويعني بالصدقات الزكاة المفروضة على المسلمين في مالهم، ويعني بالحوالي الجزية على رؤوس أهل الذمة ومن في حكمهم.

ومن أشهر المذاهب في بغداد مذهب "أحمد بن حنبل" الذي ولد سنة (١٦٤هـ/٧٨٠م) في بغداد ونشأ فيها، ثم رحل إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة والشام واليمن والجزيرة سعياً وراء جمع الحديث، كما صحب الإمام الشافعي وأخذ عنه. وقد اتصف أحمد بن حنبل بالزهد والورع والتقوى، وموقفه من "خلق القرآن" يدل على قوة عزمته، وشدة تمسكه بالدين. كما يعد أيضاً من كبار المحدثين.

وكان التاريخ من العلوم التي اهتم بها الكتاب آنذاك، ذلك أن العرب أخذوا في القرن الثاني للهجرة يبحثون في تاريخهم، ولم يكن أكثره إلا شذرات مبهمه غير متصل بعضها ببعض، أو دُونَ بحيث يتمشى مع ميول الفرق الدينية المختلفة، ومن مؤرخي هذا العصر "محمد بن إسحاق بن يسار" الذي نشأ في المدينة وأخذ عن علمائها الحديث وألف "كتابه المغازي" من مجموع الأحاديث والأخبار التي سمعها في كل من المدينة المنورة ومصر، ويعد هذا الكتاب من أقدم مصادر السيرة النبوية، وقد اختصره "ابن هشام" في سيرته، وتوفي ابن إسحاق في بغداد سنة (١٥١هـ/٧٦٨م)<sup>(٢)</sup>.

ومن ظهر في بغداد في العصر العباسي الأول وألف في المغازي والسير "محمد بن عمر الواقدي"، الذي ولد بالمدينة المنورة سنة (١٣٠هـ/٧٤٨م) في خلافة مروان بن محمد، وسمع شيوخها، ورحل إلى العراق في خلافة الرشيد،

(١) أبو يوسف: الخراج، طبعة أولى، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، (ص٣).

(٢) صابر محمد دياب حسين: العصر العباسي (ص٤٠٧-٤٠٨).

حيث اتصل بـ "يحيى بن خالد البرمكي" فأجزل له العطاء، ثم خرج إلى الشام والرقّة على الفرات، ثم قدم ثانية إلى بغداد فظل مقيماً بها حتى ولاة المأمون القضاء بعسكر المهدي المعروفة "بالرصافة" في شرقي بغداد، ولم يزل الواقدي متولياً منصب القضاء حتى توفي في بغداد سنة (٥٢٠٥/٨٢٠م). ومن مؤلفاته "التاريخ الكبير" وهو مرتّب حسب السنين، وقد اقتبس منه الطبري كثيراً من تاريخه، ويعدّ الواقدي من أوسع الناس علماً في عصره بالمغازي والسير، كما كان واسع العلم في الحديث والتفسير والفقه، ومن تلاميذه "محمد بن سعد" الذي ولد بالبصرة عام (٥١٦٨/٧٨٤م) وكتب في التاريخ، وقد رحل ابن سعد إلى المدينة ببغداد، حيث اتصل بالواقدي وصار من تلامذته، ولُقّب بـ "كاتب الواقدي"؛ لأنه كان يدون له كتبه وأحاديثه وما يشير به، ومن مؤلفاته كتاب "الطبقات الكبرى" وهو ثمانية أجزاء: الأول والثاني منه لسيرة الرسول ﷺ ومغازيه، والأجزاء الستة الأخرى لأخبار الصحابة والتابعين، متبعاً في ذلك ترتيب الأمصار<sup>(١)</sup>.

وكان من بين مؤرخي المسلمين في العصر العباسي من عني بالأنساب، ومن أشهرهم "محمد بن السائب الكلبي" وابنه "هشام" الذي كان عالماً بالأنساب وأخبارها وأيامها ومسالكها ووقائعها. وقد ألف كتباً كثيرة ذكرها ابن النديم في كتابه "الفهرست" ولم يصل إلينا منها إلا كتاب "الجمهرة" في أنساب العرب، وكتاب "الأصنام"، وقد اتصل هشام بن محمد بن السائب الكلبي بالخليفة المأمون وصنف له كتاب: "الفريد في الأنساب" وتوفي هشام عام (٥٢٠٤/٨١٩م)<sup>(٢)</sup>.

(١) المرجع السابق (ص ٤٠٨-٤٠٩).

(٢) ابن النديم: الفهرست طهران ١٩٧١م، (ص ١٨١).

## خلاصة الوحدة الأولى

في صباح يوم الجمعة ١٢ ربيع لأول من عام ١٣٢ هـ خرج أبو العباس من مخبئه في حفل رسمي، حضره القواد والأمراء وجماعة من أفراد الأسرة العباسية، ودخل مسجد الكوفة.

كان ذلك الحدث الذي هز الكوفة، بل الدولة كلها، هو بداية الخلافة العباسية. قَسَمَ المؤرخون الدولة العباسية إلى ثلاثة عصور هي: الأول، والثاني، والثالث. واشتهر العصر الأول بخصبه ونمائه وازدهاره، فما من جانب من جوانبه إلا وصل فيه الازدهار والتقدم إلى الذروة، وقد كانت تُسَمِّيهِ بالعصر الذهبي للخلافة العباسية تسميةً موفقة مطابقة للواقع والحق.

وفي العصر العباسي الثاني بدأت الخلافة منحني تدهورها، وتجلي ضعفها واضحا من خلال عدد من الحركات الثورية الداخلية التي أتمكت مواردها؛ مثل: ثورة بابك الخرمي، وثورة الزنج، وثورة القرامطة التي هزت أركان الدولة العباسية طوال القرن التاسع عشر.

وفي القرن العاشر الميلادي صار الخلفاء العباسيون ألعوبة في أيدي الأمراء الأتراك. بل إن كبيرهم -الذي اتخذ لنفسه لقب (أمير الأمراء)- بات هو صاحب السلطة الفعلية في الدولة العباسية.

وفي غضون القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين برزت النتائج السياسية لضعف الدولة العباسية من خلال الحركات الانفصالية وقيام الأسر الحاكمة المستقلة في الشرق والغرب.

وفي العصر الثالث والأخير كانت الخلافة قد فقدت أي وجود حقيقي وفعل لها، كما أن حمائها من السلاجقة انشغلوا بأنفسهم وطموحاتهم السياسية، ومنازعاتهم الداخلية، وتركوها ظلاً باهتاً لمجد غابر وسيادة ماضية، فإذا ما طرقتها جحافل المغول في عام ٦٥٦ هـ سقطت في سرعة تتفق وحقيقة الخواء والضعف الداخلي الذي كانت تعانيه.

## اختبار الوحدة الأولى

أولاً: أسئلة الصواب والخطأ:

ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة وعلامة (x) أمام العبارة الخاطئة فيما يأتي:

- ١- يعدّ عبدالله السفاح بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس مؤسس الدولة العباسية.
- ٢- كانت مدة الخلافة العباسية ٦٠٠ سنة.
- ٣- كانت السلطة في العصر العباسي الأول في يد الخلفاء، على عكس العصر العباسي الثاني.
- ٤- تعرض الشيعة العلويون على مختلف فرقهم للتنكيل من بني أمية.
- ٥- بعد نجاح الثورة العباسية وقيام الدولة الجديدة ازدادت الروابط بين بني العباس وبني هاشم.
- ٦- اختار محمد بن علي العباسي مكة مركزاً لدعوته لإقامة الدولة العباسية.
- ٧- يرجع الفضل في قيادة الثورة العباسية إلى كل من: أبي سلمة الخلال وأبو مسلم الخراساني.
- ٨- كان يزيد بن هبيرة هو آخر ولاة بني أمية في العراق.
- ٩- قامت دولة العباسيين مساء يوم الخميس السابع عشر من شهر ربيع الأول، سنة ١٣٦ هـ.
- ١٠- كانت الدولة العباسية تعمل -طيلة العشرين سنة الأولى التي مهدت لظهورها- تحت شعار: "الرضا من آل البيت".
- ١١- تخلص أبو جعفر المنصور من أبي مسلم الخراساني قبل القضاء على عمه عبدالله بن علي.
- ١٢- يقترن اسم المنصور بمدينة بغداد التي شيدها في عام ١٤٥ هـ.
- ١٣- غزا البيزنطيون الشام في عهد الخليفة هارون الرشيد.

- ١٤- بدأ نساء القصر يتدخلن في شؤون الدولة في عهد الخليفة المهدي.
- ١٥- كانت بغداد كعبة العم والأدب في أيام هارون الرشيد.
- ١٦- يتميز عصر الرشيد بقيام عدة ثورات منها: ثورات العرب في الشام ومصر والنوصل.
- ١٧- زحف هارون الرشيد بجيوشه عدة مرات إلى آسيا الصغرى وهزم البيزنطيين في أكثر من موقعة.
- ١٨- أدت الحرب بين أبي هارون الرشيد (الأمين والمأمون) إلى إلحاق إضرار اقتصادية ببغداد وأهلها.
- ١٩- دامت خلافة الأمين عشر سنوات.
- ٢٠- في عهد الخليفة المأمون قامت ثورة في الدولة البيزنطية للإطاحة بالإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني، وقد نجحت نجاحاً كبيراً.
- ٢١- أطلق لقب الخليفة القائد على المأمون.
- ٢٢- وفاة الخليفة الواثق بالله في سنة ٢٣٢هـ ينتهى العصر العباسي الأول.
- ٢٣- سيطر على خلفاء العصر العباسي الثاني ثلاث قوى متتالية هم: الأتراك، ثم بنو بويه، ثم السلاجقة.
- ٢٤- استمرت ثورة الزنج قرابة عشرين عاماً.
- ٢٥- كان لضعف السلاجقة وسقوطهم دور في استقلال الخليفة العباسي ببغداد وما حولها.
- ٢٦- تميز العصر العباسي الأول بالازدهار في العلوم الدينية والدنيوية.
- ثانياً: أسئلة الاختيار من متعدد:
- أ- كان قيام الدولة العباسية عام:
- ١٣٢-هـ.      ١٣٣-هـ.      ١٣٤-هـ.
- ب- أول الخلفاء العباسيين هو الخليفة:
- أبو العباس.      -أبو جعفر.      - الهادي.

ج- الخليفة الذي فتح مدينة عمورية هو:

- المستعصم. -المقتدر. -المعتصم.

د- الخليفة الذي قضى على أسرة البرامكة:

- هارون الرشيد. -المهادي. -المهدي.

ه- الخليفة الذي أنشأ دار الحكمة:

- الأمين. -المأمون. -المعتصم.

ثالثاً: الأسئلة المقالية:

١- اكتب ما تعرفه عن:

- أ - نكبة البرامكة. ب- ثورة الزنج.  
ج - ثور القرامطة. د- عصر الخليفة المأمون.  
ه- عصر الخليفة هارون الرشيد.

٢- اكتب مذكرات مختصرة حول:

- أ- وضع الخلافة العباسية في العصر العباسي الثالث.  
ب- الازدهار الحضاري في العصر العباسي الأول.  
ج- السياسة الخارجية والداخلية للخليفة هارون الرشيد.

٣- تحدث بالتفصيل عن:

- أ- الخليفة أبي العباس السفاح.  
ب- النهضة الثقافية للخليفة المأمون.  
ج- العنصر التركي في الخلافة العباسية.

رابعاً: الأسئلة الحوارية:

- ١- إذا قال لك صديق: إن العصر العباسي الثاني يمثل عصر ازدهار في تاريخ الدولة العباسية. فماذا تقول له؟

٢- إذا قال لك صديق: إن العصر العباسي الأول يمثل عصر انحلال أخلاقي. فماذا تقول له؟

٣- إذا قال لك صديق: إن عصر الخليفة الأمين كان أفضل من عصر الخليفة المأمون. فماذا تقول له؟

٤- إذا قال لك صديق: إن الحركات الانفصالية في جسد الدولة العباسية تمثل رمزاً لازدياد السلطة المركزية المشددة. فماذا تقول له؟

٥- إذا قال لك صديق: إن الحضارة الإسلامية في العصر العباسي لم تكن متميزة بين الحضارات لمعاصرة (فارسية - رومية) فماذا تقول له؟

خامساً: الأسئلة التحليلية.

أ- ما أسباب سقوط الدولة العباسية؟

ب- ما أسباب نكبة البرامكة؟

ج- ما أسباب ثورة بابك الخرمي وثورة الزنج؟

د- ما أسباب فتح المعتصم لعمورية؟

هـ- ما أسباب الحركات الانفصالية التي تَمَّتْ في عهد الدولة العباسية؟

## النشاط التعليمي للوحدة الأولى

عزيزي الدارس: حتى تكتسب المزيد من المعلومات حول موضوعات هذه الوحدة عليك بإكمال النشاط التعليمي التالي:

أ- اكتب بحثاً تتناول فيه الحركات الانفصالية في الدولة العباسية.

ب- اكتب مقالا تجمع فيه أبعاد ثورة بابك الخرمي.

ج- تناقش مع زملائك عن: هل العباسيون من آل البيت.





## الوحدة الثانية

### الدولتان الطولونية والإخشيدية

مبررات دراسة الوحدة:

يسمونهما في كتب التاريخ (حركات استقلالية) عن الدولة العباسية، ونحن نراها -بمنهجنا التاريخي الإسلامي- (حركات انفصالية) والاختلاف ليس اختلافًا اصطلاحيًا، بل هو اختلاف موضوعي حقيقي، ومع إجلالنا لجهود أحمد بن طولون المنفصل بمصر ثم الشام عن الدولة العباسية، وهي جهود رائعة، إلا أنه كان باستطاعته أن يقوم بذلك من داخل الدولة العباسية، فلا تكون قوته خصمًا من قوة العباسيين، ولم تكن الدولة الإخشيدية التي لم تستمر إلا بضعة عقود أفضل من دولة بني طولون، بل هي أقلّ منها بكثير، وكان من نتائج هذا الانفصال تَبْدِيد بعض الطاقات.

وتجربة أمتنا المعاصرة خير دليل على ذلك فنحن لم نستوعب تاريخ أسلافنا، فَشَرَبْنَا من نفس الكأس، كأس الاستقلال الوهمي المؤدي إلى الالهيار.

ومع ذلك يبدو هَدَفًا طيبًا أن نتعرّف على تجربة الطولونيين والإخشيديين بِحُلُوهَا ومرها؛ لتتعرف على شريحة من التاريخ من الممكن أن تُفيدنا في حاضرنا لو درسناها بتحليل موضوعي، ومنهجية علمية إسلامية. إنهما حركتا انفصال داخل قلب الخلافة العباسية، ظاهرهما جميل، لكن باطنهما وآثارهما على المدى الطويل لا يَمْتَنان إلى الجمال بصلة.

## الأهداف التعليمية للوحدة:

عزيزي الدارس: يرجى بعد دراستك لهذه الوحدة أن تُصبح قادرًا على أن:

- ١- تعرف مصطلح الحركات الاستقلالية ومظاهرها.
- ٢- تعرف الأسرة الطولونية وأصولها وكذلك الأسرة الإخشيدية.
- ٣- تذكر السياسة الداخلية والخارجية للأسرتين الطولونية والإخشيدية.
- ٤- تستنتج أبعاد العلاقة بين الأسرتين الطولونية والإخشيدية والخلافة العباسية.
- ٥- تعرف خصائص السياسة الطولونية والإخشيدية.
- ٦- تعرف أسباب سيطرة الطولونيين والإخشيديين على الشام.
- ٧- تستنتج أسباب سقوط الدولتين: الطولونية والإخشيدية.
- ٨- تعرف مظاهر الاستقلال الحضاري والعسكري في الدولتين الطولونية والإخشيدية.
- ٩- تتعرف على بعض علماء مصر في هذا العصر. (العصر الطولوني، والإخشيدي).

الوحدة الثانية  
الدولتان الطولونية  
والإخشيدية



ماهية الحركات الاستقلالية ومظاهرها

أصول الأسرة الطولونية والإخشيدية

السياسة الخارجية والداخلية للدولتين

أبعاد علاقة الدولتين بالخلافة العباسية

خصائص السياسة الطولونية والإخشيدية

أسباب سقوط الدولتين الطولونية والإخشيدية

## الدولتان الطولونية (٢٠٤-٥٢٩٢هـ)

### والإخشيدية (٣٢٣-٥٣٥٨هـ)

أولاً: الدولة الطولونية:

بدأت الحركات الاستقلالية عن الخلافة العباسية مبكراً، واتخذ هذا الاستقلال مظاهر مهمة منها<sup>(١)</sup>:

- ١- أصبح الوالي يُخطب له ويذكر اسمه بعد اسم الخليفة.
  - ٢- وضع الوالي اسمه على السكة مع اسم الخليفة.
  - ٣- تكوّن له جيش خاص، وأحياناً وجهه الوالي لحرب ممثل الخلافة، كما حدث ضد الموفق.
  - ٤- أصبح لمصر أسطول بحري خاص قوي.
  - ٥- أصبح والي مصر يعين القضاة بنفسه، ويعين كل موظفي الدولة.
  - ٦- أصبح الحكم وراثياً، فعاصمة الخلافة لا ترسل والياً جديداً للبلاد عقب وفاة واليها، وقد حدث ذلك في مصر، فأقطعت الخلافة العباسية مصر لأحمد بن طولون، وهو من الأتراك الذين تقلدوا المناصب الكبرى في الجيش والإدارة، وصار منهم الولاة والوزراء.
- التعريف بالطولونيين:

ينتسب مؤسس الدولة الطولونية أحمد بن طولون إلى العنصر التركي الذي سيطر على مقاليد الدولة الإسلامية منذ القرن الثالث الهجري حتى استبدت بالأمور حين تولى الخلافة العباسية المتوكل على الله سنة (٥٢٣٢/٨٤٧م).

وكان طولون والد أحمد بن طولون أحد المماليك الأتراك الذين أهداهم نوح بن أسد الساماني حاكم بخارى إلى الخليفة العباسي المأمون<sup>(٢)</sup>، ونشأ طولون في

(١) حسن أحمد محمود: مصر في عهد الطولونيين والإخشيديين، دار الفكر العربي ١٩٩٠م (ص ٨٦).

محمود الخويري: مصر في العصور الوسطى، عين للدراسة والنشر، (ص ١٠٣، ١٠٤).

(٢) المقرئبي: الخطط، دار التحرير، بولاق ١٢٧٠هـ (١/٣١٢).

البلاط العباسي، وتدرج في المناصب حتى شغل منصب قائد الحرس الخاص للمأمون<sup>(١)</sup>، وامتد به العمر حتى خدم الخليفة العباسي المعتصم، ولعب دوراً مهماً في الحياة السياسية ببغداد، وأنجب عدة أبناء كان من بينهم أحمد بن طولون.

ولما تقلد القائد (باكباك) التركي مصر من قبل الخلافة العباسية، استخلف عليها أحمد بن طولون لأمانته وتدينه، وجعله على حاضرهما وضم إليه جيشاً، فدخلها في شهر رمضان سنة (٢٥٤هـ/٨٦٨م)، وبعد فترة قصيرة نفي باكباك مصرعه، وحل محله في ولاية مصر أمير تركي آخر اسمه (يارجوخ)، ورأى أحمد بن طولون -لتأمين مركزه في مصر- أن يتزوج ابنة هذا الوالي الجديد، ونتيجة لذلك أقره صهره على مصر وكتب إليه: "تسلم من نفسك إلى نفسك"<sup>(٢)</sup>.

وقد أثنى المؤرخون على أحمد بن طولون وأشادوا بنشاطه وفضائله، ومن ذلك ما ذكره بعض المؤرخين: "وسار أحمد بن طولون إلى طرسوس، وأعجبه ما عليه أهل الحق من تغيير المنكر وإقامة الحق، فأنس، وعكف على طلب الحديث، ثم رجع إلى بغداد وقد امتلاً علماً ودينًا وسياسة"<sup>(٣)</sup>.

ولم يكن أحمد بن طولون أول من تولى مصر من الأتراك؛ فقد قلد الخليفة المعتصم أبا جعفر أشناس التركي مصر (٢١٩-٢٣٠هـ/٨٣٤-٨٥٥م)، وقلد الخليفة الواثق (إيتاخ) التركي مصر (٢٣٠-٢٣٥هـ/٨٨٤-٨٩٩م)، وقلد الخليفة المتوكل الفتح بن خاقان بن أرتق مصر (٢٤٢-٢٤٧هـ/٨٥٦-٨٦١م)، وولّى الخليفة المعتز بالله مزاحم بن خاقان بن عرطوج مصر (٣٤٢هـ/٨٦٧م)، فلما توفي عين الخليفة المعتز بدله ابنه أحمد بن مزاحم والياً على مصر (٢٥٤هـ/٨٦٨م) على أن أحمد بن مزاحم

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، دار الكتب مصر ١٩٢٩م (١/٣).

(٢) البلوي: سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي (ص ٤٢-٤٦).

(٣) نكدي: الولاية والقضاء، بيروت ١٩٠٨م (ص ٢١٢)، والمقريزي: الحطط (١/٣١٨).

لم يلبث أن توفي هو الآخر، فولي بعده إمرة مصر الأمير باكبك التركي<sup>(١)</sup>. وعندما تولى أحمد بن طولون حكم مصر لم تكن مهمته سهلة، إذ كان عليه التخلص من منافس قوي هو عامل الخراج أحمد بن المدبر الذي كان يخضع نفوذه للخليفة العباسي، وحرّم أحمد بن طولون من مباشرة شئون مصر المالية، كما كان عليه التخلص من شقير صاحب البريد الذي كان لا يخضع لابن طولون، وينقل أخباره للخليفة، بل اتفق شقير وابن المدبر على مكاتبة الخليفة بعزل ابن طولون، ولكن ابن طولون استطاع أن يعزل كلياً من ابن المدبر وشقير بوسائله الخاصة، وذلك باسترضاء الخليفة ورجال البلاط في الخلافة بالهدايا والأموال والتحف، ومن ثم أصبح ابن طولون صاحب السلطة المطلقة في مصر<sup>(٢)</sup>، وكان ذلك سنة (٢٦٣هـ/٨٧٦م).

علاقة أحمد بن طولون بالخلافة العباسية:

ظهرت شخصية مصر المستقلة في عهد أحمد بن طولون على أنها دولة تسعى لمساندة الخلافة العباسية والوقوف إلى جانبها انطلاقاً من تقديرها لتلك الخلافة، وبدا ذلك واضحاً عندما ظهر الخلاف بين الخليفة المعتمد على الله (٢٥٦-٢٧٩هـ) وأخيه الموفق الذي استبد بحكم الخلافة وسيطر على أخيه وأصبحت له الكلمة العليا في الدولة العباسية، وبلغ من تضيق الموفق على أخيه المعتمد وإبعاده عن مباشرة أمور الدولة إلى درجة أن الخليفة احتاج يوماً إلى ثلاثمائة دينار فلم يجدها<sup>(٣)</sup>.

وكان الموفق قد استغل الأموال التي أرسلها إليه أحمد بن طولون لمساعدته في مواجهة

(١) علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٤٩م، (ص ٣٠٨).

(٢) ابن الأثير: الكامل، دار صادر بيروت ١٩٧٥م، (١٩٥/٦) البولي: سيرة أحمد بن طولون (ص ٤٤، ٤٣).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٢٧٠/٦).

ثورة الزنج<sup>(١)</sup> التي هددت الدولة العباسية خمسة عشر عاما (٢٥٥-٥٢٧٠م)، مما جعل العداء يشتد بينهما، وكتب إلى ابن طولون يلومه ويعنفه أشد العنف، ونتيجة لذلك أرسل ابن طولون إلى الموفق رسالة شديدة اللهجة يهدده فيها باستقلاله بمصر تماما عن الخلافة، ولولا حرصه على الخليفة لنفذ تهديده<sup>(٢)</sup>.

وضاق أحمد بن طولون ذرعًا بالموفق، فقطع صلته به، ومنع حمل المال إليه، وأخذ يوسع دائرة دولته، فاستولى على الرملة ودمشق وحمص وحمّاء، وحلب وأنطاكية وطرشوس<sup>(٣)</sup>، حتى صارت دولته تمتد من نهر الفرات شرقًا إلى برقة غربًا، ومن جبال طوروس شمالًا إلى شلال السودان جنوبًا.

وعندما فكر الخليفة المعتمد في الهرب إلى مصر للتخلص من قبضة أخيه الموفق، رحب أحمد بن طولون بمشروع نقل مركز الخلافة إلى مصر؛ لما سيعود عليه بالنفع من الناحية السياسية والأدبية والاقتصادية؛ إذ أن ذلك سيوفر عليه إرسال الأموال السنوية المعتادة إلى الخلافة، كما أن وجود الخليفة في مصر سوف يقوي نفوذ ابن طولون ويكسب حكمه صفة شرعية ضد محاولات غريمه الموفق<sup>(٤)</sup>.

وقد انتهز الخليفة فرصة اشتغال أخيه الموفق بإخماد ثورة الزنج، وخرج من مدينة سامرا سنة (٥٢٦٩/٨٨٢م) متوجهًا إلى مصر، ولكن الموفق ما لبث أن علم بمسير الخليفة، فمنعه، وأبقاه تحت سيطرته<sup>(٥)</sup>، وبذلك فشلت محاولة الخليفة للاستقرار في مصر ونقل الخلافة العباسية إليها، وما يترتب على ذلك من مزايا

(١) جمال سرور: تاريخ الحصار الإسلامية في الشرق، دار الفكر العربي ١٩٦٧م (١٧٢-١٧٤).

(٢) النوي: سيرة أحمد بن طولون (ص ٧٩-٨٥).

(٣) النوي: سيرة أحمد بن طولون (ص ٩٢-٩٥)؛ عن إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى (ص ٢٠٦-٢٠٩).

(٤) أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، الإسكندرية ١٩٨٧م، (ص ٣٣).

(٥) النوي: سيرة أحمد بن طولون (ص ٢٨١).

كثيرة أهمها: رفع شأن مصر في العالم الإسلامي، وحبس الأموال السنوية المعتاد إرسالها إلى بغداد والاستفادة بها في تعمير مصر وإنمائها<sup>(١)</sup>.

السياسة الداخلية لابن طولون:

اتبع أحمد بن طولون سياسة داخلية أكسبته حب المصريين؛ فقد استغل إمكانات مصر الاقتصادية والبشرية في رفع شأن البلاد، وبعدّ عهده البداية الحقيقية لمصر الإسلامية، لما بلغته مصر فيه من نجاح في أوجه الحياة السياسية والاجتماعية، وفي عهده تفوقت مصر مادياً ومعنوياً على حكومة الخلافة العباسية التي اضطرت للاعتماد على مصر<sup>(٢)</sup>. وشعر الناس في عهد ابن طولون بالرفاهية والاستقرار والرخاء بصورة لم نجدتها في إقليم آخر في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ويكفي أنه صار حاكماً على دولة واسعة شملت مصر إلى النوبة جنوباً، وامتدت غرباً إلى برقة، وشملت الشام أيضاً "وهو أول من جمع له بين مصر والشام في الإسلام"<sup>(٣)</sup> وخير تعبير عن وضع مصر في أيام أحمد بن طولون ما قاله القلقشندي<sup>(٤)</sup>: "وفي أيام أحمد بن طولون عظم شأن مصر وعلا قدرها، وانتقلت من الإمارة إلى الملك".

وحرص ابن طولون على استرضاء المصريين، فألغى الضرائب الظلمة التي فرضها ابن المدبر، واستبعد من ديوان الخراج كل من يشك في ذمته، وسكّ ديناراً جديداً عرف بالدينار الطولوني امتاز بدقة عياره وثقل وزنه وخلوه من الغش<sup>(٥)</sup>، وصحب هذه السياسة حرص شديد من ابن طولون على رعاية شئون الزراعة

(١) ابن الأثير: الكامل (٦/٣٢٨).

(٢) علي إبراهيم حسين: مصر في العصور الوسطى (ص ٢١٠، ٢١١).

(٣) القلقشندي: مآثر الأنافة في معالم الخلافة. الكويت ١٩٦٤م. (١/٢٥١).

(٤) المصدر السابق (١/٢٤٦).

(٥) حسن أحمد محمود: مصر في عصر الطولونيين (ص ٢٩).

والصناعة والتجارة، فأحسن إلى الفلاحين وخفف عنهم الأعباء المالية، وقدم لهم من الإصلاحات الزراعية، ما جعل إنتاج القمح يتضاعف في البلاد حتى بيعت العشرة أراذب بدينار واحد، وشجع الصناعة عن طريق تخفيف الأعباء المالية على الصناع، كما أمّن الطرق، وخفّف الضرائب؛ مما أدى إلى تشجيع التجارة الداخلية والخارجية. وقد رفض ابن طولون أن يحتكر بعض أصناف المتاجر، بل رفض أن يشغل بعض أمواله في التجارة؛ لما في ذلك من مشاركة قهريّة للتجار في أرزاقهم. وروى أبوالمحسن<sup>(١)</sup> أن بعض التجار حسّن لأحمد ابن طولون التجارة، فدفّع له أحمد بن طولون خمسين ألف دينار يتجر له بها، ولكن ابن طولون لم يلبث أن أرسل إلى التاجر وأخذ منه المال وتصدق به.

هذا بالإضافة إلى ما أجمعت عليه المصادر من أن أحمد بن طولون كان يتصدق كل شهر بألف دينار، فضلاً عن المنشآت الجليلة النافعة التي قام بها<sup>(٢)</sup>. ويقول المقريري عن صدقات أحمد بن طولون: "وكانت صدقاته على أهل المسكنة والستر من الضعفاء والفقراء وأهل التحمل متواترة، سوى مطابخه التي أقيمت في كل يوم للصدقات في داره الذي كان يذبح فيه البقر والكباش، ويغرف للناس في القدور الفخار والقصاع، على كل قدر أو قصعة أربعة أرغفة، وكانت تعمل في داره وينادي: من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر، وتفتح الأبواب ويدخل الناس، وابن طولون ينظر ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون، فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته"<sup>(٣)</sup>.

### سياسة ابن طولون الخارجية:

كان طبيعياً من خلال موقف أحمد بن طولون من الخلافة العباسية

(١) النجوم الزاهرة: (١٢/٣).

(٢) ابن سعيد: المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف ١٩٦٤م (١/١٣٢).

(٣) المقريري: المواعظ (١/٣١٦).

ورغبته في الاستقلال بمصر أن يُحكم سيطرته على بلاد الشام، ليكون على مقربة من بغداد، وظل ابن طولون يسعى لتحقيق هدفه حتى قلده الخليفة بلاد الشام سنة (٨٢٦٤/٨٧٧م)؛ فزحف على بلاد الشام على رأس جيوشه، وأخذ ينتقل من الرملة إلى دمشق إلى حمص، يثبّت سلطانه ويقوم نوابه، حتى وصل إلى أنطاكية، وقد رفض (سيما الطويل) صاحب أنطاكية أن يسلم المدينة لابن طولون، فحاصرها الأخير، واقتحمها عنوة وأخضعها لسلطانه، وبعد ذلك تقدم حتى وصل إلى طرسوس، على أطراف بلاد الروم، واكتفى ابن طولون بأن أرسل قواته للسيطرة على حران والرققة، وعاد هو إلى مصر سنة (٨٢٦٥/٨٦٨م) بعد أن بسط نفوذه على بلاد الشام حتى حدود العراق والروم<sup>(١)</sup>. وفي سنة (٨٢٦٩/٨٨٢م) اتجه أحمد بن طولون إلى الشام مرة أخرى ليواجه مؤامرة غلامه لؤلؤ الذي انضم إلى جيش الموفق، وليستقبل الخليفة العباسي المعتمد بعد أن أرسل له الأموال، ورسم له خطة الفرار، ولكنه لم يمكث في منطقة الثغور طويلاً وعاد بسبب مرضه، وهو المرض الذي أدى إلى وفاته في العالم التالي<sup>(٢)</sup>.

خلفاء أحمد بن طولون:

توفي أحمد بن طولون سنة (٨٢٧٠/٨٨٣م)، ولم يخلفه ابنه الأكبر العباس لغضبه عليه وحبسه، وولّى عهده ولده حمارويه، وأوصى لولده العباس ببلاد الشام ومنطقة الثغور.

حمارويه (٢٧٠-٨٢٨٢/٨٨٢-٨٩٥م):

أدرك حمارويه أن نجاحه في الميدانين الداخلي والخارجي يتوقف على تماسك بني طولون، وعدم حدوث أي انشقاق داخل الأسرة بعد وفاة أبيه، مع ضرورة

(١) الكندي: الولاة والقضاة (ص ٢١٩).

(٢) البلوي: سيرة ابن طولون (ص ٢١٠).

الاعتماد على عصبية قوية وجيش كبير يحمي الدولة من ناحية ويرد أي عدوان على دولة الطولونيين أو أي محاولة للانتقاص من استقلالها من ناحية أخرى<sup>(١)</sup>.

وفي سبيل ذلك لم يتردد حمارويه في التصرف بحزم، فقتل أخاه الأكبر العباس عندما امتنع عن تنفيذ وصية أبيهما ومبايعة حمارويه بالإمارة، على أن حمارويه كان يدرك أن الأمر لم يتم لأبيه إلا في حماية القوة المسلحة، وأنه لولا اعتماد أحمد بن طولون على جيش قوي لما استطاع الصمود في وجه المنافسين والخصوم والأعداء جميعاً، وخاصة ابن الموفق في العراق الذي كان قد اضطر إلى مصالحة ابن طولون عندما أعجزته قوته، لذلك كان على حمارويه أن يضاعف العناية بالجيش إذا أراد أن يحمي استقلاله ويدعم هذا الاستقلال، وهو ما قام به فعلاً.

#### سياسة حمارويه الداخلية:

وعندما استراح حمارويه من أكثر المتاعب الخارجية والموفق بوجه خاص، أخذ في إصلاح مملكته، فوجه عنايته نحو شؤون البلاد الداخلية، فتسامح مع أهل البلاد، وأجزل العطاء، مما جعله محبوباً من العامة والخاصة على السواء<sup>(٢)</sup>، وعظمت الثروة في مصر، فضلاً عن الأموال الكثيرة التي تركها له أبوه، ولم يحسن حمارويه الاستفادة من هذه الأموال، فأخذ يسرف في البناء، وأنواع الترف، وأهم ما قام به توسيع قصر أبيه بالقطائع، وتحويل الميدان إلى حديقة غناء لم يُسمع بمثلهما. ولما كثر أرقه وامتنع عليه النوم، أنشأ بركة من الزئبق يقال إنها خمسون ذراعاً طويلاً في خمسين ذراعاً عرضاً، يهتز عليها فراش لينام وهو يتهدد، وقد شد الفراش بخيوط من حرير إلى أعمدة من الفضة<sup>(٣)</sup>. وبنى داراً كبيرة أسماها دار الحرم، نقل إليها أمهات أولاد أبيه مع أولاده، وجعل معهن المعزولات من أمهات أولاده، وخصص لهن المال الجزيل

(١) ابن خنكان: وفيات الأعيان (٤٩/٢)، والمقريزي الخطط: النهضة المصرية ١٩٤٩م (١/٢٢٠).

(٢) حسن أحمد محمود: مصر في عصر الطولونيين (ص ٥٦).

(٣) المقريزي: الخطط (٣١٦/١)، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٣/٥٣، ٥٤).

والخدم والأتباع، وكان الطعام الفائض كل يوم من دار الحرم يوزع على الخدم والطباخين وغيرهم، فيأخذ كل واحد منهم من الدجاج ولحوم الضأن والقطائف والهراس الشيء الكثير، فكانوا يبيعون تلك الكميات الضخمة من الطعام للأهالي بحيث إن الفرد إذا فاجأه ضيق، خرج إلى باب دار الحرم فيجد فوراً ما يشتريه من أفخر الأطعمة بأرخص الأثمان "مما لا يقدر على عمل مثله"<sup>(١)</sup>.

ومما يدل على عظم رخاء مصر أيام خمارويه وتبذيره: أوصاف جهاز عرس (قَطْرَ الندى) ابنة خمارويه التي تزوجت من الخليفة المعتضد أحمد بن الموفق العباسي سنة (٨٢٨١/٨٩٤م)، وجهازها جهاز عظيم يتجاوز الوصف، حتى قيل إنه دخل معها في جملة جهازها ألف هارون من الذهب، "وكان من جملة جهازها دكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من الذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا يعرف لها قيمة، وعلى طول الطريق من مصر: إلى بغداد بنى له قصرًا مفروشًا بجميع ما تحتاج إليه على رأس كل منزلة تنزل فيها، بحيث إنهما على طول الطريق من مصر إلى بغداد كانت كأنهما في قصر أبيها"<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان المعتضد بالله قد حقق غرضه وحمل خمارويه في جهاز ابنته ما أجهده فإن خمارويه قد حقق من ناحيته غرضه في تحسين العلاقة مع الخلافة العباسية، فزالت الوحشة من بينهما، وصار بينهما مودة كبيرة<sup>(٣)</sup>، ويبدو أن الخليفة المعتضد أحبها حبًا شديدًا لجمال صورتها وشدة أدبها.

واستكثر خمارويه من الخدم والجواري حتى ضاعت هيئته، وتآمر عليه بعضهم فقتلوه في دمشق سنة (٨٢٨٢/٨٩٦م).

(١) المقرئ: الخطط (١/٣١٧).

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٣/٥٢).

(٣) المصدر السابق (٣/٥٢).

## سياسة خمارويه الخارجية:

لم يكد الموفق -أخو الخليفة المعتمد- يعلم بوفاة أحمد بن طولون حتى رأى فرصته قد حانت لاسترداد مصر والشام جميعاً من قبضة الطولونيين، وقد أحس خمارويه بنيات الموفق، فبادر بإرسال جيشين إلى الشام: أحدهما بقيادة كاتب أبيه أحمد ابن محمد الواسطي، والآخر بقيادة سعد الأيسر، وعزز هذين الجيشين بقوة بحرية ضخمة من المراكب "لتقييم بالسواحل الشامية"<sup>(١)</sup>.

واستعان الموفق بوالي مصر ووالي أرمينية وزحف الجميع على الشام، واستولت قوات الموفق على الرقة وقنسرين والعواصم، وتوغلت في بلاد الشام حتى استولت على دمشق وقاربت الحدود المصرية، فخرج خمارويه لملاقاة أعدائه، وتقابل الفريقان عند الرملة جنوبي فلسطين في شوال سنة (٥٢٧١هـ/أبريل ١١٨٥م)، فانزمت خمارويه وانسحب عائداً إلى مصر ومعه معظم جيشه. وفي تلك الأثناء ثبت سعد الأيسر قائد خمارويه مع بقية الجيش المصري، واستطاع أن يلحق الهزيمة بالأعداء ويستولي على دمشق<sup>(٢)</sup>.

وأراد سعد الأيسر استغلال انتصاره والعمل لحسابه، فاستولى على دمشق وخرج خمارويه إلى الشام (٥٢٧٢هـ/١١٨٥م)، وهزم سعد الأيسر وقتله، وهزم ابن كنداج، فعظم أمر خمارويه وهابته الناس<sup>(٣)</sup>.

وأدرك أحمد الموفق -أخو الخليفة- أن خمارويه لا يقل عن أبيه قوة وعزيمة، فوافق الموفق على الصلح الذي طلبه خمارويه، وكتب لخمارويه بولايته على مصر والشام والتغور ثلاثين سنة<sup>(٤)</sup>.

(١) المقريري: الخطط (١/٢٢٠).

(٢) الكندي: الولاة والقضاة (ص ٢٣٥).

(٣) أبوالمحسن: النجوم الزاهرة (٣/٥١).

(٤) المقريري: الخطط.

و لم تنته متاعب خمارويه بهذا الصلح؛ فقد بلغه مسير محمد بن أبي الساج - عميل الموفق - إلى مصر، فخرج إليه خمارويه وقاتله على نهر دجلة حتى هزمه سنة (٢٧٦هـ/٨٨٨م) فدانت لسلطان خمارويه الموصل والجزيرة، وخضع له (يا زمان الخادم) والي طرسوس، بعد أن كان قد أعلن خروجه عن طاعة الطولونيين سنة (٢٧٠هـ/٨٨٣م) وسرعان ما أدى استقرار الأمور لخمارويه في الأنحاء الشمالية لدولته إلى استئناف سياسة الجهاد ضد الروم سنة (٢٧٨-٢٧٩هـ/٨٩١-٨٩٢م) الأمر الذي جعل الروم يطلبون الصلح سنة (٢٨٣هـ/٨٩٦م)<sup>(١)</sup>.

### نهاية الدولة الطولونية:

حكّم مصر بعد مقتل خمارويه ثلاثة من آل طولون، لم يزد حكمهم جميعاً على عشر سنوات، سقطت بعدها الأسرة الطولونية، وشهدت هذه السنوات العشر الأخيرة انحلالاً وتدهوراً سريعاً، وزاد في ذلك الانحلال انقسام البيت الطولوني على نفسه فأبناء خمارويه كانوا صغاراً ضعفاء، وإخوة خمارويه كانوا أشداء أقوياء، كل منهم متحفز للحصول على نصيب الأسد من تركة أبيهم أحمد بن طولون، وأفسدت النعمة جند خمارويه وغلمانهم وقادة جيشه.

وخلف خمارويه ابنه أبو العساكر، وكان صغيراً منغمساً في اللهو، اتخذ من سفلة الناس حاشية له، وغدر بعمه أبي العشائر وقتله، فغضب عليه أمراء الجيش وتبرأ العلماء من بيعته، وخلع وسجن سنة (٢٨٣هـ/٨٩٦م)، ثم قتل بعد بضعة أيام<sup>(٢)</sup>.

(١) الكندي: الولاة والقضاة (ص ٢٣٩).

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك (٨/١٧٤)، وابن تغري بردى: النجوم الزاهرة (٣/٩٣-٩٤).

تولى أبو موسى هارون (٢٨٤-٥٢٩٢هـ) بعد أخيه أبي العساكر، وكان صغيراً لم يزد سنه على الرابعة عشرة، فقام بالوصاية عليه أبو جعفر محمد بن أبي، فحكم هارون اسمياً ثماني سنين وثمانية أشهر، واضطربت الأمور وانتهى الأمر بمقتل هارون سنة (٥٢٩٢/٤م) (١).

وأدى ضعف الدولة الطولونية إلى تحقيق رغبة الخلافة العباسية في إعادة مصر إلى نفوذها المطلق، فأرسل الخليفة المكتفي قائده محمد بن سليمان الكاتب للقاء على الطولونيين، فنزل بجمص وبعث بأسطول إلى سواحل مصر، وفي تنيس التقى الأسطولان العباسي والمصري، فحلت الهزيمة بأسطول مصر، ووقعت تنيس ودمياط في يد محمد بن سليمان (٢)، وفي هذه الأثناء تولى شيان عم هارون، وكان مبدراً أهوج، فظهرت في عهده الأزمة المالية، فلم يستطع دفع رواتب الجند، فثاروا عليه، وقاتلوا محمد بن سليمان قائد العباسيين، فنزل الفسطاط، وأحرق مدينة القطائع عاصمة الطولونيين، ونهب أصحابه الفسطاط، وكسروا السجون وأخرجوا من فيها، وهجموا على الدور، واستباحوا الحرم، وهتكوا الرعية، وساقوا النساء، وفعلوا كل قبيح من إخراج الناس من دورهم إلى غير ذلك (٣). وهكذا قضى على الدولة الطولونية، وخربت القطائع، ولم يبق منها غير المسجد الجامع شاهداً على هيبة الدولة الطولونية.

(١) المقرئ: الخطط (١/٣٢١)، وابن تغري بردى: النجوم الزاهرة النجوم الزاهرة (ص ٨٨).

(٢) المقرئ: الخطط (١/٣١٢)، حسن محمود: مصر في عصر الطولونيين (ص ٧٦).

(٣) المقرئ: الخطط (١/٣٢١).

## ثانياً: الدولة الإخشيدية

التعريف بالدولة الإخشيدية:

تعدّ الدولة الإخشيدية (٣٢٣-٥٣٥٨هـ) المحاولة الاستقلالية الثانية في مصر الإسلامية، وسميت هذه الدولة بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها أبي بكر محمد بن طغج بن جفّ الإخشيد.

وكان (جف) جد طغج من القادة الأتراك، فرغاني الأصل، التحق بخدمة الخليفة المعتصم العباسي فأنعم عليه الخليفة وقربه إليه وأقطعه إقطاعات، وظل جفّ مقرباً إلى الخليفة المعتصم إلى أن توفي المعتصم، فاتصل جف بخدمة الخليفة الواصل ثم المتوكل من بعده، وتوفي في ليلة مقتل المتوكل سنة (٥٣٤٧هـ)<sup>(١)</sup>.

وكان طغج من قادة الأتراك البارزين الذين اتصلوا بخدمة الطولونيين، فخدم أحمد ابن طولون وولده حمارويه من بعده، فولاه حمارويه على ولاية دمشق وطبرية في الشام، وظل والياً عليها حتى نهاية الدولة الطولونية سنة (٥٣٩٣هـ). وقد ولد ابن طغج في بغداد سنة (٥٢٦٨هـ) وعني أبوه بتربيته وعهد إليه ببعض الأعمال منذ الصغر، فكان نائباً عنه في أعمال طبرية، وكان محمد بن طغج حريصاً على أن تكون له شخصيته البارزة في طبرية، وألا يكون لأحد إلى جواره أمر أو نهي<sup>(٢)</sup>، وبعد سقوط الدولة الطولونية عزلت الخلافة العباسية رجال الطولونيين من أعمالهم، فسار طغج ومعه ولده محمد وعبيدالله إلى بغداد حيث كاد له الوزير العباس بن الحسن فدخل السجن ومعه ولده، وتوفي في السجن سنة (٥٢٩٤هـ)، وقيل إنه مات مسموماً بتدبير الوزير العباس.

خرج محمد وأخوه من السجن بعد موت أبيهما وأظهرا الخضوع للوزير، وعندما

(١) ابن خنكان: وفيات الأعيان (٥٩/٢).

(٢) سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى (ص١٣٦).

عمل الحسين بن حمدان على قتل العباس وضربه بالسيف في وجود محمد وعبيد الله ابني طغج صاح ابن حمدان فيهما: هذا بئار كما فتقدا وضربا العباس بسيفيهما وفرًا<sup>(١)</sup>.

هرب محمد بن طغج الإخشيد إلى الشام، والتحق بخدمة أحمد بن بسطام عامل الخراج هناك، وعندما تقلد ابن بسطام خراج مصر صار معه الإخشيد إليها، وظل في خدمته إلى أن توفي ابن بسطام سنة (٥٢٩٧هـ)، وظل محمد بن طغج في مصر، واتصل بخدمة الوالي تكين الخزري.

وقد أظهر ابن طغج اهتماماً في الخدمة، واشترك في مقاومة الحملة الفاطمية الأولى التي جاءت إلى مصر سنة (٥٣٠٢هـ)، وأظهر شجاعة وقوة، فضمه تكين إلى صحبه وقربه إليه، ولم يقتصر ابن طغج في خدمته على خدمة تكين وإنما دفعه طموحه إلى التقرب من الشخصيات القوية البارزة والعمل على كسب ثقتها، فخدم مؤنس الخادم أثناء وجوده في مصر لمواجهة الفاطميين، وخدم أسرة الماذرائيين التي كانت لها مكانة كبيرة وخاصة في مجال المال والاقتصاد، وخدم كذلك محمد بن جعفر القرطي عامل الخراج في مصر، وعندما تعرض القرطي لمحاولة قتل من جانب الماذرائيين الذين كانوا يرغبون في أن يخلو لهم أمر الخراج والمال في مصر حمأه محمد بن طغج وهياً له الخروج من مصر إلى بغداد، فحفظ له القرطي هذا الجميل العظيم، وكان لهذا أثر كبير في حياة ابن طغج، فحين وقعت وحشة بين تكين الخزري وبين محمد بن طغج جعلت ابن طغج يعمل على الخروج من مصر، فخرج منها هاربا وتولى الرملة بالشام ثم سعى ليتولى أمر دمشق بدلاً من الرملة، ونجح في ذلك وتولى دمشق سنة (٥٣١٩هـ)، بمساعدة محمد بن جعفر القرطي<sup>(٢)</sup>. ثبت الإخشيد أقدامه في دمشق وتصدى للطامعين فيها،

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة المؤسسة المصرية العامة لتأليف القاهرة ١٩٦٣ (٢٣٦/٣).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٥/٥٦).

وذلك عند صدور قرار بعزله عن دمشق وتعيين بشري غلام مؤنس الخادم، فقد سار بشري إلى دمشق فقاتله الإخشيد وأسره<sup>(١)</sup>.

وكان الإخشيد يطمع في ولاية مصر، إلا أن أطماعه فيها لم تظهر في حياة تكين الخزري والي مصر القوي، وعندما توفي تكين سنة (٥٣٢١هـ)، أخذ محمد بن طنج الإخشيد يسعى لولاية مصر عند الخليفة القاهر، ورفض الخليفة ذلك في بداية الأمر، ثم أعطى محمد بن طنج تقليداً على مصر إلى جانب ولايته على دمشق وذلك بمساعدة بعض رجال بغداد، ولكن هذه الولاية لم تستمر أكثر من اثنين وثلاثين يوماً، ولم يدخل محمد بن طنج فيها مصر، ثم عزل عن ولايتها، وولي أحمد بن كيغلق، ولكن الإخشيد لم يتوقف عن السعي للوصول إلى ولاية مصر، ونجح في مسعاه في خلافة الراضي الذي أعطى محمد بن طنج عهداً بولاية مصر إلى جانب ما في يده من أعمال الشام<sup>(٢)</sup>.

مجيء الإخشيد إلى مصر والياً وبسط نفوذه عليها:

أراد محمد بن طنج أن يخوض صراعاً يقضي فيه على خصومه المناوئين له في مصر، فقد كان أحمد بن كيغلق والي مصر لا يريد التفريط فيها، وكذلك كانت أسرة الماذرائيين الطامعة في السلطان والنفوذ في مصر ترفض ولاية الإخشيد، ولذلك أعد الإخشيد العدة الكافية، وانضم إليه رجال من الشام والجزيرة والعراق والثغور، وأرسل أسطولاً قوياً نحو مصر بنجح في الاستيلاء على تنيس وتقدم نحو القسطنطينية، ثم جاء محمد بن طنج إلى مصر في جيش بري قوي ودخل مصر بالقوة، وعندما وجد المنافسون له قوته ومنعته استسلموا لولايته، وانضم إليه كثير من رجال مصر<sup>(٣)</sup>.

(١) سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين مصر ١٩٧٠ (ص ٦٣-٦٤).

(٢) المرجع السابق (٣/٢٦٣).

(٣) المرجع السابق (٣/٢٣٦).

وكره جماعة من الجند المصريين وهم المغاربة بقيادة حبشي بن أحمد المقام في مصر مع محمد بن طغج عندما دخلها، وخرجوا إلى الشرقية ثم لحقوا بالفيوم وساروا إلى الإسكندرية، ثم إلى برقة، وكتبوا إلى الخليفة القائم بأمر الله الفاطمي يستأذنون في الدخول في عمله فأذن لهم، وطلبوا منه أن يبعث معهم جيشًا يأخذون به مصر، فإنهم يعلمون وجوه الحرب وكيف الوصول إليها، ثم توفي حبش بن أحمد في صفر سنة (٥٣٢٤هـ)، وأرسل إليهم الخليفة القائم جيشًا سار معهم إلى الإسكندرية، وبلغ ذلك محمد بن طغج فأرسل العساكر إلى الإسكندرية والصعيد في ربيع الأول سنة (٥٣٢٤هـ)، ودخل الجيش القادم من أفريقيا الإسكندرية في ربيع الآخر فهزمه جيش الإخشيد هزيمة شديدة، وأكد الإخشيد بذلك قوة سلطانه في مصر وأنه حريص على المحافظة عليها من أي هجوم يتهددها أو ينتزع منه السيطرة عليها<sup>(١)</sup>.

#### الإخشيد والخلافة العباسية:

كان محمد بن طغج الإخشيد شخصية طموحة، سعى لولاية مصر ووصل إليها، فدخلها، وكان له طموحه السياسي في الاستقلال بها، وكانت الظروف السياسية تخدم هذا الطموح، فقد كان الإخشيد يهدد العباسيين بالانضمام إلى الفاطميين إذا شعر بالخطر من ناحيتهم، وفي الوقت نفسه كان يهادن الفاطميين ويحاول أن يجعل علاقته بهم ودية، وقد كانت العلاقة بين الإخشيد والعباسيين جيدة. ويذكر ابن سعيد أن الخليفة العباسي أنعم على ابن طغج بلقب الإخشيد سنة (٥٣٢٧هـ)، وأن محمد بن طغج أرسل هدايا إلى الخليفة. قال ابن سعيد: وفي شهر رمضان من سنة سبع وعشرين ورد كتاب الراضي مع رسول يعرف بابن الشيعي بلقبه الإخشيد، وهذا أول ما لقب به، فدعي بذلك على منبر الفسطاط

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (١١/١٨٤).

وسائر المنابر، وكتب بذلك على كتبه وكتب به وعبأ الإخشيد مالا كثيرا وهدية، وكرامًا وبغلاً، وحميراً، وثياباً، وأنفذ ذلك إلى الراضي " وإنعام الخليفة على محمد بن طغج بلقب الإخشيد كان بطلب من ابن طغج، وهو يكشف عن جانب من جوانب الطموح عنده؛ إذ أن هذا اللقب يعني في لغة فرغانة- التي منها جف جد محمد بن طغج - يعني ملك الملوك<sup>(١)</sup>.

ولقد شهدت سنة (٥٣٢٨) بداية السلوك السيئ بين العباسيين والإخشيد وظلت العلاقة بين الإخشيد والخليفة العباسي ودية حتى سنة (٥٣٢٨)، فقد قلد الخليفة العباسي الراضي مصر لأمير الأمراء محمد بن رائق الخزري في هذه السنة. ويروي ابن سعيد: أن الإخشيد عندما بلغه أن الراضي قلد ابن رائق وأنه سار من العراق إلى أعمال الإخشيد، سارع الإخشيد بالدعوة للقائم الفاطمي نكاية في الراضي العباسي، إلا أن الدعوة للقائم لم تتم، وقد خرج الإخشيد لحرب ابن رائق الذي تقدم نحو الشام، وأخذ دمشق واتجه نحو مصر، فالتقى مع الإخشيد عند العريش وانهمز ابن رائق وولى مدبراً، ومع ذلك عقد الإخشيد معه صلحاً سيطر بمقتضاه ابن رائق على الأراضي الشامية الواقعة شمالي الرملة، وتعهد الإخشيد بدفع مبلغ سنوي لابن رائق، وبعد عامين من هذا الصلح توفي ابن رائق وعاد نفوذ الإخشيد على الشام كله<sup>(٢)</sup>.

تحسن العلاقة بين العباسيين والإخشيد:

تحسنت علاقة الإخشيد بالخلافة العباسية وخاصة بعد وفاة الراضي وولاية المقتضي الخلافة، ففي سنة (٥٣٣١)، عهد الإخشيد لابنه أبي القاسم أنوجور من بعده، وكانت هذه خطوة أساسية نحو الاستقلال، وقبل الخليفة العباسي المقتضي ذلك وكان

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٣/٢٥٤-٢٥٥).

(٢) سيده كاشف: مصر في عصر الإخشيديين (ص ٩٥).

المقتضي يعاني من سيطرة أمير الأمراء، والتقى مع الإخشيد وعرض عليه الإخشيد السير معه إلى مصر، وخشي تورون من تقارب الخليفة والإخشيد، فأرسل إلى الخليفة يعتذر له، وخشي الخليفة من تورون فرفض السير إلى مصر مع الإخشيد، وقدر الخليفة هذا الموقف للإخشيد، وجدد له مصر والشام، ولولده من بعده مدة ثلاثين سنة<sup>(١)</sup>.

### الإخشيد والحمدانيون:

وقد تعرض نفوذ الإخشيد في الشام لتهديد جديد من جانب الحمدانيين الذين كانوا قد نجحوا في الوصول إلى منصب إمارة الأمراء في بغداد وعملوا، على توسيع نفوذهم خارج بغداد والجزيرة، فزحف سيف الدولة الحمداني سنة (٥٣٣٤هـ) نحو الشام واستولى على المناطق الشمالية، واتخذ من حلب قاعدة لملكه هناك، وقد تقدم الإخشيد نحو الشام وهزم سيف الدولة، ومع هذا تصالح معه على أن يتقلد سيف الدولة ولاية حلب وأن يدفع له الإخشيد مبلغاً من المال، وكان الإخشيد يقصد من وراء ذلك أن يجعل الحمدانيين حاجزاً بينه وبين الروم الذين يهاجمون الشام والثغور من حين لآخر<sup>(٢)</sup>.

### خلفاء الإخشيد:

خلف الإخشيد ولدان هما: أبو القاسم أنوجور، وتولى من سنة (٥٣٣٤هـ) حتى سنة (٥٣٤٩هـ)، وأبو الحسن علي؛ وتولى من سنة (٥٣٤٩هـ) حتى سنة (٥٣٥٥هـ). ولكن الحاكم الفعلي في هذه الفترة كان كافورا الإخشيدي الذي تولى الوصاية على ولدي الإخشيد، وحكم البلاد باسمهما، وعندما توفي أبو الحسن علي سنة (٥٣٥٥هـ) تولى كافور ولاية مصر رسمياً حتى سنة (٥٣٥٧هـ).

وكانت سياسة كافور تهدف إلى المحافظة على استقلال مصر؛ ولذلك اتبع

(١) أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي (ص ٢٩٤).

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٣/ ٢٥٤-٢٥٥).

سياسة الإخشيد في مصانعة العباسيين والفاطميين. ويقول عنه ابن تغري بردي في ذلك: "كان يهادي المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه، وكذا يدعن بالطاعة لبني العباس ويداري، ويخدع هؤلاء وهؤلاء وتمّ له الأمر"<sup>(١)</sup>. وكان كافور يرفض أي تهديد حقيقي لأمن مصر، فعندما قدم عسكر للمعز الفاطمي إلى الواحات جهز إليهم كافور جيشا أخرجهم من مصر<sup>(٢)</sup>.

وكان كافور يتمتع بمخصال معنوية كثيرة؛ فقد كان كريماً ذكياً يحسن تدبير الأمور وتأليف قلوب الرجال ومدارة الأعداء، وكان بلاطه مركزاً، وكان كافور قريباً من المصريين، وكانت مطابجه لا تكف عن العمل ويعمل الولايم الفخمة ويدعو إليها الناس، وكان ينظر بنفسه في حوائج الناس ويقضي مصالحهم ويرد المظالم إلى أهلها<sup>(٣)</sup>، وتوفي كافور سنة (٣٥٧هـ)، واضطرب أمر مصر، ونجح الفاطميون في الاستيلاء عليها<sup>(٤)</sup>.

## حضارة مصر في عهد الطولونيين والإخشيديين

أولاً: حكم الطولونيون مصر ثمانية وثلاثين عاماً (٢٥٤-٢٩٢هـ) ورغم قصر مدة حكمهم إلا أنها تعدّ فترة مهمة في تاريخ مصر، وذلك لظهور مصر بصورة الدولة المستقلة، ولثراء مصر المادي في هذه المدّة، وأهم المظاهر الحضارية في هذا العصر هي:

### أ - نظم الحكم والإدارة:

كانت مصر حتى قيام الدولة الطولونية إحدى ولايات الخلافة الإسلامية

(١) ابن حنكان: وفيات الأعيان (٩٩/٤-١٠٠).

(٢) المقريري: الخطط (٢٦/٢).

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٦/٤).

(٤) المصدر السابق (٢٥/٤).

العباسية، غير أنهما في فترة الدولة الطولونية ظهرت بصورة مستقلة، فاختط ابن طولون مدينة جديدة هي القطائع التي أصبحت مركزاً لحكمه، ونظم دواوين الإنشاء والخراج والجيش وغيرها<sup>(١)</sup>.

### ب- الجيش والأسطول:

كون الطولونيون جيشاً قوياً كثير العدد والعدة، وكان لابن طولون السلطان على الجيش ورجاله<sup>(٢)</sup>، وكانت أهم فرق الجيش من السودان والترك والعرب، فشمّل أكثر من أربعة وعشرين ألفاً من الأتراك، وأربعين ألف سوداني، وسبعة آلاف مرتزق، وكانت ميزانية مرتبات الجيش في عهد حمارويه تسعمائة ألف دينار سنوياً<sup>(٣)</sup>، وكون حمارويه طائفة من مولدي الجوف القادمين من شمال مصر.

أما الأسطول فكان موضع اهتمام الطولونيين، ليحموا به شواطئ مصر والشام، ويحتفظوا باستقلالهم في وجه الخلافة العباسية، فاهتم أحمد بن طولون بأمر الأسطول، وجدد بناء دور الصناعة التي تصنع بما السفن، ودب النشاط في القواعد البحرية في دمياط والإسكندرية، وذكر المقرئزي: أن ابن طولون بنى "أسطولاً يتألف من مائة مركب حربية سوى ما يضاف إليها من العلابيات والحمامم والعشاريات والسانيك والزوارق وقوارب الخدمة"<sup>(٤)</sup>.

وقد أدت سيطرة الطولونيين على الشام إلى تحكّمهم في ثغوره وموانيه، مما حقق لهم الإشراف على مياه الجزء الشرقي في حوض البحر المتوسط<sup>(٥)</sup>.

وكان أن أخذت وحدات من الأسطول المصري تخرج من مواني الشام

(١) القلقشندي: صبح الأعشى (٢٨/١١-٢٩).

(٢) علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى، دار الفكر العربي ١٩٤٨ م (ص ٣٢٣).

(٣) المقرئزي: الخطط (٣١٧/١)؛ مصطفى بدر: مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٥٩ م (ص ١٥٠).

(٤) الخطط (٣١٧/١).

(٥) سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية (ص ٩١).

لتهاجم سفن الروم في بحر إيجه وبحر اليونان. ومن أبرز الغارات التي قام بها الأسطول المصري على الروم مهاجمة سالونيكاً سنة (٥٢٩٣هـ/٩٠٤م)<sup>(١)</sup>.

وفي العصر الإخشيدى تألف الجيش الإخشيدى من ٤٠٠,٠٠٠ (أربعمائة ألف) مقاتل من مصر والشام. أما العناصر التي تكوّن منها هذا الجيش فكانت: الترك والسودان، فضلاً عن مماليك ينتمون إلى جنسيات متباينة، وكان محمد بن طغج يحرص على استعراض الجيش في أيام الأعياد، وفي بعض المناسبات الأخرى، مثلما كان يفعل ابن طولون من قبله، كما تولى بنفسه قيادة الجيش في بعض المعارك، وتمتع قادة الجيش بكلمة مسموعة في شئون البلاد وخاصة تولية الأمور.

وانحل الجيش الإخشيدى بعد وفاة الإخشيد، واستبداد كافور بالأمر، فانقسم الجيش إلى طائفتين: الإخشيديين والكافوريين، وإذا كان الإخشيد قد استطاع بفضل قوة شخصيته وحزمه أن يسيطر على العناصر المتباينة التي تألف منها الجيش، فإن التآلف بين هذه العناصر صار أمراً صعباً على خلفائه، ولم يجد كافور وسيلة للسيطرة على الجيش سوى إغداق الأموال على رجاله، وهذا منطوق كل حاكم ضعيف، لذلك لا عجب إذا سرى الانحلال بين صفوف الجيش بعد وفاة كافور، فكثرت ثورات الجنود وتدخلهم في شئون الحكم، مما آذن بانتهاء الدولة الإخشيدية<sup>(٢)</sup>.

أما الأسطول فقد حظي بعناية الإخشيد مثلما حظي بعناية الطولونيين، ويقال إن محمد بن طغج الإخشيد نقل جزءاً من دار صناعة السفن من جزيرة الروضة إلى الفسطاط، وبذلك غدت السفن بعضها في دار الصناعة بمصر (الفسطاط) والبعض في دار صناعة الجزيرة (الروضة)<sup>(٣)</sup>. والحق أن العناية

(١) الخطط (١/٣٢٢).

(٢) سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين (ص ٢١٦-٢١٧).

(٣) سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية (ص ٩٤).

بالأسطول كانت أمرا جوهريا بالنسبة لأي حاكم في مصر حريص على أن يحمي دولته ذات الشواطئ الطويلة الممتدة على أكبر بحرين في منطقة الشرق الأدنى.

### ج - العمران:

أسس أحمد بن طولون مدينة جديدة في سنة (٥٢٥٦/٨٧٠م) على (جبل يشكر) الذي يعرف (بقلعة الكيش) بين القسطنطين وتلال المقطم. وقد سميت المدينة الجديدة باسم القطائع لأن كل طائفة من رجاله اتخذت لها قطعة لسكانها، فيقال: قطعة السودان، وقطعة الروم، وقطعة الفراشين، ونحو ذلك. وبنى القواد مواضع متفرقة، فعمرت القطائع، وبنى فيها المساجد والطواحين والحمامات، فصارت القطائع مدينة كبيرة<sup>(١)</sup>. وبنى ابن طولون في مدينة القطائع قصرا ضخما جعل أمامه ميدانا فسيحا ليستعرض فيه الجيش، ثم أقام حول القصر ثكنات لجنوده وحاشيته<sup>(٢)</sup>، ولما مات ابن طولون وخلفه ابنه خمارويه، زاد في قصر أبيه، وجعل الميدان كله بستانا زرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر. كما بنى مسجده الجامع على سفح (جبل يشكر) وهو لا يزال باقيا حتى الآن. وقد بنى أحمد بن طولون المارستان (المستشفى) في سنة (٥٢٥٩/٨٧٢م) لعلاج المرضى دون تمييز بين الطبقات والأديان، وجعل العلاج فيه دون مقابل، وألحق به صيدلية لصرف الأدوية<sup>(٣)</sup>، فإذا دخل المريض المستشفى تنزع ثيابه وتقدم له ثياب أخرى، ويودع ما معه من المال عند أمين المارستان، ويظل المريض تحت العلاج حتى يتم شفاؤه، وكانت دلالة شفاء المريض قدرته على أكل رغيف ودجاجة، وعندئذ يسمح له بمغادرة المستشفى، وكان ابن طولون يتفقد المستشفى ويتابع علاج الأطباء، ويشرف على المرضى<sup>(٤)</sup>.

(١) المصدر السابق.

(٢) الخطط (١/٣١٥).

(٣) أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي (ص ١٣٢).

(٤) سيدة كاشف: أحمد بن طولون (ص ٢٥٢-٢٥٣).

## د- الأحوال الاقتصادية:

انتعشت الأحوال الاقتصادية المصرية زمن الطولونيين، فكثرت الأموال ورخصت الأسعار، وتوفرت السلع<sup>(١)</sup>، وشجع أحمد بن طولون الزراعة، فوفر المحاصيل وأصلح الترع والقنوات، وحفر الحديد منها، ولم يظلم الفلاحين، مما أدى إلى زيادة المساحات المزروعة، وبيع كل عشرة أراذب من القمح بدينار. أما الصناعة فازدهرت هي الأخرى. ويشهد بذلك عمارة الطولونيين، وجهاز عرس قطر الندى بنت خمارويه. ومن أهم الصناعات في هذه الفترة: المنسوجات الكتانية والصوفية والحريرية والقطنية والمعادن والأسلحة والسكر والزيت وغيرها<sup>(٢)</sup>. أما أشهر المدن الصناعية فكانت تيس، ودمياط، وشكا، ودميرة، والفيوم، والبهنسا، وإحميم.

كما عرفت مصر حركة تجارية كبرى بحكم موقعها الجغرافي الفريد، فوصلت البضائع إلى بلاد الهند والصين وإلى مواني إيطاليا وفرنسا، كما انتعشت التجارة الداخلية، فحفلت أسواق القطائع بكل صنف من البضائع<sup>(٣)</sup>.

ويلاحظ أنه في أيام الإخشيديين ظلت الفلاحة الحرفة الأساسية لغالبية المصريين ومصدر رزقهم كما كانت أيام الطولونيين وغيرهم، وكانت جميع أراضي مصر تروى بطريقة الحياض مرة واحدة في العام زمن الفيضان، ومن ثم فقد اعتمدت الحياة الاقتصادية في البلاد اعتمادا تاما على فيضان النيل، فإذا جاء الفيضان كافيا رويت الأراضي وأنبتت، وعم الرخاء البلاد والعباد. أما إذا جاء فيضان النيل منخفضا، فعندئذ يشتد الغلاء وينتشر الوباء، كما حدث سنة

(١) اللوي: سيرة أحمد بن طولون (ص ٣٦٣-٣٦٤).

(٢) زكي محمد حسن: الفن الإسلامي في مصر، القاهرة د.ت (ص ٨٥) وما بعدها.

(٣) حسن أحمد محمود: مصر في عصر الطولونيين (ص ١١٣-١١٧).

(٣٢٩، ٣٤١، ٣٤٣، ٥٣٥٢/٩٤٠، ٩٤٩، ٩٥٣، ٩٥٤، ٩٦٣م)<sup>(١)</sup>. وقد تنوعت الحاصلات الزراعية، والتي كان من أهمها: الكتان والخضروات والفواكه، ويبدو أن دور الحكومة كان محمداً في إصلاح الجسور وحفر الخللجان والترع؛ إذ تركت الحرية للفلاحين المستفيدين من كل منطقة<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان الإنتاج الصناعي في ذلك العصر قد اقتصر على صناعة الخصر والمنسوجات وبعض الصناعات الخشبية والمعدنية، فإن التجارة كان لها -دون شك- شأن أكبر في حياة مصر الاقتصادية؛ ذلك أن موقع مصر الفذ بين الشرق والغرب كان له أثره دائماً في نشاطها التجاري، وإن كان جزء كبير من هذا النشاط قد تركز في أيدي اليهود والفرس<sup>(٣)</sup>.

كذلك ساعد نهر النيل على نشاط التجارة الداخلية، فقام بدوره التقليدي الكبير بوصفه الشريان الضخم الذي يربط جنوب البلاد بشمالها، فظلت المراكب تسلكه شمالاً وجنوباً تحمل المتاجر والحاصلات، مما أدى إلى نشاط التجارة الداخلية<sup>(٤)</sup>.

على أنه يبدو أن الحياة الاقتصادية كانت مضطربة بوجه عام في عصر الإخشيديين؛ ذلك أن حرص الإخشيد وبخله ودأبه على جمع المال، جعله يقلل في النفقة، فأهملت كثير من مرافق البلاد. هذا إلى أن الضرائب كانت قاسية، وكثيراً ما لجأ الإخشيد إلى مصادرة أموال الأغنياء، مبرراً سلوكه الحاطي بأنه إنما يفعل ذلك للحصول على المال لسد نفقات الدولة، ولكن هذه المبررات لم يستسغها الشعب، وخاصةً لما حدث من النشاط الاقتصادي، فضلاً عن أن الإخشيد استثار غضب الناس بسبب تضييقه عليهم<sup>(٥)</sup>.

(١) سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين (ص ٢٦٤).

(٢) المقريري: الحظ (١/٨٢).

(٣) سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين (ص ٢٧٩).

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم (ص ١٩٨).

(٥) أبو الفدا: المحتصر في أخبار الشر (٢/١٠٠).

## هـ - الأحوال الاجتماعية:

اتخذ الطولونيون بطانة من رجال الجيش، فكوتوا فئة جديدة، والتف حولهم كبار الموظفين، وكثير من هؤلاء وفدوا على مصر، وتحولوا مع الزمن إلى فئات مترفة تفيض حياتهم بالبذخ والثراء. أما معظم سكان مصر فامتزجوا مع بعضهم، وكثر المسلمون، وظهر جيل جديد من المولدين، وتمتع المصريون في العصر الطولوني بحياة اجتماعية مستقرة وميسورة<sup>(١)</sup>.

## و - الحياة الفكرية:

كان للعلوم الدينية في مصر الإسلامية الغلبة، فظهر كثير من العلماء منهم من المالكية محمد بن عبدالله بن الحكم المصري المتوفى سنة (٥٢٦٨/٨٨١م)، وتولى الإفتاء بمصر، وكان فقيه مصر على مذهب مالك، وإليه كانت تشد الرحال من المغرب والأندلس، وله مصنفات كثيرة<sup>(٢)</sup>. ومن المالكية أيضا محمد بن أصبغ بن الفرغ المتوفى سنة (٥٢٧٥/٨٨٨م)، وروج بن الفرغ أبو الزنباغ الزبيرى المتوفى سنة (٥٢٨٢/٨٩٥م)، وأحمد بن محمد بن خالد الإسكندراني المتوفى سنة (٥٣٠٩/٩٢١م)<sup>(٣)</sup>.

أما الشافعية فقد نبغ منهم الربيع بن سليمان المرادي<sup>(٤)</sup>، صاحب الشافعي، وهو الذي روى أكثر كتبه، وقال الشافعي عنه: "الربيع راويتي"، وقال أيضا: "ما خدمني أحد ما خدمني الربيع" وتوفي سنة (٥٢٧٠/٨٨٣م)، ومن فقهاء الشافعية قحزم بن عبدالله الأسواني (ت ٥٢٧١/٨٨٤م).

أما فقهاء الحنفية فمن أشهرهم القاضي بكار بن قتيبة الثقفي المتوفى سنة

(١) ابن الداية: المكافأة (ص ٨٥)، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٣/١٣-١٤).

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٨م، (١/٥٥).

(٣) المصدر السابق (١/٦٤٨).

(٤) السيوطي: حسن المحاضرة (١/٣٤٨).

(٢٧٠هـ/٨٨٣م)، وله أخبار في العدل والعفة والنزاهة والورع، وتصانيف في الشرط والوثائق والرد على الشافعي فيما نقضه على أبي حنيفة، ومنهم أيضاً: أحمد بن أبي عمران المتوفى سنة (٢٨٥هـ/٨٩٨م)، وكان من أكابر الحنفية وهو شيخ الطحاوي<sup>(١)</sup>. واشتهرت مصر في العصر الطولوني بالطب، فظهر منهم سعيد بن ترفيل، وهو مسيحي كان في خدمة أحمد بن طولون، وسعيد بن البطريق المتوفى سنة (٣٢٨هـ/٩٣٩م)، وهو مسيحي كانت له عدة مؤلفات<sup>(٢)</sup>، منها تاريخه المسمى "التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق".

وجاءت النهضة الأدبية مقرونة في ذلك العصر بازدهار الدراسات اللغوية، وهي الحركة التي كان على رأسها الوليد بن محمد التميمي النحوي المعروف بولاد وأحمد بن جعفر الدينوري صاحب كتاب المهذب في النحو، وأبو جعفر النحاس وغيرهم<sup>(٣)</sup>.

أما الكتابة التاريخية في العصر الطولوني فخير ما يمثلها كتابات أحمد بن يوسف ابن إبراهيم المعروف بابن الداية، الذي كتب في سيرة ابن طولون، وسيرة أبي الجيش فضلاً عن كتاب المكافأة الذي بناه على قصص لمن عملوا الجميل، فجزاهم الله خيراً عما عملوا<sup>(٤)</sup>.

وكذلك من أشهر مؤرخي الدولة الطولونية: أبو محمد بن عبدالله بن محمد المدني المعروف بالبلوي، ولا نعرف تاريخ مولده أو وفاته، ولكنا نعرف أنه ينتمي إلى قبيلة بنى العريية، وأنه عاش في القرن الرابع الهجري، وكان ابن النديم أول من ترجم له في كتابه "الفهرست" فذكر أنه كان عالماً وفقياً وواعظاً، وأنه ألف كتباً

(١) المصدر السابق (١/٤٦٣).

(٢) المصدر السابق (ص ٥٣١).

(٣) سيدة كاشف: أحمد بن طولون (ص ٢٣٤).

(٤) محمد عبدالله عنان: مؤرخو مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٦٩ (ص ١٦٦).

كثيرة منها: كتاب الأبواب، وكتاب المعرفة، وكتاب الدين وفرائضه، وقد فقدت هذه الكتب جميعاً، ولم يبق من مؤلفاته إلا كتابه "سيرة أحمد بن طولون"، ويعتبر هذا الكتاب من أهم المصادر لدراسة تاريخ أحمد بن طولون، بل ودراسة تاريخ مصر والشرق الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري<sup>(١)</sup>.

وفي العهد الإخشيدى ازدهرت الحياة الفكرية على غرار الطولونيين. ومن فقهاء الشافعية الذين برزوا في مصر في العصر الإخشيدى، أبورجاء محمد بن أحمد بن الربيع الأسواني المتوفى سنة (٢٣٥هـ/٩٤٦م)، وأبوبكر محمد بن بشر المتوفى سنة (٢٣٢هـ/٩٤٣م)، وغيرهم كثيرون، ولم يكن هؤلاء جميعاً من أبناء مصر، وإنما وفد بعضهم من بغداد ودمشق وغيرهما، ووجدوا في مصر على عصر الإخشيديين التشجيع لنشاطهم<sup>(٢)</sup>.

أما عن فقهاء المالكية فقد برز منهم في العصر الإخشيدى هارون بن محمد الأسواني المتوفى سنة (٣٢٧هـ/٩٣٨م)، وعلي بن عبدالله بن أبي مطر الإسكندراني المتوفى سنة (٣٣٠هـ/٩٤١م)، ومحمد بن يحيى بن مهدي الأسواني المتوفى سنة (٣٤٠هـ/٩٥١م)، وغيرهم<sup>(٣)</sup>.

أما عن التاريخ فقد برز من مشاهير المؤرخين في العصر الإخشيدى ثلاثة هم: ابن يونس، والكندي، وابن زولاق. أما ابن يونس الصديقي (٢٨١-٣٤٧هـ/٧٩٤-٩٥٨م) فينسب إلى قبيلة الصدف، وقد تثقف ثقافة واسعة في الفقه والحديث، ثم اشتغل بالتاريخ فاطلع على ما كتبه من سبقه من مؤرخي

(١) جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، دار المعارف ١٩٦٧م (١/١٢٨).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان (١/٥٨٠).

(٣) سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين (ص٣٠٧، ٣٠٨).

مصر كابن عبدالحكم، وجمع تاريخين أحدهما -وهو الأكبر- يختص بالمصريين من ناحية الأصل والنشأة، والآخر -وهو الأصغر- يختص بمن ورد على مصر من الغرباء<sup>(١)</sup>. وأما الكندي فهو محمد بن يوسف (٢٨٣-٥٣٥٠هـ/٨٩٦-٩٦١م) نشأ بمصر ومات بها، وتثقف ثقافة عالية على ابن قديد والنسائي وغيرهما من علماء عصره، ثم اشتغل بالتاريخ فألف كتباً كثيرة أهمها: كتاب ولاية مصر وقضائها، كذلك ألف كتاباً في خطط مصر كان مرجعاً لمن كتب بعده في الخطط مثل المقرئزي، وأشار إليه المقرئزي وابن دقماق وأبوصالح الأرميني. ومع أن معظم مؤلفات الكندي لم تصل إلينا إلا أن إنتاجه الضخم يضعه في المحل الأول بين المشتغلين بالتاريخ الإسلامي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وكتابه الولاية والقضاة يعتبر ثروة نفيسة في دراسة الحياة الإسلامية في مصر منذ الفتح الإسلامي حتى منتصف القرن الرابع الهجري<sup>(٢)</sup>. أما ابن زولاق فهو الحسن بن إبراهيم المتوفى سنة (٥٣٨٧هـ/٩٩٧م)، وقد أكمل أخبار قضاة مصر للكندي، وألف في خطط مصر، كما ألف في سيرة الإخشيد، وكتب كتاباً في أخبار سيبويه المصري<sup>(٣)</sup>. كما نشير إلى سعيد بن البطريق المتوفى سنة (٥٣٢٨هـ/٩٣٩م)، وكان بطريقاً على الإسكندرية، كما زاول الطب فترة من الزمن بالفسطاط، وألف كتابه المشهور "التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق"<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن خنكان: وفيات الأعيان (١/٣٤٩).

(٢) حسن محمود: الكندي المورخ (ص٤٣، ٦٢، ٦٣).

(٣) ابن خنكان: وفيات الأعيان (١/٣٤٩).

(٤) سيدة كاشف: مصر في عهد الإخشيديين (ص٣١٩).

## خلاصة الوحدة الثانية

- ١- تمثل الدولتان الطولونية والإخشيدية التجربة الاستقلالية الأولى في مصر (أو الحركتين الانفصاليتين).
- ٢- تنسب الدولة الطولونية إلى مؤسسها أحمد بن طولون، إلا أنه تغلب عليها جميعًا.
- ٤- اتبع أحمد بن طولون سياسة طيبة داخلية مع المصريين، واستغل إمكانات مصر الاقتصادية والبشرية بصورة حسنة، فتفوقت مصر في معظم مجالات الحياة.
- ٥- ضم ابن طولون الشام إليه، فصارت مصر والشام في عهده وحدة واحدة.
- ٦- خلف أحمد بن طولون ولده حمارويه (٢٧٠-٥٢٨٢هـ) وسار على سياسة والده داخليًا وخارجيًا.
- ٧- تزوج الخليفة العباسي المعتمد بن أحمد الموفق من ابنة حمارويه، المعروفة باسم (قطر الندى)، وكلف ذلك ميزانية مصر أموالاً طائلة.
- ٨- حكم الطولونيون مصر ثمانية وثلاثين عامًا (٢٥٤-٥٢٩٢هـ)، وقد كانت فترة مؤثرة في تاريخ وحضارة مصر، وهذا ما أعطى للدولة الطولونية مكانة متميزة في تاريخ مصر على الرغم من قصر مدة حكمهم.
- ٩- رجعت مصر بعد الطولونيين (٥٢٩٢هـ) ولاية عباسية، وظلت كذلك حتى سنة ٥٣٢٣هـ حين دخلها الوالي التركي محمد بن طغج الإخشيد.
- ١٠- في هذه الفترة حاول الفاطميون السيطرة على مصر سنة ٥٣٠١هـ وسنة ٥٣٠٧هـ.
- ١١- تولى محمد بن طغج مصر سنة ٥٣٢٣هـ، ولقب بالإخشيد، لقبه به الخليفة

الراضي العباسي.

١٢- أعاد الفاطميون محاولتهم السيطرة على مصر في عهد الإخشيد سنة ٥٣٢٤هـ، إلا أنه ردَّهم عنها.

١٣- مد الإخشيديون نفوذهم إلى بلاد الشام وأشرفوا على مكة المكرمة والمدينة المنورة.

١٤- خلف الإخشيد (ت ٥٣٣٤هـ) ولدين هما: أنوجور وأبو الحسن علي، وتركهما في وصاية وزيره أبي المسك كافور، وحافظ كافور على وحدة مصر والشام وبلاد العرب.

١٥- بلغت مدة سيطرة كافور على مصر ثلاثة وعشرين سنة، وبعد وفاته ترك حفيد الإخشيد أحمد بن علي أبي الحسن الملقب بأبي الفوارس، وكان طفلاً، واشتد في عهده هجوم الفاطميين على مصر حتى استولوا عليها ٥٣٥٨هـ.

١٦- استمرت مصر حضارياً في عصر الدولة الإخشيدية، فكان لمصر جيش مستقل وازدهرت الحياة الاقتصادية، وتواصلت الحركة الفكرية، فأصبح في مصر علماء معروفون في معظم ميادين الفكر.

## اختبار الوحدة الثانية

أولاً: أسئلة الصواب والخطأ:

ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (x) أمام العبارة الخاطئة فيما يأتي:

- ١- من أسباب ظهور الحركات الاستقلالية عن الخلافة العباسية وضع اسم الوالي على السكة مع اسم الخليفة.
- ٢- لم يسهم الحكم الوراثي في ظهور الحركات الاستقلالية عن الخلافة العباسية.
- ٣- ينتمي أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية إلى العرب.
- ٤- استغل الموفق الأموال التي أرسلها إليه أحمد بن طولون في مواجهة ثورة الزنج.
- ٥- أدت السياسة الداخلية لابن طولون إلى بغض المصريين له.
- ٦- قتل خمارويه بن أحمد بن طولون أخاه الأكبر العباس عندما امتنع عن مبايعته.
- ٧- عظمت الثروة في مصر إلى حد كبير في عهد خمارويه.
- ٨- تدلّ أوصاف جهاز عُرس (قطر الندى) ابنة خمارويه التي تزوجت من الخليفة المعتضد على عظم رخاء مصر أيام خمارويه.
- ٩- تأمر على خمارويه عصبة من قادة الجيش، فقتلوه في بغداد.
- ١٠- قتل خمارويه سعد الأسير في الشام.
- ١١- كان أبو العساكر ابن خمارويه لا يقل قوة عن أبيه مما حبه إلى المصريين.
- ١٢- محمد بن سليمان الكاتب هو الذي قام بالقضاء على الدولة الطولونية في مصر.
- ١٣- مؤسس الدولة الإخشيدية هو أبو بكر محمد بن طغج بن جفّ الإخشيد.
- ١٤- تحسنت العلاقة بين الدولة الإخشيدية والخلافة العباسية قبل وفاة الراضي.
- ١٥- تعرض نفوذ الإخشيديين في الشام لتهديد من جانب الحمدانيين.
- ١٦- تولى كافور الإخشيد الوصاية على أبي القاسم أنوجور بن الإخشيد.
- ١٧- اتبع كافور سياسة الإخشيد في مصانعة العباسيين والفاطميين.

- ١٨- مدينة القطائع أنشأها أحمد بن طولون وأصبحت مركزاً لحكم الطولونيين.
  - ١٩- ازدهر الجيش المصري الإسلامي في عهد الطولونيين والإخشيديين.
  - ٢٠- لم يحظ الأسطول بعناية الإخشيديين كما كان في نهاية عهد الطولونيين.
  - ٢١- لم يهتم أحمد بن طولون بالزراعة مما أدى إلى تدهورها.
  - ٢٢- في أيام الإخشيديين كانت الفلاحة هي الحرفة الأساسية لمعظم المصريين.
  - ٢٣- اشتهرت مصر في عهد الدولة الطولونية بالطب.
  - ٢٤- يعتبر الكندي من مشاهير المؤرخين الذين برزوا في العصر الإخشيدي.
- ثانياً: الأسئلة المقالية:

- ١- اكتب ما تعرفه عن أصول الأسرتين الطولونية والإخشيديية.
  - ٢- تحدث بالتفصيل عن حضارة مصر في العصرين: الطولوني والإخشيدي.
  - ٣- اكتب مذكرات مختصرة عن خلفاء أحمد بن طولون والإخشيدي.
  - ٤- وضح كيف كانت علاقة أحمد بن طولون مع الخلافة العباسية؟
  - ٥- بين كيف كانت سياسة بن طولون الداخلية والخارجية.
  - ٦- باعتبار حماوية من خلفاء أحمد بن طولون، اكتب عن مدة حكمه وما اشتملت عليه من أحداث بالتفصيل.
  - ٧- بين كيف كانت نهاية الدولة الطولونية الأخشيديية؟
- ثالثاً: الأسئلة الحوارية:

في حوار بيك وبين زميل لك دار حوار حول مدى أهمية الدولتين الطولونية والإخشيديية في تاريخ مصر. اذكر لنا هذا الحوار.

رابعاً: الأسئلة التحليلية:

- أ- ما ملامح السياسة الداخلية والخارجية في الدولتين الطولونية والإخشيديية؟
- ب- اذكر أسباب سقوط الدولتين الطولونية والإخشيديية.
- ج- حدد الملامح الحضارية لمصر في عهد الطولونيين والإخشيديين.

## النشاط التعليمي للوحدة الثانية

عزيزي الدارس: حتى تكتسب المزيد من المعلومات حول موضوعات هذه الوحدة عليك بإنجاز النشاط التعليمي التالي:

- أ- أعد بحثًا تناول فيه موضوع الحركات الاستقلالية عن الخلافة العباسية.
- ب- اكتب مقالاً تجمع فيه ملامح الدولة الطولونية والإخشيدية سياسيًا وحضاريًا.
- ج- تناقش مع زملائك في موضوع: وضوح الشخصية الحضارية المصرية في العصرين الطولوني والإخشيدي.

يوصى بالرجوع إلى بعض هذه المراجع:

د/ حسين أحمد محمود : حضارة مصر الطولونية، دار الفكر العربي.

د/ سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، النهضة ١٩٩٠.

د/ محمود الحويري: مصر في العصور الوسطى، دار عين.





## الوحدة الثالثة

### دولنا الأغالبة والأدارسة

مبررات دراسة الوحدة:

كما انشقت - في المشرق - دولتا (الطولونيين والإخشيديين) عن العباسيين، واقتطعتا أجزاءً من جسد دولة الخلافة، انشقت كذلك في المغرب العربي (الشمال الإفريقي) دولتا (الأغالبة والأدارسة) واقتطعتا أجزاءً من جسد خلافة العباسيين (تونس) التي كانت تسمى إفريقية أو المغرب الأدنى، و(المغرب الأقصى) المعروف الآن بالمملكة المغربية. وقد حرص الأغالبة - مع استقلالهم - على التمسك بالولاء لبي العباس أما الأدارسة فقد انفصلوا انفصلاً عداً تحت دعوى حقهم - كآل البيت النبوة - في حكم الأمة. وهي دعوى دَفَع الإسلام ثمناً غالياً من أجلها، وسألت دماء آل البيت الزكية في سبيلها، مع أن إمامة آل البيت إمامةً روحيةً لا سياسية، ولو قاموا بذلك لنشروا الإسلام في العالم.

وللأغالبة مآثر كثيرة منها: فتح صقلية والدخول إلى شواطئ إيطاليا. ومع كون الأدارسة والأغالبة الأقرب إلى آل البيت وإلى الالتزام بالكتاب والسنة، فقد كانا مع ذلك حصناً من رصيد قوة الخلافة، وقد سقطا - بسبب هذا الانفصال أو الاستقلال الكذوب - تحت القبضة الإسماعيلية الفاطمية، كما سقط الطولونيون والإخشيديون في مصر.

وهدفنا من هذه الدراسة للدولتين قريب من هدفنا من دراسة دولتي: الطولونيين والإخشيديين، إلا أن وجود هاتين الدولتين على شاطئ الأندلس، وبالقرب من الصليبية الأوروبية، يجعل هدفنا من الدراسة أعمق؛ فللتغور أحكامها، ولها - كذلك - أخطارها، والتناغم بين التغور وقلب الدولة ضرورة مصيرية؛ ولهذا الهدف كانت دراسة دولتي: الأغالبة والأدارسة.

الأهداف التعليمية للوحدة:

عزيزي المدرس: يرجى بعد دراستك لهذه الوحدة أن تصبح قادراً على أن:

- ١- تعرف فترات تاريخ الأغالبة في المغرب.
- ٢- تدرك العلاقة بين الأغالبة والخلافة العباسية.
- ٣- تعرف دور الأغالبة في تكوين بحرية إسلامية في المغرب.
- ٤- تعرف دور الأغالبة في فتح جزيرة صقلية.
- ٥- تدرك فضل الأغالبة على تاريخ إفريقية ونشر الإسلام.
- ٦- تعرف المنشآت العمرانية التي أقامها الأغالبة في المغرب.
- ٧- تستنتج لماذا رحل الأدارسة إلى المغرب الأقصى؟
- ٨- تعرف لماذا التفّ المغاربة حول الأدارسة؟
- ٩- تدرك لماذا قسم إدريس الثاني الدولة بين إخوته؟
- ١٠- تعرف أسباب انحيار الدولة الإدريسية.
- ١١- تعرف المنشآت العمرانية التي أنشأها الأدارسة.
- ١٢- تعرف النهضة العلمية والفكرية في المغرب في عهد الأدارسة.
- ١٣- تستنتج أهمية دولة الأدارسة في تاريخ المغرب الإسلامي.

## الوحدة الثالثة

### دولنا الأغالبة والأدارسة

فترات تاريخ الأغالبة في المغرب.

العلاقة بين الأغالبة والخلافة العباسية، والمغرب.

دور الأغالبة في فتح جزيرة صقلية، وإنجازاتهم.

المشآت العمرانية التي أقامها الأغالبة في المغرب.

أسباب رحيل الأدارسة إلى المغرب الأقصى.

التفاف المغاربة حول الأدارسة، وإقامة دولتهم.

انهيار دولة الأدارسة، وإنجازاتهم الحضارية والعلمية.

## دولة الأغالبة في المغرب الأدنى (تونس)

(١٨٤-٥٢٩٦هـ/٨٠٠-٩٠٩م)

تعد دولة بني الأغلب أهم الدويلات المستقلة التي قامت في بلاد المغرب في القرن الثاني الهجري. وهم أسرة راقية في مضممار الحضارة، عمل أبناؤها على نشر الحضارة الإسلامية في البلاد التي خضعت لهم، أي في إفريقية وجزيرة صقلية، وأقام أمراؤها المدن والقصور، وشيدوا المساجد والحصون، وشجعوا الآداب والعلوم، وساد البلاد -بصورة عامة خلال الفترة التي حكمت فيها هذه الأسرة (١٨٤-٥٢٩٦هـ)- أمنٌ ورخاء، وعمرت المدن، وأمنت السابلة، وبدأت شخصية إفريقية، وتحولت إلى قاعدة من قواعد حضارة الإسلام.

وقد حكم إفريقية من بني الأغلب أحد عشر أميراً، حكم معظمهم مُدداً قصيرة، وصلت في بعض الأحيان إلى أقل من العام، فلم تتسع لهم الفرصة للقيام بأعمال تذكروا، أما أصحاب الإنجازات الكبيرة منهم فكانوا ثلاثة، وهم: إبراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة (١٨٤-٥١٩٦هـ)، وابنه زيادة الله بن إبراهيم ثالث أمراء البيت (٢٠١-٥٢٢٣هـ) وقد حكم اثنتين وعشرين سنة هجرية، ثم إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب تاسع أمراء البيت الأغلبي (٢٦١-٥٢٨٩هـ) وهو أصول الأمراء الأغالبة حكماً.

وينقسم تاريخ الأغالبة -في جملته- إلى ثلاث فترات رئيسة، هي<sup>(١)</sup>:

أولاً: فترة التأسيس:

تبدأ فترة التأسيس من سنة (٥١٨٤هـ/٨٠٠م) وتنتهي سنة (٥٢٢٣هـ/٨٣٨م)، وشملت هذه الفترة إمارة كل من:

(١) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس. دار المستقبل ١٩٨٦م. (ص ٨٦).

د. طه عبدالمقصود: تاريخ المسلمين في المغرب والأندلس. مصر ٢٠٠٠. (ص ١٦٠-١٦١).

١- إبراهيم بن الأغلّب بن سام بن عقّال بن خفّاجة التميمي (١٨٤-١٩٦هـ/٨٠٠-٨١٢م).

٢- أبو العباس عبد الله بن إبراهيم (١٩٦-٢٠١هـ/٨١٢-٨١٧م).

٣- أبو محمد زيادة الله بن إبراهيم (٢٠١-٢٢٣هـ/٧١٧-٨٢٨م).

ثانياً: فترة الازدهار والاستقرار النسبي:

وتتمتد من نهاية حكم زيادة الله بن إبراهيم إلى نهاية حكم إبراهيم بن أحمد ابن محمد بن الأغلّب تاسع أمراء البيت الأغلّبي، أي من سنة (٢٢٣هـ/٨٢٨م) إلى سنة (٢٨٩هـ/٩٠٢م).

وقد تضمنت هذه الفترة حكم عدد من أواسط أمراء الأغالبة من حيث الملكات، ما عدا الأخير الذي حكم بين سنتي (٢٦١-٢٨٩هـ)، والذي يعد من أعظم أمراء بني الأغلّب:

١- أبو عقّال الأغلّب بن إبراهيم (أخو زيادة الله) (٢٢٣-٢٢٦هـ/٨٢٨-٨٤١م).

٢- أبو العباس محمد بن الأغلّب بن إبراهيم (٢٢٦-٢٤٢هـ/٨٤١-٨٥٦م).

٣- أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلّب (٢٤٢-٢٤٩هـ/٨٥٦-٨٦٣م).

٤- أبو محمد زيادة الله بن محمد بن الأغلّب زيادة الله الأصغر (٢٤٩-٢٥٠هـ/٨٦٣-٨٦٤م).

٥- أبو الغرائيق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلّب (٢٥٠-٢٦١هـ/٨٦٤-٨٧٥م).

٦- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلّب أخو أبي الغرائيق (٢٦١-٢٨٩هـ/٨٧٥-٩٠٢م).

ثالثاً: فترة الضعف والتدهور:

وتستمر من سنة (٢٨٩هـ/٩٠٢م) إلى نهاية حكم الأغالبة سنة (٢٩٦هـ/٩٠٩م)،

وقد حكم في هذه الفترة اثنان، هما:

١- أبو العباس عبد الله بن إبراهيم بن أحمد (٢٨٩-٢٩٠هـ/٩٠٢-٩٠٣م).

٢- زيادة الله (الثالث) بن عبد الله، آخر الأمراء الأغالبة (٢٩٠-٢٩٦هـ/٩٠٣-٩٠٣م).

٩٠٩م)، وفي فترة إمارته انتهى حكم بني الأغلب على يد العبّيديين (الفاطميين).

### أصل الأغالبة:

يرجع الأغالبة في أصلهم إلى الأغلب بن سالم بن عقّال بن خفاجة التميمي<sup>(١)</sup> الذي كان من الجند العرب المقيمين في خراسان، وأسهم في الثورة العباسية مع أبي مسلم الخراساني، ثم انتقل بعد قيام الدولة العباسية إلى العراق، وأصبح يعمل ضمن الحرس الخاص للخليفة أبي جعفر المنصور، وقد وجهه الأخير مع محمد بن الأشعث الخزاعي في سنة (١٤٤هـ/٧٦١م) إلى شمال أفريقيا لتثبيت السلطة العباسية هناك، بعد قيام حركات عديدة مناوئة من قبل الخوارج الإباضية والصفرية، وقد أوصى المنصور أن يكون الأغلب هو الأمير بعد محمد بن الأشعث، وقد تمكن ابن الأشعث -بمساعدة الأغلب- من الانتصار على القبائل البربرية الخارجية المتمردة، مستفيداً من الانقسامات التي حدثت بين صفوفها، ثم عاجل المتمردة بالمهجوم، وعين الأغلب على الزاب، فأقام الأخير في طينة نحو أربع سنوات، ثم ولاة الخليفة أبو جعفر المنصور على إفريقية بعد أن تمرد الجند على ابن الأشعث وطرده من الولاية عام (١٤٨هـ/٧٦٥م)<sup>(٢)</sup>.

استطاع ابن الأغلب أن يعيد الاستقرار إلى الولاية، وقد كتب إليه المنصور يأمره بالعدل في الرعية، وحسن السيرة في الجند، وتحصين القيروان وخذلقتها، وترتيب حرسها<sup>(٣)</sup>، وهذه التوصيات التي أشار إليها الخليفة مطابقة تماماً لوضع التمرد القائم في إفريقية، حيث كان على الوالي أن يحتاط باستمرار من خطرين متلازمين: الجند في جهة، والبربر الخوارج من جهة أخرى. وقد سقط ابن الأغلب نتيجة

(١) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب. تحقيق عبدالسلام هارون. القاهرة ١٩٦٢م. (ص ٢٢١).

(٢) ابن الأبار: الحلة السراء. تحقيق: حسين مؤنس. القاهرة ١٩٦٣م. (١/٦٨).

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب. نشر كولان وبروفسال. دار الثقافة. بيروت (١/٧٤).

لضربات هاتين القوتين<sup>(١)</sup>، حيث قتل بعد إصابته بسهم حينما كان يدافع عن القيروان سنة (١٥٠هـ/٧٦٨م).

إبراهيم بن الأغلب (١٨٤-١٩٦هـ/٨٠٠-٨١٢) ودوره في إفريقية:

هو إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي، مؤسس الدولة الأغلبية. كان إبراهيم حين مات والده ابن عشر سنين، وقضى صباه في الدرس والتحصيل بالفسطاط، وكان يحضر مجالس فقيه مصر الأشهر الليث بن سعد، الذي أعجب بما تميز به إبراهيم من صفات حتى قال يوماً عنه: "ليكونن لهذا الفتى شأن" وعندما بلغ مبلغ الشباب دخل في جند مصر، ثم انتقل إلى إفريقية وأصبح من كبار ائقادة، وأسندت إليه ولاية الزاب، وكان له دور في إعادة محمد بن مقاتل العكي إلى مقر إماراته في القيروان، ثم عهد إليه هارون الرشيد بولاية إفريقية، وأقر له باستقلاله الفعلي بهذه البلاد استقلالاً جزئياً مع التبعية الإسمية للخلافة نظير مبلغ من المال يرسله إلى بغداد، وهذا الوضع الجديد الذي وافق عليه الرشيد يؤكده لقب الإمارة الذي أطلقه المؤرخون كثيراً على بني الأغلب، كما يؤيده قيام كل خليفة عباسي جديد بإقرار الأمير الأغلي على ولاية إفريقية<sup>(٢)</sup>.

وقد كان إبراهيم بن الأغلب من أفضل ولاة المغرب، كان يجمع -إلى علمه وتفقهه في الدين وأدبه- حسن الرأي، والنجدة، والبأس، والحزم، والمعرفة بالحروب ومكائدها.

ووصفه المؤرخ المغربي ابن عذارى بقوله: لم يل إفريقية أحسن سيرة منه ولا سياسة، ولا أرف برعية ولا أوفى بعهد ولا أوعى لحرمة منه، فطاعت له قبائل البربر وتمهدت إفريقية في أيامه، واستقامت الأحوال بها<sup>(٣)</sup>، وقال أيضاً: "ولما

(١) الطالي: الدولة الأغلبية. ترجمة المنحي العبادي. دار العرب الإسلامي. بيروت ١٩٨٥م (ص ٨٥-٨٦).

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب (١/٩٢) السيد سالم: المغرب في العصر الإسلامي. مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ١٩٨٢م (ص ٢٨٧).

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب (١/٩٢).

"ولما ملك إفريقية قمع أهل الشر بها، وضبط أمرها، وكان له مع بربرها حروب يطول ذكرها، وأحسن إلى عرب جيشها".

جهود بني الأغلب في تثبيت أركان الدولة:

#### ١- بناء مدينة العباسية:

ابتدأ إبراهيم بن الأغلب حكمه ببناء مدينة جديدة لتكون مقرّاً لإدارته وعاصمة لحكمه، فشرع في سنة (١٨٤هـ/٨٠٠م، أو ١٨٥هـ/٨٠١م)<sup>(١)</sup> في بناء مدينة القصر الأبيض جنوبي القيروان، وسماها (العباسية)، لتكون قرينة للهاشمية، وهي أول عاصمة عباسية قبل بغداد، وذلك تعبيرا عن ولائه للعباسيين، وتُسمى العباسية أيضا باسم القصر، أو القصر القديم<sup>(٢)</sup>.

ويبدو أن ابن الأغلب قد أخذ عبرة من الاضطرابات التي حلت بالقيروان، فرأى أن يتعد عنها قليلاً، ويمدنا البكري بمعلومات جيدة عن هذه المدينة وطبيعة بنائها، فقد اشتملت على قصر الأمير وما يلحق به من أبنية الدولة ودواوينها، ودار سك النقود، ومساكن الحاشية، والمسجد الجامع، ومعسكرات الحرس، والأسوار التي تحيط بالمدينة، وكان لها خمسة أبواب، وفي وسط المدينة كانت توجد رحبة كبيرة واسعة عرفت باسم الميدان، ربما كانت تستخدم لعرض الجند، وقد اتسعت هذه المدينة وأخذت تنافس القيروان بحماماتها الكثيرة، وفنادقها، وأسواقها<sup>(٣)</sup>.

لقد هدف ابن الأغلب من إنشاء هذه المدينة إلى تحقيق التحرر من تسلط الجند، حتى تكون مقرّاً حصيناً له ولحرسه المخلصين الذين ابتدأ بشرائهم من

(١) البكري: المغرب. نشر دي سلان، الجزائر ١٨٥٧ (ص ٢٢٨)؛ وابن الأثير: الكامل. دار صادر، بيروت ١٩٧٥م (١٥٦/٦).

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب (١/٩٢)، البلاذري: فتوح البلدان. تحقيق رضوان محمد رضوان، مصر ١٩٥٦م (ص ٢٣٥).

(٣) البكري: المغرب (ص ٢٨).

العبيد، وقد أوحى إلى جنده أنه يريد إكرامهم عن حمل سلاحه وخدمته باستخدام هؤلاء السود الذين بلغ عددهم بمرور الأيام نحو خمسة آلاف رجل، فأسكنهم حوله في مدينته الجديدة<sup>(١)</sup>، وعندما تم بناء المدينة أخذ ينقل إليها السلاح والعتاد الضروري بالتدريج، ثم غادر القيروان في جناح الظلام حتى لا يشعر به خصومه الذين أدركوا غايته من بناء المدينة، وأنه سيفلت من قبضتهم، فنجح في الانتقال بسلام، وأسكن معه حاشيته وجنده، وبهذا أصبحت هذه المدينة مقراً ومعسكراً للأغالبة<sup>(٢)</sup>.

## ٢- القضاء على الفتن والثورات:

لم يخل عهد إبراهيم بن الأغلب من الثورات والفتن، ولكنها كانت لا تقاس بالثورات التي كانت تضطرم في إفريقية في العهود السابقة. وقد تمكن إبراهيم بن الأغلب من القضاء على خصومه بعد جهد شديد، غير أنه لم يقض على بذور التمرد والعصيان عليه وعلى آل بيته، تلك البذور التي انتشرت في رؤساء جند إفريقية العرب، ومن انضم إليهم من العرب الذين تحولوا إلى عرب بلديين، وظلوا يتصورون أنهم أحق من غيرهم بحكم إفريقية<sup>(٣)</sup>.

وأخطر الثورات التي تعرض لها ابن الأغلب هي ثورة عمران بن مجالد الربيعي، وكان من قادة إبراهيم بن الأغلب، ثم ثار عليه في (سنة ١٩٥هـ)، وافترق عنه، واجتذب عدداً كبيراً من الأنصار والمشايخين في القيروان وفي أكثر مدن إفريقية، وحاصر إبراهيم في العباسية، وانتهى الأمر بهزيمة عمران، وتفرق رجاله من حوله<sup>(٤)</sup>.

(١) البلاذري: فتوح البلدان (ص ٢٣٥).

(٢) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، تونس ١٩٦٨م (ص ٢٢٢).

(٣) د. حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس (ص ٨٤).

(٤) ابن الأثير: الكامل. أحداث: ١٩٤هـ (٥/٣٦٩).

زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلّب (٢٠١-٥٢٢٣هـ):

مات إبراهيم بن الأغلّب في العباسية في شوال سنة ١٩٦هـ/٨١٢م وعمره ست وخمسون سنة، وعهد بالإمارة لابنه عبدالله (أبي العباس)، الذي كان مشغولاً وقت وفاة أبيه بحرب قبائل هوارة وحلفائهم من الخوارج والإباضية في طرابلس، وقد جنى عبدالله ثمار ما بذره والده من النشاط الدائب وحسن الإدارة، فلم يكن في أيامه شر ولا حرب، وسكن الناس فعمرت البلاد كما يقول ابن الأثير<sup>(١)</sup>، ثم توفي في ذي الحجة ٢٠١هـ/٨١٧م، ليخلفه أخوه زيادة الله.

كان زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلّب أعظم أمراء بني الأغلّب وأفضلهم ولم تنعم إفريقية في عهد هذه الأسرة كما نعمت في عهده. وكان أميراً عاقلاً، حسن التصرف، خبيراً بشئون الحكم، استطاع أن يسير بالحكم الأغلبي سيرة طيبة، وفي أيامه ازداد عمران إفريقية؛ نتيجة اهتمامه الشديد بالتشييد والبناء، وعمرت المزارع، وزادت الخرج حتى بلغت في العام -فيما يقول المؤرخ اليعقوبي- ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين (أي ٢٦ مليون درهم). ومن أعماله العمرانية التي تنسب إليه<sup>(٢)</sup>: تجديد المسجد الذي بناه عقبة بن نافع في القيروان، وجعله على الهيئة الجميلة التي هو عليها الآن، وإنشاء سور حصين لميناء سوسة، وإنشاء رباط سوسة (أي: قصر العباد والزهاد المرابطين).

ومن أعماله الحرية أنه أرسل في سنة (٥٢٠٦هـ) قائده محمد بن عبدالله التميمي بالأسطول لغزو جزيرة سردانية فغزاها، لكنه لم يفتحها، وفي سنة (٥٢١٢هـ) أمر بغزو جزيرة صقلية، فتم فتحها على يد الفقيه المجاهد أسد بن الفرات.

لا يؤخذ على زيادة الله غير العنف في معاملة خصومه الخارجين عليه من جند العرب وغيرهم، مما شاب حكمه وملاؤه بالحرب. وقد تمكن من التغلب على

(١) ابن الأثير: الكامل (٤٣٣/٥). ابن عذاري: البيان المغرب (٩٥/١).

(٢) مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس (ص ٩١-٩٢). السيد سالم: تاريخ المغرب (ص ٢٩٤).

معظمهم، ولكن بقيت منهم جماعات قوية خطيرة في تونس ووطنة والمسيحة وغيرها من بلاد إفريقية، والتي كانت من أسباب ضعف البيت الأغلب ككله في النهاية. ومن أخطر الثورات التي اشتعلت نيرانها في عهده: ثورة منصور الطنبذي في تونس سنة (٥٢٠٩هـ) واستمرت عامين، وكادت تطيح بملك بني الأغلب في إفريقية كلها<sup>(١)</sup>.

إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب (٢٦١-٥٢٨٩هـ):

وهو تاسع أمراء البيت الأغلب، وأطولهم حكماً، كان رجلاً غريب الأطوار، مر في حكمه بفترات ثلاث اختلفت فيها شخصيته اختلافاً كبيراً من الاتزان والعدل إلى الاضطراب العقلي والنفسي، ثم إلى الزهد والعبادة والجهاد. وانتهت حياته مجاهداً في سبيل الله وهو محاصر مدينة كُسنْثَة في شبه جزيرة كالابريا جنوبي إيطاليا، حيث كان في طريقه إلى نابلي ثم إلى روما.

كانت السنوات الست الأولى من حكمه سنوات رزانة وعقل وحكم صالح، سار على نمج أسلافه من حسن السيرة والعدل في الرعية وتأمين البلاد، وقد صرف جهداً كبيراً في تشييد المنشآت، ومنها<sup>(٢)</sup>:

- ١- أكمل تجديد جامع الزيتونة في تونس وهو الجامع الذي بدأه أبوه أحمد بن محمد الأمير الأغلب السادس (٢٤٤-٥٢٤٩هـ)، وهو من أعظم مساجد الإسلام.
- ٢- ينسب إليه المناجل العظيم وهو حوض ماء بني بالحجر ليجتمع فيه ماء المطر. ولا تزال مواجل الأغلبية موجودة إلى الآن خارج القيروان، وهي من أجمل آثار البلاد.
- ٣- أكمل بناء سلسلة من المحارس والرباطات بسواحل البحر لتحصينها، وقد كان الأغلبية ينشئون في كل محرس برجاً أو مناراً توقد فيه النار ليلاً. للإنتذار باقتراب سفن العدو، وعن طريق هذه الإشارات تستعد المحارس والأربطة

(١) ابن عداري: البيان المغرب (١/٩٨، ١٠٢)، ابن الأثير: الكامل (٥/٤٣٣-٤٣٥).

(٢) ابن عداري: البيان المغرب (١/١١٧)؛ مؤسس: معالم تاريخ المغرب والأندلس (ص ٩١، ٩٢).

المجاورة لملاقاة العدو بجرأ وبرأ، وبهذه الطريقة كان الخبر يصل إلى أقصى البلاد من بجاية (على السواحل الشمالية بجمهورية الجزائر الحالية) حتى طرابلس في أقل من ليلة واحدة.

٤- أسس مدينة رقادة (سنة ٢٦٣-٢٦٤هـ) على بُعد ثمانية أميال جنوبي القيروان، وهي مدينة سلطانية تضم قصوراً عديدة، وجامعا كبيرا، وعمرت بالأسواق والحمامات والحدائق، وصهاريج المياه، وأحيطت بسور من الآجر واللين. وقد أصبحت منذ إنشائها مقراً جديداً لأمراء بني الأغلب حتى انقراض دولتهم.

بعد ذلك بدأ إبراهيم بن محمد في التغيير، واختلت أعماله ونظرته إلى الأمور، وكان يزداد تغيراً وسوءاً، وأصبح جائراً ظالماً، سفاكاً للدماء، وأصابه جنون القتل، وأسرف بسببه في قتل أقرب الناس إليه من ذويه وأصحابه وحجابه<sup>(١)</sup>.

وقد امتدت هذه الفترة عدة سنوات حتى خافه الناس وقرروا خلعه، ولكنه تنبه لنفسه شيئاً فشيئاً قرب نهاية حكمه، وأظهر التوبة والاستقامة، والذي نبهه هو الخطر الفاطمي، ففي ذلك الحين كان أبو عبد الله الشيعي داعي الفاطميين قد ثبت أقدامه في قبائل كاماة التونسية، ونجح في اجتذابهم إلى دعوته، وبدأ يُغير على بلاد الأغالبة، فخاف إبراهيم بن أحمد، وعاد إلى رشده، وأصلح من أمر نفسه، وأراد أن يُرضي العامة، ويستميل قلوب الخاصة بفعله، فرد المظالم وأسقط القبالات، وأخذ العُشر طعاماً وترك لأهل الضياع خراج سنة، وسمّاها سنة العدل (٢٨٩هـ)، وأعتق مماليكه، وأعطى فقهاء القيروان ووجوه أهلها أموالاً عظيمة ليفرقوها على الضعفاء والمساكين<sup>(٢)</sup>.

### علاقة الأغالبة بالخلافة العباسية:

إن التحول الذي تم في ولاية إفريقية سنة (١٨٤هـ/٨٠٠م) كان بمثابة عهد

(١) ابن خلدون: العبر. دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٧٨ م (٤/٤٢٦).

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب (١/١٣١).

أبرم بصورة رسمية بين بغداد والقيروان، واعترف فيه لإبراهيم بن الأغلب بنقب أمير وراثي له حق الإشراف الكامل في حدود إمارته على الإدارة المدنية والعسكرية مقابل اعترافه بالسلطة العليا في بغداد، ولم يصحب هذا التحول أي تغيير في لقب الأمير، حيث استمر إبراهيم الأول في التلقب به، وكذلك أولاده وأحفاده الذين تولوا الحكم من بعده.

وقد جرت العادة أن يرسل الخليفة العباسي بعهد البيعة إلى الأمراء الأغالبة حتى يكتسبوا صفة الشرعية، ولكن تنتقل السلطة من أمير إلى آخر من القيروان كان مسألة داخلية بحتة، لم تتدخل فيها الخلافة، ولم يكن لها من الوسائل التي تمكنها من التدخل لو أرادت، ولهذا فقد كان إرسال عهد البيعة عملاً شكلياً يقوم به الخليفة. فقد أشار ابن عذارى<sup>(١)</sup>، إلى أن الأمين أقر حال تسلمه الخلافة إبراهيم بن الأغلب في منصبه، كذلك قام المأمون بنفس العمل إزاء عبدالله الأول، واستمر بقية الخلفاء في توجيه مثل هذا العهد بانتظام إلى القيروان.

وعلى صعيد العلاقات العامة بين الأغالبة والخلافة العباسية، فقد استمرت العلاقات الطيبة التي ابتدأت بين الرشيد وإبراهيم الأول طيلة عهد الأغالبة، فاتخذ الأغالبة اللون الأسود، الشعار الرسمي للعباسيين، ودافعوا عن راية الخلافة العباسية، سواء في داخل البلاد، حينما قضاوا على الحركات المناوئة للخلافة كحركة خريش مثلاً، أم في الخارج، فكانوا يقفون دائماً إلى جانب الخلافة في ميدان السياسة الخارجية.

### علاقة الأغالبة بالإمارة الأموية في الأندلس:

حكمت العلاقات بين الأغالبة والأمويين في الأندلس نفس المبادئ العامة التي وجهت دائماً السياسة الخارجية الأغلبية، أي أنها اندرجت ضمن النزاع الكامن

(١) البيان المغرب (١/٩٤، ٩٥).

بين العباسيين والأمويين، وهذا نظراً لبعدها المسافة بين الأغالبة والأندلس، فقد اقتضت العلاقات على تحفظ معاد على صعيد السياسة الرسمية<sup>(١)</sup>. ولكن من وجهة أخرى، فقد استغل بعض المتمردين في الأندلس هذه السياسة، وتوجهوا بأنظارهم إلى الأغالبة، فأظهر عمر بن حفصون، أحد كبار المتمردين، الميل إلى دعوة العباسيين، وكاتب الأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد (إبراهيم الثاني) ولاطفه بالهدايا، وكلفه بالحصول على ضمان بني العباس للقيام على الأمويين في الأندلس. وقد أجابه الأمير الأغلبي، وكافأه على هداياه، وطمع فيه، ولكن دعم الأغالبة لم يتعد هذه التشجيعات والتأييد الشفوي، ولم يتحول أبداً إلى التدخل العسكري المباشر، وذلك على الرغم من إصدار المتمردين لعدد من القطع النقدية المنقوش عليها شعار: (غ ل ب) وهو شعار الأغالبة الذي ميز عملتهم الرسمية<sup>(٢)</sup>.

#### اهتمام الأغالبة بإنشاء الأسطول ونشاطهم في البحر المتوسط:

كانت ولاية إفريقية تشكل قوة برية فقط منذ إنشاء مدينة القيروان سنة (٦٧٠/٥٥٠م)، ولكن بعد قيام الوالي حسان بن النعمان الغساني ببناء مدينة تونس سنة (٧٠٣/٥٨٤م)، أصبحت هذه الولاية قوة بحرية أيضاً بفضل السفن التي كانت تنتجها دار الصناعة في تونس، فقد اختير لهذه المدينة مكان حصين جداً، فهي تقع على بحيرة تتصل بواسطة برزخ بالبحر المتوسط، فقطع حسان البرزخ، وبنى المدينة بالقرب من البحيرة، ولغرض توفير الأيدي العاملة المتخصصة لبناء السفن طلب حسان من الخليفة عبد الملك ابن مروان أن يرسل له عمالاً من مصر، ولجئ الخليفة طلبه، فوصلت البلاد ألف أسرة قبطية، وبدأت بمهمة بناء الأسطول العربي في إفريقية، وبعد بناء هذه القوة العربية الجديدة، أصبح عرب

(١) محمد الطائي: الدولة الأغلبية (ص ٣٧٦).

(٢) ابن حيان: المقتبس. نشر ممشور أنطوانيه ١٩٣٧ (ص ٩٣).

إفريقية يجوبون البحر المتوسط، ويعترضون سفن البيزنطيين ويغرون على سواحلهم في جزر البحر، لاسيما صقلية وسردانية وكورسيكا، ولكن هذا لا يمنع أن يكون المسلمون قد قاموا بعمليات قبل بناء هذه القاعدة، وما معركة ذات الصواري التي انتصر فيها العرب على البيزنطيين عام (٥٣٤/٦٥٤-٦٥٥م) شرقي البحر المتوسط، سوى مثال بسيط على ذلك<sup>(١)</sup>.

وعندما جاء الأغالبة توسعوا في عملية بناء الربط الساحبية التي كانت تسمى أيضا بالقصور والمحارس، ويشير اليعقوبي إلى هذه الأماكن المحصنة بقوله: ومن أسفاقس إلى موضع يقال له بنزرت مسيرة ثمانية أيام وفي جميع المراحل حصون متقاربة ينزلها العباد والمرابطون، وقد استفاد الأغالبة من الحصون والأبراج البيزنطية القديمة التي كانت منتشرة على الساحل واستخدموها في أغراضهم الدفاعية، يضاف إلى ذلك مجموعة الربط أو المحارس التي كانت حول المدن الساحلية المهمة، مثل صفاقس، وسوسة، وبنزرت، وقد أشار البكري إلى بعض هذه المحارس القريبة من صفاقس، ومنها محرس بطوية، ومحرس الريحانة<sup>(٢)</sup>.

وأما الحملات البحرية والاهتمام بالأسطول الإسلامي في عهد الأغالبة؛ فقد ابتدأ خلفاء إبراهيم بن الأغلب القيام بنشاط بحري ملحوظ، حتى شرع عبدالله بن إبراهيم ومن بعده زيادة الله الأول في بناء أسطول قوي، فبالإضافة إلى دار صناعة السفن في تونس، أنشئت دار أخرى في مدينة سوس، حيث عمل فيها فتيان زيادة الله الأول من السود في بناء السفن اللازمة للأسطول الإسلامي، وقد ضاق المكان في هذه الدار، لا سيما في أثناء التهيؤ لافتتاح صقلية، حتى إن العاملين اضطروا إلى استخدام مقبرة سوسة، وهدموا ما فيها من قبور لتوسيع دار

(١) ابن عبدالحكم: فتوح مصر وأخبارها (ص ١٨٩، ١٩٠)، ابن الأثير: الكامل (١١٧٣، ١١٨).

(٢) ابن رسته: الأعلاق النفيسة (ص ٣٥٠).

الصناعة، ووضع المراكب التي كانوا يقومون بإنشائها<sup>(١)</sup>.

وتمت عدة حملات بحرية في عهد زيادة الله الأول قبل القيام بعملية فتح صقلية سنة (٨١٦م/٥٢٠١)، وأرسلت مراكب كثيرة إلى جزيرة سرديانية، ولكن هذه الحملة لم تنجح تماما بسبب عطب بعض مراكبها وإصابة قسم من رجالها، مما دعا الأمير إلى مكافأة من رجع منهم سالما<sup>(٢)</sup>. كما أشار ابن الأبار إلى حملة أخرى أرسلت إلى صقلية من قبل زيادة الله سنة (٨١٩م/٥٢٠٤) بقيادة أحد أقاربه المدعو محمد بن عبدالله بن الأغلب، وذلك قبل افتتاح الجزيرة سنة (٨٢٧م/٥٢١٢) بنحو ثماني سنين، وأرسلت حملة أخرى بعد سنتين، أي في (٨٢٢م-٨٢١م/٥٢٠٦)، وكانت وجهتها سرديانية، لكنها لم تكمل بالنجاح الكامل. لغرق سفن عديدة في طريق العودة<sup>(٣)</sup>.

وهكذا وبفضل هذه الحملات المتكررة تعرف المسلمون في إفريقية على جزر البحر المتوسط، مثل صقلية، وسردانية، وكورسيكا، وأصبحت هذه الجزر الهدف المباشر للقوة البحرية الإسلامية التي نمت وترعرعت، وأصبحت على أشد ما تكون من في عهد الأغالبة الذين أحسنوا استخدامها في سبيل تعزيز السيادة الإسلامية على البحر المتوسط، ونشر لواء الإسلام على منطقة الجزر الغربية لهذا البحر، وما فتح صقلية الذي يعود الفضل فيه إلى الأغالبة إلا ثمرة طيبة لاهتمامهم بالأسطول، وتنميتهم للقوة البحرية وحمائتهم للسواحل والثغور<sup>(٤)</sup>.

### فتح جزيرة صقلية:

يعد فتح الأغالبة لجزيرة صقلية ابتداء من سنة (٥٢١٢) من الأحداث البارزة في تاريخ الفتوحات البحرية الإسلامية؛ إذ ترتب عليه انتقال السيادة في البحر

(١) البكري: المغرب (١٩-٢٠). والعبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس. الإسكندرية ١٩٦٨م (ص ٢٩١).

(٢) المالكي: رياض النفوس (١/٤٠٠)؛ وابن الأثير: الكامل (٦/٣٢٩).

(٣) الحلة السرياء: (١/١٨١).

(٤) ابن الأثير: الكامل (٦/٣٧٩).

المتوسط الغربي إلى المغرب الإسلامي؛ ذلك أن صقلية تعد أكبر جزر البحر المتوسط مساحة، وأغناها من حيث الموارد الاقتصادية وأفضلها موقعاً، بحكم وقوعها في البحر بين ساحل إيطاليا الجنوبي، وساحل إفريقية، فهي تنقسم البحر إلى قسمين: شرقي، وغربي، ثم بحكم قربها الشديد لإقليم ريو وقلورية بجنوبي إيطاليا من الجهة الشمالية الشرقية، حيث لا يفصلها عنه -من هذه الجهة- سوى مضيق مسيني، وقرباً أيضاً من السواحل الإفريقية وجزيرة قوصرة من الجهة الجنوبية الغربية، وهو موقع يفسر لنا كثيراً من الأحداث التاريخية التي مرت بها البلاد التونسية، كنزول البيزنطيين على سواحل إفريقية في مرحلة الغزوات الإسلامية الأولى لها على فترات متقطعة، مما سبب امتداد حركة الفتح زمنياً، ومثل تعرض إفريقية للغزو النورماني، وقيام الأغلبة ثم الفاطميين ثم الزيريين بغزو جنوب إيطاليا وسواحل البحر الإدرياتي (الإدرياتيكي) من قاعدتهم بصقلية<sup>(١)</sup>.

وقد ظلت صقلية طوال العصر الأغلي مركزاً للنجهاد، واهتم أمراء بني الأغلب بإمدادها بالمؤن والرجال والسلاح، حيث لم يكن الفتح موجهاً إلى صقلية وحدها، بل تعداه إلى غيرها من الجزر والشواطئ الأوربية الغربية، مثل جزيرة مالطة التي افتتحت (سنة ٥٢٥٥هـ) في أيام الأمير محمد بن زيادة الله الأغلي المعروف بأبي الغرائيق، وبفتحها تأكدت سيطرة المسلمين الكامنة على المضائق الواقعة بين صقلية وإفريقية، وعرفوا كيف يهددون إيطاليا كلها ويفتتحون أجزاءً هامة منها<sup>(٢)</sup>، وهذا ما حدث بالفعل، فقد تمكن الأمير الأغلي إبراهيم بن أحمد (٢٦١-٥٢٨٩هـ) من عبور مضيق مسيني وغزو قلورية، وهي المنطقة الواقعة في أقصى الجنوب من شبه جزيرة إيطاليا، ويفصلها عن صقلية مضيق مسيني، كما أنه حاصر مدينة كوستة،

(١) السيد سالم وأحمد مختار العبادي: تاريخ الحرية الإسلامية. مؤسسة شباب الجامعة د.ت (٢/٩٥).

(٢) سالم والعبادي: تاريخ الحرية الإسلامية (١٢١٠٢).

وتوفي وهو يحاصرها (سنة ٥٢٨٩هـ)<sup>(١)</sup>.

### نتائج الفتح الإسلامي لصقلية:

حقق الفتح الإسلامي لصقلية نتائج مهمة في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. فمن الناحية السياسية: أنهى هذا الفتح حكم الإمبراطورية البيزنطية على الجزيرة، فأصبحت جزيرة إسلامية تابعة للدولة الأغلبية، وكذلك انتهت السيادة البيزنطية على البحر المتوسط لأن المسلمين سيطروا على أحد المراكز البحرية المهمة في هذا البحر، وهي جزيرة صقلية، وهذا يعني التحكم في القسم الأوسط الشمالي من البحر المتوسط بحكم موقع هذه الجزيرة فيه، وأصبح الأسطول الإسلامي يتخذ من صقلية قاعدة للهجوم على الجزر والمضائق القريبة لاسيما إيطاليا؛ مما مهد لهم السيادة على البحر التيراني والأدرياتيكي. وهكذا أصبح البحر المتوسط بحيرة إسلامية إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار سيطرة المسلمين على شواطئ بلاد الشام ومصر والمغرب والأندلس<sup>(٢)</sup>.

أما من الناحية الاقتصادية فقد أثر الفتح الإسلامي لصقلية في زيادة التبادل التجاري العالمي في البحر المتوسط، واستطاع المسلمون أن يسيطروا على التجارة العالمية التي تمر عبر هذا البحر، سواء المتجهة منها إلى الشرق، أم إلى سواحل شمال إفريقية مما أدى إلى انتعاش اقتصادي ساد جميع دول البحر المتوسط الإسلامية، لا سيما مدن صقلية وإفريقية. أما المبادلات التجارية بين الشرق والغرب فقد استمرت خاصة بين إفريقية وشبه جزيرة إيطاليا. ومما لا شك فيه أن المراكز الأغلبية التي أقيمت في صقلية وجنوب إيطاليا لم تكن قواعد عسكرية، بل كانت أيضاً مستودعاً دولياً للتبادل التجاري يجتمع فيها التجار من أوروبا وصقلية وشمال أفريقيا<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام. تحقيق أحمد مختار العبادي، دار الكتاب، الدار البيضاء ١٩٦٤م ق (٣/١٢٠).

(٢) أرشبالد لويس: القوى البحرية والتجارية. ترجمة أحمد محمد عيسى، النهضة المصرية د.ت (ص ١٧٠).

(٣) محمد الطائي: الدولة الأغلبية (ص ٥٨٩).

وأما النتائج الاجتماعية فأبرزها استقرار مجموعات كبيرة من العناصر التي يتألف منها الجند في هذه الجزيرة، وتعايشهم مع السكان الأصليين، فأصبح المجتمع الصقلي يضم المسلمين، عربا وبربرا، والنصارى، واليهود، وأقواما من اليونان، واللمبارد، والصقالبة، والسود، وغيرهم. وكان العرب يشكلون النخبة الحاكمة يليهم البربر الذين قاموا أيضا بدور فعال في الفتح. أما النصارى فكانوا يشكلون سكان الجزيرة، وعاشوا في ظل حكم المسلمين، وكانوا أحسن حالا من أولئك الذين كانوا تحت حكم اللمبارد، أو الفرنجة في إيطاليا. وقد اعتنق كثير منهم الإسلام. بمرور الزمن، لا سيما أولئك الموجودون في إقليم مازر في المناطق الغربية من الجزيرة<sup>(١)</sup>.

### حكام الأغالبة:

- ١- إبراهيم الأول (١٨٤-١٩٦هـ/٧٨٠-٨١٢م).
- ٢- أبو العباس عبدالله الأول (١٩٦-٢٠١هـ/٨١٢-٨١٧م).
- ٣- أبو محمد زيادة الله الأول (٢٠١-٢٢٣هـ/٨١٧-٨٣٨م).
- ٤- أبو عقاب الأغلبي (٢٢٣-٢٢٦هـ/٨٣٨-٨٤١م).
- ٥- أبو العباس محمد الأول (٢٢٦-٢٤٢هـ/٨٤١-٨٥٦م).
- ٦- أبو إبراهيم بن أحمد (٢٤٢-٢٤٩هـ/٨٥٦-٨٦٣م).
- ٧- زيادة الله الثاني (٢٤٩-٢٥٠هـ/٨٦٣-٨٦٤م).
- ٨- أبو العرائق محمد الثاني (٢٥٠-٢٦١هـ/٨٦٤-٨٧٥م).
- ٩- إبراهيم الثاني (٢٦١-٢٨٩هـ/٨٧٥-٩٠٢م).
- ١٠- أبو العباس عبدالله الثاني (٢٨٩-٢٩٠هـ/٩٠٢-٩٠٣م).
- ١١- زيادة الله الثالث (٢٩٠-٢٩٦هـ/٩٠٣-٩٠٩م).

(١) عزيز أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية (ص ٢٩، ٣٠).

## دولة الأدارسة في المغرب الأقصى (١٧٢-٧٨٨/٥٣٦٤-٨٩٧٤م)

سبب التسمية:

سميت دولة الأدارسة بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي جاء إلى المغرب الأقصى في أعقاب فشل إحدى الحركات المناوئة التي اشترك فيها ضد الدولة العباسية في عهد الخليفة الهادي سنة (٧٨٦/٥١٦٩م).

وقاد هذه الحركة التي قام بها أحد أفراد الفرع الحسني من العلويين وهو الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي، الذي ثار على عامل العباسيين في المدينة المنورة عمر بن عبدالعزيز بن عبد الله، لسوء معاملته لبعض أفراد الأسرة العلوية، وقد تغلب الثوار على معالم المدينة، وبويع الحسين بن علي بالخلافة في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وأقام الحسين مدة يسيرة في المدينة، ثم انتقل إلى مكة، ولما سمع الخليفة الهادي بخبر هذه الحركة كتب إلى قائده محمد بن سليمان بن علي الذي كان قد قدم حاجاً إلى مكة مع بعض رجاله، يأمره بحرب الحسين بن علي، وعند وصوله إلى قرب مكة انضم إليه أنصار العباسيين من القواد والموالي الذين جاءوا للحج<sup>(١)</sup>.

معركة فح:

وقد حدثت معركة فاصلة بين الطرفين في مكان يسمى: "فح" - وهو واد في طريق مكة يبعد عنها نحو ستة أميال - انتهت بهزيمة الحسينيين، ومقتل عدد كبير منهم. وكان إدريس بن عبد الله بن الحسن وأخوه يحيى ضمن الأشخاص القلائل الذين استطاعوا النجاة من المعركة، حيث خرجا من الحجاز متخفيين بين قوافل الحجاج الراجعين بعد انتهاء موسم الحج، وقد اتخذ كل من الأخوين طريقاً خاصاً

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ. دار صادر. بيروت ١٩٧٩م. (٩٣-٩/٦). ابن عذاري: البيان المغرب في أحبار الأندلس والمغرب. نشر كولان وبروفنسال. دار الثقافة. بيروت، (٨٣/١).

به، فتوجه يحيى بن عبدالله نحو المشرق، حيث نجح في الحصول على بعض الأنصار المؤيدين له ولكن الخليفة الرشيد استطاع أن يتخلص منه فيما بعد. أما إدريس بن عبدالله فقد كان أكثر توفيقاً من أخيه يحيى، فاستطاع أن يفر إلى المغرب الأقصى، حيث نجح في تأسيس دولة جديدة تعرف بالأدارسة<sup>(١)</sup>.

### أحوال المغرب في هذه الفترة:

لقد كانت الأحوال السياسية غير مستقرة في المغرب منذ أواخر عهد الدولة الأموية، فقامت حركات مناوئة عديدة انتهت بالفشل، ومع ذلك ظلت سلطة الدولة المباشرة بعيدة عن هذه المناطق، الأمر الذي دفع إدريس بن عبدالله إلى تركيز اهتمامه على مناطق المغرب الأقصى، فوجد فيها أرضاً خصبة لإقامة دولة مستقلة عن الخلافة العباسية، وقد ساعد على هذا أن السكان المحليين كانوا يميلون بطبعهم إلى الاستقلال الذي لفوه ولهذا فقد استطاع إدريس أن يضم حوله البربر الذين وجدوا فيه الثورة على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية غير المستقرة في المنطقة، فانضوت تحت لوائه الحركة الاستقلالية التي كان ينادي بها هؤلاء<sup>(٢)</sup>.

### اختيار مدينة وليلي وبيعة إدريس:

كان السبب في توجه إدريس إلى مدينة وليلي أنها تتميز بموقع جيد بين منطقة فاس ومكناس على طرف جبل زرهون، وتمتاز بخصب المنطقة المحيطة بها وكثرة مياهها وزروعها. أما جبل زرهون الذي يقع بالقرب من مدينة مكناس، فقد كان يمتاز أيضا بكثرة أشجاره وزروعه ومياهه العذبة المتدفقة، وهذه المنطقة موطن لسكنى قبائل أوربة البرنسية، التي تمتاز بالقوة والشجاعة، فأراد إدريس أن ينزل بقرها لينال

(١) ابن خلدون: العر. بيروت ١٩٥٦م، (٢٤/٤) سعد زعنول عبدالحميد: تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية ١٩٧٩م (٢/٤٢٦).

(٢) حسن أحمد محمود، وأحمد الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي. دار الفكر العربي ١٩٧٣م. (ص ٤٠٧).

تأييدها لنصرتة وتأسيس دولته. وقد صح توقع إدريس، حيث تمتع بضيافة زعيم هذه القبيلة إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي، فأقام عنده بضعة أشهر<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن وجود إدريس كان فرصة جيدة لإسحاق ولقبيلة أوربة، حيث إن نزول أحد العلويين بين ظهرانيهم يعلي من شأنهم بين القبائل الأخرى، ويحقق لهم نوعاً من التفوق على زعماء هذه القبائل، لذلك فقد تسارعوا إلى بيعته للقيام بأمرهم، وتولي صلاتهم، وأحكامهم، ثم فشلت دعوة إدريس بين القبائل الأخرى في المنطقة، مثل زناتة، وزواغة، ولماية، ولواتة، وسدراتة، وغبائية، ونفزة، ومكناسة، وغمارة، وهوارة، وجاءته الوفود من المناطق المجاورة تعلن عن استعدادها للانضمام إليه، وتأييد دولته، وقد تجمع لدى إدريس قوة بشرية كبيرة استطاع أن ينظم منها جيشاً قويا لمنازلة المناطق التي لم تخضع لسلطته، أو الأقاليم التي لم ترسخ فيها أقدام الإسلام بعد، والتي عرف أهلها بالزيف والانحراف عن العقيدة الإسلامية. وهكذا ابتدأ العمل في تأسيس دولة الأدارسة في المغرب<sup>(٢)</sup>.

### جهود إدريس الأول في تثبيت الدولة:

توجهت العمليات العسكرية الأولى لإدريس الأول نحو بلاد تامسنا التي تقع في البسيط الممتد من وادي أبي رقراق إلى وادي أم الربيع، فافتتح مدينة شالة التي تقع قبالة مدينة الرباط الحالية على الضفة الثانية من مصب نهر أبي رقراق، ثم أخضع كل حصون تامسنا، تلك المنطقة التي تميزت بوجود انحرافات خطيرة تبتتها قبيلة برغواطة البربرية التي سكنت في هذا الإقليم، ثم أخضع مناطق تادلا التي تقع إلى الشرق في أغمات، وكان بعض سكان هذه البلاد يدينون بالنصرانية

(١) ابن زرع: روض القرطاس. نسخة حجرية، طبعة فاس ١٣٠٠ هـ (ص ١٩-٢٠)، ابن الخطيب:

تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط. القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام. تحقيق أحمد مختار

العبادي، ومحمد إبراهيم الكتاني. دار الكتاب. الدار البيضاء ١٩٦٤ م (ص ١٩٠-١٩١).

(٢) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي (٢/٤٣٠).

واليهودية، والإسلام فيها قليل، فاعتنق عدد كبير منهم الإسلام على يديه<sup>(١)</sup>.

ثم خرج إدريس إلى تلمسان في المغرب الأوسط، ويسكنها قبيلتان كبيرتان من زناتة هما: مغراوة، وبني يفرن. ويبدو أن السيادة كانت للقبيلة الأولى التي يترجمها محمد بن خزر بن صولات المغراوي الخزري، وقد أعلن هذا الزعيم عن رغبته في الانضمام إلى بيعة إدريس هو ومن معه من قبائل زناتة، فدخل إدريس الأول المدينة صلحاً، وأمن أهلها، وبني مسجدها في سنة (١٧٤هـ/٧٩٠م)، ثم عين محمد بن خزر وائياً عليها، ورجع إلى ويلي في شهر صفر (١٧٤هـ/حزيران - تموز ٧٩٠م)<sup>(٢)</sup>.

نهاية إدريس الأول:

تتفق معظم الروايات على أن نهاية إدريس الأول كانت في سنة (١٧٥هـ/٧٩١-١٩٢م)، أي أنه حكم نحو ثلاثة أعوام ونصف<sup>(٣)</sup>.

### إدريس الثاني وتوطيد أركان الدولة:

لم يترك إدريس بن عبد الله وريثاً، ولكنه ترك إحدى جواريه حاملاً، وقد ولدت هذه الجارية التي تسمى كرزة طفلاً سمي إدريس، تيمناً باسم أبيه، وقد تولى راشد مولى إدريس الأول الوصاية عليه، ومهمة تأديبه وتعليمه القرآن، والحديث، والفقه، والنحو، والشعر، وسير الملوك وسياساتهم، كما دربه على ركوب الخيل والقتال، فلم يكذب ينغ الحادية عشرة حتى أتقن كل هذه الأمور التي

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس (ص ٢٠). وعني الجزائني: حي زهرة الآس في بناء مدينة فاس. الرياض ١٩٦٧م. (ص ١٣).

(٢) روض القرطاس (ص ٢١).

(٣) البكري: المغرب. بشردي سلان. الجزائر ١٨٧٥م (ص ١٢٢)، الاستبصار في عجائب الأمصار.

تحقيق سعد زغلول عبد الحميد. جامعة الإسكندرية ١٩٥٨م (ص ١٩٦)؛ الخلة السراء: (١/١٠٠).

ابن عذاري: البيان المغرب (١/٢١٠)، ابن الخطيب: أعمال الأعلام. تحقيق أحمد مختار أنعبادي

والكتابي دار الكتاب. الدار البيضاء ١٩٦٤م (ص ١٩٤).

يحتاجها أبناء الملوك<sup>(١)</sup>.

كانت بيعة إدريس نقطة تحول في تاريخ الدولة الإدريسية، فلم يعد الإمام ذلك اللاجئ الذي جاء هارباً متخفياً من المشرق، ينشد الأمان بين البربر في البيشة الجديدة، بل أصبح حاكماً يتمتع بممارسة سلطانه على عدد كبير من قبائل المغرب، ولم تمض سوى سنة واحدة على بيعة إدريس الثاني، حتى كان صيته قد انتشر إلى مناطق بعيدة خارج حدود مملكته، وابتدأت الوفود العربية تَرُدُّ عليه من مناطق مختلفة من إفريقية والأندلس بأعداد كبيرة مثل: قبائل قيس، والأزد، ومدلج، ويحصب، والصدف، وغيرهم. وقد سر إدريس بوفادة هؤلاء العرب الذين استفاد منهم في تكوين بطانته. وهكذا ابتدأت عملية تعريب الدولة بالتدرج، فعهد إلى عمير بن مصعب الأردني بالوزارة، كما عهد بالقضاء إلى عامر بن محمد بن سعيد القيسي، واتخذ أبا الحسن عبد الملك بن مالك المالكي الأنصاري للكتابة<sup>(٢)</sup>.

ولم يرق هذا النجاح لإبراهيم بن الأغلب ممثل الدولة العباسية في إفريقية الذي عمَّقَ اتصالاته بالسكان المحليين المحيطين بإدريس الثاني، ونجح في كسب بعضهم، مثل بلول بن عبد الواحد المدغري، وإسحاق بن محمد الأوربي، ويبدو أن هؤلاء استاءوا من سياسة إدريس الثاني، وتوجهاته نحو العرب والإكثار من الاعتماد عليهم، فمالؤوا ابن الأغلب، لكنهم لم يستطيعوا أن يغيروا شيئاً في هذه السياسة الجديدة، واكتشفت اتصالاتهم المريبة بابن الأغلب، وعوقبوا على ذلك من إدريس الثاني<sup>(٣)</sup>.

وفاة إدريس الثاني وتقسيم الدولة في عهد محمد بن إدريس:

كان عصر إدريس الثاني يمثل دور الازدهار والقوة بالنسبة لتاريخ الدولة الإدريسية؛ لما تم فيه من إنجازات سياسية وحضارية، كان أهمها إنشاء مدينة فاس.

(١) سعد زغول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي (٤٣٦/٢، ٤٣٧).

(٢) ابن زرع: روض القرطاس (ص ٢٧، ٢٩).

(٣) البكري: المغرب، (ص ١٢٣)؛ الحلة السراء (٥٥/١، ١١١-١٢٢).

وقد امتدَّ حكم إدريس الثاني من السوس الأقصى إلى وادي شلف، وقبيل وفاته عهد إدريس إلى ابنه محمد بالحكم من سنة ٢١٣-٥٢٣١/٨٢٨-٨٣٦م، ولكن هذا الحاكم لم يبيث أن قسم البلاد بين إخوته حسب نصيحة جدته كمنزلة أم إدريس الثاني. تم هذا التوزيع بعناية، مع مراعاة التقسيم الجغرافي للمغرب، وللخصائص الشخصية التي يتمتع بها كل واحد من إخوته. وهناك خلاف بين المؤرخين بشأن التفاصيل الخاصة بهذا التقسيم، ولكنهم يتفقون على السمات العامة، والنقاط الأساسية فيه، وهي كالآتي<sup>(١)</sup>:

- ١- القاسم: على سبتة، وطنجة، وقلعة حجر النسر، وبلاد مصمودة، وتطوان. وما يلحق بهذه الأماكن من مناطق وقبائل.
- ٢- عمر: على بلاد صنهاجة وغمارة.
- ٣- داود: على بلاد هوارة، وبعض قبائل مكناسة، وتازا، وتسون، وتاملت، وما بينها من بلاد وقبائل.
- ٤- عبد الله: على أغمات، ونفيس، وجبال المصامدة، وبلاد لمطة، والسوس الأقصى.
- ٥- يحيى: على ولاية أصيلا، والعرائش، وبلاد زواغة، والبصرة.
- ٦- عيسى: على شالة، وتامسنا، وبرغواطة وسلا، وأزمور، وما إليها من بلاد وقبائل.
- ٧- أحمد: على مدينة تادلا، ومدينة مكناسة، وما بينهما إلى بلاد فازاز.
- ٨- حمزة: على ويلي، وتلمسان، وأعمالهما.

أما باقي إخوته الاثني عشر، فكانوا صغارا ظلوا بكفالة جدتهم. وقد احتفظ محمد بن إدريس بمدينة فاس وما حولها، ولكن هذا الحكم الجماعي لم يحقق مصلحة الدولة، بل كان فيه ضرر بالغ على وحدة الأسرة الحاكمة، حيث دب الخلاف بين الإخوة، فخرج بعضهم على سلطان الأخ الأكبر، مما أدى إلى

(١) ابن عذاري: البيان المغرب (١/٢١١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (ص ٢٠٢-٢٠٥).

قيام حروب أهلية أدت إلى إصابة الدولة بالضعف والاضمحلال، وهي لم تكذببلغ العقد الرابع من عمرها<sup>(١)</sup>.

خلفاء محمد بن إدريس:

جاء بعد محمد بن إدريس الذي توفي سنة (٨٣٦/٥٢٢١م) مجموعة من الأمراء الذين لم تستقر الدولة في عهدهم، وقد ابتدأ دور الضعف في الدولة بعد وفاة علي بن محمد بن إدريس في سنة (٨٤٨/٥٢٣٤م)، فعلى الرغم من صغر سن هذا الأخير، فقد كانت الأحوال في عهده مرضية إلى حد ما؛ نظرًا لاجتماع الكلمة عليه، لكن الأمور تغيرت فيما بعد، لاسيما في عهد يحيى بن يحيى بن محمد، الذي أساء السيرة، وانشغل عن إدارة الدولة وسياستها بمسائل ماجنة لا تليق بالحكام. وكانت النتيجة أن انتهى حكمه بفضيحة كلفته عرشه وحياته في نهاية الأمر. ومما زاد في سوء إدارة هذا الأمير أنه قسم المملكة في بداية إمارته إلى ثلاثة أقسام إدارية، عهد بما إلى أعمامه وأخواله، وقد انتهز إخوته فرصة تقسيم البلاد وانشغاله عن الاهتمام بأمور الحكم، فملكوا أنفسهم، واستأثروا بحكم المناطق التي كانت بحوزتهم، وانتهى الأمر باستقلالهم عن فاس، حيث قدمهم السكان المحليون على أنفسهم<sup>(٢)</sup>.

وقد استطاع علي بن عمر بن إدريس أن يستولي على مدينة فاس بعد وفاة يحيى بن يحيى، وأن يوحد بلاد المغرب من جديد، ولكن المصادر المتيسرة لا تشير إلى تواريخ هذه الأحداث، وتمر مرورًا سريعًا على الفترة الأخيرة من تاريخ الدولة الإدريسية. ويُعدّ يحيى بن إدريس بن عمر (٢٩٢-٩٠٥/٩١٧م) من أشهر أمراء هذه الدولة في الفترة المتأخرة من حياتها، حيث جمع بين علو القدر وُبعد الصيت وطيب الذكر، وقوة السلطان، كما جمع بين البطولة والشجاعة

(١) ابن عذاري: البيان المغرب (١/٢١١)، ابن الخطيب: أعمال الأعلام (٢٠٢، ٢٠٥).

(٢) ابن عذاري: المصدر السابق (١/٢١١).

والإقدام، ويشير ابن أبي زرع إلى أن أحدًا من الأدارسة لم يبلغ مبلغه، ولكن الأحوال السياسية في المغرب العربي لم تكن ملائمة في ذلك الوقت؛ لأن الفاضمين كانوا على وشك القضاء على الدولة التي كانت قائمة آنذاك في المغرب لاسيما الأغالبة والأدارسة، وكان يحيى في طليعة القوى التي ناجزت الفاطميين. فقد حاول أن يدفع جيش مصالة بن حبوس المكناسي قائد عبيد الله (الملقب بالمهدي)، ولكن مصالة هزمه، واضطره إلى الاعتراف بإمامة عبيد الله في سنة (٣٠٥هـ/٩١٧م)<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من بقاء يحيى بن إدريس أميرًا على فاس، فقد عين مصالة بن حبوس ابن عمه موسى بن أبي العافية المكناسي على بقية المغرب، وقد استطاع هذا الأخير أن يوقع يحيى عند مصالة، حيث عُزل وقُبض عليه، ثم نُفي إلى أصيلا. وأصبحت فاس بعد ذلك تحت إدارة قواد مصالة، وقد اجتاحت البلاد بعد ذلك موجة من الاضطرابات الداخلية والانتفاضات التي قام بها بعض أعقاب الأدارسة، لاسيما حسن ابن محمد الحجام سنة (٣١٠هـ-٩٢٢م)، ولكن هذه الانتفاضة انتهت بافشل، وقام موسى بن أبي العافية بنفي الأدارسة من فاس إلى بلاد الريف، حيث أودعهم في حصن عظيم البناء، يدعى حجر انسر<sup>(٢)</sup>.

الحضارة الإسلامية في عهد الدولة الإدريسية:

أسهم الأدارسة في توطيد الحضارة الإسلامية في المغرب الأقصى، ومن أهم إسهاماتهم الحضارية ما يلي:

#### أ- انتشار الإسلام واللغة العربية:

كان دخول الأدارسة إلى المغرب انتصارًا للحضارة الإسلامية وللدين الإسلامي الحنيف، فعلى الرغم من فتوح موسى بن نصير في شمال إفريقية في

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس (ص ٨٠).

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (ص ٢١٠)، سعد زعلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي (٢/٤٧٨).

أواخر القرن الأول الهجري، إلا أن نفوذ المسلمين الفعلي لم يتعد مناطق السواحل، وبعض المناطق الداخلية القليلة، وظلت أماكن كثيرة في الصحراء بعيدة عن التأثير بالمعطيات الحضارية والروحية للدين الإسلامي، لا سيما مناطق استقرار قبائل صنهاجة في جنوب المغرب. الذين لم يعتنقوا الإسلام إلا منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)<sup>(١)</sup>، وهو القرن الذي نشط فيه الأدارسة للعمل لإخضاع هذه القبائل، ونشر الإسلام بين صفوفها، وكان من أوائل اهتمامات إدريس الأول محاولة القضاء على الحركات الانفصالية والانحرافات العقائدية لدى بعض القبائل البربرية، لا سيما قبائل برغواطة في إقليم تامسنا، وكذلك نشر الإسلام بين القبائل الأخرى التي كانت تعيش في منطقة مدينة سلا، وإقليم تادلا في جنوب المغرب<sup>(٢)</sup>، وقد أكمل إدريس الثاني عمل والده في جمع شتات القبائل العربية، وتأسيس أول دولة إسلامية في المغرب الأقصى، وذلك على الرغم من بقاء مناطق كثيرة في المغرب الأقصى خارج نطاق الدولة الإدريسية.

لكن إدريس الثاني تمكن من جمع عدد كبير من القبائل البربرية تحت سلطة مركزية إسلامية واحدة، بعد أن كانت هذه القبائل مستقلة الواحدة عن الأخرى، وهذا إنجاز كبير في مجال توحيد هذه القبائل، وهيئة عملية التعريف. وكانت لغة الإدارة في دولة الأدارسة هي العربية، بدليل نقوش السكة، وخطبة إدريس الثاني التي ألقاها بعد انتهاء مدينة فاس، ومن الملاحظ أن اللغة العربية انتشرت انتشارا واسعا في المناطق التي استقر فيها الأدارسة، وما يزال هذا الأثر العميق يلاحظ في مناطق الريف، والسوس، وهما من مناطق البربر الأصيلة<sup>(٣)</sup>.

أما فيما يخص النقود العربية فقد ضربت دراهم باسم إدريس الثاني، ترجع

(١) ابن خلدون: العبر. دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٧٨م (٦/٣٧٣).

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس (ص ٢٠)؛ العبر (٧/٢٤).

(٣) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، دار السلمي، الدار البيضاء ١٩٦٥م، (١/١٢٧).

إلى تواريخ متعددة، مثل السنوات (١٨١، ١٨٥، ١٨٩هـ)، بل إن النقود العربية بدأ ضربها منذ عهد إدريس الأول سنة (١٧٤هـ/٧٩٠م)، ونقش في أحد وجهيها "لا إله إلا الله لا شريك له، باسم الله ضرب هذا الدرهم بتدعة سنة ١٧٤هـ"، وفي الوجه الثاني صورة هلال ثم "محمد رسول الله" وتحتة: "مما أمر به إدريس بن عبدالله، جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً"، وتدل هذه النقود على مدى تغلغل اللغة العربية ودخولها بشكل منظم في إدارة البلاد<sup>(١)</sup>.

#### ب- إنشاء المدن:

إن أعظم إنجاز حضاري حققه الأدارسة في المغرب الأقصى هو قيامهم بإنشاء مدن عديدة، أصبحت مراكز مهمة لنشر العلم والثقافة الإسلامية، وتأتي مدينة فاس في مقدمة هذه المدن.

#### بناء فاس حاضرة الأدارسة:

تعد مدينة فاس من أهم المدن التي أنشأها الأدارسة، وهي تقع عند ملتقى طرق تجارية رئيسية تؤدي إلى اتجاهات مختلفة، وترتبطها مع المناطق التي تقع على البحر المتوسط، والمشرق العربي، وبنيدان غرب القارة الأفريقية، وقلبها، وجنوب الصحراء، ويعود الفضل في استحداث هذه المدينة إلى إدريس الثاني، الذي عزم على الانتقال من ويلي بعد أن ضاقت بجيوشه، وطمع وفد عليه من العرب والبربر من إفريقية والأندلس، ويشير معظم الكتاب والمؤرخين القدامى إلى أن إدريس الثاني هو الذي أسس هذه المدينة على مرحلتين<sup>(٢)</sup>: المرحلة الأولى: أسس فيها فاس عدوة الأندلس عام (١٩٢هـ/٨١٦م)، وهي التي اختطت على الضفة اليمنى من وادي فاس، والمرحلة الثانية: أسس فيها عدوة القرويين عام (١٩٣هـ/٨١٧م)،

(١) بروفسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة محمود عبد العزيز سالم. لهضة مصر ١٩٥٦.

(ص ١٥-١٦)، إسماعيل العربي: دولة الأدارسة. بيروت ١٩٨٣م، (ص ١٠٣).

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس (ص ٣٨)، الحرنائي: زهرة الآس (ص ٢٤).

وهي التي تسمى بفاس الثانية أو العالية أو عدوة القرويين، والتي تأسست على الضفة اليسرى لنهر وادي فاس.

بناء عدوة الأندلس:

انتقل إدريس الثاني إلى هذا الموضع، وأصدر الأمر ببناء المدينة في شهر ربيع الأول سنة (١٩٢هـ/ كانون الثاني ٨٠٨م)، ووضع حجر الأساس للجزء الذي سيعرف بعدوة الأندلس، على الضفة الشرقية لنهر فاس، ودعا بأن يجعلها الله دار علم وفقه، يتلى بها كتاب الله، وتقام بما حدوده، كما دعا لأهلها أن يجعلهم الله متمسكين بالسنة والجماعة طالما بقيت المدينة، وقد بدئ ببناء الأساس، ثم المسجد الجامع الذي سمي بجامع الأشياخ، وذلك بجانب الآبار على مقربة من المعسكر الذي نزل فيه إدريس، وقد أحيط هذا البناء بسور من خشب وكان فيه ستة أبواب<sup>(١)</sup>.

بناء عدوة القرويين:

بعد عام تقريباً، أي في ربيع الآخر سنة (١٩٣هـ/ كانون أول ٨٠٨م)، شرع إدريس الثاني في تشييد مدينة جديدة مواجهة للمدينة الأولى على الضفة المقابلة لنهر فاس، وهذه المدينة أو الحي الجديد يُعرف بعدوة القرويين، وهو أشبه ما يكون بقرية رعوية، وكان له ستة أبواب، وقد أقيم في داخل الحي المسجد الجامع الذي عُرف فيما بعد بجامع الشرفاء، وكذلك دار الإمارة التي عُرفت بدار القيطون، أي: دار الفسطاط؛ لأن الإمام ضرب فسطاطه فيها، كما بنيت في داخل الحي أيضاً القيسارية وأقيمت الأسواق والخوانيت حول الجامع من جميع الجوانب<sup>(٢)</sup>.

مدينة البصرة وقلعة النسر:

وقد بنيت في أواسط القرن الثالث الهجري، وأول من تولاها من الأدارسة إبراهيم بن القاسم بن إدريس، وهي تقع بين أصيلا والعرائس بعيداً عن البحر،

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس (ص ٣٨)؛ الجزنائي: زهرة الآس (ص ٢٤، ٢٥).

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس (ص ٣٨، ٣٩)؛ الجزنائي: زهرة الآس (ص ٢٥).

وكانت تعرف أول الأمر ببصرة الكتان نظراً لانتشار تجارته فيها، وكان لها عشرة أبواب، أما جامعها فكان يتألف من سبع بلاطات، وتحيط بها عيون عذبة وآبار كثيرة، وكانت هذه المدينة تشتهر بكثرة مراعيها، وجمال نسائها، حيث يشير البكري إلى ذلك بقوله: "ليس بأرض المغرب أجمل منهن"<sup>(١)</sup>.

كما بنوا مدينة قلعة النسر، وفيها حوصروا آخر أيامهم ودافعوا عنها دفاعاً مستميتاً، ولا تزال أنقاضها موجودة<sup>(٢)</sup>.  
بناء جامع القرويين وأثره الحضاري:

يعود الفضل في بناء جامع القرويين إلى إحدى الأسر الفهرية التي جاءت من القيروان إلى فاس، ونزلت في عدوة القرويين، كما يعود إليها الفضل أيضاً في بناء جامع آخر في العدوة الثانية من مدينة فاس، وذلك هو جامع الأندلسيين.

وقد وقع الاختيار على مكان جامع القرويين في إحدى الحقول القريبة من المدينة، وقد ابتدأ الحفر في أسس المسجد في اليوم الأول من رمضان سنة (٥٢٤٥هـ)، أما مواد البناء المستعملة فقد استخراجت من المكان نفسه، وكذلك الماء استنبط من بئر هناك، وكان الأمير يحيى بن محمد بن إدريس قد سر بهذه المبادرة الكريمة من هذه الأسرة لبناء المسجدين بالقرب من مقره في فاس، فكان يتفقد البناء مع العلماء والفقهاء<sup>(٣)</sup>.

وكان هذا الجامع صغيراً، وهو يتألف من تصميم مربع الشكل تقريباً، تبلغ مساحته نحو ١٦٠٠ متر مربع، ويتألف من أربعة أروقة أفقية، تمتد من الشرق إلى الغرب موازية لجدار القبلة، وله صحن وأربعة أبواب، وقد بقي هذا الجامع حتى انقضى حكم الأدارسة في فاس.

وعندما كثرت العمارات واتصل البناء في أرباض المدينة، رأى الناس

(١) البكري: المغرب (١١٠) ياقوت الحموي: معجم البلدان (٤٤٠/١).

(٢) إبراهيم حرركات: المغرب الكبير (١٣٤/١) البكري: المغرب (ص ١١٤، ١٢٦، ١٢٩).

(٣) النازي: جامع القرويين (٤٧/١، ٤٩).

ضرورة اتخاذ القرويين مسجدًا جامعًا، واستجاب والي المدينة سنة (٣٠٧/٩١٩م)؛ لرغبة العلماء والفقهاء في نقل الخطبة من مسجد الشرفاء إلى القرويين، وقد صنع له منبرًا من خشب الصنوبر يتألف من ست درجات<sup>(١)</sup>.

د- الحياة الفكرية في عهد الأدارسة:

كانت المساجد هي محور الحياة الفكرية، مثل جامع القرويين، فمن أوائل الذين عقدوا مجالس علمية حافلة في القيروان الحافظ الثقة الشارح أبو عبد الرحمن بكر بن حماد التاهرتي (ت ٢٩٦/٨٠٨م) الذي ورد على فاس باستدعاء من الأمير أحمد بن القاسم بن إدريس الذي كان على سابق معرفة به، وتجمعهما رابطة العلم والأدب، وقد عرف بمجالسه سواء في بلده، أو بالقيروان، أو ببغداد<sup>(٢)</sup>.

وكان من جملة الأمراء الأدارسة الذين شجعوا العلم والعلماء والشعراء الأمير يحيى ابن إدريس بن عمر (ت ٣٠٧/٩١٩م) الذي كان فقيهاً عالماً حافظاً للحديث، يقصده العلماء والشعراء من كل العالم الإسلامي، وقد كان له مجموعة من الوراقين لا شغل لهم إلا نسخ الكتب، وكانوا يمارسون دروسهم ومهنتهم هذه في جامع القرويين الذي لا يبعد إلا مسافة قريبة من مسكن الأمير يحيى، وعلى الرغم من عدم توافر أدلة كثيرة على نشاط الأمراء الأدارسة الآخرين في هذا المجال -وذلك لقلة الموارد المالية المتاحة لديهم؛ حيث إنهم لم يكونوا ذوي ثروة تساعدهم على تشجيع الحركة العلمية والأدبية إلى الحد الذي يكثر معه الإنتاج، وتنتشر حركة التأليف- إلا أن نظرة قصيرة على تاريخ الأمويين بالأندلس، والعبديين في القيروان، تدلنا على مدى الحركة الفكرية الواسعة في كل من إفريقية والأندلس، في نفس الوقت الذي كان فيه الأدارسة في المغرب<sup>(٣)</sup>.

(١) التازي: جامع القرويين (١/٤٧، ٤٩).

(٢) البكري: المغرب (ص ١٣٠)، ابن عذاري: البيان المغرب (١/٣٣٧).

(٣) ابن القاضي: جذوة الاقتباس (٢/٥٣٥)، البكري: المغرب (ص ١٣٢).

وكانت حركة العلوم الدينية مزدهرة في عهد الأدارسة، وابتدأت هذه الحركة بدخول إدريس بن عبد الله إلى المغرب، حيث نشر الموطأ بين المغاربة، وكان يؤثر عنه قوله: نحن أحق باتباع مالك بن أنس وقراءة كتابه؛ وذلك لرواية إدريس للموطأ عن والده عبد الله الكامل، وكذلك فقد ناهض إدريس المعتقدات البعيدة عن الإسلام، وكان له الفضل الأكبر في حمل الناس على اتباع آراء عالم المدينة مالك بن أنس، ولم يكن عمل إدريس شاقاً في إقناع المغاربة بهذا الأمر<sup>(١)</sup>، لأنه ينسجم مع طبيعتهم البسيطة التي تحبذ الأشياء الواضحة التي لا يكتنفها الغموض، ولهذا فقد فتح القرويون عيونهم على تعاليم مالك، وكانت حلقات العلم مجالاً واسعاً لدراسة آرائه، ومناقشة آراء الفقهاء المسلمين الآخرين<sup>(٢)</sup>.

أما الحركة الأدبية فقد شهدت هي الأخرى نشاطاً ملحوظاً، فقد عرف عدد من الأدارسة فنون الشعر التقيدية، غير أن الشعر السياسي كان ضاعياً على الأبواب الأخرى نظراً للنصران القائم بين مختلف الفئات التي كانت موجودة في ذلك العصر، وكان بين أمراء الأدارسة عدد كبير من الأدباء والشعراء، منهم: إدريس الثاني<sup>(٣)</sup> الذي روي عنه قوله للشعر في مناسبات عديدة، مما يدل على شعرية جيدة، وبلاغة متمكنة، ومن الأمراء الآخرين الذين عرف عنهم قول الشعر: إبراهيم بن القاسم بن إدريس (باني قنعة حجر النسر)<sup>(٤)</sup>.

### ولاية الأدارسة:

١- إدريس الأول ابن عبد الله (١٧٢-١٧٧هـ/٧٨٨-٧٩٣م)

٢- إدريس الثاني (١٧٧-٢١٣هـ/٧٩٣-٨٢٨م).

(١) التازي: جامع القرويين (١/١١٨، ١١٩).

(٢) التازي: جامع القرويين (١/١١٩، ١٢٠).

(٣) ابن القاضي: حذرة الاقتباس (١/١٦١).

(٤) ابن أبي زرع: روض القرطاس (٢٦، ٢٧)، الجزائني: حبي زهرة الآس (١٦، ١٧).

- ٣- محمد بن إدريس الثاني (٢١٣-٢٢١/هـ ٨٢٨-٨٣٦م).
- ٤- علي الأول ابن محمد (٢٢١-٢٣٤/هـ ٨٣٦-٨٤٩م).
- ٥- يحيى الأول ابن محمد (٥٢٣٤-؟)
- ٦- يحيى الثاني ابن يحيى الأول (-)
- ٧- علي الثاني ابن عمر بن إدريس الثاني (-)
- ٨- يحيى الثالث ابن القاسم بن إدريس الثاني (-)
- ٩- يحيى الرابع ابن إدريس بن عمر (٢٩٢-٣١٠/هـ ٩٠٤-٩٢٢م).
- ١٠- الحسن الحجام بن محمد (٣١٠-٣١٣/هـ ٩٢٢-٩٢٥م).
- ١١- كنون بن محمد بن القاسم (-)
- ١٢- أبو العيش أحمد (٣٣٧-٣٤٣/هـ ٩٤٨-٩٥٤م).
- ١٣- الحسن بن كنون (٣٤٣-٣٦٤/هـ ٩٥٤-٩٧٤م).

## خلاصة الوحدة الثالثة

### أولاً: الأغالبة:

- ١- حكم الأغالبة إفريقية (تونس) ما بين عامي ١٨٤-٢٩٦هـ.
- ٢- ينقسم تاريخ الأغالبة إلى ثلاث فترات كبرى (التأسيس، الازدهار، الضعف).
- ٣- تبع بنو الأغلب الخلافة العباسية. وحكموا باسمهم.
- ٤- اتسم التاريخ الأغلبي في المغرب بالازدهار العمراني وكثرة المنشآت.
- ٥- يرجع إلى الأغالبة الفضل في إنشاء البحرية الإسلامية في المغرب.
- ٦- قام الأغالبة بفتح جزيرة صقلية، وكان لهذا الفتح نتائج كثيرة.

### ثانياً: الأدارسة:

- ١- يرجع الأدارسة إلى أصول عربية علوية.
- ٢- كانت أحوال المغرب غير مستقرة عند ظهور الأدارسة.
- ٣- بذل إدريس لأول جهوداً كبيرة في تثبيت دولته.
- ٤- قسّم إدريس الثاني الدولة بين إخوته، وقد أثر ذلك سلباً على مصير الدولة.
- ٥- تعددت أسباب سقوط الدولة إلى أسباب خارجية وأسباب داخلية.
- ٦- بذل الأدارسة جهوداً طيبة في نشر الإسلام واللغة العربية في المغرب.
- ٧- يرجع إلى الأدارسة الفضل في إنشاء مدينة فاس.
- ٨- بنى الأدارسة العديد من المدن الأخرى مثل: البصرة وحجر النسر.
- ٩- يرجع إلى الأدارسة الفضل في تكوين حياة ثقافية مزدهرة في المغرب الأقصى.

## اختبار الوحدة الثالثة

أولاً: أسئلة الصواب والخطأ:

- ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (x) أمام العبارة الخاطئة فيما يأتي:
- ١- عملت دولة الأغالبة على نشر الحضارة في البلاد الإسلامية التي خضعت لها.
  - ٢- حكم إفريقية من بني الأغلب عشرون أميراً معظمهم مدة حكمهم طويلة.
  - ٣- يعد إبراهيم بن الأغلب مؤسس دولة الأغالبة من أقصر أمرائها حكماً.
  - ٥- بنى الأغالبة مدينة العباسية في جنوبي القيروان عام ١٩٠هـ.
  - ٦- فتح الفقيه المجاهد أسد بن الفرات صقلية في عهد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب.
  - ٧- كان زيادة الله بن إبراهيم حليماً حتى مع خصومه الخارجين عليه.
  - ٨- قامت ثورة منصور الطنبذي في بلاد المغرب في عهد زيادة الله.
  - ٩- اكتمل تجديد جامع الزيتونة في عهد إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب.
  - ١٠- أسست مدينة رقادة جنوبي القيروان في عهد زيادة الله.
  - ١١- توسع الأغالبة في عملية بناء الربط الساحلية التي تسمى أيضاً بالقصور والمحارس.
  - ١٢- يعد فتح الأغالبة لجزيرة صقلية من أهم الفتوحات الإسلامية البحرية.
  - ١٣- كانت صقلية في عهد الأغالبة مركزاً للعلوم والفنون والترف.
  - ١٤- أدى فتح المسلمين لصقلية إلى سيطرة المسلمين على التجارة العالمية التي تمر عبر البحر المتوسط.
  - ١٥- مؤسس دولة الأدارسة هو: إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب.
  - ١٦- حدثت معركة فح بين الأغالبة والأدارسة.
  - ١٧- اختار إدريس مدينة وليلي مقراً للأدارسة؛ لتمييزها بموقع جيد.
  - ١٨- توجهت العمليات العسكرية الأولى لإدريس الأول نحو بلاد الجزائر.
  - ١٩- كانت مدة حكم إدريس الأول عشر سنوات.

- ٢٠- ترك إدريس بن عبد الله خمسة من البنين وورثة كثيرين.
- ٢١- كان عصر إدريس الثاني عصر ازدهار وقوة لدولة الأدارسة.
- ٢٢- كانت كنزة أم إدريس الثاني حرة قرشية.
- ٢٣- يعد يحيى بن إدريس بن عمر من أشهر أمراء دولة الأدارسة في فترتها الأخيرة.
- ٢٤- ساهمت دولة الأدارسة في انتشار اللغة العربية في المناطق التي سيطرت عليها.
- ٢٥- اشترك كل من الأغالبة والأدارسة في بناء مدينة فاس.
- ٢٦- نشر كتاب الموطأ بين المغاربة إدريس بن عبد الله.
- ٢٧- بلغ عدد ولاة الأدارسة اثنين وعشرين والياً.
- ثانياً: الأسئلة المقالية:

- ١- اكتب ما تعرفه عن مراحل تاريخ الأغالبة والأدارسة.
- ٢- تحدث بالتفصيل عن دور الأدارسة في نشر الإسلام واللغة العربية.
- ٣- اكتب مذكرات مختصرة عن إنشاء مدن: فاس ورقادة والعباسية.
- ٤- اذكر ما تعرفه عن الفترات الهينة الثلاثة لدولة الأغالبة.
- ٥- اكتب مذكرات مختصرة عن ولاة دولة الأغالبة.
- ٦- بين جهود الأغالبة في القضاء على التورات والعنق.
- ٧- بين كيف تم فتح جزيرة صقلية؟
- ثالثاً: الأسئلة الحوارية:

دار حوار بينك وبين زميلك حول دور الأغالبة والأدارسة في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية في المغرب. صف لنا هذا الحوار.

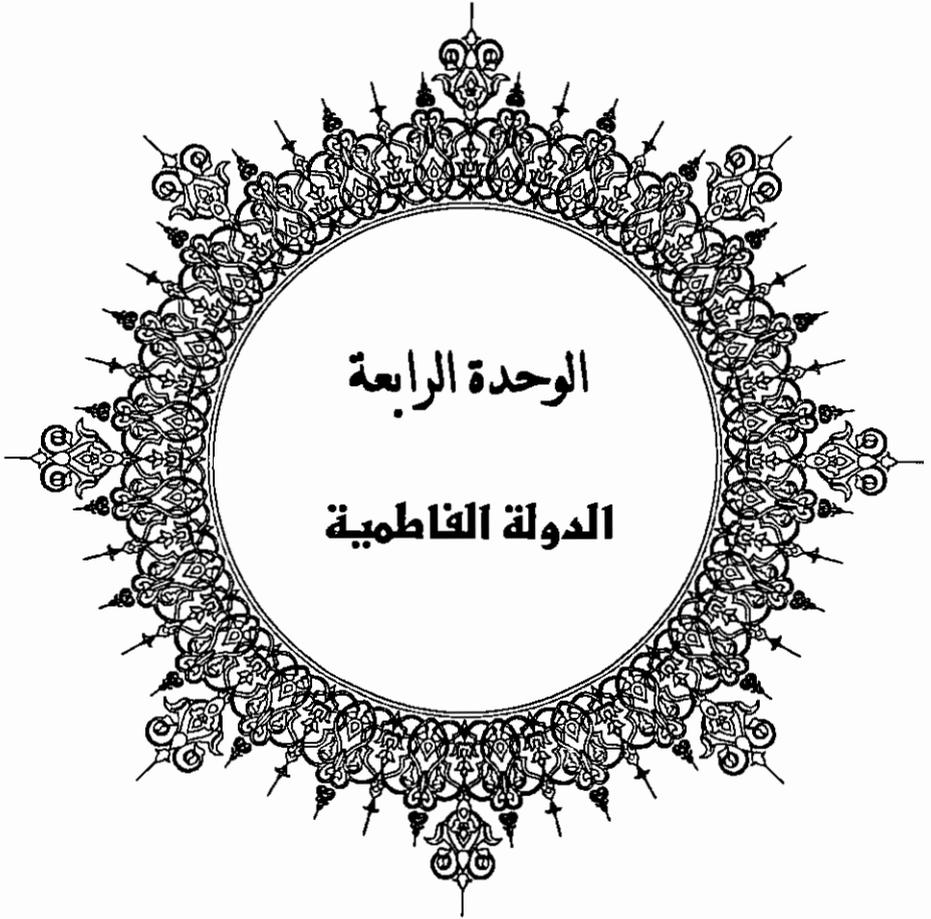
رابعاً: الأسئلة التحليلية:

- أ- اذكر مراحل تاريخ الأغالبة في إفريقية.
- ب- تحدث بإيجاز عن أثر فتح الأغالبة لجزيرة صقلية.
- ج- تكلم عن دور الأدارسة في نشر الإسلام واللغة العربية بالمغرب.
- د- ما أسباب سقوط دولة الأدارسة؟

## النشاط التعليمي للوحدة الثالثة

- عزيزي الدارس: حتى تكتسب المزيد من المعلومات حول موضوعات هذه الوحدة عليك بإنجاز النشاط التعليمي التالي:
- أ- أعد بحثاً تناول فيه مراحل تاريخ الأغالبة والأدارسة.
  - ب- اكتب مقالاً عن الحضارة الإسلامية في عصر الأغالبة والأدارسة.
  - ج- تناقش مع زملائك في موضوع تكوين دولة الأدارسة.
  - د- تناقش مع زملائك حول تكوين الأغالبة للبحرية الإسلامية في المغرب.
  - هـ- تناقش مع زملائك حول دور الأغالبة والأدارسة في تاريخ المغرب.
- يوصى بالرجوع إلى بعض هذه المراجع:
- د/ أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس. الإسكندرية سنة ١٩٦٨م.
- د/ أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب الأندلسي. الإسكندرية سنة ١٩٨٠م.
- د/ حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس. دار المستقبل سنة ١٩٨٠م.
- د/ السيد سالم: تاريخ المغرب الكبير. الدار القومية سنة ١٩٦٦م.





## الوحدة الرابعة

### الدولة الفاطمية

مبررات دراسة الوحدة:

تكشف لنا هذه الدولة عن طبيعة اختراق الأفكار المنحرفة للمجتمع الإسلامي عندما تستسلم الأمة لأنواع الخلل الفكري، وتميل إلى الدعة والترف، وتقف عاجزة عن الاستمرار في الجهاد.

تلك الظواهر اكتنفت الدولة العباسية العظمى في بعض مراحل وجودها، ولا سيما عند سيطرة البويهيين، والسلاجقة عليها، فأعطى هذا الإسماعيلية المبتدعة فرصة اقتحام أرض المغرب العربي الإسلامي، وإقامة دولتهم فيما يعرف الآن بتونس والجزائر، وجزء من المغرب الأقصى. ثم زحفوا إلى مصر في منتصف القرن الرابع الهجري، واستولوا عليها، وحاولوا نشر مذهبهم لمدة تزيد على القرنين من الزمان. ومن خلال دراسة هذه الدولة نهدف إلى معرفة مدى ما يسببه الضعف الداخلي من نكبات، فلو بقي أهل السنة والجماعة متّحدين لما نُجحت دولة الفاطميين.

وقد أنشأت هذه الدولة الجامع الأزهر لنشر مذهبها، لكن الله أراد بالإسلام خيراً، فحاء صلاح الدين الأيوبي ليعيد الأمور إلى نصابها، عندما اتّحدت الأمة وراءه فدحر القوى الداخلية المبتدعة، والقوى الصليبية الخارجية. وهكذا، يتجلى الفرق بين موقفى التفرّق والاتحاد، ويتجلى الفرق أيضاً بين آثار الاستقلال الطولوني الإخشيدى الكاذب، وآثار الاتحاد الزنكي الأيوبي الإسلامي. فالإتحاد ضمان لقوة الداخل، وحماية الأمة من الغزو الخارجي.

والدولة الفاطمية - عموماً - تجربة تستحق الدراسة، فما زلنا نعاني من آثارها البدعية في حياتنا المعاصرة، على أساس أنها اختراق فكري من الداخل، فالتعرف على سلباتها وإيجابياتها كحركة اختراق هدف يجب أن نسعى إليه بوعي وبصيرة.

الأهداف التعليمية للوحدة:

عزيزي الدارس: يرجى بعد دراستك لهذه الوحدة أن تصبح قادرًا على أن:

- ١- تعرف مصطلح التشيع والمالكية.
- ٢- تعرف أسباب محاولة الفاطميين الاستيلاء على مصر.
- ٣- تدرك فشل الفاطميين في نشر مذهبهم في المغرب.
- ٤- تعرف دور جوهر الصقلي في فتح مصر.
- ٥- تستنتج لماذا بنى جوهر الصقلي القاهرة؟
- ٦- تعرف ملامح العصر الفاطمي الأول، (عصر القوة).
- ٧- تعرف ملامح العصر الفاطمي الثاني.
- ٨- تستنتج خطوات صلاح الدين في إزالة الدولة الفاطمية.
- ٩- تعرف طرق الفاطميين في نشر المذهب الشيعي.
- ١٠- تستنتج رد فعل المصريين لمحاولة فرض المذهب الشيعي.
- ١١- تعرف أحوال مصر الحضارية في العصر الفاطمي.

## الوحدة الخامسة الدولة الفاطمية

تعريف مصطلح التشيع، والمالكية.

أسباب محاولة الفاطميين الاستيلاء على مصر.

فشل الفاطميين في نشر مذهبهم في المغرب.

دور جوهر الصقلي في فتح مصر.

العصر الفاطمي الأول والثاني.

خطوات صلاح الدين في إزالة الدولة الفاطمية

## الدولة الفاطمية في المغرب ومصر

(٢٩٦-٥٦٧هـ)

أولاً: الدولة الفاطمية في المغرب:

امتدت فترة الحكم الفاطمي للمغرب خمسة وستين عامًا تقريباً (٢٩٦-٥٦٦هـ)، وشملت أربعة أمراء، هم: المهدي (٢٩٧-٥٢٢هـ)، والقائم (٣٢٢-٥٣٤هـ)، والمنصور (٣٣٤-٥٤١هـ)، والمعز (٣٤١-٥٣٦١هـ).

ويعدّ أبو عبد الله الشيعي هو الممهد لقيام الدولة الفاطمية في المغرب، إذ كلفه ابن حوشب في اليمن بالذهاب إلى المغرب وإكمال عمل الداعيين أي سفيان، والحلواني فاستقر أبو عبد الله الشيعي مع قبيلة كتامة في مدينة تازرون في منطقة حصينة جغرافياً وانضمت إليه قبائل: أجانة وملوسة ولهيسة، فقوي بهم، ودخل مع الأغالبة في حروب كثيرة مكثت سبع سنوات (٢٨٩-٥٢٩٦هـ/٩٠١-٩٠٨م)، ثم زحف على المدن الأغلبية فاستولى على طبنة، وبلزمة، وباغاية وقرطاجنة وتيبغاش والقصرين وقسطيلية وقفصة والأربس ورقادة، ثم استولى أخيراً على القيروان<sup>(١)</sup>.

وعندما استقرت الأمور للمهدي الفاطمي (٢٩٧-٥٣٢٢هـ/٩٠٩-٩٣٣م)، وضع التنظيمات الإدارية والسياسية التي تكفل لدولته الوليدة الاستمرار، فوزّع الاختصاصات السياسية والإدارية على أنصاره ومؤيديه، فجعل علي الحجابة: أبا الفضل جعفر بن علي، وأبا أحمد جعفر بن عبيد، وأبا سعيد عثمان بن سعيد، واستكتب إبراهيم بن محمد البغدادي، وجعل علي بيت المال أبا جعفر الخزري، وعلى ديوان الخراج أبا القاسم القديم، وعلى السكة أبا بكر الغمودي، وعلى

(١) حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، دار السعودية ١٩٩٠م (ص ٤٧٤).

والسيد سالم: المغرب الكبير، (العصر الإسلامي). دار القومية للنشر ١٩٦٦م (ص ٥٩٣).

العطاء عبدون ابن حباسة، وعلى القضاء محمد بن عمر المرودي<sup>(١)</sup>.  
وبالغ المهدي في نشر المذهب الشيعي في المغرب، فقطع صلاة التراويح،  
وزاد في الأذان عبارة: "حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر"، وأسس  
المهدي ديوان الكشف "المخابرات" لتتبع المخالفين للمذهب الشيعي، واضطهد  
أهل السنة في المغرب، وعذب كثيراً منهم مثل: إبراهيم بن محمد الضبي، وأبي بكر  
بن هذيل، ثم اضطر - بعد رد فعل أهل السنة المالكية - أن يعزل من السياسة المنهية،  
فاعتمد على مدارس الدعوة لنشر التشيع، ولكن الدعوة الشيعية فشلت مذهبياً في المغرب؛ لأن  
المغرب قاعدة سنية مالكية<sup>(٢)</sup>.

وشرع المهدي - بعد أن توطد سلطانه - في بناء حاضرة جديدة عرفت  
باسم المهديّة، على بُعد ستين ميلاً جنوبي القيروان، وأنشأ بها مساكن لرجال  
الدولة الكبار ومعسكرات الجند ومخازن الأموال، وخصص لها ثلاثمائة ماجل،  
وكثيراً من القنوات لحمل الماء إليها<sup>(٣)</sup>.

ولقد عمل المهدي على إثارة الصراع القبلي، فوفقت قبيلتا: مغراوة وبني  
يفرن الزناتيتان ضد الشيعة، بسبب استيلاء الشيعة على تاهرت وشرقي المغرب  
الأوسط وإقامة دواس اللهيصي الكتامي واليا على المنطقة، وكانت مهمة  
اللهيصي مراقبة مغراوة وبني يفرن، وعندما فشل اللهيصي في مهمته، تحوّل  
المهدي إلى فضالة بن حبوس الزناتي سنة (٥٣٠٠هـ)، فظل فضالة رجل الفاطميين  
الأول حتى قتل سنة (٥٣١٢هـ)، فخلفه أخوه يصل بن حبوس، فظل حتى سنة  
(٥٣١٩هـ)، ثم استرضى الكتاميون الفاطميين، فأقام الفاطميون أبا مالك بن

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ دار صادر بيروت ١٩٦٥، (٥٢/٨) وابن عَدّاري: البيان المغرب في  
أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق ح. س كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة بيروت (١/١٦٤).

(٢) ابن خلدون: العر، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٦م (٤/٣٩، ٤٠).

(٣) البكري: المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب تحقيق دي سلان، الجزائر ١٩١١م (ص ٢٩-٣١).

يغمراسن بن أبي شحمة، ولكنه لم يصمد لمغراوة، فأقام الفاطميون على المغرب الأحذب بن فضالة بن حبوس، ثم داود بن إبراهيم العجيسي، ثم حميد بن يصل بن حبوس المكناسي. وهكذا غرق البربر في الحروب والصراع القبلي، فاصطنع المهدي قبيلتي لحيعة وملوسة ليعاقب أجانة ومسالته، ولم يكن المهدي مدفوعاً إلى ذلك بدافع مذهبي، بل بدوافع مالية وأمنية<sup>(١)</sup>.

وغلب على عهد القائم الفاطمي (٣٢٢-٣٣٤/٩٣٣-٩٤٠م) الطابع الحربي والصدامي، فبدأ عهده بأمر عماله في سائر البلدان بعمل السلاح وجميع آلات الحرب؛ وذلك لأن أهل المغرب ما أن سمعوا بوفاة المهدي حتى أطلقوا لثورتهم العنان، فاشتعلت المغرب فتناً، وكانت أشد هذه الفتن ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، التي تدل على حالة السخط والتمرد على الشيعة مذهباً وسياسة، وقد استمرت هذه الثورة خمسة وعشرين عاماً (٣١٦-٣٤١م). وتحولت بلاد المغرب في هذه الثورة إلى ساحة قتال ومذابح، وفقدت الدولة الفاطمية العديد من قوادها مثل: ميسور وصندل ومرام وشفيع وقيصر، لكن الثورة فشلت وقتل أبويزيد وولده فضل<sup>(٢)</sup>.

وتغيرت أوضاع المغرب في عهد المنصور الفاطمي (٣٣٤-٣٤١/٩٤٥-٩٥٢م)، فأظهر حبه للعمارة، وأعلن في سنة (٣٣٥/٩٤٦م) إعفاء الرعية من ضريبة العشر والصدقة رفقا بهم وعونا لهم على عمارة أرضهم وأملاكهم، كما قرر ألا تؤخذ الضرائب إلا حسب ما يقضي الشرع عينا من نوع الإنتاج نباتياً وحيوانياً. وبنى مدينة صيرة "المنصورية" سنة (٣٣٧/٩٤٨م)، وهي لا تبعد عن القيروان بأكثر من نصف ميل، وتقابل مدينة رقادة، ونقل إليها الأسواق وجميع

(١) المقريري: اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الحنفا، تحقيق محمد كامل حسن، دار الفكر العربي ١٩٤٧م، (ص٩٧) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار المستقبل مصر ١٩٨٠ (ص١٣١).

(٢) حسن علي حسن: قبيلة زناتة ومعارضتها للخلافة الفاطمية، ندوة قسم التاريخ الإسلامي، كلية دار العلوم ١٩٩١م (ص١٠٧).

الصناعات، وأظهر المنصور التواضع<sup>(١)</sup>.

ثم تولى المعزّ الفاطمي، وامتد حكمه عشرين عاماً، وكان عهده أزهى عصور الخلفاء الفاطميين بالمغرب للهدوء النسبي الذي ساد البلاد، فأمنت السبل واطمأنت النفوس، فاستأمنتها قبيلتا بني كملان ومليلة -من هوارة- ومال الناس إلى موادعة المعز.

وأقرّ المعزّ الفاطمي زيزي بن مناد على مدينة أشير، وكان على تاهرت يعلى بن محمد اليفرنى، وعلى المسيلة وأعمالها جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي، وعلى فاس أحمد بن بكر بن أبي سهل الجذامي، وعلى سجلماسة محمد بن واسول<sup>(٢)</sup>.

ودخل الفاطميون مع الأمويين بالأندلس في حروب كثيرة، نتج عنها أحلاف وتكتلات قبلية مغربية، وأدى ذلك إلى تدهم العمران ونهب الأموال وقتل الرعية، مما زاد في تعميق الضعف الاقتصادي والتخلف الاجتماعي، ونجح أمويو الأندلس في استمالة زناتة بالمغربين الأوسط والأقصى<sup>(٣)</sup> (الجزائر والمملكة المغربية) الآن.

وأصبح المعزّ الفاطمي غير مستريح للبقاء في المغرب، فأعلن ضيقه عن الأوضاع الداخلية، وتمردت أسرته عليه، فقال للأستاذ جودر: "فامتحنني الله بفقده -أي والده- والانفراد بعده في الديار الموحشة والقصور الخالية والبلد المشاقق بين كل عدو وفاسق"<sup>(٤)</sup>.

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، النهضة المصرية ١٩٦٠م (٣/٢٥٠).

ابن خلدون: العبر (٧/١٤-١٥).

(٢) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، القاهرة ١٩٦٥م (ص ٢٢٤).

السيد سالم: المغرب الكبير (ص ٦٣٢).

(٣) المقرئزي: اتعاظ الحنفا (١/٩٥، ١٠٥)، مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته (١/٥١٩).

(٤) حسن إبراهيم حسن: المعز لدين الله الفاطمي، دار الفكر العربي ١٩٦٥م (ص ٣٢، ٣٣).

## التأثير المذهبي في المغرب بعد رحيل الفاطميين

خرجت الدولة الفاطمية من المغرب بعد حكم دام ستة عقود (٢٩٨-٥٣٦١هـ)، لم تستطع خلالها أن تفرض نزعتها المذهبية الإسماعيلية الباطنية، مع أنها حاولت فرض هذه النزعة المذهبية بكل وسائل الترغيب والترهيب.

وقد التقت ظروف وبواعث مهدت لها الطريق لكي تفتح (مصر) بعد أن وصل بها الإخشيدون - كحركة انفصالية - إلى مستوى سيئ من الضعف، تزامن معه ضعف الخلافة العباسية، وظن الفاطميون أن حظهم المذهبي والسياسي في مصر سيكون أفضل من حظهم في المغرب، فخرجت إليها جيوشهم بقيادة قائدهم (جوهر الصقلي) سنة (٥٣٥٨هـ) لفتحها، بينما بقي المعز لدين الله الفاطمي في المغرب يرتب الأوضاع، ويحاول الوصول إلى ضمانات مغربية تضمن وجود نفوذهم السياسي والمذهبي، فوقع اختيارهم - انطلاقاً من رؤيتهم لهذه الضمانات - على بني زيري بن مناد البربري الصنهاجي؛ إذ كان بلكين بن زيري زعيم صنهاجة قد قَدَّم لها كثيراً من الخدمات، فوقع الاختيار عليه ليكون خليفة الفاطميين في المغرب، وكان استخلافه على إفريقية والمغرب يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي الحجة سنة (٥٣٦١هـ).

وتكاد تكون فترة حكم بلكين بن زيري (٣٦٢-٥٣٧٣هـ/٩٧٢-٩٨٣م) استمراراً لحكم الدولة الفاطمية، ولكن بموت بلكين وتولية ابنه المنصور أبي الفتوح بدأ الصراع الداخلي بين البربر الصنهاجين يدخل طور البروز، مما أدى إلى تقسيم الدولة إلى دولتين.

### دولة بني زيري:

لقد انتهت الخلافات بين أعضاء البيت الزيري إلى تمزيق دولة بني زيري إلى دولتين: دولة بني زيري أو بني باديس في تونس، ودولة بني حماد في المغرب الأوسط (الجزائر).

ومن المعروف أن دولة بني زيري هي الدولة الأم التي خلفت الفاطميين، وقد

عاشت نحو قرنين من الزمان (٣٦١-٥٤٣م)، حكم خلالها ثمانية حكام هم:

- ١- بلكين بن زيري (٣٦١-٥٣٧٧/٩٨٣م).
- ٢- المنصور بن بلكين (٣٧٧-٥٣٨٦م).
- ٣- باديس بن المنصور (٤٠٦-٥٥١/١٠١٥م).
- ٤- المعز بن باديس (٥٤٥٣/١٠٦١م).
- ٥- تميم بن المعز (٥٥٠١/١١٠٧م).
- ٦- يحيى بن تميم (٥٥٠٩/١١١٦م).
- ٧- علي بن يحيى (٥٥١٥/١١٢١م).
- ٨- الحسن بن علي (٥٥٤٣/١١٤٨م).

وقد اهتمت الدولة الزيرية بالعلوم الشرعية، ورأت أنها وسيلة من وسائل مقاومة المذهب الإسماعيلي الفاطمي، ولهذا كان البلاط الصنهاجي يمنح الجوائز لطلاب العلم والمؤلفين، فانتشرت الحركة العلمية، وكان الحديث والفقهاء من أنشط العلوم، كما لقي المذهب المالكي من بني باديس كل رعاية واهتمام، بل وعمدوا إلى ترك ما سواه من المذاهب الأخرى، إلى أن أصبح المذهب المالكي هو المذهب الرسمي للدولة، وانطلق فقهاؤه ينشرونه في القسم الغربي من العالم الإسلامي مغربه وأندلسه، ومن أشهر علماء مائكية في ذلك العصر: أبو عمران الفاسي (ت ٥٤٣٠م)، وكان من أعظم الناس وأحفظهم، وأبو بكر أحمد بن عبدالرحمن بن عبدالله الخولاني (ت ٥٤٣٥م)، وكان له الذكر والرياسة الدينية، وأبو علي حسن بن خلدون، وأبو الحسن علي بن محمد بن المنمر الطرابلسي.

وكان للمدرسة الحنفية العراقية شأن في المغرب، وكان منهم معمر بن منصور، وسليمان بن عمران، وأبو القاسم بن عبدون القاضي، وغيرهم من أتباع أبي حنيفة. واستمرت مدرسة الحديث، وراج علم أهل الحديث في شتى أنحاء العالم

الإسلامي، فرحل إليهم طلاب العلم من شتى بقاع الأرض، ورحلوا هم إلى منابعه الأولى في المدينة ثم مصر.

ومن هذا العرض يتضح أن بني زيري كانوا حريصين دولة وشعباً على العودة إلى حظيرة أهل السنة والجماعة ملتزمين بالحكمة في هذا التعبير، اللهم إلا بعض الظروف الاستثنائية التي استعلت فيها بعض الشيعة، فسلطت عليهم الدولة بعض رجالها من الشرطة وطوائف من الشعب إلى أن هدأت نارهم، ومن أشهر حوادث هذا الشأن حوادث سنوات (٥٤٠٧هـ، ٥٤٠٩هـ)، حتى أعلن المعز بن باديس انفصاله نهائياً وسياسياً ومذهبياً عن الفاطميين سنة (٥٤٣٥هـ) على أرجح الآراء. وفي سنة (٥٤٤١هـ) أمر المعز بتغيير السكة (العملة) التي كانت تحمل أسماء الفاطميين، كما أمر بمحو أسمائهم من الطرز والرايات.

### دولة بني حماد:

نشأت دولة بني حماد بصنهاجة كفرع من بني زيري الذين خلفوا الفاطميين في حكم المغرب، ولئن كان إخوة المنصور بن بلكين وهم: حماد، وأبوالبهار، ويطوفت، قد بايعوا أحاهم بعد وفاة والدهم الذي خلف الفاطميين (بلكين بن زيري)، كما سلموا له بالإمارة، إلا أنه لم تلبث الانشقاقات أن ظهرت بينهم، فقد خالف أبوالبهار ابن زيري والي عمالة تاهرت (تيارات) أخاه المنصور سنة (٥٣٧٩هـ)، ولكن المنصور نجح في احتوائه بالترغيب والترهيب. وعندما مات المنصور ولي بعده ابنه باديس (٥١٤٠٦هـ/١٠١٥)، فثار على أعمامه، لكن عمه (حماد بن بلكين) كان الأذكي، فتظاهر بالوقوف مع ابن أخيه، وأعاناه على تثبيت الأوضاع بشروط صعبة انتهت بعقد معاهدة تعترف باستقلاله بدولة خاصة به هي دولة بني حماد (٤٠٨-٥٥٤٧هـ).

وفي سنة (٥٤٧٥هـ، ١٠٦٤م) على عهد الناصر بن علناس خامس أمراء الدولة

تعرضت القلعة لغارات بني هلال المتعاونين مع تميم بن المعز حاكم تونس الزيرية، فزحفوا إليها وبدأوا في تخريب منطقة الخضنة، ثم دخلوا القلعة ينهبون ويخربون ويدمرون مظاهرها الحضارية<sup>(١)</sup>، ورأى الناصر أن القلعة قد أصبحت مدينة منهكة القوى مكشوفة للمغربين فابتنى بجاية، وانتقل إليها سنة (٥٤٦١هـ، ١٠٦٩م).

ولم يمنع ذلك سكان القلعة من التماذي في الإقامة<sup>(٢)</sup>، لكن -مع ذلك- شرعت القلعة في الخراب<sup>(٣)</sup>.

وفي عهد العزيز الخليفة الحمادي الثامن -غزا البدو القعة، وأجبروا الحامية على عدم الخروج من المدينة، ثم خربوها<sup>(٤)</sup>.

ولما كانت سنة (٥٤٤٣هـ/١١٤٨م) اقتلع منها يحيى بن العزيز الحمادي - آخر ملوك الحماديين- ما كان بها من أدوات الزخرف، ونقلها إلى بجاية فزينها بها، وخمد ذكر القلعة، وبقيت مدينة تابعة لبجاية الحمادية إلى أن أناخ عبدالمؤمن الموحدى بجيوشه الحرارة على إفريقية فهدمها<sup>(٥)</sup>، وقوض ما بقي بها من بناء سنة (٥٤٤٧هـ/١١٥٢م) وأخذ جميع ما فيها<sup>(٦)</sup>.

لقد مرت الدولة الحمادية -كغيرها من الدول- بعدة أطوار تقلبت فيها من الصراع الطويل المستمر، إلى الاستقرار والإبداع الحضاري، إلى مجرد الاستهلاك المقترن بمظاهر الترف، إلى الأفول.

وقد أحدث سقوط الدولة الحمادية رد فعل عنيف في المغرب؛ لأنه كان

(١) تاريخ الجزائر للميني (٢/٢٥٣).

(٢) موجز التاريخ العام للكعك (ص ٢٥٦).

(٣) أعمال الأعلام (٣/٩٩).

(٤) Encyclopidia of Islam vol. ١١., part ٢, P. ٦٨٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل (١١/١٦٠).

(٦) المصدر السابق (١٠/٤٦).

يمثل سقوط آخر دولة تملكها أكبر قبيلة بربرية حكمت المغرب خلال هذه القرون قبل الموحدين وهي صنهاجة.

لقد اهتم الحماديون بعلوم الدين اهتماماً بارزاً، ومع توطيد دعائم الدولة الحمادية نستطيع القول إن المذهب المالكي كان يتصدر المذاهب بل والعقائد في المغرب العربي على المستوى الشعبي -على الأقل- ويلقى من المسؤولين كل رعاية ظاهرة وخفية، فأصبح هذا المذهب -بلا منازع- مجال نشاط "الفروع" في البلاد، ومصدر الأحكام والتشريع.

ولقيت علوم القرآن والسنة من تفسير وقراءات وحديث وفقه وتصوف اهتمام الدولة والشعب، وحفلت بها الجامعات والمعاهد الدينية، وقد أسس الحماديون المساجد والزوايا، فكانت المجال الخصب لازدهار هذه العلوم كلها، ونجح العصر الحمادي في أن يقدم -في مجال العلوم الشرعية- العديد من العلماء في سائر الفروع. ومن الجدير بالذكر أن انتصار المذهب المالكي قد أضفى على الدولة لوثاً من الثبات الفكري والعاطفي<sup>(١)</sup>، وتحقق على المستوى العقائدي نوع من الوحدة لم يتوفر لبلدان المشرق المعاصرة التي كان الصراع قائماً فيها بين السنة والروافض.

وقد اتجهت الحياة الدينية إلى دراسة الأحاديث المجموعة في كتب الفروع وفقاً لمدرسة الحديث التي كان إمامها "مالك" إمام أهل الحديث بالمدينة، وكانت كتب المالكية الشهيرة كموطأ الإمام مالك، والتلقين لعبد الوهاب البغدادي، والواضحة لابن حبيب والعتبية للعتبي<sup>(٢)</sup>، و"الأسدية" التي جمعها أسد بن الفرات<sup>(٣)</sup>، أثناء تلمذته على "ابن القاسم" إمام المالكية بمصر، و"المدونة" أو المختلطة التي جمعها في فقه المالكية أبو سعيد سحنون بن سعيد<sup>(٤)</sup>، ولقيت من

(١) الإسلام في المغرب والأندلس (ص ١٤٩)، وابن حمدون للدكتور سعد شلي (ص ١٦٦).

(٢) مقدمة ابن خلدون (٢/١٠٢٢).

(٣) الحلة السرياء (٢/٣٨١).

(٤) انظر: مقدمة ابن خلدون (٣/١٠٢٣).

المغاربة أكبر اهتمام... كانت هذه لكتب المرجع الأصلي للفقهاء المالكي الذي تدور حوله سائر الاجتهادات.

و لم يقف المغاربة عند حد الاتباع "بل ظهر بينهم بإفريقية طائفة من أعلام الفقه مجتهدون في المذهب ألقوا فيه وأوضحوا مسائله، كابن أشرس، والكتامي والبرادعي وغيرهم<sup>(١)</sup>، ومن هؤلاء من كان ينتقد مدونة سحنون"<sup>(٢)</sup>.

ولقد وجد في المدن الحمادية الكبرى كجاية والقلعة والجزائر وتاهرت وبونة عنماء أحباء يقصدهم طابو العلم من الأندلس ومن البلاد المغربية الأخرى. وكانت لبعضهم شهرة على امتداد العالم الإسلامي، كما أن بعضا من هؤلاء قد رحلوا إلى بلدان أخرى في لعالم الإسلامي، وكانت لهم شهرة بها.

ومن أبرز هؤلاء العلماء المشهورين مروان بن علي الأسدي المعروف بالبوني -نسبة إلى مدينة بونة- التي استقر بها بعد رحلة طويلة في العالم الإسلامي، وعقد بها مجالس علمه، ووفد إليه طالبو العلم من سائر بلاد الأندلس والمغرب، وقد حدث عنه أبو القاسم حاتم وأبو عمرو بن الحذاء، وكان معروفا بالصلاح والتقوى، والعفاف، وقد ألف كتابا في شرح الموطأ، كما كان عالما في الحديث أيضا، ومات في حدود سنة (٥٤٤هـ)<sup>(٣)</sup>.

ومن هؤلاء العلماء: موسى بن حماد الصنهاجي الذي كان فقيها حافظا من جلة القضاة، وكان راوية لأبي الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوي، وغيره، وقد توفي سنة (٥٣٥هـ) بمراكش<sup>(٤)</sup>، ومن هؤلاء موسى بن حجاج بن أبي بكر الأشيري من أشير، وكانت إقامته بتدلس من عمل بجاية، وعني بالرواية ثم انتقل إلى مدينة الجزائر -من عمل بجاية<sup>(٥)</sup>، وأمَّ بها صلاة الفريضة، وحدث وأخذ عنه إلى أن

(١) الديباج المذهب لابن فرحون، طبع مصر ١٣٥١هـ، (ص ١١٢، ١٣٦، ١٣٧، ١٥٢-١٥٣).

(٢) المغرب العربي لبونار (ص ٢٦٨).

(٣) الديباج المذهب لابن فرحون (ص ٣٤٥).

(٤) الصلة (٢/٦١٤)

(٥) التكملة لابن الأبار (٢/٦٩٠)، مكتبة الخانجي ١٩٥٦م.

توفي بتدليس سنة (٥٨٩هـ).

ومن أبرز المتخصصين في العلوم الدينية بفروعها المختلفة "يوسف بن محمد بن يوسف أبو الفضل النحوي" -الذي كان شاعراً دينياً كذلك، وكان بمثابة مدرسة لها اتجاهها في النظر إلى الأمور الدينية، ونجح في تكوين تلاميذ ينشرون اتجاهه في المغرب، وكان اتجاهه امتداداً للإمام الغزالي الذي كانت كتبه تحرق في دولة المرابطين بعد يوسف بن تاشفين. فقد ركز على علوم العقيدة والتصوف أكثر من التركيز على الفروع -الذي كان اتجاه المرابطين الرسمي- وكان يقول عن الإحياء: "وددت أني لم أنظر في عمري سواه"، وكان يلقي دروسه في القلعة وتخرج على يديه بما القاضي "أبو عمران موسى الصنهاجي" وأبو عبد الله محمد بن الدماسة، وأبو بكر بن مخلوف، ومحمد بن مخلوف وغيرهم<sup>(١)</sup>.

ومن برز في هذه العلوم محمد بن علي بن جعفر المعروف بابن الرمامة، تلميذ ابن النحوي، المولود بالقلعة سنة (٥٧٨هـ) والمتلقي بها دروسه صبيّاً وشابّاً، وصاحب كتاب "تسهيل المطلب في تحصل المذهب"، وكتاب "التقصي عن فوائد التقصي"، ومن هذا العرض يتضح لنا أن الدولة الفاطمية قد أخفقت إخفاقاً رسمياً وشعبياً في نشر مذهبها في المغرب، وأنه في الوقت الذي اضطر بلكين بن زيري وابنه المنصور إلى مجاملة الفاطميين، وعدم الإعلان الرسمي عن الخروج عن المذهب، إلا أنهما وفقاً لسياسة ذكية أوحوا إلى العلماء والشعب أن ينشروا علوم السنة، ومذهب الإمام مالك، كما ضيقوا الخناق بطريقة غير مباشرة على البقايا المتشعبة، إلى أن جاء المعز بن باديس فأعلن رسمياً -ومن فوق المنبر- الانخلاع الرسمي الكامل من أية صلة بالمذهب الإسماعيلي الباطني، مما دفع الفاطميين إلى تشجيع قبائل بني هلال وبني سليم على الزحف على المغرب والقضاء على دولة المعز بن باديس.

(١) انظر: البستان لابن مريم (ص ٢٩٩ وما بعدها).

ولئن كان حماد بن بلكين وأولاده لم يجنحوا مباشرة إلى الصدام مع الفاطميين والقيام بالإعلان الرسمي عن الخروج عن المذهب الإسماعيلي في أول نشأة الدولة إلا أنهم عمليا كانوا يمشون في الطريق نفسه، ولهذا كانت آثار الغزوة الخلالية التي أرسلها الفاطميون عليهم أخف وطأة في آثارها بالنسبة لبني عمومتهم بني باديس.

وقد رأينا من عرض النواحي العلمية في الدولة الحمادية أنها تتجه إلى منهج أهل السنة والجماعة والمذهب المالكي.

### قضية نسب الفاطميين

من الغريب أن يكون أول من تنكر لنسبة الفاطميين لآل البيت بعض كبار الشيعة، وعلى رأس هؤلاء الشريف العلوي أخو محسن محمد بن علي بن الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، ويصور لنا الشريف أخو محسن ذلك الاضطراب السيئ في نسب الفاضميين فيقول: "وقد كان قرمط يكتاب من سلمية، فلما توفي من كان الإمام صاحب الزمان في وقته، وجلس ابنه من بعده، كتب إلى حمدان قرمط، فلما ردّ عليه الكتاب أنكر ما فيه لألفاظ كان يعهدها عليه، فاستراب وأرسل أحد دعائه المسمى (بعبدان)، فلما وصل إلى هناك عرف بموت ذلك الطاغية الذي كانوا يكتبونه ووجد ابنه فسأله عن الحجة، ومن الإمام بعده؟ فقال الابن: ومن هو الإمام؟ قال عبدان: الإمام محمد بن إسماعيل بن جعفر صاحب الزمان الذي كان أبوك يدعو إليه، وكان حجته، فأنكر ذلك كله، وقال: محمد بن إسماعيل لا أصل له. ولم يكن الإمام غير أبي وأنا أقوم مقامه، فرجع عبدان إلى قرمط فعرفه الخبر، وأمره قرمط أن يجمع الدعاة ويعرفهم صورة الأمر وما تبين له منه، ويقطع الدعوة لمن بسلمية، ففعل عبدان ذلك، ولما قطعوا الدعوة من بلادهم لم يمكنهم أن يقطعوها من غير ديارهم؛ لأنها كانت قد امتدت في سائر الأقطار وكثر شرّها وتزايد خبثها، وذلك كله في سنة ست وثمانين ومائتين".

ويقول الشريف أخو محسن أيضاً: وكان مبتدأ هذه الدعوة الخبيثة لمحمد بن إسماعيل بن جعفر بزعمهم، ولم تزل هذه الدعوة إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر مرتبة على ما كانت رتبت إلى أن هرب سعيد المسمى بعبيد الله الملقب بالمهدي من سلمية. فصار هو الإمام<sup>(١)</sup>.

وإذا كان أبو عبيد الله الشيعي الداعي هو الذي تحمل عبء إقامة دولة الفاطميين في المغرب، ولم يكن لأبي عبيد الله المهدي في إقامتها أي فضل، لدرجة أنه عندما كان في طريقه إلى المغرب بدعوة الشيعي وجد أن المعارك لا زالت متصلة بين الشيعي والأغلبة في القيروان، فسار غربا إلى الصحراء تاركا الشيعي في قتاله دون أن يقدم له أي عون، حتى ورث ملكا جاهزا قُدم له على طبق من ذهب.

إذا كان عبيد الله الشيعي قد فعل كل ذلك، ففي المقابل كان أول عمل قام به أبو عبيد الله المهدي هو اغتيال الشيعي وأخيه العباس بعد عام واحد من نشأة الخلافة الفاطمية<sup>(٢)</sup>، وكانت الحجة التي أبرزت لتبرير هذا العمل الإجرامي أن الشيعي كان يريد الاستئثار بالسلطة، ولكن أحدا من المؤرخين لم يسأل: أي سلطة تلك؟ إن الجهد كله كان على يدي الشيعي وليس للمهدي فيه أي فضل. أيرثه هكذا دون أن يعطي للشيعي ولو صلاحية الحاجب أو الوزير الأول؟ وهل يليق هذا بأهل البيت؟

والتفسير الحقيقي الذي نراه مطابقا للعقل أن أبا عبيد الله الشيعي وأخاه العباس المقتولين معاً قد شكّا في حقيقة المهدي، وأخذوا يدعوان الناس لعصيانه ويقولان لهم: "إن المهدي يختم بالحجة ويأتي بالآيات الباهرة" ويقولان كذلك: "إن هذا ليس بالذي كنا نعتقد طاعته وندعو إليه؛ لأن المهدي يختم بالحجة ويأتي بالآيات الباهرة".

(١) انظر: دولة الإسماعيلية في إيران، د. محمد السعيد جمال الدين (نقلاً عن) (ص ٦١). طبع مصر.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، الطبعة الأولى - مصر (١/٤٤٤) وابن الأثير والكامل (٦/١٣٤).

ويروي المقرئزي -الذي بسط هذا الأمر- أن شيخا من قبيلة كتامة التي نصرت الدعوة الفاطمية دخل على المهدي وقال له: إن كنت المهدي فأظهر لنا آية فقد شككنا فيك<sup>(١)</sup>؟ فكان الموت جزاء قوله هذا من المهدي الفاطمي. ويضاف إلى مواقف التشيع المخالفة للفاطميين، موقف الأدارسة الذين سبقوا الفاطميين في المغرب، وكان من المعقول أن يتحدثوا معاً، وأن تكون بينهم علاقات ودية على الأقل، لكن الذي حدث هو العكس، فقد تعرضت دولة الأدارسة في المغرب الأقصى (١٧٢-٢٦٣هـ) لعداء الفاطميين وهجومهم، فاضطر الأدارسة إلى الانسحاب شمالاً إلى منطقة جبال الريف حيث تحصنوا هناك في بعض القلاع مثل البصرة وأصيلا وحجر النسر<sup>(٢)</sup>، بل إنهم اضطروا للتعاون مع بني أمية في الأندلس أيام عبدالرحمن الناصر ضد هذه الغارة الفاطمية التي لا تأبه بوحدة في مذهب، ولا بوشيجة نسب ولا عرق.

على أن لعلاقة القرامطة بالفاطميين دلالة في الموضوع، فمن المعروف أن أكثر القرامطة وكبارهم بخاصة قد رفضوا الاعتراف بأبي عبيد الله المهدي وبصحته نسبه، ودخلوا معه في حرب كلامية، كان من الممكن أن تتطور إلى حرب حقيقية لولا انشغال المهدي بمشكلاته أمام التائرين أتباع الشيعة المقتول في المغرب.

وكيف يمكن أن يكون من أهل البيت هؤلاء الذين وضعوا أيديهم في أيدي القرامطة الذين اعتدوا على الحرم واقتلعوا الحجر الأسود، وفي ذلك يقول ابن كثير اللعشقي المؤرخ: "إنما حمل القرامطة على الاعتداء على الحرم واقتلاع الحجر الأسود أنهم كفار زنادقة، وقد كانوا ممالئين للفاطميين الذين نبغوا بإفريقية ويلقب أميرهم بالمهدي، وهو أبو محمد عبيد الله بن ميمون القداح، وقد كان صباغا بسلمية، وكان يهوديا فادعى أنه أسلم، ثم سافر من سلمية فدخل بلاد إفريقية فادعى أنه

(١) اعطاء الخنفا (ص ٩٥).

(٢) د. أحمد مختار العبدوي: في تاريخ المغرب والأندلس (ص ١٩٠).

شريف فاطميّ فصدقه على ذلك كثير من البربر وغيرهم من الجهلة وصارت له دولة، وكان هؤلاء القرامطة يرأسونه ويدعون إليه<sup>(١)</sup>.

وقد كان للفاطميين من العادات والتقاليد التي يلتزم بها الحكام مع الرعية ما يوحي أنهم أكثر من بشر. وكانوا يلزمون المتصلين بهم بأسلوب في المعاملة الخاضعة للدليّة لا تليق بعلاقة الإنسان المسلم بأخيه المسلم حاكماً كان أو محكوماً ولم يرو شيئا منها عن رسول الله ﷺ الذي كان قمة التواضع والمعاملة الكريمة واحترام إنسانية الإنسان، فهل يمكن أن يحسب من آله ﷺ هؤلاء المتألهون المتكبرون؟.

وأخيراً لقد لخص لنا ابن عذارى المراكشي الرأي الحاسم في نسب الفاطميين<sup>(٢)</sup> فقال عن عبيد الله بن المهدي: "وقد اختلف في نسبه فادعى هو أنه عبيد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب". وقال سائر الناس إنه دعيّ، وإن انتسابه للطالبيين دعوة باطلة، وذكروا عن أبي القاسم بن طباطبا العلويّ أنه قال: "والله الذي لا إله إلا هو ما عبيد الله الشيعي منا، ولا بيتنا وبينه نسب". وقال مقاتل: هو عبيد الله بن محمد بن عبدالرحمن البصري". وقد فضح القاضي أبوبكر بن الطيب الباقلاني نسبه في كتاب "كشف الأسرار وهتك الأستار"، وذكر أنهم قرامطة "وأن أبا عبيد الله الشيعي أحدث لهم هذا المذهب ونسبهم هذا النسب". وحكى بعض المؤرخين أن جعفر بن علي كانت له جارية، فغشيها رجل من القرامطة، وقيل من اليهود، دفعت له مالاً، فكان يهاها وتهاها، وقتلت جعفرًا مولاها فولدت جد عبيد الله هذا، فمن خفيت عليه هذه القصة قال إنه علوي، ومن علمها علم دعوته وكذبه".

إننا -انطلاقاً من كل هذا -نتشككبل ونرفض نسبة الفاطميين إلى آل البيت، ونعتقد أنهم إسماعيليون قرييون من القرامطة ومن أصحاب العقائد المستترة.

(١) البداية والنهاية (١١/١٦١).

(٢) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق برونسال طبع دار الثقافة، بيروت (١٥٨/١).

## الدولة الفاطمية في مصر:

كان الاستقرار في مصر وفتحها أمنية فاطمية منذ قيام دولتهم في المغرب، فحاول عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين فتح مصر، فأرسل لذلك ثلاث حملات في سنوات: (٣٠١، ٣٠٧، ٣٢١هـ)، ولكنها جميعاً فشلت؛ لأن الخلافة العباسية كانت ما تزال قوية، وأحوال مصر مستقرة<sup>(١)</sup>.

ولما تولى المعز لدين الله الخلافة الفاطمية عزم على فتح مصر، وساعدته الأقدار على تحقيق رغبته، فلقد ضعفت الخلافة العباسية ووقعت تحت وصاية البويهيين الشيعة منذ سنة (٣٣٤هـ)، وهاجم البيزنطيون والقرامطة الشام ومصر، وتردت أوضاع مصر الاقتصادية بعد سلسلة من المجاعات والشدائد في سنوات (٣٤١/٣٣٨، ٣٤٣هـ)، كما اضطرت أحوال مصر السياسية والاقتصادية بعد كافور الإخشيد سنة (٣٥٧هـ) ووقع الغلاء في هذه السنة، واستمر حتى سنة (٣٦١هـ)، وفي ذلك يقول المقرئ: "وشمل الخراب عامة أرض مصر لموت أهلها، وقلة أموالها، وتعذر وجود الأقوات، وكثر الخوف".

وخرج جوهر الصقلي من القيروان لفتح مصر وصحبه السفن الحربية حتى وصل الإسكندرية سنة (٣٥٨هـ) فدخلها دون مقاومة، وتقدم نحو القسطنطينية وانتصر على الإخشيديين، واستقبله لوزير جعفر بن الفرات والأعيان والأشراف والقضاة، فأمنهم<sup>(٢)</sup> وأحسن إليهم. وبعد دخول جوهر مصر عمل على تثبيت الوجود الفاطمي، فوضع أساس الحضرة الجديدة، وفي اليوم التالي وضع أساس القصر الذي بناه للمعز الفاطمي المعروف بالقصر الشرقي الكبير الواقع في شرق المدينة الجديدة، وأطلق جوهر على المدينة الجديدة المنصورية نسبة للمنصور والد المعز، ثم غيّر المعز اسمها إلى القاهرة.

(١) سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين، مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٠م (ص ٣٦١-٣٦٢).

(٢) المقرئ: اتعاظ الحنفا (١/١٤٨، ١٥٣).

وأنشأ المعز بسور القاهرة ثلاثة أبواب وهي: باب النصر، وباب الفتوح، وباب زويلة، وكانت مساحة القاهرة صغيرة، وشملت أحياء: الأزهر والجمالية وباب الشعرية والموسكي والغورية وباب الخلق<sup>(١)</sup>.

وبني جوهر مسجداً لنشر الدعوة الشيعية، وبدأ بناءه سنة (٥٣٥٩هـ)، واستغرق بناؤه عامين تقريباً، وأطلق على هذا المسجد "جامع القاهرة" ثم أطلق عليه (الجامع الأزهر) في عهد الخليفة العزيز، ثم اتخذ جوهر خطوات لاتخاذ القاهرة حاضرة فاطمية تستقبل المعز، فأمر بإقامة الدعوة للمعز على مساجد مصر، وحذف الدعاء للعباسيين، وضرب السكة باسم المعز، ومنع الناس من لبس السواد شعار العباسيين، وأمر أن يُضاف للأذان: "حي على خير العمل"<sup>(٢)</sup>.

وعندما أدرك المعز أن سلطانه قد استقر في مصر قرر الرحيل إليها، فوصل الإسكندرية في شعبان (٥٣٦٢هـ) ومعه أولاده وإخوته وأعمامه ورفات آباءه: المهدي والقائم والمنصور<sup>(٣)</sup>.

وفي السابع من رمضان سنة (٥٣٦٢هـ)، وصل المعز الجيزة، فاستقبله قائده جوهر الصقلي، ثم اتجه إلى القاهرة وأقام في القصر الشرقي الكبير، ثم جاءته وفود أشرف معد وقضاها وعلمائها لتهنئته، فأمر بإطلاق سراح المعتقلين، وكانوا نحو ألف<sup>(٤)</sup>.

واتفق المؤرخون على تقسيم تاريخ الفاطميين في مصر إلى عصرين، اتسم كل منهما بسمات خاصة، فالعصر الفاطمي الأول هو عصر قوة الخلافة، ويمتد من دخول المعز مصر سنة (٥٣٦٢هـ) إلى النصف الأول من حكم الخليفة المستنصر

(١) المقرئبي: اتعاظ الحنفا (٣٨/١)، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، النهضة المصرية ١٩٥٨م (ص ٥٢٨، ٥٢٩).

(٢) المقرئبي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ط. بولاق ١٢٧٠هـ (٢/٧٣).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٢٠٥/٨)، المقرئبي: اتعاظ الحنفا (١/١٨٦).

(٤) ابن حنكان: وفيات الأعيان، النهضة المصرية ١٩٤٩م (١/١٤١).

بالله حوالي سنة (٥٤٥٧هـ)، ويشمل عهود كل من<sup>(١)</sup>:

(٣٦٢-٣٦٥هـ)	المعز لدين الله
(٣٦٥-٣٨٦هـ)	العزير بالله
(٣٨٦-٤١١هـ)	الحاكم بأمر الله
(٤١١-٤٢٧هـ)	الظاهر لإعزاز دين الله
(٤٢٧-٤٥٧هـ)	المستنصر بالله في عصر القوة

فبعد استقرار المعز جمع السلطات في يده، فتسلم الدواوين والخراج وجباية الأموال، وأقام جيشاً وأسطولاً قوياً، وساعده على ذلك الأموال التي أتى بها من المغرب، ورغم قصر مدة المعز في مصر والتي لا تزيد عن عامين، إلا أن كثيراً من الاحتفالات والمناسم والأعياد كانت من وضع المعز لدين الله<sup>(٢)</sup>.

وخلف العزير بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٦-٩٩٦م) والدّه المعز لدين الله، وهو في الثانية والعشرين من عمره، وعم مصر لرخاء في عهده، واتسعت رقعة الدولة، وحول الأزهر إلى جامعة، وأجرى العطايا على الأساتذة والطلاب، وأقم الكثير من المنشآت مثل: القصر الغربي الواقع مكان سوق النحاسين، وجامع قلاوون، وبين القصرين الشرقي والغربي، وهو ميدان فسيح لعرض الجند أطلق عليه "بين القصرين"<sup>(٣)</sup>.

ولكن حدثت تطورات سيكون لها أثرها في عهد العزير بالله ومن بعده من الخلفاء منها: ظهور قوة الوزراء المسيطرين، فظهرت شخصية يعقوب بن كلس الذي نقل الدواوين لبيته، وعزل القواد، وتدخل في عمل القضاة. والتطور الثاني ظهور أهل الذمة كقوة مؤثرة؛ لأن العزير تزوج مسيحية صار لها نفوذ كبير، ثم كانت ست

(١) عمر الإسكندري: تاريخ مصر، مكتبة مدبولي ١٩٨٩م (ص ١٩٤).

(٢) أحمد شلي: موسوعة التاريخ الإسلامي واحضارة الإسلامية، النهضة المصرية ١٩٩٨م (٥/١٢٩).

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢/١٥٢)، أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

القاهرة ١٢٨٧هـ (١/١٠٠).

الملك ابنة الخليفة قوة مؤثرة، تتدخل في الأمور، والخليفة لا يرد لها طلباً<sup>(١)</sup>.

أما الحاكم بأمر الله فشاع بين المؤرخين اضطراب سياسته وإدارته وتناقض أفعاله وشذوذه، ورماه بعضهم بالجنون، وحاول آخرون النظر إلى الحاكم وفق ظروفه وظروف عصره، فقد تولى الحاكم الخلافة صغيراً لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، وسيطرت عليه القوى المتمثلة في برجوان التركي متولي القصر، وست الملك أخت الحاكم، والمغاربة بقيادة ابن عمار، ولم يستطع الحاكم بأمر الله السيطرة على الدولة إلا بعد قتل برجوان سنة (٥٣٩٠هـ)، وبعدها باشر الحاكم بأمر الله أمور الحكم بنفسه، فراقب أحوال الناس، ودار في الأسواق، وتعرف على مشاكل الناس، وأنصف المظلومين، وضاعف مرتبات القضاة لتنزيههم عن الرشوة وأكل أموال الناس بالباطل، كما عمل على صيانة المرأة من التبذل والسفور - وإن كان قد بالغ في ذلك فيما يبدو - ومنع المسكرات والغناء، واللغو المتفشي بين الناس، ومنع أن يدخل أحد الحمام إلا بثوب يغطي عورته، وأنشأ دار الحكمة، وأمدّها بالكتب والورق والأقلام والمحابر، وأجرى الأرزاق على العلماء والعاملين والطلاب<sup>(٢)</sup>.

ووفّر السلع الغذائية بأسعار مناسبة وحدد أسعار كثير من السلع، وألزم أصحاب الغلال ببيعها للطحانين بسعر محدد<sup>(٣)</sup>.

ومع ذلك فهناك ما أخذ على سياسة الحاكم بأمر الله؛ منها: التعصب الشديد للتشيع، وقتل بعض علماء أهل السنة، وسب الصحابة، وتحريم بعض

(١) ابن العري: تاريخ مختصر الدول. بيروت ١٩٨٣م. (ص ٣١٦).

(٢) محمد عبدالله عنان: الحاكم بأمر الله، الخابجي - مصر ١٩٦٨م (ص ٨١). أحمد شلي: موسوعة التاريخ الإسلامي (١٣٤/٥).

(٣) المقرئ: اتعاظ الخنفا (٣٨/٢، ٤٤، ٥٦)، بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٥ (١٩٤/٢).

الأطعمة، والاضطهاد والإذلال لأهل الذمة، وشدته في العقاب؛ فأمر بإحراق القاضي بن النعمان عقاباً على خيائته المالية، وتجاوزت المخابرات في عهده؛ فانحرفوا واستغلوا وظائفهم في ابتزاز الأموال، وقدموا تقارير باطلة جعلت الحاكم بأمر الله يقتل بعض الأبرياء<sup>(١)</sup>.

وتولى الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله سنة (٥٤١١هـ)، وكان في حوالي السادسة عشرة من عمره، فدبرت عمته ست الملك الأمور في الدولة، وأرجعت كثيراً مما وهبه الحاكم بأمر الله للناس، ورفعت الحظر عما فرضه الحاكم بأمر الله؛ فسمحت للنساء بالخروج من منازلهن وقضاء حوائجهن، وأباحت أكل الأطعمة التي حظرت قبل ذلك، ورفعت الاضطهاد عن أهل الذمة<sup>(٢)</sup>.

ووقع الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله بعد وفاة عمته ست الملك سنة (٥٤١٥هـ) تحت سيطرة رجال دولته، فاستولى ثلاثة من كبار الرجال على أمور الدولة وهم: الشريف أبوطالب الحسيني القزويني، والشيخ نجيب الدولة علي بن أحمد الجرجرائي، والشيخ العميد محسن بن بدواس مع القائد معضاد، ومنعوا الظاهر من الاتصال بالناس حتى توفي سنة (٥٤٢٧هـ)<sup>(٣)</sup>.

وتولى المستنصر بالله بعد وفاة والده الظاهر لإعزاز دين الله سنة (٥٤٢٧هـ)، وكان المستنصر طفلاً صغيراً في السابعة من عمره، وامتد حكمه ستين سنة، وتولى أمور الدولة في البداية الوزير الجرجرائي، وفي هذه الفترة نعمت البلاد بالاستقرار والرخاء، وعاش الناس في مجبوحة من العيش، ولم يكن أحد يخشى سلباً أو ثباً وظلت الأمور كذلك حتى تعرضت مصر لنكبتين: أولاهما من سنة (٤٤٦-٤٤٥هـ)، فاجتاح البلاد

(١) بروكلمان: المرجع السابق (١٠٦/٢)، أحمد شلي: موسوعة التاريخ الإسلامي (١٤٠/٥).

(٢) ابن حلكان: وفيات الأعيان (٣/٣٦٨)، بن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، المؤسسة المصرية لتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣م (٤/٢٥٢).

(٣) نجيب بن سعيد الأنطاكي: التاريخ المجموع. بيروت ١٩٠٩م (ص ٢٣٥).

الطاعون، والثانية من (٤٥٦-٤٦٥هـ) بسبب نقص النيل واختلاف الجند، وسميت هذه الفترة: "بالشدة المستنصرية"، ونتج عن هذه الشدة ازدياد الفتن، ولم يجد الخليفة رواتب للجند، فباع تحف القصر ليدفع الرواتب، وأخرجت الكتب من مكتبة القصر ومن دار الحكمة وأخذها الجند مقابل رواتبهم<sup>(١)</sup>.

وحاول المستنصر إصلاح الأحوال، فغير الوزارة أربعين مرة في تسع سنوات، ثم استدعى المستنصر بالله والي عكا بدر الجمالي فنجح في القضاء على الفوضى والاضطراب. وإذا كان بدر الجمالي قد نجح في إقرار الأوضاع إلا أنه مثل مرحلة جديدة، هي مرحلة نفوذ الوزراء<sup>(٢)</sup>.

### العصر الفاطمي الثاني: (عصر نفوذ الوزراء):

أطلق على هذا العصر عصر الوزراء، لأنهم أصبحوا رؤساء الدولة، وفي يدهم السلطان، حتى إنهم كانوا يعينون خليفة ويعزلون آخر، ويمتد هذا العصر من دخول بدر الجمالي مصر سنة (٤٦٦هـ) إلى سقوط الدولة الفاطمية (٥٦٧هـ).

وعاش في هذا العصر ستة من الخلفاء الفاطميين هم<sup>(٣)</sup>:

١- المستعلي بن المستنصر (٤٨٧-٤٩٥هـ/١٠٩٤-١١٠١م).

وزر له: الأفضل بن بدر الجمالي، وكان وزير المستنصر بعد موت بدر الجمالي، واستمر في الوزارة بعد موت المستنصر.

٢- الأمر بن المستعلي (٤٩٥-٥٢٤هـ/١١٠١-١١٣٠م).

وزر له: الأفضل بن بدر الجمالي حتى اغتياله سنة (٥١٥هـ).

ثم وزر له: المأمون البطائحي من (٥١٥-٥١٩هـ).

٣- الحافظ بن محمد بن المستنصر (٥٢٤-٥٤٤هـ/١١٣٠-١١٤٩م).

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (١/٣٦٧)، القريري: الخطط (١/٤١٤).

(٢) أحمد شني: موسوعة التاريخ (٥/١٥٢)، حسن إبراهيم: الدولة الفاطمية (ص١٧).

(٣) زامبارو: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة (١/١٤٨-١٥٠).

وزر له: أحمد بن الأفضل من سنة (٥٢٥-٥٢٦م) وقتله يانس الأرميني سنة (٥٢٦م).

ثم وزر له ابنه الحسن وسليمان من سنة (٥٢٦-٥٣١م).

ثم وزر له رضوان بن الوخشي سنة (٥٣١م)، وخلا منصب الوزير من (٥٣١) حتى (٥٤٤م).

٤- الظافر بن الحافظ (٥٤٤-٥٤٩م) ووزر له: سليمان بن محمد بن مصال (٥٥٤-٥٤٨م)، ثم علي بن السلار (٥٤٤-٥٤٨م). ثم العباس بن أبي الفتوح (٥٤٨-٥٤٩م).

٥- الفائز بن الظافر (٥٤٩-٥٥٥م/١١٥٤-١١٦٠م).

وزر له: ضائع بن رزيك طيلة عهده.

٦- العاضد بن يوسف بن الحافظ (٥٥٥-٥٦٧م/١١٦٠-١١٧١م).

وزر له: رزيك بن ضائع (٥٥٥-٥٥٨م) وشاور بن مجبر (٥٥٨م)، وضرغام بن عامر اللخمي (٥٥٨م) وقتل سنة (٥٥٩م)، ثم تولى شاور مرة أخرى من سنة (٥٥٩م) إلى سنة (٥٦٤م)، ثم شيركوه، ثم صلاح الدين سنة (٥٦٤م).

وتميز عصر نفوذ الوزراء بسمات أهمها:

#### ١- الصراع بين الفاطميين أنفسهم<sup>(١)</sup>:

فقد أراد الوزير أحمد بن بدر الجمالي إقصاء نزار بن المستنصر بعد وفاة الخليفة المستنصر، ومبايعة أخيه الصغير الأمير أحمد المستعلي، وساند نزاراً والي الإسكندرية ناصر الدولة أفتكين، وتقاتل الطرفان، وانتهى الصراع بهزيمة نزار وأفتكين، ومات نزار أسيراً بعد أيام قليلة.

وبعد مقتل الخليفة الأمر الذي كان له ولد يسمى الطيب، وترك امرأة حاملاً، ولكن الحافظ لدين الله تولى الخلافة بعد الأمر، وهو ابن عم الخليفة، وتخلص من المولود الجديد، وانقسم الفاطميون ثانية بين الحافظية والمستعلية.

(١) أحمد شلي: موسوعة التاريخ الإسلامي (١٥٦/٥).

وهكذا أضعفت هذه الانقسامات الفاطميين.

## ٢- تحكيم الوزراء:

سيطر بدر الجمالي على أوضاع الدولة الفاطمية، فكان وزيراً وأميراً للجيش ووالياً لأمر القضاء والدعوة، وعهد إلى ابنه الأفضل بالوزارة في عهده، واستمر نفوذ الأفضل، فكان له ما كان لأبيه من سلطات، وبلغ نفوذه أن اختار المستعلي بن المستنصر للخلافة، وأبعد نزاراً، وبعد وفاة المستعلي سنة ٥٩٥هـ، وضع الأمر بن المستعلي في الخلافة، وكان الأمر صغيراً، فقد كان عمره وقتذاك خمس سنين<sup>(١)</sup>.

ولما بلغ الأمر سن الرشد أراد استرداد سلطته، فدبر مؤامرة لاغتيال الأفضل، فاغتاله محمد بن البطائحي، أحد أتباعه سنة (٥١٥هـ)، واستوزر الأمر البطائحي، ثم قتله سنة (٥١٩هـ)، وتسلمت الوزارة على الخليفة الحافظ، ومن هؤلاء الوزراء:

- الأكمل بن الأفضل الجمالي: منع الأكمل الخليفة من التصرف في شئون الدولة وحبسه، ولم يسمح لأحد بزيارته لمدة عامين، وأمر بحذف اسمه من الخطبة، واستولى على ما في قصر الحافظ من الذخائر والأموال، وعمل على إضعاف المذهب الإسماعيلي وتقوية مذهب الإمامية، ثم تولى من بعده ابنه أحمد الوزارة، ولم يتمتع أحمد بن الأفضل كثيراً بالسلطة؛ إذ قتله يانس الأرميني<sup>(٢)</sup>.

- يانس الأرميني: أساء السيرة؛ فقتل أحد خواص الخليفة، وقاضي القضاة، وداعي الدعاة، فقتله الحافظ بعد تسعة أشهر من توليه الوزارة<sup>(٣)</sup>.

- بهرام الأرميني: طمع بهرام في منصب الوزارة، فأتى من الغربية وحاصر القاهرة، فولاه الحافظ الوزارة، وكان نصرانياً، ففتح أبواب مصر لنصارى

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، طبعة هنري ماسية، مصر ١٩١٩م (ص ٧٥). حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية (ص ٢٣٠).

(٢) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ (١٦٠/٥).

(٣) المقرئزي: الخطط (١٧/٢).

الأرمن حتى بلغ عددهم ثلاثين ألفاً، واشتد جورهم، وصادروا أملاك المصريين، فاستغاث المصريون برضوان بن ولحشي والي الغربية، ففر بهرام من أمامه، وترك الوزارة<sup>(١)</sup>.

- رضوان بن ولحشي: تلقب بالسيد الأجل الملك الأفضل، فكان أول من لقب بالملك من وزراء مصر، واشتد في معاملة الأرمن وقتل الكثيرين منهم، واستولى على أملاكهم، وهمّ بجمع الخليفة الحافظ، فدبر الحافظ لقتله، وحدثت بينه وبين الخليفة معارك، قتل فيها سنة (٥٤٤هـ)<sup>(٢)</sup>.

- علي بن السلار: تولى الوزارة للخليفة الظافر، وتخلص من الوزير نجم الدين بن مصال، فاضطر الخليفة الظافر بأمر الله إلى الاعتراف به<sup>(٣)</sup>.

- طلائع بن رزيك: استغاث به نساء قصر الخليفة الظافر بعد مقتله، فتقدم طلائع نحو القاهرة - وكان والي الأشمونين - وتولى الوزارة، وتلقب بالملك الصالح، واستبد بالأمور، وعندما توفي الفائز سنة (٥٥٥هـ) اختار طلائع ابن عمه العاضد لدين الله لصغر سنه، وأظهر طلائع مذهب الإمامية، وعمل على إحلاله محل مذهب الإسماعيلية، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فأرغم الخليفة العاضد بالزواج من ابنته "فيجتمع لبني رزيك الخلافة مع الملك"<sup>(٤)</sup>.

### ٣- ضعف الدعاية للمذهب الإسماعيلي:

ومن سمات عصر نفوذ الوزراء، إضعاف بعض الوزراء الدعاية المذهبية الإسماعيلية، فكان الوزير الأفضل الجمالي سنياً، فأغلق دار الحكمة، منبر الدعوة الشيعية، وأبطل الموالد الذهبية، ولم يسمح بسب السلف، وعندما تولى أحمد بن

(١) جمال الدين سرور: مصر في عصر الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي ١٩٦٥م (ص ٩٩).

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر (ص ٨٢/٨٧)، المقريري: الخطط (١/٤٤).

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان (١/٧٨)، المقريري: الخطط (٢/٢٩٠).

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان (١/٢٢٠، ٢٣٩)، ابن الأثير: الكامل (١١/٤٦).

الأفضل الوزارة عمل على إلغاء الدعوة الإسماعيلية، وقطع خطبة الخليفة الفاطمي، وقطع صيغة الأذان الشيعي، وكان رضوان بن ولحشي سنياً شافعياً، فأعطى الفرصة لأهل السنة لدراسة مذهبهم، وبنى لهم مدرسة في الإسكندرية، وكذلك كان ابن السلار الكردي سنياً<sup>(١)</sup>.

زوال الدولة الفاطمية (٥٦٧هـ):

أجأ التنافس على الوزارة إلى استعانة بعض الطامعين فيها بأمراء الدول المجاورة، فانفرد شاور -والي الصعيد- بالسلطة بعد تخلصه من الوزير العادل بن طلائع بن رزيك سنة ٥٥٨هـ، فثار عليه ضرغام -أحد قواد الجيش- ففر شاور إلى الشام، وعرض على نور الدين محمود زنكي أن يساعده في استعادة الوزارة مقابل ثلث خراج مصر، والتصرف في مصر بأمر نور الدين، وتردد نور الدين أولاً في مساعدة شاور، ولكنه خشى أن تقع مصر في قبضة الصليبيين، فأرسل حملة بقيادة أسد الدين شيركوه، أعادت الوزارة لشاور سنة (٥٥٩هـ)<sup>(٢)</sup>.

ولم يف شاور بعهوده مع نور الدين محمود، بل راسل أمليرك (Amalric) ملك بيت المقدس الذي بعث له جيشاً فأرغم حملة أسد الدين شيركوه على الانسحاب. وعاود نور الدين محمود التدخل في شئون مصر، فأرسل حملة ثانية سنة (٥٦٢هـ) بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، فاستعان شاور بالفرنجة مرة ثانية، وتقابل الفريقان في معركة البابين (قرب المنيا) انتصر فيها أسد الدين شيركوه، وسار إلى الإسكندرية ودخلها، وعين ابن أخيه صلاح الدين والياً عليها، إلا أن الفرنجة حاصرت الإسكندرية برّاً وبحراً، وانتهى الأمر بالصلح بين

(١) المقرئى: الخطط (٢/٢٩٣)، جمال الدين سرور: مصر فى عصر الدولة الفاطمية (ص٩٢، ١٠١).

(٢) أحمد شلى: موسوعة التاريخ الإسلامى (٥/١٦٢)، الشىال: مجموعة الوثائق الفاطمية، دار الفكر

العربى، مصر د.ت (١٢٠-١٢١).

صلاح الدين والفرنجية على أن يترك الفرنجية وجند الشام مصر<sup>(١)</sup>.

ولم تغادر جميع قوات الفرنجية مصر، بل اتفقت مع شاور على أن يكون لهم بالقاهرة شحنة (وهي طائفة من الجند) وتكون أبواب القاهرة بيد فرسانهم، ويكون لهم مائة ألف دينار سنوياً، وطمع الفرنجية في مصر، فخرج أمليرك سنة (٥٦٤هـ) على رأس حملة للاستيلاء على مصر، مما اضطر شاور إلى إخلاء الفسطاط وحرقتها حتى لا يأوي إليها الصليبيون<sup>(٢)</sup>.

واستنجد الخليفة الفاطمي العاضد بنور الدين محمود، وأرسل إليه شاور كذلك، وتعهد له الخليفة بثلاث خراج مصر، وأن يقيم عنده أسد الدين شيركوه وجنده، وأن يقطعهم الخليفة إقطاعاً خارج ثلث الخراج. وخرجت الحملة الثالثة بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين نحو مصر، وما أن وصلت إلى مصر حتى انضم إليها المصريون، فانسحب الصليبيون إلى فلسطين، ودخل شيركوه مصر سنة (٥٦٤هـ)، فاتخذ الخليفة العاضد وزيراً ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش<sup>(٣)</sup>، وأوصاه بالإحسان للرعية بقوله: "والرعايا قد علمت ما نالهم من إجحاف الجبايات وإسراف الجنائيات، وتوالى عليهم من ضروب النكايات، فأعمر أوطانهم التي أخرجها لجور والأذى".

وقبض شيركوه على زمام الأمور، ووزع الإقطاعات على عساكره، وأعاد أهل الفسطاط إليها، لكن شيركوه توفي بعد شهرين من ولايته، فولّى العاضد الفاطمي صلاح الدين الوزارة، وعمل صلاح الدين على إسقاط الخلافة الفاطمية فقام بالخطوات التالية<sup>(٤)</sup>:

(١) أبوشامة: الروضتين (ص١٤٣)، ابن واصل: مفرج الكروب، نشر جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣م (١/١٥٢).

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب (١/١٥٨)، جمال سرور: مصر في عصر الدولة الفاطمية (ص١٠٨).

(٣) الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية (ص١٧٢)، ابن الأثير: الكامل (١١/١٢١).

(٤) حسن حبشي: نور الدين والصليبيون، دار الفكر العربي ١٩٤٧م (ص١٣٧، ١٤٠).

- استبد صلاح الدين بأمر الدولة، واستمال قلوب الرعية ببذل الأموال.
- أقطع أصحابه البلاد، وأسند إليهم المناصب، ومنع الخليفة العاضد من التصرف.
- قضى على المؤامرات والفتن التي دبرها رجال العصر الفاطمي الذين يتزعمهم جوهر مؤتمن الخلافة، والذي اغتيل من أصحابه أواخر سنة (٥٦٤هـ). ثم قامت ثورة جند الخليفة -وأكثرهم من السودان- وكانوا يزيدون على خمسين ألفاً، وقضى صلاح الدين على ثورتهم وتبع فلولهم في الصعيد<sup>(١)</sup>.
- أفضل صلاح الدين الحملة الصليبية التي قام بها ملك بيت المقدس ومانويل إمبراطور بيزنطة، فعندما وصلت الحملة إلى دمياط أرسل صلاح الدين جنده بقيادة ابن أخيه تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين، وظل صلاح الدين في القاهرة خشية المؤامرات من رجال القصر الفاطمي، وطلب المدد من نور الدين محمود، فأرسل له الإمدادات، كما أعان الخليفة الفاطمي العاضد صلاح الدين "فأرسل له مدة مقام الفرنج على دمياط ألف دينار سوى ما أرسله من الثياب وغيرها"، كل هذا أجبر الفرنجة على الانسحاب من دمياط بعد هزيمة قاسية<sup>(٢)</sup>.
- دعم صلاح الدين مركزه باستدعاء أهله وأقاربه، فأسند إليهم المناصب المهمة، فجعل أباه على بيت المال، وأقطع إخوته بعض الأرض.
- قضى على شعائر الفاطميين، فأبطل صيغة الأذان الشيعي سنة (٥٦٥هـ)، وأعلن المذهب السني مذهباً رسمياً، وعزل قضاة الشيعة، وأنشأ مدرسة لتدريس المذهب الشافعي، وأخرى لتدريس المذهب المالكي، وأسند القضاء إلى قاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن الأثير: الكامل (١١/١٣٩، ١٦٠).

(٢) ابن واصل: مفرح الكروب (١/١٨١)، المقرئ: الخطط (١/٢١٥).

(٣) المقرئ: الخطط (١/٣٥٨، ٣٥٩)، جمال الدين سرور: مصر في عصر الدولة الفاطمية (ص ١١٤).

- ألغى علامات الفاطميين، وقطع اللون الأبيض شعارهم، وأوقف ضرب السكة باسمهم.
- وفي أول المحرم سنة (٥٦٧هـ) أسقط صلاح الدين اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة، ودعا للخليفة العباسي المستضيء بنور الله، وتوفي العاضد بعد ذلك بأيام قليلة. وهكذا سقطت<sup>(١)</sup> الدولة الفاطمية.

### الدعوة المذهبية الشيعية في مصر:

اعتنى الفاطميون بنشر التشيع في مصر، ولم يتركوا أسلوباً ينفع دعوتهم إلا استخدموه، وكانت أساليبهم في الدعوة متعددة وأهمها<sup>(٢)</sup>:

#### ١- جهاز الدعوة:

نظم الفاطميون جهاز الدعوة، فانتشر دعايم في بلاد كثيرة؛ لنشر الدعوة الإسماعيلية سرّاً في الأماكن غير التابعة لهم، بينما الدعوة علنية في البلاد التابعة لهم مثل مصر واليمن والشام والحجاز<sup>(٣)</sup>.

ويشرف داعي الدعاة على جهاز الدعوة، ويختاره الخليفة الفاطمي، ويشترط في داعي الدعاة العلم الواسع، والهيبة، ولين الجانب، وحسن العشرة. ومهمة داعي الدعاة الدعوة للمذهب الإسماعيلي، وأخذ العهد على المنتسبين الجدد للمذهب، ويُلقى عليهم الدروس في قصور الخلافة، ويجمع الأموال من الداخلين في الدعوة، ويعين نواباً عنه في الأقاليم التي تشملها الدعوة، ويكنفهم بالقيام بأمر الدعوة من أخذ العهود على المستجيبين والتدريس لهم<sup>(٤)</sup>.

#### ٢- تدريس المذهب "مجلس الحكمة":

يعد الفقهاء الإسماعيليون الدروس التي تلقى على الراغبين في الاستماع

(١) ابن واصل: مفرج الكروب (١/٢٠٠، ٢٠١)، أبو شامة: الروضتين (١/١٩٦).

(٢) أحمد كامل: مصر بين المذهب السني والمذهب الإسماعيلي، دكتوراه كلية دار العلوم (ص١٤٦).

(٣) النعمان بن حيون: مجالس والمسائرات، تحقيق: محمد كامل حسين، دار الفكر العربي (ص١٣٧).

(٤) القفقسندي: صحح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الفكر، القاهرة ١٩٨٧م (١/٤٣٤، ٤٣٩).

ويقرؤها داعي الدعوة، ويعرضها على الخليفة ليوافق عليها، ويطلق على هذه الدروس "مجالس الحكمة"، وأشهر الكتب المدروسة في هذه المجالس كتاب: دعائم الإسلام واختلاف أصول المذاهب للقاضي النعمان بن حيون.

ويراعي في الدروس مقدرة المتلقي، فالمبتدئ يدرس أصول الفقه الإسماعيلي مثل: الإمامة، والظاهر والباطن. أما المتعمقون فيدرس لهم التأويل وعلم الباطن<sup>(١)</sup>. وأهم أماكن تدريس المذهب الإسماعيلي هي<sup>(٢)</sup>:

أ- الجامع الأزهر، وجامع الحاكم، وجامع راشد، وجامع المقس، وجامع القرافة، وأبرزها الجامع الأزهر، وأشهر من درّس فيه أسرة القاضي النعمان بن حيون، مثل: علي بن القاضي النعمان، الذي درّس مختصر والده المسمى: "الاقتصار"، كما درّس بالأزهر الوزير يعقوب بن كلس؛ فله كتاب في الفقه، وجلس لقراءة الكتاب على الناس بنفسه، وكان للنساء مجلس في الجامع الأزهر.

ب- القصر الفاطمي: ويدرّس في القصر الفاطمي داعي الدعوة، وتولى ذلك القاضي النعمان بن حيون وأولاده، والمؤيد في الدين الشيرازي، الذي ألقى ثمانمائة درس، وهو درس أسبوعي كل يوم خميس<sup>(٣)</sup>.

ج - دار الحكمة:

أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله وافتتحها سنة (٥٣٩٥هـ)، ووفر لها ما يساعدها على أداء مهمتها في جذب الناس للمذهب الإسماعيلي، ففرّشت وزيّنت، وزوّدت بالكتب المختلفة، وأتيح لها الأقلام والأوراق والمحابر، فحضر إليها النحاة واللغويون والفقهاء والأطباء<sup>(٤)</sup>.

(١) المقرئ: الخطط (٩٦/٢)، اتماظ الحنفا (١٧٥/٢).

(٢) المقرئ: الخطط (١٥٦/٣)، أحمد كامل: مصر بين المذهب السني والمذهب الإسماعيلي (ص ١٥٠).

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى (٣٦٧/٣)، المقرئ: الخطط (١٥٧/٣).

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى (٣٦٦/٣).

وهكذا بدت دار الحكمة مؤسسة علمية حرة أو جامعة، ولا يخفى أن ذلك وسيلة للدعوة للمذهب الإسماعيلي، وتؤكد ذلك الاتجاه المذهبي حين انقلب الحاكم بأمر الله على علماء أهل السنة الذين سمح لهم بالاستفادة من الدار ودراسة المذهب لسني<sup>(١)</sup>.

### ٣- إظهار شعائر المذهب الإسماعيلي:

عمل الفاطميون على إظهار شعائر المذهب الإسماعيلي ليصبغوا الحياة في مصر بالتشيع، وأهم الشعائر الإسماعيلية هي<sup>(٢)</sup>:

- أ - الخطبة للخليفة الفاطمي بوصفه الإمام من آل البيت.
- ب - الأذان بالصيغة الشيعية، وذلك بزيادة عبارة "حي على خير العمل".
- ج - صيام رمضان ثلاثين يوماً كاملة في كل عام، ويعتمدون في الصيام والفطر على الحساب الفلكي إلى جانب الرؤية البصرية.
- د - فرض أحكام المذهب الإسماعيلي في القضايا والأحكام.
- وولوا لذلك قضاة شيعة إسماعيلية، وإذا حدث وولوا قاضياً سنياً، اشترطوا عليه العمل بالمذهب الإسماعيلي.
- هـ - الاحتفالات المذهبية الخاصة بهم مثل:
  - عيد الغدير: في ١٨ ذي الحجة.
  - الموالد الستة، وهي: مولد النبي ﷺ، ومولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومولد الحسن والحسين - رضي الله عنهما -، ومولد السيدة فاطمة - رضي الله عنها -، ومولد الخليفة الفاطمي الحاضر في الخلافة.
  - ذكرى استشهاد الإمام الحسين في العاشر من المحرم.

(١) عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية في مصر (ص ٨٠).

(٢) المقرئ: الخطط (١٥/٣).

ولقد شارك بعض المصريين في الاحتفالات الشيعية؛ طلباً للمتعة والفرح، مع تمسكهم بالمذهب السني.

#### ٤- الخطب والأشعار:

أدرك الفاطميون أهمية الخطب والأشعار في الدعاية لمذهبهم، فاتخذ خطباء الفاطميين خطبة الجمعة والعيدين وسيلة لنشر أفكارهم. كما حرص الخلفاء الفاطميون على إلقاء خطبة الجمعة في مقر خلافتهم، ويقرأ الخليفة الخطبة من مسطور يأتيه من ديوان الإنشاء، وتذكر في الخطب العقائد الشيعية، فيتحدثون عن مناقب آل البيت والنسب إلى آل البيت حسب عقيدة الإسماعيلية<sup>(١)</sup>.

#### ٥- المنح والعطايا<sup>(٢)</sup>:

قدّم الشيعة الفاطميون الأموال في هيئة رواتب ومنح للعاملين لهم والتابعين لهم، فأغرى ذلك بعض الناس بالدخول في المذهب الإسماعيلي.

وقد ظهر ذلك واضحاً في عصر الحاكم بأمر الله؛ إذ أعطى الناس فوق ما اعتادوه من الأرزاق، وأكثر من التصدق على الفقراء والمساكين، فكثر إقبال الناس على بابه للأخذ من ماله والدخول في المذهب، فأنفق في سبيل ذلك مالاً كثيراً.

وفرض الخليفة الظاهر مالاً لمن يحفظ كتاب "دعائم الإسلام"، وكتاب الوزير يعقوب بن كلس في الفقه على مذهب آل البيت.

ثالثاً: موقف أهل السنة في مصر من الدعوة الإسماعيلية:

#### ١- دخول بعض المصريين في المذهب الإسماعيلي:

استجاب بعض المصريين للدعوة الإسماعيلية، وظل أكثرهم على المذاهب السنية، وليس من الصعب تصور ذلك؛ لأن الإسماعيلية توسلوا إلى الشعب المصري بآل البيت النبوي، وأيدوا مذهبهم بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية

(١) محمد كامل حسين: في أدب مصر الفاطمية، دار الفكر العربي د.ت (ص ١٤١).

(٢) المقرئبي: اتعاظ الخفا (١٧٥/٢)، الخطط (٣١/٢).

المؤولة تأويلاً خاصاً، واستعملوا شتى الطرق ترغيباً وترهيباً لنشر مذهبهم.

ومن مظاهر استحابة المصريين للمذهب الإسماعيلي:

أ - الإقدام على مجالس الدعوة التي كان عليها القاضي علي بن النعمان بالجامع

الأزهر، وازداد الإقبال على مجالس لقاضي محمد بن النعمان.

ب - وقعت المصادمات بين أهل السنة، والشيعة وبخاصة يوم عاشوراء، مما يدل

على كثرة الشيعة.

ج - انتشر المذهب في الصعيد مثل أسوان، فقال الإدفوي عن أسوان: "ولما

كانت البلاد لعبيدين غلب على أهلها التشيع" ويقول عن إدفو: "وكان

التشيع فيها فاشياً" وقال ذلك عن إسنا، وأنعون، وأرمنت<sup>(١)</sup>.

## ٢- ثبات أكثر المصريين على المذهب السني:

كان المذهب السني هو المذهب الرسمي والشعبي في مصر، وشارك العلماء

المصريون في الدراسات الإسلامية المرتبطة بمذاهب أهل السنة، ورفض معظم أهل

مصر المذهب الإسماعيلي، فقال عبد القاهر البغدادي: "وأهل مصر ثابتون على

السنة إلى يومنا هذا وإن أطاعوا صاحب القاهرة في أداء خراجهم إليه".

والدليل على ذلك استمرار الدراسات السنية في مصر، فاهتم علماء أهل

السنة بالفقه والحديث وعلوم القرآن، كما أقام أهل السنة الشعائر وفق مذاهب

أهل السنة مثل الصيام والإفطار لرؤية الهلال، وصلاة التراويح في جماعة في

المسجد الكبرى كمسجد عمرو بن العاص.

وكان المصريون يجلبون علماء أهل السنة ويعرفون أقدارهم؛ فعندما توفي

الفقيه الشافعي أبو العباس أحمد بن محمد الديلمي سنة (٥٣٧٣هـ)، خرج وراء جنازته

جميع أهل مصر، يقول السيوطي: "وكانت جنازته شيئاً عجباً، لم يبق بمصر أحد

(١) المقرئبي: تعاط الحنفا (٥٤٠٢)، المخطوط (١٦٨/٢)، (٢٧٦/٣).

إلا حضرها"، ولما أراد الوزير السلجوقي نظام الملك نقل رفات الإمام الشافعي من مقبرته بمصر، بعث للخليفة المستنصر بالله بذلك، فوافق وركب بدر الجمالي لنبش قبر الإمام الشافعي، فهاج الناس عليه وماجوا، وهما برجم الوزير الجمالي والثورة عليه، فبعث للخليفة المستنصر بالله بالأمر، فرفض الخليفة نبش القبر، مما يدل على تمسك المصريين بمنهاج السنة<sup>(١)</sup>.

### ٣- الطعن في المذهب الإسماعيلي:

لم يلتزم كثير من أهل السنة بمداراة الفاطميين، فطعنوا في نسب الخلفاء الفاطميين، وما ينسبه إليهم أتباعهم من علم خاص بهم، وطعنوا في الداخلين في الدعوة عموماً. ومن هذا الطعن ما وجده الخليفة العزيز بالله من قصاصات الطعن فيه وفي نسبه على المنبر، فلقد وجد ورقة مكتوباً عليها:

إننا سمعنا نسباً منكراً      يتلى على المنبر في الجامع  
إن كنت فيما تدعى صادقاً      فاذكر أباً بعد الأب الرابع

كما طعن المصريون في علم الأئمة الذي يتوارثونه فيما بينهم، فعندما صعد العزيز بالله المنبر وجد ورقة فيها:

بالظلم والجور قد رضينا      وليس بالكفر وبالحماقه  
إن كنت قد أعطيت علم غيب      فقل لنا من صاحب البطاقة<sup>(٢)</sup>

### ٤- التصدي لانحرافات الإسماعيلية:

قاوم المصريون غلوّ الإسماعيلية وانحرافهم، فعندما وصلت قافلة الحجاج سنة (٥٣٩٥هـ) إلى مصر، أراد العامة من الإسماعيلية أن يحملوهم على سب السلف، فأبى الحجاج ذلك، وتحملوا السب والبطش، كما فتك المصريون بمن دعا إلى تأليه الحاكم بأمر

(١) السيوطي: حسن المحاضرة (١/٤٠٣)، محمد عبدالله عنان: الحاكم بأمر الله (ص ٢٩٢).

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٤/٧٧)، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية (ص ١٨٤).

الله - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا - فقتلوا الأخرم الفرغاني وسبعة آخرين<sup>(١)</sup>.  
الحالة الاقتصادية في الدولة الفاطمية:

اهتم الفاضميون بالحياة الاقتصادية في مصر، فزادت على عهدهم الثروة، ومارس المصريون حياتهم في جو من الاستقرار والاطمئنان، حتى إن البزازين وتجار الجواهر والصيافة كانوا لا يغلقون أبواب محلاتهم، بل يسدلون الستائر عليها. وها هو ذا عرض للحياة الاقتصادية عبر هذا العصر<sup>(٢)</sup>:

أولاً: الزراعة:

تعدّ الزراعة في مصر من أهم مصادر الاقتصاد، حتى قال عمرو بن العاص: "ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة"، ويتوقف الإنتاج الزراعي على ماء الري، والعناية بخصب الأرض، ومن ثم شقت في الأراضي المصرية شبكة من الخلجان والأبخر والترع، فكان بمصر ثمانية خلجان، وخمسة وعشرون بخرًا، ومائة وسبع عشرة ترعة في الوجهين البحري والقبلي.

واعتنى الفاطميون بنظم الري، وصيانة الترع والجسور، وكان هناك نوعان من الجسور: جسور سلطانية: تقيمها الدولة، وجسور بلدية: يقيمها الفلاحون، وفرضت الضرائب على الأراضي لزراعية لصيانة الجسور والمحافظة عليها، ويُسخر الأهالي وقت الفيضان لإقامة الجسور ورّم الخلل بما محفة طغيان ماء النيل فيغرق الأرض الزراعية<sup>(٣)</sup>.

واعتمدت الزراعة في مصر على ماء النيل، كما قال ابن حوقل: "وزروعهم بماء النيل تمتد فتعم المزارع من حد أسوان إلى حد الإسكندرية".

(١) المقرئبي: الخطط (٣/٢٧٦)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٤/١٨٤).

(٢) ابن مماتي: قوانين الدواوين، نشرة عزيز سوريال عطية ١٩٤٥ م (ص ٣٦٧).

راشد البرادي: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، دار الفكر العربي ١٩٤٨ م (ص ١٠٣).

(٣) ابن مماتي: قوانين الدواوين (ص ٣٦٨)، المقرئبي: الخطط (١/٥٩).

إلا أن هناك مناطق متناثرة في شمال سيناء والدلتا وسيناء، وفي أطراف البحيرة تعتمد على مياه المطر القليل؛ لأن أرض مصر لا تمطر إلا المطر اليسير. كما اعتمدت بعض المناطق على مياه الآبار والعيون، كالوحدات ومناطق الأديرة في الصحراء الغربية والتي بما ضياع ومزارع.

واهتم المصريون بضبط وقياس مياه النيل، فأقاموا المقاييس في مختلف البلاد يراقبون مقدار ارتفاع مستوى النيل، فكلما ارتفع مستوى النيل استبشر الناس بوفرة المحصول وزيادة الخراج.

### الحاصلات الزراعية:

تعددت الحاصلات الزراعية في مصر منذ أقدم العصور، واستمرت تلك الحاصلات، وتحسنت طريقة زراعتها، وزاد إنتاجها في العصر الفاطمي، وساعد على تعدد الحاصلات الزراعية اتساع رقعة الأرض الزراعية، والتباين في سطح التربة إلى جانب اختلاف الجو والمناخ من منطقة لأخرى. ولذلك "يوجد بمصر كل وقت من الزمان من المأكول والمأدوم والمشروب والمشموم وسائر البقول والخضر وجميع ذلك في الصيف والشتاء لا ينقطع منه شيء لبرد ولا حر".

واعتمد الفلاح المصري على تحديد مواعيد بداية مواسم الزراعة على الشهور القبطية، فقسمت السنة إلى أربعة فصول متساوية هي: فصل الخريف وأوله شهر توت (١٢ سبتمبر)، وفصل الشتاء وأوله شهر كيهك (ديسمبر)، وفصل الربيع وأوله شهر برمهاث (١٠ مارس) وفصل الصيف وأوله شهر بؤونة (٨ يونية).

وقسمت السنة الزراعية إلى قسمين: فصل للزراعة الشتوية، وآخر للزراعة الصيفية، ولكل منهما مواعيد غلاته<sup>(١)</sup>.

وأهم المحاصيل الشتوية هي: القمح والشعير والبقول والحمص والجلبان

(١) ابن ممتى: قوانين الدواوين (ص ٢٥٨)، المقرئبي: الخطط (١، ٤٦٥).

والعدس والكتان والبرسيم والبصل والثوم والتمرس والكمون والكرابوا والبطيخ الأصفر والأخضر واللوبيا والسمنسم والقطن، وقصب السكر والقلقاس والبادنجان والفجل والنبيلة والثفت والحس والكرنب.

وأما المحاصيل الصيفية فاقترنت زراعتها على الأراضي التي تحف بنهر النيل لجفاف الترع، فكانوا يرفعون الماء بالسواقي والقواديس، وأهم الحاصلات الصيفية الأرز والذرة<sup>(١)</sup>.

كما زرع المصريون الفاكهة باختلاف أنواعها مثل: الكرم والتين والتفاح والتوت واللوز و الخوخ والمشمش والنخل والموز، وكذا عنوا بزراعة الورود كالترجس والياسمين والريحان<sup>(٢)</sup>.

واهتم الفاطميون بالثروة الحيوانية، فمنعوا ذبح إناث الحيوانات المساعدة في فلاحه الأرض، فأصدر الحاكم بأمر الله أمراً بمنع ذبح البقرة الونود أو العاملة حتى يتوفر الإنتاج الحيواني، ويمكن الفلاحين من العناية بالمرزوعات وتحسين المحصول<sup>(٣)</sup>.  
ثانياً: الصناعة:

يعدّ العصر الفاطمي عصر ازدهار الصناعة بمصر ووفرة إنتاجها، وساعد على ذلك وجود المواد الخام اللازمة مثل: الكتان وقصب السكر والكروم والزيتون، والنباتات العطرية وغيرها من المواد المتوفرة محلياً مثل الأصواف والجلود المأخوذة من الماشية والماعز والإبل إلى جانب المعادن، وتستورد الدولة بعض المواد الخام غير المتوفرة مثل الحرير. ومما ساعد على ارتقاء الصناعة حياة الترف والرفاهية التي عاشها الفاطميون ورجالهم، وحاجة الجيش والأسطول للأسلحة والعتاد الحربي والملابس<sup>(٤)</sup>.

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم (ص ٢٠٣)، ابن ممتي: قوانين الدواوين (ص ٢٦٥).

(٢) ناصر خسرو: سفرنامه، تحقيق يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥م (ص ٦٠)، المقرئبي: الحطط (١/٣٤٢).

(٣) راشد البراوي: حالة مصر الاقتصادية (ص ١٠٢).

(٤) راشد البراوي: حالة مصر الاقتصادية (١٢١)، زكي حسين: الرحالة المسلمون في العصور

الوسطى، دار المعارف ١٩٦٠م (ص ٦١).

ومن الصناعات التي ازدهرت في هذا العصر: صناعة النسيج، وأهم أنواعه الكتان المنسوج في تنيس ودمياط والإسكندرية وشطا. أما صناعة الصوف فكانت في أسيوط وأخميم. وتقدمت صناعة الزجاج والخزف، وأهم مراكز صناعتها الفسطاط والفيوم والأشمونين والإسكندرية، وازدهرت صناعة السفن لقوة الأسطول الفاطمي، فأنشئت دور الصناعة بالمقس والإسكندرية ودمياط<sup>(١)</sup>.

واشتهرت صناعة الحفر على الخشب وظهور بعض الزخارف النباتية، والحيوانية. كما عرفت مصر الصناعات المعدنية فصنع من الذهب الأدوات والحلي، وطعم الذهب بالأحجار الكريمة، وأورد المقرئزي الكثير من التحف الذهبية والفضية مما امتلكه الخلفاء ونساؤهم ورجالهم. وصنعت الأواني النحاسية المستخدمة في المنازل. كما صنعت الأدوات والآلات من الحديد مثل المقارض، والسكاكين، والإبر، والمسلات وغير ذلك.

واشتهرت مصر بصناعة الورق، وساعد على ذلك ازدهار الحياة العلمية والأدبية، فوجد في خزانة الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب من المجلدات، كما تخصصت بعض الأسواق في تجارة الورق والكتب.

كما ازدهرت في مصر صناعات أخرى مثل الجلود والسكر والعسل والزيت والشموع وغير ذلك<sup>(٢)</sup>.

ثالثاً: التجارة في مصر في العصر الفاطمي:

صحب ازدهار الزراعة والصناعة في مصر الفاطمية انتعاش التجارة الداخلية والخارجية، ففي التجارة الداخلية كانت هناك مراكز تجارية كبيرة مثل الفسطاط والقاهرة والإسكندرية وتنيس ودمياط والفرما وعيذاب وأسوان وقوص والقنزم

(١) زكي حسن: الفنون الإسلامية، القاهرة ١٩٤٥م (ص ٤٥٠، ٤٥٢).

آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع (٢/٢٥٧).

(٢) محمد محمود إدريس: تاريخ الحضارة الإسلامية في مصر، مكتبة الشرق، مصر ١٩٩٨م (ص ٢٠١).

والحملة الكبرى، وتركز النشاط التجاري الداخلي على الأسواق التي أشرفت عليها الدولة فحفظت فيها النظام وحددت الأسعار وعاقبت المخالفين<sup>(١)</sup>.

كما وجد لكثير من المنشآت التجارية مثل الفنادق التي ذكرها الرحالة والجغرافيون، مثل فندق الصفا بالإسكندرية، وفندق ابن التناء في مدينة عمرو بن العاص، وفنادق مدينة قوص. كما تزايدت الوكالات مثل الوكالة الأميرية والتي أنشأها المأمون البطائحي، ووكالة ابن ميسر التي أنشئت سنة (٥٣١/١٣٧م)، ووجد في الإسكندرية وكالات للكان والبهار ولتوابل وغيرها من الوكالات المختصة<sup>(٢)</sup>.

وأقيم العديد من القياسر، وعدد المقريزي أسماء الكثير منها، ففي مدينة الفسطاط سبع قياسر مثل قياسرية ابن أبي أسامة، وقيسارية أمير الجيوش، والقيسارية الطويلة، وقيسارية ابن يعي<sup>(٣)</sup>.

أما التجارة الخارجية فقد اتسع نطاقها في البلاد الآسيوية والأوربية، واحتلت مصر مكانة مرموقة في التجارة العالمية.

(١) راشد الراوي: حالة مصر الاقتصادية (ص ١٠٠)، زكي حسن: الرحالة المسمون (ص ٥٨).

(٢) هايد: تاريخ التجارة في العصور الوسطى، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٨م (٢/١٤٠).

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم (ص ١٩٥).

## خلاصة الوحدة الرابعة

- ١- امتدت الفترة المغربية في تاريخ الدولة الفاطمية ٦٥ سنة (٢٩٦-٥٣٦١).
- ٢- حكم من الفاطميين في المغرب كل من: المهدي، والقائم، والمنصور، والمعز.
- ٣- فشل الفاطميون في إزالة المذهب المالكي من المغرب، وقاومهم المغاربة بقوة.
- ٤- عمل الفاطميون على إثارة النزعة القبلية بين المغاربة.
- ٥- لم يُسجد الفاطميون المغرب بشيء يذكر، بل نشروا فيه وفي مصر كثيراً من البدع.
- ٦- حاول الفاطميون مراراً الاستيلاء على مصر حتى تم لهم ذلك سنة ٣٥٨هـ.
- ٧- أنشأ جوهر الصقلي مدينة القاهرة لاستقبال الفاطميين.
- ٨- ينقسم تاريخ الفاطميين إلى عصرين: العصر الفاطمي الأول (٣٦٢-٤٥٧) والعصر الفاطمي الثاني (عصر نفوذ الوزراء) (٤٥٧-٥٦٧هـ).
- ٩- تميز العصر الفاطمي الثاني بالصراعات الداخلية.
- ١٠- استعان شاور بأسد الدين شيركوه وصلاح الدين، وتولى صلاح الدين الوزارة بعد مقتل شاور، وبعد تولي صلاح الدين الوزارة أزال الخلافة الفاطمية.
- ١١- عملت الدولة الفاطمية على نشر المذهب الإسماعيلي الباطني بطرق عدة.
- ١٢- لم ينجح الفاطميون في تحويل مصر إلى المذهب الشيعي.
- ١٣- كان ردّ فعل المصريين قوياً ضد محاولة نشر المذهب الشيعي.
- ١٤- شهدت مصر ازدهاراً حضارياً وعمرانياً كبيراً في العصر الفاطمي.
- ١٥- ظهرت أزمات اقتصادية كبيرة في العصر الفاطمي، أبرزها الشدة المستصرية (في عهد المستنصر).

## اختبار الوحدة الرابعة

أولاً: أسئلة الصواب والخطأ:

ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (x) أمام العبارة الخاطئة فيما يأتي:

- ١- امتدت فترة الحكم الفاطمي للمغرب خمسة وستين سنة.
- ٢- بُنيت مدينة المهديّة جنوبي مدينة فاس.
- ٣- عمل المهدي على إخماد الصراع القبلي.
- ٤- غلب على عهد القائم الفاطمي الطابع الحربي والصدامي.
- ٥- الفاطميون ليسوا من آل البيت بل هم من الإسماعيلية أو القرامطة.
- ٦- دخل جوهر الصقلي مصر من جهة فلسطين برّاً.
- ٧- أنشأ المعز بسور القاهرة ثلاثة أبواب.
- ٨- أطلق على مسجد "جامع القاهرة" اسم الجامع الأزهر في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله.
- ٩- بنى جوهر اصقلي الجامع الأزهر لنشر الدعوة السنية.
- ١٠- عم الرخاء في مصر في عهد العزيز بالله الفاطمي، وحول الجامع الأزهر إلى جامعة.
- ١١- لم تظهر قوة الوزراء المسيطرين إلا في عهد الحاكم بأمر الله.
- ١٢- يؤخذ على حاكم بأمر الله أنه قتل بعض علماء أهل السنة وسب الصحابة.
- ١٣- يعتبر العصر الفاطمي الأول عصر نفوذ الوزراء.
- ١٤- اتسم عصر الوزراء في الدولة الفاطمية بالاتحاد بين الفاطميين.
- ١٥- سيطر بدر الجمال وولده الأفضل على أوضاع الدولة الفاطمية.

- ١٧- يعد الوزير يانس الأرميني من الوزراء المستضعفين في الدولة الفاطمية.
  - ١٨- أرغم الوزير طلائع بن زريك الخليفة العاضد على الزواج من ابنته.
  - ١٩- اشتدت الدعوة للمذهب الإسماعيلي في عصر الوزراء.
  - ٢٠- عمل صلاح الدين على إسقاط الخلافة الفاطمية باستمالة قلوب الرعية.
  - ٢١- قضى صلاح الدين على شعائر الفاطميين وعلاماتهم.
  - ٢٢- ظلت العملة تحمل اسم الفاطميين في عهد صلاح الدين.
  - ٢٣- سقطت الدولة الفاطمية بعد وفاة الخليفة الفاتر.
  - ٢٤- دار الحكمة أنشأها الخليفة المستنصر.
  - ٢٥- عمل الفاطميون على إظهار شعائر المذهب الإسماعيلي.
  - ٢٦- استجاب أكثر المصريين أيام الدولة الفاطمية للدخول في المذهب الشيعي.
  - ٢٧- أنكر المسلمون المصريون نسبة الفاطميين إلى آل البيت.
  - ٢٨- اهتمت دولة بني زيري بنشر المذهب المالكي.
  - ٢٩- عمل الحماديون على نشر المذهب الشافعي والحنبلي.
- ثانياً: الأسئلة المقالية:

- ١- اكتب ما تعرفه عن محاولة الدولة الفاطمية السيطرة على الشرق الإسلامي.
- ٢- تحدث بالتفصيل عن أفضل جواهر الصقلي على الدولة الفاطمية.
- ٣- اكتب مذكرات مختصرة عن العصر الفاطمي الأول.
- ٤- تحدث بالتفصيل عن حالة مصر الحضارية في ظل الدولة الفاطمية.
- ٥- اكتب بالتفصيل عن دولة بني زيري ودولة بني حماد مع ذكر حضارة كل منهما.

٦- أكتب باختصار في خطوات موجزة مراحل فتح الفاطميين لمصر وقيام الدولة الفاطمية بها.

٧- بين عصور القوة والضعف في الدولة الفاطمية مستشهدًا بأسماء ولاة الدولة الفاطميين في كل عصر.

ثالثًا: الأسئلة الحوارية:

دار حوار بينك وبين أحد زملائك حول عصر نفوذ الوزراء في الدولة الفاطمية ودوره في إضعاف الدولة. صف لنا الحوار.

رابعًا: الأسئلة التحليلية:

أ- اذكر دور جوهر الصقلي في فتح مصر.

ب- ما أسباب محاولات الفاطميين الاستيلاء على مصر؟

ج- تحدث عن أساليب الفاطميين في نشر المذهب الشيعي في مصر.

د- اذكر رد فعل المصريين لمحاولات نشر المذهب الشيعي.

هـ- ما دور صلاح الدين في إسقاط الدولة الفاطمية؟

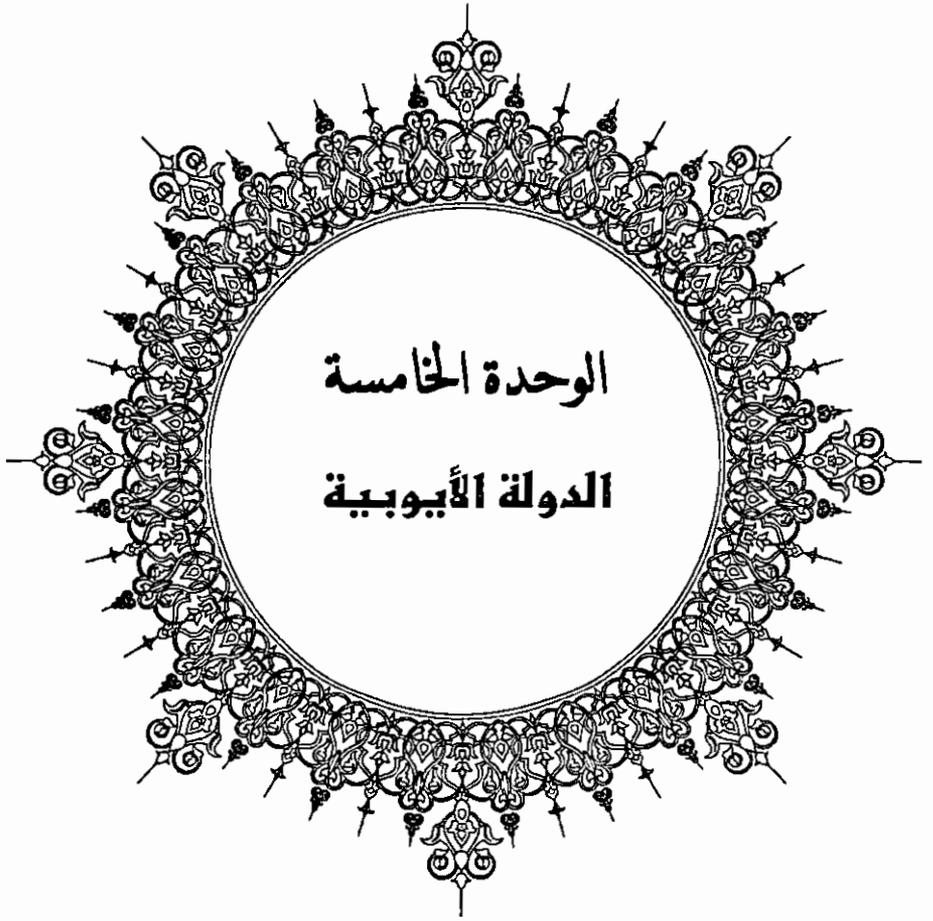
## النشاط التعليمي للوحدة الرابعة

- عزيزي الدارس: حتى تكتسب المزيد من المعلومات حول موضوعات هذه الوحدة عليك بإنجاز النشاط التعليمي التالي:
- أ- أعد بحثاً تتناول فيه نشأة الدولة الفاطمية في المغرب.
  - ب- اكتب مقالة عن جوهر الصقلي ودوره في نشأة الدولة الفاطمية في مصر.
  - ج- اكتب مقالاً عن دور صلاح الدين في إسقاط الدولة الفاطمية.
  - د- اكتب بحثاً عن طرق نشر الفاطميين للمذهب الشيعي.
  - هـ- تناقش مع زملائك حول الحالة الاقتصادية للفاطميين في مصر.

يوصى بالرجوع إلى بعض هذه المراجع:

- د/حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته ج ١، الدار السعودية سنة ١٩٦٠.
- د/أحمد شبلي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ج ٥، النهضة والمعرفة.
- د/جمال الدين سرور: مصر في عصر الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي.
- د/أحمد كامل: مصر بين المذهب السني والمذهب الإسماعيلي، دكتوراه، دار العلوم.
- د/حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي، سنة ١٩٤٦.





## الوحدة الخامسة

### الدولة الأيوبية

مبررات دراسة الوحدة:

تمثل الدولة الأيوبية الدرس المقابل لدراسة الدولة الفاطمية؛ فصلاح الدين الأيوبي كان نبتة صالحة من غرس عماد الدين زنكي ونور الدين محمود، والجيش الذي جاء به إلى مصر كان -أيضاً- غرساً نبتَ في هذه البيئة الطيبة.. وآتت الثمار أكلها، فجاهد صلاح الدين في سبيل التوحيد والوحدة، وأعانه الله على ذلك.

وأخذ الصليبيون- في المقابل ينكمشون ويخسرون في كل يوم؛ لأن هؤلاء وأمتانهم لا يمتنون إلا في ظلال تفرقنا وتصارعنا، وكانت موقعة حطين الفاصلة ضربة قاضية للصليبيين. وتمثل شخصية صلاح الدين نموذجاً للإنسان الذي يجب التعرف على كل جوانب حياته، وهي حياة رائعة نموذجية بيقين، إلا أنها حياة بشر لا تخلو من أخطاء اجتهادية لكن أعداء تاريخنا وحضارتنا لا يملّون من تكبير الصغائر من أجل تشويه كل رموزنا بل بعضهم ربما يكره الأيوبيين لمجرد أنهم أكراد؛ بدافع من عنصرية جنسية، مع أن الإسلام لا يعرف هذه الفوارق.

وإنه لهدف جميل أن نعرف كيف ينقذ العظماء المخلصون أمتهم في ساعات التشرذم والانكسار مثلما فعل صلاح الدين. وإنه لهدف جميل - كذلك- أن نعرف سنن الله في الصعود وفي الهبوط معاً، ولعل ذلك هو الهدف الأكبر في دراستنا للتاريخ الأيوبي.

الأهداف التعليمية للوحدة:

عزيزي الدارس: يرجى بعد دراستك لهذه الوحدة أن تصبح قادراً على أن:

أ- تتحدث عن:

- نسب الأيوبيين.

- الحروب الصليبية.

- إمارة الزنكيين.

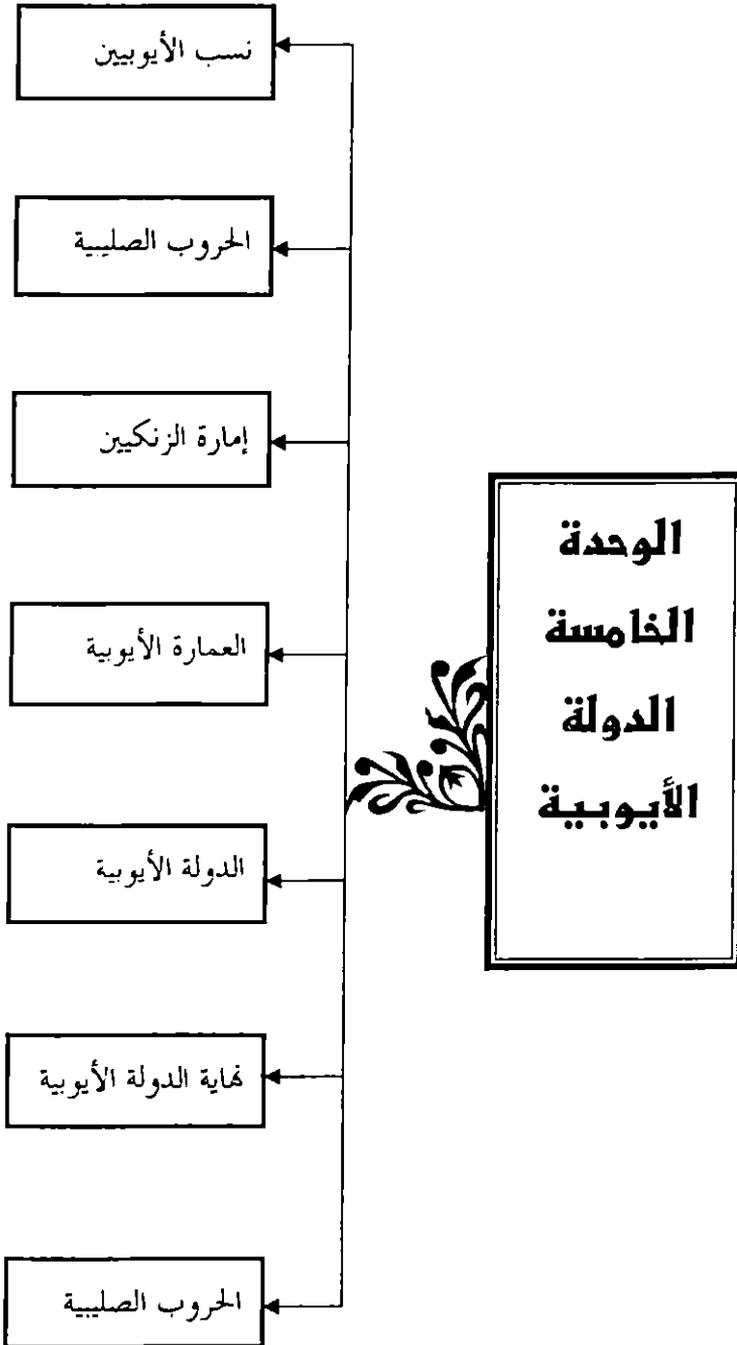
- العمارة الأيوبية.

ب- تستنتج أهم خصائص:

- الدولة الأيوبية.

- العصر الأخير من الدولة.

- ماهية الحروب الصليبية.



## الدولة الأيوبية

### أصل الأيوبيين:

تنسب الدولة الأيوبية إلى صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب بن شاذي من أسرة كردية<sup>(١)</sup>، من بلدة (دوين) عاصمة أرمينية الكبرى. فقد نشأ نجم الدين وأخوه أسد الدين شيركوه ابنا شاذي ببلدة (دوين)، ودخلا بغداد، وخدموا مجاهد الدين بمرز حاكم مدينة بغداد من قبل السلاطين السلاجقة، وكانت (تكريت) إقطاعاً له، فتقدم الأخوان عند مجاهد الدين ففوض إلى نجم الدين أيوب زرداریة تكريت<sup>(٢)</sup>، فسار إليها نجم الدين وشقيقه أسد الدين ونزلا بقلعتها وأقاما بها<sup>(٣)</sup>.

وفي عام (١١٣٢/٥٥٢٧م) التقى نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه بعماد الدين زنكي حين وصل إلى قرب تكريت منهزماً في الحرب التي نشبت بينه وبين الخليفة العباسي المسترشد بالله، حيث حلت الهزيمة بزنكي عند تكريت، وأراد عبور نهر دجلة، فقدم له نجم الدين وأخوه شيركوه السفن اللازمة، وكانت هذه الخدمة سبباً في العلاقة التي توطدت بين الجانبين فيما بعد<sup>(٤)</sup>.

وفي دولة نور الدين محمود بن زنكي بلغ الأخوان أسد الدين شيركوه، ونجم الدين ذروة المجد؛ فقد تولى نجم الدين أيوب دمشق، وتولى أسد الدين شيركوه وظيفة نائب السلطنة في حلب، وصار له إقطاع كبير بمحاص<sup>(٥)</sup>، أما الشاب صلاح الدين فقد رافق

(١) الأكراد: حيل من الآريين ليسوا بعرب ولا ترك وليس يبعد أن يكونوا خليطاً من فرس وعرب.

أحمد بيبي "حياة صلاح الدين الأيوبي"، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٢٢م (ص ٢٩).

(٢) زرداریة: كلمة فارسية مكونة من لفظين (در)، ويقال (دز): أي قلعة، و(دار): أي الحافظ أو الممسك بها فكان معناها صاحب القلعة أو متوليها. أحمد البليبي. المرجع السابق (ص ٣٠).

(٣) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية". القاهرة ١٢٨٧هـ. (١/٣٠).

(٤) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر. القاهرة ١٣٢٥هـ. (١/١٢٧).

(٥) ابن واصل: مفرح الكروب في أخبار بني أيوب. نشر جمال الدين الشيال. القاهرة ١٩٥٣-١٩٦٠م. (١/١٠).

عمه عندما تولى النيابة في حلب، ثم خلف أخاه الأكبر (توران شاه) ككاتب لعمه شيركوه في ديوان الجيش بدمشق، ولكن أخلاقه السامية دفعته إلى الاستقالة بسبب فساد المحتسب، ومرة أخرى عاد إلى خدمة نور الدين محمود في حلب<sup>(١)</sup>، وحين بلغ صلاح الدين الخادية والعشرين من عمره، عينه نور الدين محمود بن زنكي في عام (٥٥٤/١١٦٠م) في وظيفة (شحنة دمشق) أي رئيس الشرطة والمسئول عن الأمن بها<sup>(٢)</sup>.

لقد نشأ صلاح الدين في بلاد الشام التي كانت تعد آنذاك الميدان الأول للصراع بين المسلمين والصليبيين، وقد شب في عصر اشتدت فيه حركة الجهاد الإسلامي، وأتيحت له الفرصة أن يجا بين أناس لا حديث لهم إلا عن حركة الجهاد التي تزعمها عماد الدين زنكي ومن بعده نور الدين محمود، واشتد عوده في وقت كان العالم الإسلامي يعاني فيه من الفرقة السياسية والدينية، وعندما وفد مع عمه أسد الدين شيركوه إلى مصر، رحب بهما الأهالي، والتفوا حولهما، فأدرك ثاقب بصره الرغبة الشعبية في مصر وبلاد الشام في التخلص من الخطر الصليبي الجاثم على صدر الأمة العربية آنذاك، مما كان له أكبر الأثر في تكريس صلاح الدين كل جهده ووقته وحياته ومستقبل عمره لتحقيق ذلك المطلب الشعبي<sup>(٣)</sup>.

### الأيوبيون في مصر:

وعندما فشل الصليبيون على الجبهة الشمالية اتجه (عموري) منك بيت المقدس صوب مصر؛ حيث أدرك أن سيطرة نور الدين محمود على حلب وحماة وحمص ودمشق قد حالت دون توسع الصليبيين في شمال بلاد الشام، وأن الطريق

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسنية. طبع مطبعة الآداب والمؤيد بمصر ١٣١٧هـ. (ص ٦).

(٢) انقريزي: السنوك لمعرفة دول الملوك. نشره وحققه محمد مصطفى زيادة. القاهرة ١٩٣٤-١٩٥٨م. (٤١١).

Rumciman: A history of the crusades, Cambridge: ١٩٥١. ٢, P. ٣٩٩.

(٣) قاسم عبده قاسم، وعني السيد علي: "الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري". عين

لدراسات والبحوث الإنسانية. الطبعة الثانية ١٩٩٦م. (ص ٢٢).

الطبيعي الذي بقي مفتوحاً أمامهم هو مصر، خاصة وأن الخلافة الفاطمية كانت قد انحلت وفقدت هيبتها؛ نظراً لتحكم الوزراء في الأمور، وقيامهم بعزل الخلفاء وتدمير المؤامرات للتخلص منهم، ومثال ذلك سلوكيات طلائع بن رزيك الأرميني الأصل والذي أخذ يستعرض المرشحين للخلافة عندما توفي الخليفة الفاطمي الفائز عام (٥٥٥/١١٦٠م) "استعراض الغنم" على حد قوله<sup>(١)</sup>.

### حملة شيركوه الأولى على مصر:

ثم ازدادت أحوال الخلافة الفاطمية سوءاً بمقتل طلائع بن رزيك ليحل محله في الوزارة (شاور) الذي كان حاكماً على الصعيد، ولكن حاجبه (ضرغام) دبر مؤامرة بنجح من خلالها في عزله من الوزارة ليحل محله فيها. فكان أن هرب شاور من القاهرة<sup>(٢)</sup>، ووجد (عموري) الفرصة سانحة لغزو مصر، ووصل إلى بليس وحاصرها، إلا أن ضرغاماً أرغمه على الانسحاب<sup>(٣)</sup>، ولجأ (شاور) إلى دمشق طالباً نجدة نور الدين محمود ضد ضرغام ليعيده إلى منصب الوزارة، وأطمع نور الدين محمود في الديار المصرية، وتعهد (شاور) بدفع نفقات الحملة، وأن يتنازل له عن المناطق الواقعة على الحدود، وأن يعترف بسيادة نورالدين محمود، وأن يؤدي مقداراً من المال يُقدر بثلاث خراج مصر<sup>(٤)</sup>.

وقد استجاب نور الدين محمود لطلب شاور؛ لأنه وجد في العرض الذي تقدم به شاور فاتحة أمل كان يحلم بها لإكمال حلقة الحصار حول المستعمر الصليبي<sup>(٥)</sup>. وأرسل حملة يقودها أسد الدين شيركوه، يرافقه ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ. طبع دار صادر. بيروت ١٩٦٦م. (١/٣٧٦).

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية. (ص٣٦).

(٣) Runciman: A history of the Crusades. Cambridge. ١٩٥٧. vol. ٢, P. ٥٩٢.

(٤) أبو شامة: الروضتين (١/١٣٠).

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية (ص٣٦).

وعمره آنذاك سبع وعشرون سنة<sup>(١)</sup>، ثم حملة سنة (٥٦٢/١١٦٦م)، وحملة ثالثة سنة (٥٦٤/١١٦٨م).

**صلاح الدين على رأس السلطة في مصر، وسقوط الخلافة الفاطمية:**

كان القضاء على الخلافة الفاطمية وعودة المنصرين إلى المعسكر السني أمراً عليه ضرورة الموقف الإسلامي، وحتى يتمكن المسلمون في المشرق من توحيد صفوفهم أمام الصليبيين الذين استفادوا من هذا التمزق، وكذلك نظراً إلى أنه من الشذوذ الواضح والتناقض الصارخ أن يستمر صلاح الدين (السني المذهب) وزيراً لخليفة (شيعي)، لذلك كان يجب أن يسعى صلاح الدين -لهذا وذاك- لإسقاط الخلافة الفاطمية نهائياً، يدفعه لذلك أيضاً أن نور الدين محمود كتب إليه يستحثه على فعل ذلك، والدعاء في مصر للخليفة العباسي المستنجد بالله<sup>(٢)</sup>. غير أن صلاح الدين كان يدرك أن إلغاء الخلافة الفاطمية يستلزم اتخاذ خطوات تمهيدية تدريجية خشية ثورات الشيعة، وهذه الخطوات هي:

١- أن يبدأ صلاح الدين بالتخلص من سيطرة المذهب الشيعي بطرق هادئة. وقد بدأ بعزل القضاة الشيعة وقطع عنهم أرزاقهم، ثم تتبع الدعاة الفاطميين وشردهم، وألغى مجالس دعوتهم. وأزال شعار المذهب الشيعي، مثل: الأذان بـ: "حي على خير العمل" كما حذف شعاراتهم التي كانت منقوشة على العملة، كما أخذ ينشر بين الناس الآراء التي تشكك في صحة نسبهم إلى فاطمة بنت رسول الله ﷺ. كذلك منع صلاة الجمعة في جامع الأزهر والحاكم، واستمر هذا المنع مائة عام إلى أن جاء المماليك ليعيدوها إلى الجامعين<sup>(٣)</sup>.

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور: الحركة النصيبية. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة ١٩٦٣م. (٦٨٣/٢).

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة (١٩/٢).

(٣) سيوطي: حسن (٦٧ ٢)، (لارتباط الصلاة فيهما بالمدنية الشيعية!!).

٢- وفي الوقت نفسه عمل صلاح الدين على إحياء المذاهب السنية في مصر مرة ثانية خاصة المذهب الشافعي الذي كان يعتنقه، فأنشأ المدارس لتدريس هذا المذهب ونشره، وجعل القضاء في مصر للمذهب الشافعي<sup>(١)</sup>.

٣- كما عمل صلاح الدين بعد ذلك على إضعاف قوة الخليفة الفاطمي بالقضاء على نفوذ رجال حاشيته وقواده، فاغتال كبير رجال حاشية قصره، وكان خصياً أسود اسمه (مؤتمن الخلافة) فغضب السودانيون من حرس الخليفة، كذلك غضب الجند السودانيون الذين كانوا يشكلون القوة الرئيسية في الجيش الفاطمي وقتئذ، وحاولوا الثورة، فوجه إليهم صلاح الدين أخاه (توران شاه) على رأس قواته ففضى على فنتتهم، وعين صلاح الدين أحد رجاله واسمه (قراقوش) - بمعنى الطائر الأسود- مشرفاً على قصر الخليفة، بحيث لا يجري فيه صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر صلاح الدين<sup>(٢)</sup>.

٤- كما أبعده صلاح الدين قواد الجيش الفاطمي عن القاهرة، واستولى على إقطاعاتهم وقصورهم ومنحها لقواده، واستأذن نور الدين في أن يرسل له أباه وأهله فأرسلهم ثم اتجه صلاح الدين بعد ذلك إلى الخليفة الفاطمي ذاته، فأنقص مخصصاته التي كانت هائلة، ولم يُبق لديه إلا القليل من مال وخيل ورقيق، ولم يبق أمام صلاح الدين إلا تنفيذ الخطوة الباقية والأخيرة، وهي إسقاط الدعاء للخليفة الفاطمي (العاقد) والدعاء بدلاً منه للخليفة العباسي (المستضيء بأمر الله) الذي تولى بعد أبيه (المستجد بالله) المتوفى عام (٥٦٦/١١٧٠م).

وفي يوم الجمعة صعد المنبر قبل الخطيب فقيه فارسي يعرف (بالأمير العالم)

(١) السيوطي: المصدر السابق نفس الصفحة. ٦٢٢. P. ٢. Vol. Runciman: OP. Cit.

(٢) ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة: تاريخ الدولة العباسية، تحقيق د. محمد الزهراني. المدينة المنورة. سنة

ودعا للمستضيء بأمر الله العباسي، ولم ينكر أحد عليه ذلك<sup>(١)</sup>، وفي الجمعة التالية أمر صلاح الدين بتعميم الخطبة للخليفة العباسي في كافة مساجد مصر<sup>(٢)</sup>.

وكان الخليفة العاضد طريح الفراش فلم يعلم بشيء، وتحول الدعاء للخليفة العباسي دون أن يحدث ما يعكس الجوّ على حدّ قول بعض المؤرخين "فلم ينتطح فيه عنزان"<sup>(٣)</sup>، ومات الخليفة الفاضلي بعد أسبوع دون أن يعلم أن دولة آباءه قد دالت وانتقلت إلى ذمة التاريخ، واستقامت الأمور لصلاح الدين<sup>(٤)</sup>.

صلاح الدين يوسع سلطانه:

### الدوافع والنتائج:

كان صلاح الدين يخاف من (نور الدين محمود) أن ينقله من مصر أو يعزله خوفاً من زيادة نفوذه في مصر، ودفعه هذا إلى التفكير في فتح بلاد جديدة متاخمة لمصر أو قريبة منها؛ لتكون ملجأً له ولأسرته، ونقطة ارتكاز يعتمد عليها إذا ما نجح نور الدين محمود في اقتحام مصر عليه أو عزله منها ولذلك وجه حملة بقيادة قائده قراقوش إلى بلاد بركة فأتمت هذه الحملة فتح هذا الإقليم في منتصف عام (٥٦٧/١١٧٠م)<sup>(٥)</sup>.

ويقولون كذلك إنه بدافع من الغرض نفسه، وجه صلاح الدين أحياه (توران شاه) في عام (٥٦٨/١١٧١م) لفتح بلاد النوبة، فزحف إليها توران شاه وتوغل فيها حتى قلعة (إبريم) الواقعة على بعد (١٢٠ ميلاً) جنوب أسوان، ثم عاد بعد أن اكتشف أنها بلاد فقيرة لا تصلح مقرأً لصلاح الدين إذا ما طرده (نور

(١) ابن طاهر: أخبار الدول المقطعة (ص ٣٠٨).

(٢) ابن الوردي: تمة المختصر في اختبار البشر (المعروف بتاريخ ابن الوردي) (٧٩/٣).

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٤) ابن شداد: النواذر السلطانية (ص ٤٥).

(٥) ابن الأثير: التكميل في التاريخ (١٠: ٨٤).

الدين محمود) من مصر. هذا وقد اختمرت في رأس صلاح الدين فكرة الاستيلاء على اليمن ليجعل منها مقرا لدولته الناشئة إذا نجح (نور الدين محمود) في إخراجه من مصر. ونحن نرى أن صلاح الدين كان مدفوعا في فتوحاته - في هذه الفترة - ليحقق غرضين أساسيين:

أولهما: تحقيق سيادة المذهب السني الذي تمثله الخلافة العباسية والذي يعتنقه هو شخصياً<sup>(١)</sup>.

وثانيهما: مطاردة الشيعة وأنصارهم والقضاء عليهم، وخصوصا في البلاد المتاخمة لمصر أو القريبة منها. أي أن فتوحاته تمت كلها في إطار الدفاع عن كيان مذهب أهل السنة والجماعة، والقضاء على الإسماعيلية وبقاياهم، وأيضا لترسيخ أقدام دولته الجديدة.

أما فتح بلاد النوبة فكان بدافع مطاردة ملوك وبقايا الجند السودانية أتباع الدولة الفاطمية الذين كانوا تحت إمرة مؤتمن الخلافة، والذين فروا إلى أقصى صعيد مصر وبلاد النوبة بعد فشل فتنة زعيمهم.

وأما فتح اليمن فكانت له عدة دوافع هامة أيضا أهمها: القضاء على النفوذ الفاطمي الشيعي فيها.

يضاف إلى هذه الدوافع الحقيقية أن بعض المؤرخين ربطوا بين حملة اليمن وبين مؤامرة دبرها بعض أنصار الدولة الفاطمية في مصر، قصدوا من ورائها إزالة حكم صلاح الدين، وإعادة الحكم الفاطمي مرة ثانية. وقد اشترك في هذه المؤامرة الشاعر (عمارة اليمني) واستقر الرأي على تنفيذ هذه المؤامرة، وصلاح الدين بعيد عن مصر يحاول الإغارة على الشوبك والكرك، وتوران شاه في اليمن. واتفق المتآمرون على استدعاء الصليبيين بالشام ليقوموا بمهاجمة مصر في الوقت الذي يقومون فيه بشورتهم كما

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية (ص ٧٧).

اتصلوا بوليم الثاني النورمندي ملك صقلية ليهاجم بأسطوله الإسكندرية في الوقت الذي يشرع فيه الصليبيون في مهاجمة مصر من الشرق، وكتبوا أيضا (سنان) شيخ الحشاشين بالشام، ولكن هذه الخطة المحكمة فشلت، لأن صلاح الدين علم بتفصيلها قبل تنفيذها، فقام على الفور بالقبض على زعماء المؤامرة، وجرى شنقهم وتعليق جثثهم -ومن بينهم عمارة اليميني- على أبواب القاهرة، في رمضان (٥٦٩هـ/ ١١٧٢م)، كما استطاع أن ينزل المزمجة بأسطول ملك صقلية عندما قام بمهاجمة الإسكندرية في ذي الحجة من نفس العام، أما الصليبيون فلم يتحركوا على إثر علمهم بفشل المؤامرة، وأمر صلاح الدين بإرسال أموال المتآمرين إلى الشام ليستعين بها نور الدين على الجهاد، ومن المؤكد أن يد القدر هي التي كانت تمهد لصلاح الدين الطريق، فتوفي (نور الدين محمود) في الوقت المناسب في يوم الأربعاء (١١ من شوال ٥٦٩هـ-١١٧٤م)، وبموته تأكدت سيطرة صلاح الدين على مصر<sup>(١)</sup>.

### صلاح الدين في الشام:

أصبح وضع الشام بعد وفاة نور الدين محمود بالغ الصعوبة، قابلاً للتمزق والتشردم، فبمجرد وفاة نور الدين محمود أخذت الجبهة الإسلامية التي كانت موحدة تحت قيادته في الشام والجزيرة تتفكك وتنقسم على نفسها، مما جعلها غير قادرة على الوقوف أمام أطماع الصليبيين. فقد خلف نور الدين في ملكه الواسع ابنه إسماعيل الذي كان وقتئذ في الحادية عشرة من عمره، فطمع ابن عمه (سيف الدين غازي الثاني) الذي كان يحكم ولاية الموصل في ذلك الوقت في أملاكه الواقعة بالجزيرة، واستولى على أبرز مدنها وهي نصيبين وحران والرها والرقعة وسروج<sup>(٢)</sup>، كما أن كبار قواد نور الدين في الشام أخذوا يتنافسون على الفوز

(١) أبو شامة: الروضتين (١/٢٣٤-٢٣٥)، ابن الأثير: الكامل (١٠/١٥٥). القرظي: السوك (١/٥٥-٥٧)، ابن

الوردي: تمة المحاصر (٢/٨٢-٨٣). أحمد النبي حياة صلاح الدين (ص ٩٨-١٠٠).

(٢) هامتون حب: المرجع السابق (ص ١٢٢).

بالوصاية على هذا الغلام؛ لينشروا باسمه نفوذهم على دولته، واحتدم التنافس على هذا الأمر بين قائدين كبيرين: أحدهما: شمس الدين بن المقدم بدمشق الذي تولى تربية الملك الصالح إسماعيل، وصار بالتالي مدير دولته برعايته بدمشق. وثانيهما: شمس الدين علي بن الداية بحلب الذي لم يقبل هذا الوضع على اعتبار أن حلب كانت هي مركز الدولة النورية منذ نشأتها والدولة الزنكية قبلها؛ ولذلك فإنه كان يرى أن تكون حلب مقراً للملك الصالح وليس دمشق، كما كان يرى أنه أحق بالوصاية عليه؛ لأنه كان من أكبر أمراء نور الدين قريباً منه، كما قيل إن نور الدين كان قد أوصى قبل وفاته أن تكون إقامة ابنه إسماعيل في حلب بعد وفاته<sup>(١)</sup>.

وقد نجح ابن الداية بعد أن تكررت مساعيه لدى ابن المقدم في أن يستقدم الملك الصالح إلى حلب. غير أن الأخير لم يكد يصل إلى حلب بصحبة (سعد الدين كمشتكين) - أحد القواد النوريين الذين كانوا يعملون في خدمة ابن الداية وقتئذ - حتى بادر سعد الدين هذا بالقيام بانقلاب مفاجئ سيطر به على السلطة في حلب، وقبض على ابن الداية وأفراد أسرته وسجنهم وجعل الملك الصالح تحت وصايته<sup>(٢)</sup>.

### استدعاء ابن المقدم لصالح الدين الأيوبي:

وقد فرغ ابن المقدم من هذه التطورات، فبعث يستنجد بسيف الدين غازي الثاني لتصحيح الوضع في حلب، ولكن سيف الدين لم يحرك ساكناً، فلم يجد بداً من الاستنجد بصالح الدين الأيوبي.

وما كان لصالح الدين أن يتمنى أكثر من هذه الدعوة، لتكون مبرراً له عند أهل الشام في غزوه للبلاد، فلم يتأخر لحظة واحدة، وبدأ يتحرك إلى الشام في صفر عام (٥٧٠هـ - ١١٧٤م) بعد أن أصبحت الظروف مواتية له تماماً، خاصة وأن نور الدين محمود وهو القوة الأولى التي كان يعمل لها حساباً قد مات، كما أن عموري ملك بيت

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٦٥/١١-١٦٦).

(٢) أحمد البيهقي: حياة صلاح الدين (ص ١٠٢)، ابن شداد: النوادر السلطانية (ص ٧٩).

المقدس - وهو أكبر قوة صليبية وقتئذ في الشام - قد مات هو الآخر بعد نور الدين بحوالي شهر ونصف، وخلفه ابن له صغير مريض لا يرجى له شفاء، وهو (بلدوين الرابع) الذي أخذ يحكم هذه المملكة تحت وصاية ريموند الثالث أمير طرابلس<sup>(١)</sup>.

وقد حرص صلاح الدين على تبرير سبب تحركه إلى الشام للخليفة المستضيء بأمر الله في بغداد في كتاب أرسله إليه من إنشاء القاضي الفاضل أوضح فيه أن السبب الرئيسي الذي دعاه للتحرك إليها هو رغبته في إنقاذ الملك الصالح من أضماع الأمراء الذين يتظاهرون بالوفاء له، بينما هم - في حقيقة الأمر - يأكلون الدنيا باسمه، وكذلك رغبته في الوقوف أمام أطماع الصليبيين، وأنه لن يتأني له ذلك إلا بتوحيد الجبهة الإسلامية بالتمركز في الشام قريبا منهم<sup>(٢)</sup>.

وقد استطاع صلاح الدين أن يدخل دمشق في يوم الثلاثاء ربيع الآخر عام (٥٧٠هـ - ١١٧٢م) بدون قتال، ثم سار صلاح الدين إلى حمص فاحتلها، ولكن قلعتها استعصت عليه فتركها، وسار إلى حماة فسلمها له أميرها، ثم سلمت له قلعتها بعد ذلك، ثم توجه إلى حلب وبدأ في محاصرتها في جمادى الثاني عام (٥٧٠هـ - ١١٧٤م)<sup>(٣)</sup>.

### جهود صلاح الدين في توحيد الجبهة الشامية:

اتجهت خطة كمشتكين في حلب لمواجهة خطر صلاح الدين عن طريق تحقيق نوع من التساند بين الملك الصالح إسماعيل، والحشاشين الإسماعيلية، والصليبيين، وكذلك سيف الدين غازي الثاني. وكانت الخطة على النحو التالي:

١ - فيما يتعلق بالملك فقد حرصه كمشتكين، على جمع أهل حلب ولوقوف فيهم خطيبا مستثيرا فيهم العطف عليه، ومظهراً صلاح الدين بمظهر الطامع فيه وفي ملكه، حتى

(١) ابن شداد: النوادر السطانية (ص ٨٥).

(٢) ابن الوردي: تمة مختصر (ص ٨٤).

(٣) المقريري: السوك (١/٥٨١)، قاسم عده قاسم وعني السيد علي: الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري (ص ٣٨-٣٩).

- بكوًا إشفافاً عليه، وعاهدوه على الوقوف بجانبه، وبذل أرواحهم فداءً له<sup>(١)</sup>.
- ٢- أما الحشاشون فقد كتب كمشتكين إلى زعيمهم سنان لكي يرسل بعض رجاله إلى معسكر صلاح الدين لقتله، ونجح سنان في دس بعض رجاله فعلاً بين جنود صلاح الدين ولكن أمرهم لم يلبث أن كشف وقتلوا<sup>(٢)</sup>.
- ٣- أما الصليبيون فقد كتب كمشتكين إلى ريموند الثالث أمير طرابلس يطلب المساعدة لنجدته، فتوجه ريموند بقواته إلى حمص ليهدد مؤخره صلاح الدين فشعر صلاح الدين بخطورة موقفه، واضطر أن يفك الحصار عن حلب، وعاد إلى حمص لمواجهة ريموند، لكنه ما كاد يقترب من حمص حتى أسرع ريموند بالرحيل عنها، وعندئذ شدد صلاح الدين الحصار على قلعة حمص التي امتنعت عليه من قبل حتى استسلمت، ثم احتل بعلبك بعدها<sup>(٣)</sup>.
- ٤- أما سيف الدين غازي الثاني فإنه ما أن وصلته استغاثة الملك الصالح وكمشتكين حتى بادر بإرسال قواته لنجدتهم، وانضمت جيوشه مع جيوش حلب، واتجهت كلها إلى حماة، وكان صلاح الدين وقتئذ يحمص فحاول أن يفاوضهم على أساس إيقاف القتال، ولكنهم رفضوا بتأثير من سيف الدين غازي الذي كان يطمع في أملاك الملك الصالح بالشام، فاضطر صلاح الدين إلى أن يتجه بقواته إلى قرون حماة، وهناك اشتبك مع جيوش الموصل وحلب في معركة حامية في رمضان (١١٧٤/٥٧٠ م) انتصر فيها وانسحب أعداؤه إلى حلب فتتبعهم وحاصر حلب للمرة الثانية، فلما اشتد الحصار على الحلبيين راسلوه في الصلح على أن يكون له النصف الجنوبي من الشام حتى

(١) ابن الوردي: تمة المختصر (ص ٨٣-٨٤).

(٢) ابن الأثير: الكامل (١٦٥/١-١٦٦).

(٣) أبو شامة: الروضتين (١/٢٤٠)، قاسم بن قاسم، علي السيد علي: الأيوبيون والمماليك التاريخ

السياسي والعسكري (ص ٣٩-٤٠).

المعرة وكَفَر طاب شمالاً، بينما يكون للملك الصالح ما عدا ذلك من الشام، ويشترط أن يدعو صلاح الدين للملك الصالح على منابر البلاد التابعة له وأن يضرب السكة باسمه، وأن يهب لنجدته إذا ما طُلب منه ذلك. فوافق صلاح الدين على ذلك وتم الصلح<sup>(١)</sup>، وعلى أثرها وصل إلى صلاح الدين بحماة رسل من الخليفة العباسي المستضيء يحملون إليه عنه تشريفا وتقليداً بسلطنته على مصر والشام وغيرها من البلاد التي تحت يده<sup>(٢)</sup>.

لكن سيف الدين غازي الثاني صاحب الموصل لم يقبل التسليم بشروط الصلح التي عقدت بين حلب وصلاح الدين، فكتب إلى الخنبيين يدعوهم إلى استئناف القتال ويبلغهم عزمه على المسير بنفسه على رأس قواته لمساعدتهم، ولكن القدر شاء أن يقع الكتاب في يد صلاح الدين، فبادر على الفور باستدعاء إمدادات من مصر، فلما وصلت تحرك لمواجهة جيش الموصل وحلب للمرة الثانية، واشتبك معهما بين حلب وحماة عند (تل السلطان) في معركة انتصر عليهما فيها، وكان ذلك في (شوال ٥٧١هـ - ١١٧٥م)، وفر سيف الدين غازي الثاني منهزماً وعاد إلى الموصل<sup>(٣)</sup>.

٥- أما الحلبيون فعادوا إلى مدينتهم، فتبعهم صلاح الدين وحاصرهم للمرة الثالثة، وبعد مفاوضات تم الصلح في (محرم ٥٧٢هـ - ١١٧٦م) بين صلاح الدين والملك الصالح، على أن يكون لصلاح الدين حماة وما أخضعه من جنوبها من بلاد الشام، وعلى أن يقتصر الملك الصالح على مدينة حلب فقط<sup>(٤)</sup>، وبعد ذلك في (١٨ صفر ٥٧٩هـ / ١١٨٣م) تسلم صلاح الدين مدينة حلب من عماد الدين صاحبها الذي تولى عليها بعد وفاة الملك

(١) ابن شداد: النوار السنطانية (ص ٥٢)، أبو شامة: الروضتين (١: ٢٥٨).

(٢) ابن الأثير: الكامل (١١/ ١٦٦-١٧٠). سعيد عاشور: الناصر صلاح الدين (ص ١٣٦).

(٣) ابن الأثير: الكامل (١١/ ١٧١-١٧٢). سعيد عاشور: الناصر (ص ١٣٦).

(٤) ابن شداد: النوار السنطانية (ص ٥٣)، هامنتون حب: المرجع السابق (ص ١٣٢-١٣٥).

الصالح، وذلك في مقابل بلاد سنجار ونصيبين وسروج التي تنازل له عنها صلاح الدين، وبذلك يكون ملكه قد استقر في الشام ثم جرت مناوشات بين صلاح الدين وبين عز الدين صاحب الموصل وأعمالها انتهت بأن يكون الموصل تحت إشراف صلاح الدين، ويخطب باسمه على المنابر وتضرب السكة باسمه، وأن يكون عز الدين مسعود وعسكره في خدمة صلاح الدين ورهن أمره، وبذلك يكون شمال العراق قد ضم إلى الشام ومصر تحت حكم صلاح الدين، أي أنه ملك الأراضي الممتدة بين النيل والفرات، ما عدا المواقع الحصينة الواقعة في يد الصليبيين<sup>(١)</sup>.

وهكذا أتم صلاح الدين توحيد الجبهة في الشام والجزيرة الفراتية كلها تحت قيادته، وبذلك أصبح في استطاعته أن يضرب ضربته، ويحقق هدفه، وهو طرد الصليبيين من الشام، وقد تم له ذلك فانتصر عليهم في معركة حطين عام (٥٨٣/١١٨٧م). كما حرر القدس في العام نفسه واستطاع أن يحد من خطورة الحملة الصليبية الثالثة، وأن يحتفظ بتحرير القدس والسيطرة على داخل فلسطين، ما عدا الشريط الساحلي، وتم كل ذلك بعقد صلح الرملة (٥٨٨/١١٩٢م).

أما ما بقي من عمره الذي لا يتجاوز بضعة شهور، فقد قضاه في القدس بين المدارس والمستشفيات، ثم عاد إلى دمشق فمات بها في (٢١ صفر ٥٨٩-١١٩٣م) وبموته انتهت مرحلة، وبدأت مرحلة جديدة في الصراع ضد الكيان الصليبي.

وحين توفي صلاح الدين الأيوبي كان في الرابعة والخمسين من عمره، ومن بين كل الشخصيات التي برزت في عصر الحروب الصليبية بدت شخصية صلاح الدين هي الشخصية الأكثر جاذبية لقد كان مسلماً مخلصاً، وعلى العكس من كل القادة الصليبيين لم يحدث أن نقض هدنة أو معاهدة، وكان كريماً عطوفاً

(١) أبو شامة: الروضتين (١١/٢). هاملتون حب: المرجع السابق (ص ١٣٢).

نيلاً راقياً في سلوكه، وعلى الرغم من أن المبشرين المسيحيين المتعصبين في غرب أوروبا كانوا يطلقون عليه لقب (المسيخ الدجال) فإن غالبية أعدائه لم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من الإعجاب به<sup>(١)</sup>.

ضعف دولة صلاح الدين وتقسيمها:

يعدّ فقدان الجبهة الإسلامية لقيادة صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية خسارة فادحة عانى منها البيت الأيوبي نفسه، فضلاً عن معاناة الجبهة الإسلامية، فصلاح الدين بشخصيته التي أصبحت رمزاً أكثر من أي شيء آخر، كان عاملاً من عوامل تجميع القوى الإسلامية ودفعها لتحدي الصليبيين ومواجهتهم، وذلك من حيث التعبئة النفسية، والإعداد لمزيد من جولات الصراع ضد الصليبيين، وأكبر دليل على مبلغ الخسارة التي لحقت بالجبهة الإسلامية نتيجة لوفاة صلاح الدين، تلك الصراعات التي احتدمت بين قوى الجبهة الإسلامية بعد وفاته.

لقد ترك صلاح الدين الأيوبي فراغاً ضخماً لم يستطع أحد من أبنائه السبعة عشر وإخوته أو أبناء إخوته أن يملأه<sup>(٢)</sup>.

وإذا حاولنا أن نبحث عن أسباب هذا الانقسام داخل البيت الأيوبي بعد وفاة صلاح الدين، نلمس أن الباعث على الانقسام كان من أجل شهوة الحكم والتملك، وقد يكون الباعث هو شعور زعماء البيت الأيوبي أنهم حققوا الغاية التي كانت تستهدفها حركة المقاومة، وقد عبر صلاح الدين عن مخاوفه من المستقبل فقال: "وما أدري أي شيء يكون مني فيقوى هذا العدو، وقد بقي لهم هذه البلاد، فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس تلة، وقال: لا أنزل ويهلك المسلمون"<sup>(٣)</sup>.

(١) Grousset: Op.Cit. III. PP. ١٩٩، ٢٣٠.

(٢) اس شداد: النوادر السطابية (ص ٤١٠).

(٣) انصدر السابق (ص ٣٣٥).

وقد يكون من عوامل التفكك (صلح الرملة) الذي ترتب عليه أن هيمنت راية السلام على منطقة الصراع بين المسلمين والصليبيين، وبالتالي انصرف رجال البيت الأيوبي في نشاطهم إلى أمور أخرى، في مقدمتها نصيب كل منهم في التركة الكبيرة التي خلفها صلاح الدين الأيوبي، وقد يكون صلاح الدين نفسه وإلى حد ما هو المستول عن التمزق الذي تعرض له بيته، بسبب انهماكه في الجهاد ضد الصليبيين، وعدم وجود الوقت الكافي لديه لوضع الأسس التي تسير عليها الدولة بعد وفاته، وسواء صح هذا أو ذاك؛ فالذي لا شك فيه أن البيت الأيوبي تعرض للانقسام والتمزق بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي، وكان لذلك النزاع أثره السيئ والسلبى على المقاومة الإسلامية ضد الوجود الصليبي<sup>(١)</sup>.

توفي صلاح الدين بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة (٥٨٩هـ/٤ مارس عام ١١٩٣م). وترك دولة مترامية الأطراف، كانت قبل وفاته موحدة تحت قيادته القوية، تشمل مصر وبلاد النوبة والمغرب وبلاد الحجاز واليمن وشمال العراق والشام فيما عدا الشريط الضيق الذي كان يحكمه الصليبيون على ساحل البحر المتوسط، كما ترك من الأولاد سبعة عشر ولداً وبناتاً واحدة<sup>(٢)</sup>.

لكن هذه الدولة لم تلبث أن تفككت بعد وفاته مباشرة؛ فقد اقتسمها أولاده وإخوته وأقاربه، وبدأ التنافس والتنازع ينشب بينهم على الفور خصوصاً بين أبنائه وإخوته؛ لأن هؤلاء الإخوة يحكم سنهم وبحكم جهادهم وخدماتهم التي قدموها لأخيهم صلاح الدين كانوا يشعرون بأن من حقهم أن يكون لهم النصيب الأوفى في دولته بعد وفاته، والواقع أن صلاح الدين كان يعتمد عليهم في النصف الأول من حياته اعتماداً كبيراً، وكان يسند إليهم المناصب الكبرى والولايات الرئيسية، لكنه لم

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية (٢/٨٧٥).

(٢) أبو شامة: الروضتين (٢/٤٤). ابن شداد: النوادر السلطانية (ص ١٠٧).

يلبث في النصف الثاني من حياته أن قدم أولاده عليهم فخصهم بالولايات الهامة، بينما اكتفى بمنح إخوته وبعض أقاربه الولايات الثانوية<sup>(١)</sup>.

لقد أوصى صلاح الدين بالسلطنة من بعده لأكثر أبنائه وهو الأفضل نور الدين (٥٨٩-٥٥٩٢/١١٩٣-١١٩٦م) حاكم دمشق والساحل وبيت المقدس وبلبيك وصرخند وبصرى وبانياس وتبنين حتى النारوم جنوباً بالقرب من الحدود المصرية. أما حكم مصر نفسها فكان من نصيب الابن الثاني لصلاح الدين الأيوبي وهو العزيز عثمان، أما ابنه الثالث الملك الظاهر غياث الدين غازي، فقد كان نصيبه حكم حلب والمناطق المتاخمة لها، كذلك نال إخوة صلاح الدين نصيبهم من تركة السلطان الراحل، فقد تولى أخوه سيف الإسلام ابن أيوب حكم بلاد اليمن. واحتفظ أخوه العادل سيف الدين أبو بكر بالكرك والشوبك (في الأردن الحالية) وبعض مناطق أعالي العراق<sup>(٢)</sup>.

### النزاع بين أبناء البيت الأيوبي:

هذه الإقطاعات التي نالها العادل سيف الدين لم تكن تتناسب أبداً مع مواهب هذا الرجل ومهارته العسكرية والدبلوماسية، وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يشأ أن يشارك في الصراع الذي ما لبث أن نشب بين خلفاء صلاح الدين حول العرش والسلطة، ولكنه اختار لنفسه دور الوساطة بين بني أحميه المتنازعين، وقد ظهر العادل من خلال الدور الذي احتاره في صورة الزعيم الأيوبي الحريص على وحدة الدولة الأيوبية بأقاليمها المختلفة تحت راية سياسة موحدة<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن شداد: النوادر السنطانية (ص ٧٠). أحمد بيبي: حياة صلاح الدين (ص ١٨٨).

(٢) ابن واصل: مفرح الكروب في احبار بني أيوب (٢/٣٧٨-٣٧٩). Runciman: Op. Cit., III. P. ٧٨.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة (٦/١٤٩). قاسم عدة قاسم، وعلي السيد علي: الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري (ص ٨٤).

وإذا كان العادل سيف الدين قد استطاع في غضون ست سنوات فقط أن يسيطر نفوذه على معظم الأراضي التي كانت تضمها مملكة صلاح الدين، فإنه لم يكن يحسب استخدام القوة العسكرية لتنفيذ أغراضه، وإنما كان يفضل استخدام سلاح الدبلوماسية والمكيدة، وقد أتاحت له المنافسات بين أبناء صلاح الدين أن يستخدم هذا السلاح باقتدار عظيم، فقد كان الأفضل حاكم دمشق يعد أكبر المنوك من بني أيوب؛ لأنه أكبر إخوته، ولكن سياسته الفاشلة وسوء حكمه جعلوا أخاه العزيز حاكم مصر يخرج على رأس جيشه لمحاربتة، فانضم العادل إلى ابن أخيه الأفضل، وهنا أدرك العزيز أنه لن يستطيع تحقيق مآربه، فطلب أن يجتمع بعمه العادل للتفاوض وقال له العادل: "لا تحرب البيت وتدخل عليه الآفة، والعدو ورائنا من كل جانب، فقد أخذوا جبلة فارجع إلى مصر واحتفظ بملك أهلك" ثم طلب منه العادل أن يصالح أخاه فوافق<sup>(١)</sup>.

وتجدد النزاع بين الأفضل صاحب دمشق والعزيز صاحب مصر حول السلطة، فقد أراد العزيز أن تكون له السلطة العليا في المملكة، وأن تكون السكة والخطبة باسمه، وخرج جيشه تجاه دمشق، وسارع الأفضل حاكمها بالاستنجاد بعمه العادل الذي استخدم سلاحه الأثير - أي المكيدة - لإضعاف جيش العزيز الذي كان يضم طوائف من الجنود الصلاحية (أي جنود صلاح الدين الأيوبي) والجنود الأسدية (أي جنود أسد الدين شيركوه) ونجح العادل في الإيقاع بين فرق الجيش المختلفة<sup>(٢)</sup>.

وتطور الأمر بحيث إن بعض فرق الجيش أرادت انتزاع حكم مصر من الملك العزيز، وبعثوا يطلبون من العادل سيف الدين أن يساعدهم في ذلك، وصادف هذا العرض هوىً في نفس العادل، وعندما كان النصر قريباً من جيش

(١) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٢٧١/٣). هاملتون جب: مرجع سابق (ص ٢٠٥).

(٢) أبو شامة: الروضتين (٢٣٦/٢)، ابن الوردي: تمة المختصر (١١٠/٢ - ١١١).

العادل والأفضل آثر العادل أن يرفع الحصار عن مدينة بلبس التي كانت الجيوش المتحالفة قد حاصرتها في الطريق إلى القاهرة وتم عقد الصلح وعاد الأفضل إلى دمشق. أما العادل فقد آثر أن يبقى في القاهرة بجوار ابن أخيه العزيز. وهكذا أقام العادل سيف الدين في مصر بجوار العزيز، ولكنه لم يكن ضيفاً، وإنما أخذ يتصرف كحاكم، وانتهز العادل سيف الدين الفرصة وتدخل في شئون مصر، فازدهرت أحوالها الاقتصادية<sup>(١)</sup>.

ثم حدث أن تطورت الأمور بحيث خرج العادل مع ابن أخيه العزيز على رأس جيش كبير بهدف الاستيلاء على دمشق. وفي (٢٦ رجب ٥٩٢/١١٩٥م) دخل العادل والعزيز المدينة بعد أن راسل العادل بعض الأمراء في دمشق لمساعدته بفتح أبوابها بدلاً من القتال وسفك الدماء، وسقطت المدينة دون قتال، وكان حكمها من نصيب العادل، وهكذا حقق أولى خطواته الكبرى في سبيل إعادة توحيد مملكة صلاح الدين تحت حكمه<sup>(٢)</sup>.

وفي (٢٦ رجب ٥٩٥/١١٩٨م) لقي العزيز مصرعه أثناء رحلة صيد في الفيوم، وتولى العادل الوصاية على الملك المنصور محمد بن العزيز رغم معارضة الأفضل مما كان سبباً في تأزم الأمور بين العادل وابن أخيه الأفضل حين اختار الأخير طريق الحرب، وقد تمكن بمساعدة أخيه الظاهر غازي منك حلب من فرض الحصار على دمشق، ولكن قدوم قوات الكامل ابن العادل الذي جاء لنجدة أبيه أدى إلى رفع الحصار، وتفجرت قوات الأفضل إلى مصر أمام ضغط قوات العادل، وأرسل العادل إلى ابن أخيه الأفضل رسالة قال فيها: "أنا لا أحب أن أكسر ناموس القاهرة؛ لأنها أعظم معقل الإسلام، ولا تخوجني إلى أخذها

(١) ابن الوردي: المصدر السابق (ص ١١١).

(٢) المصدر السابق (ص ١١١-١١٢).

بالسيف، واذهب أنت إلى صرخد، وأنت آمن على نفسك". وبالفعل أعلن الأفضل استسلامه وعاد إلى إقطاعه في صرخد، ودخل العادل القاهرة في ربيع الآخر (٥٦٩هـ/١٢٠٠م)<sup>(١)</sup>.

الملك العادل سيف الدين (٥٠٧-٥٦١٥هـ/١٢٠٠-١٢١٨م) وإعادة تنظيم الدولة الأيوبية:

لم يستمر العادل أتابكا للملك المنصور سوى بضعة أشهر فقط، فقد جمع الفقهاء والأمراء وقال لهم في صراحة: "إنه قبيح بي أن أكون أتابكا لصبي مع الشيخوخة، مع أن الملك ليس هو بالميراث، وإنما هو لمن غلب". فعند ذلك قطع العادل خطبة الملك المنصور، وخطب لنفسه ولولده الكامل من بعده، وهكذا وصل الملك العادل إلى عرش السلطنة، ونودي به رسمياً سلطاناً على مصر وبلاد الشام، واعترف به الجميع ما عدا الملك الظاهر غازي صاحب حلب الذي انضم إليه الأفضل في محاولة أخيرة لتثبيت حكم أبناء صلاح الدين الأيوبي، وتم نسج خيوط المؤامرة التي تمهد إلى استغلال التدهور الاقتصادي الناجم عن انخفاض مياه الفيضان سنة (٥٩٦هـ/١٢٠٠م)، وما ترتب عليها من شدة الغلاء وضعف قوة الجند، وكانت الاتجاهات الأساسية لهذه المؤامرة تقوم على أساس حصار دمشق، فإذا ما خرج العادل بجيوشه لنجدتها، يقوم الأمراء الموالون لأبناء صلاح الدين والمقيمون في مصر بالاستيلاء عليها، ولكن العادل نجح مرة أخرى في تفكيك عرى التحالف حين استخدم سلاحه المفضل، ونجحت دسائسه ضد الحلف المعادي، وبعد معارك هنا وهناك استطاع العادل محمد أن يوطد دعائم حكمه الذي استمر ثمانية عشر عاماً (٥٩٧-٥٦١٥هـ/١٢٠٠-١٢١٨م)<sup>(٢)</sup>.

(١) أبو شامة: الروضتين (٢/٢٣٦-٢٣٧).

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب (٢/٢٣٧-٢٣٨). ابن تعري بردي: النجوم الزاهرة (٦/١٤٧، ٢٢٧).

وهكذا صار لعادل سلطان البلاد جميعها، ويده منك بيت المقدس ودمشق فضلاً عن أملاكه في الجزيرة العربية. وإذا كان العادل قد نجح في توحيد الدولة الأيوبية من جديد، فإن ذلك تطلب منه إعادة تنظيم دولته، وقد استعان في ذلك التنظيم بأبنائه فأناج ابنه الكامل محمد في مصر، وجعل المعظم عيسى في دمشق، وأعطى الأشرف موسى حران، والأوحد ميفارقين، واحتفظ العادل لنفسه بالإشراف التام على جميع تلك الأثناء، و"صار ينتقل في ممالك أولاده والعمدة في كل الممالك عيه"<sup>(١)</sup>.

وقد نظر الصليبيون والغرب الأوربي إلى جهود العادل الأيوبي في توحيد الجبهة الإسلامية بعين القلق، وأخذوا يدركون أهمية مصر بوصفها القاعدة الكبرى التي اعتمد عليها الأيوبيون في نشاطهم الداخلي والخارجي، لذلك ظهرت الدعوة في الغرب الأوربي في أوائل القرن الثالث عشر لإرسال حملة صليبية ضد مصر، وهي الحملة التي عرفت في تاريخ الحروب الصليبية باسم الحملة الرابعة، والتي انخرقت إلى القسطنطينية، ولم تصل إلى مصر والسلام<sup>(٢)</sup>.

خلفاء الملك العادل:

أظهر أبناء المنك العادل الثلاثة (الكامل والمعظم والأشرف) تضامناً قوياً بعد وفاة أبيهم، وإلى ذلك التضامن يرجع الفضل في التغلب على الحملة الصليبية الخامسة، على أن هذا التحالف لم يلبث أن انقرط عقدة في نهاية سنة (١٢٢٣م) وبداية (١٢٢٤م/٦٢٠-٦٢١هـ) نتيجة لأطماع عيسى وجشعه<sup>(٣)</sup>؛ ذلك أن المعظم عيسى أراد أن يتوسع ويضيف إلى أملاكه، ولكنه بدلاً من أن يتوسع على

(١) ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة (٦: ٢٢٧).

(٢) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ٨٥).

(٣) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ١٠٢).

حساب الصليبيين، لجأ إلى العدوان على ممتلكات أخويه وأقاربه. من ذلك أنه هاجم حماة واستولى على بعض أعمالها -مثل المعرة وسلمية- وكانت حماة وأعمالها لابن عمه الناصر صلاح الدين قلع أرسلان، فغضب الأشرف والكمال لذلك، وأرسل الكامل إلى أخيه المعظم يطلب منه الرحيل عن حماة، "فتركها وهو حنق"<sup>(١)</sup>، ويبدو أن هذا الحدث كان فاتحة الخلاف بين المعظم من ناحية وأخويه الكامل والأشرف من ناحية أخرى.

والواقع أن الأيوبيين كانوا أحوج إلى الاتحاد في هذا الوقت منهم في أي وقت مضى، نتيجة لظهور خطر جديد كنتيجة مباشرة لحركة التوسع المغولي، بعد أن دمر جنكيزخان دولة الأتراك الخوارزمية سنة (١٢٢٠-١٢٢١م، ٦١٧-٦١٨هـ) وهاجم الخوارزمية إقليم جورجيا على مقربة من أملاك الملك الأشرف بن العادل الأيوبي، الأمر الذي جعل الأشرف يهرع إلى دمشق طلباً لمعونة أخيه المعظم<sup>(٢)</sup>.

ومن الواضح أن الأشرف كان أكثر إحساساً بخطر الخوارزمية؛ بحكم متاخمة بلاده في الجزيرة وخالط لهم، ولكن المعظم لم يأبه بالخطر الخارجي، وكان ما يعنيه هو تحقيق أطماعه على حساب أهل بيته، فانتهاز فرصة مجيء الأشرف إليه وقبض عليه، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تعهد له بمساعدته في الاستيلاء على حمص وحماة، ثم في مهاجمة أخيهما الثالث الكامل في مصر. وقد تعهد الأشرف بكل ذلك، ولكنه ما كاد يفلت من يد المعظم، حتى أكد تحالفه مع أخيه الكامل وأخبره بكل ما حدث<sup>(٣)</sup>.

على أن وجه الخطورة في النزاع الذي قام عندئذ بين أبناء العادل، هو أن

(١) المقريري: السلوك (١/٢١٤).

(٢) المقريري: السلوك (١/٢١٥).

(٣) سعيد عاشور: الأيوبيون والمالكيك (ص ١٠٣-١٠٤).

الفريقين المتنازعين استعانا بقوى خارجية، فاستنجد الملك المعظم بالخوارزمية، في حين استنجد الملك الكامل بالإمبراطور فردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة في غرب أوروبا. وهكذا لم يلبث أن حاصر السلطان جلال الدين الخوارزمي خلاط -عاصمة الأشرف- في يونيو (١٢٢٦م/٥٦٢٣هـ)، كما أرسل جلال الدين إلى المعظم "خلعة لبسها وشق بها دمشق وقطع الخطبة للملك الكامل"<sup>(١)</sup>، فاستعد الملك الكامل لنزحف على الشام، مما أُنذِرَ باشتعال الحرب في العالم الإسلامي في سبتمبر سنة (١٢٢٧م/٥٦٢٤هـ).

### سقوط الدولة الأيوبية وأسبابها:

وفي ظل الصراع داخل البيت الأيوبي -أرقى البيوتات الحكمة في ذلك الوقت- بدأت تظهر الأنماط العجيبة للتحالفات التي يجريها المسلمون، والتي رأيناها على طول تاريخهم قهرهم بأكثر مما يهزمهم أعداؤهم، فتكوّن حلفٌ إسلامي صيني عام (١٢٤٣م) كان على جانبه الإسلامي أصحاب دمشق والكرك وحمص ضد الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر (ابن الكامل وحفيد العادل شقيق صلاح الدين) على الجانب الآخر.

وفي مقابل موافقة الصليبيين على معاونة هؤلاء المسلمين ضد الصالح نجم الدين أيوب تنازل صاحب دمشق لهم عن قبة الصخرة والمسجد الأقصى حتى تَخَلَّصَ لهم تماماً، فما كان من الصالح نجم الدين أيوب؛ ردًا على هذا الحلف إلا أن بعث بجيش نجح في استرداد القدس (١٢٤٤م)<sup>(٢)</sup>.

وكان استرداد المسلمين للقدس سبباً في إرسال أوروبا الحملة الصليبية

(١) المقريري: السلوك (١/٢١٥).

(٢) نادية مصطفى وآخرون: الدولة العاسية من التحلي عن سياسات الفتح إلى السقوط. المعهد العالي

لفكر الإسلامي. ط. القاهرة ١٩٩٦م. (ص ١٤٣).

السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا والتي انتهت سنة (١٢٥٠/٥٦٤٨م) بأسر لويس التاسع نفسه وتيديد فرسان جيشه بين قتيل وأسير، وانتهت بجزية قاسية أوقعها به الجيش المصري. وفي تلك الأثناء توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب، وتولى بعده ابنه توران شاه بمساعدة زوجة أبيه شجرة الدر، ثم وثب المماليك على الحكم، وقتلوا توران شاه آخر رجال العصر الأيوبي، وكانت وفاته بمثابة إفساح الطريق لظهور قوة المماليك.

لقد أدى صلاح الدين دوره على خير وجه، وبقيت الدولة الأيوبية التي تنسب إليه تؤدي دورها قريبا من ستين سنة، لكن الحكام الذين جاءوا بعده كانوا أقل منه، فلم يستطيعوا لعب الدور الذي لعبه. وكان بعضهم متخاذلاً يؤمن بإمكانية المفاوضات مع العدو الصليبي التاريخي، كالمملك الكامل الذي استجلب سخط العالم الإسلامي كله، حين قام بتسليم القدس للصليبيين، وقد تمكن الصالح أيوب الذي جاء بعده من استردادها.

ومن الغريب أن هذه الدولة التي بدأت بعظيم من أعظم الرجال هو صلاح الدين، وانتهت بملك عظيم كذلك هو الملك الصالح، كانت نهايتها على يد امرأة مملوكة من هؤلاء اللائي يظهرون في عصور الضعف ويساعدن على سقوط الدول. إنها واحدة من هؤلاء النسوة القويات اللائي يُجدن اللعب في خفاء القصور، متجردات من كل خصائص الأنوثة الحقيقية، مستغلات مظاهر هذه الأنوثة في القتل والتدمير. إنها شجرة الدر، التي قتلت ابن زوجها (توران شاه) لكي تنفرد بالحكم، ثم شربت من نفس الكأس حين قتلها المماليك أخذاً بثأر زوجها.

وعجبا! لقد قضي على الدولة التي قامت على أكتاف واحدٍ من أعظم الرجال، على يد مملوكة.

## حضارة الأيوبيين

لم يقتصر نشاط الأيوبيين على الناحية العسكرية فقط، بل كان لهم نشاط ملحوظ في النواحي الحضارية المختلفة.

### نظم الحكم والإدارة:

أ- **السلطان:** هو على رأس الدولة، ومن الثابت تاريخياً أن صلاح الدين لم يتخذ لقب (سلطان) رسمياً، وإن كان بعض المؤرخين قد أضفوا عليه هذا اللقب الذي تمسك به خلفاؤه من الأيوبيين الذين تعاقبوا في الحكم<sup>(١)</sup>.

ب- **نائب السلطان:** استحدثه صلاح الدين الأيوبي بسبب كثرة تغييه عن مصر في جهاده في الشام، فصار عليه أن يترك شخصاً يعتمد عليه في حكم مصر وإدارة شئونها أثناء غيابه، وقد استمرت هذه الوظيفة قائمة عد ذلك طيلة العصر الأيوبي. ومن الواضح أن إنشاء وظيفة نائب السلطان في العصر الأيوبي أضعف من أهمية الوزير؛ حيث أصبح الوزير "وزير تنفيذ" لا غير بالمقارنة إلى ما كان للوزير من شأن كبير في العصر الفاطمي<sup>(٢)</sup>.

ج - **وظائف البلاط:** من الوظائف الهامة في الدولة الأيوبية وظيفة الخاحب الذي كان يقوم بإدخال الناس على السلطان، ووظيفة الدوادار الذي يقوم بإبلاغ الرسائل ورفع القصص إلى السلطان والحصول على توقيعه على المراسيم والناشير، ووظيفة الأستاذار الذي ينظر في إدارة البيوت السلطانية، ووظيفة ناظره الخاص المكلف برعاية شؤون السلطان المالية<sup>(٣)</sup>.

د- **الدواوين:** كان بمصر عدد كبير من الدواوين مثل ديوان الإنشاء، وديوان

(١) سعيد عاشور: الأيوبيون والمالكي في مصر والشام. ط ٢. دار النهضة العربية القاهرة ١٩٧٦م. (ص ١٧١).

(٢) المرجع السابق: (ص ١٧١-١٧٢).

(٣) المرجع السابق (ص ١٧٣).

بيت المال، وديوان الجيش، ولكل ديوان من هذه الدواوين ناظر أي رئيس، وميزانية خاصة، وعدد من الموظفين يتبعون الناظر، وينفذون أوامره.

هـ- وظائف إدارية أخرى بعضها ذات صبغة دينية مثل قاضي القضاة والمحاسب، وجدير بالذكر أن صلاح الدين الأيوبي كان شافعياً، وظل الشافعية يتمتعون بذلك التكريم حتى أوائل دولة المماليك عندما عين السلطان الظاهر بيبرس قاضياً للقضاة من كل مذهب، فأصبح عددهم أربعة يمثلون المذاهب السنية الأربعة. وبعض هذه الوظائف إدارية فقط مثل ولاية الأقاليم<sup>(١)</sup>.

### ظاهرة حضارية

#### التعاون بين أولي الأمر والعلماء في العصر الأيوبي

##### (نموذج للتشاور بين أهل الحل والعقد)<sup>(٢)</sup>

من الجدير بالذكر أن عدداً من الدعاة والعلماء في العصر الأيوبي قد شاركوا في الحياة السياسية والجهاد ضد العدو الصليبي، وقد تعاون هؤلاء الدعاة والعلماء مع عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، وكان على رأس هؤلاء المؤرخ بماء الدين أبوالمحسن يوسف بن شداد (٥٣٩-١١٤٥/٥٦٣٢م)، والفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد الحكاري (ت ٥٨٥/١١٨٩م)، والمؤرخ المعروف عبدالله محمد الأصفهاني المعروف بالعماد الكاتب (٥١٩-٥٩٧/١١٢٥-١٢٠٠م) الذي كان قلمه - كما يصفه المؤرخون - أشد وأنكى على الصليبيين من سيوف المجاهدين، إذ به جمع صلاح الدين عساكر المسلمين، وبأسلوبه البليغ المؤثر ألف بين قلوبهم، وحبب الاستشهاد إلى نفوسهم، وآية ذلك

(١) ابن ممتي: قوانين الدواوين. تحقيق عزيز سوريال عطية. سسنة صفحات من تاريخ مصر عدد (١٢).

مكتبة مدبولي - القاهرة ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

(٢) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، (ص ١٤٩).

قوله: "وكان يأمرني بإجابة كتب المنوك في حالة سلمهم وحرهم. وما اجتمعت هذه العساكر الإسلامية إلا بقلمني"، وشهد مؤرخو العرب للعماد الكاتب بالصفات الحميدة، ووصفوه بالتدين ونبيل الخلق<sup>(١)</sup>.

ويعد أبو علي محيي الدين عبدالرحيم بن علي البيساني العسقلاني (٥٢٦-٥٩٦هـ) (١١٣٥-١١٩٩م) - المعروف بالقاضي الفاضل - من أشهر من وقفوا مع صلاح الدين الأيوبي في ميدان التعاون على صلاح الدين والدنيا وتحقيق النصر، وكان القاضي الفاضل يتميز بأنه موضع ثقة صلاح الدين ومستشاره الأمين، ومن ذلك ما يروى من أن صلاح الدين كتب إلى القاضي الفاضل وهو على حصار عكا عام (٥٨٦هـ/١١٩٠م)، يشكو إليه مسلك أمراء المسلمين معه، وضحجهم من ضور الإقامة للجهاد، فرد عليه القاضي الفاضل ناصحاً بسعة الصدر معهم، ورأى أن يكون إلى حوار صلاح الدين، ناصحاً ومشيراً ومسكناً لثورة الأمراء، فغادر القاهرة فوراً إلى عكا فوصلها في يناير سنة (١١٩١م/٥٨٧هـ)<sup>(٢)</sup>.

ولم تكن تلك المشورة مقصورة على شؤون الدولة والحكم، بل تعدتها إلى شؤون صلاح الدين الخاصة، ومنها أن صلاح الدين عزم على الحج والزيارة بعد عقد صلح الرملة (٥٨٨هـ/١١٩٢م)، فأشار عليه القاضي الفاضل بتأجيل ذلك إلى سنة أخرى لأسباب عرضها عليه، مؤيداً إقناعه بفتوى دينية نصها: "إن الانقطاع لكشف مظالم الخلق أهم من كل مما يتقرب به إلى الله"<sup>(٣)</sup>.

ومن هذه النماذج - وغيرها كثيرٌ جداً - يتأكد لنا أن التعاون كان كاملاً بين علماء الدين ورجال الدعوة والفكر، وبين الأمراء والقادة. وكان نتيجة هذا

(١) نظير حسان سعداوي: المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٢ (ص ٢٧).

(٢) المرجع السابق (ص ٣١).

(٣) المرجع السابق (ص ٣٢).

التعاون الانتصارات المعروفة التي حققها الأبطال الثلاثة عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، رحم الله الجميع وجزاهم عن الإسلام خيراً. النظم الحربية:

١- الجيش: انقسم الجيش الأيوبي إلى عدة عناصر هي: (الطواشية)، أي: الفرسان، وكل منهم مزود بمتاع من الخيل ونحوها، ولكل منهم غلام يحمل سلاح الحرب، وكان عددهم في عهد صلاح الدين الأيوبي ٦٩٧ غلاماً مقابلاً. ثم (القرغلامية) أي الجنود العاديون، وكان عددهم في عهد صلاح الدين (١١٥٣) جندياً، هذا عدا الجنود المشاة وجنود العربان الملحقين بالجيش، وكان عدد الأمراء الفرسان في الجيش الأيوبي (١١١) أميراً، بالإضافة إلى الجيش الدائم. وقد ضم صلاح الدين للجيش الأيوبي فرقا مساعدة من التركمان والأكراد والعرب، وهؤلاء كانوا بمثابة جند غير نظاميين، يعملون مقابل ما يتقاضونه من أجور وإن كانوا لم يقلوا - في حالات كثيرة - عن الجند النظاميين حماسة ورغبة في الجهاد. وكان للسلطان مجلس حرب يستشير به في الخطط العسكرية، ويأخذ برأيه<sup>(١)</sup>. أما عن تعبئة الجيش الأيوبي فكان ينقسم إلى (أطلاب)، كل طلب يتكون من عدد يتراوح بين (٧٠)، (٢٠٠) جندي، وعلى رأس كل طلب أمير، أي: (ضابط). وعند المسير إلى القتال توزع الأسلحة والزراد والنفقات على الجند على أن يستحضر كل جندي ما يلزمه من كميات المؤن<sup>(٢)</sup>. كانت أسلحة الجيش الأيوبي تتكون من السهام والرماح والنبال والنار الإغريقية<sup>(٣)</sup>.

٢- الأسطول:

أما عن الأسطول فقد لمس صلاح الدين بنفسه خلال الدور الأول من حياته

(١) المقريري: السلوك (٧٥/١).

(٢) أبو شامة: الروضتين (٢٧١/١٠).

(٣) المصدر السابق (٧٥/١).

بمصر الحالة السيئة التي كان عليها الأسطول المصري مما كان سبباً في توغل الصليبيين داخل البلاد الشامية والمصرية وتهديد الأراضي المقدسة الحجازية؛ ولذلك اهتم صلاح الدين بالأسطول اهتماماً بالغاً. فعهد إلى ديوان الأسطول بالإشراف والإنفاق عليه، وخصص لذلك الديوان موارد هامة مثل: متحصلات إقليم الفيوم، وإيراد ديوان الزكاة وغيرها<sup>(١)</sup>. وبفضل هذه الإمكانيات، غدا الأسطول الصلاحي منذ (٥٧٥/١١٧٩م) قوة ضاربة قوامها ثمانون قطعة، ومنها ستون من الشواني، وهي المراكب الضخمة المزودة بالأبراج والقلاع التي تحمل الواحدة منها (١٥٠) رجلاً وتصلح في حالات المحوم والدفاع<sup>(٢)</sup>، وعشرون طراداً وهي سفن سريعة الحركة تحمل الخيل والمؤن وغيرها<sup>(٣)</sup>.

### وقسم صلاح الدين الأسطول قسمين:

الأول: يتألف من ثلاثين سفينة مهمتها حماية شواطئ مصر والدفاع عنها.  
والثاني: يتألف من ثلاثين سفينة مهمتها مهاجمة الصليبيين وموانئهم بالشام<sup>(٤)</sup>.

النظم الاقتصادية:

أ- النظم الزراعية:

اعتمدت الزراعة في مصر في العصر الأيوبي على ريّ الخياض، بمعنى تقسيم الأراضي الزراعية إلى حياض كبيرة تعمر بمياه الفيضان مدة كافية، ثم تصرف تلك المياه لتبذر البذور وقد أدى اتباع هذه الطريقة إلى جعل البلاد والعباد تحت رحمة الفيضان، فإذا جاء مستوى الفيضان طبيعياً تمكن الناس من زراعة الأرض في اطمئنان، وظهر المحصول طبيعياً في مقداره وأثمانه. أما إذا جاء الفيضان منخفضاً

(١) حسين محمد ربيع: النظم المالية (ص ٧١).

(٢) ابن ماضي: قوانين الدواوين (١/٣٤٠).

(٣) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ١٨٠-١٨١).

(٤) ابن ماضي: قوانين الدواوين (ص ٢٣٩).

فمعنى ذلك ضعف المحصول وارتفاع أسعار الغلال مما يترتب عليه حدوث المجاعات وانتشار الأوبئة في البلاد<sup>(١)</sup>.

ولا ينتظر في مثل هذه الأوضاع أن يحيا الفلاح حياة آمنة مستقرة، طالما كان تحت ضغط الظروف الطبيعية من ناحية، وتحت ضغط الحكام من ناحية أخرى، ولئن كانت الظروف الطبيعية تأتي على غير ما يشتهي الفلاح حيناً، وتأتي طيبة أحياناً، فإن الحكام كانوا لا يرحمونه في الغالب، فأنقلوا عليه الالتزامات والرسوم، ولم يتهاونوا في جمع المفروض عليه من ضرائب وأموال. ومن الضرائب التي فرضت على الفلاحين في ذلك العصر الخراج وشد الأعباس فضلاً عن الزكاة<sup>(٢)</sup>.

ولا أدل على عناية الأيوبيين بشؤون الزراعة وأهميتها لحياة مصر وشعبها من عنايتهم الفاتكة بعمارة القناطر والجسور، حتى إن صلاح الدين الأيوبي عهد إلى الأمير قراقوش الأسدي بذلك<sup>(٣)</sup>.

ب - الصناعة:

ازدهرت في مصر في العصر الأيوبي عدة صناعات أهمها: صناعة النسيج. وهناك أنواع معينة من المنسوجات المصرية أحرزت شهرة عالمية وبخاصة في غرب أوروبا في العصر الأيوبي مثل قماش الفستيان **Fustian** الذي نسب إلى الفسطاط. ومن أهم مراكز صناعة المنسوجات تنيس ودمياط والبهنسا وإخميم، وفيها جميعاً صنعت أفخر المنسوجات الحريرية والكتانية والقطنية والصوفية<sup>(٤)</sup>.

كما اشتهرت مصر باستخراج الزيوت من بذور السمسم والكتان

(١) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ١٥٨).

(٢) ابن ممتى: قوانين الدواوين (ص ٣٠٨-٣١٥).

(٣) المقريري: المواعظ والاعتبار (١/١٥١).

(٤) المقريري: الخطط (١/١٠٢).

وغيرهما، وقد استخدمت بعض هذه الزيوت في صناعة الصابون<sup>(١)</sup>.

هذا وقد ازدهرت في مصر في العصر الأيوبي صناعة السكر من القصب؛ إذ كانت مصر تنتج عندئذ كميات ضخمة من السكر يستهلك بعضها داخل البلاد ويصدر الباقي إلى الخارج، وقد اتبعت الدولة الأيوبية سياسة الاحتكار في عصر السكر، فحتمت على المشتغلين بهذه الصناعة عصر القصب في معاصرها العديدة المنتشرة في كافة أنحاء البلاد<sup>(٢)</sup>.

كذلك فرضت الحكومة الأيوبية على الصناع وعلى الإنتاج الصناعي بعض الضرائب مثل الرسوم المفروضة على منتجات دار الطراز، وما يخص برسم أجرة الصناع الذين يعملون في خزائن السلاح<sup>(٣)</sup>.

### ج - التجارة:

نشطت التجارة بين الشام ومصر في العصر الأيوبي.

ولئن كانت سيطرة الصليبيين على حصن كرك والشوبك بالأردن قد مكنتهم في أول الأمر من اعتراض طريق القوافل المنتقلة بين الشام ومصر والحجاز، فإن صلاح الدين الأيوبي لم يسكت على ذلك التهديد حتى انتهى الأمر بالاستيلاء على حصن الشوبك والكرك جميعاً، وتأمين طرق القوافل بين الشام ومصر والحجاز<sup>(٤)</sup>.

هذا وقد نشطت حركة التجارة بين المسلمين والصليبيين في الفترات التي كان القتال يتوقف فيها، ويؤكد ذلك ما ذكره ابن جبير في رحلته من أن "أعجب ما يحدث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج وسبيهم

(١) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ١٦٢-١٦٣).

(٢) المقرئزي: الخطط (١/١٠٢). سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ١٦٣).

(٣) ابن مماتي: قوانين الدواوين (ص ٦٠٥).

(٤) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ١٦٤).

يدخل إلى بلاد المسلمين"، ثم شرح ابن جبير كيف أنه غادر دمشق في قافلة إسلامية للتجار متجهة إلى مدينة عكا الصليبية "وهي قاعدة مدن الإفرنج بالشام" نزلت في خان معد خصيصا لنزول القوافل الإسلامية<sup>(١)</sup>.

ومن المعروف أيضًا أن الحروب الصليبية أدت إلى ازدياد النشاط التجاري بين الشرق والغرب، وأن القوى الإيطالية -بيزا والبندقية وجنوة- رأت في تلك الحروب فرصة لتدعيم نشاطها التجاري مع البلدان العربية، لذلك ازدادت تجارة مصر الخارجية في العصر الأيوبي وقصد التجار الإيطاليون ثغري دمياط والإسكندرية لشراء الكثير من حاصلات الشرق، ولم تفلح المراسيم التي أصدرتها البابوية لمنعهم من التعامل مع المسلمين<sup>(٢)</sup>.

أما عن التجارة الداخلية فكانت نشطة هي الأخرى حتى إن الرحالة ابن جبير وصف مدن مصر في العصر الأيوبي -مثل منفلوط وأبي تيج وغيرهما- بأن "فيها الأسواق وسائر ما يُحتاج إليه من المرافق"<sup>(٣)</sup>. وتشهد كتب الحسبة على مدى النشاط التجاري الداخلي في العصر الأيوبي، وعلى ما كان هناك من إشراف دقيق على الأسواق والباعة<sup>(٤)</sup>.

الحياة العلمية والفكرية:

اشتهر معظم سلاطين الدولة الأيوبية بجهم للعلم والعلماء، فكان صلاح الدين الأيوبي يجمع حوله رجال العلم، ويحضر مجالسهم ليستمع إليهم ويشاركهم في أبحاثهم<sup>(٥)</sup>. أما العزيز عثمان الذي خلف أباه صلاح الدين في السلطنة فقد قال

(١) ابن جبير: الرحلة. نشر دار صادر بيروت ١٩٦٤م (ص ٢٧١-٢٧٦).

(٢) أبو شامة: الروضتين (١/٦٢).

(٣) ابن جبير: الرحلة (ص ٣٥).

(٤) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ١٦٦).

(٥) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ١٤٨).

عنه ابن خلكان إنه "سمع الحديث من الحافظ السلمي والفقير أبي طاهر بن عوف الزهري، وسمع بمصر من العلامة أبي محمد بن بري النحوي وغيرهم"<sup>(١)</sup>. ومثل ذلك يقال عن بقية سلاطين الدولة الأيوبية، وبخاصة السلطان الكامل الذي قال عنه المقرئزي: "وكان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم عنده" وشغف بسماع الحديث النبوي، وكان يناظر العلماء وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها، فمن أحاب عنها قدمه وحظي عنده. وكان عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريريه ليسامروه"<sup>(٢)</sup>.

لذلك لا عجب إذا اشتهر من بني أيوب أنفسهم أعلام في مختلف ضروب المعرفة، منهم المؤرخ الشهير أبو الفداء، وهو إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م) وهو صاحب كتاب (المختصر في أخبار البشر). ومنهم بمرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك (ت ٦٢٨هـ/١٢٣٠م)، وكان شاعراً أديباً. والملك الناصر بن الملك المعظم عيسى (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وكان مشغولاً بتحصيل الكتب النفيسة ويميز الأدباء.

والملك المؤيد الأيوبي صاحب اليمن (ت ٧٢١هـ/١٣٢١م)، وكان من أهل العلم واشتملت خزانته على مائة ألف مجلد. والملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق (ت ٦٢٤هـ/١٢٢٦م)، وكان راغباً في الأدب وأهله، حتى إنه كان يعطي لكل من يحفظ (المفصل للزحشري) مائة ألف دينار وخلعة<sup>(٣)</sup>.

وإذا كانت هذه رغبة سلاطين بني أيوب في العلم فإننا لا نعجب لكثرة ما أسسوه من مدارس درست فيها العلوم الدينية وغير الدينية، وصارت مراكز لحياة

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق د. إحسان عباس. دار الفكر، ودار صادر بيروت ١٩٧٧-١٣٩٧هـ (١/٣١٥).

(٢) المقرئزي: السوك (١/٢٥٨).

(٣) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ١٤٩).

علمية نشطة في العصر الأيوبي، وقد بدأ صلاح الدين الأيوبي بإنشاء مدرستين في حياة الخليفة العاضد الفاطمي (المدرسة الناصرية) لتدريس المذهب الشافعي، والمدرسة القمحية -نسبة إلى القمح الذي كانت تحصل عليه من الوقف الذي وقفه عليها صلاح الدين- لتدريس فقه المالكية. وعندما سقطت الخلافة الفاطمية أنشأ صلاح الدين ثلاث مدارس أخرى، وبذلك صار عدد المدارس التي بناها بالقاهرة خمس مدارس، بخلاف ما أقامه من مدارس في دمشق والقدس<sup>(١)</sup>.

ولا يخفى أن المدارس كانت تدرس فيها العلوم الدينية. لذلك قصد سلاطين الدولة الأيوبية بتأسيسها التقرب إلى الله وكسب الثواب. ومن أهم هذه المدارس المدرسة الكاملية التي أنشأها السلطان الكامل سنة (٥٦٢١/١٢٤٤م) والمدرسة الصالحية التي بناها الصالح نجم الدين أيوب سنة (٥٦٣٩/١٢٤١م)، وكانت هذه المدرسة الأخيرة أول مدرسة تجمع بين مذاهب السنة الأربعة<sup>(٢)</sup>.

وكانت المدارس في ذلك العصر أشبه بجامعات، فهي معاهد للتعليم العالي ولكل مدرسة مذهبها الذي تتبعه، وإن كان بعضها يشمل أربع كليات للمذاهب الأربعة، وإذا كان المفروض في المدرسة أن تكون مركزاً للعلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير وغيرها، فإن الوضع لم يلبث أن تطور حتى غدت المدارس مراكز لتدريس النحو والفلسفة والعلوم الطبيعية، فضلاً عن العلوم الدينية<sup>(٣)</sup>.

والمعروف أن المدارس والجامعات لا يبد لها من مكاتب مناسبة يرجع إليها المدرسون والطلاب، ويعتمدون عليها في التحصيل والاستزادة؛ لذلك عني الأيوبيون عناية كبيرة بالمكاتب، فهناك مكتبة السلطان الكامل بالقلعة، وكانت في الأصل مكتبة للقاضي الفاضل ثم آلت إلى ابنه الأشرف أحمد حتى أمر السلطان

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٢٥/١١). المقرئ: المواعظ والاعتبار (١٩٣/١).

(٢) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ١٥١-١٥٢).

(٣) أحمد شلي: تاريخ التربية الإسلامية (ص ١٠٢-١٠٣).

الكامل بوضع اليد عليها ونقلها إلى القلعة لتصبح نواة مكتبة كبرى ضمت ثمانية وستين ألف مجلد، وقد تم نقلها إلى القلعة عام (٥٦٢٦هـ/١٢٣١م)<sup>(١)</sup>.

وبالإضافة إلى المدارس والمكتبات وجدت في العصر الأيوبي كتابات لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن، وقد أنشأ صلاح الدين عددا من هذه الكتابات لتعليم أبناء الفقراء والأيتام خاصة، وقد أشاد بذلك الرحالة ابن جبير<sup>(٢)</sup>. وقد أوقف سلاطين الدولة الأيوبية أوقافا كثيرة للصرف بسخاء على المدارس والمكتبات<sup>(٣)</sup>.

**الأدب:**

لقد نشطت الحياة الأدبية في العصر الأيوبي، وإن كانت الأحداث التي ألمت بالعالم الإسلامي - وخاصة ما أصاب المسلمين على أيدي الصليبيين - قد صبغت الأدب صبغة خاصة، فكسدت سوق الشعر، واتجهت القرائح إلى الأدعية، ومدح الرسول ﷺ، وكذلك المعاني الصوفية. ومن أشهر شعراء مصر في العصر الأيوبي ابن سناء الملك المصري (ت ٥٦٠٨هـ/١٢١١م) وقد استكثر من الموشحات وأجاد فيها، وكمال الدين بن النيه المصري (ت ٥٦١٩هـ/١٢٢٢م)، وغيرهما.

**النثر:**

أما النثر في العصر الأيوبي فاتصف بإتقان الصناعة اللفظية والتفنن في البديع والجناس والسجع والمبالغة في الترميق. كما يبدو ذلك بوضوح في كتابه العماد الأصفهاني وخاصة كتابه (الفتح القدسي) الذي أرخ فيه لاستيلاء صلاح الدين على

(١) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ١٤٩).

(٢) ابن جبير: الرحلة (ص ٣٧).

(٣) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ١٥٤).

بيت المقدس، ومن أعلام ذلك العصر القاضي الفاضل (ت ٥٩٦هـ/١١٩٩م).  
علوم اللغة:

أما اللغة وخاصة النحو والصرف، فقد اشتهر من علماء اللغة آنذاك أبو محمد  
بن بري (ت ٥٨١هـ/١١٨٥م)، وأبو الفتح البلطي (ت ٥٩٦هـ/١١٩٩م)، وابن  
عبد المعطي الزواوي (٥٦٢٨هـ/١٢٣٠م)، وابن الحاجب (ت ٥٦٤٦هـ/١٢٥٠م)<sup>(١)</sup>.  
التاريخ:

أما عن التاريخ فقد شهد نشاطاً ملحوظاً في العصر الأيوبي، فاتجه بعض  
المؤرخين نحو كتابة موسوعات في تاريخ الدولة الإسلامية، واتجه آخرون نحو  
شرح تراجم العظماء وتدوين مآثرهم، في حين عني القسم الأكبر من المؤرخين  
بذكر أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين، ومن مؤرخي ذلك العصر  
أبو علي الجواني المصري (ت ٥٨٨هـ/١١٩٢م) وله شجرة رسول الله ﷺ في  
النسب النبوي، والملك المعظم عيسى الأيوبي (ت ٦٣٩هـ/١٢٤١م)، وجماء الدين  
بن شداد صاحب سيرة صلاح الدين المعروفة (بالنواذر السلطانية)، وقد توفي سنة  
(٦٣٢هـ/١٢٣٤م)، وشهاب الدين أبوشامة (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٩م) صاحب كتاب  
الروضتين وغيرهم الكثير<sup>(٢)</sup>.

(١) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ١٥٥-١٥٧).

(٢) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ١٤٩).

## خلاصة الوحدة الخامسة

قامت الدولة الأيوبية على أنقاض الخلافة العباسية التي ظلت قائمة بدون فعالية حتى أسقطها المغول.

أسس صلاح الدين دولته على أساس من الوحدة الأخلاقية للعالم الإسلامي، وكانت شخصيته تحمل من المناقب والسجايا والقدرات ما يؤهله لبناء هذه الدولة التي امتدت من كردستان وديار بكر حتى اليمن.

ولقد قضى صلاح الدين على كل من حاول أن يستغل مثاليته الأخلاقية، وكل من عارضه في تحقيق هدفه الأسمى وهو الجهاد ضد الصليبيين. ولقد نجح في تقليص الوجود الصليبي على أرض فلسطين نجاحًا منقطع النظير.

حرص صلاح الدين الأيوبي على إلغاء الرسوم والضرائب الظالمة في كل مكان خضع لحكمه.

بوفاة صلاح الدين الأيوبي توارت عن الحياة شخصية ظلت مرء العين والقلب والهيبة من جميع المعاصرين؛ أعداء كانوا أم أصدقاء، لكنه بقي في التاريخ رمزاً للإيمان والعزيمة وإخلاص والقدرة على توحيد الأمة.

ولقد أحدثت وفاة صلاح الدين فراغاً سياسياً كبيراً في المنطقة التي كانت تعاني من الظروف نفسها التي كانت قبل صلاح الدين.

قسم صلاح الدين دولته الشاسعة بين أبنائه وإخوته وبني عمومته وأبنائهم، وكانت نتائج هذا التقسيم مريرة، تُمثت في عدد من المشاحنات والمنازعات

والحروب الداخلية بين أبناء الأسرة الأيوبية، وعادت المنطقة العربية تعاني من جديد مرارة النزاع والتشرذم السياسي.

فقدت هذه الدولة مبررات وجودها منذ أن أخذ ملوك بني أيوب وسلطانهم يعزفون عن مهاجمة الصليبيين ولجأوا إلى سياسة المهادنة والتعايش السلمي.

ومن الأمور اللافتة للنظر في هذا السبيل أن الحروب التي خاضها الأيوبيون ضد الصليبيين بعد صلاح الدين كانت معظمها حروباً دفاعية، تأتي ردّاً فعل للهجمات أو الحملات التي شنتها الصليبيون ضد المسلمين في مصر والشام.

وفي خضم أحداث الحملة الصليبية السابعة برزت قوة جديدة أثبتت قدرتها على التصدي للصليبيين، وعلى قيادة المنطقة العربية الإسلامية في مواجهتهم وتلك هي قوة المماليك.

## اختبار الوحدة الخامسة

أولاً: أسئلة الصواب والخطأ:

- ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (x) أمام العبارة الخاطئة فيما يأتي:
- ١- ينسب صلاح الدين الأيوبي إلى الجنس التركي.
  - ٢- خدم صلاح الدين الأيوبي في شبابه مع عمه نور الدين في حلب.
  - ٣- تولى صلاح الدين وظيفته كرئيس للشرطة في دمشق في الثلاثين من عمره.
  - ٤- عمل صلاح الدين على نشر المذهب الشافعي في مصر.
  - ٥- اغتال صلاح الدين كبير حاشية قصر الخليفة المسمى: "مؤمن الخلافة".
  - ٦- لم يمنع صلاح الدين صلاة الجمعة في الجامع الأزهر وجامع الحاكم إلا لمدة شهرين.
  - ٧- فتح قائد صلاح الدين المسمى قراقوش برقة بأمر من نور الدين محمود.
  - ٩- تحرك صلاح الدين إلى الشام تحت شعار إنقاذ الملك الصالح من أطماع الأمراء.
  - ١٠- استطاع صلاح الدين توحيد الجبهة في الشام والجزيرة الفراتية تحت قيادته.
  - ١١- توفي صلاح الدين الأيوبي وهو في السابعة والخمسين من عمره.
  - ١٢- يعد "صنح الرملة" من عوامل التفكك بين أبناء البيت الأيوبي.
  - ١٣- أوصى صلاح الدين من بعده بالسلطنة لأحد إخوته.
  - ١٤- لعب العادل سيف الدين دوراً كبيراً في سبيل توحيد الدولة الأيوبية.
  - ١٥- كانت سياسة العادل تعتمد إلى حد كبير على المواجهة العسكرية.
  - ١٦- دَبَّ النزاع بين أبناء الملك العادل بعد وفاته بسبب ابنه المعظم.
  - ١٧- يعدّ توران شاه آخر رجال العصر الأيوبي.
  - ١٨- كانت وظيفة الدوادار: أن يُدخل الناس إلى السلطان.
  - ١٩- كان هناك تعاون وثيق بين علماء الدين والدعوة وبين الأمراء والقادة الأيوبيين.

٢٠- ازدهرت صناعة النسيج في مصر في العصر الأيوبي.

ثانيًا: أسئلة الاختيار من متعدد:

أ- أرسل نور الدين محمود إلى مصر:

- حملة. - حملتين. - ثلاث حملات.

ب- نشأت الدولة الزنكية على حساب:

- السلاجقة. - المماليك. - الأيوبيين.

ج- كان من شروط صلح الرملة:

- أن يحتفظ الصليبيون بمنطقة الساحل من عكا إلى يافا.

- أن تكون عسقلان وما يليها ملكاً لصلاح الدين الأيوبي.

د- قائد الحملة الصليبية السابعة هو:

- فردريك بربروسا. - لويس التاسع. - ريتشارد قلب الأسد.

هـ- قائد الحملة الصليبية الثالثة هو:

- فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا.

- ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا.

- فيليب ملك فرنسا.

ثالثًا: الأسئلة المقالية:

١- اكتب ما تعرفه عن:

- تسليم السلطان الكامل مدينة القدس للصليبيين.

- الحملة الصليبية الثالثة وجهاد صلاح الدين ضدها.

- خلفاء صلاح الدين وسياستهم وأثرها على الدولة الأيوبية.

٢- اكتب مذكرات مختصرة حول:

- أهم نتائج معركة حطين.

- جهود صلاح الدين في توحيد الجبهة الإسلامية.

- وفاة صلاح الدين وتقسيم دولته.

٣- تحدث بالتفصيل عن:

- توطيد صلاح الدين لسلطانه في مصر.

- كيف تم إلقاء الخلافة الفاطمية.

- أيام الأيوبيين الأخيرة.

رابعاً: الأسئلة الحوارية:

١- إذا قال لك صديق: إن صلاح الدين كان قاسياً في معاملة أعدائه. فماذا تقول له؟

٢- إذا قال لك صديق: إن منجزات صلاح الدين ضد الصليبيين لم تكن عظيمة.

فماذا تقول له؟

٣- إذا قال لك صديق: إن الحملة الصليبية السابعة لم تكن سبباً في سقوط دولة

بني أيوب. فماذا تقول له؟

٤- إذا قال لك صديق: إن الملك العادل سيف الدين لم يكن سياسياً داهية. فماذا تقول له؟

٥- إذا قال لك صديق: إن البابوية لم يكن لها دور في تحريك الحملات الصليبية

المتجهة إلى الشام. فماذا تقول له؟

خامساً: الأسئلة التحليلية:

أ- كيف انتصر صلاح الدين في معركة حطين؟

ب- ما الظروف التي قامت فيها الدولة الأيوبية؟

ج- كيف كانت الحملة الصليبية السابعة سبباً في سقوط دولة الأيوبيين؟

د- كيف كانت وفاة صلاح الدين إيذاناً بتدهور دولة بني أيوب؟

هـ- ما ظروف بيت المقدس بعد وفاة صلاح الدين؟

## النشاط التعليمي للوحدة الخامسة

عزيزي الدارس: حتى تكتسب المزيد من المعلومات حول موضوعات هذه الوحدة عليك بإنجاز النشاط التعليمي التالي:

أ- أعدّ بحثاً عن (تطورات الصراع الأيوبي الصليبي) بعد وفاة صلاح الدين.

ب- اكتب مقالاً تجمع فيها أبعاد موضوع (الصراع الإسلامي الصليبي في مصر قبل قيام الدولة الأيوبية).

ج- تناقشْ مع زملائك حول: جهود صلاح الدين في توحيد الجبهة الإسلامية قبل وبعد وفاة نور الدين محمود.





## الوحداء الساداء

### الدولة المملوكية

مبراءاء دراسة الوحداء:

كان المماليك أمشاجًا مآرفاء، جمعا الأيوبون من بلاد مسيحية ووثنية مآرفاء، ثم قام الأيوبون بآرباءهم آربية إسلامية عسكرية، قائماء على الولاء للدين وللآهاد. وهكذا نشأت ظاهرة مآرفاء تؤمن بالإسلام آبا وأمًا، وبالآهاد آريقًا للآياة.

وهي آبرية لها حسناآها الكآيرة، ولها سلبياآها أيضًا، كما أن هذه الآربية العسكرية البآة سرعان ما آنقلب على نفسها؛ فياكل بعضها بعضًا، ما لم يآنآشر بينها الوعي الآقافي، والءعوي، والآضاري.

وآذا آءء المماليك الإسلام بعء الأيوبين، وآملوا راية الآهاد، وآآصروا في عين آالوت، وآكموا الأمة آمًا لآآصارآهم، لكنهم آنقسموا على أنفسم؛ فقضى عنيهم العآمانيون بعء رآة آهادية طويلة، قدموا فيها الكآير للأمة الإسلامية.

ومع ذلك فإن عصرهم لا يآلوا من آقدم في مآالات العلم، والآقافة، والآراعة، وآآارة، والآناعة، لكن بءراة أقل كآيرًا من آقدمهم عسكريًا، وهذا يعني آآلال لآسبة بين الآهود الآضارية والآهود العسكرية، وهو ما يوجب الءراة الآآانية.

ومن آآل هذا المءف آءرس الءولة المملوكية؛ لآعرف أولياآ الآآدم، والآفاظ على الأنسب المآوازنة في صياغة الآياة، ولآءرك أيضًا أنه ليس بالسيف وآءء يكون الآهاد، وأن النهضة العلمية - في آنة وآءة - ربما تكون أفضل من الآركيز على المآارك عشر سنوات.

الأهداف التعليمية للوحدة:

عزيزي الدارس: يرجى بعد دراستك لهذه الوحدة أن تصبح قادراً على أن:

أ- تُعرِّف مصطلحات:

- الممالك.
- الأستاذية.
- الخشداشية.
- الممالك الجراكسة.
- الممالك البحرية.

ب- تذكر العناصر الأساسية لـ:

- دولة الممالك الأولى.
- تبلُّور النظرية السياسية المالكية.
- حكم السلاطين الممالك.

ج- تستنتج أهم خصائص:

- دولة سلاطين الممالك.
- النزاع الداخلي في عهد عز الدين أيبك.
- إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة ومغزاه.

## الوحدة السادسة الدولة المملوكية



تتناول هذه الوحدة عدة مصطلحات مثل:  
- الممالك - الأستاذية - الخشداشية - الممالك  
الجراكسة - الممالك البحرية.

- قيام دولة الممالك.
- تبلور النظرية السياسية المملوكية.
- جهود بيبس الداخلية.
- حكم السلاطين الممالك.

- دولة سلاطين الممالك.
- النزاع الداخلي في عهد عز الدين أيبك.
- إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة.

## الدولة المملوكية (٦٤٨-٨٩٢٣/١٢٥٠-١٥١٧م)

المماليك:

عرفت هذه الدولة بهذا الاسم لأنها قامت على أكتاف فئة من الرقيق الأبيض؛ وأيضاً لأن السلاطين الذين تعاقبوا على عرشها كانوا من المماليك أو من أبنائهم.

فحينما سادت الفوضى بين حكام المسلمين، وخاصة في مصر والشام في القرن السابع الهجري، حرص كل حاكم أو ملك على تكوين عصبية لنفسه، يعتمد عليها في الاحتفاظ بإمارته والذود عن نفسه، فأكثروا من شراء المماليك، وعنوا بتدريبهم وتنشئتهم نشأة حسنة ليكونوا لهم عدة وسنداً، حتى زاد نفوذهم وأصبحت لهم كلمة مسموعة. وقد أحسن الصالح نجم الدين أيوب بحاجته إلى جيش قوي من المماليك يسانده بعد أن لمس غدر الطوائف الأخرى من الجند المرتزقة، فأكثر من شرائهم وأسكنهم جزيرة الروضة، لذلك أطلق عليهم المماليك البحرية<sup>(١)</sup>. وكان معظمهم من الأتراك المجلوبين من بلاد القفجاق -شمال البحر الأسود- ومن بلاد القوقاز -قرب بحر قزوين- وكانوا يمتازون بجمال الطلعة وقوة البأس، ويفضل هذه الصفات من جهة، والظروف الخارجية التي أحاطت بمصر أواخر العصر الأيوبي من جهة أخرى، تمكن المماليك البحرية من الاستئثار بحكم مصر.

(١) وقيل: إن المماليك سموا بالبحرية أو رجال ما وراء النهر، لأنهم حُلبوا إلى مصر من وراء البحار؛ حيث كانوا يجلبون من أسواق النخاسة بالقوقاز وآسيا الصغرى والأراضي المحيطة بالبحر الأسود، ويسلكون لوصولهم إلى مصر طريقاً بحرياً عبر البحر الأسود ثم منه إلى البحر الأبيض المتوسط. قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك السياسي والاجتماعي والحضاري. الطبعة الأولى. عين للدراسات والبحوث. القاهرة ١٩٩٨م. (ص ٢١).

وقد بلغ عدد من تسطنوا من المماليك البحرية أربعة وعشرين سلطاناً، وقد ظنوا يحكمون مصر نحو قرن وثلاث (٦٤٨-٥٧٨٤/١٢٥٠-١٣٨٢م).

ثم حلت دولة أخرى من المماليك أيضاً، وهم المماليك الجراكسة أو البرجية الذين أكثر من شرائهم السلطان المنصور قلاوون، وهم يتمون إلى بلاد الكرج (جورجيا) وهي البلاد الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود، وعددهم أربعة وعشرون سنطناً أيضاً، واستمرت دولتهم حوالي قرن وثلاث أيضاً (٧٨٤-٩٢٣/١٣٨٢-١٥١٧م) إلى أن استولى عليها السلطان العثماني سليم الأول.

#### العلاقات داخل المؤسسة الحكومية:

كان المماليك خليطاً من الأتراك والروم والروس والأكراد. فضلاً عن أقلية من مختلف البلاد الأوروبية.

وكان المنوك ينسب إما إلى التاجر الذي جلبه وباعه مش السلطان برفوق مؤسس العهد المماليكي. فلقد كان يسمى برفوق العثماني نسبة إلى التاجر الذي جلبه إلى مصر والذي كان اسمه عثمان، أو ينسب إلى الثمن الذي بيع به مثل السلطان قلاوون، فقد كان يقب بقلاوون الألفي لأنه بيع بألف دينار، أو ينسب إلى أستاذه أي سيده الذي اشتراه وترى في كنفه، أو ينسب إلى الوظيفة التي أسندت إليه أثناء خدمته في حاشية السلطان مثل بييرس الجاشنكير، فلقد كان يشغل وظيفة (جاشنكير) أي وظيفة (تذوق الطعام) الذي يقدم للسلطان قبل أن يتناول منه، كما أنه كان ينسب أيضاً إلى الموطن الذي جلب منه<sup>(١)</sup>.

(١) قام عدده فاسد: عصر سلاطين المماليك السياسي والاجتماعي والحضاري (ص ٣٠).

كانت هناك رابطة بين المملوك وأستاذه: (أي: سيّده) تعرف في مصطلح دولة المماليك بالأستاذية، وهي أشبه برابطة الابن بأبيه، كما سيطر على عواطف المماليك رابطة أخرى تعرف (بالخشداشية أو الزمالة)، وهي تعاطف ينشأ بين فريق من المماليك نتيجة لزمالتهم لبعضهم البعض مدة طويلة في كنف أستاذهم أو سيدهم. فكان كل واحد يتعاطف مع خشداشه (أي زميله) ويؤازره في المحن والشدائد. وكان لرابطة الأستاذية والخشداشية دور كبير في حركات الصراع بين فرق المماليك، فكل فريق منهم يتعصب لواحد من خشداشيته أو لأستاذه<sup>(١)</sup>.

والمحظوظون من المماليك هم أولئك الذين كان السلاطين يشترطونهم، ويصبحون من المماليك السلطانية، حيث يفتح أمامهم باب العتق والترقي والوصول إلى درجة الإمارة والصعود في درجاتها إلى أعلى مراتبها، والتدرج في مناصب الحاشية والدولة إلى أعلاها وأخطرها شأنًا، وهؤلاء المماليك كانت لهم تربية خاصة، ويتم تهميدهم وتثقيفهم وتعليمهم على أيدي فقهاء ومؤدبين، أما ممالك أمراء المماليك فكانوا لا يرقون إلى مرتبة الإمارة، ولكنهم كانوا يتمتعون برعاية أستاذهم الأمير. وأكبر المناصب التي كان أمراء المماليك يطمعون في الوصول إليها هو منصب الأتابك أي: (قائد عام الجيش)، ومنصب نائب السلطنة أي: (نائب السلطان)، فكل منصب من هذين المنصبين كان يتيح لشاغله - في بعض الأحيان - أن يدبر انقلابًا ضد السلطان القائم في الحكم، ويغتصب منه السلطنة، وكل ما كان يلزم الواحد منهم لتحقيق ذلك أن يستند إلى قوة قوية تساعد وتتعصب له من ممالিকে وأنصاره من أمراء المماليك، وبمن تحت يدهم من ممالك. فالقوة هي شريعة هذا العهد التي أحنى المماليك رأسهم لها مرغمين.

(١) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك السياسي والاجتماعي والحضاري (ص ٣٠).

فأكثر أمراء المماليك قوة هو الذي يستطيع أن يقفز إلى عرش السلطنة بصرف النظر عن المنصب الذي كان يشغله، وبقدر القوة التي يستند إليها وتأييده، وكان هذا الأمير يستطيع أن يجبر باقي الأمراء على الاعتراف بشرعية سلطنته، وبقدر القوة التي كانت مؤيدة لهذا السلطان الجديد كان يستطيع أن يبقى في سلطنته، بل ويستطيع أيضا أن يسند أثناء حياته ولاية العهد لأحد أبنائه<sup>(١)</sup>.

وليس معنى ذلك أن النظام المماليكي كان يعترف بنظام وراثته العرش، فالعكس هو الصحيح، لأن المماليك عموماً كانوا ينظرون إلى بعضهم نظرة مساواة، فالأمير المماليكي يعرف أن السلطان أصلاً كان مملوكاً ثم أصبح أميراً مثله. وبالتالي فهو في قرارة نفسه يشعر بأن السلطان لا يفضل عليه في شيء ولا يتميز عنه في شيء يجعده صاحب حق في السلطنة أو صاحب حق في توريثها لأبنائه<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان أمراء المماليك قد ارتضوا في بعض الحالات تنصيب ابن السابق خلفاً لأبيه في عرش السلطنة، فليس معنى ذلك الاعتراف والقبول منهم لنظام وراثته العرش، بل كان الأمر مجرد استثناء فالواقع أنهم كانوا يضطرون إلى قبول هذا الأمر أحياناً وبصفة مؤقتة بسبب شدة التنافس والصراع بينهم وقتها على عرش السلطنة. غير أن هذا الابن كان لا يبقى في عرشه هذا في أغلب الأحيان إلا بقدر المدة التي يجني فيها الصراع والتنافس بين هؤلاء الأمراء بانتصار واحد منهم على منافسيه انتصاراً حاسماً، وعندئذ يقوم هذا المنتصر بإسقاط هذا الابن من عرشه والتربيع عليه بدلاً منه<sup>(٣)</sup>.

وهذه - بصفة عامة - العناصر الأساسية والروابط والمبادئ التي قامت عليها حياة المماليك والتي قام عليها نظامهم أثناء قيام دولتهم.

(١) المرجع السابق (ص ٣١-٣٢).

(٢) سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر ولشام. القاهرة ١٩٦٥م. (ص ١٧-٢٢).

(٣) محمود بدو أحمد فيهم: الفن الحربي لجنش المصري في العصر المملوكي البحري، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣م.

## دولة المماليك الأولى أو البحرية

(٦٤٨-٥٧٨٤/١٣٥٠-١٣٨٢م)

السلطانة شجرة الدر (١٠ صفر ٥٦٤٨/ مايو ١٢٥٠م):

في خضم الصراع ضد الصليبيين توفي السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وقامت زوجته شجرة الدر بإدارة شؤون الحكم والحرب بمساعدة كبار أمراء المماليك، وحين تولى توران شاه العرش اصطدم بطموح شجرة الدر من ناحية، وبقوة المماليك البحرية من ناحية ثانية، وانتهى الصدام بمصرعه، ثم تولت العرش شجرة الدر أول سلاطين المماليك في الشام ومصر<sup>(١)</sup>.

قبضت شجرة الدر على زمام الحكم بيد من حديد، وقد وجهت اهتمامها الأول للتخلص من بقايا الحملة الصليبية السابعة في دمياط، ودارت المفاوضات بين الأمير (حسام الدين محمد) والملك لويس التاسع في أسره في دار ابن لقمان بالمنصورة. وانتهى الأمر بالاتفاق الذي يقضي بجلاء الصليبيين عن دمياط وأن يدفعوا فدية مقدارها ثمانمائة ألف دينار، يدفع الملك الأسير نصفها قبل رحيله، والباقي بعد وصوله عكا، فلما دفعوا هذا المال فعلاً أطلقت شجرة الدر سراحه، وجلاً الصليبيون عن دمياط، مع اشتراط عدم العودة لمهاجمة البلاد مرة أخرى، وقد تحدد أجل الصلح بعشر سنوات، ثم أبحر لويس وأتباعه إلى عكا في (٧ مايو ١٢٥٠م/ صفر ٥٦٤٨)<sup>(٢)</sup>، وبذلك انتهت الحملة الصليبية السابعة التي اقترنت

(١) جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية. دار المعارف القاهرة ١٩٦٧م. (ص ١٧١-١٧٢).

(٢) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك. (ص ١٦٠-١٦١).

حوادثها بنهاية الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك الأولى بمصر.

ورغم ذلك فإن هذا كله لم يكف لتدعيم مركز شجرة الدر في أعين معاصريها، فلم ينس المعاصرون أن سلطاتهم الجديدة امرأة، ويبدو أن شجرة الدر أحست بخرج موقفها فلجأت إلى عدة حيل؛ فقد أسرفت في التقرب إلى رجال الدولة والشعب معاً، فمنحت رجال الدولة الرتب والإقطاعات، أما الشعب فقد خفضت عنه الضرائب التي كانت تجبي منه، كذلك حرصت على التلقب بلقب "أم خليل الصالحة" لتظهر صلتها القوية بالبيت الأيوبي عن طريق ولدها خليل بن الصالح نجم الدين أيوب، كما أنها تلقت (بالمستعصمية) نسبة للخليفة العباسي المستعصم لإظهار تبعيتها له، وكان الهدف من اتخاذ هذه الإجراءات أن تجعل الرأي يتقبل هذا الأمر غير المؤلف (ولاية امرأة)<sup>(١)</sup>.

وبالرغم من هذا كله فإنها لم تستطع أن تستمر في الحكم طويلاً بسبب نفور المصريين وعدم تقبلهم لهذا الوضع، فقاموا بالاحتجاج، واضطرب الحال في القاهرة. فانتهز الملك الأيوبي الناصر يوسف -صاحب حلب وقتئذ- هذه الفرصة، وزحف بجيوشه نحو دمشق وغيرها من المدن الشامية، واستولى عليها بدون حرب، ثم أخذ يزحف جنوباً نحو مصر، ففرع المماليك وخافوا أن تزول دولتهم الجديدة، وأن تخرج السطة من أيدي الأيوبيين مرة أخرى، فحاولوا أن يحصلوا من الخليفة العباسي على تأييده لسلطنة شجرة الدر، غير أن الخليفة العباسي هو الآخر

(١) المقريري: السوك (١/٣٦١-٣٦٢)، قاسم عده قاسم، علي السيد عني: الأيوبيون والمماليك في التاريخ

السياسي والعسكري. عين لدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. ط ٢. القاهرة ١٩٩٦م. (ص ١٢٨).

كان من المعارضين لتولي امرأة العرش، وكتب إليهم يقول: "وإن كانت الرجال قد عدت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجالاً"<sup>(١)</sup>.

فأدرك المماليك بعدها استحالة بقائها على عرش السلطنة، فنصحوها بالتنازل عنه لأمير منهم هو عز الدين أيك، وأن تزوجه لكي تبقى السلطة في يدها، فوافقت على ذلك وخلعت نفسها من السلطنة بعد أن استمرت فيها ثمانين يوماً فقط، والواقع أن سلطنة شجرة الدر على مصر كانت وليدة للظروف التي أحاطت بمصر في ذلك الوقت، ونتيجة لموافقة جماعة من زملائها أو خشداشيتها المماليك، وليس نتيجة لموافقة الشعب أو رجال الدين أو الخلافة العباسية، هذا فضلاً عن كونها مسألة لا يقرها الشرع، ولا تستسيغها التقاليد الإسلامية. ويبدو أن العلماء والفقهاء كانوا من وراء هذه الحركة الخاصة بدليل ما رواه السيوطي من أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام وهو أكبر زعيم ديني في ذلك الوقت كتب كتاباً حول ما يتنى به المسلمون بولاية امرأة، وهو يستند في هذا إلى حديث شريف يقول: "لن يفلاح قوم ولوا أمرهم امرأة"<sup>(٢)</sup>.

السلطان المعز أيك التركماني (٦٤٨-٦٥٥هـ/١٢٥٠-١٢٥٧م):

تولى المعز أيك الحكم في يوم السبت آخر شهر ربيع الآخر (٦٤٨هـ/يوليو ١٢٥٠م)، وقد وافق أمراء المماليك الأقوياء على هذا الرجل؛ لأنهم اعتقدوا أنه ضعيف يسهل عزله إذا ما تم حسم الصراع لصالح أحد الكبار الأقوياء، مثل فارس الدين أقطاي،

(١) ابن أيك الدواداري: الدرّة الزكية في أخبار الدولة التركية. وهو الجزء الثامن في حوليته "كنز الدرر وجامع الغرر" تحقيق هارمان. القاهرة ١٩٧١م. (ص ١٣).

(٢) السيوطي: حس المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. تحقيق محمد أبو الفصّل براهيم الطبعة الأولى، القاهرة (٨٥/١).

والظاهر بيبرس، وقلاوون. وفي هذه الحالة الاستثنائية في نظام التدرج المملوكي، فإن الأمراء لم يتحجوه إلا لكي يتمكنوا من عزله متى شاءوا. بيد أن تصرفات هذا السلطان في مواجهة الصعاب والمشكلات الخارجية والداخلية التي اكتفت حكمه، أثبتت أنهم أسرفوا في الاستهانة به<sup>(١)</sup>. وتتلخص هذه المشكلات في الآتي:

#### أ- الأيوبيون في الشام:

رغم اغتصاب الماليك لعرش السلطنة في مصر من الأيوبيين، فإن أمراء الأيوبيين بالشام لم يسلموا بهذا الأمر بسهولة، واعتبروا أنفسهم أصحاب الحق الشرعي في عرش مصر والشام. لذلك بادروا بالاستيلاء على السلطنة بالشام، ولم يعترفوا بسلطنة الماليك الجديدة في مصر، ثم أخذوا يزحفون نحو مصر بزعامة الملك الناصر يوسف -صاحب حلب- كما سبق أن أشرنا إلى ذلك من قبل.

فهبَّ الماليك عندئذ للدفاع عن كيانهم ودولتهم واشتبكوا مع يوسف صاحب حلب في معركة حاسمة عند بلدة العباسية (تقع بين بلييس والصالحية) وألحقوا الهزيمة به في (٣ فبراير ١٢٥١م/٥٦٤٩هـ) فاضطر الناصر يوسف أن يفرّ ومعه مَنْ صاحبه من أفراد البيت الأيوبي إلى الشام.

#### ب- ثورة البدو عام (٥٦٥١/١٢٥٣م):

رفضت القبائل العربية التي تقطن مصر وقتها الاعتراف بسلطة الماليك، وعزَّ على عرب مصر أن يحكمهم ماليك كانوا أصلاً أرقاء، هذا فضلاً عن أن الماليك بعد انتصارهم على الأيوبيين أسكروهم نشوة النصر، وبدأوا يشتطون في جمع

(١) ابن أبيك الدوادار: الدرر الزكية في أخبار ندوة التركية (١٩٠٨-٢٠٠).

قاسم عبده قاسم، عني السيد عني: الأيوبيون والماليك (ص ١٢٩).

الضرائب، وأخذوا يبالغون في الفساد والاستهتار إلى درجة أن بعض المؤرخين أمثال المقرئزي وأبوالمحسن قالوا: "... لو أن الفرنج ملكوا مصر ما فعلوا فعلهم"<sup>(١)</sup>، لهذه الأسباب قام العرب بثورة ضخمة على حكم المماليك في سنة (١٢٥٣/٥٦٥م) بزعامة (حصن الدين بن ثعلب).

### ج- الصراع بين المماليك:

لقد بلغ الصراع مداه بين زملاء أيلك من المماليك البحرية وزعيمهم (فارس الدين أقطاي) الذي بلغ من النفوذ والقوة ما فاق سطوة السلطان أيلك، حتى أصبح أمره مطاعاً في الحقيرة والكبيرة لا يرد له مرسوم، كما انتحل لنفسه بعض تقاليد السلطنة، وزاد على ذلك أن أخذ أقطاي يرنو علانية نحو السلطنة، كما أخذ خشداشيته يسعون إلى تحقيق بغيته فلقبوه بـ"الملك الجواد"، وعملوا على تزويجه من إحدى أميرات البيت الأيوبي وهي ابنة الملك المظفر تقي الدين ملك حماة، بل إنهم تأمروا على قتل أيلك لينخلو الجو لأقطاي. ثم حدث أن طلب أقطاي من أيلك أن يشاركه مع زوجته سكنى القلعة (قلعة الجبل)؛ لكونها من بنات الملوك، فأدرك أيلك ما يدور في نفس أقطاي، فاحتال عليه حتى قتله، وفر أمراء المماليك البحرية إلى الشام، كما فر بعضهم إلى حلب والبعض الآخر إلى سلطان سلاجقة الروم بأسيا الصغرى<sup>(٢)</sup>.

ورغم تغلب المعزّ أيلك على العقبات التي اغترضته إلا أنه لم يقو على زوجته شجرة الدر؛ فقد أرغمته على هجر زوجته الأولى -أم علي- وحرمت

(١) المقرئزي: السلوك (١/٣٨٧)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٥٦/٢٦٩).

(٢) المقرئزي: السنوك (١/٣٨٦)، قاسم عبده قاسم، وعلي السيد علي: الأيوبيون والمماليك (ص١٣٢).

عليه زيارتها هي وابنها، ولما سئم أيك الحياة معها، وخطب ابنة بدر الدين لأولئ صاحب الموصل، ولما كانت نهايته على يد زوجته شجرة الدر؛ فهب المماليك المعزّية -أي: ممالك المعز أيك- فقاموا بقتلها. وأقيم علي بن أيك سنة (١٢٥٧/٥٦٥٥م)، وهو غلام في الخامسة عشرة من عمره سلطانا على مصر ولقب (بالمنصور)، واختير الأمير سيف الدين قطز؛ ليكون أتابكا له<sup>(١)</sup>.

وبعد فترة وصلت الأخبار إلى مصر أن المغول بقيادة هولاكو استولوا على بغداد (١٢٥٨/٥٦٥٦م)، وقتلوا الخليفة العباسي (المستعصم بالله) وحرقوا الجوامع والمساجد وسفكوا الدماء حتى جرت في الطرقات<sup>(٢)</sup>.

وقد عقد المماليك مجلسًا حربيًا بالقلعة لمواجهة هذا الخطر المغولي الداهم. ووجد الأمير سيف الدين قطز أن الفرصة قد حانت؛ فأخذ ينكر عنى الملك المنصور سلوكه الصياني، وقال: "لابد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك الصبي صغير لا يعرف تدبير المملكة"<sup>(٣)</sup>. وجاءت الفرصة تسعى إلى سيف الدين قطز عندما خرج أمراء المماليك المعزّية والبحرية إلى الصيد في منطقة العباسية بالشرقية وفي غزة.

وفي يوم السبت (٢٤ ذي القعدة سنة ١٢٥٧/٥٦٥٧م). قبض قطز على الملك المنصور وعلى أخيه قاقان وأمهما واعتقلهم في أحد أبراج القلعة. فكانت

(١) المقرئبي: السلوك (١/٣٩٨-٤٠٤).

(٢) ابن أيك الدواداري: كسر الدرر (٨/٣٤-٣٧). المقرئبي: السلوك (١/٤٠٩-٤١٠).

أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك في مصر والشام. بيروت ١٩٦٩م. (ص١٤٧-١٥٠).

(٣) ابن أيك الدواداري: كسر الدرر (٨/٣٩).

مدة حكم المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام<sup>(١)</sup>.

السلطان سيف الدين قطز (٦٥٧-٦٥٨هـ/١٢٥٩-١٢٦٠م):

جلس سيف الدين قطز على سرير الملك بقلعة الجبل في نفس يوم خلع الملك المنصور واتفق الحاضرون على توليته "... لأنه كبير البيت ونائب الملك وزعيم الجيش وهو معروف بالشجاعة والفروسية، ورضي به الأمراء الكبار والخشداشية، وأجلسوه على سرير الملك ولقبوه بالمظفر"<sup>(٢)</sup>.

وكان على السلطان سيف الدين قطز أن يواجه معارضة كبار الأمراء الذين قدموا إلى قلعة الجبل، وأنكروا ما كان من قبض قطز على الملك المنصور وتوثبه على الملك، وكان لابد للسلطان أن يميل مع الرياح حتى لا تعصف به، ولا سيما وأنه كان لا يزال على خوفه من تحرك الأيوبيين ببلاد الشام ضده، وخوفه من الناصر يوسف صلاح الدين حاكم دمشق. فقال سيف الدين قطز في سياق تقريره لما حدث: "... وإني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر، ولا يتأتى ذلك بغير ملك؛ فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم، أقيموا في السلطنة من شئتم"<sup>(٣)</sup>.

هكذا مرت العاصفة الأولى على عرش السلطان بسلام، وأخذ يرضي أمراء المماليك "حتى تمكن" على حد تعبير المقرئزي<sup>(٤)</sup>، وما إن شعر أن سلطته قد رسخت حتى أخذ يتخلص من كل من يمكن أن يشكل تهديداً على عرشه بالنفي والاعتقال<sup>(٥)</sup>.

(١) المقرئزي: السلوك (١/٤١٧)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٧/٥٥).

(٢) بيرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ المحرة. تحقيق زبيدة عطا. القاهرة بدون تاريخ (٩/٦٣).

(٣) المقرئزي: السلوك (١/٤١٨).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك (ص ٥٢).

## سيف الدين قطز والمغول:

انتقل المغول في سرعة مذهلة من العراق إلى الشام، واستولوا عليها وأشعلوها حرباً، وملؤوها قتلاً ونهباً وتخريباً، واستولوا على حلب ثم على دمشق، وبدأ الخطر المغولي يقترب من مصر، وفي تلك اللحظة نسي المماليك الذين كانوا قد فروا من مصر بعد مقتل فارس الدين أقطاي أحقادهم القديمة، وعادوا إلى مصر وفي مقدمتهم ركن الدين بيبرس البندقداري، وأخذوا يتكلمون لملاقاة المغول.

ثم وصل إلى قطز خطاب تمديد من هولاءكو يطلب منه التسليم ويقول له فيه: "يعلم الملك المظفر قطز وسائر أفراد دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جدد الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطانا على من حلّ به غضبه، فاتعظوا بغيركم، فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى..."<sup>(١)</sup>.

فمزق قطز الكتاب، وقتل سفراء هولاءكو وعلق رؤوسهم على باب زويلة، وأخذ يحشد قواه لملاقاة المغول<sup>(٢)</sup>.

وفي ذلك الوقت توفي خاقان المغول منكوخان في أغسطس (١٢٥٩م/٥٦٥٧هـ) مما أثار نزاعاً بين إحدته حول اقتسام إمبراطورية المغول، واضطر هولاءكو إلى العودة إلى العاصمة "قراقورم" تاركاً قيادة جيشه بالشام لقائده "كبغا" مما أضعف قوة المغول، كما أن الصليبيين في الشام لم يتحالفوا معهم، مما قوى الأمل عند المماليك في التغلب عليهم<sup>(٣)</sup>.

(١) المقرئبي: السنوك (١/٤٢٧-٤٢٨).

(٢) عمى الدين بن عبدالظاهر: الروض الزاهر في سيرة الظاهر. تحقيق عبدالعزيز الخويطر. الرياض. بدون تاريخ (ص ٥٧-٦٣)، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر (٨/٤٩).

(٣) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، (٨/٤٩).

ونادى قطز بالنفير العام، وأخذ يعد السلاح والعتاد، ويجمع الأموال اللازمة وحينما أراد أن يفرض ضريبة على الشعب مقدارها دينار واحد على كل فرد من أجل تلك الحرب المقدسة، لم يتمكن من ذلك إلا بعد أن أخذ موافقة العالم الجليل الشيخ (عز الدين بن عبدالسلام) واستصدر منه فتوى بجواز ذلك، ولم يصدر الشيخ فتواه إلا بعد أن طلب من كل الأمراء وكبار رجال الدولة إحضار ما عندهم من ذهب وفضة، وحُلِّي نساءهم وأولادهم ورآه بعينه، وحلف أمامه كل منهم بأنه لا يملك سوى هذا وضمه إلى بيت المال، عندئذ كتب بأخذ دينار من كل فرد<sup>(١)</sup>.

موقعة عين جالوت ٢٥ رمضان سنة (٥٦٥٨ / ١٢٦٠م):

عندما أتم سيف الدين قطز استعداداته للحرب مع المغول أنفذ طلابع جيشه بقيادة بيبرس إلى غزة، وكان بما قوة مغولية صغيرة، استطاع بيبرس أن يهزمهم ويستعيد غزة ويطاردهم<sup>(٢)</sup>. ثم خرج قطز على رأس جيشه في أوائل رمضان سنة (٥٦٥٨) أو أواخر يوليو (١٢٦٠م)، لملاقمتهم على أرض الشام بدلاً من مصر، وكان لانتصار بيبرس في غزة ردّ فعل قوي عند المسلمين في كافة مدن الشام. إذ رأوا في ذلك بادرة أمل وتشجعوا لقتال المغول<sup>(٣)</sup>.

وقد أظهر السلطان قطز حنكة سياسية بارعة وبعد نظر كبير حين حرص على مسألة الصليبيين حتى لا يحارب خصمين في وقت واحد، بل أكثر من ذلك فقد سمحت حكومة عكا الصليبية لجيوش المسلمين بالعبور عن طريق أراضيها<sup>(٤)</sup>،

(١) ابن تغري بردي: النجوم الراهرة (٧/٧٨).

(٢) المقرئزي: السلوك (١/٤٣).

(٣) المقرئزي: السلوك (١/٤٣١).

(٤) Runciman: A history of the Crusades., Harper Torchbooks, New York ١٩٦٧., Vol. III. PP. ٣١١-٣١٢.

مما ساعد قطز على مفاجأة المغول، حيث التقى بهم عند قرية عين جالوت -تقع بين بيسان و نابلس من أعمال فلسطين- في ٢٥ رمضان (٥٦٥٨هـ)، ٣ أغسطس (١٢٦٠م) وهناك حدثت معركة ضخمة بين الجيشين، وقد بدأ القتال بهجوم مغولي عنيف حتى إن ميسرة الجيش المصري تقهقرت أمامهم واضطرب المعسكر كله، ولكن قطز ثبت في مكانه وألقى بخوذته على الأرض وصرخ بأعلى صوته: "والإسلاماه" فكان لهذه الكلمة فعل السحر في نفوس المسلمين بعد أن رددوها ثلاثاً، ثم حمل قطز بنفسه على العدو فالتأم الشمل وعادت الميسرة إلى مكانها الأول. وجاء نصر الله فانحزم المغول أمام المصريين شرّ هزيمة، وتمزقت قواتهم شر ممزق، وخر قائدهم الصنديد كتبغا صريعاً في الميدان، وأيد معظم جيشه وفرّ من تبقى منه لا يلوي على شيء، وتبعهم الأمير بيبرس وضاردهم حتى أجلاهم عن الشام، وبهذا النصر أعاد قطز لمصر والشام وحدتهما، حيث اتبعه قطز بعد المعركة إلى دمشق ودخلها دخول الأبطال الفاتحين واستقبل استقبالاً عظيماً، وقد أمر بشنق الذين تعاونوا مع المغول، وعين من قبله حاكماً على دمشق، وكذلك على حلب التي كان قد وعد بما بيبرس من قبل، ولكنه عدل عن رأيه فكان هذا سبباً في قتله غدرا قرب الصالحية سنة (٥٦٥٨هـ، أكتوبر ١٢٦٠م) وهو عائد إلى مصر إذ قتله بيبرس ومن تأمر معه ضده<sup>(١)</sup>.

السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨-٥٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م):

تطبيقاً للنموذج السياسي الذي سارت عليه دولة سلاطين المماليك "الحكم

(١) المقريري: السوك (١/٤٢٩-٤٣١)، ابن أليك الدواداري: كسر الدرر (٨/٤٩-٦١). العبادي:

قيام دولة المماليك الأولى (ص ١٦٤-١٦٨). سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام.

دار النهضة العربية القاهرة ١٩٧٦م. (ص ٢٢١، ٢٢٤).

لمن غلب" كان طبيعياً أن يعتلي القاتل عرش الضحية، فاعتلى بيبرس السلطنة بوصفه القاتل وأقوى أمراء المماليك البحرية، فضلاً عن مواقف المشرفة في قتال الصليبيين والمغول فنودي به سلطاناً، فاتخذ لقب القاهر، ثم غيَّره بالملك الظاهر<sup>(١)</sup>.

لقد أثبت الملك الظاهر بيبرس بأعماله وإصلاحاته وحروبه أنه المؤسس الحقيقي لدولة المماليك في مصر والشام. فقد وضع لنفسه سياسة واسعة الأفق استهدفت في الخارج صد أخطار المغول والصليبيين، ونشر نفوذه في الجزيرة العربية والنوبة، وفي الداخل توطيد الأمن والقضاء على الثوار، ووضع قواعد النظام الإداري في مصر والشام، وتقرب من الخاصة والعامة، فخفف عن العامة عبء الضرائب<sup>(٢)</sup>.

هذا فضلاً عن القيام بعدة إصلاحات. وفي سبيل ذلك لجأ بيبرس إلى عدة إجراءات سياسية تدل على ذكائه وفطنته، فهو يحالف مغول القفجاق -أي مغول القبيلة الذهبية- ليتخذ منهم ستاراً ضد مغول فارس، ويحالف الدولة البيزنطية ليجعل منها عضداً في سياسته ضد الصليبيين بالشام. ثم رأى أن يدعم مركزه باتخاذ خطوة على جانب كبير من الأهمية، وهي:

إحياء الخلافة العباسية في مصر:

كان قطز قد حاول إحياء الخلافة العباسية التي قضى عليها المغول ببغداد سنة (١٢٥٦/١٢٥٨م) بعد انتصاره في معركة عين جالوت (١٢٦٠/١٢٥٨م)، فلقد علم أن أميراً عباسياً يُدعى (أبا العباس أحمد) قد وصل

(١) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام (ص ٢٢٤).

(٢) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك (ص ٥٧).

إلى دمشق فاستدعاه وبايعه بالخلافة كخطوة أولى، وكان قطز ينوي بعد عودته لمصر أن يستدعي هذا الخليفة الجديد من الشام ويمده بالقوات التي تمكنه من الزحف إلى بغداد واستعادتها من المغول مرة أخرى. غير أنه -أي قطز- قتل وتولى قتله بيبرس بدلاً منه، فقام بيبرس بإحياء فكرة الخلافة التي لم تمت بموت قطز، وبعث بيبرس يستدعي من الشام أبا العباس أحمد، غير أنه لم يحضر، وفي نفس الوقت كان قد علم بوصول أمير عباسي آخر إلى الشام اسمه أبو القاسم أحمد، فبعث يستدعيه فحضر ووصل القاهرة في رجب عام (٤٦٥٩هـ/١٢٦١م) فاحتفل بيبرس باستقباله وبايعه بالقلعة بالخلافة بحضور القضاة والعلماء والأمراء وشيخ الإسلام، وتلقب الخليفة الجديد بلقب "المستنصر بالله"<sup>(١)</sup>.

وعلى إثرها قلد الخليفة المستنصر بالله، السلطان الظاهر بيبرس مُلك مصر وما تحت يده من بلاد أخرى، وأيضاً ما سيفتحه في المستقبل من أقطار أخرى. وبذلك حلت القاهرة محل بغداد في كونها حاضرة الخلافة العباسية، ومركز النشاط الديني في العالم الإسلامي كله، الأمر الذي أظهر المماليك في صورة القوة الحامية للخلافة الإسلامية، وكان الخلفاء العباسيون المتعاقبون خلال هذه الفترة تحت حماية ورحمة سلاطين المماليك، ولم يكن لهم في الواقع سلطة فعلية، وإنما كان لهم اسم ومظهر الخلافة فقط والدعاء باسمهم من فوق المنابر، غير أنهم في مقابل ذلك كانوا يقلدون سلاطين المماليك الذين تولوا حكم مصر والشام في خلال هذه الفترة التفويض والتقليد الشرعي الذي كانوا يحرصون عليه ليكسب

(١) ابن أبيك: كسر ندر (٨ ٧٢-٧٣)، تقريري: السوك (١ ٤٤٨-٤٤٩).

حكمهم الصفة الشرعية والاحترام أمام الشعوب الإسلامية الأخرى<sup>(١)</sup>.

### تحالفات بيبرس:

أما أعمال بيبرس التي كانت على جانب كبير من الأهمية فهي: حرصه على محاربة بعض القوى الخارجية المعادية لكل من الصليبيين بالشام والمغول بفارس؛ فحالف الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس، وعقد معه حلفاً دفاعياً لعلمه بأنه عدو لدود للصليبيين بالشام. كذلك حالف مغول القفجاق (أو القبيلة الذهبية على بحر قزوين، وهم الذين اعتنقوا الإسلام) لعلمه بأنهم أعداء مغول فارس والعراق الوثنيين<sup>(٢)</sup>.

### بيبرس ومغول فارس:

وقف الظاهر بيبرس دائما بالمرصاد لمغول فارس الذين أغاروا بقيادة (بيدرا) على مدينة (ألبيرة) ثم استولوا على حلب وحماة. إزاء ذلك تحالف بيبرس مع (بركة خان) زعيم مغول القفجاق، واستطاع أن يسترد (ألبيرة). ولما عاود مغول فارس الهجوم مرة أخرى عام (١٢٧٢/٥٦٧١م) تقدم بيبرس وهزمهم واستعاد (ألبيرة) وحصنها وأقام بها حامية للدفاع عنها<sup>(٣)</sup>.

ثم انتقل القتال بين بيبرس والمغول إلى آسيا الصغرى، حيث كان المغول قد

(١) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. القاهرة ١٢٩٩هـ. (١٨٧/١)، العبادي: قيام دولة المماليك الأولى (ص ١٨٠-١٨١).

(٢) أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى (ص ٢٠٢-٢٠٣).

(٣) ابن أبيك اللوداري: الدرر الركية (ص ٥٩٩)، قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك (ص ٩٧).

تمكنوا من بسط سيادتهم على دولة سلاجقة الروم منذ أيام (هولاكو) واشتبك بيبرس مع جيوش سلاجقة الروم، وجيوش المغول في موقعة حاسمة عند الأبلستين (٥٦٧٦/١٢٧٧م)، وفيها انتصر بيبرس انتصاراً حاسماً ودخل قيسارية عاصمة الدولة، ونزل بدار السلطنة وجلس على عرش سلاجقة الروم<sup>(١)</sup>.

وبذلك أصبحت دولة سلاجقة الروم من أملاك بيبرس بعد انتصاره.

### بيبرس ومغول القبيلة الذهبية:

اتسمت علاقة بيبرس بمغول القبيلة الذهبية بالود والصدقة فمَلِكُهُمْ (بركة خان) كان أول من أسلم من خانات المغول، وتودلت الرسائل والسفارات بين الملكين، وكان من نتائج هذه الصداقة وهذا التحالف أن لجأ إلى مصر في عهد بيبرس عدد كبير من أفراد القبيلة الذهبية الفارين من هولاكو، فأكرمهم بيبرس كل الإكرام، فاعتنقوا الإسلام، وأدخل عددا منهم في جيشه، وقد شجع هذا الإكرام الكثيرين من المغول على القدوم إلى مصر والالتحاق بجيشها، وكونوا فرقة خاصة عرفت باسم (الفرقة الوافية)<sup>(٢)</sup>.

### بيبرس والصليبيون:

لقد رسم بيبرس لنفسه خطة تلتخص في عقد سلسلة من التحالفات مع كل القوى الإسلامية والمسيحية المحيطة به وبالصليبيين لتحقيق هدفين أولهما: أن يمنع هذه القوى أن ترسل أو تسمح بمرور أي مدد إلى الصليبيين، وثانيهما: أن يستعين

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر (ص ١٢٩)، أحمد مختار العادي: قيام دولة المماليك الأولى (ص ٢٠٢-٢٠٥).

(٢) ابن أيبك الندوادي: الدرر الزكية (ص ٩٩، ١٦٧). المنقري: السلوك (١/٤٧٢-٤٧٥).

بهذه القوى لمنع أي تحالفات بين المغول والصليبيين؛ لإيقاف جيش المغول إن فكر في التقدم لمساعدة الصليبيين، لهذا كان الاتفاق والمعاهدات مع ميخائيل باليولوجس إمبراطور الإمبراطورية البيزنطية، ومع منفرد هو هنشتاوفن إمبراطور الإمبراطورية الرومانية الغربية، وملك صقلية، ومع الجمهوريات الإيطالية، ومع بركة خان زعيم مغول القفجاق الذهبية، ومع سلطان سلاجقة الروم في آسيا الصغرى<sup>(١)</sup>.

وقد أثمرت هذه الجهود، فاستولى بيبرس على العديد من المدن، مثل قيسارية وأرسوف ويافا وصفد والرملة، وفي سنة (١٢٦٧/٥٦٦٧م) استولى على أنطاكية وهي كبرى إماراتهم بالشام، ولم يبق لهم إلا إمارات طرابلس التي استعادها - فيما بعد - السلطان قلاوون الألفي<sup>(٢)</sup>.

وقد كان لانتصارات بيبرس المتتالية أثرها القوي في نفوس أهل مصر والشام، فأعجب الناس ببطولات بيبرس وشجاعته وانتصاراته، وألف أديب مصري مجهول "سيرة الظاهر بيبرس"<sup>(٣)</sup>.

أبناء الظاهر بيبرس:

سعى بيبرس أثناء حياته لتوريث السلطنة لابنه الأكبر سعيد بركة خان، فأعلنه ولياً لعهدده في سنة (١٢٦٢/٥٦٦١م)، ولكنه كان يخشى التآمر عليه لاغتصاب الملك منه، فلجأ قبيل وفاته (١٢٧٥/٥٦٧٣م) إلى تزويج ابنه بركة خان من ابنة كبير الأمراء وقتذاك (سيف الدين قلاوون) ليضمن بذلك ولاء هذا

(١) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك (ص ٩٥-٩٩).

(٢) ابن عبدالظاهر: الروض الزاهرة (ص ٢٦٠-٢٦٥).

(٣) قاسم عبده قاسم، والسيد علي السيد: الأيوبيون والمماليك (ص ١٧٠).

الأمير الكبير، وبالتالي ولاء ممالك الصالحية لابنه<sup>(١)</sup>.

وتوفي بيبرس سنة (١٢٧٧/٥٦٧٧م) وبإيعاز القضاة والأمراء الملك السعيد

(بركة خان) ودعي له على المنابر في مصر والشام، وكان عمره وقتذاك تسعة عشر عاماً<sup>(٢)</sup>.

لكنه نتيجة استهتاره وعدم جدية تأمر عليه صهره قلاوون الألفي

والأميران: سنجر الحلبي، وسنقر الأشقر سنة (١٢٧٩/٥٦٧٩م)، وعينوه نائباً

على الكرك حسب رغبته، واختير الابن الثاني لبيبرس وهو الأمير بدر الدين

سلامش ليكون سلطاناً على البلاد، على حين أصبح الأمير قلاوون أتابكاً

للسلطان الجديد، أي وصياً عليه، فاستغل الوصاية على السلطان الصغير الذي لم

يتجاوز السابعة من عمره وعزله بعد ثلاثة شهور وحل محله في السلطنة<sup>(٣)</sup>.

أسرة الأمير سيف الدين قلاوون:

استمر منصب السلطنة في ذرية المنصور سيف الدين بن قلاوون إلى نهاية دولة

المماليك البحرية، وقد تولى قلاوون الألفي العرش (٦٧٨-٦٨٩/٥٦٨٩-١٢٧٩-١٢٩٠م)،

ولقب بالمنصور، وهو أحد المماليك البحرية، اشتراه (علاء الدين آق سنقر) بألف دينار

وهو مبلغ كبير؛ وذلك لتعدد مواهبه، وبعد وفاة سيده انتقل إلى الملك الصالح نجم الدين،

وعلا شأنه ومكانته عند بيبرس، وذلك لجهوده في حروب المماليك ضد المغول، ثم صار

وصياً على السلطان الصغير بدر الدين سلامش - كما ذكرنا من قبل - ثم تولى العرش

بموافقة الأمراء بعد أن أقنعهم بعدم صلاحية السلطان لصغر سنه<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهرة (ص ٢٠٣-٢٠٩).

(٢) العيني: عقد الخمان (٢/١٨٥).

(٣) انقريزي: السبوك (١/٦٥١).

(٤) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهرة (ص ٢٥٤-٢٦٣).

## دولة المماليك الثانية أو الجراكسة (البرجية)

(٧٨٤-٥٩٢٣هـ / ١٣٨٢-١٥١٧م)

نشأة فرقة المماليك الجراكسة:

أراد السلطان المنصور قلاوون أن يُكوّن فرقة جديدة من المماليك يعتمد عليها ضد منافسيه من كبار الأمراء، وتكون سندا لأولاده وذريته في الاحتفاظ بالعرش، ولتحقيق هذا الغرض رأى قلاوون أن تكون فرقة الجديدة من جنس آخر غير الأجناس التي انتمى إليها مماليك عصره، فأعرض عن شراء الأتراك والتتار والتركماني، وأقبل على شراء الجراكسة الذين ينتمون إلى بلاد الكرج (جورجيا) وهي البلاد الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود، وفي تلك الفترة كانت أعداد كبيرة من المماليك الجراكسة متوفرة في أسواق الرقيق بحيث كان سعرهم هو الأرخص على الرغم من شهرتهم الفائقة بالشجاعة والقوة البدنية وجمال الصورة. ومهما يكن من أمر فقد أكثر السلطان المنصور قلاوون من شراء هؤلاء المماليك الجراكسة حتى بلغ عددهم في حياته أكثر من ثلاثة آلاف مملوك، وعني بتربيتهم في أبراج القلعة، مما جعل اسم "البرجية" يلصق بهم في التاريخ<sup>(١)</sup>.

وقد سار أبناء قلاوون على سياسته في الاهتمام بطائفة المماليك الجراكسة، فقد اشترى الأشرف خليل -على الرغم من قصر مدة حكمه- حوالي ألفين من المماليك الجراكسة<sup>(٢)</sup>.

(١) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ٢٨٨-٢٨٩).

(٢) المقريري: الحطط (٢/٢٤١).

ولكن زيادة أعداد المماليك من هذه الطائفة فرضت أوضاعاً جديدة لم يألفها المماليك من قبل؛ فلأول مرة يسمح السلطان خليل بن قلاوون للمماليك بالنزول من ثكناتهم العسكرية بالقلعة إلى القاهرة والفسطاط ليتحولوا فيها نهاراً، ثم يعودون للمبيت في القلعة ليلاً، وكان طبيعياً أن يؤدي هذا إلى ازدياد انغماس البرجية في الحياة المصرية، كما بدأوا يختلطون بغيرهم من طوائف المماليك. ومن ناحية أخرى بدأت طوائف المماليك الأخرى تحس مشاعر الحقد والغيرة من المكانة والنعمة التي يحظى بها الجراكسة<sup>(١)</sup>.

#### ازدياد نفوذ الجراكسة أو البرجية:

لقد كان طبيعياً أن تزداد مكانة المماليك الجراكسة بازدياد اعتماد السلاطين من ذرية قلاوون عليهم، وقد ظهر دورهم السياسي واضحاً عندما قتلوا الأمير (بيدرا) الذي دبر مؤامرة لقتل أستاذهم الأشرف خليل بن قلاوون. وكانوا هم الذين اختاروا الناصر محمد سلطاناً على البلاد في سلطته الأولى سنة (٥٦٩٣/١٢٩٣م) على الرغم من أنه كان لا يزال طفلاً صغيراً<sup>(٢)</sup>. وفي خضم الصراع الذي احتدم بين كتبغا وسنجر الشجاعى، اللذين حكما باسم السلطان الطفل، ظهرت أهمية البرجية الذين ساندوا سنجر الشجاعى وهزموا كتبغا وأنصاره من المماليك البحرية<sup>(٣)</sup>. وكان لانفضاض الجراكسة عن سنجر فيما بعد أكبر الأثر في هزيمته ومصرعه على يد كتبغا، الذي اتخذ عدة إجراءات لتشتيت شمل الجراكسة، فأنزلهم من ثكناتهم في

(١) قاسم عده قاسم، على السيد على: الأيوبيون والمماليك (ص ٢٠٣).

(٢) ابن أليك الدوادارى: كسر الدرر (٨/٣٥٢-٣٥٣).

(٣) المقربرى: السنوك (١/٧٩٨-٨٠٠).

القلعة، وشتهم في أحياء القاهرة، فثاروا وتسببوا في سلسلة من الاضطرابات العنيفة، لأن المسألة بالنسبة لهم كانت مسألة حياة أو موت<sup>(١)</sup>.

وساءت أحوال المماليك الجراكسة في عهد كل من السلطان كينغا (٦٩٤-٦٩٦هـ/١٢٩٤-١٢٩٦م)، وخلفه السلطان لاجين (٦٩٦-٦٩٨هـ/١٢٩٦-١٢٩٨م) اللذين اغتصبا السلطنة من الناصر محمد، ثم نجح الجراكسة بزعامه الأمير سيف الدين كرجي في قتل السلطان لاجين، وعاد السلطان الناصر محمد مرة ثانية إلى عرش السلطنة، وكان ما يزال ضعيفا، فازداد نفوذ المماليك الجراكسة بزعامه بيبرس الجاشنكير، فبدأوا يفكرون في مصالحهم على حساب السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وعبثا حاول السلطان الناصر محمد أن يتخلص من نفوذ المماليك وبخاصة الجراكسة، وحين فشل تنازل عن العرش، وآثر أن يهرب إلى حصن الكرك<sup>(٢)</sup>.

وكانت فرصة للأمرء الجراكسة حين اعتلى كبيرهم بيبرس الجاشنكير عرش السلطنة ليكون أول سلاطين الجراكسة. ولكن المماليك الأتراك رفضوا قبول الأمر الواقع وأبدوا معارضة عنيفة لحكم الجراكسة، وهرب المظفر بيبرس الجاشنكير من سلطنته التي مكث فيها عامين أو أقل (٧٠٨-٧٠٩هـ/١٣٠٨-١٣٠٩م)<sup>(٣)</sup>، واسترد السلطان الناصر محمد بن قلاوون عرشه للمرة الثالثة، وقد علمته خبرته ومعاناته الطويلة أن الإسراف في الاعتماد على البرجية خطر يجب

(١) المصدر السابق (١/٨٠٤-٨٠٦).

(٢) ابن أيك الدواداري: كنز الدرر (٨/٣٧٠-٣٨٠).

(٣) المصدر السابق: (٨/٣٨٤).

تحماسيه؛ فأخذ يلجأ إلى انتزاع بعض إقطاعاتهم، وأغرق من يخشى خطره منهم في نهر النيل<sup>(١)</sup>. وإذا كان السلطان الناصر محمد ابن قلاوون قد حكم البلاد بيد من حديد في سلطته الثالثة، فلقد كان أبناؤه وأحفاده في الغالب حفنة من الأطفال بحيث صار كبار الأمراء الجراكسة يجركونهم وفق هواهم. ومرة أخرى عادت قوة المماليك الجراكسة للظهور على مسرح الأحداث السياسية<sup>(٢)</sup>.

وفي عصر السلاطين الصغار -من أحفاد الناصر محمد بن قلاوون- برز اسم أحد أمراء البرجية أو الجراكسة، وهو الأمير برقوق الذي استطاع بفضل طموحه وقوته أن يصل إلى منصب أتابك العسكر سنة (٥٧٨٠هـ/١٣٧٨م)، وبذلك أصبح برقوق على جانب كبير من القوة في عهد السلطان علاء الدين علي (٧٧٨-٥٧٨٣هـ/١٣٧٦-١٣٨١م)، الذي لم يتجاوز سنه ست سنوات<sup>(٣)</sup>.

### قيام دولة المماليك الجراكسة:

ظل السلطان علاء الدين علي في الحكم حتى وفاته سنة (٥٧٨٣هـ/١٣٨١م)، وهو في الثانية عشرة من عمره، وكان في استطاعة الأمير برقوق أن يلي عرش السلطنة عقب وفاة السلطان علاء الدين مباشرة، وانتشرت الإشاعات فعلاً بذلك، ولكن برقوقاً كان يدرك أن الأمور لم تنصح بعد له. هذا إلى جانب أنه كان له معارضون من كبار الأمراء، وهؤلاء -عندما سمعوا الإشاعات بترشيح برقوق للسلطنة عندئذ- قالوا: "لا نرضى أن يتسلطن علينا

(١) المقريري: السنوك (٢/٧٥-٧٧).

(٢) المصدر السابق (٢/٧٨-٨٤). سعيد عاشور: العصر المماليكي (ص ١١١ وما بعدها).

(٣) المقريري: السنوك (٣/٢٨٣-٢٨٥). قاسم عده قاسم، وعلي السيد علي: الأيوبيون والمماليك (ص ٢٠٥-٢٠٦).

مملوك كتبغا<sup>(١)</sup>.

لذلك تظاهر برقوق بالزهد في السلطنة، فجمع الخليفة والقضاة وكبار الأمراء بقلعة الجبل، وأعلن أمامهم جميعاً أن المصلحة تتطلب إبقاء وظيفة السلطنة في بيت قلاوون. وهكذا استدعى (أمير حاجي) حفيد الناصر محمد - وسنه وقتئذ إحدى عشرة سنة - وأعلنه سلطاناً سنة (٥٧٨٣/١٣٨١م)<sup>(٢)</sup>.

ولم يكن منتظراً من السلطان الطفل الجديد أن يقف في وجه الأمير برقوق الذي عين رفاقه في المناصب الكبرى. وبدأ سياسة عامة للتقرب من الناس لكسب رضاهم، فأخذ يلغي الضرائب والمكوس، وسك عملة جديدة قوية خالية من الغش والتزوير، مما أدى إلى انتعاش اقتصادي محدود، وعلى صعيد السياسة الخارجية استطاعت قواته صدّ الهجوم الذي قام به التركمان على حلب سنة (٥٨٧٣/١٣٨١م) فأعطاه النصر مزيداً من تأييد الناس له<sup>(٣)</sup>.

ولم يكن الأتراك ليسلموا مقاليد الحكم للجراكسة بهذه السهولة، ومن ثم فإنهم دبّروا مؤامرة للإطاحة ببرقوق، ولكن المؤامرة فشلت، وتم القبض على المتآمرين ونفيهم<sup>(٤)</sup>، وكان ذلك آخر العهد بالنفوذ التركي وبداية لصعود نجم المماليك الجراكسة.

وفي سنة (٥٧٨٤/١٣٨٢م) صعد اثنان من الأمراء الجراكسة من أعوان

(١) أبوالمحسن: النجوم الزاهرة (١١/٢٢٣).

(٢) المقرئزي: السلوك (٣/٣٠٨-٣١٦).

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور (١٠/٤٠٥).

(٤) المقرئزي: السلوك (٣/٤٧٣-٤٧٤).

برقوق إلى القلعة؛ حيث اقتادا السلطان الطفل ليسلماه إلى أهله. وارتقى برقوق عرش السلطنة تحت اسم السلطان الظاهر برقوق<sup>(١)</sup>، وظل المماليك الجراكسة في حكم البلاد حتى سقوطها تحت السيطرة العثمانية سنة (١٥١٧/٨٩٢٣م).

### خصائص دولة المماليك الجراكسة:

تختلف دولة المماليك الجراكسة عن دولة المماليك البحرية في عدة جوانب أهمها:

١- أن سلاطين هذه الدولة كانوا جميعا جراكسة الجنس، ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى اثنين من السلاطين هما: خشقدم وتمرغا اللذان كانا من أصل يوناني<sup>(٢)</sup>.

٢- أن المبدأ الوراثي في الحكم الذي حاول بعض سلاطين دولة المماليك البحرية تطبيقه في عناد وإصرار والذي ظهر بوضوح في عصر بيت قلاوون، هذا المبدأ لا نجد له أثراً في عصر دولة المماليك الجراكسة، وكان نجاح السلطان في مهمته يتوقف على مدى توفيقه في توجيه كبار الأمراء، وضرب طوائف المماليك بعضها ببعض، فإذا استضع السلطان الاحتفاظ بمنصبه حتى الوفاة، فإن ابنه كان يخلفه عادة، ولكن لعدة أشهر فقط حتى ينجلي الموقف بين كبار الأمراء ويستطيع أحدهم أن ينفرد بالحكم<sup>(٣)</sup>.

٣- لقد عمرت دولة المماليك الجراكسة أكثر من مائة وأربعة وثلاثين عاماً، وقد بلغ عدد من تسلطوا من المماليك الجراكسة أربعة وعشرين سلطاناً، منهم ستة

(١) المقرئبي: السوك (٣-٤٧٣-٤٧٤).

(٢) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة (١٦-٢٥٣).

(٣) سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (ص ١٤١، ١٥٩).

عشر سلطاناً تولوا العرش في تعاقب سريع؛ حيث اهتزت مكانة السلطان؛ فقد كان الأمراء هم الذين يولون السلاطين ويعزلونهم أو يقتلونهم في غالب الأحوال، ولقد تجلى في عصرهم فساد النظام السياسي الذي حكمه مبدأ: "الحكم لمن غلب" وكانت مدة حكمهم إحدى وثلاثين سنة<sup>(١)</sup>.

٤- أما هؤلاء السلاطين التسعة - وهم باقي عدد سلاطين الدولة البرجية الذين ارتبط بهم تاريخ دولة المماليك الجراكسة - فهم: برقوق، وفرج، وشيخ، وبرسباني، وجقمق، وإينال، وحشقدم، وقايتباي، وقانصوه الغوري، وقد حكم هؤلاء مائة وثلاث سنوات، ولا ترجع أهمية هؤلاء السلاطين إلى مهارتهم الحربية، بقدر ما ترجع إلى مقدرتهم على الوصول إلى أهدافهم عن طريق ضرب خصومهم وطوائف المماليك بعضها ببعض. وكثير من أولئك السلاطين مثل برقوق وشيخ وجقمق وقايتباي عرفوا بحبهم للأدب ومجالس العلم. كما عرف بعضهم بالتقوى والورع، الأمر الذي تشهد عليه مؤسساتهم الخيرية من مدارس ومساجد وسبل ومشافٍ وغيرها. وربما كانت هذه المؤسسات ستارا حاول به بعضهم التكفير عن ذنوبهم وتغطية ما قاموا به من أعمال ضد خصومهم<sup>(٢)</sup>.

٥- لقد حدث تطور كبير في نظام تربية المماليك في عصر الجراكسة أدى إلى ضعف الأسس التي قام عليها النظام السياسي المملوكي؛ فقد استعاض السلاطين والأمراء عن المماليك الأطفال الذين كانوا يخضعون لنظام صارم

(١) قاسم عبده قاسم، وعلي السيد علي: الأيوبيون والمماليك (ص ٢٠٧).

(٢) سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (ص ١٤١، ١٥٩).

من التربية والتدريب بالمماليك من الشباب اليافع الذين تخطوا سن البلوغ، وقد عرف هؤلاء باسم "الجلبان" أو "الأجلاب"، وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التطور أن ضعفت رابطة 'الأستاذية' التي كانت تربط بين المماليك وسيدهم الذي كان له الفضل في تربيتهم وتدريبهم منذ نعومة أظفارهم، كما تحلخت أواصر رابطة "الخشداشية" التي تجمع بين لمماليك في إطار زمالتهم في طائفة بعينها من ضوائف المماليك، ومن ناحية أخرى ضعفت سيطرة الأمراء والسلاطين على أولئك المماليك الجلبان مما أدى إلى كثير من حوادث الشغب والاضطراب وحروب الشوارع التي كانت طرفقات القاهرة وأزقتها مسرحاً لها<sup>(١)</sup>.

عنى أننا نلاحظ عنى الرغم من كل ذلك أن سلاطين الدولة الجركسية عملوا دائماً على حصر تلك المنازعات داخل دائرة داخلية بحتة؛ بحيث لم يمكنوا قوة خارجية من التدخل في شؤون البلاد أو الانتقاص من سيادتها. وهكذا استطاعت دولة المماليك الجركسية الصمود في وجه تيمورلنك في وقت اهترت جميع الدول القائمة في غرب القارة الآسيوية أمام هجماته<sup>(٢)</sup>.

### السلطان برقوق:

بدأت سلطنة برقوق بمعارضة سياسية وعسكرية من جانب حاكم أبلستين بالشام الأمير الطنبغ السلطاني، ولكن ثورة هذا الأمير الذي رفض الخضوع لحكم الجراكسة انتهت بانفشل، ثم بفراره إلى بلاد التتار<sup>(٣)</sup>، وفي القاهرة حاك المماليك

(١) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ٢٩٧).

(٢) المرجع السابق (ص ٢٩٨).

(٣) تقريرى: السوك (٤٨١-٤٨٢).

الأتراك مؤامرة لتولية الخليفة العباسي بالقاهرة عرش السلطنة، وانتهت هذه المؤامرة أيضا بالفشل وعزل الخليفة وتولية غيره<sup>(١)</sup>، ثم اتحدت طوائف المماليك ضد برقوق، وتزعمهم (منطاش) نائب ملطية في الشام، وهو زعيم المماليك الأشرفية -نسبة إلى الأشرف خليل بن قلاوون -ويلبغا الناصري نائب حلب بالشام أيضاً، وهو زعيم المماليك البلغارية - نسبة إلى يلبغا الخاصكي - واستطاع الثوار هزيمة جيش السلطان في دمشق وساروا في طريقهم إلى القاهرة<sup>(٢)</sup>، وعبثا حاول برقوق أن يستميل الشعب معه بإلغاء الضرائب والمكوس، وإعادة الخليفة العباسي المخلوع، ولكن أمراء المماليك تسللوا للانضمام إلى جيش الثوار القادمين من الشام. وفي ذلك الوقت كان الطاعون قد انتشر في القاهرة ليزيد الأحوال سوءاً، ولم يجد برقوق مفرأً من الحرب والاختفاء في منزل أحد الخياطين بالقاهرة. ودخل جيش يلبغا القاهرة، وصار بذلك سيد الموقف، وتم القبض على برقوق ونُفي إلى الكرك<sup>(٣)</sup>.

أما عرش السلطنة فقد أجلس الثوار عليه طفلاً كان قد اعتلاه من قبل، وهو الصالح أمير حاج ابن الأشرف شعبان، ولكن الصراع لم يلبث أن دبّ بين يلبغا ومنطاش حول السلطنة؛ مما أعطى برقوقاً فرصة لاسترداد عرشه، وكان برقوق قد تمكن من الفرار من حصن الكرك، فكون جيشاً من الجراكسة في الشام، وأنزل هزيمة بأعدائه عند صرخد (٥٧٩٢/١٣٩٠م)، ثم دخل القاهرة ظافراً حيث رحب به الأهالي واستقبلوه استقبالاً حافلاً، واستردّ عرشه ليستمر في

(١) المصدر السابق (٣/٤٩٣-٤٩٥).

(٢) المصدر السابق (٣/٦٠٣-٦١٦).

(٣) المصدر السابق (٣/٦٧٠-٧٠٤).

سلطنته الثانية تسع سنوات قضاها في مطاردة المماليك الأتراك ومصادرة ممتلكاتهم وإقطاعاتهم وتوزيعها على الجراكسة<sup>(١)</sup>.

وعندما حاولت قبائل البدو التمرد على سلطة برقوق، والاستيلاء على السلطنة والخلافة كشف برقوق المؤامرة وسجن زعماءها<sup>(٢)</sup>.

وعلى المستوى الخارجي كان هناك خطر جديد قد بدأ يهدد حدود سلطنة ممالك الجراكسة، ذلك هو خطر "تيمورلنك" الذي كان ينتمي إلى بيت من أشرف التتار.

تيمورلنك:

ولد (تيمورلنك) في مدينة سمرقند التي كانت قاعدة لعملياته العسكرية التي تمكن بواسطتها من فرض نفوذه على بلاد ما وراء النهر وخراسان وطبرستان حتى استولى على مدينة تبريز - في إيران الحالية - سنة (١٣٦٨/٥٧٧٠م)، ثم استولى على بغداد عام (١٣٩٣/٥٧٩٥م)، وبذلك بات على وشك الصدام مع دولة المماليك التي اقترب كثيرا من حدودها. ولقد أرسل تيمورلنك رسالة تفيض بالتهديد إلى برقوق الذي بادر بقتل الرسل واستعد للقتال<sup>(٣)</sup>، ولكن تيمورلنك كان مشغولاً بالقتال في الهند، فأثر أن يؤجل الصدام إلى حين، وفي الوقت نفسه ساعد برقوق حاكم بغداد على طرد الحامية التي تركها تيمورلنك فيها، ومن ثم أعلن حاكم بغداد تبعيته للسلطان في مصر، ولكن تيمورلنك استطاع استعادة

(١) قاسم عبده قاسم، وعني السيد عني: الأيوبيون والمماليك (ص ٢١٠).

(٢) المرجع السابق (ص ٢١٠).

(٣) انقريزي: السوك (٧٩١:٣).

بغداد مرة أخرى عام (١٣٩٩/٥٨٠١م)، وجاءت تلك الخطوة في الوقت الذي توفي فيه السلطان بروق<sup>(١)</sup>.

### السلطان الناصر فرج:

وقد خلفَ بروقًا في الحكم أكبر أبنائه وهو الناصر فرج -الذي كان في الثالثة عشرة من عمره- وقد أسرع إلى الشام على رأس جيش كبير عندما سمع بعودة تيمورلنك إليها، وبأنه اجتاح حلب، وأخذ يهدد دمشق، لكنه سرعان ما أدرك حرج موقفه في الشام وخاف على حياته، فعاد إلى القاهرة تاركًا جيشه يلقي أسوأ مصير على يد تيمورلنك قرب حلب عام (١٤٠٠/٥٨٠٣م)، وقد أفنعت الهزيمة السلطان فرج بعقد معاهدة مع تيمورلنك الذي توفي عام (١٤٠٥/٥٨٠٨م) دون أن يحقق حلمه في احتلال مصر<sup>(٢)</sup>.

أما السلطان الناصر فرج فقد خسر مكانته في نفوس معاصريه نتيجة لرضوخه لطلبات المغول، فقد أطلق سراح الأسرى المغول، وسك عملة باسم تيمورلنك، وسرعان ما نشب نزاع بين أمراء المماليك في مصر، فعمّت الفوضى القاهرة، واضطر السلطان فرج إلى الاختفاء عن المسرح شهرين، فحل محله في السلطنة أخوه المنصور عبدالعزيز سنة (١٤٠٥/٥٨٠٨م)، حتى هدأت الأمور، وتمكن الأمير (يشبك) من إعادة الناصر فرج إلى السلطنة في نفس العام، وقد قضى الناصر فرج بقية عهده في إقرار الأوضاع ببلاد الشام التي غدت هي

(١) المصدر السابق (٣/٩٣٦-٩٣٧).

(٢) المقريري: السوك (٣/١٠٤٤-١٠٤٦).

الأخرى مسرحاً للمنافسات بين كبار الأمراء، ولم يستطع الناصر فرج مقاومة الأمير شيخ الحمودي، والأمير نوروز، فاضطر إلى التسليم لهما سنة (٨١٥/١٤١٢م) بشرط تأمينه على حياته، ولكن على الرغم من ذلك فإن الخليفة والعلماء أفتوا بقتل الناصر فرج لسوء خلقه، وإدمانه لشرب الخمر، وتنكيهه بماليك أبيه، حتى لقد وصفه المؤرخون "بكثرة الجهل مع قلة الدين" فاغتيل بدمشق في نفس العام<sup>(١)</sup>.

### السلطان المؤيد شيخ:

لقد كانت المشكلة التي نشأت بعد مقتل الناصر فرج هي: أيهما يلي العرش الأمير شيخ أم الأمير نوروز؟ وإلى أن يتم الفصل في هذه المشكلة عهد بالسلطنة إلى الخليفة المستعين العباسي (٨١٥/١٤١٢م)، وقد استمرت سلطنة المستعين خمسة أشهر تقريبا، وكانت اسمية بحتة، إذ لم يلبث أن فاز شيخ في حلبة المنافسة بينه وبين نوروز، فخلع الخليفة، وتولى شيخ منصب السلطنة بعد أن تلقب بلقب المؤيد، ومن الطبيعي ألا يرضى نوروز بذلك الوضع، فأعلن الثورة في الشام، ورفض الاعتراف بالسلطان المؤيد شيخ، كما رفض أن يضرب السكة باسمه، الأمر الذي دفع السلطان المؤيد شيخ إلى الخروج في العام التالي لتوليته إلى الشام والتخلص من نوروز بالقتل<sup>(٢)</sup>.

أما أهم الأحداث الخارجية في عهد المؤيد شيخ، فهي قيامه بين عامي

(١) ابن إياس: بدائع الزهور (١/٣٥٣-٣٥٥).

(٢) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ٣٠٣).

(٨٢١-٥٨٢٢/١٤١٨-١٤١٩م) بحملتين على الأطراف الشمالية لبلاد الشام لإرغام الدويلات التركمانية على الحدود، وهي: قرمان، وذوالقادر، ورمضان، والعودة إلى سابق تبعيتها للدولة المماليكية<sup>(١)</sup>.

على أن مصر لم تستفد كثيرا من تلك الأعمال في الوقت الذي لم يستطع السلطان المؤيد شيخ أن يسيطر على مماليكه، مما سبب أضرارا جسيمة للأهالي الآمنين وقد خَلَفَ المؤيد شيخ ابنه أحمد سنة (٥٨٢٤/١٤٢١م) تحت وصاية الأمير (ططر)، ولم يلبث بعد أشهر أن تولى (ططر) نفسه السلطنة لفترة قصيرة، فخلفه ابنه محمد الذي لبث في الحكم عدة أشهر تحت وصاية (برسباي)، وفي سنة (٥٨٢٥/١٤٢٢م) انتزع برسباي السلطنة لنفسه وتلقب بالسلطان الأشرف<sup>(٢)</sup>.

برسباي وفتح جزيرة قبرص:

إن أهم الأحداث التاريخية في عهد السلطان الأشرف برسباي (٨٢٦-٨٤٢/١٤٢٢-١٤٣٨م) هي تمكنه من القيام بمشروع عسكري كبير، وهو غزو جزيرة قبرص وتحويلها إلى ولاية أو إقليم تابع للدولة المصرية.

ومن المعروف أن جزيرة قبرص قد صارت قاعدة لعمليات الصليبيين العسكرية والبحرية ضد المسلمين، كما أن ملكها بطرس لوزينان هاجم الإسكندرية وخرّبها عام (٥٧٦٧/١٣٦٥م).

وقد حاول المماليك غزو جزيرة قبرص زمن السلطان بيبرس (٦٥٨-

(١) المرجع السابق (ص ٣٠٤).

(٢) سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام (ص ١٦٣).

١٢٦٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م)، كما أن السلطان الأشرف شعبان شن بعض الغارات ضد جزيرة قبرص، ولكنه لم يحاول الاستيلاء عليها، وعندما تولى السلطان برسباي عرش البلاد سنة (٨٢٦هـ/١٤٢٢م) رأى أن غزو قبرص يمكن أن يحقق له كثيراً من أهدافه السياسية الداخلية. وفي السنة الثانية من حكم هذا السلطان جاءت الأخبار بأن الفرنج استولوا على مركبين من مراكب المسلمين وفيهما حوالي مائة مسلم، وبأن جانوس لوزينان ملك قبرص استولى على مركب للسلطان كانت محملة بالهدايا المرسله إلى السلطان مراد العثماني<sup>(١)</sup>.

وكان رد الفعل سريعاً وعنيفاً من جانب مصر، فقد شن الأسطول المصري ثلاث حملات لغزو جزيرة قبرص في سنوات (٨٢٨هـ/١٤٢٤م، ٨٢٩هـ/١٤٢٥م، ٨٣٠هـ/١٤٢٦م) على التوالي، وقد حققت الحملتان الأولى والثانية نتائج مرضية وعادت بكثير من الأسرى والغنائم، ولكن برسباي أصرَّ على إخضاع الجزيرة لحكمه حتى يتخلص نهائياً من المتاعب التي يسببها بقايا الصليبيين في هذه الجزيرة، وقد تمكنت الحملة الثالثة من تدمير ليماسول ميناء الجزيرة، وأسر الملك القرصي نفسه، ثم الاستيلاء على نيقوسيا عاصمة الجزيرة، ورفع الرايات المصرية على مبانيها<sup>(٢)</sup>.

### السلطان جقمق وغزو جزيرة رودس:

مات السلطان برسباي سنة (٨٤١هـ/١٤٣٨م) غير مأسوف عليه من شعبه بسبب تعسفه في سياسته الاقتصادية وتطرفه في تطبيق سياسة الاحتكار، مما

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٤/٢٧٥-٢٧٦).

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٤/٢٧٦-٢٨١)، قاسم عدده قاسم، وعلي السيد عني: الأيوبون

أنزل ضرراً بليغاً بالعباد، ولم يستطع العزيز يوسف بن برسباي - وكان في الرابعة عشرة من عمره - أن يحتفظ بالعرش أمام نفوذ أقوى الأمراء عندئذ وهو جقمق، الذي تولى السلطنة بعد قليل.

وكان حكم الظاهر جقمق (٨٤٢-٥٨٥٧/١٤٣٨-١٤٥٣ م) معتدلاً إذا قيس بحكم برسباي، كما عرف عن جقمق تدينه وورعه، وقد نجح في القضاء على كل الثورات التي قامت ضده مثل ثورة الأمير قرقماس الشعباني أتاك العسكر في مصر، وثورة نائب الشام في دمشق، وفتنة العبيد في الجزيرة عام (٥٨٤٦/١٤٤٢ م)<sup>(١)</sup>.

وفي عهد السلطان الظاهر جقمق تم غزو جزيرة رودس التي كانت مركزاً هاماً للصليبيين بعد طردهم من فلسطين، فقد اتخذها فرسان الأستبارية قاعدة لهم يشنون منها غاراتهم على نحو ما كان آل لوزينان يفعلون بقبرص<sup>(٢)</sup>.

وقد أرسل السلطان جقمق ثلاث حملات ضد رودس، وكانت الهزيمة من نصيب الحملة الأولى التي استطاع الأستبارية أن يلحقوا بها بعض الخسائر، وحققت الحملة الثانية بعض النتائج الإيجابية حين حطمت بعض الحصون ثم عادت إلى مصر بفعل عواصف الشتاء التي أعاقت عملياتها العسكرية. أما الحملة الثالثة فقد فشلت في تحقيق أهدافها، وتم عقد صلح بين الطرفين بعد أن تعهد الأستبارية بعدم العدوان على السفن التجارية الإسلامية

(١) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ٣٠٩-٣١٠).

(٢) إبراهيم علي طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة. القاهرة ١٩٦١ م. (ص ٩٣).

العامة في البحر المتوسط<sup>(١)</sup>.

### الدولة المملوكية بعد وفاة السلطان جقمق:

توفي السلطان الظاهر جقمق سنة (١٤٥٣/٥٨٥٨م) بعد أن عهد -وهو على فراش الموت- لابنه عثمان بولاية العهد، ولم يستطع المنصور عثمان البقاء في السلطنة سوى ثلاثة وأربعين يومًا، إذ عزله الأمير (إينال)، وحل محله بعد أن تلقب بلقب (الأشرف)، وظل يحكم لمدة ثماني سنوات (١٤٥٣/٥٨٦٥-٨٥٧م)، ثار أثناءها المماليك الجلبان سبع مرات، وفيما عدا هذه الفتن والمنازعات والقتال الداخلية، لا يوجد ما يستحق الذكر في الفترة التالية التي تعاقب فيها على عرش سلطنة المماليك أحمد بن إينال (١٤٦١/٥٨٦٥م)، فالظاهر سيف حشقدم (١٤٦٧-١٤٦١/٥٨٧٢-٨٦٥م)، فالظاهر سيف يباي المنقب بالجنون (١٤٦٧/٥٨٧٢م) فالظاهر تمرغا الرومي (٥٨٧٢/ديسمبر ١٤٦٧- يناير ١٤٦٨م).

وهكذا يبدو لنا كيف تعاقب سلاطين المماليك في سرعة متناهية، وكيف أن بعضهم لا يكاد يعتلي العرش أياما حتى يعزل، مما يشهد على عدم الاستقرار، ومدى الاضطراب الذي أصاب سلطنة المماليك في ذلك العصر، بل إن أحد سلاطين المماليك ظل سلطانا مدة ليلة واحدة، فنسمع أن خير بك اعتلى العرش سنة (١٤٦٨/٥٨٧٢م) بعد عزل تمرغا، وكان اعتلاؤه العرش في المساء وعزله في الصباح التالي، مما جعل المعاصرين يطلقون عليه (سلطان ليلة)<sup>(٢)</sup>.

(١) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ٣١٣-٣١٥).

(٢) اس إياس: بدائع الزهور (٢/٨٨-٨٩).

ويبدو الفارق واضحاً بين ما كان عليه المماليك في أوائل عصرهم من نظام وضاءة، وبين ما آل إليه أمرهم في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر للميلاد من انحلال حتى لقد وصفهم المؤرخ ابن تغري بردي بقوله: "ليس لهم صناعة إلا نهب البضاعة يتعدون على الضعيف ويشرّهون حتى الرغيف"<sup>(١)</sup>.

### السلطان الأشرف قايتباي:

لم تستقر الأوضاع في سلطنة المماليك بعد وفاة جقمق (١٤٥٣/٥٨٥٨م) إلا بقيام السلطان الأشرف قايتباي بأعباء منصب السلطنة سنة (١٤٦٨/٥٨٧٢م).

ذلك أن السلطان قايتباي ظل في الحكم قرابة تسعة وعشرين عاماً (٨٧٢-٩٠١/١٤٦٨-١٤٩٦م)، وهي مدة طويلة لم يسبقه إليها أحد من سلاطين المماليك عدا السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وقد أثبت السلطان قايتباي طوال فترة حكمه أنه كان من أقدر السلاطين المماليك في ميدان الحرب وأوسعهم خبرة بشؤون العالم الخارجي وأكثرهم شجاعة وحكمة<sup>(٢)</sup>.

وعسى الرغم من ثورات الجلبان في عهد قايتباي، وجشعهم في الحصول على الأموال دون تقدير لظروف البلاد والأخطار التي هددتها في ذلك الوقت، فإن قايتباي استطاع أن يواجه في جرأة وعزيمة المشاكل الكبرى التي هددت الأطراف الشمالية لدولة المماليك في شمال الشام والعراق وشرق آسيا الصغرى، وأهم هذه الدول دولة دلاغادر ودولة رمضان ودولة قرمان، ثم دولتي: الشاه

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٧/٣٢٩).

(٢) سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك (ص ٣١٨).

البيضاء والشاه السوداء<sup>(١)</sup>.

وفي الوقت الذي حرص فيه السلطان قايتباي على تأمين حدود دولته من ناحية الشمال، فإنه لم يهمل شؤون رعاياه ودولته، حقيقة أنه تعسف في جمع الأموال وفرض الضرائب إلا أنه استغلها في إقامة المنشآت العديدة وتجهيز الجيش<sup>(٢)</sup>.

سأت أحول مصر في أواخر عهد السلطان قايتباي؛ إذ ضاق الناس بكثرة الأعباء المالية المنقاة عن عاتقهم، كما انتشر الطاعون انتشاراً خطيراً سنة (١٤٩٢/٨٩٧م)، وقتك بالناس فتكا ذريعاً، وزاد الموقف سوءاً انعدام الأقوات وانخفاض النيل وانتشار الطاعون بالمواشي، وفي وسط تلك الظروف القاسية لم يكف المماليك عن الوقوع في منازعات مع بعضهم البعض سنة (١٤٩٥/٩٠٠م). أما السلطان قايتباي فقد استبد به المرض وتقدمت به السن حتى جاوز الثمانين من عمره، ولم يجد بُدّاً من التنازل عن العرش لابنه محمد، ثم توفي قايتباي في اليوم التالي (١٤٩٦/٩١٠م)<sup>(٣)</sup>.

الدولة المملوكية بعد وفاة السلطان قايتباي:

ومن المعنوم أن محمد بن قايتباي الذي تلقب بالناصر كان صغيراً، إذ كان في الرابعة من عمره، وقد اندلع الصراع بين أمراء المماليك حول الوصاية على السلطان الصغير، على أساس أن هذه الوصاية تعتبر خطوة تمهيدية للتخلص من

(١) إبراهيم عمي ضرحان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة (ص ١٩٣).

(٢) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ٣٢١-٣٢٢).

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور (٣/٢٨٧).

ذلك الطفل والفوز بمنصب السلطنة. وكان أن خرج الأمير قانصوه فائزاً من تلك الجولة وبذلك تولى منصب الأتابكية واستبد بالسلطنة<sup>(١)</sup>.

وإذا كان قانصوه قد استطاع عزل محمد بن قايتباي ليعلن نفسه سلطاناً عام (١٤٩٧/٥٩٠٢م) "وما كان أغناه عن هذه السلطنة" على حد قول ابن إياس، فإن خصومه لم يلبثوا أن خلعوه وانتهى أمره بالقتل، في حين أعادوا الناصر محمد بن قايتباي مرة أخرى إلى السلطنة<sup>(٢)</sup>.

وعندما عاد الناصر محمد بن قايتباي إلى عرش السلطنة، استثار الناس بحماقته وطيشه، وميله إلى سفك الدماء، في الوقت الذي استبدّ فيه المماليك الجلبان بالأمر وعاثوا فساداً في البلاد والعباد، وأخيراً ضاق الأمراء باستبداد المماليك الجلبان، وخضوع محمد بن قايتباي لرأيهم، فقتلوا السلطان محمد سنة (١٤٩٨/٥٩٠٤م)، واختاروا شريكهم الظاهر قانصوه -وهو خال القتل- ليتولى السلطنة<sup>(٣)</sup>.

وهكذا تعاقب السلاطين بسرعة في تلك الفترة المضطربة من تاريخ سلطنة المماليك، فعُزل الظاهر قانصوه ليتولى بدله الأشرف حانبلاط (سنة ٩٠٥هـ/ يونيو ١٥٠٠م) ثم عزل وخنق هذا الأخير ليحل محله العادل طومان باي (الأول) سنة (٩٠٦هـ/يناير ١٥٠١م)، ولم يبق العادل طومان باي في منصب السلطنة سوى بضعة أشهر حتى خنق وحل محله الأشرف قانصوه

(١) المصدر السابق (٣/٢٣٥). سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص٣٢٢-٣٢٣).

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور (٣/٣٣٥)، وما بعدها.

(٣) المصدر السابق (٢/٣٥٤).

الغوري في (إبريل سنة ١٥٠٦م/١٥٠٦م)<sup>(١)</sup>.

### السلطان قانصوة الغوري:

تُرب قانصوه الغوري من منصب السلطنة عندما عرضه عليه الأمراء وأخذ "يبتنع من ذلك ويكي بسبب الميتة الوحشية التي تعرض لها سلاطين المماليك الأواخر عند عزلهم، ولكنه قَبِلَ أخيراً هذا المنصب بعد أن اشترط عليهم عدم قتله إذا أرادوا خلعه"<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من قوة شخصية قانصوه الغوري "أقوى أمراء زمانه" وطول مدة حكمه، فإن ذلك كله لم يمنع دولة سلاطين المماليك أن تمضي إلى مصيرها المحتوم، فقد وصل التدهور الداخلي إلى مداه، ولم يكن ممكناً أن تصمد الدولة لشهارة من الداخل في وجه الأخطار القادمة من الخارج، وعلى رأسها خطر البرتغاليين والعثمانيين).

### - الخطر البرتغالي يطرق البحر الأحمر:

بعد أن عرف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح سنة (١٤٩٧م/١٤٩٧م) بمساعدة الملاح المسلم أحمد بن ماجد، ما لبثوا أن أوجدوا لأنفسهم قاعدة للتوسع في كلكتا بالهند سنة (١٥٠٠م/١٥٠٠م)، ولقد كان ذلك خطراً كبيراً يهدد الدور العالمي للتجار المسلمين، ولدولة المماليك التي كانت تفيد كثيراً من مرور التجارة عبر مصر، وعندما استنجد أمراء المسلمين في الهند

(١) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ٣٢٤).

(٢) ن. إيانس: بدائع الزهور (٤-١٦-١٧).

بسلطين المماليك يطلبون إمدادهم بالقوات اللازمة لصد البرتغاليين، وحاول قانصوه الغوري مساعدتهم، أرسل الأسطول المصري الذي انضم إلى قوات مسلمي الهند، ولكن الهزيمة كانت من نصيب القوات الإسلامية في معركة (ديو البحرية)، وبدأ التغلغل الأوروبي يصل إلى مدها، وهاجم البرتغاليون عدن عند مدخل البحر الأحمر سنة (١٥١٣/١٩١٩م)، وكانت ضربة قاصمة للهبة المصرية<sup>(١)</sup>.

### الخطر العثماني في الشمال:

كان للعلاقات بين العثمانيين والمماليك اتجاهان أساسيان، فقد كانت الدولتان تتحالفان ضد الخطر البرتغالي الذي كان يهدد السيادة المملوكية على طريق البحر الأحمر، وضد غارات تيمورلنك على حدود الدولتين، وضد غارات فلول الصليبيين، ومشروعات أوروبا لإحياء الحركة الصليبية. ومن ناحية أخرى بدأ التنافس بين الدولتين بسبب حدودهما المشتركة<sup>(٢)</sup>.

وتصاعدت التوترات بين الدولتين حتى انتهت بمعركة بين الجيش المملوكي بقيادة قانصوه الغوري، والجيش العثماني بقيادة السلطان سليم الأول (بمصر دابق) في أغسطس سنة ١٥١٦م/١٥٢٣هـ، واتضح حالة الدولة المملوكية المتدهورة في صفوف جيش قانصوه الغوري الذي كان الخلاف فيه شديدا بين طوائف المماليك، ولعبت الخيانة دورها - إلى جانب التفكك - حتى خر السلطان قانصوه الغوري نفسه صريعا تحت سنانك الخيل العثمانية<sup>(٣)</sup>. وتوغل العثمانيون جنوبا واستولوا على مدن الشام

(١) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ٣١٦-٣٣٠). عبدالحليم عويس: دراسة لسقوط ثلاثين دولة (ص ١٣١).

(٢) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ٣٣٠-٣٣١)، أوروبا في العصور الوسطى (١/٦٨٣).

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور (٥/١٠١). عبدالحليم عويس: دراسة لسقوط ثلاثين دولة (ص ١٣٢).

كلها، حتى دخل السلطان سليم دمشق وصلّى بها الجمعة<sup>(١)</sup>.

### السلطان طومان باي وسقوط دولة المماليك:

اختير طومان باي سبطاً عام (٥٩٢٣هـ / أكتوبر ١٥١٦م) بعد مقتل السلطان قانصوه الغوري في مرج دابق وتلقب بلقب الأشرف، وهو آخر سلاطين المماليك في مصر والشام<sup>(٢)</sup>.

أرسل السلطان سليم الأول العثماني إلى طومان باي يطلب منه الدخول في طاعته فرفض وقرر المقاومة أمام جيش السلطان سليم الأول العثماني الذي أخذ يتجه جنوباً لغزو مصر. وبذل طومان باي خلال سلطنته القصيرة التي استمرت ثلاثة شهور جهوداً مضنية للدفاع عن مصر، لكن الدولة المملوكية كانت قد سقطت بالفعل، ولم تُجد محاولات طومان باي شيئاً في إحياء جسد الدولة الذي كان قد حانت ساعته الأخيرة<sup>(٣)</sup>.

كان السلطان طومان باي يحاول أن يلم شعث القوات المملوكية التي ركنت إلى الدعة وهربت من القتال دفاعاً عن البلاد، مكتفية بحروب الشوارع والحجوم على الأسواق وغير ذلك من مظاهر التفسخ والانهيار التي وصمت الطبقة الحاكمة في مصر آنذاك. وعلى الرغم من تواتر الأنباء يوماً بعد يوم عن اقتراب قوات العثمانيين من القاهرة، ظل المماليك سادريين في لهوهم وعبثهم، وحين

(١) المصدر السابق (١٠٢/٥).

(٢) المصدر السابق (١٠٣/٥).

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور (١١١/٥). سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ٢٣٨-٢٣٩).

حاول طومان باي أن يستعد لملاقاة الغزاة صدمته الحقائق القاسية، من خزانة خاوية، وموارد مستهلكة، وجيش متشردم، وكانت النتيجة أن أहार الممالك أمام العثمانيين في معركة الريدانية (١٥١٧/٥٩٢٣م)<sup>(١)</sup>.

وحين اهتزّ جسد طومان باي في مشنقته على باب زويلة، كان ذلك فصل الحتام بالنسبة للدولة المملوكية التي تحملت عبء التصدي للمغول والصليبيين، ثم تخلت عن دورها لقوة إسلامية صاعدة هي الدولة العثمانية. أسباب سقوط دولة الممالك:

تضافرت عدة ظروف داخلية وخارجية على إنهاء الدور الذي لعبه الممالك في تسيير دفة التاريخ الإسلامي، منها:

- ١- اهتزاز مكانة السلطان؛ فقد كان الأمراء هم الذين يولون السلاطين ويعزلونهم، أو يقتلونهم في غالب الأحوال. ولقد تجلّى في عصر الجراكسة فساد النظام السياسي الذي حكمه تمامًا مبدأ "الحكم لمن غلب"<sup>(٢)</sup>.
- ٢- ضعف النظام السياسي المملوكي بسبب التطور الذي حدث في تربية الممالك؛ فقد استعاض السلاطين والأمراء عن الممالك من الأطفال الذين كانوا يخضعون لنظام صارم من التربية والتدريب بالممالك من الشباب اليافع الذين تخطوا سن البلوغ، وقد عرف هؤلاء باسم "الجلبان" أو "الأجلاب"، وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التطور أن ضعفت رابطة "الأستاذية" التي كانت تربط بين الممالك وسيدهم الذي كان له الفضل في تربيتهم وتدريبهم منذ

(١) إبراهيم علي طرخان: مصر في عصر دولة الممالك الجراكسة (ص ٢٢١-٢٣١).

(٢) قاسم عبده قاسم، وعلي السيد علي: الأيوبيون والممالك (ص ٢٠٦-٢٠٧).

نعومة أظفارهم، كما تخنخلت أواصر رابطة "الخشداشية" التي تجمع بين المماليك في إطار زمالتهم في ضائفة بعينها من طوائف المماليك<sup>(١)</sup>.

٣- ضعفت سيطرة الأمراء والسلاطين على أولئك المماليك الجلبان، مما أدى إلى كثير من حوادث الشعب والاضطراب وحروب الشوارع التي كانت طرقات القاهرة وأزقتها مسرحاً لها<sup>(٢)</sup>، وفي الشطر الأخير من العصر المملوكي زاد معدل الحوادث العنيفة لتي كان مصدرها المماليك الجلبان. وعلى الرغم من أن الأوامر كانت تصدر من حين لآخر بعدم تعرض المماليك للناس والساعة والتجار، فإنه يبدو أن عجز السلاطين وتدهور سلطة الدولة جعل تلك الأوامر تبدو "... كضرب رباب، أو كطَنّ ذباب..." على حد تعبير المؤرخ ابن تغري بردي<sup>(٣)</sup>.

٤- على الرغم من تدهور أحوال الدولة المملوكية السياسية، واختيار الاقتصاد، فإن مرتبات المماليك النقدية تزايدت نتيجة لتدهور الأرض الزراعية التي كانت تمنح لهم كإقطاعات من ناحية، وكثرة أعداد المماليك الجلبان من ناحية ثانية، وتفشي الرشوة والفساد من ناحية ثالثة، ولم تعد الدولة قادرة على الوفاء بهذه المطالب مما دفع المماليك إلى التمرد وإثارة الشعب<sup>(٤)</sup>.

٥- التدهور الأمني كان الصفة السائدة في عصر المماليك الجراكسة؛ ذلك أن حوادث سرقات الأسواق على أيدي عصابات كبيرة العدد من الفرسان

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق (ص ٢٠٧).

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٦/٩٨).

(٤) قاسم عبده قاسم، وعني السيد عني: الأيوبيون والمماليك (ص ٢٠٨).

والمشاة أصبحت عادة في أخبار ذلك العصر<sup>(١)</sup>.

٦- كذلك فإن قبائل العربان بدأت تهاجم ضواحي المدن في وضح النهار، ينهبون الناس، وقد يقتلون البعض، أو يطلقون سراح بعض المسجونين دون أن يجدوا من يطاردهم أو يقف في طريقهم. كما تعددت حوادث العثور على قتلى من المماليك دون معرفة القاتل<sup>(٢)</sup>.

٧- اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح واحتلالهم لعدن وهزيمتهم للمماليك في معركة "ديو البحرية" سبب أضراراً سياسية واقتصادية بالغة في كيان الدولة المملوكية.

٨- وأخيراً ظهور العثمانيين الذين كانت نهاية الدولة المملوكية على أيديهم مستثمرين كل هذه الظروف ومستعنين بما على إثناء الدور الذي قام به المماليك، لكن -مع كل ذلك- كان أكبر سبب هوى بالمماليك وزحزحهم من مكانهم في التاريخ، هو أنهم نسوا الرسالة التي عاشوا من أجلها، وتعاقبوا مع الشعوب التي حكموها بشأنها، نسوا رسالتهم في الدفاع الخارجي عن هذه الدول، ونسوا السيف ونسوا الجهاد، وتبدلوا عند أسلوب بال، وانقلبوا من قوة حماية خارجية للأمة، إلى متسلطين داخليين عليها يمتعون حركتها وتطورها<sup>(٣)</sup>.

ومن ثم، ونتيجة لذلك كله، فقد تخلت دولة المماليك -رغمًا عنها- عن دورها لقوة إسلامية صاعدة جديدة هي الدولة العثمانية التي كان عليها أن تصون العالم العربي والإسلامي عامة من أطماع الاستعمار الغربي على مدى فترات طويلة امتدت أكثر من أربعة قرون.

(١) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي (ص ٥٩-٦٠).

(٢) المرجع السابق (ص ١٦٠).

(٣) عبدالحليم عويس: دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية (ص ١٣١-١٣٢).

## حضارة المماليك

الإدارة ونظم الحكم:

### ١- السلطان:

تزعّم دولة المماليك سلطان؛ لم يتول الحكم نتيجة لحق شرعي موروث، وإنما رشحته قوته ومواهبه وكثرة ممالিকে لتولي السلطنة، ومع أن السلطان تمتع بنفوذ واسع في الدولة، إلا أنه لم يستغن عن استشارة كبار رجال الدولة في مهام الأمور، وبخاصة في المسائل المتعلقة بالحرب والسلم، ولذلك وجد في العصر المملوكي مجلس مشورة كان يعقد برئاسة السلطان أو من يقوم بالوصاية عليه - إن كان السلطان صغيراً - وعضوية أتاك العسكر، والخليفة، والوزير، وقضاة المذاهب الأربعة، وأمراء المؤمنين، وعددهم أربعة وعشرون أميراً. هذا مع ملاحظة أن السلطان لم يكن منزماً بدعوة مجلس المشورة أو الأخذ برأيه، وإنما ترك ذلك لرغبة السلطان<sup>(١)</sup>.

### ٢- نواب السلطان:

وجد نواب للسلطان في القاهرة والبلاد الشامية. وكان نائب السلطان في القاهرة ساعد السلطان الأيمن في تصريف شئون الدولة، ويشترك معه في توزيع الإقطاعات ومنح ألقاب الإمارة، وإذا كان هذا النائب ينوب عن السلطان في حضوره فقد صار لقبه: "نائب الحضرة" أما إذا كان لا يجوز له أن ينوب عن السلطان إلا في غيبته، فيكون لقبه: "نائب الغيبة" وهو أقل درجة من الأول<sup>(٢)</sup>.

(١) القيقسدي: صح الأعشى (٤/١٦-١٧).

(٢) المصدر السابق (٤/١٦-١٧).

### ٣- الأتابك:

وهو القائد العام للجيش، وقد أتاحت له وظيفته التمتع بنفوذ كبير في الدولة.

### ٤- الوزير:

وقد تضاءلت وظيفته في عصر المماليك نتيجة لوجود نائب السلطنة، بحيث لم تعد اختصاصاته تنفيذ تعليمات السلطان ونائب السلطنة والإشراف على شؤون الدولة المالية<sup>(١)</sup>.

### ٥- الولاية:

تولوا الإدارة المحلية، وقد اختيروا من بين الأمراء، وهناك مدينة واحدة في مصر وهي الإسكندرية عُين لها نائب سلطنة سنة (٥٧٦٧هـ/١٣٦٥م)، وكان عدد الولاية في الوجه القبلي ثمانية، وفي الوجه البحري عشرة، وفي عصر دولة المماليك الجراكسة وجد نائب لكل من الوجهين البحري والقبلي مهمته الإشراف على جميع الولاية والعمال الذين يقومون بإدارة شؤون الوجه التابع له<sup>(٢)</sup>.

### ٦- الدواوين:

اعتمد الجهاز الإداري المملوكي على مجموعة من الدواوين الكبيرة التي ضمت عددًا ضخمًا من الموظفين لإدارة مرافق الدولة المتنوعة، وأهم هذه الدواوين هي:

- أ- ديوان الجيش: ويختص بالإشراف على طوائف الجند وتوزيع الإقطاعات عليهم.
- ب- ديوان الإنشاء: ومهمته تلقي الرسائل المختلفة التي ترد إلى السلطان وإبلاغها

(١) المصدر السابق (٦٤/١).

(٢) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ٣٦٥-٣٦٦).

إليه، وإعداد الردود عليها، وكانت تتبع هذا الديوان إدارة البريد، وهي إدارة ضخمة في عصر المماليك تولت شئون البريد البري والحمائم الزاجل<sup>(١)</sup>.

ج- ديوان الأحماس: أي الأوقاف، ويختص برعاية شئون المؤسسات الدينية والخيرية من مساجد ومدارس وزوايا، كما يشرف على الأراضي والعقارات المحبوس عليها.

د- ديوان النظر: ويختص بمراقبة حسابات الدولة، والإشراف على إيراداتها ومصروفاتها، وما يتبع ذلك من القيام بصرف مرتبات الموظفين<sup>(٢)</sup>.

#### ٧- القضاء:

اهتم سلاطين الدولة المملوكية بإدارة القضاء اهتماماً بالغاً، وكان أهم تطوّر حدث في النظام القضائي في عصر المماليك هو ما قام به السلطان الظاهر بيبرس سنة (٥٦٦٥هـ/١٢٦٥م) من تعيين أربعة من القضاة يمثلون المذاهب الأربعة، بعد أن كان الوضع منذ أيام صلاح الدين على قاضي قضاة واحد وهو الشافعي<sup>(٣)</sup>. وقد قام القضاة في ذلك العصر بدور هام في المجتمع؛ إذ امتدت اختصاصاتهم إلى مختلف أنواع القضايا المدنية والجنائية، وكانت جلسات المحاكم تعقد في دور القضاة، فإن لم توجد عقدت في المساجد<sup>(٤)</sup>.

كما وجدت محكمة عليا تعقد في دار العدل برئاسة السلطان، عرفت باسم

(١) القلقشندي: صبح الأعشى (١١٥٠١).

(٢) سعيد عاشور: العصر المملوكي (ص ٣٥٢).

(٣) المقريري: السووك (١/٥٣٨-٥٣٩).

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى (٤ ٣٦).

محكمة المظالم، ومهمتها النظر في القضايا التي اختص السلطان بالنظر فيها مباشرة أو التي يستأنفها أصحابها أمام السلطان بعد أن يحكم فيها القضاء العادي، أو تلك التي تنشأ بين الحكام والمحكومين<sup>(١)</sup>.

أما رجال الجيش فكان لهم "قضاة العسكر"، وهم مختصون بشؤون الجند، وليس لهم ولاية على غيرهم، كما يفصلون في القضايا الناشئة بين الجند والمدنيين، وقد جرت العادة أن يصحب قضاة العسكر السلطان في أسفاره<sup>(٢)</sup>.

### النظم الحربية:

إن المؤرخين المعاصرين لدولة المماليك وصفوها بأنها دولة البرين والبحرين، بمعنى أنها ملكت بر مصر وبر الشام، وأطلت على البحرين الأحمر والمتوسط:

### أولاً: الجيش:

لقد كانت دولة المماليك دولة إقطاعية حربية؛ فطبيعة المماليك ونظامهم والرغبة في اقتنائهم نبعت من فكرة أساسية واحدة، هي تكوين فئة من المحاربين الأقوياء وإعدادهم ليكونوا درعاً حامياً لأساتذتهم الذين قاموا بشرائهم وتعهدوهم بالتربية. ولا يكاد المملوك يدرك سن البلوغ، حتى يُشرع في تعليمه فنون الحرب "من الرمي بالنشاب واللعب بالرمح وركوب الخيل وأنواع الفروسية"<sup>(٣)</sup>. وعندما ينتهي المملوك من هذه المرحلة التعليمية ينقل إلى الخدمة ويمر بأدوارها رتبة بعد رتبة حتى يصير من الأمراء<sup>(٤)</sup>.

(١) المقرئزي: السلوك (١/٥٣٩).

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى (٤/٣٦-٣٧).

(٣) المقرئزي: السلوك (٢/٥٢٤).

(٤) المقرئزي: الخطط (٣/٣٤٧).

وهو في أول الأمر يتقاضى جامكية -أي مصروفًا- بتدرج من ثلاثة دنانير إلى خمسة إلى سبعة إلى عشرة، ولكنه بعد ذلك ينقل من الجامكيات إلى الإقطاعات، وإلى إمرة العشرات، ثم إلى الطبلخان، ومنهم من ينقل إلى مقدمة الألوفا وإمارة المثين. وهو إذا كان مملوكًا فإن إقطاعه يتراوح بين زمام قرية وزمام نصف قرية، أما إذا أصبح أميرًا فإن إقطاعه يتراوح بين زمام قرية وعشر قرى<sup>(١)</sup>.

ويتولى السلطان بنفسه توزيع الإقطاعات في معظم الحالات. فإذا تقدم إليه المملوك سأله عن اسمه وأصله وتاريخ قدومه إلى الديار المصرية وأستاذه الذي اشتراه من تاجرهم وصفاته حتى أصبح فارسًا<sup>(٢)</sup>. فإذا وقع اختيار السلطان عليه ليمنحه إقطاعًا أمر ناظر الجيش بأن يكتب له ورقة تسمى: المثال تحدد حدود إقطاعه، ثم تخرج الوثيقة النهائية للإقطاع من ديوان الإنشاء<sup>(٣)</sup>.

وعلى هذا فقد كان الإقطاع في عصر المماليك يرتبط ارتباطًا قويًا متينًا بديوان الجيش، حتى لقد أطلق على هذا الديوان اسم ديوان الإقطاع. وقد تكوّن الجيش في عصر دولة المماليك من ثلاث فرق أساسية:

الفرقة الأولى: طائفة المماليك السلطانية: وتضم ممالك السلطان القائم بالحكم، وهي "أعظم الأجناد شأنًا وأرفعهم قدرًا وأشدّهم قربًا وأوفرهم إقطاعًا ومنهم تؤمّر الأمراء رتبة بعد رتبة"<sup>(٤)</sup>.

(١) القلقشندي: صح الأعشى (٥٠/٤). سعيد عاشور الأيوبيون والمماليك (ص ٣٦٩).

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/٥١-٥٢).

(٣) القلقشندي: صح الأعشى (١٣/١٥٣).

(٤) القلقشندي: صح الأعشى (٤/١٥).

الفرقة الثانية: طائفة مماليك الأمراء: وهم المماليك الذين اشتراهم الأمراء المحيطون بالسلطان، كل على حسب درجته ورتبته، وتعهدوهم بالرعاية، ومن هؤلاء كانت تتكون الوحدات الحربية التي ترافق السلطان في حروبه، وكل وحدة تتألف من أمير على رأس مماليكه.

الفرقة الثالثة: طائفة أجناد الحلقة: وهم مماليك السلاطين والأمراء السابقين وأولادهم الذين احترفوا الجندية وأصبحوا بمثابة جيش ثابت للدولة لا يتغير بتغير السلطان، ويشرف على كل ألف منهم وقت الحرب أمير مائة مقدم ألف، أي أمير له الحق في امتلاك وشراء مائة مملوك لنفسه، ويقود وقت الحرب ألف جندي من أجناد الحلقة<sup>(١)</sup>.

مجلس الجيش: كان السلطان لا يُقدِّم على الحرب عادة إلا بعد استشارة مجلس الجيش الذي يضم كبار الأمراء فضلاً عن الخليفة وقضاة القضاة الأربعة، فإذا تقرر الحرب جمع الجند وأقسموا يمين الملاك والطاعة للسلطان، ثم تفتح (السلاح خاناة) أبوابها لتوزيع السلاح على المحاربين<sup>(٢)</sup>.

التشكيل: أما عن تشكيل الجيش فيقوم على ترتيب الجند على هيئة صفوف متراصة تكوّن أقسام الجيش الثلاثة -وهي القلب والميمنة والميسرة- فضلاً عن المقدمة، ويكون القائد العام للحملة عادة في قلب الجيش، وربما في مقدمته ليستثير روح الإقدام والشجاعة في الجند<sup>(٣)</sup>.

(١) المصدر السابق: (١٥/٤).

(٢) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ٣٧٢).

(٣) المرجع السابق (ص ٣٧٢).

كما كانت الطبول والموسيقى جزءاً أساسياً في الجيش المالكي، فكانت تحمل على عشرين بغلاً، ويعتمد عليها في تنظيم الحركة، وإعطاء الإشارات ببدء القتال، هذا فضلاً عن الأعلام والرايات التي كانت تتقدم الجيش ويلتف حولها كل قسم من أقسامه<sup>(١)</sup>.

وفي النهاية فإن الممالك كانوا فرساناً قبل كل شيء، واعتمد نظامهم بصفة أساسية على افروسية، لذلك كان الجيش المالكي يتألف أساساً من الفرسان، الأمر الذي جعلهم يهتمون بالخيول اهتماماً بالغاً، ويعينون كبار الموظفين للإشراف عليها وعلى أدواتها وعُددها كالألجُم والسروج وغيرها، فضلاً عن الإنفاق بسخاء على الإصطبلات الخاصة بالجيش<sup>(٢)</sup>.

### ثانياً: الأسطول:

كان من الطبيعي أن يدرك سلاطين الممالك -الذين شاركوا في محاربة لويس التاسع أيام كانوا مجرد أمراء- خطورة الأسطول بالنسبة لأمن العباد وسلامة البلاد.

ولهذا ما كاد السلطان الظاهر بيبرس يرتقي عرش السلطنة حتى نظر في أمر الشواني الحربية، واستدعى رجال الأسطول، ومنع الناس من التصرف في الأخشاب وتقدم بعمارة الشواني في ثغري الإسكندرية ودمياط، وصار ينزل بنفسه إلى دار الصناعة بمصر ويرتب ما يجب تربيته من عمل الشواني ومصالحها، واستدعى شواني الثغور إلى مصر، فزادت على الأربعين قطعة سوى الحراريق والطرائد، فإنما كانت

(١) القنقندي: صبح الأعشى (٣ ٤٧٥).

(٢) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ٣٧٣).

عدة كثيرة"<sup>(١)</sup>، وتابع سلاطين المماليك الاهتمام بالأسطول الذي كان له دور كبير في مساندة القوات البرية التي قامت بتطهير بلاد الشام من آخر البقايا الصليبية.

### الصناعة:

نشطت بعض الصناعات في هذا العصر كصناعة النسيج والأواني المعدنية، والزجاج والجلود، وأصبحت لمصر شهرة واسعة فيها، وكصناعة الأسلحة والسفن، واشتهرت في هذا العهد الصناعات الدقيقة وفن الزخرفة من مصنوعات فنية حديدية، وأدوات نحاسية وأواني زجاجية ومحفورات خشبية<sup>(٢)</sup>.

### التجارة:

لقد كانت التجارة المصدر الأول للثروة الهائلة في العصر المملوكي بسبب غلق معظم طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب منذ القرن الثالث عشر الميلادي بسبب حركة المغول التوسعية، وبذلك لم يبق آمنًا إلا طريق البحر الأحمر ومصر، مما جعل مصر تقوم في ذلك الوقت بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب، وأدرك سلاطين المماليك ما يمكن أن تعود به عليهم التجارة الخارجية من ثروة، فاهتموا بتنشيطها وتأمين مسالكها، وإنشاء المؤسسات اللازمة للتجارة كالفنادق والقيساريات والأسواق وغيرها. كذلك حرصوا على التوّدّد إلى قوى البحر الأحمر من ناحية، وإلى التجار الأوروبيين المترددين على الإسكندرية ودمياط من ناحية أخرى<sup>(٣)</sup>.

وقد أمر السلطان قلاوون نوابه بالثغور أن يحسنوا معاملة التجار ويلاطفوهم،

(١) المقرئزي: المواعظ والاعتبار (١٢/١٩٤).

(٢) زكي محمد حسن: فنون الإسلام (ص ٣١٩).

(٣) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ٣٤٦).

ولا يحبُّوا منهم سوى الحقوق السلطانية، كذلك كتب السلطان قلاوون منشوراً إلى التجار الذين يقدون إلى مصر من الشرق والغرب يصف لهم محاسن مصر ويفريهم بالقدوم إليها بتجاركم ويعدهم بحسن المعاملة والإحسان إليهم<sup>(١)</sup>.

أما بالنسبة للتجارة الداخلية فقد اشتهرت مصر بأسواقها الحافلة بالبضائع وإحكام الرقابة عليها من جانب المحتسبين لمنع التلاعب في الأسعار أو الأوزان أو أصناف البضاعة<sup>(٢)</sup>.

على أن الجشع سرعان ما دفع بعض سلاطين دولة المماليك الجراكسة إلى اتباع سياسة احتكارية عنيفة، فاحتكروا تجارة التوابل والبحور، وقد بلغت سياسة الاحتكار أشدها على عهد السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥-١٤٢٢/٥٨٤١-١٤٢٢م) الذي أبطل التعامل بالنقدي البندقي، والفلورنسي، وسك الدينار الأشرفي ليكون أساساً للتعامل مع التجار الأوروبيين، وأخيراً ضاق الأوروبيون ذرعاً بسياسة سلاطين المماليك واحتكاراتهم، فجدُّوا في البحث عن طريق آخر يمكنهم من الحصول على حاصلات الشرق بثمن معقول حتى اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر للميلاد) فكان ذلك إيذاناً بتدهور مركز مصر التجاري في التجارة العالمية<sup>(٣)</sup>.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى (١٣/٣٤٠-٣٤١).

(٢) سعيد عاشور: العصر المملوكي (ص ٣٩٠).

(٣) المقريري: المواعظ (٢/٩٢)، والسووك (٢/١٧)، (٣/٨٢، ١٦٤)، ابن تغري بردي: (٥/٤٠١).

سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ٣٤٧-٣٤٩).

## التنظيمات الحرفية في العصر المملوكي:

من الطبيعي أن يكون للتنظيمات<sup>(١)</sup> في عصر المماليك نصيب كبير في دفع الفنون والصناعات إلى الأمام، حيث انتظم أبناء كل حرفة في تنظيم أو طائفة. وقد حافظت هذه التنظيمات على نظامها واتسع نشاطها حتى توصلت دعائمها لدرجة لم يستطع الغزو المغولي للبلدان الإسلامية في القرن السابع الهجري (١٣م) أن يؤثر فيها، وظلت هذه التنظيمات محتفظة بقوتها حتى بدأ يتطرق إليها الضعف في القرن التاسع عشر الميلادي.

وقد بلغ من قوة هذه التنظيمات أنه كان يراعى عند تخطيط المدن ذات الطابع التجاري أو المهني أن يكون تخطيطاً متمشياً مع اجتماع أفراد كل طائفة أو حرفة في مكان واحد. فكان يخصص لكل منها سوق خاص، ومنشآت خاصة<sup>(٢)</sup>، وهو نموذج كان معروفاً ومتوارثاً في الدول الإسلامية السابقة على المماليك، فحافظ العصر المملوكي عليه.

وكان تكوين النقابات يتشابه مع ما هو موجود في البلدان الإسلامية المختلفة، فشيخ الطائفة هو رئيسها، ويشرف على شؤون أفراد طائفته، ويميز المبتدئين منهم إلى رتبة "صانع" ويرفع الصانع الماهر الذي قضى فترة طويلة في حرفته إلى درجة "الأستاذ" أو "الأسطى" بعد اختبار يقدم فيه عملاً نموذجياً من صنع يديه، وكان

(١) النقابات.

(٢) أحمد عبدالحميد خفاجي: طبقة التجار في مصر المملوكية وأثرها في المجتمع المصري، مجلة آداب طنطا،

عدد (١)، (ص ٨٩-٩٠).

كبار الأساتذة يعاونون شيخ الطائفة في عمله استناداً إلى خبرتهم الطويلة<sup>(١)</sup>.

وكانت تنظيمات الصناع تشرف على رعاية أفرادها، وتحمي مطالبهم، وتوفر لهم المواد والخامات اللازمة لحرفتهم، كما كانت تراقب المنتجات منعاً للغش في الصنعة أو المغالاة في الأسعار، وكانت تطرد صاحب الإنتاج الرديء من النقابة طرداً مؤقتاً كعقاب له، كما أن نقابات الصناع بمصر كانت تتميز برعايتها لنوع من التأمين على أفرادها ضد البطالة والأمراض.

وكان من تقاليد نقابات الصناع في العصر المملوكي الحفاظ على أسرار الحرف وقصرها على أفرادها وأسرهم. ولعل هذا يفسر لنا ما شاع من تخصص بعض الأسرات في حرفة واحدة يتوارثها الأبناء عن الآباء، فضلاً عن صعوبة دخول الغرباء عن الطائفة في صفوفها.

وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه التنظيمات إلى ارتقاء الصناعات والفنون المختلفة؛ لحرص الصناع على بذل قصارى جهدهم لتحسين منتجاتهم ومراعاة القواعد الخاصة بمواد الصناعة وضرفها، فضلاً عما حققته من حماية للصناع والمشتريين على السواء<sup>(٢)</sup>.

### الحياة العلمية:

ازدهرت الحركة العلمية في مصر في العهد المملوكي ازدهاراً كبيراً، والسبب في ذلك هو ما أصاب أنحاء العالم الإسلامي في العراق على أيدي المغول، وفي الأندلس على أيدي الصليبيين، فضلاً عما أصاب بلاد الشام من أضرار على أيدي الصليبيين

(١) المرجع السابق (ص ٩١).

(٢) أحمد عبد الحميد حناحي: طبقة التجار في مصر المملوكية وأثرها في المجتمع المصري بمحة آداب صنفا

والغول جميعاً، فلم يجد علماء المشرق والمغرب بلداً آمناً تطيب لهم فيه الحياة سوى مصر التي غدت مركزاً للخلافة العباسية "وصارت مسكن العلماء ومحط الفضلاء"<sup>(١)</sup>.

والطريف أن سلاطين المماليك - وهم من أصول غير عربية متعددة - كان لهم أثر واضح في ازدهار النشاط العلمي في مصر، ومن هؤلاء: السلطان الظاهر بيبرس الذي كان يعقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة بل كان يشارك في المسائل التي تثار في تلك المجالس<sup>(٢)</sup>. أما أمراء المماليك فقد وجد منهم من اشتغل بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية، بل تصدى بعضهم للتدريس للطلبة وإقراءهم<sup>(٣)</sup>.

لقد ترك العصر المملوكي ثروة علمية ضخمة تشهد بها المخطوطات والكتب المشحونة في معظم دور الكتب في العالم، والتي تناولت معظم ألوان المعرفة والتي منها:

١- الأدب: فقد عرف عن سلاطين المماليك تقريههم الأدباء، ولكن يؤخذ على الأدب شعراً ونثراً ضعف اللغة الفصحى نتيجة الاختلاط بالأعاجم، فضلاً عن دخول كثير من الألفاظ العامية، ومن أشهر شعراء مصر في العصر المملوكي (البوصيري المصري ت ٨٦٥/١٢٩٦م)، وهو صاحب (البردة) وتعرف باسم (الكواكب الدرية في مدح خير البرية)، وهي تقع في ١٦٢ بيتاً<sup>(٤)</sup>، ومن شعراء ذلك العصر ممن يرجع إلى أصل ممالكي (علي بن سودون البشغايوي ت ٨٧٨/١٤٧٣م)، وكان السلطان قانصوه الغوري

(١) السيوطي: حسن المحاضرة (٨٦/٢).

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٨٢/٧).

(٣) سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر المماليك (ص ١٤٢).

(٤) السيوطي: حسن المحاضرة (٢٤٥/١)، (١٤٣/٢).

نفسه (ت ٩٢٣/١٥١٦م) شاعراً، وله ديوان غير منشور حتى الآن<sup>(١)</sup>.  
 أما الأدباء الذين اشتغلوا بالشعر فهم كثيرون، منهم: (القلقشندي  
 ت ٨٢١/١٤١٨م)، وله كتب عديدة أهمها موسوعة "صبح الأعشى في  
 صناعة الإنشاء"، وشمس الدين النواجي (ت ٨٥٩/١٤٥٥م)، وله كثير من  
 الآثار الأدبية شعراً ونثراً، منها "حلبة الكميت"، وهو كتاب في الخمر وما  
 قيل فيها، والندماء ومجالسهم وآدابهم. وختمه بفصل في التوبة وذم الخمر<sup>(٢)</sup>.  
 ٢- اللغة: كثر في عصر المماليك الاشتغال باللغة وعلومها، وظهر من علماء  
 اللغة كثيرون، على رأسهم: ابن منظور (ت ٧١١/١٣١١م)، وله كثير من المؤلفات،  
 منها: "لسان العرب" المعجم الشهير. وهناك اللميني السكندري (ت ٨٢٧/١٤٢٤م)<sup>(٣)</sup>.  
 ٣- التاريخ: ظهر في العصر المماليكي عدد كبير من المؤرخين تركوا لنا تراثاً  
 ضخماً، منهم كثير من أصحاب السير، وعلى رأسهم ابن عبدالظاهر  
 (ت ٦٩٢/١٢٩٣م)؛ وقد كتب كتاباً في سيرة السلطان الظاهر بيبرس<sup>(٤)</sup>،  
 ولم يقف الحد عند كتابة السير الفردية؛ بل ظهر في عصر المماليك جماعة من  
 المؤرخين وجهوا نشاطهم نحو تأليف كتب الطبقات، وعلى رأسهم ابن  
 خلكان (ت ٦٨١/١٢٨٢م)، وشمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢/١٤٩٧م)  
 صاحب كتاب: "الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع"، وغيرها<sup>(٥)</sup>. وهناك

(١) ابن تعري بردي: النجوم الزاهرة (٨/٨٣).

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة (١/٣٣٠).

(٣) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، (ص ٣٥٧).

(٤) جرجي زيدان: تاريخ أدب اللغة العربية (٣/١٧٠).

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة (١/٢٠٦).

فريق من المؤرخين اختاروا أن يؤلفوا عن بلد بعينه، أو دولة بعينها مثل: جمال الدين بن واصل (ت ٥٦٩٧/١٢٩٨م) صاحب كتاب "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب"، والمقريري (ت ٥٨٤٥/١٤٤١م) صاحب كتاب "المواعظ والاعتبار"، وكتاب "السلوك"<sup>(١)</sup>.

٤- الجغرافيا والسياسة والإدارة: فقد كتب شرف الدين بن الجيعان (٥٧٧٧/١٣٧٥م) كتاب "التحفة السنّية في أسماء البلاد المصرية"، ويشتمل على إحصاءات إدارية وخراجية عن أرض مصر، وكذلك كتب نجم الدين أحمد بن الرمغة المصري الشافعي (ت ٥٧١٠/١٣١٠م) محتسب القاهرة كتاب: "بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاية الأمور وسائر الرعية"<sup>(٢)</sup>.

٥- الموسوعات: وتعد من أهم ما امتازت بها الحياة الفكرية في العصر المملوكي. فقد أقبل بعض العلماء على تأليف الموسوعات الضخمة، والتي تحوي الموسوعة الواحدة منها كثيراً من المعلومات المتنوعة المتباينة، فبالإضافة إلى كتاب: "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" للقلقشندي، وهو الذي سبق ذكره، هناك كتاب: "كفاية الأرب في فنون الأدب" لشهاب الدين النويري (ت ٥٧٣٢/١٢٣٢م)، وهو موسوعة كبيرة تقع في نسف وثلاثين مجلداً، قسمها مؤلفها إلى خمسة فنون، الأول: في السماء والآثار العلوية، والثاني: في الإنسان وطبائعه، والثالث: في الحيوانات الأخرى، والرابع: في النبات على اختلاف أشكاله. والخامس: -وهو أكبرها وأهمها- في التاريخ<sup>(٣)</sup>.

(١) الخنيلي: شذرات الذهب (٧/٨٠).

(٢) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ٣٦٠).

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة (١/٣٢٠).

٦- العلوم الإسلامية: كان لها نصيبها في الحركة الفكرية، فظهر من كتب في الفقه مثل: خليل بن إسحاق المالكي المصري (ت ٥٧٦٧/١٣٦٦م)، وتقي الدين السبكي (ت ٥٧٥٦/١٣٥٥م)<sup>(١)</sup>.

٧- العلوم التطبيقية والطبيعية: كان لها حظها من كتابات عصر المماليك؛ فوجد من العلماء من كتب في الهندسة ونجوم والفلك، مثل: شهاب الدين ابن ضيغا القاهري (ت ٥٨٠٥/١٤٠٢م)، ووجد من كتب في الزراعة والفلاحة مثل (ضيغا الجمركي) - من أهل القرن الثامن الهجري. واشتهر من كتب في علم الحيوان مثل كمال الدين محمد بن عيسى الدميري (ت ٥٨٠٨/١٤٠٥م) صاحب كتاب "حياة الحيوان الكبرى"، وقد وصف كل حيوان - على حد معرفته - وخصائصه، بالإضافة إلى اعتماده على ما جاء في الحديث والأشعار والأمثال بشأنه، مما جعل قيمته الأدبية والتاريخية لا تقل عن قيمته العلمية البحتة<sup>(٢)</sup>.

وثمة مظهر هام يعبر عن ازدهار الحياة العلمية في عصر سلاطين المماليك، هو العناية بإنشاء المدارس والمكاتب وغيرها، أما المدارس فكانت بمثابة معاهد التعليم العالي - أشبه بالجامعات اليوم - يُخصَّص لكل مدرسة منها المدرسون وتُلحق بما خزانة كتب كبيرة، ويؤمها الطلاب لتحصيل العلوم والمعرفة، ومن أشهر المدارس: (المدرسة الظاهرية) التي أنشأها بيبرس، و(المدرسة الناصرية) التي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون. وقد عينوا لتلك

(١) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك (ص ٣٦١).

(٢) نبوضي: حسن المحاصرة (١/٣٠٧).

المدارس مدرسين ومعيدين وموظفين، ووقفوا عليها الأوقاف الغنية لتضمن للطلاب والمدرسين قدرًا من الحياة الهادئة، تجعلهم ينصرفون إلى الاشتغال بالعلم آمنين مطمئنين<sup>(١)</sup>. أما المكاتب فكانت لتعليم الأيتام المسلمين، الأمر الذي رفع طلاب الثواب إلى إنشاء مزيد من المكاتب، وحبس الأوقاف عليها، وقد خصص لكل مكتب مؤدب، يساعده عريف، ويقوم كلاهما بتعليم الصغار الكتابة، وتحفيظهم القرآن<sup>(٢)</sup>.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى (٤٦٧/١)، (٢٤٦/١١-٢٤٧).

(٢) سعيد عاشور: المجتمع المصري (ص ١٥٠-١٥٢).

## خلاصة الوحدة السادسة

المماليك: مفردها مملوك وهو مصطلح يوحى بالرق والعبودية، وقد كان المماليك من الرقيق الأبيض بالفعل؛ بيد أنهم كانوا رقيقاً من نوع خاص؛ إذ كانوا هم الرقيق الأبيض الذي اعتمد عليهم حكام الشرق الإسلامي، لا سيما في مصر والشام، في منافساتهم وصراعاتهم الداخلية في غمار الفوضى السياسية التي سادت عقب وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي.

وفي زمنٍ كان للقوة العسكرية الدور الأكبر في حسم مصائر الحكام والمحكومين، بدأ فرسان المماليك يتقدمون رويداً رويداً حتى صار وجودهم مرادفاً للقوة العسكرية والقدرة السياسية.

وقد جاءت دولة سلاطين المماليك استمراراً لدولة بني أيوب باعتبارها إفرازاً سياسياً عسكرياً للواقع التاريخي، الذي كان يعيشه العالم الإسلامي آنذاك. وحين لم يجد المماليك أحداً من الرؤوس الأيوبية الحاكمة يستطيع كبح جماحهم ويُخضعهم لقيادته، قرروا حل المشكلة المتعلقة بالعرش الأيوبي على طريقتهم بقتل آخر سلاطين بني أيوب، وهو توران شاه.

والمماليك قسمان: (بحرية) نسبة إلى جزيرة الروضة المطلّة على النيل التي كانوا يسكنون فيها، و(برجية) نسبة إلى أبراج القلعة التي كانوا يسكنون فيها بالقاهرة.

ومن أشهر المماليك الأول: عز الدين أيبك وقطرز وبيبرس والمنصور قلاوون. ومن أشهر ممالك البرجية: برقوق، وآخرهم قانصوه الغوري الذي سقط تحت سنابك خيل السلطان سليم سنة ١٥١٦م. وقد قام المماليك البحرية في تاريخ الدولة الإسلامية بدور لم تقم به إلا دول قليلة، لقد صنّوا غارتين من أكبر وأشهر الغارات التي عرفها تاريخ لدولة الإسلامية، هما:

١- زحف هولوكو الذي يتمون إليه جنسيًا، لكنهم صدّوه بعقيدتهم الإسلامية التي لم يعد لهم ولاء إلا لها، وقد وقفوا أروع وقفة في صدّه في عين جالوت الشهيرة رافعين راية وإسلاماه.

٢- معاركهم الدائمة ضد الصليبيين الذين كانت لهم بقايا بعد صلاح الدين؛ فعلى يد السلطانين: المنصور قلاوون الذين تسلم الحكم سنة ٦٧٨هـ، والسلطان الأشرف خليل الذي تولى الحكم سنة ٦٨٩هـ، على يد هذين السلطانين -فضلاً عن جهود بيبرس- تماوت قلاع الصليبيين الباقية، والتي كانوا قد تقدموا في بعضها بعد صلاح الدين مثل حصن المرقب وعكا وغيرهما، وطويت على يد المماليك آخر صفحات الغزو الصليبي الذي استمر قرنين من الزمان وكان ذلك سنة ٦٩٠هـ.

وقد تضافرت ظروف عالمية كإكتشاف رأس الرجاء الصالح، وظروف إسلامية كبروز الدولة العثمانية التي هزمت دولة المماليك في معركة مرج دابق (١٥١٦م) والريدانية ودخول القاهرة (١٥١٧هـ) فأتمت بذلك الدور الذي قام به المماليك ضد التتار والإمارات الصليبية.

لكن أكبر سبب هوى بالمماليك وزحزحهم من مكانهم في التاريخ، هو أنهم نسوا الرسالة التي عاشوا من أجلها، نسوا رسالتهم في الدفاع الخارجي وفي الجهاد ضد الأعداء، واستمروا أن يقتل بعضهم بعضاً، ويكون بأسهم بينهم.

## اختبار الوحدة السادسة

أولاً: أسئلة الصواب والخطأ:

ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (x) أمام العبارة الخاطئة فيما يأتي:

- ١- قامت الدولة المملوكية في بدايتها على أكتاف فئة من الرقيق الأبيض.
- ٢- بلغ عدد من تسلطوا من المماليك البحرية ثلاثاً وعشرين سلطاناً.
- ٣- تنقسم دولة المماليك إلى نوعين: بحرية وبرجية.
- ٤- استمر حكم دولة المماليك البرجية لمصر ثلاثة قرون.
- ٥- كان المماليك خليطاً من الأتراك والروم والروس والأكراد.
- ٦- كان المملوك دائماً ينسب إلى اسم من اشتراه.
- ٧- كانت هناك دائماً رابطة بين المملوك وأستاذه.
- ٨- استمرت شجرة الدرّ في السلطنة عامين.
- ٩- عارض الشيخ عز الدين بن عبدالسلام سلطنة شجرة الدر على مصر.
- ١٠- تولى المعز أيك الحكم في مصر في عام ٦٥٠هـ.
- ١١- أشرك المماليكُ الأشرفَ موسى في الحكم وهو طفل في السادسة من عمره.
- ١٢- عمل قطز -بعد أن استقر ملكه- على نفي واعتقال معارضيه.
- ١٣- قتل قطز غدرًا من بيبرس في دمشق.
- ١٤- تمت موقعة عين جالوت في شهر رمضان عام ٦٥٨هـ.
- ١٥- يعد بيبرس -بأعماله وحروبه وإصلاحاته- المؤسس الحقيقي لدولة المماليك.
- ١٦- حاول قطز طمس معالم الخلافة العباسية وإزالة ما بقي منها.
- ١٧- أحضر قطز الخليفة المستنصر بالله العباسي إلى مصر قبل موته.
- ١٨- حلّت القاهرة محل بغداد في كونها حاضرة الخلافة العباسية في بعض أيام

دولة المماليك البحرية.

- ١٩- وقف بيبرس بالمرصاد لمغول فارس.
  - ٢٠- تعدّ الوافية إحدى فرق المماليك البحرية.
  - ٢١- زوج بيبرس - قبيل وفاته - ابنه الأكبر من ابنة أحد أمراء المغول.
  - ٢٢- كان الأمير سيف الدين قلاوون أتابكا للسلطان بدر الدين سلامش.
  - ٢٣- السلطان المنصور قلاوون هو الذي جلب المماليك الجراكسة إلى مصر.
  - ٢٤- ينسب المماليك الجراكسة إلى بلاد ما وراء النهرين.
  - ٢٥- زاد نفوذ المماليك الجراكسة نتيجة اعتماد أبناء قلاوون عليهم.
  - ٢٦- يعد السلطان بيبرس الجاشنكير أول سلطان من الجراكسة.
  - ٢٧- ارتقى برقوق عرش السلطنة مباشرة بعد وفاة السلطان علاء الدين علي.
  - ٢٨- عمرت دولة المماليك الجراكسة أكثر من مائه وأربعة وثلاثين عامًا.
  - ٢٩- كان "تيمور لنگ" من الأمراء البارزين في مساعدة السلطان برقوق.
  - ٣٠- اغتيل الناصر فرج في دمشق عام ٨١٥هـ.
  - ٣١- مكث السلطان قايتباي في الحكم ما يقارب العشرين عامًا.
  - ٣٢- يعدّ طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر.
- ثانيًا: أسئلة الاختيار من متعدد:
- أ- تولى المعز أيك الحكم في عام:
    - ٦٤٦هـ .
    - ٦٤٧هـ .
    - ٦٤٨هـ .
  - ب- كان سلطان مصر المملوكي في معركة عين جالوت:
    - سيف الدين قطز .
    - بيبرس .
    - قلاوون .
  - ج- قتل قطز على يد:
    - بيبرس .
    - قلاوون .
    - الملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ .

د- اتّسمت سياسة بيرس تجاه الصليبيين:

- بالعنف واشدّة. - باللّين. - بالمسألة.

هـ- الذي قبض على السلطان برقوق ونفاه إلى الكرك:

- يلغا. - منطاش. - أمير حاج ابن الأشرف شعبان.

ثالثاً: الأسئلة المقالية:

١- اكتب ما تعرف عن:

معركة عين جالوت ونتائجها.

التطورات الداخلية في الدولة الأيوبية وظهور قطز.

السلطان الظاهر برقوق.

٢- اكتب مذكرات مختصرة حول:

الفترة الانتقالية بعد توران شاه.

علاقات المماليك مع الإمبراطورية البيزنطية.

علاقات المماليك مع النوبة.

٣- اكتب بالتفصيل عن:

ظهور الجراكسة على مسرح السياسة.

الثورات الداخلية في عهد بيرس.

سيف الدين قلاوون ومتاعب عصره.

رابعاً: الأسئلة الحوارية:

١- لو قال لك صديق: إن المصريين هم الشعب الوحيد الذي يشتري المماليك

(العبيد) بأمواله ليحكموه. فماذا تقول له؟

٢- لو قال لك صديق: إن أحياء الخلافة العباسية بالقاهرة لم يكن له أي فائدة

دينية للمماليك. فماذا تقول له؟

٣- لو قال لك صديق: إن حكم الأطفال في عصر المماليك كان احتراماً لمبدأ توريث العرش. فماذا تقول له؟

٤- لو قال لك صديق: إن الصراع المملوكي المغولي كان صراع وجود. فماذا تقول له؟  
خامساً: الأسئلة التحليلية:

أ- كيف انتقل الحكم من الأيوبيين إلى المماليك؟

ب- كيف سقطت دولة المماليك الثانية؟

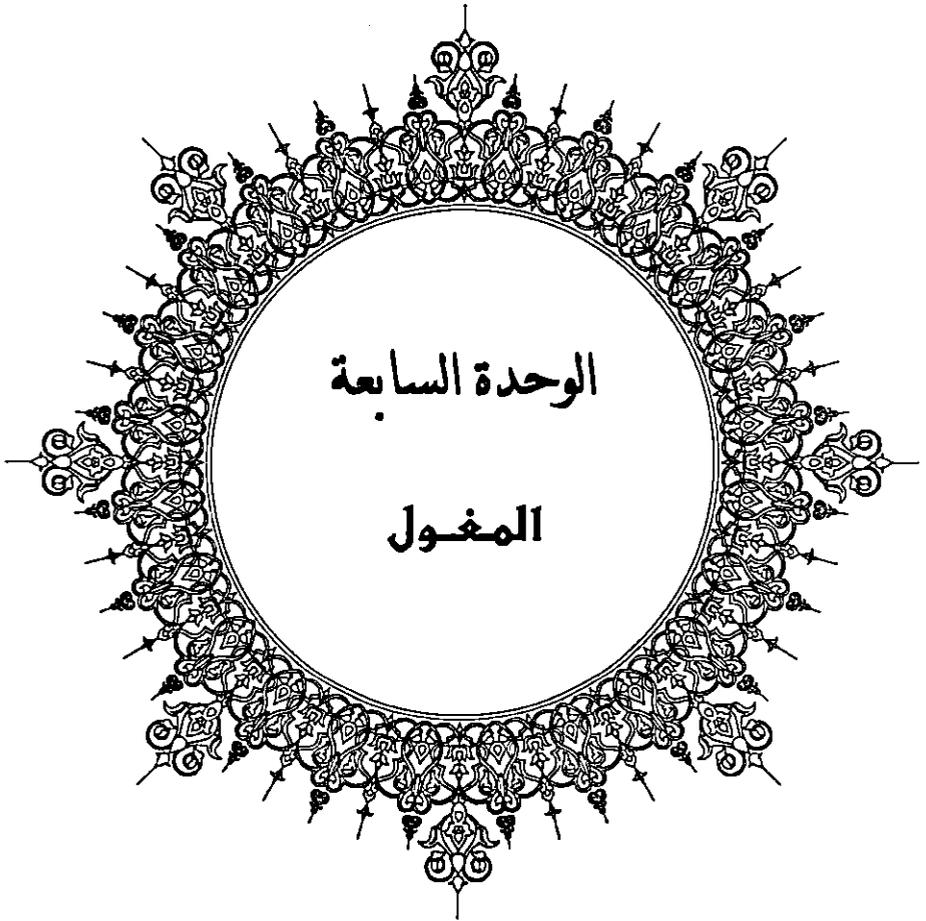
ج- كيف انتقل الحكم من المماليك البحرية إلى المماليك الجراكسة؟

د- هل كان الحكم وراثياً في بيت قلاوون؟

هـ- كيف استطاع الأشرف خليل القضاء على الوجود الصليبي في عكا؟

**النشاط التعليمي للوحدة السادسة**

- عزيزي الدارس: حتى تكتسب المزيد من المعلومات حول موضوعات هذه الوحدة عليك بإنجاز النشاط التعليمي التالي:
- أ- أعدّ بحثاً تتناول فيه: عصر الناصر محمد بن قلاوون.
  - ب- اكتب مقالاً تجمع فيه أبعاد نظام الحكم المملوكي.
  - ج- تناقش مع زملائك حول وسائل الممالك في تأكيد حكمهم في مصر والشام ودعمه.



## الوحدة السابعة

### المغول

مبررات دراسة الوحدة:

كان المغول قوماً وثنيين مفرطين في الهمجية والوحشية، جامعين لكل خصائص البداوة، ينظرون إلى أنفسهم على أنهم وسيلة الله للانتقام من البشر وإبادة الناس، لكن الإسلام - بدعائه المخلصين الأذكياء - جعلهم آدميين، يذلون أنفسهم في سبيل الدين بل وقيمون حضارة كبرى في الهند تستمر أكثر من قرنين، وينشرون الإسلام - ومعه الحضارة - في أنحاء مختلفة من آسيا الوسطى والصين.

وإذا كانت وقائع التاريخ تُملي على الدارس أن يتعرف عليها، فإن ما وراء الوقائع من تحولات فكرية وثقافية وأخلاقية واجتماعية تفرض - كذلك - على الدارس أن يبصرها ويستخلص منها القدرة الفعالة لعقيدة الإسلام حين تصبح الدعوة هي الوسيلة والغاية، ويصبح السيف والمعارك في درجة متأخرة وكأتهما الاستثناء والشذوذ.

إن الهدف من دراستنا للمغول أصبح واضحاً، إنه هدف التعرف على حركة الجهاد بالدعوة لا بالسيف، وهو الجهاد الذي نجح، وقدم نموذجاً رائعاً مع المغول الذين كانوا يعدّون السيف والدم هو الطريق الوحيد، فأراهم الإسلام كيف يصنع الأمم، ويحول الأفكار بالحكمة والموعظة الحسنة والرحمة. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. إنه حقاً لهدف عظيم.

الأهداف التعليمية للوحدة:

عزيزي الدارس: يرجى بعد دراستك لهذه الوحدة أن تصبح قادرًا على أن:

- ١- تعرف دور العوامل البيئية في نشأة المغول.
- ٢- تعرف أصول القبائل المغولية وأماكن نشأتها.
- ٣- تدرك دور جنكيزخان في نشأة دولة المغول.
- ٤- تعرف دستور المغول المسمى (بالياسا).
- ٥- تدرك أبعاد توسع المغول في البلاد الإسلامية.
- ٦- تستنتج حجم التخريب الذي خلفته هجمات المغول في البلاد الإسلامية.
- ٧- تعرف أسباب سقوط بغداد في يد المغول ونتائج ذلك.
- ٨- تدرك أسباب اعتناق كثير من المغول الإسلام.
- ٩- تعرف تأثير المغول بالحضارة الإسلامية.

## الوحدة السابعة المغول

– دور العوامل البيئية في نشأة المغول.

– دور أصول القبائل المغولية وأماكن نشأتها.

– دور جنكيز خان في نشأة المغول، ودستورهم.

– أبعاد توسع المغول في البلاد الإسلامية، وتخريبهم فيها.

أسباب سقوط بغداد في يد المغول، وأسباب  
اعتناق كثير من المغول للإسلام.

تأثير المغول بالحضارة الإسلامية.

## المغول

التعريف بالمغول وبيئتهم:

يرجع ظهور المغول إلى نهاية القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) في الهضبة المعروفة بمضبة منغوليا شمالي صحراء جوبي في أواسط آسيا جنوبي سيبيريا وشمال التبت وغربي منشوريا، وشرقي التركستان من جبال لتاي غربا، وسلسلة جبال جنجان شرقا. وشكلت العوامل البيئية حياة المغول بطابع خاص، وأصبحت الظروف المناخية القاسية لمنغوليا عاملاً حال دون زراعة الأرض، باستثناء أماكن متفرقة، فضلاً عن البرودة القاسية في فصل الشتاء، مما دفع العناصر السكانية إلى العمل بالرعي ودأبوا على التنقل من مكان إلى آخر سعياً وراء العشب والكلأ<sup>(١)</sup>.

وهذه الظروف البيئية التي شكلت حياة المغول في موطنهم الأصلي دفعت بمؤلاء إلى التنازع لسعيهم وراء حياة أفضل بحثاً عن الكلأ والمرعى، ولم تكن للقبائل المغولية في موطنهم الأصلي حضارة سابقة، وإنما كانت قبائل بدوية يغلب على أبنائها الشراسة والوحشية، فكانت كل قبيلة تشكل وحدة متماسكة من ناحية الجنس واللغة، ويتزعمها رئيس يحمل لقب نوبان<sup>(٢)</sup>.

واستدعت حياة القبائل المغولية الإغارة على الممالك المتحضرة في الصين وبلاد ما وراء النهر وإيران، ورغم الضربات الشديدة التي كان ينزلها حكام هذه الممالك بمؤلاء المتبربرين من وقت لآخر، فإنهم كانوا لا يكتفون عن الإغارة عليها، وإنزال كثير من المحن والبلايا بما<sup>(٣)</sup>. ظلت هذه القبائل في منازعاتها وتمزق وحدتها

(١) فؤاد الصياد: المغول في التاريخ. مكتبة سعيد رأفت. مصر ١٩٧٥ م (ص ٢٦-٢٧).

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي. النهضة المصرية ١٩٨٢ م (٤/١٤٠).

(٣) فؤاد الصياد: المغول في التاريخ (ص ٣٥).

حتى ظهر فيما بينهم شاب يسمى: (تيموجين) استطاع أن يوحد هذه القبائل تحت لوائه، وقد نشأ هذا الشاب يتيماً وحيداً مع أمه وأخواته، ولما بلغ تيموجين (الذي سيلقب بعد فتوحاته بجنكيزخان، أي: أعظم حكام العالم) السابعة عشرة من عمره استمال قبيلته، وأخضع المناوئين له في القبيلة حتى دانت له بالولاء ولطاعة، ثم بعد ذلك تحول تيموجين إلى ما جاوره من القبائل فأخضعها<sup>(١)</sup>.

وفعلاً تم له ما أراد، ففي سنة (٥٦٠٠هـ) ظهرت إلى الوجود دولة جنكيزخان ولو أنه لم يحصل على لقب (خان) إلا في سنة (٥٦٠٣هـ) حين أصدر دستور المشهور باسم (إلياسا)، وهو دستور اجتماعي حربي صارم أساسه الطاعة العمياء للسلطان، وقد نظم هذا الدستور الحياة العامة المغولية لمدة طويلة بعد وفاته، وبالإضافة إلى التنظيمات العسكرية فقد احتوى (إلياسا) على مواد تنظم الحياة المدنية، وشدد هذا التشريع على ميدان الملكية الشخصية، وعاقب السرقة وقطع الطرق بصرامة وشدة، بحيث أصبحت عقوبة الموت تطبق على الجرائم الصغيرة، كما نظم الحياة العائلية أيضاً.

المغول من جنكيزخان حتى هولانكو خان:

كان جنكيزخان يرى أن خير وسيلة لتدريب أبنائه على مباشرة مهام الحكم وتحمل المسؤوليات والاحتفاظ بدولته التي أسسها بحد السيف أن يقسم إمبراطوريته وهو على قيد الحياة بينهم، وذلك طبقاً للتقاليد المغولية، فخص كل فرد من أفراد أسرته بعدد من القبائل، وجعل له موطناً يشتمل على مساحة من البراري تمارس فيها هذه القبائل حياة الرعي، وأن يكون له من الخراج ما يكفي للإنفاق على بلاطه وعسكره، وهذا الخراج تؤديه الشعوب التي خضعت للمغول في الصين وتركستان وإيران، وطبقاً للقانون المغولي (إلياسا) يعطي الأب قبل وفاته قسماً من

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي (٤/١٣٦، ١٣٧).

أملاكه لأبنائه الكبار بحسب سنهم، ويترك الجزء الأعم لأصغر أبنائه.  
انتخاب أوكتاي خاقاناً للمغول:

توفي جنكيزخان سنة (٥٦٢٤هـ)، واختير ولده أوكتاي في سنة (٥٦٢٦هـ) الذي سار على نهج والده، فاهتم اهتماماً كبيراً بتوسيع دولته التي بدأها والده جنكيزخان، وجيش الجيوش اللازمة لغزو إيران والصين وأوروبا. فقام بإرسال جيش قوي استولى به على الري وهمدان وما بينهما من بلاد، ثم قصد أذربيجان واستطاع أن يوقع بالسلطان جلال الدين منكبرتي ليلاً وهو بظاهر آمد عام (٥٦٢٨هـ/١٢٣١م) فهزم جلال الدين هزيمة منكرة وتشنت جنده، وفر السلطان إلى الجبال حيث قتله أحد الأكراد، وبذلك تخلص المغول من أخطر مدافع لهم استطاع أن يواجههم ببسالة منقطعة النظير، وأصبح الطريق أمامهم ممهداً للغزو، واستطاعوا أن يشنوا حملاتهم على معظم البلاد الإسلامية، وينشروا فيها الخراب والدمار.

واستمر أوكتاي خاقاناً يحكم الإمبراطورية المغولية مدة ثلاثة عشر عاماً إلى أن توفي سنة (٥٦٣٩هـ) بسبب إفراطه في اللهو والشرب، بعد أن ضم البلاد الإيرانية، وشرعت جيوشه تناوش جيوش الخلافة العباسية في العراق.

وعندما توفي أوكتاي، اختارت زوجته (نوراكيئا خاتون) النصرانية ابنها كيوك (٦٤٤-٥٦٤٧هـ)<sup>(١)</sup> خاقاناً للمغول، وكان كيوك خان محارباً ميالاً إلى الغزو، فكان قريب الشبه بجده جنكيزخان، فصرف وقته في تعبئة الجيوش لغزو الصين الجنوبية، وعهد بذلك إلى القائد المغولي الشهير "سوباتاي" وأوفد "إيلجكتاي" إلى إيران للسيطرة على بقية الممالك الإسلامية، وجعل له السلطة العليا في الإشراف على شئون بلاد الروم والكرج والموصل وديار بكر، ونصب محمود بلواج حاكماً على

(١) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ. ترجمة محمد صادق نشأت وآخرين. القاهرة ١٩٦٠م

(٢/٢٤٨)، ابن العربي: تاريخ مختصر الدول. بيروت ١٩٨٣م (ص ٢٥٧).

ممالك الخطأ، وولى ابنه الأمير مسعود بك حاكماً على ما وراء النهر وتركستان، وعين الأمير أرغون والياً على بلاد خراسان والعراق وأذربيجان وشيرروان واللور وكرمان وفارس وأطراف الهند، وقلد السلطان ركن الدين قلع أرسلان السلجوقي حكم بلاد اللور؛ لأنه قدم منغولياً بمناسبة تنصيبه إمبراطوراً للمغول.

وعندما توفي كيوك خان (٥٦٤٧هـ) اختار الأمراء الأمير منكوبن تولوي، ولما تولى منكوقا آن العرش المغولي، أحيا سياسة المغول التوسعية، وأمر كبار الأمراء بالعودة إلى مراكزهم وحكوماتهم، وأجرى تعديلات بين المناصب الكبيرة لتنفيذ سياسته، فأعطى الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية المغولية إلى ثاني إخوته "قوبيلاي" وفوضه في حكم الصين وما يقدر على السيطرة عليه من بلاد، ونمض قوبيلاي لأخذ الصين بكل ما توافر له من نشاط وما اتخذ من أساليب سياسية وطرق حربية، وانتقلت حكومة فارس إلى يد هولاكو ثالث إحوه منكوقا آن، فتوجهت حروب المغول إلى فارس في الغرب والصين في الشرق.

### توسع المغول في غرب آسيا:

بعد وفاة السلطان جلال الدين منكبرتي قسم المغول قواتهم إلى ثلاثة جيوش رئيسية: فتح الجيش الأول ديار بكر وماردين<sup>(١)</sup> ونصيبين<sup>(٢)</sup> وسنحار وميفاراقين وأرزن الروم. وقد تقدم هذا الجيش حتى بلغ ساحل الفرات، واشتط جنود المغول في القتل والسلب والنهب، وأخذوا يعيشون فيها فساداً دون أن يجدوا مقاومة من السكان. وقد روى ابن الأثير بعض القصص التي تدل على جبن أولئك السكان، فقد كان الرجل المغولي يدخل وحده إلى قرية من القرى، فيقتل من يجدهم من السكان دون أن يجزؤ الأهالي على المقاومة<sup>(٣)</sup>.

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان. ضعة بيروت ١٩٧٧م (٣٩/٥).

(٢) المصدر السابق (٢٨٨/٥).

(٣) ابن الأثير: الكامل. دار صادر. بيروت ١٩٧٥م (٢٣٢-٢٣٣).

ومن هذا نستخلص ما كان يسود نفوس المسلمين في ذلك الوقت من دُعر وفزع وخوف، وما وصل إليه حال العالم الإسلامي من اضطراب وقلة حمية أدى إلى انحلال الجبهة الإسلامية أمام تيار المغول الذي أخذ يشن حملاته على معظم ديار الإسلام وينشر فيها الخراب والدمار. أما الجيش الثاني فقد قصد مدينة "بدليس"<sup>(١)</sup>. وبعد أن أحرقها استولى على بعض القلاع المحيطة بخلاط وغيرها.

وسار الجيش الثالث إلى منطقة "أذربيجان" وعندما اقتربوا من حاضرتها "تريز" سلمت لهم دون مقاومة في أوائل سنة (٦٢٩هـ)؛ وذلك لأن الأهالي هناك لم يكونوا على وفاق مع السلطان جلال الدين منكبرتي؛ ولهذا لم يكد الجيش المغولي يقترب من أبواب "تريز" حتى سارع الأهالي إلى تقديم فروض الطاعة، وقدموا مختلف الهدايا إلى قواد المغول، كما تعهدوا بأن يدفعوا لهم إتاوة سنوية كبيرة، فما كان من المغول إلا أن وافقوا على هذه العروض ودخلوا المدينة، ولكنها سلمت من التخريب والتدمير إذا قيست بغيرها من المدن<sup>(٢)</sup>. ثم تمكن المغول بعد ذلك من الإجهاز على بقية مدن أذربيجان المدينة تلو الأخرى، ومما ساعد المغول على الاستيلاء على هذه المدن، تلك الهزيمة التي حلت بجلال الدين منكبرتي، وما كان من تفرق جيوشه، واختفاء أخباره في ذلك الوقت؛ إذ لم يكن معروفاً على وجه التحقيق المصير الذي آل إليه<sup>(٣)</sup>.

كما ساعد المغول أيضاً على إذكاء نار الثورة في "أذربيجان" و"آران" تلك الثورة التي أضرم لهبها الذين كانوا يحكمون البلاد من قبل السلطان الخوارزمي، تقرباً منهم للمغول؛ إذ لما عجز السلطان عن المقاومة ثار هؤلاء الحكام على الخوارزميين في "أذربيجان" و"آران".

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان (١/٣٥٨).

(٢) ابن القوطي: الحوادث الجامعة. طبعة المثنى بغداد ١٣٥١هـ (ص ١١٣).

(٣) ابن الأثير: الكامل (١٢/٢٣٤).

وفي عامي (٦٣٢، ٦٣٣هـ) دخل المغول إقليم إربل واستولوا على حاضرتهم "إربل" وخربوها، ولكن أهلها أرغموا المغول على التقهقر بعد أن تحصن معظمهم في قلعة المدينة<sup>(١)</sup>. على أن المغول واصلوا الزحف في شمال العراق حتى بلغوا مدينة "سامراء" فلما شعر الخليفة العباسي المنتصر بالله بما يتهدهده من خطر، أسرع وأعلن الجهاد بعد أن جمع مجلساً من العلماء جعلهم يفتون بأن الغزو في سبيل الله خير من الحج إلى بيت الله، فتجمع كثير من المسلمين بقيادة "بجاهد الدين الدواترار" واستطاع أن يهزم المغول بالقرب من "تكريت" ما بين دجلة وجبل "حميرين"، وأن يفك أسر عدد كبير من المسلمين كانوا قد وقعوا في أيدي المغول أثناء قتالهم في "إربل"، ولم تغفل نشوة النصر جنود المسلمين عن إقامة الاستحكامات المنيعة حول بغداد، ومع هذا لم يمض وقت طويل حتى أعاد المغول المحجوم، فقصدوا هذه المدينة في سنة (٥٦٣٥هـ)، حيث هزموا المسلمين في "الخانقين"<sup>(٢)</sup>، وقتلوا عدد كبيراً منهم، وعاد الباقون إلى بغداد<sup>(٣)</sup>.

ولم تكن انتصارات المغول في الشمال بأقل منها في الجنوب، ففي سنة (٥٦٣٢هـ)، دخلت جيوش المغول مدينة "كنجة"<sup>(٤)</sup> في إقليم "آران" وقتلوا غالبية أهلها وخربو المدينة بأسرها، وفي السنة التالية ترك المغول سهل موقان على بحر قزوين وهاجموا "جورجيا" واستعملوا أفضع ما عرف من أساليب الطش والهمجية لمقاومة ملكها "روسودان" حتى أجبرت في النهاية على الهرب، وسقطت في أيدي المغول معظم المدن المهمة في هذا الإقليم، وفي مقدمتها العاصمة "تفليس". أما "أرمينية الكبرى" فقد خربت عاصمتها "آي" وقتل كثير من أهلها؛

(١) حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول. دار الفكر العربي ١٩٤٩م (ص ٢٧٠).

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان (٢/٢٤٠).

(٣) ابن القوطي: الحوادث الجامعة (١١٣).

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان (٤/٤٨٢).

لأنها قاومت المغول الذين ظلوا يحاصرونها زمناً طويلاً، كما عوملت "قرس" إحدى مدنها معاملة سيئة على الرغم من أنها سارعت بالطاعة للمغول، ولم ينج من مذبحتها إلا الأطفال والصناع، ولكن المغول عادوا فأحسنوا معاملة "أرمينية" و"جورجيا" وسلكوا معها السلوك نفسه الذي سلكوه مع فارس وكرمان، وفي سنة (٥٦٣٩هـ)، استغل المغول فرصة النزاع الدائر بين سلاجقة الروم في آسيا الصغرى من جهة، وبين الحكام في مصر والشام من جهة أخرى<sup>(١)</sup>. وسار "بايجو" قائد المغول على رأس جيش تعداده (٣٠٠٠٠) جندي قاصدين أرزن الروم والتحموا بقوات السلطان غياث الدين ابن علاء الدين كيقباز أحد سلاطين سلاجقة الروم الذي لم يقو على الصمود أمام المغول، فسقطت المدينة في أيديهم بعد أن قتل من أهلها عدد كبير، ووقع في الأسر الكثيرون. وفي سنة (٥٦٤٠هـ) كون "غياث الدين" جيشاً كبيراً للقاء المغول<sup>(٢)</sup> وأخذ طريقه نحو أرمينية لمحاربتهم، فالتقى الفريقان بموضع يسمى "كوسة طاغ" ودارت بين الطرفين معركة عنيفة أسفرت عن انتصار المغول، ولم يجد السلطان غياث الدين مفرّاً من الهروب والتحصن بمدينة أنقورة "أنكوربة" واستولى المغول في هذه المعركة على (سيواس) وقيسارية (قيصرية) وخرّبوها كذلك، وكر المغول عند عودتهم على مدينة "أرزنجان" وملكوها عنوة وقتلوا رجالها وسبوا النراري ونهبوها وخرّبوا سورها<sup>(٣)</sup>.

ولقد كان لهذه المعركة أثر حاسم في مقدرات السلجوقية، إذ وقعت الأناضول بعدها في قبضة المغول، وعندما رأى غياث الدين أنه لا يقوى على مواجهة المغول أرسل إليهم رسواً يعلن خضوعه ويتعهد بدفع جزية سنوية لخان المغول،

(١) فؤاد الصياد: المغول في التاريخ (١/١٨١، ١٨٢).

(٢) ابن العربي: تاريخ مختصر الدول (٢٥١).

(٣) ابن العربي: تاريخ مختصر الدول (٢٥٢).

وبهذا أبقى على استقلال دولة السلاجقة رسمياً واسمياً، وصارت تابعة للمغول<sup>(١)</sup>. وفي سنة (٥٦٤٤هـ) عاد المغول وهددوا أراضي العراق، ولكن نصيب هذه الحملة كان نصيب ما سبقها من حملات المغول.

وخالصة القور أن المغول لم يكفوا عن إرسال أمثال هذه الحملات بقصد السلب والنهب أحياناً، وبقصد اختبار قوة المسلمين أحياناً أخرى، واستمر الحال على ذلك حتى انتخب مانجوخان خاقاناً، فعوّل على توسيع أملاكه شرقاً وغرباً فأرسل حملتين كبيرتين إحداهما بقيادة أخيه كوبلادي كان الغرض منها إتمام السيطرة على بلاد الصين، والثانية بقيادة أخيه الأصغر هولاكو كان الغرض منها القضاء على حصون الإسماعيلية، ثم الاستيلاء على مدينة بغداد حاضرة الخلافة العباسية.

### حملة هولاكو على إيران:

خرج هولاكو على رأس جيشه من عاصمة المغول قراقورم سنة (٥٦٥١هـ/١٢٥٣م) وأسرع أمراء الأطراف إلى تقديم كافة التسهيلات لتموين الجيش، وعندما وصل هولاكو إلى الأراضي الإيرانية كان قد سبقته أخبار قوته وما يقصده، فتلقى التسهيلات من أتباع جدد ابتداء من شمس الدين كرت أمير هرات، والأتابك سعد بن زنكي أتابك فارس، وكيكاووس الثاني، وقلج أرسلان الرابع سلطاني سلاجقة الروم والقائمين بالحكم في آسيا الصغرى<sup>(٢)</sup>.

في الوقت الذي كانت جماع الإسماعيلية تستوطن الجبال في ولاية طالقان وروديبار وألموت.

وفي غرة ذي الحجة (٥٦٥٣هـ / ٢ يناير ١٢٥٦م) عبر هولاكو بجيشه فخر جيحون، وتقدم بحافله نحو القلاع المنيع، وأخذ هو وقواده يعملون على تخريبها

(١) فؤاد الصياد: المغول (١/١٨٣).

(٢) رشيد الدين فصل الله جامع التواريخ (٣٤٠).

وتحطيمها لكنه أدرك أنه إذا اعتمد على القوة في الاستيلاء على القلاع فإن ذلك سيكلفه مزيداً من التضحية، فضلاً عن طول الوقت؛ نظراً لمناعة تلك القلاع واستماتة المدافعين في الدفاع عنها، فلجأ هولوكو خان إلى سياسة الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، ونجحت سياسته بالفعل، فعندما أرسل هولوكو خان مع الملك شمس الدين كرت ملك هرات -والذي كان مرافقاً له- برسالة إلى ناصر الدين محتشم قهستان الإسماعيلي في قلعة "سرتخب" يدعوه إلى الدخول في طاعته، امتثل لهذا الأمر، وقصده هولوكو خان في صحبة شمس الدين كرت، وقدم لهولوكو جملة من الهدايا والتُّحف، فقبل هولوكو الهدايا وعامله بلطف ونصّب حاكماً على مدينة "تون" واستمر في منصبه الجديد إلى أن توفي في شهر صفر سنة (٥٦٥٥هـ/يناير ١٢٥٧م).

ثم أرسل هولوكو خان رسله إلى ركن الدين خورشاه زعيم الطائفة الإسماعيلية، يطلب منه الخضوع والتسليم، وفي الوقت نفسه لم ينتظر الرد من كبير الإسماعيلية، وشرع جنوده يستولون على القلاع الواحدة بعد الأخرى حتى تمت الغلبة على أكثرها، ولم تستعص عليهم أول الأمر إلا قلعتا "ميمون دز" و"الموت" وأخيراً أرسل هولوكو خان رسله مرة أخرى إلى قلعة ميمون دز حيث كان يقيم ركن الدين خورشاه لتهديده وتخويفه حتى يسارع إلى التسليم.

وأخيراً دخل المغول القلاع الإسماعيلية، وعندما دخلوا قلعة (الموت) سنة (٥٦٥٤هـ/١٢٥٦م) حطموا ما وجدوه من الأسلحة وأدوات القتال التي كانت لدى الإسماعيلية، واستولوا على الكنوز والأموال المخفية التي كانت في مخازن خاصة ولا يعلم مكانها سوى قلّة من المسئولين الإسماعيليين، كما وقعت في أيديهم المكتبة النفيسة التي كانت تعد من أنفس المكتبات في عصرها، بل كانت تعد التراث الإسماعيلي الموحد المتبقي منهم، جمعها الإسماعيليون طوال قرنين من

الزمان حتى اقترنت شهرتهم وبعُد صيتهم بمكبتهم تلك المحتوية على عقائدهم ونظمهم، واستأذن المؤرخ الإيراني عطا ملك الجويني (هولاكو خان) في الاضلاع على المكتبة والنفائس الإسماعيلية الأخرى ليبقي منها الصالح ويحرق منها الباقي الذي يتعلق بعقيدتهم فأذن له.

### دخول المغول بغداد وزوال الخلافة العباسية:

جاء المغول في عهد المستعصم بالله إلى العراق عدة مرات، حيث حدثت مناوشات بينهم وبين جيش الخليفة، لكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على بغداد حتى سنة (٥٦٥٦هـ)<sup>(١)</sup>. وعندما اعترم هولاكو مهاجمة الإسماعيلية أرسل إلى الخليفة يطلب إليه أن يمدّه بجيش ليعاونه في القضاء على تلك الطائفة، فلما شاور الخليفة أتباعه حذروه أن يقدم على هذا العمل، وأدخلوا في روعه أن هولاكو يريد بمذه الوسيلة أن تخلو بغداد من الجيش حتى يتيسر له الاستيلاء عليها<sup>(٢)</sup>.

ولما فرغ هولاكو من محاربة الإسماعيلية قصد همدان، وفي شهر رمضان سنة (٥٦٥٥هـ) أرسل رسولاً يحمل رسالته إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله مصاغة في قالب من التهديد والوعيد، لامتناعه عن إرسال المدد، ولم يكن هذا الاحتجاج في الواقع إلا ذريعة للمطالبة بالسلطة الزمنية التي سبق وأن منحت في بغداد لأمرأ البويهيين ثم السلاجقة، وتبادل هولاكو الرسائل مع الخليفة العباسي، ولكنها لم يكن لها من أثر سوى جعل الحرب ضرورة لا مفر منها<sup>(٣)</sup>. ولما أيقن هولاكو أن في استطاعة قواته الاستيلاء على بغداد، أخذ في تنفيذ خططه الحربية التي وضعها في أثناء إقامته بـهمدان، والتي تنحصر في حصار هذه المدينة من جميع النواحي،

(١) ابن القوطي: الخوادم الجامعة (١٩٩-٢٠٠).

(٢) ابن العربي: تاريخ مختصر الدول (٢٦٩).

(٣) رشيد الدين: جامع التواريخ (٢٧١/٢).

فأنفذ حملة بقيادة أحد قواده ويدعى "ياجو" لمهاجمة بغداد من ناحية الغرب، وسار على رأس فريق من الجيش لمحاصرتها من ناحية الشرق في سنة (٥٦٥٦) وبصحبته كثير من أمراء المسلمين<sup>(١)</sup>.

وتابع هولوكو المسير، وأمر "ياجو" بأن يسرع إلى عبور نهر دجلة من ناحية الغرب، ولما تمكنت قوات ياجو من عبور هذا النهر دارت الحرب بين الفريقين وحلت الهزيمة بالجيش العباسي في العاشر من المحرم سنة (٥٦٥٦) واستولى ياجو وجنده على الجانب الغربي من بغداد ونزلوا في أحياء المدينة على شاطئ نهر دجلة وسيطروا على جميع أجزائها.

وكان من أثر انشغال الجيش العباسي بمقاومة المغول الذين هاجموا بغداد من ناحية الغرب أن خلا الطريق لهولوكو، فترك معسكره في "خانقين" وتابع سيره إلى بغداد، وعسكر من جهة بغداد الشرقية بجند كثير.

وسار الناس هارين من دجيل والإسحاق ونهر ملك ونهر عيسى ودخلوا المدينة بنسائهم وأولادهم، حتى كان الرجل أو المرأة يقذف بنفسه في الماء. فلما وصل جند هولوكو إلى دجيل، خرج إليه عسكر الخليفة، والتقوا بالجانب الغربي من بغداد قريبا من البلد، فكانت الغلبة في أول الأمر لعسكر الخليفة، ثم كانت الكرة للعسكر المغولي فأبادوهم قتلاً وأسراً، حتى لم ينج منهم إلا من رمى نفسه في الماء<sup>(٢)</sup>. ولما رأى الخليفة المستعصم بالله أن لا مفر من دخول المغول بغداد عول على التسليم، فأرسل رسوله شرف الدين ابن الجوزي ثانية إلى هولوكو حاملاً الهدايا الثمينة معلناً رضاه بالتسليم ووقف القتال<sup>(٣)</sup>. ثم ما لبث أن خرج

(١) براون: تاريخ الأدب في إيران. ترجمة إبراهيم أمين. الشواربي. القاهرة ١٩٥٤م (٢/٢٨٣).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (١٣/٢٠٠).

(٣) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية. المكتبة الرحمانية. مصر ١٩٢١م (٢٩٦، ٢٩٨).

الخليفة بنفسه لملاقة هولاء وبصحبه اولاده الثلاثة، وثلاثة آلاف من القضاة والفقهاء والصوفية والأمراء وأعيان المدينة، ولما اقترب هذا الحشد من دار هولاء حجبوا عن الخليفة ولم يبق سوى سبعة عشر شخصا منهم، ولما أحضر الخليفة بين يدي هولاء كان الاضطراب يبدو عليه، فقال له هولاء: "أنت المضيف ونحن الضيوف فأحضر ما يليق بنا"<sup>(١)</sup>.

ثم طلب هولاء من الخليفة أن يأمر أهل بغداد بوضع سلاحهم والخروج من مدينتهم بحجة عمل تعداد لهم، فأنفذ الخليفة رسولا من قبله ينادي الناس في طرقات المدينة بأن يلقوا السلاح ويخرجوا، غير أنهم لم يكادوا يلبون طلبه، حتى أمر هولاء جنده فانقضوا عليهم وقتلوهم شر قتله، ولما استقر هولاء بقصر المأمونية شرق بغداد سمح لجنده بدخول المدينة فعاثوا فيها فسادا أسبوعا كاملا، وهدموا مساجدها؛ ليحصلوا على ذهب قبائما، وجردوا القصور مما بها من التحف النادرة، وأتلفوا عددا كبيرا من الكتب القيمة في مكتباتها، وأهلكوا كثيرا من رجال العلم<sup>(٢)</sup>.

وقد أعمل جند المغول السيف في رقاب أهل بغداد أربعين يوما سلبوا فيها أموالهم وقتلوا أئمة المساجد وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والمدارس والربط، ولما نودي بالأمان خرج من تحت الأرض من اختفوا في المطامير والمقابر، ومن لجأ إلى الآبار، كأنهم الموتى وقد نبشت قبورهم، وقد أنكر بعضهم البعض، فلم يعرف الأب ابنه، ولا الأخ أخاه، ثم انتشر الوباء، وفسد الهواء وعم البلاء<sup>(٣)</sup>. وذكر السيوطي أيضا أن المغول نكلوا بالخليفة العباسي المستعصم بالله فقتلوه رفسا<sup>(٤)</sup>.

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي (١٠٩/٤).

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ (٢٩١/٢، ٢٩٢).

(٣) ابن القوطي: الحوادث الجامعة (٣٣٠، ٣٣١).

(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء (ص ٣١٣)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٤م.

وهكذا فقد أزال هولوكو معالم الحضارة الإسلامية في هذه المدينة التي ظلت حاضرة للدولة الإسلامية، وكانت آية من آيات الفن الإسلامي، وأرسل كل ما استطاع أن يجمعه من نفائسها إلى أذربيجان حتى تكون في مأمّن من كل مكروه، كما جمع هولوكو في هذه الأقاليم كل ما تجمّع لديه من ثروة من بلاد السلاجقة والروم وجورجيا وأرمينية ولورستان وكردستان<sup>(١)</sup>.

ويتضح من العرض السابق أن هناك أسبابا لسقوط بغداد منها:

- ١- موقف الخليفة العباسي المستعصم بالله ورجاله المقربين، فقد كان الخليفة ضعيف الإرادة مستكينا لم يهتم بتحسين الجيوش.
- ٢- الخلاف بين أهل السنة والشيعة، فقبل سقوط بغداد بعام واحد (٦٥٥هـ) نشبت فتنة طائفية بين السنة والشيعة نبت فيها المنازل.
- ٣- تقاعس أهل الذمة في الدفاع عن بغداد، فلم يتعرض لهم جند المغول عند دخولهم بغداد.

### اعتناق الإيلخانيين للإسلام:

كان أول من اعتنق الإسلام من الإيلخانيين هو الإيلخان أحمد تكودر، وفتح ذلك الباب لدخول جيل جديد من المغول في الإسلام، وقد بذل أحمد تكودر - بعد إسلامه - قصارى جهده لإدخال المغول في الإسلام، فشجعهم بالهبات والهدايا، وقوّى علاقته بالعلماء ومنهم شمس الدين الجويني<sup>(٢)</sup>، وأعاد بناء المدارس، وأمر ببناء مدارس جديدة فضلاً عن المساجد، وأكثر من الأوقاف<sup>(٣)</sup>.

وازداد دخول المغول في الإسلام منذ نهاية عهد "أرغون" حتى نهاية حكم

(١) حمدي حافظ: الدولة الخوارزمية والمغول (٢٧٤).

(٢) ابن خلدون: العبر (٥٤٧/٥).

(٣) المقرئزي: السلوك (٧٧/٢١).

"بايدو" (ت ٥٦٩٤هـ) فظهر وعاظ مسلمون بين صفوف المغول، فدخل كثير من المغول في الإسلام ومعهم الأمير غازان بن أرتغون، وكان انتصار الإسلام على يده انتصاراً كبيراً لتولية عرش إيران بعد إسلامه بأربعة شهور، وقد أسلم مع غازان عدد كبير من ضباطه يقدرون بعشرة آلاف<sup>(١)</sup>.

رغب السلطان غازان في أن يجمع في قبضته كيانا إسلامياً مستقلاً عن الخاقان الأعظم المغولي، ودفعته هذه الرغبة إلى الحفاظ على مملكته في إيران إلى جانب السيطرة على بلاد الشام، وبدأ جهده بنقش اسم الخان الأعظم على العملة في إيران، وأصدر عملة إسلامية تنقش عليها عبارة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وأمر بنقش اسمه على العملة وذكره في الخطبة دون الخان الأعظم، وطرده نائبه من بلاده، وألغى لقب إيلخان<sup>(٢)</sup> - أي نائب الملك - واتخذ لنفسه لقب خان، وجعل لنفسه اسماً إسلامياً هو "محمود" كما وضع التاريخ الخاني الذي نسب إليه منذ اعتلائه العرش<sup>(٣)</sup>.

واعتنى محمود غازان بأن يقوم حكام الأتابك برفع المظالم وتحصيل العوالم الشرعية ونشر أبواب العدل والرحمة حتى تمتع الناس بالحكم العادل الكريم في هذه النواحي زهاء ثمانية وثلاثين عاماً خلال حكم السلاطين محمود غازان ومحمد أولجايتو وأبي سعيد بمادر خان.

وتؤكد المصادر الإسلامية على كثرة دخول المغول في الإسلام. فابن بطوطة<sup>(٤)</sup>. يذكر أن غازان أظهر الإسلام وأسمنت بإسلامه المغول، ويذكر ابن كثير<sup>(٥)</sup> أن غازان أظهر الإسلام على يد الأمير "نوروز" ودخل التتار أو أكثرهم في

(١) مصطفى طه بدر: مغول إيران بين مسيحية وإسلام. دار الفكر العربي ١٩٥٢م (ص ١٩).

(٢) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة (٣ ٢١٢).

(٣) رحب عبدالحليم: انتشار الإسلام بين المغول (ص ١٩٣).

(٤) الرحلة (ص ١٥٦).

(٥) البداية والنهاية (٣: ٢٤٠).

الإسلام. وذهب أبوالمحسن<sup>(١)</sup> إلى الإشارة إلى أن غازان قد أسلم في سنة (٥٦٩٤هـ) وأسلم غالب جنده وعساكره على ما حكم الشيخ علم الدين البرزالي<sup>(٢)</sup>.  
ومما يدلّ على أن الإسلام قد حقق انتصاراً كبيراً بين العناصر المغولية منذ عهد أبي سعيد بهادر خان أن وصول أبي سعيد نفسه إلى عرش السلطنة صار علامة بارزة تشهد بأن المغول خالفوا أحكام (إلياسا) الجنكيزية، وتركوا عاداتهم القديمة، وأقبلوا على الشريعة وعلى التقاليد الإسلامية، وصاروا بذلك مطمئنين على نحو غير مسبوق<sup>(٣)</sup>. وظهرت علامات الارتياح في كتابات المؤرخين عن الإيلخانيين، فبينوا جهود سلطاتهم أبي سعيد بهادر خان في ميدان البر والإحسان وقيامه سنة (٥٧٣٦هـ) بإسقاط المكوس التي أثقلت حياة العامة في بغداد والموصل<sup>(٤)</sup>، واهتمامه بتعظيم القرآن والسنة المطهرة<sup>(٥)</sup>، وتعقبه لأهل الذمة.  
تأثر المغول بالحضارة الإسلامية:

عندما دخل المغول الإسلام، ظهر جيل جديد من المسلمين بين المغول ممن يتخذون الإسلام عقيدة منذ عهد غازان، وأخذ المغول منذ ذلك الوقت يتشربون العادات الإسلامية، وجذبتهم حياة الاستقرار ومدن الإسلام بما فيها من قصور ودور وحمامات ومدارس ومساجد وحدائق لم يعرفوها من قبل، وأخذوا من الحياة الإيرانية أساليب معيشية راقية فاقت ما كان لديهم، حيث انصرفوا عن عادات ومظاهر فرضتها حياتهم البدائية منها: تغلب القوي على الضعيف، وزواج الابن من نساء أبيه بعد وفاته، وعدم غسل ثيابهم حتى تبلى خاصة في فصل الشتاء، وعدم التمييز بين طاهر ونجس، وقتل من أعطي بضاعة وخسر فيها، وغير ذلك<sup>(٦)</sup>.

(١) النجوم الزاهرة (٧١/٨).

(٢) المصدر السابق (١١/٨).

(٣) ابن أبيك الصفدي: الوافي بالوفيات (٣٢٣/١).

(٤) ابن حبيب: تذكرة النبيه (٢٧١/٢).

(٥) المقرئزي: السلوك (٣٩٠/١/٢).

(٦) المقرئزي: الخطط (٢٢٠-٢١٩/٢).

## ١- الزواج من المسلمات:

كثر الاختلاط والاندماج بين العناصر المغولية والمسلمين بدخولهم في الإسلام وظهرت على إثر ذلك ظاهرة كثرة المصاهرات بين الإيلخانات وأمراء المغول وبين الترك والإيرانيين، فتزوج كثير من إيلخانات وأمراء المغول بتركيات وإيرانيات مسلمات، واتخذوا من الأسيرات المسلمات سراري وحظيات، وكان لذلك أكبر الأثر في بلاط المغول والأسر المغولية بصفة عامة، حيث أصبح البلاط المغولي يموج بالعديد من النساء المسلمات اللاتي كان لهن تأثير كبير على رجال البلاط الإيلخاني<sup>(١)</sup>.

وأسهم الزواج في البلاط الإيلخاني في إيران بطريق غير مباشر في الدعوة إلى الإسلام. ونذكر على سبيل المثال تأثير إحدى زوجات (أولجايتو) الذي صار سلطانا بعد وفاة السلطان (غازان) في ترغيبه في اعتناق الإسلام<sup>(٢)</sup>، ورغبة (أولجايتو) نفسه في مصاهرة حاكم ماردين، حيث تزوج (أولجايتو) بابنة ماردين (دينا خاتون)<sup>(٣)</sup>. وأخذت ظاهرة المصاهرة بين الإيلخانيين وأمراءهم وسلاطين مصر لمملوكية طريقا غير مسبوق حينما اشتد المغول في إيران في الاستمسك بالإسلام منذ عهد السلطان أبي سعيد بهادر خان (٧١٦-٧٣٦هـ)<sup>(٤)</sup> الذي لقب بأولجايتو، وصار أول شخصية مغولية إيلخانية نشأت في الإسلام دون أن تنال منها العادات المغولية.

## ٢- بناء المقابر والمساجد والمدارس:

ومن بين المظاهر التي تنهض دليلاً على تغلغل المؤثرات والمظاهر الإسلامية بين المغول في إيران اتخاذهم المقابر واتباعهم الآداب الإسلامية في دفن موتاهم، فضلاً عن ولعهم بأن يكون لمقابرهم ملحقات من مدارس وزوايا على نحو ما كان سائداً من

(١) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام. النهضة المصرية. ط ٢، سنة ١٩٥٧م (ص ٢٦٥).

(٢) عبدالسلام فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران. دار المعارف ١٩٨١م (ص ٣١٥).

(٣) ابن بطوطة: الرحلة (١/١٨٣).

(٤) ابن خلدون: العبر (٥/٥٥١).

اهتمامات عند الحكام المسلمين. ونذكر -على سبيل المثال لا الحصر- ما أعده السلطان محمود غازان لنفسه في مدينة تبريز حيث بنى مقبرة<sup>(١)</sup> وملحقاتها، وكذلك منح السلطان أولجايتو طريق سلفه، فجعل لنفسه قيراً وخصصه لدفنه بمدينته الجديدة الناشئة سلطانية، وتم له ما أراد، حيث دفن به بعد وفاته سنة (٥٧١٦هـ)<sup>(٢)</sup>. ولم يغفل أولجايتو أهمية بناء مسجد يخلد ذكره، فبنى في مدينته مسجداً، ويعدّه المؤرخون أحد المباني الكبيرة التي تدل على نهضة فن العمارة الإيرانية، وحاكى السلطان أبوسعيد سلفه (أولجايتو) فأنشأ لنفسه مقبرة بمدينة السلطانية نقل إليها بعد وفاته<sup>(٣)</sup>. واستمرت عادة أمراء الإيلخانيين في الاهتمام ببناء المقابر والمدارس إلى نهاية دولتهم.

### ٣- العناية بأعمال البر والإحسان:

واهتم "الإيلخانيون" بأعمال البر والإحسان، ويشير المؤرخون الإيرانيون إلى أن السلطان محمد أولجايتو قد أولى عنايته بنشر أبواب البر في سائر أنحاء مملكته، وشيد كثيراً من المباني الخيرية، وأكثر ما ينهض دليلاً على اهتمام الإيلخانيين بأعمال البر والإحسان قيام الإيلخانيين "محمود غازان" و"محمد أولجايتو" بتشجيع رشيد الدين فضل الله للسعي قدماً في هذا السبيل، فأنشأ على إثر ذلك الربع الرشيدي في شرقي تبريز، وجعله على أربعة وعشرين بيتاً للضيافة<sup>(٤)</sup>.

### ٤- الإصلاح ورد المظالم:

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية عند الإيلخانيين بعد إسلامهم تلك المساعي التي عني بها سلاطين المغول برد المظالم، وتعقب هؤلاء ممن دأبوا على ارتكاب المعاصي. ومن هؤلاء السلطان محمود غازان (٦٩٤-٥٧٣٣هـ) الذي أمر بدرء

(١) ابن بطوطة: الرحلة (١٧٨/١).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٧٧/١٤).

(٣) ابن أبيك الصفدي: الوافي بالوفيات (٣٢٣/١٠).

(٤) فؤاد الصياد: مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين (٤٣٦-٤٣٢).

المفاسد بين العناصر المغولية، وردَّ كثيرًا من المظالم ببغداد وغيرها من البلاد، وكان قد بدأ ذلك بأن أجزل عطاءه يوم إسلامه على بني جلدته، فنثر الذهب واللؤلؤ على رؤوسهم، فأقبل كثيرون منهم على الإسلام، وظهرت السبع بين التتار<sup>(١)</sup>. كما أقبل السلطان أبوسعيد في سنة (٧٢٠، ٥٧٢١هـ) على تعقب المفسدين من استهوتهم الخمر، وشدد العقوبة عليهم، وأمر بإبطال شربها، وخرَّب الحانات وعاقب من يتاجرون بها<sup>(٢)</sup>. ومما قيل إنه قد واكب ذلك قيامه بإظهار العدل الإنساني مع رعاياه، وأمر معاونيه بتعقب النساء ممن رغبن في الفاحشة وأمر بزواجهن<sup>(٣)</sup>.

٥- اتخاذ الملابس الإسلامية:

يظهر التحول الهائل في الحياة الاجتماعية عند الإيلخانيين بعد إسلامهم فيما اتخذوه من ملابس على إثر اختلاطهم بملوك وأمراء المسلمين خاصة والشعب الإيراني المسلم عامة، فلم تعد ملابسهم بسيطة بمثل ما كانت من قبل تناسب حياتهم البدائية والتي كانوا يتخذونها من أصواف الغنم ووبر الجمال وجلود الحيوانات، بل صاروا يلبسون الفراء الثمينة، وتزين نساؤهم بالحلي والجواهر، وبلغ الأمر بولعهم أن ارتدوا الملابس الفاخرة في غير المناسبات، وظهروا بما في الأماكن العامة في شيء كبير من البذخ والترف<sup>(٤)</sup>.

واهتم السلاطين المغول بأن يتخذ الشعب المغولي خصوصاً ممن دخلوا في الإسلام الملابس التي تظهر عليها المظاهر الإسلامية. ونذكر في هذا السبيل جهود السلطان محمود غازان الذي ألزم شعبه بارتداء العمامة حتى يتميز المسلم من غير المسلم، فضلاً عن حرص السلاطين المغول أنفسهم فيما اتخذوه من مظاهر

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (٣٤٠/١٣).

(٢) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة (٥٠١/١).

(٣) ابن حبيب: تذكرة النية (٢٧١/٢).

(٤) ابن بطوطة: الرحلة (١٨٥٠١).

إسلامية في هذا السبيل. من ذلك ما ذكره ابن بطوطة من أن السلطان محمد أولجايتو اتخذ السراويل كرداء رسمي يظهر به بين رجاله<sup>(١)</sup>.

#### ٦- تعلم اللغات الإسلامية:

أما التحول الهائل عند الإيلخانيين بعد إسلامهم فقد كان في ميدان اللغة، فقد أحسَّ المغول بأن اللغة المغولية تعوزها المرونة والطواعية، وبات ضروريا لنشوء حياة فكرية مستقلة بينهم أن يشاركوا الأتراك في إيران لغتهم بعد أن اجتمع الشعبان على دين واحد وانصهروا في بوتقة واحدة، ومن ثم أقبلوا على اللغة التركية واتخذوها لغة مشتركة ولسانا يومياً، كما أقبلوا على الفارسية وتراثها ضمن اهتماماتهم بالإسلام وحضارتهم. وهكذا اختفت اللغة المغولية والكلام بها في أواخر القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، وصارت اللغة التركية لغة الكلام بديلاً عن المغولية في ذلك الوقت، وظهر ذلك واضحاً منذ أن صارت التركية في بلاد إيران تتخذ شكلاً واضحاً ومحدداً حينما أصبحت أذربيجان مركزاً رئيسياً للاستيطان التركي المغولي في أوائل القرن الثامن الهجري أوائل القرن الرابع عشر الميلادي<sup>(٢)</sup>.

#### ٧- الاهتمام بالثقافة:

واستتبع التحول اللغوي أن عني الإيلخانيون في إيران بالعلوم، وحظي العلماء باهتمامهم ونالت الجوانب التراثية حظاً كبيراً من عنايتهم، ولم يروا غصاصة في اللجوء إلى الأعلام الإيرانيين في العمل على إحيائه بعد أن تيقنوا من أن المدونات المغولية والأويغورية لم تعد بوسعها أن ترقى لما وصل إليه الإيرانيون في استقصاء المعلومات التاريخية وتصنيفها، وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى أن تشهد المدونات الفارسية والأدب الفارسي بعامة ازدهارا في عهد الإيلخانات المسلمين منذ عهد غازان.

(١) محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون في مصر (١٤٧).

(٢) شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي. ترجمة خالد أسد. بيروت، ١٩٨٢م (ص ٧٣، ٧٤).

## خلاصة الوحدة السابعة

- ١- شكلت العوامل البيئية أثراً كبيراً في تاريخ المغول.
- ٣- قام جنكيزخان بالدور الكبير في تكوين الكيان السياسي للمغول.
- ٤- قسم جنكيزخان أملاكه بين أبنائه حسب سنهم.
- ٥- توسع المغول بعد جنكيزخان في الصين والبلاد الإسلامية.
- ٦- دخل هولاءكو بغداد وقضى على الخلافة العباسية بالعراق.
- ٧- اعتنق بعض المغول الإسلام.
- ٨- تأثر المغول بالحضارة الإسلامية في كافة مظاهرها.

## اختبار الوحدة السابعة

أولاً: أسئلة الصواب والخطأ:

ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (x) أمام العبارة الخاطئة فيما يأتي:

- ١- ظهر المغول في نهاية القرن السادس عشر الميلادي.
- ٢- "إلياسا" هو الدستور الاجتماعي لدولة المغول.
- ٣- أصدر دستور "إلياسا" أبناء جنكيز خان.
- ٤- هزم جيش أوكتاي جيش السلطان جلال الدين عام ٦٢٨هـ.
- ٥- حكم أوكتاي خاقان المغول لمدة عشرين سنة.
- ٦- استولى المغول على أذربيجان بمساعدة من الشعب.
- ٧- استولى المغول على إقليم "إربل" عام ٦٥٠هـ.
- ٨- هزم المسلمون المغول بقيادة مجاهد الدين الدوادار.
- ٩- أعلن السلطان غياث الدين الانقياد للمغول ودفع الجزية.
- ١٠- كانت عاصمة دولة المغول هي إشبيلية.
- ١٢- استولى المغول على قلعة "الموت" وعثروا بداخلها على المكتبة النفيسة للدولة الإسماعيلية.
- ١٣- هزم "ياجو" جيش الخليفة العباسي على الجانب الشمالي من بغداد.
- ١٤- نكل المغول بالخليفة العباسي المستعصم وقتلوه.
- ١٥- أزال المغول جزءاً من معالم الحضارة الإسلامية في بغداد.
- ١٦- أول من اعتنق الإسلام من المغول هو الإيلخان أحمد تكودر.
- ١٧- ازداد دخول المغول في الإسلام في عهد غازان بن أرتمون.
- ١٨- تأثر المغول كثيراً بالحضارة الإسلامية في إيران.

ثانياً: الأسئلة المقالية:

- ١- عرف المغول من هم، وبين البيئة التي نشأوا فيها، مع بيان مراحل ظهور دولتهم إلى الوجود؟
- ٢- اكتب بإيجاز في كل ما يلي:
  - المغول من جنكيز خان إلى هولاكو خان.
  - توسع المغول في غرب آسيا.
  - حملة هولاكو على إيران.
- ٣- بين الأسباب التي أدت إلى دخول المغول بغداد وزوال الخلافة العباسية على أيديهم مع ذكر ما فعلوه من فظائع ببغداد وأهلها.
- ٤- بين مراحل اعتناق الإيلخانيين للإسلام والشخصيات التي أدت إلى دخول المغول في الإسلام.
- ٥- حدد الأسباب التي أدت إلى تأثير المغول بالحضارة الإسلامية.

ثالثاً: الأسئلة الحوارية:

دار حوار بينك وبين أحد زملائك حول تأثير المغول بالمسلمين والحضارة الإسلامية. صف لنا هذا الحوار.

رابعاً: الأسئلة التحليلية:

- أ- اذكر دور جنكيز خان في نشأة الكيان السياسي للمغول.
- ب- ما أسباب إغارة المغول على البلاد الإسلامية؟
- ج- ما مدى تأثير المغول بالمسلمين؟
- د- اذكر أسباب سقوط بغداد في يد المغول.

## النشاط التعليمي للوحدة السابعة

- عزيزي الدارس: حتى تكتسب المزيد من المعلومات حول موضوعات هذه الوحدة عليك بإيجاز النشاط التعليمي التالي:
- أ- أعدّ بحثاً تتناول فيه نشأة المغول وأثر العوامل البيئية في ذلك.
  - ب- اكتب مقالة عن دور جنكيزخان في نشأة المغول.
  - د- اكتب بحثاً عن أسباب إغارة المغول على البلاد الإسلامية.
  - هـ- تناقش مع زملائك حول إسلام المغول وتأثرهم بالحضارة الإسلامية.
  - و- تناقش مع زملائك حول أسباب سقوط عاصمة الخلافة العباسية (بغداد) في يد المغول.

يوصى بالرجوع إلى بعض هذه المراجع:

د/ فؤاد الصياد: المغول في التاريخ. مكتبة سعيد رأفت. سنة ١٩٧٥م.

د/ السيد الباز العربي: المغول. بيروت سنة ١٩٤٩م.





## الوحدة الثامنة

### الخلافة العثمانية

مبشرات دراسة الوحدة:

عاش العثمانيون خمسة قرون على مسرح التاريخ، كان اسمهم -على مدارها- يحدث الرعب في أنحاء أوروبا، وقد ملكوا شطراً كبيراً من أوروبا، وقدموا للعالم الإسلامي خدمات لا تنكر بعد سقوط الأندلس، ووقفوا ضد أوروبا التي زحفت برأً وبحراً على بلاد المسلمين، وكادت تنتهي من امتلاك الشمال الإفريقي لولا ظهور القوة العثمانية التي بدأت هجوماً مضاداً جعل الأوربيين في موقف الدفاع. كما قام العثمانيون بفتح القسطنطينية (إسلام بول) وقضوا على قلب الإمبراطورية البيزنطية الشرقية.

وكانت نظمهم العسكرية والقضائية والسياسية من أفضل النظم، لولا إهمالهم لجانب الشورى في الحكم كما ينبغي أن يكون، ولجانب التقدم العمي، ولا سيما في المجالات التكنولوجية، كما أنهم اعتزوا بقوميتهم أو بجنسهم، ولم يجعلوا العربية لغة القرآن لغة الإمبراطورية العثمانية، ومع ذلك عاشوا لأربعة قرون أقوياء أعزاء. فلما جاء القرن الأخير كانت أوروبا قد تفوقت في مجال العلم، وطورت نظمها وفاجأهم بالفرق الشاسع بينها وبينهم، وفرضت عليهم بعض نظمها، وبدأت تحترقهم من خلال (مائة مشروع لتقسيم تركيا) وكان اليهود الماسون في داخل الخلافة العثمانية وخارجها من أكبر العوامل في هدم الدولة العثمانية؛ لأنها رفضت أن تبيع لهم فلسطين.

إنما دروس كثيرة، وتجربة خصبة، وعمر طويل، وإنه لمن الضروري التعرف على التجربة والدروس من دولة آل عثمان بإنصاف وليس كما يفعل أعداء كل ما هو إسلامي. هذه - بإيجاز - أهداف دراسة الدولة أو الخلافة العثمانية.

الأهداف التعليمية للوحدة:

عزيزي الدارس: يرجى بعد دراستك لهذه الوحدة أن تصبح قادرًا على أن:

أ- تُعرّف مصطلحات:

- ضريبة الغلمان. - الانكشارية.
- مجلة الأحكام العدلية. - يهود الدونمة.
- البيادة. - الصدر الأعظم.
- قاضى القضاة.

ب- تذكر العناصر الأساسية للقضايا التالية:

- العلاقات العثمانية المغولية.
- ضعف الدولة العثمانية.
- التنظيمات الحرفية.
- الإصلاحات الإدارية.
- العلاقات العثمانية الصفوية- المملوكية.
- القضاء في العصر العثماني.

ج- تستنتج أهم خصائص:

- السياسة الداخلية والخارجية للسلطان محمد الفاتح.
- التغلغل اليهودي في الكيان الإدارى العثماني.
- إصلاحات السلطان سليمان القانوني.
- الجيش العثماني.

## الوحدة الثامنة الخلافة العثمانية

- ماهية المصطلحات التالية: ضريبة  
العلمان - الإنكشارية - مجلة الأحكام  
العدلية - يهود الدونمة - البيادة - الصدر  
الأعظم - قاضي القضاة.

العناصر الأساسية للقضايا التالية:  
- العلاقات العثمانية المغولية - ضعف  
الدولة العثمانية - التنظيمات الحرفية -  
الإصلاحات الإدارية - العلاقات العثمانية  
الصفوية - المملوكية - القضاء في العصر  
العثماني.

أهم خصائص كل من:  
- السياسة الداخلية والخارجية للسلطان  
محمد الفاتح.  
- التغلغل اليهودي في الكيان الإداري  
العثماني.  
- إصلاحات السلطان سليمان القانوني.  
- الجيش العثماني.

## الخلافة العثمانية

قيام الدولة العثمانية:

أصل الأتراك العثمانيين:

ينسب الأتراك العثمانيون إلى قبيلة تدعى (قابتی) إحدى قبائل الغزّ التركية ومَنْشُورُهَا بلاد تركستان، وأقدم زعيم معروف لهذه القبيلة اسمه (سليمان)، وكان يهيم بقيبته في آسيا الصغرى باحثاً عن أرض يقيم عليها دولته بعد موقعة (ملازكرد) التي أكدت سيطرة الدولة السلجوقية، وقد قتل سليمان عند مشارف حلب، وترددت فروع القبيلة بين العودة إلى موطنها الأصلي أو مواصلة المغامرة، وانقسمت القبيلة في ذلك باحثاً عن ملاجئ تأوي إليها، لكن ابنه أرطغرل اختار أن يدخل آسيا الصغرى والتحق بخدمة الأمير السلجوقي علاء الدين الثاني الذي كان يواصل الحرب ضد البيزنطيين، وساعده في هذا الكفاح، فأقطعه السلطان السلجوقي مساحة من الأرض تقع غربي دولة السلاجقة على الحدود البيزنطية، وترك له فرصة توسيع ممتلكاته على حساب البيزنطيين، فاتخذ (شكور) عاصمة له<sup>(١)</sup>.

عثمان:

توفي (أرطغرل) عام (١٢٨٨/٥٦٨٧م)، وتولى ابنه (عثمان) مكانه بموافقة (علاء الدين) السلجوقي، وسار عثمان سيرة أبيه في مساعدة السلجوقيين وتأييدهم في حروبهم، فزاد (علاء الدين) في إكرامه، ومنحه نوعاً من الاستقلال، وأقطعه كافة الأراضي والقلاع التي فتحها، واستمر في التوسع على حساب دولة الروم الشرقية، واستولى على مدينة (قَرّة حصار) واتخذ هذه المدينة عاصمة له<sup>(٢)</sup>.

(١) محمد فؤاد كوبرلي: قيام الدولة العثمانية. ترجمة أحمد السعيد سليمان. ط ٢. الهيئة العامة للكتاب

القاهرة ١٩٩٣م. (ص ١١٦-١٢٤).

(٢) المرجع السابق: (ص ١٣٧-١٤٢).

## السلطنة العثمانية وجهودها في شرق أوروبا:

زالت دولة السلاجقة من آسيا الصغرى عام (١٢٩٩م/٥٦٩٩هـ). بمداومة (المغول)، وتوفي السلطان علاء الدين في نفس العام، وبعد وفاة السلطان السلجوقي المذكور أعلن عثمان استقلاله التام مكونا السلطنة؛ معلنا قيام "العثمانية" التي اتخذت تسميتها من اسمه، ومد نفوذه على معظم الأراضي والمقاطعات التي كان يحكمها "السلاجقة"، وجعل من مدينة (يكي شهر) الواقعة غربي (قونية) بالأناضول عاصمة له، كما اتخذ الراية (العلم) -والتي لا زالت تمثل العلم التركي حتى الآن- وهي الهلال وبداخله النجمة، وأسمى نفسه (بادشاه آل عثمان)، ودخل في سلسلة من الصراعات الطويلة ضد أعداء الإسلام من البيزنطيين والمغول وغيرهم بشجاعة وإقدام، وقد ظفر في صراعه بعدة انتصارات، ووضع يده على معقل هام في آسيا الصغرى وهو (بورصة) الواقعة شمال غربي تركيا، جنوبي بحر مرمرة حاليا، ولما استنجد البيزنطيون بانتار ضد آل عثمان تمكنوا من استرداد (بورصة) من أيدي آل عثمان، ولكن الأمير عثمان جرد جيشا ضخما وتمكن من انتزاع (بورصة) من جديد من أيدي الحليفين عام (٥٧١٧/١٣١٧م)<sup>(١)</sup>.

### أورخان:

ثم انتقل الحكم إلى ابنه (أورخان) فجعل من (بورصة) عاصمة للدولة الجديدة، ولقد شهد عصره تطورين بارزين: أحدهما كسر شوكة البيزنطيين في آسيا الصغرى، والآخر الانتقال إلى الجانب الأوروبي وفتح أبواب أوروبا الواسعة أمام العثمانيين لرفع راية الجهاد، وإليه يرجع الفضل في تكوين الجيش الجديد المعروف باسم (يكي شري) أي: الانكشارية، ولقد تراءت أمام (أورخان)

(١) إيرين بيلديسينو: تاريخ الدولة العثمانية. الجزء الأول إشراف: روبرماتران. ترجمة بشر الساعي. دار

الفكر للدراسات والنشر والتوزيع. الطبعة الأولى. القاهرة ١٩٩٣م. (ص ١٧-٢٥).

الفرصة الذهبية التي اقتنصها بعد طول انتظار عندما طلب منه أحد المتصارعين على العرش البيزنطي وهو (كانت كوزين) أن يساعده ضد خصمه، وبعد نصره إياه أخذ (قلعة تزيمب) الواقعة على شاطئ الدردنيل من الجانب الأوروبي مكافأة له، وهي أول مساحة من الأرض الأوروبية يحصل عليها آل عثمان<sup>(١)</sup>.  
مراد الأول:

توفي (أورخان) عام (١٣٥٩/٥٧٦١م)، فخلفه ابنه (مراد الأول) الذي بسط نفوذه على (كوتاهية) غربي الأناضول، وكانت تحت نفوذ حاكم (قرمان) بعدما عقد معه مصاهرة سياسية؛ حيث زوج ابنه (بايزيد) من كريمة هذا الحاكم، وتدرجياً اتسعت أملاك العثمانيين في آسيا الصغرى عن طريق الانتصارات التي حققوها على خصومهم، وظهور تفوقهم عليهم في كافة المجالات، وخاصة العسكرية.  
ولقد اهتم السلطان (مراد الأول) بالتوسع في (بلغاريا) واندلعت معركة حاسمة بين هذا السلطان وقواته من ناحية، والقوات الأوروبية المتحالفة تحت إمرة ملك الصرب العتيد (لازار) من ناحية أخرى. وقد كانت جيوش (لازار) متحدة مع جيوش المجر وبولندا والبلقان، ففاقوا بكثير من حيث العدد والعدة القوات العثمانية ورغم هذا فقد أنزل السلطان (مراد الأول) هزيمة ساحقة بهذا التحالف الصليبي أرهبت أوروبا كلها، بيد أن هذا القائد المنتصر لم يهنأ بنصره كثيراً، فبينما كان يتفقد أرض المعركة -حيث القتلى والجرحى من الأوروبيين- غافله جندي صربي جريح بضربة قاتلة أودت بحياته، ففقدت الدولة قائداً مغواراً محنكاً عام (١٣٨٩/٥٧٩٢م)<sup>(٢)</sup>.

(١) إيرين بيلديسينون: تاريخ الدولة العثمانية (ص٢٧-٤٤). بول كولز: العثمانيون في أوروبا. ترجمة

عبدالرحمن عبدالله. الشيخ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣. (ص٧٩-٨٢).

(٢) خليل إينالچك: العثمانيون (النشأة والازدهار). بحث في كتاب دراسات في التاريخ العثماني. جمع

وترجمة دكتور/ سيد محمد السيد. دار الصحوة. الطبعة الأولى ١٩٩٦م. (ص٤٧-٤٩).

## بايزيد الأول:

تولى (بايزيد الأول) بن مراد مكان أبيه عام (٥٧٩٢/١٣٨٩م). وتأثر له؛ فقبض على ملك الصرب وقتله وقتل أعوانه، واصطنع (بايزيد الأول) سياسة مرنة ضد خصومه، حيث عين ابن الملك الصربي المذكور حاكماً على بلاد الصرب على أساس تقديم الجزية وإمداده بعدد من العسكر وقت الحرب، ثم شد الرحال إلى الأناضول واتجه إلى (فلادغيا)، والتي كانت آخر المعاقل البيزنطية هناك ففتحها في عام (١٣٩١م)؛ وبذلك صارت آسيا الصغرى تحت الحكم العثماني فيما عدا (أزمير، وطرايزون).

ثم انتقل بعد ذلك إلى الجانب الأوروبي، حيث ضرب الحصار حول القسطنطينية وحارب حاكم (الأفلاق) وهزمه وألزمه بدفع الجزية، وبعدها اتجه إلى (قرمان) وحارب حاكمها الذي شن هجوماً ضد العثمانيين، وانتهى الأمر بهزيمة الأخير وضياع أملاكه فصارت أملاكاً عثمانية، ثم أعدت العدة للاتجاه نحو مناطق أخرى مثل (نوفات وسيواس وقيصرية) وغيرها، ولم يتبق من بقايا الأملاك السلجوقية سوى مقاصة (قسطنطينية) التي احتسب فيها المهزومون بحاكمها<sup>(١)</sup>.

ولقد كان الوضع في الجانب الأوروبي يستدعي سرعة تحرك السنطان العثماني (بايزيد الأول) للتصدي لتكتل صليبي جديد من المجر وفرنسا وألمانيا يستهدف الوصول حتى بيت المقدس، واشتعلت الحرب بين العثمانيين وهذا التكتل الأوروبي في موقعة شهيرة هي موقعة (نيكوبوليس) على نهر الدانوب عام (٥٧٩٨/١٣٩٥م)، وفيها انتصر العثمانيون انتصاراً ساحقاً<sup>(٢)</sup>.

وتألفت الدولة العثمانية على ربوع أوروبا، وكان من الملاحظ أن المكائد الأوروبية والدسائس أخذت تمحاك ضد العثمانيين، فقد سعى ملوك أوروبا نحو

(١) إيريس بيلديسينو: الحقائق والأساطير (ص ٥٠-٦٧).

(٢) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤-١٩١٤م) مكتبة الأنجلو المصرية بدون تاريخ. (ص ٢٥-٢٧).

استشارة وتحريض المغول لمهاجمة العالم الإسلامي، وبخاصة الدولة العثمانية، وذلك من خلال الأوربيات اللاتي عملن في قصور حكام المغول ولدى الأمراء، واتبعن كافة الوسائل لإثارة عوامل الكراهية والعداء ضد المسلمين بصفة عامة، ولم يأبه العثمانيون لتلك الأخطار بل انصرفوا نحو توسعاتهم في صوفيا (العاصمة البلغارية -حالياً)- وسلانيك في اليونان، ونيش شرقيّ يوغسلافيا قرب حدود البلغار، واضطر حاكم الصرب وملك البلغار لدفع الجزية للسلطان العثماني<sup>(١)</sup>.

المغول يعترضون التوسع العثماني:

كان لنجاح العثمانيين في فتوحاتهم أثره في اشتعال نفوس الأوروبيين كراهية، فقاموا بنشاط معاد، وأثاروا المغول ضد العثمانيين، ورغم أن المغول في ذلك الوقت كانوا قد اعتنقوا الإسلام، إلا أن الأوروبيين لعبوا على المسألة المذهبية لتعميق هوة الخلاف بين الفريقين، فكان العثمانيون -كما هو معلوم- من السنة، بينما كان المغول بقيادة (تيمورلنك) من الشيعة، ومما أشعل الموقف بين الطرفين ما أقدم عليه (تيمورلنك) من احتلال منطقة سيواس بآسيا الصغرى، فتقدم السلطان (بايزيد) مسرعا إلى هذه المنطقة خاصة بعدما تيقن من مقتل ابنه على أيدي المهاجمين المغول، ولم يترث السلطان لاختيار الموقع المناسب ليكون مسرحا لمعركة فاصلة بين قائدين من أكبر قواد العالم حينذاك، وكانت القوات المغولية تصل إلى ما يقرب من (٨٠٠ ألف مقاتل) بينما بلغت القوات العثمانية (١٢٥ ألف مقاتل)، ورغم الفارق العددي فإن السلطان بايزيد الصاعقة (يلدرم) قد أبدى من ضروب الشجاعة والإقدام والمهارة وسرعة الحركة والمناورة ما يذهل العقول، بيد أن القوات المغولية الكاسحة أحاطت به وبرجاله بعد ما أصاب التفكك جموع الجيش العثماني، ووقع السلطان في الأسر هو وابنه (موسى)، وفشلت محاولات السلطان الأسير لفك الأسر والنجاة. وأطاح

(١) خليل إينالچك: العثمانيون النشأة والازدهار (٥٧-٥٨). بول كولز: العثمانيون في أوروبا (ص ٨٣-٩٥).

تيمورلنك بالأملاك العثمانية في آسيا وأعاد العديد من الإمارات لأصحابها السابقين<sup>(١)</sup>.  
السلطان سليمان الأول:

في الحقيقة كانت نكسة أنقرة مأساةً درامية للروح العثمانية أدخلت السرور والفرح على نفوس حكام أوروبا المسيحيين وأهاليها، وتطلعت بعض الإمارات العثمانية الأوروبية إلى التحلل من الحكم العثماني وإعلان الانفصال<sup>(٢)</sup>. وفي هذه الفترة تولى سيمان بن بايزيد مكان أبيه، ووافق (تيمورلنك) على أن يحكم سليمان البلاد كتابع للسلطان المغولي، ولكن هذه الفترة كانت قصيرة، فقد مات (تيمورلنك) سنة (١٤٠٥م/٥٨٠٨هـ) وتقسام أبنائه مملكته، ووقعت خلافات بين بعضهم البعض، وبينهم وبين بعض حيرائهم، مما أضعف سيطرتهم في آسيا الصغرى وفي أكثر ممالكهم، فأخذت السيادة الكاملة تعود للعثمانيين مرة أخرى، وبدأوا يتخلصون من سلطة المغول.

ولكن العثمانيين عندما تخلصوا من القوة الخارجية ظهر بأسهم بينهم، فكثر الخلاف الداخلي على السلطة بين أبناء بايزيد (محمد وعيسى وسليمان وموسى) وكان لسليمان بعض النصر، ولكنه لم يكن مستقيماً في خلقه، بل كان مستهتراً خليعاً، فلم يحتفظ بالنصر الذي أحرزه وهزمه أخوه موسى، فهرب سيمان فقبض عليه بعض الفلاحين وقتلوه سنة (١٤١٠م/٥٨١٣هـ).

السلطان محمد الأول:

أما (محمد) فقد رجحت كفته بعد ذلك؛ إذ استطاع أن يتغلب على أخيه (عيسى)، ثم استدار إلى أخيه (موسى) فقتله سنة (١٤١٣م/٥٨١٦هـ)، وبذلك آلت

(١) أحمد شبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحصارة. (ج ٥). ط ٢. مكة النهضة المصرية ١٩٧٢م. (ص ٥١٤-٥١٦).

(٢) إيرين بيلديسينو: الحقائق والأساطير (ص ٥٠). نيقولا فاتان: صعود العثمانيين (١٣٦٢-١٤٥٦).

نحت في تاريخ الدولة العثمانية: إشراف روبر مانتران (ص ٥١-٦١).

أمور العثمانيين للسلطان (محمد)، وقد تحمل مسؤولية عظيمة، فكان عليه مواجهة العديد من الأخطار وإجبار الولايات السابقة على طاعة الدولة، كما أنه استخدم أسلوب السياسة والدبلوماسية في آن واحد مع بعض القوى الأوروبية، فقد تحالف مع الإمبراطور البيزنطي الحاكم وأرجع إليه بعض المدن، كما عقد صلحاً مع البندقية، وأعاد للسيطرة العثمانية بعض الإمارات التي أرجعها تيمورلنك لذويها<sup>(١)</sup>.

### السلطان مراد الثاني:

وفي سنة (١٤٢٥هـ/١٤٢١م) توفي السلطان (محمد) في (أدرنة) فخلفه ابنه (مراد الثاني) الذي سلك مسلك أبيه منذ عام (١٤٢١هـ/١٤٢٥م) حيث أبرم هدنة واتفاقاً مع حاكم المجر ثم حاربه بعد ذلك عندما تحرش بالدولة وردّه إلى الطاعة، حيث ألزمه بالتخلي عن أراضٍ واسعة على شاطئ نهر الدانوب كان قد استولى عليها، كما أنه أعاد كلاً من سالونيك، وألبانيا، كما أخضع الأفلاق، والصرب، ولقد واجه السلطان (مراد الثاني) تكثراً صليبيّاً جديداً مكوناً من المجر وبولندا وفرنسا وألمانيا والبندقية وجنوة والأفلاق والبوسنة والصرب؛ فكانت جمعهم كاسحة، وقد التقى بهم في معركة شهيرة هي: (موقعة نيش) بيد أنه لم يفلح في إخضاعهم، ودارت الدائرة على العثمانيين وهزموا في النهاية، وكان من الممكن لهذه الجيوش الأوروبية مطاردة وتعقب المهزومين، ولكنها لم تفعل، فكان ذلك التصرف لصالح العثمانيين حتى لا تتكرر أحوالهم أكثر من ذلك، وعقد السلطان صلحاً مع المنتصرين تنازل فيه عن صربيا والأفلاق<sup>(٢)</sup>.

لقد أَلَمَّ الحزن الشديد بالسلطان (مراد الثاني) بعد وفاة ابنه (علاء الدين) فآثر الاعتكاف والتفرغ للعبادة، وتنازل عن الحكم لابنه الصغير (محمد الثاني)

(١) أحمد شلبي: الموسوعة (٥/٥١٦).

(٢) نيقولا فاتان: صعود العثمانيين (ص ٦١-٦٢).

وكان في الرابعة عشرة من عمره، الأمر الذي أطمع فيه ملوك أوروبا فهاجموا الأراضي العثمانية ونقضوا الوعود والعهود، فعاثوا في الأرض فسادًا وغبًا وتخريبًا حتى وصلوا إلى ساحل البحر الأسود، الأمر الذي جعل السلطان المعتكف يخرج من اعتكافه؛ فواجههم وهزمهم وأجبرهم على الانسحاب، ثم رجع إلى اعتكافه في بلدة (مغنيسيا) قرب أزمير، وبعدها قام هو أيضا بسحق محاولة تمرد قام بها جنود الإنكشارية الذين استصغروا السلطان الشاب وغبوا وسلبوا في المدينة، ثم رجع - السلطان مراد الثاني- إلى مستقره حتى وفاته بعد حكم دام ثلاثين عاما<sup>(١)</sup>.

### محمد الثاني وفتح القسطنطينية:

بعد وفاة (مراد الثاني) سنة (١٤٥١/١٤٥٥ م) صار ابنه (محمد الثاني) -الفتاح فيما بعد- هو المتربع على العرش، فكان بذلك سابع السلاطين العثمانيين، وشرع في إنجاز المهام، وواصل جهود سابقه، وأخذ يخطط منذ تولية الحكم لأكثر عمية في تاريخ الدولة العثمانية وهي فتح القسطنطينية، تلك المدينة العريقة الحصينة ذات الموقع الاستراتيجي الهام حيث تقع في ملتقى الاتصال بين أوروبا وآسيا على مضيق البوسفور الذي يربط البحرين الأسود والأبيض عبر بحر مرمره، فكان -بحق- موقعها أنسب مكان لعاصمة عانية<sup>(٢)</sup>.

سبقت محاولة السلطان محمد الفاتح محاولات عثمانية، كان أبرزها محاولة (بايزيد الصاعقة) الذي لقب بـ(سيد البلقان)، ولكنها كانت إرهابات يحدث تاريخي ضخم كان بمثابة حجر الزاوية لتغيير مجريات الأحداث في تاريخ أوروبا والعالم على السواء. ففي فجر يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شهر مايو (١٤٥٣ م/١٤٥٧)، ومع نسمات الصباح الأولى كانت نقطة التحول وبدء ساعة

(١) إيرين بيديسينو: الحقائق والأساطير (ص ٥٠-٥١).

(٢) نيقولا فاتان: صعود العثمانيين (ص ١١٣-١٣٠).

الصفير وإعلان الهجوم وإحكام قبضة حصار عثماني صارم حول هذه المدينة الحصينة، وكان قد اكتمل قرن من الزمان على وصول آل عثمان في عهد السلاطين الأوائل الذين عبروا إلى الجانب الأوروبي في شبه جزيرة (غاليبولي) وبعد نصف قرن من محاولة السلطان (يلدرم بايزيد) أي (بايزيد الصاعقة) لفتح المدينة، ولقد كان السلطان الشاب، القوي الإيمان، يجدُّ في استعادته؛ مدفوعاً بحديث رسول الله ﷺ؛ مبشراً ومشيداً بفتح القسطنطينية، وقائد لها، وجيشها، فجمع جموعه من كافة أرجاء الدولة العثمانية، وكانت المدينة قد بلغ عدد سكانها نحو (١٠٠ ألف) نسمة، تحيط بها الأسوار الشاهقة المتينة من جهة البر، بينما كانت المياه تدور حولها من ثلاث جهات، فكانت الأسوار الثلاثة المتوالية حولها تكسبها مناعة وحصانة لا مثيل لها، ويربض خلفها رجال القوات البيزنطية للدفاع عن عاصمة ملكهم، بينما استقر أسطول كبير قوي في خليج القرن الذهبي، وقد أحكم إغلاق هذا الخليج بسلسلة ضخمة حديدية<sup>(١)</sup>.

أما السلطان (محمد الفاتح) فقد كان جيشه الضخم يتراوح عدده ما بين مائة ألف ومائة وخمسين ألفاً، يدعمه أسطول كبير شمل عدة مئات من السفن الحربية أخذت في مراقبة مضيق البوسفور، كما أن السلطان قد تفتق ذهنه عن حيلة بارعة؛ حيث تمكن من تكوين ما يقرب من سبعين سفينة أخرى؛ نقلت على هيئة ألواح خشبية عبر جسر (غلطة)، وجعلها في أعلى القرن الذهبي المذكور، وعلى هذا النحو صار الحصار العثماني يحيط بالمدينة من ثلاث جهات إحاطة السوار بالمعصم، وكانت المهمة الأولى أمام المدافع الضخمة للسلطان الفاتح هي إحداث ثغرات في تلك الأسوار المذكورة خلال الأسابيع الأولى، ثم تم نقل سفن الأسطول عبر التلال خلف (غلطة) إلى القرن الذهبي. ورغم أن السلطان قد عقد المجلس الحربي لكبار مستشاريه، وكان رأي أحدهم وهو الوزير

(١) خليل إينالچك: العثمانيون (النشأة والازدهار) (ص ٦١-٦٤).

الأعظم (قرة خليل) هو: ترك هذه العملية التي تتسم بالمغامرة بيد أن السلطان الشاب الطموح عارض هذا الرأي وازداد إصراراً وتمسكاً، وبعد منتصف ليلة الثلاثاء المذكور ومع تباشير الصباح وانبلاج الفجر كانت ساعة الصفر، وتقدم المهاجمون بشجاعة وثبات، وتصدى المدافعون بصلابة لهذا الهجوم الأول وأنزلوا بالمهاجمين خسائر فادحة في الأرواح، ولكن المهاجمين من الجند العثماني -مع ذلك- تمكنوا من إضعاف قدرات المدافعين واستنفاد الذخائر، وبعد أن وصل المدد للقوات العثمانية توالى الهجمات تلو الهجمات في الأيام التالية، وتخبر السلطان (محمد الثاني) من حيرة جنوده من الرماة والفرسان والإنكشارية قرابة (١٢ ألفاً)، قاموا بشن هجوم كبير، وبعد محاولات عديدة تمكن المهاجمون من إحداث ثغرة في الأسوار، تدفق جنود الجيش العثماني من خلالها، وخلال وقت قليل جداً دخل عشرات الآلاف من الجنود العثمانيين المدينة بعد ما تجاوزوا تلك الأسوار الشاهقة في هجوم كالسيل الكاسح، بينما ارتفعت صرخات البيزنطيين من شدة الفزع والرعب، وبعدها ارتفعت الأعلام العثمانية فوق الأبراج، واستمر المهاجمون في الإجهاز على بقايا المقاومة في نواحي المدينة، وكان قد قتل في الميدان آخر الأباطرة البيزنطيين مدافعاً عن عاصمته وهو الإمبراطور (بالولوجويس دراغاسيس)<sup>(١)</sup>.

وهكذا دخل السلطان (محمد الفاتح) على جواده من باب (طوب قو)؛ تحيطه الحاشية السلطانية، وحراسة من الإنكشارية، وقصد الكنيسة الشهيرة (آيا صوفيا) وتعني (الحكمة المقدسة) وهناك نزل من على جواده وترجل حتى دخل الكنيسة، ثم أمر الإمام بالصعود على المنبر، وأعلن المؤذن أذان الإسلام؛ وبذلك تحولت الكنيسة إلى مسجد، وفي يوم الجمعة الأول بعد دخول العاصمة التي صارت تدعى (إستانبول)

(١) يقولان: صعود العثمانيين (١٢٨-١٣٠).

أدى العساكر وقائدهم صلاة الجمعة في آيا صوفيا، ودعي للسلطان الفاتح لأول مرة على المنبر، وصارت مدينة الأباطرة آخر عاصمة للبيت العثماني<sup>(١)</sup>.

وهكذا سقطت القسطنطينية معقل المسيحية في جنوب أوروبا؛ التي أنفذت حملاتها الصليبية إلى الشرق الإسلامي، وعلى حد قول أحد القساوسة آنذاك: "سقط هذا المعقل المسيحي العريق، وتأسس على أنقاضه إمبراطورية الأتراك المجيدة وإرهاب العالم الحالي". وهذه العبارة تعكس حسرة أوروبا؛ ملوكاً وشعوباً على هذا التحول وذلك السقوط لعاصمة البيزنطيين في أوروبا<sup>(٢)</sup>.

وفي أعقاب الفتح المذكور الذي أربب أوروبا وأخاف ملوكها وحكامها وجزع منه البابا في روما نفسه، أقبل السلطان (محمد الفاتح) في بقية مدة حكمه على خوض سلسلة من المعارك المتصلة بهدف تدعيم الموقف العسكري العثماني وتقوية الدولة العثمانية، ففي أوروبا أخضع الإمارات اليونانية المستبدة في (المورة)، كما أنه أدخل صربيا والبوسنة في حظيرة الدولة العثمانية مباشرة وأحكاماً، كما أنه مد نفوذه على العديد من الجزر اليونانية، أما في الأناضول فقد أخضع سنيوب وقرمان وطرايزون، ولم يسع للزحف تجاه الشرق أبعد من هذا، ورفض رغبة رجاله في التوسع أبعد من ذلك؛ فقد كان يرى أن تحطيم الأسرات الإسلامية الحاكمة العريقة التي خدمت الدولة الإسلامية ليس من الأعمال الحسنة التي يشجعها، وإنما كان هدفه الأساسي هو الجهاد في أوروبا لنشر الإسلام على ربوعها<sup>(٣)</sup>.

وبعد وفاة (محمد الفاتح) في عام (١٤٨١/٥٨٨٦م) بدأ الصراع على وراثة العرش بين ولديه بايزيد وجم، وبعد صراع دام سبع سنوات انفرد بايزيد بالحكم عام

(١) نيقولا فاتان: صعود العثمانيين (ص ١٣٣-١٣٦).

(٢) المصدر السابق نفس الصفحات.

(٣) خليل إينالچك: العثمانيون النشأة والازدهار (ص ٧١-٧٤).

(١٤٨٨/٥٨٩٤م)، ولم تحدث فتوحات هامة في عهده، حيث اتجه إلى حياة الزهد والتصوف وإنشاء المزيد من المساجد، والتكايا، والزوايا، ولقبه الأتراك بلقب (الولي)<sup>(١)</sup>.

وفي آخر عهد بايزيد الثاني أوصى بولاية العهد لابنه أحمد، ولكن الابن الثاني (الأصغر) واسمه (سليم) ثار في وجه أبيه وأخيه، وقام صراع مرير انتصر فيه (سليم) سنة (١٥١٢/٥٩١٨م)، ويقال إنه دس السم لأبيه ليتخلص منه<sup>(٢)</sup>.

علاقات الدولة العثمانية بالشرق الإسلامي (الصفويين - المماليك):

نعود إلى الوراء قليلاً، ففي عام (١٤٦٥/٥٨٧٠م) حدث احتكاك بين المماليك والعثمانيين عندما تقاتل (بوداق) و(شاه سوار)، وهما اثنان من أبناء (أرسلان بك) أمير البستان التركماني، فأيد المماليك (بوداق)، وأيد العثمانيون (شاه سوار)، ولما علم (محمد الفاتح) بتولية (بوداق) أرسل في عام (١٤٦٧/٥٨٧٢م) بعض قواته لمساعدة (شاه سوار)، الذي تمكن من طرد (بوداق)، وإزاء هذا الموقف قرر السلطان المملوكي (قايتباي) التدخل، ولكن الحملة التي أرسلها هزمت، وفي عام (١٤٧١/٥٨٧٦م)، تمكنت القوات المملوكية بقيادة الأمير (يشك الدوادر) من هزيمة (شاه سوار) الذي طلب الصبح والعفو من المماليك؛ نظير تعهده بالولاء والطاعة لسلطنة المماليك وعاد شاه (بوداق) إلى مرعش.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد انزعج السلطان (قايتباي) عندما علم بهزيمة حليفه (جهام شاه) -زعيم (القرة قيونلو) من بلاد التركمان- من العثمانيين وحلفائهم (آلاق قيونلو) -من بلاد التركمان- وأعدن (قايتباي) الحرب على الدولة العثمانية، ولكنه هزم، وفي عام (١٤٧٢/٥٨٧٧م) وجه (قايتباي) جيشاً آخر إلى الأراضي العثمانية، وواجه السلطان (محمد الفاتح) بنفسه، وهُزم

(١) نيقولا فاتان: صعود العثمانيين (ص ١٣٦).

(٢) خليل إينالچك: المرجع السابق (ص ٧٥).

(قايتباي) عام (٨٧٧-٨٧٨/١٤٧٢-١٤٧٣ م) في موقعة (بابرت)<sup>(١)</sup>.

وفي هذه الظروف التي كانت تتعرض لها دولة (الآق قيونلو) أطاحت بحكامها أسرة أخرى هي أسرة الصفويين التي ظهرت في أذربيجان، وأصبحت الصفوية حركة شيعية قوية، وكان زعيمهم هو الشيخ جنيد (٨٥١-٨٦٥/١٤٤٧-١٤٦٠ م)، وكانت له أطماع سياسية، واكتسب أتباعاً كثيرين من بين قبائل التركمان التي كانت تشعر بضغط التوسع العثماني، ودافع (قايتباي) عن الشيخ (جنيد) الذي تزوج أخت السلطان (قايتباي)<sup>(٢)</sup>.

ولم تنته المشاكل بين العثمانيين والمماليك عند هذا الحد، فقد تدخل العثمانيون في إمارة (ذي القدرية) بتنصيب شخص يدعى (علاء الدولة) حاكماً على الإمارة، بعد أن منحه السلطان محمد الفاتح تأييده المطلق عام (٨٨٥/١٤٨٠ م) ضد (بوداق) المؤيد من قبل المماليك<sup>(٣)</sup>.

وعندما توفي (محمد الفاتح) في عام (٨٨٦/١٤٨١ م) أيد السلطان المملوكي (قايتباي) الأمير (جم) ضد أخيه (بايزيد الثاني)، فقام العثمانيون بغزو قلقيلية في عام (٨٩٠/١٤٨٥ م)، وتمكن داود باشا- الصدر الأعظم- من احتلالها في عام (٨٩٣/١٤٨٧ م) وفي هذا الوقت تخلى الأمير (علاء الدولة) عن حاميه العثماني، ولم يستمر الحال طويلاً في تعثير مفاوضات الصلح بين العثمانيين والمماليك، فقد جاء إلى مصر في عام (٨٩٧/١٤٩١ م) رسول من قبل السلطان العثماني (بايزيد الثاني) ومعه مفاتيح القلاع التي استولى عليها العثمانيون، وعقد الصلح بينهما في عام (٨٩٧/١٤٩١ م)<sup>(٤)</sup>.

(١) نيقولا فاتان: صعود العثمانيين (١٤٥١-١٥١٢) (ص ١٢٧-١٢٩).

(٢) المرجع السابق (ص ١٢٩-١٣٠).

(٣) خليل اينالجك: العثمانيون النشأة والازدهار. (ص ٦٨-٧١).

(٤) نيقولا فاتان: صعود العثمانيين (ص ١٣٤-١٣٦).

وفي هذه الظروف، كان وضع الأسرة الصفوية خطيراً للغاية، فقد تولى إسماعيل حفيد الشيخ جنيد الصفوي الزعامة على أذربيجان وغربي فارس والعراق، وتوج (شاه) على بلاد فارس، وضم شرق فارس إلى ممتلكاته، وفي عهد (بايزيد الثاني) لاقت الحكومة العثمانية مشاكل عديدة من النفوذ الصفوي في الأناضول، وفي عام (١٥٠٢/٩٠٨م) أبعده السلطان العثماني من لهم ميول إلى الشاه إسماعيل من أراضي الأناضول، وفي عام (١٥١١/٩١٧م) قامت دعوة شيعية مفاجئة في الأناضول بزعامة شاه (قولي)، فوجه السلطان العثماني حملة من الإنكشارية يقودها الصدر الأعظم بنفسه، ولكنها هزمت، ونفذ العثمانيون سياسة الاضطهاد الديني ضد الشيعة المقيمين في بلادهم<sup>(١)</sup>.

ولم يستطع السلطان سليم المحافظة على مركزه إلا بمحاربة وهزيمة أخيه الأكبر (أحمد)، فلدجاً أحد أبناء أخيه المهزوم ويدعى الأمير (مراد) إلى الشاه إسماعيل الصفوي، وذهبت بعثة صفوية إلى مصر تطلب تأييد السلطان الممموكي قانصوه الغوري ضد العثمانيين، وفي (٢٠ أبريل عام ١٥١٤م/٩٢٠هـ) بدأ السلطان العثماني (سليم الأول) زحفه تجاه الأراضي الصفوية، وفي هذا الوقت رفض الأمير علاء الدولة تزويد العثمانيين بالإمدادات والمساعدات، واستمر (سليم الأول) في زحفه والتقى بالصفويين في سهل (جالديران) في (أغسطس عام ١٥١٤م/٩٢٠هـ)، وانتصر العثمانيون ودخلوا العاصمة الصفوية (تبريز) في شهر سبتمبر، ولكن العثمانيين بدأوا في هذه اللحظة يقاسون من نضوب مواردهم، فأجبر الإنكشارية السلطان على الانسحاب<sup>(٢)</sup>.

### دخول العثمانيين الشام:

ونتيجة للنهائية المتميعة التي تمخضت عنها موقعة جالديران، كان لا بد من

(١) المرجع السابق (ص ١٦١-١٦٢).

(٢) نيقولا فاتان: صعود العثمانيين (ص ١٣١-١٣٣).

قيام جولة أخرى بين العثمانيين والصفويين وأحلافهم المماليك ارتبطت بسباق بينهم على غزو الأقاليم المجاورة. وقد كان استيلاء (سليم الأول) على إمارة (دلغادر) الحاجزة بين المماليك والعثمانيين والقضاء على (علاء الدولة) بداية صراع جديد مع سلطنة المماليك في مصر، كما أن شكوك السلطان (قانسوه الغوري) في نوايا العثمانيين بدأت تتزايد بعد هزيمة الصفويين<sup>(١)</sup>.

فقام (قانسوه الغوري) بالاتصال بالشاه (إسماعيل) الصفوي، وتعهد بأن يرسل القوات المملوكية إلى حدود سوريا لمنع استفحال خطر العثمانيين<sup>(٢)</sup>.

وسرعان ما وضعت المحالفة المملوكية - الصفوية موضع التنفيذ، عندما جهز السلطان سليم حملة جديدة ضد أحد الأقاليم الصفوية في ربيع عام (١٥١٦م / ٨٩٢٣هـ). فقام (قانسوه الغوري) بقيادة الجيش المملوكي إلى سورية تاركا (طومان باي) أحد القادة الكبار نائبا عنه في القاهرة خلال غيابه، ولذلك اضطر السلطان (سليم) إلى حسم الأمر مع المماليك، ولم يجد الغوري مفرًا من القتال، وفي (٢٤ أغسطس عام ١٥١٦م / ٨٩٢٣هـ)، تقابل الجيشان المملوكي والعثماني في معركة في سهل (مرج دابق)، بالقرب من حلب، وفي هذه الأثناء سحب خاير بك القوات التي تحت إمرته، وأشاع هزيمة المماليك، وتحولت المعركة إلى هزيمة، سقط فيها السلطان الغوري قتيلاً<sup>(٣)</sup>.

وبفوز العثمانيين في معركة مرج دابق (١٥١٦م / ٨٩٢٣هـ) أصبح من اليسير أمامهم فتح مدن الشام؛ الواحدة تلو الأخرى؛ فقد كان الأهالي يتمنون زوال الحكم المملوكي نظرًا لعيوبه، ومن المعروف أن أهالي حلب كانوا قد رفعوا

(١) المرجع السابق (ص ١٦١-١٦٢).

(٢) محمود شاکر: التاريخ الإسلامي - العهد العثماني (ج ٨). المكتب الإسلامي. الطبعة الثالثة. القاهرة (١٩٩١م). (ص ١٠٠-١٠١).

(٣) محمود شاکر: التاريخ الإسلامي (العهد العثماني) (١٠٢/٨-١٠٣).

شكواهم إلى السلطان سليم قبل نشوب المعركة؛ لما قاسوه من فظائع وجرائم على أيدي الجراكسة وأعلنوا انضمامهم إلى جانبه، وقد فتح (سليم الأول) حلب بدون قتال، وتمكن من دخول دمشق بعد ترحيب أهلها بالعثمانيين، الذين قاموا بقتل نائبها المملوكي ورجاله شنقا على أبواب المدينة. وهكذا تتابع سقوط مدن الشام في قبضة العثمانيين دون عناء يذكر؛ وعين السلطان سليم الأول على كل مدينة نائبا عنه، كما نصب قاضيا ليسهر على تطبيق أحكام الشرع الشريف<sup>(١)</sup>.

دخول العثمانيين مصر:

وقد كان السلطان (سليم الأول) يقدر أهمية فتح مصر، وأمام هذا، بادر السلطان (سليم الأول) بمفاوضة (طومان باي) الذي تولى حكم المماليك بعد مقتل (قانسوه الغوري) في (مرج دابق). ويبدو أنه كان يأمل دخوله في طاعته سُنْمًا، ولما رفض (طومان باي) ذلك، كان من الضروري أن يعيد السلطان (سليم الأول) النظر في مسألة فتح مصر، وتشاور مع قادة جيشه، واستقر الرأي على توجيه حملة عسكرية لفتح مصر. وفي (٢٢ يناير سنة ١٥١٧م/٩٢٣هـ)، وعند الريدانية التقى الجيش العثماني بالجيش المملوكي بقيادة (طومان باي)، ولم تستغرق المعركة وقتًا طويلًا حتى انكسر الجيش المملوكي، وقد حاول طومان باي الثبات، ولكنه اضطر في النهاية إلى الفرار وفي (٢٣ يناير سنة ١٥١٧م/٩٢٣هـ) دخل الجيش العثماني القاهرة. وقد حاول طومان باي المقاومة لانتزاع القاهرة من أيديهم ولكن محاولاته المتكررة فشلت، وقبض عليه وشنق على باب زويلة أحد أبواب القاهرة في (٣٠ يناير سنة ١٥١٧م/٩٢٣هـ) وبذلك صارت مصر ولاية عثمانية<sup>(٢)</sup>.

كان على العثمانيين بعد أن قضوا على دولة المماليك في الشام ومصر أن

(١) أحمد شلي: الموسوعة (٥/٥٢٣).

(٢) أحمد شلي: الموسوعة (٥/٥٢٣).

يتصدوا للخطر البرتغالي، ويقتضي ذلك -بالضرورة- بسط سيطرتهم على الحجاز واليمن باعتبارهما نقطة انطلاق لمحاربة البرتغاليين، ويتحكمان في مدخل البحر الأحمر، وجاء الأمر سهلاً، عندما قابل جماعة من الفقهاء والقضاة من أهل الحجاز السلطان سليم في مصر وأعلنوا رغبتهم في التوسط لمكاتبة شريف مكة (الشريف بركات) للدخول في خدمة السلطان العثماني، وعلى هذا النحو قبل الشريف بركات، أن يبعث إلى السلطان سليم معلناً استعداده لقبول السيادة العثمانية، فأرسل ولده إلى القاهرة ومعه مفاتيح الحرمين الشريفين، وقد أحسن السلطان العثماني استقباله ومنحه تفويضاً بأن يتمتع والده بحكم الحجاز في ظل الدولة العثمانية التي أبقت على نظام الشرافة، إلا أنهم أسسوا صنحقية عثمانية في ميناء (جدة) يتولى حكمها أحد البكوات العثمانيين عرفت باسم صنحقية جدة أو (صنحقية الحبش) باعتبارها تضم جانباً من الساحل الأفريقي (مصوع - أرتريا)<sup>(١)</sup>.

دخول العثمانيين اليمن وشبه الجزيرة العربية:

أما اليمن فقد أقر السلطان (سليم الأول) الحاكم المملوكي (إسكندر الجركسي) حاكماً عليها، على أن تكون الخطبة باسم السلطان العثماني، وقد مرت اليمن بفترة حافلة بالصراع الشديد بين الأمراء المماليك للوصول إلى الحكم، بينما قام نفر من الأمراء العثمانيين بالعمل على تقوية نفوذ الدولة، ولم تنته تلك الأحداث بنتيجة حاسمة، بينما كان الخطر البرتغالي يستفحل تدريجياً في المحيط الهندي ويتجه صوب البحر الأحمر<sup>(٢)</sup>.

واستمر الوضع في اليمن على ما هو عليه باقي فترة حكم السلطان (سليم

(١) غسان علي محمد الرمال: صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر. دار العلم للطباعة والنشر. السعودية ١٩٩٥م. (ص ٢٠٣-٢٠٦).

(٢) غسان علي محمد الرمال: صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر (ص ٢٠٥-٢٠٧).

الأول) الذي توفي عام (١٥٢٠/١٥٢٧م)، فتولى ابنه (سليمان) العرش، وهو المعروف بسليمان القانوني الذي اهتم بشئون اليمن وباقي شبه الجزيرة العربية. ففي عام (١٥٣٨/١٥٤٥م) أرسل حملة عثمانية إلى اليمن بقيادة (سليمان باشا الخادم) تضم عدداً من السفن التي أنشئت في السويس، تمكنت من تهدئة الوضع في اليمن<sup>(١)</sup>، وقبل منتصف القرن السادس عشر الميلادي قامت حملة عثمانية بحرية بقيادة (بيري رئيس) أحد الأمراء البحريين ببعض الأعمال البحرية على شواطئ الجزيرة العربية الجنوبية والشرقية، فاحتلت (عدن) سنة (١٥٤٧/١٥٤٤م)، ثم احتلت (مسقط) عام (١٥٥١/١٥٥٩م)، ووصلت حتى رأس الخليج الفارسي، ولم يتم فتح اليمن إلا في عهد ابنه (سليم الثاني) عام (١٥٨٦/١٥٧٦م)<sup>(٢)</sup>.

#### دخول العثمانيين العراق:

أما في العراق فقد حارب السلطان (سليمان القانوني) الدولة الصفوية، إذ أن عامل بغداد من قبل الصفويين تمرد عليهم لتشيعهم وانحاز إلى السلطان (سليمان القانوني) لأنه سني، ليحمي نفسه وأتباعه السنيين بالعراق من ضغط الشيعة، فجهز الشاه الصفوي حملة ضده وأخضعه، فهب السلطان (سليمان القانوني) ليدافع عن حليفه، وانتصر (سليمان الثاني) على الصفويين، وتقدم حتى وصل عاصمتهم (تبريز)، ولكنه رجع اكتفاء بسيطرته على العراق ولحدوث تمرد في جيشه، وكان فتح سليمان للعراق سنة (١٥٣٤/١٥٤١م)<sup>(٣)</sup>.

#### دخول العثمانيين شمال أفريقيا:

أما دول شمال أفريقيا؛ فقد كانت مضطربة بسبب محاولة أسبانيا الاستيلاء عليها

(١) المرجع السابق (ص ٢٠٧).

(٢) المرجع السابق (ص ٢١٢-٢١٣).

(٣) أحمد شبي: الموسوعة (٥/٥٢٥).

عقب هزيمة المسلمين بأسبانيا وانسحابهم منها، وقد انتهز العثمانيون هذه الفرصة فتدخلوا في شئون هذه البلاد، واستولوا على الجزائر بواسطة (خير الدين بربروسا) عام (١٥١٨/١٥٢٤م) في عهد (سليم الأول)، ثم استولى (خير الدين بربروسا) نفسه على تونس باسم الباب العالي عام (١٥٣٤/١٥٤١م) من بني حفص، واستولى (سنان باشا) على طرابلس وطرده فرسان القديس يوحنا المالطيين عام (١٥٥١/١٥٥٨م)، وهكذا دخل الشمال الإفريقي تحت سلطة العثمانيين ما عدا المغرب الأقصى، فكان مستقلاً بعيداً عن سيطرة العثمانيين، وبذلك بلغت الدولة العثمانية أقصى مداها<sup>(١)</sup>.

### الحكم العثماني في البلاد العربية:

أدت الفتوحات العثمانية في البلاد العربية خلال القرن السادس عشر إلى تكوين وحدة سياسية متكاملة ضمت معظم البلاد العربية في إطار السيادة العثمانية، ويمكن تقسيم الحكم العثماني للدول العربية إلى عصرين أساسيين:

- العصر العثماني الأول: ويشمل الفترة من أوائل القرن السادس عشر حتى أواخر القرن الثامن عشر. واعتمدت فيه الدولة العثمانية على العصبية المحلية في بعض الولايات العربية بشرط تقديم الولاء والتبعية وإرسال الأموال المقررة للباب العالي سنوياً، ولكن إذا فكرت إحدى العصبية في الخروج على طاعة الدولة فإن السلطان العثماني كان يرسل إليها من يخضعها ويعيدها إلى سلطانه. ويمكننا القول بأن الدول العثمانية كانت قوية و متماسكة إلى حد ما مما قوى قبضتها على الولايات<sup>(٢)</sup>.

وفي هذا العصر انعكست أحوال الدولة العثمانية وظروفها السياسية على

(١) أحمد شلي: الموسوعة (٥/٥٢٥).

(٢) عصمت بارما قزاوغلو: الدولة العثمانية خلال القرن ١٧م/١١هـ. دراسات في التاريخ العثماني

(ص ١١٤-١١٥).

مدى سيطرتها على الولايات التابعة لها. ففي النصف الأخير من القرن السابع عشر ظهرت بوضوح علامات التدهور في البناء السياسي للدولة العثمانية. كما أن من خصائص الحكم العثماني -إبان تلك المرحلة- تلك السطحية التي عرف بها، وعدم التدخل المباشر في شئون العصابات المحلية الحاكمة في الولايات طالما قامت هذه العصابات بواجباتها نحو الدولة العثمانية. وهناك العديد من العوامل التي دفعت تلك العصابات المحلية خلال القرن الثامن عشر لأن تقوم بأدوار متفاوتة للتخلص من السيادة العثمانية بشكل فعلي رغم الانتماء الاسمي للدولة العثمانية، واختلفت قوة تلك العصابات في كل ولاية حسب أوضاعها وتكوينها والظروف المحلية والسلطة العثمانية التي عاصرتها، ومدى أهمية تلك الولايات بالنسبة للدولة من جهة، وبالنسبة للدول الأوروبية الطامعة من جهة أخرى، وباستثناء (الأسرة المعنية) والتي ظهرت في جبل لبنان منذ أوائل القرن السابع عشر بشكل فعال على عهد الأمير (فخر الدين المعني)، إلى جانب عصابة أخرى ظهرت في دمشق (بلاد الشام) وهي عصابة (آل العظم)، فإن معظم أصحاب تلك العصابات الأخرى كانوا من جنسيات مملوكية عملت في خدمة الدولة العثمانية، أو عناصر عثمانية رغبت في تحقيق حكم وراثي لأسرهم. ولا شك أن القرن الثامن عشر قد شهد فساد نظم الإدارة العثمانية وتدهورها في الولايات العربية وانتعاش تلك العصابات على حساب ضعف الدولة وهيئاتها المختلفة<sup>(١)</sup>.

وتلخصت سياسة الدولة العثمانية تجاه تلك العصابات التي لم تحظ بتعزيد الشعوب العربية باعتبارها تمثل مصالح خاصة للقائمين بها، في محاولات للقضاء عليها بإرسال حملات عسكرية غالباً ما تفشل في أداء المهام العسكرية الموكولة إليها، أو القيام بتغيير الباشوات الحاكمة أو اتباع وسائل المؤامرات بتأليب القوى

(١) عصمت بارما قراوغلو: الدولة العثمانية خلال القرن ١٧م، ١١هـ (١١٥).

الداخلية ضد بعضها البعض لتصفية تلك العصابات دون التدخل العسكري، أو إلى إضعافها على الأقل ريثما تجد الدولة الفرصة لتدخل عسكري<sup>(١)</sup>.

وفي كل هذه المواقف كانت الدولة تمر بحالات من الإفلاس السياسي والعسكري عاجزة عن استعادة قبضتها بقوة وحزم، ولعل أهم تلك العصابات في بلاد الشام الأسرة المعنية ثم الأسرة الشهابية في جبل لبنان، وآل العظم في دمشق، وضاهر العمر في فلسطين، وفي مصر كان المماليك خلال القرن الثامن عشر وبخاصة في عهد علي بك الكبير، أما في ليبيا فكانت الأسرة القرمنلية (نسبة إلى أحد القادة العسكريين وهو أحمد القرمنلي)، وفي تونس كانت الأسرة الحسينية (نسبة إلى حسين أغا بن علي) وهو من القادة العسكريين<sup>(٢)</sup>.

- العصر العثماني الثاني: ويشمل القرن التاسع عشر حتى قبل نشوب الحرب العالمية الأولى (١٣٢٣-١٣٢٧هـ/١٩١٤-١٩١٨م)، ويتميز بظهور اتجاهات جديدة في الشرق العربي منها الحركة الوهابية في شبه الجزيرة العربية، وتنسب إلى محمد بن عبد الوهاب الذي ولد عام (١١٠٨هـ/١٦٩٦م)، وخلاصة مذهبه (التوحيد الخالص لله أي توحيد الربوبية وتوحيد الصفات، وتوحيد الألوهية -عدم التوسل بالأنبياء والأولياء أو استخدام مدافنهم كأماكن للعبادة وعدم زيارة القبور وبناء القباب للترك بها وتكفير الشخص الذي ينطق بالشهادتين ما دام مستمراً في ممارسة الشرك كما حدّده الوهابيون- أدان الشيخ جميع أنواع البدع، ورفض آراء الذين يذهبون إلى أن البدعة قد تكون صالحة أو مستحسنة، وأيد آراءه بشواهد من القرآن والسنة، ويعتبر الوهابيون من قبيل البدع المرفوضة: الاحتفال بالمولد النبوي، والتماس التوسل بالأنبياء والاجتهاد في نظر الشيخ يجب أن لا يخرج

(١) المرجع السابق (ص ١١٦).

(٢) المرجع السابق (ص ١١٧).

عن نصوص القرآن والسنة وآثار السلف الصالح ومحاربة التدخين وسماح الموسيقى<sup>(١)</sup>. المهتم أن أمر الدعوة الوهابية قد عظم في مطلع القرن التاسع عشر بمعاونة محمد بن سعود أمير نجد، فاحتلوا مكة والمدينة سنة (١٢١٨هـ/١٨٠٣)، وصاروا خطراً على الدولة العثمانية، فطلب العثمانيون من (محمد علي) والي مصر القضاء عليهم، وانتهز محمد علي هذه الفرصة ليتخلص من الجنود الألبانيين الذين كانوا يثيرون المتاعب ويتمردون من حين لآخر، فأعد حملة كبيرة ووضع على رأسها ابنه (طوسون)، ولما تعثر هذا في الانتصارات، خرج محمد عني بنفسه فلحق به، وحقق بعض النصر ثم عاد، وعقد (طوسون) صلحاً مع الوهابيين، ثم مات هذا بعد عودته إلى مصر. ونقض الوهابيون الصلح، فأرسل محمد علي ابنه إبراهيم الذي استطاع أن يُدمر (الدرعية) عاصمة الوهابيين سنة (١٢٣٤هـ/١٨١٨م)، وجاء إليه أميرهم (عبدالله) وسلم نفسه، فأرسله إبراهيم إلى الآستانة حيث أعدم، ولعل المروءة كانت تقضي بالألا يفعل ذلك<sup>(٢)</sup>.

وظهر في هذا العصر بوضوح بدايات الضغط الأوروبي على المنطقة العربية وكانت الحملة الفرنسية على مصر والشام عام (١٢١٣هـ/١٧٩٨م) فاتحة ذلك الصراع الاستعماري على المنطقة، وقام بما نابليون بوناپرت لقطع طرق المواصلات بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند، وكان أثر الحملة الفرنسية ملموساً في مصر أكثر من غيرها؛ لأنها موجهة إليها أساساً، كما استقرت بما الحملة خلال فترة وجودها (١٢١٣-١٢١٦هـ/١٧٩٨-١٨٠١م)، وقد حاول نابليون بوناپرت قائد الحملة الفرنسية توسيع النشاط الفرنسي في الشام؛ فقام بحملة إلى هذا الإقليم، ولكن الحملة لم تأت بالنتائج المرجوة منها بسبب لدعاية الإنجليزية

(١) محتى إبلكورهل: الدولة العثمانية خلال القرن (١٨م/١٢هـ). دراسات في التاريخ العثماني (ص ١٩٢-١٩٣).

(٢) عادت الأفكار الوهابية إلى الانتعاش. ولا تزال سائدة في مُنطقة العربية السعودية حتى اليوم.

ضد الفرنسيين؛ فقد صورتهم الدعاية بأنهم يهاجمون الدولة العثمانية وأملاكها في العالم الإسلامي، وتصور حكام المنطقة أن الخطر الصليبي عاد في شكل جديد، فكانت النتيجة على غير ما خطط (بونابرت) حيث تأكد النفوذ الإنجليزي في الشرق العربي بشكل غير مباشر خاصة بعد أن استولت إنجلترا على جزيرة (بريم) في مدخل البحر الأحمر سنة (١٧٩٩م)، وعقدت معاهدة مع سلطان (لحج) عام (١٨٠٢م)، وكذلك مع سلطان مسقط<sup>(١)</sup>.

وأعلن السلطان العثماني الحرب على الفرنسيين في مصر، ودعا إلى الجهاد الديني، أما بريطانيا فقد لعبت دوراً هاماً في إجبار الفرنسيين على مغادرة مصر والشام؛ حيث حاصرت الحملة الفرنسية بعد أن حطمت الأسطول الفرنسي في (أبي قير) واتخذت من (عكا) مركزاً للأسطول البريطاني في شرق البحر المتوسط، ودخلت بريطانيا في علاقات مع زعماء المنطقة. كل ذلك كان له أثره في حصر مجال الحملة الفرنسية وإضعافها وخروجها من مصر عام (١٢١٦هـ/١٨٠١م)<sup>(٢)</sup>.

وخلال فترة وجود الحملة الفرنسية في مصر أوجدت فكرة التغيير في المجال السياسي، ولكنها لم تحدث التغيير في حد ذاته، فعندما خرجت الحملة الفرنسية من مصر سنة (١٨٠١م) تغيرت أوضاع البلاد نسيباً عما كانت عليه من قبل، وفشل الحكام العثمانيون والمماليك في العودة إلى الحكم والسلطة بأساليبهم التقليدية (الرشوة والمؤامرات) فكانت الفترة من (١٢١٦هـ/١٨٠١م) حتى (١٢٢٠هـ/١٨٠٥م) بمثابة فترة انتقال في الأوضاع السياسية، قويت فيها سلطة الزعامة الشعبية التي لم تهدأ إلا بتنصيب وال برغبة الزعماء الشعبيين ليحقق آمالهم، وقد تظاهر (محمد علي) أمامهم بالخضوع لرأيهم والعمل على تحسين أوضاع البلاد

(١) قارباط: الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر. (ص ٢٦٣).

(٢) محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة. المركز المصري لدراسات العثمانية. القاهرة ١٩٩٤م. (ص ١٩٤).

من كافة النواحي. بمشورة الزعماء الشعبيين وموافقتهم، إلا أنه لم يلبث أن انقلب على من رفعوه إلى الحكم، وتخلص من الزعامة الشعبية، وحضم الماليك؛ ليتفرغ لحكم البلاد دون منازع، وقد اتبع سياسة اقتصادية وعسكرية وثقافية تعمل على النهوض بأحوال مصر، وقام بمقاومة تجارة الرقيق، ومساعدة المنكشفين الأوروبيين والتجار بتمهيد الطرق وتأمينها في أفريقيا عبر السودان، وحماية الأجناب، واتباع سياسة التسامح الديني في بلاد الشام، وقامت فرنسا بمساعدة محمد علي بإرسال وفود عسكرية لتدريب وتطوير الجيش، كما وقفت بجانبه في إنشاء الأسطول المصري، إلا أنها لم تستمر في ذلك طويلاً فقد تخلت عنه في الوقت المناسب<sup>(١)</sup>. أما إنجلترا فلم ينخدع ساستها بخطة (محمد علي) ودعايته، فكانت تخشى من ازدياد نفوذه بشكل يهدد مصالحها السياسية في الدولة العثمانية، وكانت تنظر بعين منوفا الحذر لإمكان اتجاه لسلطان العثماني لطلب معونة روسيا ضد محمد علي، وهذا ما حدث عندما زحفت قوات محمد علي إلى آسيا الصغرى عام (١٢٤٩هـ/١٨٣٣م) مما دعا السلطان لإبرام معاهدة مع روسيا، وكانت إنجلترا حريصة على المحافظة على أملاك الدولة العثمانية لتمكن من الحصول على نصيبها في الوقت المناسب وهي لا تثق في نوايا (محمد علي) الذي كان اتجاهه واضحاً، وميله تجاه فرنسا قوياً. وقد فشلت كل جهوده بموجب تسوية لندن (١٢٥٦-١٢٥٧هـ/١٨٤٠-١٨٤١م)<sup>(٢)</sup>.

اتجه السلاطين العثمانيون للعمل على إصلاح أحوال الدولة؛ لمواجهة تلك التغيرات. ومن ثم كانت حركة التنظيمات العثمانية خلال القرن التاسع عشر تهدف إلى إعادة قوة الدولة وتجديد شبابها، إلا أنها عجزت عن مقاومة التيار الجارف للاستعمار الأجنبي الأوروبي.

(١) محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة (ص ١٩٧-١٩٩).

(٢) المرجع السابق (ص ١٩٩-٢٠٠).

## خصائص الحكم العثماني:

ويتميز التاريخ العثماني في عهديه الأول والثاني بعدد من المميزات، نلخصها في الآتي:

١- أن الحكم العثماني كان حكماً عسكرياً، بمعنى أن الجيش العثماني الذي كان أداة للحرب والقتال وهو الذي قامت على أكتافه الدولة واتسعت رقعتها حتى بلغت درجة هائلة من القوة، كان أيضاً في وقت السلم أداة هامة من أدوات الحكم والإدارة. ويتضح ذلك إذا ألقينا الضوء على أحوال مصر في العهد العثماني بشكل عام.

بعد أن تم فتح مصر عام (١٥١٦/١٩٢٣م) ترك السلطان العثماني (سليم الأول) حامية من العسكر، انقسمت إلى أربع فرق (أوجاقات) كان لكل منها مهمة معينة. فعهد إلى الانكشارية، والعزب (المشاة) بمهمة حراسة أسوار وأبواب مدينة القاهرة إلى جانب المحافظة على القلعة (مقر الحكم العثماني)، بينما أسند إلى السباهية (الكرملية التوفكجية) أي: (الفرسان) حماية المدينة والدفاع عنها، وبذلك تركز وجود الحامية العثمانية بالقاهرة، وتداخلت اختصاصات الأوجاقات؛ مما أدى لحدوث كثير من المصادمات فيما بينهم، وكان الإنكشارية هم أصحاب الكلمة العليا غالباً، وإلى جانب العسكر العثماني كون بقايا المماليك الجراكسة أوجاقاً منفصلاً بعد أن سمح لهم السلطان (سليم الأول) بالانضمام إلى الحامية، وكان لهم زيهم الذي يختلف عن زي العثمانيين، وهكذا وضع السلطان (سليم الأول) نواة الحامية العثمانية التي ضمت في عهده خمس أوجاقات إلا أنه قصر وجودها على العاصمة دون تحديد واضح لمهام كل أوجاق، ولم يكتمل ترتيب الأوجاقات إلا في عهد خلفه السلطان سليمان القانوني<sup>(١)</sup>.

(١) لونارد لويس: إسطنبول وحضارة الخلافة العثمانية - تعريب سيد رضوان علي. الدراسات السعودية للنشر والتوزيع. جدة. الطبعة الثانية ١٩٨٢م. (ص ١٠٨).

٢- سطحية الحكم العثماني: كانت سياسة العثمانيين تقوم على أساس الإفادة من العصبية المحلية في حكم الولايات، وذلك في إطار الولاء للسلطان العثماني كما هو الحال في جبل لبنان؛ فقد حكم المعنيون ثم الشهابيون، هذا فيما عدا الولايات الهامة في مصر ودمشق وبغداد، وكان مفهوم العثمانيين عن واجبات الحكام ضيقاً، فواجباتهم -من وجهة نظرهم- هي الدفاع عن الولايات ضد أي خطر أجنبي يهددها، وإقرار الأمن بالداخل وقت السلم، وذلك بالاستعانة بالحاميات العسكرية العثمانية في مختلف الولايات العربية، هذا بالإضافة إلى تطبيق أحكام الشرع الإسلامي في المعاملات وشئون الحياة المختلفة، ويقوم بهذه المهام القضاة ورجلهم في المحاكم الشرعية المنتشرة في كافة الولايات<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن هذا الأسلوب السطحي جعل تأثير الطبقة الحاكمة من الأتراك -وهم قلة- محدوداً مما ساعد على المحافظة على طابع المجتمعات العربية في الولايات، واحتفظت بتقاليدها وهويتها العربية، حتى إن بعض رجال الطبقة الحاكمة اندمجوا تدريجياً في أبناء الرعية من المحكومين، وذلك نتيجة لعدة عوامل منها التعامل المباشر والتزاوج الذي تم تدريجياً بين لجانين<sup>(٢)</sup>.

٣- عدم القدرة على الابتكار والتجديد في النظم والقوانين الخاصة بالدولة العثمانية حتى تكون ملائمة وتستطيع مسايرة التغيرات الدولية؛ فقد ظلت القوانين التي وضعت في عهد قوة الدولة العثمانية ومجدها على عهد السلطان (سليمان القانوني) دون تغيير كبير، وربما يعود ذلك أساساً إلى أن الأتراك كانوا أصلاً رجال حرب وقتال، وليسوا أصحاب حضارة غنية قادرة على

(١) أمين شاعر وآخرون: تركيا والسياسة العربية من خلفاء آل عثمان إلى خلفاء أتاتورك. القاهرة بدون تاريخ (ص ١١٨).

(٢) المرجع السابق (ص ١١٩-١٢١).

العطاء باستمرار<sup>(١)</sup>.

٤- تطبيق نظام مناسب في الولايات يقضي بأن تتولى كل ولاية الإنفاق على احتياجاتها من مواردها الخاصة، مع تخصيص جانب من دخل الولاية يرسل كإرسالية إلى الباب العالي سنويًا (المال الميري)، وذلك دون إرهاق لأهالي الولاية بالضرائب الباهظة، كما كان الحال في العصر المملوكي، ففي بعض الأحيان كان يُتأخر بإرسال (المال الميري) أو تُخفّض قيمته؛ إذا تعرضت الولاية لظروف قاسية، ودعت الضرورة لذلك<sup>(٢)</sup>.

ولا شك أن الحكم العثماني على نحو ما ذكرنا ساعد على تقوية الوحدة السياسية في البلاد العربية، كما تمسك العثمانيون بالشرع الإسلامي كمصدر أساسي للحكم، ولعبوا دورا هاما في إنقاذ العالم الإسلامي من أخطار الأسباب والبرتغاليين، ولكن بداية من النصف الثاني من القرن السادس عشر توقف نشاط العثمانيين على إثر خلاف بين أبناء السلطان (سليمان القانوني) على السلطة، وتجمعت عوامل عدة أوقفت تقدم العثمانيين، ثم جعلتهم هدفا لهجمات الآخرين، فانتقلوا من الهجوم إلى الدفاع، ثم تقهقروا أمام زحف أعدائهم، وأخذت الإمبراطورية تتقلص وتنهار، وذلك ما سنوجزه فيما بعد.

#### حضارة العثمانيين:

لعل من الأفضل أن نتحدث هنا عن حضارة العثمانيين وألوانها، قبل أن نصف الدولة وهي تنهار وتنكمش؛ وذلك لأن الحضارة التي ستتكلم عنها الآن هي في الحقيقة وليدة عصور القوة، وقد طرأت ظروف على عصور الضعف جعلت بها اتجاهات من نوع آخر ستكون موضوع حديثنا عند الكلام عن هذه العصور.

(١) المرجع السابق (ص ١٢١-١٢٢).

(٢) المرجع السابق (ص ١٢٨ وما بعدها).

إن الحضارة العثمانية كانت مزيجاً من العناصر المتنوعة، فقد أخذ العثمانيون عن الفرس كثيراً من الأفكار الأدبية، كما أخذوا منهم بعض الأفكار السياسية كعظيم السلطان. وكان مما منحته بداوة آسيا الوسطى للعثمانيين النزعة للحرب والفتح والميل للاختلاط بالآخرين والامتزاج بهم. وقد أخذ العثمانيون عن البيزنطيين بعض المؤسسات الحربية والنظم الحكومية، ولكن العرب كانوا قبل الجميع معلّمي العثمانيين، فقد أخذ العثمانيون عن العرب علومهم ودينهم بما فيها المبادئ الاقتصادية والاجتماعية والتشريعات الإسلامية، وأخذوا أيضاً الحروف العربية للكتابة، وظلت شائعة حتى عام (١٣٤٧هـ/١٩٢٨م)، وانتقل إليهم من اللغة العربية ألفوف الاصطلاحات الدينية والعلمية والشرعية والأدبية، ولا يزال كثير من هذه الاصطلاحات في قلب اللغة التركية على الرغم من المحاولات القومية الأخيرة لإخراجها منها<sup>(١)</sup>.

الهيئة الحاكمة:

١- السلطان والحكم المطلق: كان الطابع العام للحكم العثماني استبدادياً، وكان حكم الفرد من أهم مظاهر الاستبداد؛ إذ كان السلطان - في بعض الحالات الشاذة - يبدأ عهده بقتل إخوته خوفاً من أن يثوروا عليه. وقد استهل السلطان (محمد الثاني) حكمه (١٥٤٨هـ/١٥٤١م) بأن أمر بقتل أخيه (أحمد)، ومنذ ذلك الحين صارت عادة قتل السلطان إخوته عادة شبه مطردة. فلما جاء محمد الثالث (١٠٠٤-١٠١٢هـ/١٥٩٥-١٦٠٣م) أمر بقتل جميع إخوته الذكور، وكان عددهم تسعة عشر أميراً، وأمر بإغراق نساء أبيه الحبالى وكان عددهن عشر نساء، وظلت هذه العادة القبيحة جارياً حكمها حتى عهد محمد الرابع (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م) حين منعه أمه ومنعه المفتي الأكبر من قتل أخيه<sup>(٢)</sup>. وأكثر من ذلك لقد كان العقوق واضحاً بين الأب وابنه

(١) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي (٥/٥٣٢).

(٢) جيل فاينشتاين: الإمبراطورية في عظمتها. بحث في تاريخ الدولة العثمانية (ص ٢٣٨-٢٤٠).

والابن وأبيه، ويرجع بعض المؤرخين أن سليمان الأول هو الذي دسّ لأبيه السم (بايزيد الثاني) ليحصل على السلطان لنفسه بدلاً من أخيه (أحمد) الذي كان الأب يرشحه<sup>(١)</sup>.

٢- ألقاب السلطان: وكان للسلطان العثماني سلسلة من الألقاب لعلها اكتملت في عهد القوة إبان حكم (سليمان القانوني)، وقد كتبها سليمان في مطلع رسالة منه إلى فرنسيس ملك فرنسا: "أنا سلطان السلاطين، وملك الملوك، مانح التيجان للملوك على وجه البسيطة، ظل الله في الأرض، سلطان البحرين الأبيض والأسود، وخاقان البرين، وملك الرملي والأناضول وبلاد الكرمان وبلاد الروم، وديار بكر وكرديستان، وأذربيجان وفارس، ودمشق وحلب والقاهرة ومكة والمدينة والمقدس واليمن وكل البلاد العربية وبلاد كثيرة أخرى افتتحها آباي الأشراف، وأجدادي الأجداد؛ نور الله مراقدهم بقوة سلاحهم، وجعلتها جلالتي العظيمة تابعة لسيفي الملتهب ومهندي المنتصر".

أما لقب (الخليفة) فكان العثمانيون يضمونه لألقابهم منذ عهد مراد الأول (٧٦١-٧٩٢/١٣٥٩-١٣٨٩م)<sup>(٢)</sup>.

٣- ولاية العهد: كانت ولاية العهد عند العثمانيين للابن الأكبر من أولاد السلطان وظل الحال كذلك حتى عهد أحمد الأول (١٠١٢/١٦٠٣م) فحد عن هذا القانون بتنصيب أخيه مصطفى وأصبح من القواعد المعمول بها إلى آخر أيام العثمانيين أن يتولى العرش أكبر الأسرة المالكة سناً أو أقربهم من الجد الأول<sup>(٣)</sup>.

٤- أعوان السلطان: وبجانب السلطان كان يوجد الصدر الأعظم، وهو يعادل منصب

(١) المرجع السابق (ص ٢٤١-٢٤٣).

(٢) أحمد شلبي: المرجع السابق (ص ٥٣٤-٥٣٥).

(٣) جيل قايشتاين: الإمبراطورية في عظمتها (ص ٢٣٨-٢٤٣).

رئيس الوزراء في العصر الحالي، ويليهِ منصب الولاية (الباشوات) وهم حكام الولايات، ويليهِم السناحق أو الألوية، وكان تعيينهم من اختصاص الوالي<sup>(١)</sup>.

### - الإقطاع:

كانت الدولة العثمانية تقوم على أساس النظام الإقطاعي الذي نظمته الحكام الأولون على الغرار البيزنطي، وكان الإقطاع الأصغر يدعى (تيمار) ويمنح لبعض الطموحين، ويظل الفلاحون بالإقطاع يزرعون لصاحب التيمار ويقدمون له المحاصيل (الإيجار) وعلى المقطع إليه نظير هذا الإقطاع أن يقدم للدولة عدداً من الفرسان يتراوح بين اثنين وأربعة أو عدداً من البحارة لخدمة الأسطول بالإضافة إلى بعض الضرائب المالية، وهناك إقطاع أكبر يدعى (زعامت) ويتمنح لمن يقدمون خدمة شخصية للخليفة أو للدولة، ويقدم (الزعيم) وهو لقب صاحب هذا الإقطاع، مالاً للسلطة المركزية وجنوداً للجيش يتزايد عددهم تبعاً لإيراد الإقطاع، والتيمار والزعامت كانا يخضعان لتفتيش رجال الإدارة المركزيين، وهناك إقطاع أعلى هو (الخاص) ويتمنح للولاية ولا يخضع للتفتيش<sup>(٢)</sup>.

وصدر قانون نامة عام (١٥٣٧/١٥٣٠م) لتنظيم الإقطاع، غير أنه لم يحدد وراثته الإقطاع؛ فكان ابن صاحب الإقطاع أحياناً يكتب التيمار لبدأ به، وأحياناً كان يقسم الإقطاع بين الأولاد، وفي آسيا كانت الوراثة جائزة في الإقطاعات حتى للنساء، وطالما حاول ملتزموا الإقطاعات أن يتهربوا من الالتزامات العسكرية والمالية التي يفرضها عليهم النظام الإقطاعي<sup>(٣)</sup>.

### الجيش:

اعتمدت الدولة العثمانية في نشأتها على قوتها الحربية، وكانت الفتوحات

(١) أحمد شلبي: المرجع السابق (٥/٥٣٦-٥٣٧).

(٢) جيل فاينشتاين: المرجع السابق (ص ٣١٩-٣٢٤).

(٣) المرجع السابق (ص ٣٢٤ . ٣٢٥).

العثمانية في أوروبا والمشرق الإسلامي تعتمد اعتماداً كلياً على الجيش العثماني الذي يتكون من:

أولاً: السباهية: وهم الفرسان النظاميون في الجيش العثماني. و"السباهية" تطلق ويراد بها هذا المعنى العام؛ وإن كان لها معنى خاص فيما يتعلق بالسباهية الإقطاعية أي أن لفظ السباهية كان يشمل: السباهية الإقطاعية، والتي كانت مهمتها تقديم عدد من الفرسان للسلطان حسب إقطاعيتهم، كما كان من مهمتها جمع ضرائب الدولة، وحكم المدن، والمقاطعات. وإلى جانب هذا توجد وحدة تتبع "السباهية" بالمعنى العام ويطلق عليها سلحدار أي حملة السلاح، وهؤلاء كانت مهمتهم تقديم أربعة إلى خمسة فرسان، وهم أقل مرتبة من السباهية الإقطاعية، ثم يلي ذلك "علوف أجي" أي الفرق المأجورة، وهذه تنقسم إلى فرقتين: فرقة اليسار وفرقة اليمين، ثم الغرباء، وهم أقل منها مرتبة، وهي تختار من المسلمين في الولايات العثمانية الإسلامية، وفي أثناء الحرب كانت تشترك كل هذه التنظيمات في حماية السلطان، فتقف الإنكشارية في المقدمة، والسباهية الإقطاعية في اليمين والسلحدار في اليسار، بينما تقف كل من علوف أجي والغرباء في الخلف<sup>(١)</sup>.

ثانياً: الانكشارية (يكي شري): يرجع الفضل في تكوينها إلى السلطان أورخان (١٣١٧/٥٧١٧م) وهي فرقة (البيادة) أو المشاة، وكانت إقطاعية ومقصورة على الأناضول، ولكن يعيب هذه البيادة أنها كانت صعبة الانقياد، وكان من الصعب بحكم أنها إقطاعية وأفرادها من المشاة استخدامها في عمليات بعيدة عن إقطاعياتها، فكان من الطبيعي أن يفكر السلاطين العثمانيون في إبدالهم بفرق أخرى<sup>(٢)</sup>.

(١) محمد أنيس: المرجع السابق (ص ٨٠). عفاف سعد: دور الحامية العثمانية في تاريخ مصر (١٥٦٤-

١٦٠٩م). تاريخ المصريين (عدد ١٧٩). الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ٢٠٠٠. (ص ٦٢-٦٣).

(٢) محمد أنيس: المرجع السابق (ص ٨٠).

ضريبة الغلمان: (الدفشمة): هي الحل الذي لجأت إليه الدولة العثمانية في مواجهة تمرد فرقة الإنكشارية، وكانت عبارة عن فرقة تكونت في البداية من الأسرى المسيحيين، وهؤلاء أصبحوا عبيداً بحكم الأسر، وكانت رغبة السلطان العثماني (مراد الأول) اختيار الأقوياء منهم كأجناد، ولكن الصعوبة جاءت من ناحية الشرع الإسلامي، إذ من أهم مبادئه أن للمسلمين وحدهم الحق في حمل السلاح؛ ولذلك تعين على الدولة إقناع النصارى الذين اختيروا لتأليف هذا الجيش الجديد على الدخول في الدين الإسلامي، فإذا جمع الصبية أو الغلمان دربوا تدريباً جثمانياً وعقلياً حتى تظهر مواهبهم، ثم ينقسمون إلى: أ- أوج أو غلان: وهم أحسنهم في الجسم والعقل، وهؤلاء يستخدمون في مناصب البلاط أو القصر.

ب- (القولاري): أي: العبيد ومكائهم الجيش، ويطلق عليهم (عجمي أو غلان) أي: الصبية الغرباء<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: الفرق غير النظامية: أهمها: الأكنجي أو (الفرسان) والعزب (المشاة)؛ أما الأكنجي فمعسكراتهم على حدود الولايات الأوروبية، ويعيشون على ما يخرجون به من غارات، وإلى جانب العزب والأكنجي كان هناك الكرد على الحدود الفارسية<sup>(٢)</sup>.

#### - الأسطول:

أرغمت الظروف الدولة العثمانية على الاهتمام بالأساطيل البحرية، فقد خاضت غمار الحروب مع اليونانيين والبنادقة، فكان على الأسطول أن يلعب دوراً هاماً في هذه الحروب، كما كان عليه أن يلعب دوراً هاماً في ضم الشمال

(١) فيشر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. القسم الثاني. دار المعارف. القاهرة ١٩٥٤م. (ص ٤٤٥-٤٤٦).

(٢) Fracropi: From the piroque to the Aercraf I carrier., Oxford ١٩٢٥. P.(٣٣-٣٧).

الإفريقي للدولة، وقد بلغت القوة البحرية العثمانية غايتها في أواخر القرن السادس عشر حتى إنه لم يكن لأية بحرية أخرى أن تجول في البحر الأبيض المتوسط دون إذن من السلاطين العثمانيين. ولما أعطى السلطان محمد الثالث امتيازاً لفرنسا بجوّالان أسطوها في البحر المتوسط اغتاز الإنجليز وعملوا لدى السلطان حتى حصلوا على مثل هذا الامتياز لأسطولهم<sup>(١)</sup>.

وكان الإشراف على بناء السفن في أغلب الحالات في أيدي البنادقة، وكان الصاع والعمال في العادة من اليونانيين الذين لم تكن خدمتهم في دور الصناعة تتسم بطابع الدوام؛ فهي تتأثر بأحكام الحاجة ومقتضيات الظروف مما أضعف الصناعة وأخرّجها. وكان الملاحون في العادة من النصارى الطليان أو اليونان القادمين طمعاً في المغنم الوافرة، وكان هناك بين الملاحين عنصر آخر أقل جدارة وهم البحارة العبيد الذين يُشد وثاقهم إلى السفينة<sup>(٢)</sup>.

الهيئة الإسلامية:

تشمل جميع المسلمين في الدولة العثمانية خارج الهيئة الحاكمة من الذين كانوا أعلى شأنًا من المسلمين العاديين، وكان لها نظام تعليمي خاص. كما كانت هذه الهيئة تتكون في شكل هرمي، على رأس هذا الشكل الهرمي يجلس السلطان العثماني الذي كان يعيّن من يتولى أهم مناصب الهيئة الإسلامية، ويشرف على دخلها المالي، ويعين المشرفين على هذا الدخل، وتنقسم الهيئة الإسلامية إلى ثلاث فئات هامة: (فئة الإداريين الدينيين - فئة المفتين - فئة القضاة)<sup>(٣)</sup>.

(١) Grousset: l' Empire du levant., Paris ١٩٤٩. PP. (٢٢٢-٢٢٩).

(٢) أحمد شلي: موسوعة التاريخ الإسلامي (٥/٥٤٤).

(٣) عبدالعزيز محمد الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها. مكتبة الأنجلو المصرية

١٩٨٤م. (ص ٣٩٨-٣٩٩).

الفئة الأولى لم يكن لها نفوذ كبير، كما لم يكن تعليمها عظيمًا، وهذه الفئة تنقسم بدورها إلى خمس طوائف: الشيوخ (الوعاظ) - الخطباء (وهم الذين يقومون بخطبة الجمعة) - الأئمة وهم الذين يقومون بإقامة الناس في الصلاة - المؤذن (القائم الذي يتولى الإشراف على المسجد)<sup>(١)</sup>.

وإلى هؤلاء أيضًا ينتمي الدراويش، وهم ليسوا أعضاء في هيئة العلماء وينقسمون إلى طرق كثيرة، وكان لهم سلطة كبيرة على جماهير الناس<sup>(٢)</sup>. أما الفتان الثانية والثالثة فيطلق عليهما معا (هيئة العلماء) من الذين أكملوا دراستهم للقانون وتولوا مناصب الإفتاء أو القضاء.

### المفتون:

فكانوا يعينون في المدن الهامة في صحبة القاضي، وكانوا بمثابة مستشارين للسناجق، ويبلغ عددهم ما يقرب من مائتين، وكانوا يعينون مدى الحياة ومهمتهم الإفتاء في الأمور الدينية على مذهب (أبي حنيفة)، وتسمى هذه الاستشارات (الفتاوى)، وفي المدن العادية كان المفتي يأتي في المرتبة بعد القاضي إلا في إسلامبول نفسها حيث كان مركز المفتي خطيرًا جدًا، وأطلق عليه منذ عهد السلطان (محمد افاتج) لقب (شيخ الإسلام) وكان من حقه تعيين جميع المفتين في الدولة العثمانية، كما كان تحت تصرفه إدارة أطلق عليها (فتوة خانة) التي أنشأها السلطان (سليمان القانوني)، وكان مركز شيخ الإسلام عظيمًا في الدولة، يحكم أنه يمثل الشريعة الإسلامية<sup>(٣)</sup>.

### القضاة:

وهؤلاء كانوا يتولون المحاكم للنظر في جميع القضايا سواء كانت خاصة

(١) عبدالرزاق إبراهيم عيسى: تاريخ القضاء في مصر العثمانية ٧٩٨-١٥١٧م. الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٨م. (ص ٤٨).

(٢) عبدالعزيز محمد الشناوي: المرجع السابق (٣٩٥).

(٣) عبدالرزاق إبراهيم عيسى: تاريخ القضاء في مصر العثمانية (ص ٤٨).

بالجرائم أو القضايا المدنية، ويتدرج القضاء ومهامهم في الدولة العثمانية على النحو التالي:

١- قاضي القضاة (قاضي عسكر) ومهامه هي: الإشراف على أعمال القضاة في أقاليم الدولة العثمانية، وترشيح من يشغل وظائف القضاء، وإعداد التقارير الخاصة بقضاة الأقاليم، وفي عصر السلطان (محمد الفاتح) تفرع منصب (قاضي عسكر) إلى قسمين: (قاضي عسكر الروملي وله المكانة الأعلى - قاضي عسكر الأناضول) ثم استحدث قاضي عسكر إفريقية، ثم أصبح لكل قطر كبير قاضي عسكر، وكان قاضي عسكر الروملي يتمتع بمكانة أعلى من قاضي عسكر الأناضول<sup>(١)</sup>.

٢- قضاة التخت (تحت قاضي)؛ وهؤلاء يأتون في المرتبة الثانية لقاضي القضاة ويمثلون قضاة إسلامبول وضواحيها، ومهامهم مساعدة الصدر الأعظم في نظر القضايا، وحضور جلسات السلطان العثماني مرة كل أسبوع، وهم يقيمون بصفة دائمة على مقربة من السلطان العثماني، ومن هنا أطلق عليهم اسم التخت (العرش)، وكانوا يرافقون الصدر الأعظم في جولاته التفتيشية<sup>(٢)</sup>.

٣- القضاة في مرتبة مولى كبير: ويقوم شيخ الإسلام بتعيين هؤلاء، ثم يوافق الصدر الأعظم، ثم يصدر فرمان من السلطان العثماني بشغلهم لمناصبهم، وهم يشغلون مناصبهم طوال العمر، وهناك ستة علماء ينتمون إلى هذه الفئة وهم (خوجة السلطان أي مستشار السلطان في المسائل الدينية - والإمامان: وكانا يؤمان السلطان في الصلاة بالتناوب - حكيم باشي أي: طبيب السلطان الخاص - جراح باشي أي: كبير الجراحين - منجم باشي أي: كبير

(١) عبدالرزاق: تاريخ القضاء في مصر العثمانية (ص ٥١-٥٢).

(٢) عبدالعزيز الشناوي: المرجع السابق (ص ٤٢٢).

المنحمن الذي يعد التقويم<sup>(١)</sup>.

٤- مفتشو القضاء: ومهامهم تتلخص في الإشراف على الأوقاف السلطانية، والإنفاق من إيرادات الأوقاف على المؤسسات الدينية والخيرية.

٥- النواب: ومهامهم هي: مباشرة القضاء في المدن الصغيرة أو القرى الكبيرة، والقيام بوظيفة القاضي عند غيابه بسبب مرض أو إجازة<sup>(٢)</sup>.

وكان القضاة في أغلبهم وفي أكثر الأحيان من السكان المحليين، وكان القاضي هو الحاكم الشرعي للمدينة، فهو الذي يوجه الوظائف الدينية، وهو الذي يشبّت مشايخ الحرف في مشيختهم، ويفض منازعاتهم. كما يشرف على الأوقاف، ويعين المتولين عليها<sup>(٣)</sup>، وكان القاضي يقوم بالإشراف على الموظفين في الإمارة التي يتولى القضاء فيها، كما قاموا بالإشراف الكامل على العملية التعليمية، كما أشرف القاضي على المؤسسات الدينية من مساجد ومقامات وغيرها. وكان لنقضاء -أيضا- حق في الإشراف على أعمال الري والزراعة، وكان القضاة في الثغور يشرفون على الجمارك لمنع التهرب الجمركي، كما كان القاضي في الثغر يحضر عمليات تفتيش السفن، واستقبال قناصل العاملين بالثغور، ومراجعة القرارات الإدارية الخاصة بالقناصل وتسجيل اشحنات المسافرين، والإشراف على العاملين بالمراكب في الأهوار الداخنية<sup>(٤)</sup>.

وفي عصور الضعف دخل عالم القضاء أشخاص لا يملكون لمؤهلات الدينية والعلمية والأخلاقية، وقد برّر بعض شيوخ الإسلام، والقضاة والمفتين قتل بعض

(١) المرجع السابق (ص ٤٢٨).

(٢) عبدالعزيز الشاوي: الدولة العثمانية (ص ٤٢٩-٤٣٠).

(٣) عبدالجليل التميمي: الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني. منشورات مركز

الدراسات والبحوث العثمانية. زعوان. تونس ١٩٨٨. (ص ٦٢١).

(٤) عبدالرزاق إبراهيم عيسى: مرجع سابق (ص ٢٠٤).

السلطين لإخوتهم خشية أن ينافسوه في الحكم<sup>(١)</sup>.

وقد جرت بعض المحاولات من قبل بعض السلطين لإصلاح القضاء الشرعي؛ كان أهمها في عهد السلطان عبدالعزيز (١٠٧٢-١٠٨٧هـ/١٨٦١-١٨٧٦م)؛ فقد قام عدد من العلماء والباحثين والفقهاء بتنظيم الأحكام الشرعية، وفق المذهب الحنفي وبعد سبع سنوات من العمل صاغوا الأحكام الشرعية في (شعبان ١٢٩٣هـ) في (١٨٥١) مادة، وقد أطلق عليها اسم "مجلة الأحكام الشرعية"<sup>(٢)</sup>.

وقد تضمنت كتب المجلة ستة عشر ما يلي:

المقدمة وفيها بيان القواعد الفقهية، ويختص الكتاب الأول ببيان الاصطلاحات الفقهية المتعلقة بالبيع، والثاني بالإيجارات، والثالث بالكفالة، والرابع بالحوالة، والخامس بالرهن، والسادس بالأمانات، والسابع بالهبة، أما الثامن فيختص بالغصب والإتلاف، والتاسع بالحجر والإكراه والشفعة، والعاشر بالشركات، والحادي عشر بالوكالة، والثاني عشر بالصلح والإبراء، والثالث عشر بالأمر المتعلقة بالإقرار، أما الرابع عشر فيختص بالدعوى، والخامس عشر بالبينات والتحليف، والسادس عشر بالقضاء<sup>(٣)</sup>.

- التعاون بين الهيئة الإسلامية وأولي الأمر العثمانيين:

مع إطلالة القرن الحادي عشر الهجري، تنبه أحد علماء الدولة العثمانية، وهو الشيخ حسن كافي الأحمصاري (ت ١٠٢٤هـ/١٦١٥م) إلى بداية الخلل في الدولة والمجتمع، وألف كتاباً أسماه: "أصول الحكم في نظام العالم" أوضح فيه بعض العلل المستحدثة، وقال في حرية فكر: "انكشف لي في ذلك وجوه

(١) عبدالعزيز محمد عوض: مرجع سابق (ص ١٢٦).

(٢) المرجع السابق (ص ١٢٩).

(٣) عبدالعزيز محمد عوض: الإدارة العثمانية في ولاية سوريا (١٨٦٤-١٩١٤). دار المعارف مصر

١٩٦٩ (ص ١٢٦-١٢٩).

وأَسباب، والله تعالى أعلم بالصواب، الوجه الأول: الإهمال في العدالة والضبط، وسببه عدم تفويض الأمور إلى أهلها، الثاني: المسامحة في المشاورة والرأي والتدبير، وسببه العُجْب والكبر في الكبراء، واستكفافهم عن مصاحبة العلماء والحكماء، الثالث: وجه المساهمة في تدبير العسكر، واستعمال آلات الحرب عند محاربة الأعداء، وسببه عدم خوف العسكر من الأمراء، الرابع: ثم سبب جميع الأسباب، وغاية ما في الباب، طمع الارتشاء ورغبة النساء<sup>(١)</sup>.

وتجدر الإشارة إلى مواقف أخرى لعلماء ومصلحين ألفوا كتباً ودونوا تقارير للسلطين والحكومة عما يجب فعله تجاه ظاهرة الانحلال والتدهور، فمثلاً ألف قوجي بك كتاب: "نصيحت نامه"، وقدم تقريراً للسلطان عثمان الثالث (ت ١١٧١هـ/١٧٥٨م) قال فيه: "إن تطبيق الشريعة الإسلامية وأحكامها بقوة وحزم هو العامل الأساسي في وقف تدهور الدولة وحفظ الأمن ووقف التمردات والفوضى في البلاد ومن ثم تستطيع الدولة التقاط أنفاسها لتفرغ لإصلاح نفسها، وإن المسلمين إذا استحابوا لدواعي الشرع بقوة سيرجعون إلى عهد الفتوحات"<sup>(٢)</sup>.

الإدارة المالية:

كان يقوم بإدارة الشؤون المالية في الدولة العثمانية دفتردارين، أحدهما يقيم في (روميني) والآخر في (الأناضور) يساعدهما اثنان أقل مرتبة منهما، أحدهما في حلب والآخر في البلاد الدانوبية، وكان للدفتردارين حقوق وامتيازات كثيرة، ودخل كبير، ولهما حق مقابلة السلطان لاستشارته في الشؤون المالية الخاصة بالدولة.

وتنقسم الإدارة إلى خمسة وعشرين قسماً يطلق عليها أقلام، وكان السلطان (محمد الفاتح) هو واضع هذا النظام، ويرأس كل قلم من هذه الأقلام

(١) حسن كايي الأخصاري: أصول الحكم في نظام العالم. دراسة وتحقيق إحسان صدقي العمر. ذات السلاسل. الكويت ١٤٠٧هـ. (ص ١١٢-١١٣).

(٢) محمد حرب: السلطان عبدالحميد الثاني. دار القلم. دمشق ١٤١٠هـ. (ص ١٥)

(خوجا) وبين هؤلاء وبين الدفتردارين حلقة يمثلها عدد من الموظفين أهمهم (روزنامجيان) أو القائمان برصد الحسابات<sup>(١)</sup>.

### الديوان:

وجد الديوان للتشاور في المسائل الإدارية والقضائية فقط، وكان الديوان يعقد اجتماعات لساعات طويلة في أربعة أيام من كل أسبوع (السبت - الأحد - الاثنين - الثلاثاء) طوال السنة عدا شهر رمضان، وهو يشمل أكبر موظفي الهيئة الحاكمة، إلى جانب تمثيلية- اثنين للهيئة الإسلامية، فالديوان لم يكن بمثابة المجلس الإداري الأعلى، بل أيضا المحكمة العليا في الدولة. وعلى ذلك فالديوان لم يكن جزءاً من الهيئة الحاكمة، ولكن همزة الوصل بين الهيئة الحاكمة والإسلامية، ويجمع بينهما وحدة على رأسها السلطان نفسه، وكان السلطان العثماني قبل السلطان (سليمان القانوني) يحضر جلسات الديوان<sup>(٢)</sup>.

### الآثار المعمارية:

السمة الرئيسية في العمارة العثمانية كانت مرتبطة بالدين، فهي تتراوح بين المساجد والمدارس الدينية، والربط والزوايا في أكثر الأحوال، ويعتبر المسجد الذي كان قبلاً كنيسة القديسة صوفيا أهم مساجد العاصمة، وقد بذل مهندسو السلطان محمد الفاتح جهداً كبيراً لجعل هذه الكنيسة مسجداً، فغطيت صور الكائنات الحية بطبقة من الكلس، وأدخل على الكنيسة محراب ومنبر، وكتبت على مساحات متباعدة بعض أسماء الله الحسنى، واسم الرسول ﷺ وأسماء الخلفاء الراشدين، وخارج المسجد شيدت مآذن شاهقة، وإلى جانب ذلك، هناك مسجد أبي أيوب الأنصاري الذي يعتبر موضع إجلال السلاطين العثمانيين؛ ففيه يتقلدون

(١) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق الأدنى (ص ٩٢-٩٥).

(٢) المرجع السابق (ص ٩٥-٩٨).

سيف عثمان إشعاراً ببدء خلافتهم<sup>(١)</sup>.

### التنظيمات الحرفية:

لقد انتظمت الأصناف والحرف (أي النقابات) في الدولة العثمانية تنظيمًا اجتماعيًا تسير عليه فئات المجتمع؛ فجميع الناس الذين تجمعهم مهنة واحدة، أو عمل واحد ينظمون أنفسهم في شكل طائفة لرعاية مصالحهم الذاتية (نقابة - صنف)، ولهذا فقد كان نظام (الأصناف) يشكل أهم ظاهرة في حياة المجتمعات المدنية في الدولة العثمانية خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، السابع عشر والثامن عشر الميلاديين<sup>(٢)</sup>.

على أن وظائف (الصنف) الاجتماعية والاقتصادية تبدو واضحة من خلال وضع أو تطبيق النظم المهنية والحرفية، والتي تؤدي في الغالب إلى ضمان الترابط بين الحرفيين أنفسهم؛ من ذلك إقرار أسعار عادلة، والمحافظة على أسرار الحرفة، وضمن مستويات مهنية معينة، والتجانس في أنماط الإنتاج. ورغم أن الأصناف والحرف كانت مستقلة من الناحية الرسمية عن الدولة، إلا أنها كانت خاضعة لرقابة حكومية شديدة، كانت تمارس حتى القرن الثامن عشر بواسطة الرؤساء (المشايع) الذين كانوا يقومون بحفظ النظام داخل الحرفة ورعاية مصالحها، والفصل في الخلافات و الخصومات بين أفرادها<sup>(٣)</sup>.

(١) أحمد شلبي: المرجع السابق (ص ٥٤٤-٥٤٥).

(٢) وجيه كوثراني: العلماء والطرق الصوفية والتنظيم الحرفي. معطيات من تاريخ السلطة والمجتمع في ولاية سورية (ضمن كتاب الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني) إشراف عبدالجليل التيمي - منشورات مركز البحوث العثمانية - زغوان - تونس ١٩٨٨م (ص ٦٢٣).

(٣) المرجع السابق (ص ٦٢٣-٦٢٤).

إن شيخ مشايخ الحرف وشيوخ الحرف كانوا يعينون من قبل القاضي، لكن لمة إرادة شعبية مهنية كان يعبر عنها التنظيم الاجتماعي - الاقتصادي المحلي عبر اختيار شيخهم المناسب، وكان شيخ المشايخ من الوجهاء أو من كبار رجال الدين، وكان منصبه وراثياً<sup>(١)</sup>.

وكانت مهمة هذا الشيخ تشمل الإشراف على كل طوائف الحرف ومشايخها، ويقوم بمهمة الوصل ما بين الوالي والقاضي من جهة، وهذه الطوائف من جهة أخرى، ولا يتم أي تغيير فيها إلا بعلمه ورأيه، وكان مشايخ الحرف كلهم ينتخبون بحضوره ويزكون بتزكيته<sup>(٢)</sup>.

أما سلطة شيخ الطائفة فكانت تشمل إدارة شؤون أبناء الطائفة، والاهتمام بمشاكلهم، والإشراف على تنفيذ اتفاقاتهم، وطلب تسجيل هذه الاتفاقات من القاضي، وكان يرفع شكاوى الطائفة على طائفة أخرى إلى القاضي بنفسه. وكان الوالي يتصل بالطائفة عن طريقه<sup>(٣)</sup>، كما أن النظر في قضايا الحرفيين انحصرت في يد شيوخ الطوائف الحرفية، ومع ذلك فقد يظلم شيخ الطائفة، وهنا يثور الأعضاء على تصرفات شيخ الحرفة ثم يقومون بخلعه واختيار شيخ آخر<sup>(٤)</sup>.

(١) المرجع السابق (ص ٦٢٥).

(٢) وجيه كوثراني: العلماء والطرق الصوفية والتنظيم الحرفي (ص ٦٢٥).

(٣) عبدالحكيم القفصي: نظرة حول بعض الحرفيين والمهنيين الأندلسيين بالأبالأة التونسية أثناء القرن التاسع عشر من خلال خزينة الوثائق التونسية. نشر ضمن أعمال الحياة الاجتماعية في الولايات التونسية أثناء الحكم العثماني. (ص ٦٠١).

(٤) نايف صياغة: الحياة الاقتصادية في مدينة دمشق في منتصف القرن التاسع عشر. منشورات وزارة الثقافة بسوريا ١٩٩٥م (ص ١١٢).

ومراحل التعليم الحرفي في الدولة العثمانية تخضع لترتيبات دقيقة. ومن هذه الترتيبات: أن شيخ الحرفة من حقه أن يشدّ المتدئين الماهرين فيصرون صناعاً أو معلمين، وذلك في (حفلة الشدّ) التي هي حفلة (ترفيح) المتدئ إلى صانع أو الصانع إلى معلم، وذلك من خلال شيخ الحرفة والنقيب والشاويش، ومن خلال المشاركين فيها، وهم أهل الحيّ والأقارب وأهل الحرفة. وهو مشهد سلطة أهلية نلمح فيه رموز حركات دقيقة لها دلالاتها في التوزيع الوظيفي للسلطة في المجتمع الحرفي، وفي الالتزام بعهود ومواثيق دينية؛ لها فعل الضوابط لأصوار الحرفة وإتقانها وعدم الغش فيها<sup>(١)</sup>.

والنقيب في العصر العثماني هو مندوب شيخ المشايخ في طوائف الحرف، ينوب عنه في حضور حفلات الشدّ، ويتلو الأدعية. أما الشاويش فهو رسول شيخ الحرفة يستحسنه أهل (الكار) ويقوم بتنفيذ أوامر الشيخ، ويبلغ الدعوات والأحكام، ويقوم بدور أساسي في حفلات الشدّ<sup>(٢)</sup>.

وإن جاز لنا أن نتقل إلى الفترة الحديثة من العصر العثماني؛ فإننا نجد أن الأصناف مازالت تقوم بدورها، أو على الأقل، تكافح للبقاء على دورها، محتفظة بطابعها الأصيل المعروف في العصور الإسلامية السابقة، بالإضافة إلى الخصوصيات العثمانية<sup>(٣)</sup>.

(١) وجيه كوثراني: شعراء والطرق الصوفية والتنظيم الحرفي (ص ٦٢٦).

(٢) المرجع السابق: هامش رقم (١). (ص ٦٢٦).

(٣) نوال عبدالعزيز مهدي: الحركة العمالية وأثرها في تطور التاريخ السياسي في مصر ١٨٥٩-١٩٣٠.

رسالة دكتوراة مقدمة لأداب القاهرة ١٩٧٢م. (ص ٢٠).

## الموقف العثماني تجاه القضية الأندلسية

لقد شهد الحوض الغربي للبحر المتوسط في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادي نهاية الحكم الإسلامي ببلاد الأندلس (١٤٩٢م/٨٩٧هـ)، وبالتالي برز دور كل من أسبانيا والبرتغال كقوتين مهمتين استفادتتا من الوضعية المتداعية التي عاشتها منطقة الشمال الأفريقي في ظل تفككها إلى دويلات، مما أخلّ بميزان القوى الذي أصبح في صالح العالم الصليبي. لكن ظهور الدولة العثمانية على مسرح الأحداث باعتبارها القوة الإسلامية الوحيدة آنذاك اقتصاديا وسياسيا أهلها إلى إعادة موازين القوى إلى حالة التوازن الذي كان سائداً من قبل، مما ساهم في حماية الجاليات الإسلامية المتبقية ببلاد الأندلس من الاعتداءات النصرانية بقيادة الكنيسة الكاثوليكية المتحالفة مع ملوك إسبانيا، كما ساهم الوجود العثماني في إيقاظ الهمم وحماية سكان الشمال الأفريقي من الحملات الصليبية<sup>(١)</sup>.

لقد وقفت الدولة العثمانية موقفاً إيجابياً مؤثراً وفاعلاً من مسلمي الأندلس حيث وفّرت لهم كل أسباب النجاة وأنقذت هويتهم من الانصهار في المجتمع الأسباني الجديد<sup>(٢)</sup>.

لقد كان تأسيس الأيالات الغربية للدولة العثمانية في منطقة الشمال الإفريقي قاعدة الانطلاق لنجدة مسلمي الأندلس<sup>(٣)</sup>.

وبالرغم من أن الدولة العثمانية بعد عهد السلطان سليم الثاني دخلت

(١) شكيب بحفري: موقف الدولة العثمانية من الجالية الأندلسية بالجزائر. بحث غير منشور مقدم إلى المؤتمر العالمي الخامس للدراسات الموريسكية الأندلسية جمادى الأولى ١٤١٠هـ. تونس (ص ١).

(٢) Banofarichakib, Enculus, te sn Musluman Kalintisi Morisko. Irn cezayir'e

Gogu ve Osmimli Yardime, s. ١٥٠-١٥٣.

Ibid: P. ١٥١. (٣)

مرحلة التوقف عن الفتوحات وبداية التقهقر، فإنها أولت عناية فائقة لمسألة مسلمي الأندلس حيث فتحت لهم أبواب النزوح والمهجرة إلى الأراضي العثمانية، كما عملت على تأمين سبل الوصول والمهجرة إلى بقية البلدان الإسلامية، ويتجلى الدور العثماني في الاستقبال الحارّ الذي حظي به مسلمو الأندلس على سواحل الشمال الإفريقي مما أوحى الآمال بين الجاليات الأندلسية في حياة كريمة بعد رحلة عذاب وقهر<sup>(١)</sup>.

ومن الظروف الإيجابية التي خدمت الموقف العثماني إزاء مأساة المسلمين في الأندلس، ثقة الأندلسيين بالدعم العثماني، والثقات العثمانيين بجهة البحر المتوسط، ونجاحهم في التصدي للأسبان، وتخليص الجزائر وتونس من السيطرة الإسبانية، وترحيب عماء وأهالي المنطقة بالعثمانيين، وبروز نجم مجاهدين أفذاذ أحيوا الجهاد البحري وأرعبوا الأسبان، ثم نجاح العثمانيين في بعض المراحل في إيجاد حكومات موالية لهم من بين حكام فاس، ومراكش، ونجاح تحالف الدولة العثمانية مع فرنسا ضد أسبانيا، وأخيراً فإن تركيز العثمانيين على البعد الديني للقضية من خلال مبدأ الأخوة في الدين ونصرة المؤمنين، وجهاد الكافرين، وانتهاج سياسة متعاضفة تكفل أحياء الكريمة للمهاجرين الأندلسيين في الأراضي العثمانية قد ساهم في ضمان استمرار الموقف الإيجابي للعثمانيين<sup>(٢)</sup>.

ومن الظروف السلبية التي عرقلت المساعي العثمانية تجاه القضية الأندلسية: بُعد المسافة الجغرافية بين الأندلس وإستانبول، وضعف القوة البحرية للعثمانيين في البداية مقارنة بقواتهم البرية، وتوتر لعلاقات بين العثمانيين والمماليك، وتعدد الجهات المعادية، ونشوء الأحلاف الصليبية بزعامة أسبانيا والبابا، ثم ظهور الشاه

(١) Ibid: P. ١٥٢.

(٢) عبداللطيف بن محمد الحميد: الموقف العثماني تجاه القضية الأندلسية (دراسة تقريرية). (ص ٥-٦).

إسماعيل الصفوي في بلاد فارس والعراق، وتسرب الأساطيل البرتغالية الصليبية إلى مياه البحر الأحمر، والخليج، وتهديد الأماكن المقدسة، وأخيراً إخفاق حركة مسلمي الأندلس في (١٥٧٠/١٩٧٨م)، وعدم قدرة الأسطول العثماني على التحرك لصالح مجاهدي الأندلس بسبب عملية فتح قبرص، وبسبب هجوم أسبانيا والبنديقية والبابا ضد الأسطول العثماني وتحطيمه في ليبانتو<sup>(١)</sup>.

### عوامل ضعف الدولة العثمانية:

١- بموت السلطان سليمان القانوني في عام (١٥٦٦/١٩٧٤م) انتهى عهد السلاطين الأقوياء الأكفاء، وانتهى عهد الفتوح، وتعرضت الدولة العثمانية لهزائم عسكرية، برية، وبحرية، ولقد بدأت مظاهر الضعف تظهر منذ عام (١٠٠٠-١٠٠٢/١٥٩١-١٥٩٢م)، أي في عهد السلطان مراد الثالث (٩٨٢-١٠٠٤/١٥٧٤-١٥٩٥م) الذي وقع تحت تأثير رجال حاشيته، كما خضع لسيطرة أربع من السيدات هن: والدته وزوجته وكبيرة وصيفات السراي أو (كتخذنا الحریم). وبدأت هذه الفئات في التدخل في شؤون الدولة العامة، وتدخلوا في توزيع التيمارات والزعامات على أتباعهم مما أدى إلى إضعاف الإمبراطورية وإفلاسها؛ ففي عام (١٥٨٩/١٩٩٨م)، تجرأ الإنكشارية على مهاجمة سراي السلطان فقاموا بثورتين في خلال الأعوام الأربعة التالية، ونجحوا في كل منهما على إجبار السلطان على تغيير الصدر الأعظم<sup>(٢)</sup>.

ويعتبر عهد السلطان (مراد الثالث) نقطة تحول في تاريخ الدولة العثمانية، إذ ظهرت بوادر الضعف في السلطنة نفسها وترك السلاطين مسائل الدولة العليا في أيدي الوزراء الذين وصلوا إلى مناصبهم عن جدارة.

(١) المقال السابق (ص٦).

(٢) روبرت مانتان: الدولة العثمانية في القرن السابع عشر. بحث في كتاب تاريخ الدولة العثمانية (ص٣٤٣-٣٤٥).

٢- وعندما انتاب سلاطين آل عثمان الضعف، أخذ نفوذ الصدر الأعظم في النمو، وفي عام (١٠٦٥هـ/١٦٥٤م) حصل الصدر الأعظم على مقرر رسمي له ظل لمدة قرنين المركز الرئيسي للإدارة العثمانية، وأصبح اسمه منذ ذلك الوقت (قبوس وباب عالي). ومن الصدور العظام الذين علا نجمهم على حساب السلاطين (محمد صوقللي باشا) في عهد (سليم الثاني)، و(سنان باشا) عدو النموسيين اللدود في عهد (محمد الثالث)، و(مراد باشا) في عهدي (أحمد الأول) و(عثمان الثاني)<sup>(١)</sup>.

فحين أهدقت الأخطار بالدولة العثمانية رأت والدة السلطان محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧م) أن تعهد بمنصب الصدارة العظمى إلى رجل ذي بأس شديد هو (محمد كوبرولو)، وينتمي إلى أسرة كوبرولو الألبانية، وقد حكم البلاد بيد من حديد، ووقف موقفاً حازماً من الإنكشارية والسباهية والطوبجية، وأوغل (محمد كوبرولو) في سياسة الذبح والقتل والشنق، ولم تذهب هذه الدماء هباءً لأنها أعادت النظام إلى صفوف اجيش، والأمن إلى البلاد، والنزاهة إلى أجهزة الدولة<sup>(٢)</sup>.

وقد حدث في القرن السابع عشر الميلادي تنافسٌ بين الصدور العظام حاشية السلطان، وزاد من خطورة ذلك الأمر أنه أصبح تنافساً عنصرياً. وخلال القرن السابع عشر حدثت تغيرات هامة في نظام جمع أفراد حاشية السلطان، وقد ارتبطت هذه التغيرات بانتهاء نظام ضريبة الغلمان (الدفشومة) -السابقة الذكر-، وكانت فرقة الإنكشارية قد بدأت تهدد نفوذ السلطان، ولم تخل (إسلامبول) أو المدن الكبرى في الدولة العثمانية من فرقة الإنكشارية

(١) روبرت مانتران: المرجع السابق (ص ٣٤٦-٣٤٨).

(٢) المرجع السابق: (ص ٣٦٥-٣٧٣).

التي أصبحت طبقة من طبقات الشعب المنخرط أفرادها في الوظائف المدنية، وتزوجوا من السكان المحليين. وكان لإلغاء نظام ضريبة الغلمان أو الدفشمرة أثر كبير على الهيئة الحاكمة، وهكذا يرجع ضعف الهيئة الحاكمة وانتشار الرشوة إلى فشل العثمانيين في إيجاد بديل للغلمان أو الدفشمرة الذين لا يعرفون لهم من أب سوى السلطان العثماني، ولا عمل سوى الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الدين<sup>(١)</sup>.

٣- على أن من أهم عوامل ضعف الدولة العثمانية اصطدامها بدول كبيرة في الشرق والغرب هي: الروس والألمان والصفويون، وفي المياه الشرقية واجه العثمانيون قوة البرتغال، ففي القرن السادس عشر بدأت أوروبا تتوسع جنوباً وشرقاً نحو أرض الإسلام، ومنيت الإمبراطورية العثمانية بمزائم كثيرة، وفقدت جزءاً كبيراً من أراضيها وأخذت حدودها تتقلص، وفي خلال القرن السادس عشر توقف الزحف العثماني في أوروبا، كما طوقت حركة الكشوف الجغرافية التي قام بها الغرب عبر المحيطات تقدم الدولة العثمانية بشكل كبير، وبذلك تحولت منطقة شرقي البحر المتوسط - حيث تقع الدولة العثمانية - إلى منطقة بحرية غير ذات أهمية<sup>(٢)</sup>.

٤- أحدث التدفق الهائل والمفاجئ لمعدن الفضة والذهب الأميركي الرخيص آثاراً مالية سيئة في الدولة العثمانية، وإذا كان الحكام العثمانيون قد تعودوا على أزمات نقص العملة، فإنهم لم يستطيعوا فهم أو مواجهة الأزمات الناتجة عن زيادة معدن الفضة. وشلت حركة السلع واستنزف الذهب الإمبراطورية العثمانية<sup>(٣)</sup>.

(١) أحمد شبي: الموسوعة (٥/٥٣٩-٥٤٣).

(٢) روبير مانتران: الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر الضغط الأوربي. بحث في تاريخ الدولة العثمانية (ص ٤٠٣-٤٣٧).

(٣) المرجع السابق (ص ٣٨٢-٣٨٣).

وفي حين كانت الأزمة المالية على أشدها، اضطرت الإدارة العثمانية إلى زيادة موظفيها، وكانت تدفع لهم مرتبات نقدية، وأخذت صبة أصحاب الأرض من الفرسان في الاختفاء، ووزع بعض هذه الأراضي على المحتكرين وأتباع القصر، ولما لم ينجح العثمانيون في تكوين نظام ناجح لتقييم الضرائب وجمعها، فلقد عهد إلى الملتزمين بجمع الضرائب<sup>(١)</sup>.

٥- ظل المستوى التكنولوجي للزراعة في الدولة العثمانية بدائيًا، وكانت التجارة في وضع أحسن بدرجة قليلة، فنتيجة الفتوحات سيطر العثمانيون على كل سواحل المنطقة الشرقية للبحر المتوسط، واشتملت دولتهم على مراكز برية بالغة الأهمية، وهي التي كانت تمر بها طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب. إلا أن الصورة العامة للتجارة كانت في حالة تدهور منذ نهاية القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر<sup>(٢)</sup>.

٦- البعد عن منهج لإسلام وجوهر الإيمان: ظهر الخلل في الدولة والمجتمع في العصر العثماني بعد وفاة السلطان سليمان القانوني عام (١٥٦٦/١٥٧٤م)، وظهرت بعض العلل المستحدثة مثل الإهمال في العدالة، وتفويض الأمور لغير أهلها، ومكابرة أهل الحكم والإدارة، وعدم الأخذ بمشورة العلماء والحكماء، وظهور الارتشاء، وظهور طور جديد في المجتمع العثماني عرف بـ "دور لاله" أي: عصر الزهو نسبة إلى اهتمام المجتمع ورجال الدولة بالمظاهر المترفة في الحياة. ومن مظاهر البعد عن منهج الإسلام، وجوهر الإيمان: بروز النزعة الصوفية في المجتمع العثماني، وتعطيل الجهاد<sup>(٣)</sup>.

(١) روبر مانترا: الدولة العثمانية في القرن السابع عشر (ص ٣٨١).

(٢) المرجع السابق (ص ٣٨٤).

(٣) حسن كافي الأفحصاري: أصول الحكم في نظام العالم (ص ١١٢-١١٣). أحمد جودت، باشا: تاريخ جودت تعريب عبدالقادر أفندي. بيروت ١٣٠٨ هـ (ص ٣٨، ٧٠-٧١).

- ٧- إن الحركات الباطنية المتكررة مثل: حركة بدر الدين الذي دعا إلى مبدأ الشيوع بين الناس، وإنكار المعتقدات الإسلامية وانتهت حركته بمقتله عام (١٤٢٠م/١٨٢٣)، كذلك عداء الدولة الصفوية الشيعية في بلاد فارس، قد أسهما في إضعاف الدولة العثمانية مع مرور الزمن، وتجلى ذلك في وجود بقايا لكل حركة باطنية، وإفك الصفيين للعثمانيين بالهجوم المتكرر<sup>(١)</sup>.
- ٨- الغزو الفكري: مهدت العلاقات العثمانية الفرنسية الحسنة منذ أواخر عهد السلطان سليمان القانوني -في القرن العاشر الهجري- للتسرب التدريجي للمؤثرات الفرنسية بخاصة، والأوروبية بعامة في المجتمع العثماني الإسلامي، وقد استغل الأوروبيون إهمال العثمانيين وتراخيهم في نظام الامتيازات الأجنبية في التمكين للكنيسة والجمعيات، فأنشئت المدارس الأجنبية في الدولة العثمانية، وأصبحت سلاح الغزو الفكري المنظم إلى جانب الاستشراق، وكان أكثر المدرسين في هذه المدارس من الرهبان الذين قاموا بدور التنصير أو التشكيك في الدين الإسلامي، ولعبت هذه المدارس دوراً بارزاً في محاولة طمس الهوية الإسلامية ووصفها بالجمود والتأخر، وفي تمجيد الحضارة الغربية، وإبعاد أجيال المسلمين عن لغتهم وثقافتهم، بتعليمهم اللغات الأجنبية المختلفة وخاصة الفرنسية والإنجليزية؛ ليتمكنوا من تمثل الفكر الأوروبي. ومن الآثار الاجتماعية والسياسية لهذه المدارس والإرساليات: تغيير القيم الإسلامية، وإيقاظ الحركة القومية، وإثارة الفتن، وتشجيع الأقليات على التخلص من الحكم العثماني<sup>(٢)</sup>.

(١) محمد عبداللطيف هريدي: الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا. دار الصحوة ١٤٠٨ هـ (ص ٢٧-٢٨).

(٢) سهيل صابان: المؤسسة التعليمية الأجنبية في نهايات الخلافة العثمانية في إسطنبول. رسالة ماجستير. قسم الثقافة الإسلامية بكلية الشريعة. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الرياض ١٤٠٩ هـ. (ص ٢٨٦-٢٨٨).

٩- في داخل الولايات العربية حدث تفتت، وقامت محاولات لتركيز السلطة في أيدي بعض الزعماء المحليين؛ فقد حاول بعض الحكام المحليين الاستقلال الذاتي عن الحكومة المركزية وذلك بإطالة فترة حكمهم ومحاولة تأسيس أسر محلية. وكان ذلك تطوراً مشابهاً لما قام به (الدرة بكوات) أو الأعيان في الأناضول. ولقد تحققت هذه المحاولة في بغداد، ولو أن التعاقب على حكم الولاية قد انتقل بعد الجيل الثاني إلى المماليك، وكانت أسرة (العظم) التي سيطرت في القرن الثامن عشر أيضاً على دمشق والولايات السورية الأخرى أقل نجاحاً. أما أكثر مؤسسي الأسر المحلية نجاحاً وشهرة فكان (محمد علي) والي مصر الذي قام بإصلاحات وحصل أبنائه من بعده على اعتراف رسمي بهم من السلطان العثماني، ومثال ذلك: الأسران اللتان حكمتا لبنان على التوالي وهما المعنيون والشهابيون، وكذلك السيادة المؤقتة التي فرضها كل من الشيخ (ظاهر العمر) في الجليل والشيخ (همام) من قبيلة (الحوارة) في مصر العليا. ففي مصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر أضحى للقبائل البدوية نفوذ كبير، وكانت هذه مصدر خطر على طرق المواصلات وعلى حياة الفلاحين، كما كانت مركزاً للمؤامرات المملوكية ضد السلطة القائمة في القاهرة، فوجهت إليهم ضربات قاصمة من (علي بك) واحملة الفرنسية ومن (محمد علي) فيما بعد، وظهر خطر القبائل البدوية في الصحراء السورية، وقام تحالف من قبائل (الموالي) بحماية الحدود الشمالية لصحراء سوريا، وكان زعيمهم أبوريثة، ولقد لعبوا دوراً مهماً في مساندة الأتراك ضد العصبيات المتمردة في العراق<sup>(١)</sup>.

ولكن اختيار نظام القبائل في الصحراء السورية وقسوة الباشوات، أخرجت

(١) كمال قارباط: الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر. دراسات في التاريخ العثماني (ص ٢٢٩-٢٣١).

هذه القبائل من وظيفتها التقليدية؛ حراساً للطرق الصحراوية إلى قطاع طرق، ووجدت الحكومة العثمانية أن من الحكمة الاعتراف بالوضع الجديد ومحاولة الاستفادة منه، وكلفتهم بمهمة حراسة حدود الصحراء بين حلب ودمشق في مقابل رسوم معينة يفرضونها على القوافل، وفي شبه الجزيرة العربية كان الوهابيون يكوّنون دولتهم الأولى بزعامة البيت السعودي<sup>(١)</sup>.

١٠- انعكست مظاهر الضعف في الدولة العثمانية على مجريات الأحداث في الشرق العربي؛ فانقسمت مجتمعات الشرق العربي إلى عصبيات وأحزاب، ومثال ذلك: النزاع بين القيسية واليمينية في الشام؛ فتاريخ الولايات العثمانية في آسيا إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر قد استغرقه -إلى حد كبير- صراعٌ على السلطة، كما انشغل بالجهود العرضية لاستعادة التوازن، إلا أن التكوين الطبيعي للإمبراطورية حال دون ممارسة السلطة المركزية بطريقة أكثر فعالية<sup>(٢)</sup>.

١١- وانقسم العالم الذي عاش فيه موظفو الإدارة العثمانية إلى حكام ورعايا أوجدتهم العناية الإلهية لكي يمدوا الحكام بكل ما يحتاجونه. فالباشا (الصالح) في نظرهم هو الذي كان يرسل كل المبالغ العينية التي تطلبها خزانة السلطان، وكانت هذه أول خطوة نحو الرشوة، وتكوين ثروة كبيرة، وساد الاستهتار، وشجع عجز الباشاوات على الخروج على القانون وحدوث التمرد فانتشر بالتدرج واتسم بالعنف<sup>(٣)</sup>.

(١) المرجع السابق (٢٣٦-٢٤٧).

(٢) المرجع السابق (ص ٢٤٨-٢٤٩).

(٣) كمال قارباط: المرجع السابق (ص ٢٤٨-٢٥٠). عبدالحليم عويس: دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية (ص ١٨٤).

وهكذا تجمعت كل هذه العوامل وسواها على الدولة العثمانية فأخذت في الضعف والانكماش والانهيار ابتداء من منتصف القرن السادس عشر.

### المسألة الشرقية:

لقد اتخذ الصراع الأوروبي ضد الدولة العثمانية شكلاً دينياً واضحاً؛ إذ تكونَ ضدها (حلف مقدس) من النمسا وبولندا والبندقية، وكان لهذا الحلف أثر كبير في التغلب على الدولة العثمانية وضعضة قوتها، ثم دخلت روسيا باسم الدين أيضاً هذه الحروب تؤيدها جميع الدول المسيحية، وأنزلت بالخلافة الإسلامية ضربات قاسمة وخسائر فادحة، وكانت نتيجة هذه الأحداث أن هوت الدولة العثمانية من شاهق، وهان أمرها حتى أصبحت تعرف بـ(الرجل المريض) وكان من الممكن القضاء على الرجل المريض بسرعة لولا اختلاف دول أوروبا على تركته. فمن الذي يرث بوغازي الدردنيل والبسفور؟ إن ورثتهما روسيا امتد نفوذها إلى البحر المتوسط وهددت مصالح إنجلترا وفرنسا، وإن ورثتهما إنجلترا خنقت روسيا في البحر المتوسط، وحللاً لهذه المشكلة اتفقت الدول على ألا تجهز على (الرجل المريض) وأن تبقيه على قيد الحياة؛ لا حرصاً عليه، ولكن كراهة لما ينجم من خلاف حول ميراثه، وموقف أوروبا من الدولة العثمانية سواء إبان امتدادها وزحفها أم إبان انكماشها وانزمامها يعرف في العرف السياسي لها بالمسألة الشرقية<sup>(١)</sup>.

### حركة الإصلاح في الدولة العثمانية:

لقد تأكد للدولة العثمانية من الهزائم التي لحقت بها أنها لم تعد دولة مرهوبة الجانب، ومن ثم أدرك العثمانيون حاجتهم الماسة للإصلاح العسكري والاقتباس عن الغرب الأوروبي.

(١) روبرت ماتران: الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر (ص ٤٠٣-٤١١).

## السلطان سليم الثالث:

شهد عصر (سليم الثالث) الذي تولى العرش عام (١٢٠٤هـ/١٧٨٩م) بدايات حركة الإصلاح الحديث، فاتجه للأخذ من ثمار الحضارة الغربية، وبدأ الإصلاح في الجانب العسكري لكبح جماح الجند الإنكشارية الذين شكلوا العقبة الرئيسية في طريق الإصلاح، ففكر في إنشاء فرقة عسكرية جديدة على النظام الأوروبي الحديث أطلق عليها (النظام الجديد) ورغم أن هذه الخطوة وُوجهت بمقاومة شديدة في البلاط العثماني إلا أن السلطان لم يكرث بذلك واستخدم الخبراء والمدربين، واهتم السلطان أيضا بإصلاح الأسطول العثماني وإنشاء المدارس الفنية لتعليم الشبان العثمانيين علوم الغرب وفنونه، ورغم كل ذلك فلم يدرك السلطان ومستشاروه أن الإصلاحات التقنية الأوروبية وليدة ثورات اجتماعية واقتصادية وسياسية استمرت منذ عصر النهضة الأوروبية وأن الحياة العثمانية بأسرها كانت تتطلب الإصلاح<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن إلغاء إصلاحات (سليم الثالث) بعد خلعه سنة (١٢٢٢هـ/١٨٠٧م) كان دليلاً على أنه لم يجد المساندة القوية من جانب العثمانيين الذين كانوا بجداعهم لأنفسهم يرفضون أي تجديد يأتيهم من الغرب الذي كان مثاراً للشك.

## السلطان محمود الثاني:

أفاد السلطان محمود الثاني (١٢٢٣-١٢٥٥هـ/١٨٠٨-١٨٣٩م) من تجارب سابقه (سليم الثالث) وخبراته وتذرع بالصبر حتى يتمكن من القضاء على أعداء الإصلاح العسكري وهم رجال الانكشارية بعد أن أعدّ للأمر عدته في (١٢٤٢هـ/١٨٢٦م) على الصورة التي نفذ بها محمد علي مذبحه القلعة للماليك

(١) روبرت ماتران: بدايات المسألة الشرقية (ص ١٣-١٦).

سنة (١٢٢٦هـ/١٨١١م)، وكان القضاء على الانكشارية من أهم أحداث التاريخ العثماني، كما قام بإصلاحات عسكرية في شئون التيمارات والزرعومات وضمها فيما بعد سنة (١٢٣٧هـ/١٨٢١م) لأملاك الدولة، وفضلاً عن ذلك فقد قام بإصلاح أجهزة الدولة المركزية، وما لبث أن أدخل البرق والسكك الحديدية وشق الطرق لإحكام قبضة الدولة على الأقاليم<sup>(١)</sup>.

ورغم صدور التنظيمات الخيرية منذ (خط شريف جلخانة) سنة (١٢٥٥هـ/١٨٣٩م) وحتى أوائل السبعينات فإن ما حققته تلك التنظيمات لم يكن متوازناً؛ فالتقدم الاقتصادي كان بطيئاً للغاية في الوقت الذي لم يتحسن فيه الإنتاج الزراعي، فقد تضمن الإصلاح الضريبي في عصر التنظيمات جهوداً لإلغاء النظام القائم على جباية الضرائب وإدخال نظام الجباية المباشرة على أيدي موظفين حكوميين وغيرها من الإجراءات، وقد أثر التدهور المستمر في أوضاع الدولة المالية تأثيراً سلبياً في حركة الإصلاح خاصة وأن رجال التنظيمات لم يكونوا ضليعين في الاقتصاد أو الأمور المالية؛ فازدادت الديون وفوائدها العالمية، وخلال فترة التنظيمات ازداد طبع الإدارة بالطابع الغربي؛ فقد حلت محل الطبقة الحاكمة العثمانية القديمة طبقة جديدة من البيروقراطية<sup>(٢)</sup>.

ورغم أن الدولة العثمانية لم تفقد أراضي خلال عصر التنظيمات، فإن هذه التنظيمات قد فشلت في إدماج شتى عناصرها، وازدادت خطورة الاتجاهات الانفصالية داخل الدولة العثمانية رغم محاولات تطبيق سياسة (العثمنة)، وبدخول الأفكار الغربية أرجاء الدولة العثمانية تحولت (الملل) إلى بؤر للقومية الإقليمية على النمط الأوروبي.

(١) المرجع السابق (ص ٢٨-٢٩).

(٢) المرجع السابق (ص ٣٠-٣٢).

## انهيار الدولة العثمانية:

### ١- انحسار أملاك الدولة العثمانية:

أخذت الدولة العثمانية تنحسر أملاكها بأوروبا جزءاً بعد جزء، وقد أثرت عوامل ضعفها السابق ذكرها على هذا الانحسار، ولكن بين شدة وتراخ حتى أفلتت جميع أملاكها بهزيمتها مع ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، وتكوّن من أملاك الدولة العثمانية بأوروبا الدول التي تعرف الآن بالأسماء الآتية: اليونان، رومانيا، بلغاريا، يوغسلافيا، ألبانيا، الجمر، ويمكن إيراد بيان موجز عن استقلال بعض الأجزاء الأوروبية عن الدولة العثمانية فيما يلي:

الجمر: فقدتها الدولة العثمانية سنة (١١١١هـ/١٦٩٩م) وكسبتها النمسا.

القرم وجنوب روسيا: فقدتها الدولة العثمانية عام (١١٨٨هـ/١٧٧٤م)، ثم

ضمت إلى روسيا عام (١٢٩٩هـ/١٧٨٤م).

صربيا: فقدتها الدولة العثمانية سنة (١٢٣١هـ/١٨١٥م)؛ إذ استقلت

جزئياً ثم استقلت استقلالاً ذاتياً سنة (١٢٤٥هـ/١٨٢٩م)، واستقلالاً تاماً عام

(١٢٩٥هـ/١٨٧٨م).

رومانيا: فقدتها الدولة العثمانية عام (١٢٤٥هـ/١٨٢٩م) بزوال الحماية

العثمانية عنها، واستقلت استقلالاً تاماً عام (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م).

اليونان: فقدتها الدولة العثمانية عام (١٢٤٥هـ/١٨٢٩م)، ثم استقلت

استقلالاً تاماً عام (١٢٤٦هـ/١٨٣٠م)<sup>(١)</sup>.

أما الدول العربية فقد قامت بعدة انتفاضات، والواقع أن الدول العربية

كانت تقع بين عاملين كبيرين: أحدهما يجذبها إلى الدولة العثمانية وهو إسلامي؛

فقد كان ارتباط الدول العربية بالإمبراطورية العثمانية نوعاً من الوحدة الإسلامية.

(١) أحمد شلبي: الموسوعة (٥/٥٥٥-٥٦١).

أما العامل الثاني فهو: رغبتها في الاستقلال وبناء نفسها بعيدا عن الدولة العثمانية. وعلى هذا العامل قامت حركات استقلالية من حين إلى آخر، وكانت هذه الحركات تنتكس أحيانا بسبب انتعاش العامل الأول، أو بسبب ضربات شديدة تسدها الدولة العثمانية لزعماء هذه الحركات، ومن أبرز هذه الحركات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ما يلي:

في مصر: حركة علي بك الكبير في القرن الثامن عشر، وحركة محمد علي في القرن التاسع عشر، وقد انفصل بمصر، وكانت السيطرة العثمانية على مصر - في عهده وعهد أبنائه - اسمية.

في فلسطين: حركة الزعيم البدوي ظاهر العمر الذي كان معاصرا لعلي بك الكبير.

في لبنان: حركة الأمير فخر الدين المعني الثاني في انقور السابع عشر، وحركة الشهابيين في القرن التاسع عشر.

في العراق: حركات الباشوات المماليك وعلى رأسهم سليمان باشا (أبوليلي) في القرن الثامن عشر.

في اليمن: حركة الزيدية التي نجحت في فصل اليمن عن سلطان العثمانيين في القرن السابع عشر (عاد العثمانيون لليمن في القرن التاسع عشر).

في الجزيرة العربية: الحركة الوهابية.

في شمال إفريقيا: ظهرت حركات استقلالية في ليبيا والجزائر وتونس وانتهت بنجاح جزئي، فقد استبد بالسلطة في كل منها زعماء مواطنون أو مستوطنون، ولم يبق إلا حيط دقيق يربط بين هذه الدول وبين العثمانيين في إسطنبول، وقد لعب السنوسيون دورا كبيرا في مصير بعض أجزاء الشمال الإفريقي<sup>(١)</sup>.

(١) أحمد شبي: الموسوعة (٥/٥٦٢-٥٦٣).

## ٢- دور يهود الدونمة في انهيار الدولة العثمانية:

يهود (الدونمة) هم فئة من اليهود ظهرت بالتحديد في النصف الثاني من القرن السابع عشر؛ فلقد رحب السلاطين العثمانيون باليهود المنفيين والمهاجرين، وعاشوا في ولايات الدولة العثمانية وبالأخص في سالونيك اليونانية وأزمير، ولعبت هذه الفئة (يهود الدونمة) دوراً مؤثراً في التطورات التي شهدتها الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر وكذلك في انقلاب (١٩٠٨/١٣٢٦م)، وخلع السلطان عبد الحميد عام (١٩٠٩/١٣٢٧م). وحتى يمكننا معرفة حقيقة تلك الفئة من اليهود علينا أن نبحث في جذورها التاريخية.

لم يعترف اليهود بعيسى عليه السلام نبياً، لذلك ظلوا ينتظرون المسيح اليهودي، ليعيد مملكة داود عليه السلام وليحكموا العالم بوصفهم شعب الله المختار -حسب اعتقادهم. وقد تسبب هذا الاعتقاد في ظهور كثير ممن ادعى أنه المسيح المنتظر مثل (تيوداس الروماني) عام (٤٤م)، و(موسى التكريتي)، و(أبوعيسى الأصفهاني)، ثم (شبتاي زيفي الأزميري) وهو مؤسس طائفة (الساباتائية)<sup>(١)</sup>.

لقد ظهر (شبتاي) والدولة العثمانية تمر بأحرج أوقاتها؛ الجنود يعيثون في الأرض فساداً، ويقتلون سلطاتهم (إبراهيم) عام (١٦٤٨/١٠٥٨م)، ويسحقون بشدة السخط الشعبي الذي ظهر نتيجة لمقتل السلطان، وكانت أساطيل البندقية تهدد سواحل الدولة، والجيش عاجز أمام كل هذه الصعاب، والأخطار محدقة بها من كل جانب. وفي هذه الظروف التاريخية في عام (١٦٢٦/١٠٣٦م) ولد في (أزمير) يهودي يدعى (شبتاي) لأب يدعى (موردخاي زيفي)، كان يعمل بالتجارة في أزمير، وكان من أصل يهودي أسباني، وتذكر الروايات أن (شبتاي) نال قسطاً كبيراً من التعليم الديني، وكان

(١) محمد صبيح: المعتدون اليهود - من أيام موسى إلى أيام ديان. القاهرة ١٩٦٩م. (ص ١٨-٢٢).

تقياً ورعاً، ولكنه كان مصاباً بحالة من الصرع ومعتلاً في صحته، وكان حاخامات أزمير ينفرون منه<sup>(١)</sup>.

وفي تلك الفترة قال بعض أخبار اليهود بأن حساب الجسم لبعض الكلمات الواردة في التوراة تقول بأن المسيح سيظهر في عام (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م)؛ ليقود اليهود وسيظهر في صورة نبي وسيحكم العالم من فلسطين وتكون القدس عاصمته، وفي العام المحدد (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م) ادعى شبتاي بأنه المسيح اليهودي، وزار بلداناً كثيرة منها مصر وفلسطين، ثم عاد إلى أزمير عام (١٠٧٧هـ/١٦٦٦م)، حيث كانت شهرته قد طبعت الآفاق، وأصبح (شبتاي) أسطورة عصره، وجاءت إليه وفود من كل يهود العالم لمبايعته، وبعثوه بلقب (ملك الملوك) وادعى شبتاي أيضاً الإتيان بمعجزات الأنبياء السابقين<sup>(٢)</sup>.

فلما كثرت الفتن في (أزمير)، ووصلت أخباره إلى مسامع الباب العالي، أصدر السلطان محمد الرابع (١٠٥٨-١٠٩٩هـ/١٦٤٨-١٦٨٧م) قراراً بالقبض على (شبتاي زيفي) وتمت محاكمته أمام السلطان والصدر الأعظم (أحمد باشا الكويرلي) وشيخ الإسلام، وأنكر شبتاي كافة التهم المنسوبة إليه، ولكي ينجو من المصير المحتوم الذي ينتظره -وهو الإعدام- اعتنق شبتاي الإسلام، وسمى نفسه (محمدًا)، وخصصت له وظيفة في القصر وراتب شهري.

ويذكر المؤرخون أن إسلام (شبتاي) كان نكبة على لدولة العثمانية، فإسلامه كان مجرد كلمة فاه بها؛ لينجو برأسه، وليخلق سرطاناً رهيباً في الجسم العثماني يستفحل وينتشر ويتقل من جيل لآخر، محافظاً على نشاطه الهدام؛ إذ ما لبث أن طلب (شبتاي) من السلطان السماح له بالخروج من القصر؛ ليدعو ذويه

(١) المرجع السابق (ص ١٤٧-١٥٢).

(٢) المرجع السابق (ص ١٥٢-١٥٦).

وأقاربه ومن يثق به إلى الإسلام، وقد استجاب السلطان لذلك، فسمح له بجولات حرة في أنحاء الدولة العثمانية<sup>(١)</sup>.

التف حول (شبتاي) الكثيرون من يهود تركيا ودعاهم إلى إشهار إسلامهم بأفواههم، وقدم لهم قائمة تتضمن أسس دعوته، ووجهها إلى كل المؤمنين به، وكانت هذه القائمة أو الميثاق تحوي ثمانية عشر أمراً، ومضمون هذه الأوامر: (الإيمان بأن مسيح اليهود هو المسيح الحق ولا مخلص غيره وهو: شبتاي زيفي، وأنه من نسل داود عليه السلام ويجب قراءة مزامير داود سرّاً كل يوم، ويجب مراعاة جميع المظاهر الدينية الإسلامية، وعدم الزواج من المسلمات) وبهذا يكون قد نشأ ما يمكن أن نسميه المذهب اليهودي الإسلامي<sup>(٢)</sup>.

وانكشف أمر شبتاي وأتباعه، وأشهر اجتماع انكشف فيه أمره كان في إحدى ضواحي إسطنبول على البوسفور تدعى (كوروجشمة)، حيث ضبط يخاطب أتباعه بالعبرية ويحثهم على السيطرة على الشؤون المالية والتجارية للدولة، واستخدام كافة الوسائل الممكنة من أجل ذلك، وكان من المفروض أن يعدم (شبتاي)؛ لولا تدخل شيخ الإسلام الذي نصح بنفيه إلى مكان بعيد، ولأن قتله سيجعله شهيداً ويضعف من الأساطير التي أشيعت حوله، وفي مدينة سالونيك اليونانية نفي (شبتاي) ولحقه أتباعه؛ ليعدوا لمخططهم من أجل إسقاط الدولة العثمانية، وفي تلك المدينة أيضاً توفي شبتاي في (أواخر سبتمبر ١٠٨٦هـ/١٦٧٥م) عن عمر يناهز (٤٩ عاماً)<sup>(٣)</sup>.

(١) المرجع السابق (ص ١٥٩-١٦٢).

(٢) المرجع السابق (ص ١٦٤-١٦٧).

(٣) المرجع السابق (ص ١٦٧-١٦٨).

وأطلق الأتراك على أتباع (شبتاي) لفظ (الدونمة)<sup>(١)</sup>، ويهود الدونمة ثلاث فرق: (اليعاقبة، والقرقاشية، والقابانجية)، ولكل منهم اسمان: اسم يهودي خاص، واسم رسمي عام، وبصفة عامة لعب يهود الدونمة دوراً في الأحداث السياسية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فقد صار عددهم يزيد عن ثلاثين ألف يهودي، ولهم تأثيرهم في مجالات الحياة المختلفة في تركيا وغيرها من البلاد الأخرى<sup>(٢)</sup>.

وصل أتباع شبتاي ويهود الدونمة إلى مراكز هامة في الدولة مثل: منصب أمين الترسانة البحرية، وكاخدا المدينة، وكاخدا القصر، وفي حركة الاتحاد والترقي في أواخر عهد الدولة العثمانية، تغلغل فرع القابانجية من يهود الدونمة في خلايا الحزب، وأداروا الجزء الأكبر من انقلاب تركيا الفتاة، الذي أطاح بحكم عبدالحميد الثاني وأفسح المجال لحكم الاتحاد والترقي أواخر الحكم العثماني.

ومن أبرز أسماء يهود الدونمة في الحياة السياسية التركية في بدايات القرن العشرين (قراصو) عضو اللجنة التي قابلت السلطان عبدالحميد لخلعه، و(قراصو) كان عضو لجنة الاتحاد والترقي الذي أثار الشعب ضد السلطان عبدالحميد لتهيئة الفرصة لعمل الجمعية، وهو ذاته الذي باع ليبيا لإيطاليا بعد أن خان دولته العثمانية نظير رشوة من الإيطاليين.

وهناك أسماء أخرى كثيرة من يهود الدونمة برزت في شتى فروع الحياة في تركيا منها، (محمد جاويد) وزير المالية في عهد الاتحاد والترقي، و(نزهت فائق)

(١) الدونمة: كلمة تركية تعني المرتد أو الملحد أو الكافر أو الكاذب. وهي كلمة مشتقة من مقطعين "دو" أي اثنين. وهي كلمة فارسية الأصل. و"نمة" وهي تركية تعني الطائفة أو العقيدة، والمحصلة تعني الطائفة التي تقوم على عقيدتين الظاهرة وهي الإسلام والباطنة وهي اليهودية. محمد صبيح: المعتدون اليهود (ص ١٦٩-١٧٠).

(٢) حسان علي حلاق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية (١٨٧٠-١٩٠٩م). بيروت

١٩٧٨م. (ص ٨-١٢).

وهو أيضاً أحد وزراء مالية العهد ذاته، و(مصطفى عارف) أحد وزراء الداخلية في عهد الاتحاد والترقي، ومصالح الدين عادل وكان مستشاراً لوزارة التعليم وأحد أساتذة الحقوق<sup>(١)</sup>.

ومن أبرز عائلات الدوامة في تركيا الآن عائلات قبانجي، وكبار، وإيبيكجي وهذه الأخيرة لها إمكاناتها الضخمة في الحياة الإعلامية في تركيا<sup>(٢)</sup>.

ومن خلال هذه السيطرة المالية والاقتصادية والإعلامية لعب اليهود وبصفة خاصة يهود الدوامة دوراً فعالاً في الأحداث السياسية خلال فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني وما تلاها<sup>(٣)</sup>.

السلطان عبد الحميد الثاني سلطاناً للدولة العثمانية الحديثة:

كان السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩٣-١٣٢٧هـ/١٨٧٦-١٩٠٩م) هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية، تولى السلطنة وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، وعبد الحميد هو ابن السلطان عبد المجيد (١٢٥٥-١٢٧٨هـ/١٨٣٩-١٨٦١م) صاحب فرمان التنظيمات الذي ينظم الدولة العثمانية على الطراز الأوروبي<sup>(٤)</sup>.

وإذا أردنا أن نتحدث عن مكانة السلطان عبد الحميد الثاني، فيجدر بنا أن نذكر حديث جمال الدين الأفغاني عندما سأله هرتزل عن رأيه في السلطان فقال: "إن عبد الحميد لو وزن بأربعة من نوابغ عصره لرجحهم ذكاءً، ودهاءً، وسياسة، وخاصة إذا رأينا ما يقام في ملكه من الصعاب من دول الغرب، ويخرج المناوى له

(١) محمد صبيح: المرجع السابق (ص ٢٠١-٢١١).

(٢) حسان على حلاق: المرجع السابق (ص ٩٨).

(٣) المرجع السابق (ص ٥٧).

(٤) كامل أو كسي: السلطان عبد الحميد الثاني بين الصهيونية العالمية والمشكلة الفلسطينية ترجمة إسماعيل

صادق. القاهرة (١٩٩٢- ص ١١١).

من حضرته راضياً عنه، وعن سيرته مقتنعاً<sup>(١)</sup>.

لم يكن السلطان عبد الحميد معادياً لأي إصلاح لا يهدد سلطته، وهو لا يريد من الغرب الحضارة؛ لأنه كان يرى -بحق- أن للشرق حضارته الإسلامية الخاصة، وإنما كان يريد ما يهم الدولة فقط من العلوم الحديثة، وحتى هذا المهم لم يكن يريده دفعة واحدة وإنما يكون تدريجياً، فالإسلام -في رأيه- لم يكن ضد التقدم، فكان اعتقاده أن الأمور القيمة يجب أن يكتب لها النجاح إذا كانت عنى شكل تطعيم من الخارج، وعلى هذا النحو أفاد السلطان عبد الحميد من الغرب بطريقته الخاصة وبحسب حاجات الدولة كما كان يراها؛ فأنشأ عدة كليات للعلوم والآداب والحقوق وغيرها من المدارس، وأوفد البعثات العلمية إلى كل من فرنسا وألمانيا، كما أقام البلديات، ومد خطوط البرق والسكك الحديدية، وأنشأ إدارة للريد<sup>(٢)</sup>.

ورغم التطور الثقافي الذي شهده عصر السلطان عبد الحميد الثاني، فإننا نجد ينشئ قسمًا للرقابة في وزارة المعارف، مهمته تطبيق مختلف قوانين الصحافة والمطبوعات، وخضعت المدارس لإشراف صارم وخاصة في أواخر عهده حين تزايدت شكوكه ومخاوفه، ومما يذكر أن عصره يعدّ من أخصب الفترات الثقافية في التاريخ العثماني، ولا تعدله إلا الفترة التي شهدت عودة الدستور في أوائل القرن العشرين<sup>(٣)</sup>.

استطاع السلطان عبد الحميد الثاني أن يحكم الدولة العثمانية بكفاءة نادرة رغم الكوارث التي لحقت بها، واستفاد من تناقض مصالح وسياسات الدول الأوروبية من أجل مصلحة بلاده، فكان بالفعل آخر سلاطين آل عثمان العظام. اعتلى السلطان عبد الحميد العرش وكانت الأزمات تحيق بالسلطنة من كل جانب،

(١) محمد فريد بك الحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية. بيروت ١٩٨٨ (ص ٢١١).

(٢) المرجع السابق (ص ١١٧).

(٣) عبدالعزيز محمد الشاوي: مرجع سابق (١-٣٣٨-٣٤٣).

خزانة مفلسة، وجند عزل، وفي أطراف الدولة عناصر تنادي بقوميتها، وشعب تواق للحكم البرلماني، وإلى جانب ذلك مؤامرات دولية على سبيل تحقيق الأمان القومي لبعض العناصر العثمانية، هذا بالإضافة إلى مؤامرات الدول الأوروبية للاتفاق على اقتسام إرث الرجل المريض، أي: الدولة العثمانية إبان ضعفها<sup>(١)</sup>.

موقف السلطان عبد الحميد من أطماع الدول الأوروبية في الدولة العثمانية:

لا شك أن الأحداث الدولية التي شهدتها السلطان عبد الحميد في أوائل حكمه كان لها أثرها في نزعاته المحافظة والاستبدادية. ففي (مارس ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م) اضطرت الدولة لعقد معاهدة (سان ستيفانو) التي نصت على استقلال إمارة الجبل الأسود بعد إضافة أراضٍ جديدة إليها، واستقلال الصرب التي ضمت هي الأخرى بعض المقاطعات، وعلى هذا النحو جرى تفتيت أملاك الدولة العثمانية في أوروبا، واستاءت بريطانيا لزيادة النفوذ الروسي في البلقان، واستعدت لمحاربة روسيا، وحصلت من السلطان في (يونيو ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٨م) على حق احتلال جزيرة قبرص وإدارتها على أن تبقى تابعة للدولة العثمانية مقابل تعهدها بالدفاع عن أملاك الدولة العثمانية في آسيا ضد التهديدات الروسية، على أن تتخلى بريطانيا عن قبرص في حالة جلاء الروس عن المناطق التي احتلوها في آسيا<sup>(٢)</sup>.

دعت ألمانيا بدورها إلى عقد مؤتمر دولي في (برلين) لمراجعة بنود الصلح السابق وتسوية نتائج الحرب (الروسية التركية)، وفي كواليس المؤتمر نوقشت فكرة تقسيم الإمبراطورية العثمانية على مذبح السلام الأوروبي؛ فعرض على بريطانيا مصر، وعلى فرنسا تونس والشام، وعلى النمسا البوسنة والهرسك، وعلى روسيا البوغازين: البوسفور والدرديل، على أن هذه العروض لم تكن رسمية، ولم تدرج في

(١) المرجع السابق (ص ٣٤٤).

(٢) أحمد شلبي: الموسوعة (٥/ ٥٥٥-٥٥٦).

مقررات المؤتمر الذي كان من المعالم البارزة لتدهور الدولة العثمانية. والتي أرغمت على التنازل عن مساحات كبيرة من أملاكها، كما أنه أوضح اضراح كل من فرنسا وبريطانيا لسياستهما لتقليدية الخاصة بالمحافظة على أملاك الدولة العثمانية<sup>(١)</sup>. ولم يمض وقت طويل حتى احتلت فرنسا تونس عام (١٢٩٩هـ/١٨٨١م) بالإضافة إلى احتلالها السابق (١٢٤٦هـ/١٨٣٠م)، واحتلت بريطانيا مصر عام (١٣٠٠هـ/١٨٨١م) ومن قبل كانت قد احتلت جزيرة بريم عام (١٢١٠هـ/١٧٩٥م)، واحتلت عدن (١٢٥٥هـ/١٨٣٩م)، وعقدت تحالفات مع أمراء مسقط والبحرين والكويت أضافت جديداً للنفوذ البريطاني في الخليج العربي<sup>(٢)</sup>. كان السلطان عبدالحميد شديد الخوف من تدخل الدول الأوروبية، ومن ثم فقد بات حريصاً على ما تبقى لديه من أملاك، وهو يرى أن الحروب الصليبية على الإسلام لم تنته بعد، وبالتالي فإنه سعى بالإسلام إلى توحيد عناصر الدولة بقصد تكوين جبهة للصدوم في وجه الدول الأوروبية، فضلاً عن تكتيل كل مسلمي العالم وبخاصة في الصين والهند وأواسط آسيا والبلاد العربية مع إيران الشيعية حتى تفوت الفرصة على كل من الإنجليز والروس<sup>(٣)</sup>.

وهكذا أصبحت الجامعة الإسلامية سلاحاً أيديولوجياً لمقاومة إمبريالية الغرب والحركات القومية المسيحية، ولقد أصاب السلطان عبدالحميد بعض النجاح في ربط أجزاء الإمبراطورية بعضها ببعض، ورغم كل الاتهامات التي وجهت إلى عهده وشخصه فإن (السلطنة أو الخلافة) كانت تحظى بقدر كبير من الاحترام لدى رعاياه، ورغم كل دعاوى أوروبا فإنها كانت تخشى حركة الجامعة

(١) المرجع السابق (ص ٥٥٩-٥٦٠).

(٢) أحمد شلبي: الموسوعة (٥/٥٦٥).

(٣) محمد حرب: السلطان عبدالحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار. دمشق ١٩٩٠م. (ص ٢١١).

الإسلامية، ولعل توقف العدوان الأوروبي على أملاك الدولة العثمانية بعد احتلال بريطانيا لمصر راجع جزئياً إلى استعمال السلطان للإسلام كسلاح في وجه المعتدين، غير أن هذا الاتجاه لم ينقذ الدولة من تيار القومية العربية المتنامي، كما أنه لم يقض على الأطماع الانفصالية التي راودت بعض الحكام العرب، وخاصة في شبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج<sup>(١)</sup>.

وخلال ثلاثين عاماً من حكم السلطان عبد الحميد استطاع الاستفادة من تناقض السياسة الدولية من أجل المحافظة على ما تبقى من بلاده، وحاول إصلاح الدولة العثمانية، واتجه إلى تقليل دور وزرائه الذين دفعوا الدولة إلى نكبة معاهدة (سان ستيفانو)، وأعلن السلطان عبد الحميد في (فبراير ١٨٧٨م) تعطيل مجلس (المبعوثان) إلى أجل غير مسمى بعد عام من إنشائه، كما اتجه السلطان إلى تولي المسئوليات الرئيسية بمعنى أنه اتجه إلى الحكم الفردي والإشراف على كل صغيرة وكبيرة في الدولة<sup>(٢)</sup>. وبعد احتلال إنجلترا وفرنسا وإيطاليا لأجزاء كثيرة من الدولة العثمانية اتجهت أنظاره صوب ألمانيا، تلك الدولة العظمى الجديدة فقام الألمان بمشروعات عملاقة لخدمة الدولة العثمانية منها مشروعات خطوط السكك الحديدية لربط أجزاء الدولة العثمانية، وأيضاً التعاون بين القيصر الألماني والسلطان العثماني في المشروعات العسكرية والاقتصادية<sup>(٣)</sup>.

### السلطان عبد الحميد الثاني والحركة الصهيونية:

الحركة الصهيونية نسبة إلى (صهيون) وهو اسم ربوة في القدس ثم أصبحت الصهيونية كلمة خاصة تعبر عن اليهود، وهذا هو المعنى اللفظي للكلمة، أما المعنى

(١) المرجع السابق (ص ١١٣).

(٢) المرجع السابق (١٢٧-١٣٠).

(٣) أحمد شلبي: الموسوعة (٥٥٩/٥-٥٦٠).

السياسي فيختلف عن ذلك، فهي حركة سياسية عنصرية أحيث فكرة أرض الميعاد، وإقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين؛ ليجمع ستاتهم؛ متذرعين بادعاءات دينية وتاريخية، وزاد أملمهم في فلسطين في ثمانينيات القرن التاسع عشر، ونادوا بضرورة تهجير اليهود إلى فلسطين وإنقاذهم من الاضطهادات التي يتعرضون لها في المجتمعات التي يعيشون فيها، وطالبوا بإنشاء دولة يهودية في فلسطين<sup>(١)</sup>.

وتزعم الحركة كل من: الصحفي النمساوي (تيودور هرتزل) ورجل الأعمال والمصرفي المشهور (روتشيلد)، وحاول الاثنان مع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني أن يستصدرا فرماتاً يسمح لليهود بالهجرة إلى فلسطين في مقابل سداد ديون الدولة العثمانية، ولكن السلطان عبد الحميد رفض هذا الطلب؛ لأسباب سياسية ودينية<sup>(٢)</sup>.

وبعد لقاء السلطان (عبد الحميد الثاني) وتيودور هرتزل، استطاع معرفة حقيقة تلك الحركة اليهودية عن طريق رجال المخابرات العثمانية وسفرائه في العواصم الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية وروسيا، حيث كلفهم بمتابعة نشاط المنظمات اليهودية، وبالفعل اتضح له حقائق كثيرة كان يفتقر إليها، وبدأت سياسته نحو ايهود تأخذ طريقاً آخر<sup>(٣)</sup>.

كانت سياسة السلطان (عبد الحميد الثاني) تجاه اليهود -تقريباً- مثل أسلافه؛ فعاملهم معاملة طيبة، وكان أول حاكم عثماني يعطيهم المساواة أمام القانون، وبعد اعتلائه العرش أصر على إعطاء رواتب شهرية لخواصم تركيا

(١) عبد الملك خلف التيمي: الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي. عالم المعرفة. عدد (٧١) الكويت ١٩٨٣م. (ص ١٠٩).

(٢) ستورات: تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية. ترجمة فوزي وفاء. إبراهيم منصور. بيروت ١٩٧٤م. (ص ١٥-٤٧).

(٣) المرجع السابق (ص ٤٨-٤٩).

الأكبر، أي: أنه عامله كما يعامل موظفي الدولة، واتخذ تقليدًا بأن يرسل سنويا في عيد الفصح إلى حاخام الأستانة ثمانية آلاف فرنك؛ لتوزع على فقراء اليهود في العاصمة العثمانية، وعندما منعت حكومة كريت المحلية في عام (١٢٩٩هـ/١٨٨١م) مشاركة اليهود في الانتخابات البلدية وبخ السلطان عبد الحميد الثاني حكومة كريت؛ لتعديها على حقوق اليهود<sup>(١)</sup>.

وفي عام (١٣٠٠هـ/١٨٨٢م) نتيجة للحريق الذي شب في الحي اليهودي حسكاني **Haskani**؛ تشردت ستة آلاف عائلة يهودية في الأستانة، فبذل السلطان (عبد الحميد الثاني) ما باستطاعته؛ لتخفيف هذه الكارثة عن اليهود، وفي إطار تلك المعاملة الطيبة أنعم السلطان (عبد الحميد الثاني) بالوسام (المجيدي) عام (١٣١٤هـ/١٨٩٦م) على حاخام الطائفة اليهودية بمصر وتابعها (رابي أهارون بن سيمون)، وفي عام (١٣٢٠هـ/١٩٠٢م) منحه السلطان (عبد الحميد الثاني) الوسام العثماني الثاني<sup>(٢)</sup>.

على أنه مما لا شك فيه أن هؤلاء اليهود الذين عوملوا معاملة حسنة قد تعاونوا مع الصهيونية باعتبارها الحركة المكلفة بإعادة الأراضي المقدسة إلى الشعب اليهودي ضد السنطان (عبد الحميد) وفي خلعه عام (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م)<sup>(٣)</sup>.

ومن المعروف أن اليهود أعلنوا انفصالحهم عن الحركة الصهيونية لإبعاد الشبهات عنهم، وعدم إظهار حقيقة خططهم، واتباعهم مبدأ الغاية تبرر الوسيلة من أجل جمع المال للتحكم في مجريات السياسة الدولية في العالم<sup>(٤)</sup>.

(١) حسان علي حلاق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية (ص ١٣١-١٣٨).

(٢) المرجع السابق (ص ١٨٧-١٨٩).

(٣) المرجع السابق (ص ١٩٠).

(٤) خيرية قاسمية: النشاط الصهيوني في الشرق العربي ومداه ١٩٠٨-١٩١٨م. بيروت ١٩٧٣م. (ص ٢٨٨-٢٨٩).

## السلطان عبد الحميد والأحرار العثمانيون:

رغم التقدم المادي والثقافي الذي شهده عصر السلطان (عبد الحميد) فإن المعارضة انطلقت من مصدرين، هما: الأحرار العثمانيون، والروح القومية لدى المجموعات غير التركية. وقد أدت الإصلاحات التعليمية (لمدحت باشا) إلى إعداد مئات من البيروقراطيين، والأطباء، والضباط، والكتاب الذين كانوا على استعداد للعمل في إطار النظام القائم، ولقد أتاح ذلك التقدم لبعض العثمانيين الاطلاع على الفكر السياسي الليبرالي في أوروبا الغربية.

وأدى إلغاء السلطان عبد الحميد العمل بالدستور في بداية عهده إلى ازدياد المعارضة ضد استبداده بالحكم، واتباعه لسياسة القمع عن طريق جواسيسه الذين نقلوا له كل صغيرة وكبيرة تحدث في أقاليم الدولة. ولن نركز كثيراً على الأسباب السياسية التي أدت إلى ازدياد المعارضة ضد السلطان عبد الحميد؛ لأن الأسباب الاقتصادية كانت المحرك الأقوى لتلك المعارضة. فقد ساءت المحاصيل في الأناضول ولم تكن حصيلة الضرائب تصل بالسرعة الكافية، مما أدى إلى تأجيل صرف الرواتب، ووقف الترفيات مما جعل كثيرين من الضباط والجنود والبيروقراطيين يعبرون عن سخطهم بترك وظائفهم.

يضاف إلى ذلك الأزمات المالية وتراكم الديون منذ حرب القرم وطوال عهد السلطان عبد الحميد. وقد استغلت جمعية تركيا الفتاة سخط الجيش والشعب على حد سواء في كسب المزيد من المعارضين<sup>(١)</sup>.

### السلطان عبد الحميد الثاني والجمعيات السرية:

وفي عام (١٣٠٧هـ/١٨٨٩م) أسس عدد غير قليل من تلاميذ مدارس الطب العسكري بوجه خاص الجمعية السرية التي تحولت -فيما بعد- إلى لجنة

(١) محمد حرب: السلطان عبد الحميد الثاني (ص ٢١٦).

الاتحاد والترقي، وفيما بين عامي (١٩٠٢-١٩٠٦م) أخذت حركة تركيا الفتاة في الانتشار في القاهرة وجنيف والأستانة ذاتهما<sup>(١)</sup>.

وبدأت حركة الاتحاد والترقي في الانتشار بقوة في مدينة (سالونيك) التي لعبت دوراً فعالاً كقاعدة للثوار الاتحاديين والمحافل الماسونية<sup>(٢)</sup> وكعقل مدير لكافة الأحداث التي وقعت في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وظهرت الماسونية بشكل واضح في مدينة سالونيك منذ وصول يهود الدوغة إلى المدينة، حيث سهلت لهم أوضاع المدينة السياسية والاجتماعية، ولا سيما الامتيازات الأجنبية فرصة افتتاح الكثير من المحافل الماسونية التي تتبع المحفل الأعظم البريطاني، أو الشرق الأعظم الفرنسي أو الإيطالي، ثم تطور الأمر بالماسون إلى أن قام اليهودي الماسوني (عمانويل قارصوه) بافتتاح محفل ماسوني في سالونيك يرتبط بالماسونية الإيطالية، وقد كان لهذا المحفل دور في الثورة التي قامت بها (جماعة الاتحاد والترقي) ضد السلطان (عبد الحميد)، كما أنشأ (حليم باشا) مجعما وطنيا ماسونيا، وتعددت محافله والمنتسبون إليه حتى أصبح عدد الماسون الأتراك عام (١٣٠٠هـ/١٨٨٢م) حوالي عشرة آلاف تركي معظمهم من الوزراء والنواب وقادة الجيش، وكان منهم أعضاء جماعة تركيا الفتاة<sup>(٣)</sup>.

(١) كمال قارباط: الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر (ص ٢٩٤-٢٩٥).

(٢) الماسونية مشتقة من كلمة إنجليزية تعني (البناء Mason). وقد أصبحت هذه الكلمة رمزا وشعارا لجماعة من الحرفيين البنائين الذين قاموا ببناء القلاع والكاتدرائيات والذين أوجدوا هذه الجمعية لتكون بمثابة النقابة التي تحميهم وترعى شؤونهم. ولقد تطورت هذه الجمعية حتى أصبحت أكبر جمعية سرية عالمية بعد أن سيطر عليها اليهود والصهيونية وسخروها لخدمة أهدافهم. وظهر أول كتاب للماسونية بعنوان (القوانين) لجيمس أندرس عام (١٧٧٣م) وتحمل شعارات (الحرية والإخاء والمساواة). ولكنها في واقع الأمر تسعى إلى كل ما يناقض ذلك. فتستعبد الناس وتنتشر العداة والتفريق بينهم ويربط الماسون الحرية بحرية اليهود وهو معنى الإخاء العنصري اليهودي. محمد صبيح: المعتدون اليهود (ص ٢٢٣).

(٣) محمد أنيس: مرجع سابق (ص ١٧٧-١٧٩).

وكان السلطان (عبد الحميد) يخشى سطوة الأحزاب والجمعيات السرية ولاسيما (الماسونية)، فصمم على إخضاعها للرقابة، ولكن حماية الدول الأوروبية - وخاصة إنجلترا - كانت تخفف من قيود تلك الرقابة، وقد تمكن السلطان (عبد الحميد الثاني) من إغلاق المحافل الماسونية جميعها في تركيا عام (١٣١٢هـ/١٨٩٤م) ما عدا محافل سالونيك؛ للرعاية الدولية التي تتحلى بها. وفي عام (١٣١٣هـ/١٨٩٥م) أصدر السلطان (عبد الحميد) أوامره بزيادة أعضاء مجلس إدارة ولاية سالونيك لزيادة الرقابة على محافلها الماسونية<sup>(١)</sup>.

أما عن دور المحافل الماسونية في التخطيط لثورة الاتحاديين فيتلخص في أن اليهود استغلوا المحافل الماسونية للاستفادة من الحركة الثورية السياسية التي سنها رجال تركيا الفتاة، والأحرار العثمانيون، ونادى بها المنفيون السياسيون في فرنسا وإنجلترا وألمانيا وأخيرا جمعية الاتحاد والترقي وسخروها جسراً لجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود وهو ما فشلوا في تحقيقه عن طريق السلطان (عبد الحميد).

وعندما بدأ الأحرار العثمانيون يشكلون جمعياتهم وخلاياهم الثورية ضد حكم السلطان عبد الحميد تلقفتهم المحافل الماسونية اليهودية، وفتحت لهم أبوابها، واستقطبت الشخصيات البارزة فيهم مثل: طلعت باشا وأنور باشا وجمال باشا، فانتسبوا إليها وترقوا في درجاتها، وأعطوا رواتب ومكافآت شهرية، حتى أصبح طلعت هو الرأس المدبر في سالونيك.

كما قام (إبراهيم تيمو) أو (أدهم) - وهو يهودي ماسوني ألباني - بالسعي في تشكيل الجمعية السرية بين صفوف طلاب المدرسة العسكرية الطبية في الأستانة، والتي كانت النواة الأولى لجمعية الاتحاد والترقي، وذلك عام (١٣٠٧هـ/١٨٨٩م).

(١) محمد صبيح: المعتدون اليهود (ص ٢١٦).

بعد أن تشكلت جماعة (الاتحاد والترقي) واتخذت شعارها: (الإخاء والحرية والمساواة) اتضح أنه نفس الشعار المعروف لدى الماسونية ومحافلها، وهو ما أكدته الوثائق البريطانية.

ويتضح دور اليهود أيضاً -بشكل بارز- من خلال الدعم المادي والمعنوي الذي قدمه اليهود والماسون لجماعة الاتحاد والترقي، فقد قدموا لهم الأموال الكثيرة للصرف على احتياجات الثورة والتخطيط لها، وفتحوا أبواب المحافل والقاعات للاجتماعات السرية.

يضاف إلى ذلك دور المفكرين اليهود داخل وخارج الدولة العثمانية، والذين نادوا بالفكرة القومية الطورانية، وعلى رأس هؤلاء كل من (لاملي دافيدز، ليون ركاھون فامبري)، وهؤلاء أسهموا بالفكر والتأييد لجمعية الاتحاد والترقي.

إن جماعة الاتحاد والترقي ليست تركية ولا إسلامية؛ فمنذ نشأتها لم يظهر في المنتسبين إليها تركي وطني مسلم مخلص، فأثور باشا ابن رجل بولندي، وجاويد باشا من طائفة يهود الدوثة، واسمه (دافيد)، و(قارصوه) من اليهود الأسبان المهاجرين إلى سالونيك... وغيرهم، كما أن جماعة الاتحاد والترقي تضم يهودا لا يُشك في يهوديتهم مثل: نسيم روسوا، ونسيم مازلياخ، وكان نفوذ اليهود في الجمعية عظيماً وواضحاً<sup>(١)</sup>.

ويتضح لنا مما سبق أن الماسونية واليهودية قد وجدوا فرصتهم في الأحرار العثمانيين الناقمين على السلطة العثمانية، والذين تشكلت منهم جماعة الاتحاد والترقي؛ فتسللوا بين صفوفهم وضموهم إلى محافلهم، حتى أصبح الاتحاديون العثمانيون ملعّمين بالعناصر اليهودية الماسونية والصهيونية، والذين كان لدعمهم المادي والمعنوي أكبر الأثر فيما كان الاتحاديون مقببين عليه؛ فقد وجدوا في تلك

(١) أنست رامزور: تركيا وثورة ١٩٠٨م. ترجمة صالح أحمد العلي. بيروت ١٩٦٠م. (ص ٨٧-٩٩).

المخالف المكان الآمن الذي يستطيعون فيه ومنه الاجتماع والتخطيط والتحرك بعيداً عن أعين السلطان (عبد الحميد الثاني)؛ مما جعل الطريق نحو الثورة قد أضحى واضحاً لبيد الاتحاديون في وضع الخطط والبرامج موضع التنفيذ لخلع السلطان (عبد الحميد) وتحقيق برامجهم الإصلاحية في الدولة العثمانية<sup>(١)</sup>.

### سقوط عبد الحميد الثاني:

بدأت ثورة الاتحاد والترقي في (١٧-٢٣ يوليو ١٩٠٨/١٣٢٦هـ)، وكانت بدايتها من سالونيك، واشترك فيها الجيشان الثاني ولثالث (٥٠ ألف جندي)، كما تدفق الأهالي على سالونيك هاتفين بالحرية، ومعلنين تضامنهم مع جمعية الاتحاد والترقي، وأرسلوا برقية إلى السلطان عبد الحميد يُطالبونه بإعلان الدستور في ظرف (٢٤ ساعة) وإلا تحرك الجيشان لاحتلال العاصمة<sup>(٢)</sup>.

وعلى هذا النحو وافق السلطان (عبد الحميد) على مفض على إعلان الدستور، ونجح الاتحاديون في الانتخابات التي أجروها بقوة السلاح وتم لهم ما أرادوا وافتتح مجلس "المبعوثان" في (١٧ ديسمبر ١٩٠٨/١٣٢٦هـ)، وشرع الاتحاديون في تنفيذ مبادئهم وبرامجهم الإصلاحية، وحكموا البلاد حكماً دكتاتورياً، ووصل بهم الأمر إلى حد قتل معارضيههم وتشريدهم خارج البلاد، كما خشيت الدول الأوروبية من نجاح الاتحاديين في تنفيذ الإصلاحات في موعدها، وأن تتمكن تركيا من استعادة قوتها بفضل المساعدات التي قدمتها ألمانيا لها، فبادرت هذه الدول إلى عرقلة جهود حكومة الثورة. ففي أكتوبر من نفس العام ضمت إليها ممتلكات الدولة العثمانية في البلقان، وضمت بلغاريا إلى أراضيها الجزء الشرقي من الروملي<sup>(٣)</sup>.

(١) المرجع السابق (ص ٩٩-١٠١).

(٢) المرجع السابق (ص ١٠٣-١١١).

(٣) المرجع السابق (ص ١١٢-١١٤).

كما قامت عصابات بلغارية وأرمينية بنشاط ثوري ونهبوا بيوت المسلمين وبالتالي تحركت جموع المواطنين وقتلوا من جماعات الأرض والبلغاريين حوالي سبعة آلاف، وقتل من العثمانيين ما يقرب من ألفين<sup>(١)</sup>.

وكان من الطبيعي أن تُفقد هذه الضربات المتلاحقة الحكومة الثورية هيبتها، وتمز شخصيتها ومكانتها، وتشجع المعارضة ضدها، وقد نجح السلطان (عبد الحميد) في تعبئة الرأي العام ضد حكم الاتحاد والترقي، وقامت ثورة ضدهم؛ فهرب زعماء الاتحاد إلى قاعدتهم القديمة سالونيك، وقرر قائد الجيش في سالونيك التحرك جنوب العاصمة لإخماد الثورة ضد الاتحاديين، ونجحوا في ذلك، ودخل الجيش الأستانة، واعتقل زعماء الانقلاب، واجتمع مجلس "المبعوثان" وأعلن الموافقة على خلع السلطان (عبد الحميد) بمقتضى فتوى من شيخ الإسلام، وجرى تعيين السلطان محمد رشاد (محمد الخامس) الذي أعلن أنه سيستخدم الإرادة التي اختارها الأمة، ولم يكن السلطان الجديد يعرف الكثير عن العالم الخارجي نتيجة لعزله في القفص قبل توليه الحكم؛ ولهذا فإنه ما لبث أن أصبح ألعوبة في يد لجنة الاتحاد والترقي التي عينته؛ خاصة وأن الاتحاديين بادروا بتطهير القصر وتعيين رجالهم في مناصبه الرئيسية، ومنذ ذلك الوقت وحتى انهيار الإمبراطورية العثمانية أصبح الاتحاديون الذين أعلنوا حزبهم السياسي في (إبريل ١٣٢٧/١٩٠٩م) هم أصحاب الكلمة العليا في الدولة العثمانية<sup>(٢)</sup>.

وفي هذه الأحداث برز دور اليهود في خلع السلطان (عبد الحميد) عندما مارس الاتحاديون الضغط على شيخ الإسلام (محمد ضياء الدين) بإصدار فتوى الخلع، ثم أوفد يوم (الثلاثاء ٢٤ إبريل ١٣٢٧/١٩٠٩م) وفد مكون من

(١) المرجع السابق (ص ١٣٨-١٤٢).

(٢) أمين شاکر وآخرون: المرجع السابق (ص ٣١٢).

(عارف حكمت باشا) رئيسا، وعضوية كل من (أسعد طوتباني باشا)، و(غالب باشا)، و(آرام أفندي الأرمني)، و(قارصوه) وهو زعيم اليهود الماسون<sup>(١)</sup>.

وبعد عزل السلطان عبد الحميد حرض الاتحاديون على سجنه، وإمعانا في إذلاله نُفي إلى سالونيك -المركز اليهودي الماسوني الاتحادي الدولي- حيث نقل إلى هناك وكان يرافقه بعض حريمه، وحاشية صغيرة في (٢٧ إبريل ١٣٢٧/١٩٠٩م) وسجن في فيلا ألاتيني **Alatini** وهي تخص أحد أصحاب البنوك اليهودية الأغنياء في جمعية الاتحاد والترقي، وبعد العزل هلت الصحف اليهودية في سالونيك لتخلص من (مضطهد إسرائيل)<sup>(٢)</sup>.

### عهد الاتحاديين ونهاية الخلافة العثمانية:

لم يكن الأتراك متحمدي الهدف بعد عودة الدستور، فقد آمن بعضهم بحركة الجامعة الإسلامية، واعتنق آخرون فكرة الجامعة الطورانية، بينما بقي فريق ثالث عنى إخلاصهم لأتجاه العثمينة.

أما الاتحاديون فقد اتجهوا في البداية إلى العثمينة التي كانت تستهدف إقامة إمبراطورية عثمانية متطورة، تستند إلى مؤسسات ليبرالية بإمكانها ضمان ولاء كل الفئات الدينية والعرقية الخاصة للدولة، وإن كان انتشار الروح القومية لدى رعايا الدولة قد قضى على آمال الاتحاديين.

اشتدت إجراءات القمع التي لحا إليها الاتحاديون على الرعايا المسيحيين، بل إنها مست العرب والألبانيين في نفس الوقت، وسرعان ما دب الانقسام في صفوف الاتحاديين أنفسهم، ودخلت الدولة عهدا دكتاتوريا إرهابيا لم ينته إلا بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى<sup>(٣)</sup>.

(١) خيرية قاسمية: النشاط الصهيوني في الشرق العربي (ص ١٨-٢١).

(٢) أنست رامزور: المرجع السابق (٢٢٧-٢٣١).

(٣) كمال قارباط: الدولة لعثمانية في القرن التاسع عشر (ص ٢٩٦-٢٩٧).

وبعد أن خسرت الدولة العثمانية أراضيها غير الإسلامية وازدادت فيها أطماع دول البلقان وروسيا القيصرية؛ انضم الرأي العام التركي إلى عدنان (مندريس) في الدعوة إلى التخلي عن العثمينة واعتناق القومية التركية، واتجهت لجنة الاتحاد والترقي -التي طالما ساندت العثمينة- إلى إطراح العمل بما وصهر المحليات في بوتقة الإمبراطورية، واتجهت بشدة صوب القومية التركية وفرض سيادة الأتراك على غيرهم من رعايا الدولة، وجرت محاولات التريك واشتدت سواعد الاتجاه الطوراني الذي كان يهدف إلى تجميع أترك آسيا في دولة واحدة<sup>(١)</sup>.

أدت المشاكل في البلقان إلى تفجير الحرب العالمية الأولى، وما لبث أن ظهرت التكتلات التي احتكمت إلى السلاح؛ فدخلت بريطانيا الحرب إلى جانب روسيا وفرنسا (دول الوفاق) وأخيرا انضمت الدولة العثمانية إلى دولتي الوسط (ألمانيا والنمسا) خاصة وأن ألمانيا قد اتبعت سياسة ناجحة تجاه الدولة العثمانية طيلة ربع قرن من الزمان<sup>(٢)</sup>.

وأثناء الحرب أبرمت الاتفاقيات السرية بين الحلفاء والتي كان من أبرزها اتفاقية (سايكس بيكو في مايو ١٩١٦/١٣٣٥م) التي عقدت بين بريطانيا وفرنسا، ولقد أدّى دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب إلى ترجيح كفة الحلفاء برغم خروج روسيا بعد نشوب الثورة البلشفية في مارس (١٩١٧/١٣٣٦م)<sup>(٣)</sup>.

وفي أعقاب الحرب عقدت الدولة العثمانية معاهدة صلح في أغسطس (١٩٢٠م) في (سيفر) قرب باريس، وبموجبها انتهى وجود الدولة العثمانية من الناحية الواقعية باعتبارها دولة أوروبية؛ إذ أنها لم تستبق سوى

(١) عبدالعزيز محمد الشناوي: المرجع السابق (ص٣٣٦-٣٤٠).

(٢) كمال قارباط: المرجع السابق (٣٠٤-٣٠٦).

(٣) المرجع السابق (ص٣٠٧).

مساحة من الأرض أقل مما كانت في أيدي الدولة البيزنطية في أواخر عهدها، أما شروط المعاهدة الأخرى فقد قلصت سيادة ما تبقى من الدولة العثمانية، كما تنازلت الدولة العثمانية عن أملاكها ولم يبق للأتراك سوى الأناضول ذي الطابع التركي المميز، بالإضافة إلى قطاع ضيق في أوروبا يحيط بإستابول، وأطلق على هذه المساحة الآسيوية الأوروبية اسم تركيا وخاصة بعد قيام الجمهورية<sup>(١)</sup>.

### مصطفى أتاتورك:

ولد أتاتورك في شتاء عام (١٨٨١م) في مدينة سالونيك ونسبته أمه (زبيدة) إلى (علي رضا أفندي)، موظف في إدارة الجمارك العثمانية، والذي تزوجته فيما بعد. وهناك شكوك حول نسب (مصطفى كمال أتاتورك) وانتمائه إلى يهود الدونمة، والتحق مصطفى كمال بمدرسة دينية تابعة لأحد المساجد - بناء على رغبة والدته - ولكنه فشل في مواصلة تعليمه الديني، ثم التحق بإحدى المدارس التي تقوم بتدريس العلوم الدنيوية فواصل دراسته في هذا النوع من التعليم وحقق نجاحاً فيه، والتحق بعد ذلك بإحدى المدارس العسكرية والتي تخرج منها ضابطاً في الجيش العثماني<sup>(٢)</sup>.

### خطوات أتاتورك لإلغاء الخلافة:

لم يكن أتاتورك أكثر من صنم ركبته الإنجليز للقضاء على كل أحلام الأتراك العظيمة، وللقضاء على كل الوشائج التي تربط تركيا بالعالم الإسلامي، وإلغاء الخلافة... وهلمّ جرّاً.

ومن الحقائق المتواترة والواردة في كل الدراسات، صلة أتاتورك بالماسونية، وصلته في مرحلة كبيرة من عمله السياسي والعسكري بجماعة لاتحاد والترقي التي

(١) المرجع السابق (ص ٣٠٧).

(٢) أمين شاعر وآخرون: مرجع السابق (ص ٢٤٩-٢٥٠).

كانت نبتة ماسونية بحتة، بلغ الأمر بما أنها كانت تقيم اجتماعاتها في بيوت اليهود، وتعتمد في ميزانيتها عليهم<sup>(١)</sup>.

لقد حاول أتاتورك الاقتراب بكل قوته من السلطان حميد الدين الذي خلف أخاه السلطان عبد الحميد الثاني، وقد عرض أتاتورك كل خدماته على السلطان الجديد. ويذهب أكثر المؤرخين المنصفين إلى أن السلطان وثق به وأعطاه بعض الصلاحيات التي كان يطمع فيها في مواجهة منافسة الكبير (أنور باشا) وكان مما قاله أتاتورك للسلطان: "إن كلمة واحدة من جلالتك كافية بتقوية الحماسة الوطنية، فاجعلني وزيرا للحرية في حكومة قوية، وأنا كفيل بإنفاذ تركيا، لكن هذا البرلمان يجب أن يحل فإن نصف النواب خونة، وأعضاء في جمعية الاتحاد والترقي وأصدقاء (لأنور)"<sup>(٢)</sup>.

وهكذا - كما اعترف أتاتورك بلسانه هو - فإنه باع نفسه للسلطان، وإن كان السلطان قد رفض هذه الصفقة، كما أنه - أي أتاتورك - تنكر للمجمعية التي ينتمي إليها مادام في ذلك مكسب له، ووصم أعضاء البرلمان بالخيانة.

وعندما اشتد الصراع الألماني الإنجليزي أثناء الحرب العالمية الأولى حول سوريا، ووصل القائد الألماني الصديق للدولة العثمانية (فالكاهاين) ووضع خطة ضرب إنجلترا في بغداد وفلسطين وشبه جزيرة العرب، اعترض على هذه الخطة كمال أتاتورك - وهو الذي كان مكلفا بالدفاع عن سوريا - وقام من تلقاء نفسه بعمل جنوني هو عزل نفسه بنفسه، بما يجعله يستحق في قوانين الحرب: (الإعدام)، وهو يتباهى بذلك في مذكراته ويقول: "متحملا جميع العواقب، ومخالفا لكل الأصول والقواعد، وبشكل لا يخلو من العصيان، فقد أعفيت نفسي

(١) عبد الحليم عويس: العقل المسلم. مكتبة الفلاح. الكويت. طبعة أولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م. (ص ٨١).

(٢) نقلا عن عبد الحليم عويس: العقل المسلم (ص ٨٥).

بنفسى من قيادة الجيش، وأُخفيت وظيفتي"<sup>(١)</sup>.

وقد كان بمقدور أنور باشا - بعد هذه الخيانة العسكرية الواضحة - أن ينال أتاتورك بالأذى، ولكنه لم يفعل، مما يدل على أنهما من معدن واحد وإن اختلفت أطماعهما. وعندما تمكنت الجيوش الإنجليزية من زحزحة الجيوش التركية إلى الشمال - وكانت لا تزال بعيدة عن الانتصار - اتفق مصطفى كمال أتاتورك سرًا مع القائد الإنجليزي (اليني) على القيام من جانب أتاتورك بانسحاب فحائي يحرم الجيش التركي من ذرعي الاستناد ويؤدي بذلك إلى وقوع الجيش في يد الأعداء، وهذه حادثة ثابتة!

وإلى الآن لم تتضح حقيقة العلاقة التي ربطت بين أتاتورك وكيرزون الدبلوماسي الإنجليزي، لكننا نعلم أن كيرزون كان يتبادل مع أتاتورك رسائل بالشفرة، على أساسها اقترح كيرزون فتح جبهة قتال ضد مسلمي قفقاس، وذلك بعد أن فتح الطريق أمام الشيوعيين، بينما كان أتاتورك يلعب على الحبلين معا: حبل البلاشفة، وحبل الإنجليز<sup>(٢)</sup>.

ولم تكد الحرب العالمية الأولى توشك على الانتهاء حتى كانت الدول الأوروبية قد أتمت انسرحية الهزلية، لاقتسام أملاك الخلافة الإسلامية الأخيرة، وإبراز رجل ينفذ مخططاتهم وأطماعهم بخدافيرها<sup>(٣)</sup>.

ففي يوم (٢٧ أكتوبر سنة ١٩٢٢/١٣٤١هـ) دعت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا إلى عقد مؤتمر في (لوزان) لتقسيم أملاك الرجل المريض (الدولة العثمانية) في ظل زوال حكومة إسطنبول الإسلامية، وتمثيل حكومة أنقرة الكمالية.

(١) عبدالحليم عويس: العقل المسلم (ص ٨٥).

(٢) المرجع السابق (ص ٨٧).

(٣) عبدالحليم عويس: دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية (ص ١٩٥).

وقد افتتح المؤتمر في (٢٠ نوفمبر سنة ١٣٤١/١٩٢٢م)، واستمر منعقدا حتى (٤ فبراير ١٣٤٢/١٩٢٣م) حين بء بالفشل، وظل الحوار مفقودا في العلن، وإن كان يجري من خلف الكواليس، إلى أن تقدمت حكومة أتاتورك بمقترحات ظاهرية، وإن كان الأمر قد عولج باطنا فأعيد فتح المؤتمر في (٢٣ إبريل) من نفس العام، حيث لم يستغرق الأمر طويلا، فاتفق المؤتمر على توقيع معاهدة لوزان في (٢٤ يوليو سنة ١٣٤٢/١٩٢٣م)، وقد تضمنت المعاهدة سبع عشرة وثيقة، كما تضمنت بعض الرسائل المتبادلة، وبعض الملاحق. وكانت معظم المواد (الظاهرة) تنص على تجريد تركيا من كل أملاكها خارج حدودها الحالية بالمعنى القومي الإقليمي وتنص على بعض الالتزامات المالية<sup>(١)</sup>.

وقد اعتبرت جماعة أتاتورك هذه المعاهدة انتصارا، مع أنها كانت في الحقيقة واحدة من أسوأ المعاهدات الفاصلة في التاريخ.

ويكفي أن تكون ثمرة هذه المعاهدة -بالنسبة لتركيا- هي: ترك إقليم اليونان وترك الجزر لليونانيين، والتنازل عن كل الحقوق حول مصر وقبرص، وكف تركيا عن طلب التعويضات من اليونانيين، وعدم تخصيص المضائق، والسماح ببقاء السكان اليونانيين في إستنبول واحتفاظهم بثرواتهم.

ومع ذلك كله فهذه النتائج هي النتائج المعلنة والظاهرة، أما النتائج الأكثر خطرا فقد تمثلت في الاتفاقية السرية التي كانت سببا في نجاح المؤتمر الذي عرف بمعاهدة كيرزون، وهي تتضمن بنودا أربعة قبلها أتاتورك، وكان أتاتورك مستعدا لأكثر منها، وهي:

١- إلغاء الخلافة الإسلامية نهائيا من تركيا.

٢- أن تقطع تركيا الصلة الرسمية بالإسلام.

(١) عبدالحليم عويس: العقل المسلم (ص ٨٩-٩٠).

٣- أن تضمن تركيا شل حركة جميع العناصر الإسلامية فيها.

٤- أن يغير الدستور العثماني الإسلامي إلى دستور مدني<sup>(١)</sup>.

وبعد الاتفاق على البنود السرية والعلنية في معاهدة (لوزان) انسحبت قوات الحلفاء من تركيا، وبعد انتهاء احتلال إستنبول دخلتها القوات التركية في أكتوبر (١٣٤٢هـ/١٩٢٣م)، وبعدها صارت (أنقرة) هي العاصمة الرسمية للدولة التركية بدلا من إستنبول التي تحمل ذكريات الخلافة والسلطنة. وفي أول مارس (١٣٤٣هـ/١٩٢٤م) قرر أتاتورك خلع الخليفة (عبدالمجيد ١٣٤١-١٣٤٣هـ/١٩٢٢-١٩٢٤م)، وإلغاء الخلافة العثمانية، ونفي أفراد آل عثمان من الأراضي التركية بعد أن قضى أتاتورك على أعدائه ومناوئيه من أمثال علي شكري زعيم المعارضة ضد إجراءات أتاتورك الاستبدادية، وأعدم البطل ضياء الدين خورشيد، ثم كاظم قره بكر، ورفعت باشا وغيرهم من الساسة، وعشرات من شيوخ الطرق الصوفية، وعشرات العنماء، وعشرات من العسكريين، ومئات من البسطاء، قضى عليهم كلهم أتاتورك الذي لم يتحمل أية كلمة نقد ضد إجراءاته المدمرة<sup>(٢)</sup>.

وفرض أتاتورك نظام الحزب الواحد ومضى قدما في فرض الطابع العلماني على الدولة، في الوقت الذي أضعف فيه النظام الإسلامي، وبذلك كانت تركيا هي الدولة الوحيدة المهزومة في الحرب العالمية الأولى التي حلت من مصير الاحتلال المباشر، لكنها وقعت تحت قبضة الاتفاقيات السرية ومعاهدات الصبح التي فرضها المنتصرون<sup>(٣)</sup>، وضحت بدينها وقيادتها للعالم، وهكذا زالت دولة الخلافة العثمانية أو الإسلامية التي دامت أكثر من أربعة قرون، وبزوالها لم يعد للمسلمين خلافة، فانقسمت بلادهم، وظهرت النزعات القومية، وتصارع بعضهم مع بعض حتى وهن أمرهم.

(١) عبدالحليم عويس: العقل المسلم (ص ٩٠).

(٢) عبدالحليم عويس: العقل المسلم (ص ٨٣).

(٣) أحمد شلبي: الموسوعة (٥٨١/٥-٥٨٣).

## القضية الفلسطينية

الجذور التاريخية للأطماع اليهودية في فلسطين:

كانت الدولة العثمانية بالنسبة لليهود في العالم، الملاذ الآمن الذي احتموا به من الاضطهاد والعذاب الذي لاقوه في أرجاء القارة الأوروبية على أيدي بني جلدتهم من الأوروبيين الذين لم يراعوا فيهم إلا ولا ذمة.

ولم يحدث صدام بين غالبية السلاطين العثمانيين واليهود، إلا عندما كشف اليهود عن أطماعهم في (فلسطين وسيناء) وبالأخص مدينة (الطور)، حيث كان اليهود يرغبون في الهجرة إلى (سيناء) بوصفها أرض الميعاد كما تزعم التوراة، ولم تنكشف هذه الأطماع، إلا بعد أن تقدم رهبان أديرة (سانت كاترين) بشكاوي بسبب مضايقات اليهود المهاجرين إليها، فقد أصدر السلطان (سليم الأول) فرمانا عام (١٥١٧/١٩٢٣م) يقضي بمنع اليهود من الهجرة إلى سيناء، وسار السلطان (سليمان القانوني) على نفس الطريق الذي كان عليه والده السلطان (سليم) فأصدر فرمانا اتخذ فيه ما جاء في فرمان السابق<sup>(١)</sup>. مما يدل على أن الخطر اليهودي كان لا يزال ماثلا على (سيناء) وأرض (فلسطين) ولم يجرؤ اليهود على تنفيذ ما كانوا يبيتون طوال حكم السلطان سليمان القانوني على مدى ستة وأربعين عاما (٩٢٧-١٥٢٠/١٥٦٦م).

وجاء بعد سليمان القانوني السلطان (سليم الثاني) ٩٧٤-١٥٨٢/١٥٦٦-١٥٧٤م) الذي كان سكيوا ومعريدا وفاسدا، ومنذ حكمه بدأت التذمر الأولى لضعف الدولة العثمانية، وخلفه سلاطين على شاكلته، وكان أولهم (مراد الثالث) ٩٨٢-١٠٠٥/١٥٧٤-١٥٩٦م)، وتنفس اليهود الصعداء وأدركوا أن الفرصة قد سنحت لهم لتحقيق حلم راودهم طويلا، فنزحوا في هجرات متقطعة وعلى

(١) مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين (ج ١٠). دار الطليعة. الطبعة الثانية ١٩٧٣م. (ص ٢٢-٢٥).

فترات متقاربة إلى سيناء وفلسطين لاستيطانها، وكانت خططهم تقوم في المرحلة الأولى على تركيز إقامتهم في مدينة (الطور) في سيناء على وجه الخصوص بغرض التمهيد التاريخي لتحقيق الأهداف اليهودية التوراتية، كما نرحوا تدريجياً إلى مدينة (القدس) أو أورشليم، والتي استطاعوا أن يقيموا بها معبداً على جبل صهيون، فكان ذلك بمثابة موضع قدم لهم في المدينة المقدسة<sup>(١)</sup>.

### مشروع الوطن اليهودي في فلسطين:

ظهرت أول دعوة علنية لإنشاء وطن لليهود على لسان يهودي إنجليزي يدعى هنري فنش **Henry Finch** في كتاب نشره في إنجلترا في القرن السابع عشر الميلادي متأثراً بمبادئ الحرية التي انتشرت في عصره ومبادئ الثورة الفرنسية، فتحرر اليهود في غرب أوروبا، وساعد هذا على ظهور بعض الشخصيات التي دافعت عن الجماعات اليهودية وعن تحسين أحوالهم في أوروبا<sup>(٢)</sup>، ومع نشأة القوميات الحديثة في أوروبا في القرن التاسع عشر، نشط بعض اليهود في الترويج بأن اليهودية دين وقومية، ويعتقد البعض أن حملة نابليون بونابرت على مصر في عام (١٢١٣هـ/١٧٩٨م)، هي بداية الدعوة إلى قيام الوطن اليهودي في (فلسطين)، ويستندون في ذلك للرواية القائلة بأن نابليون أصدر مرسوماً يدعو فيه يهود آسيا وإفريقيا إلى دخول (أورشليم) وإعادة بناء الهيكل<sup>(٣)</sup>.

### تيودور هرتزل ومؤتمر بال:

وفي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي بدأت تظهر الحركة الصهيونية في العالم بزعامة يهودي نمساوي كان يشتغل في مجال الصحافة ويُدعى (تيودور

(١) حسان علي حلاق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٧٠-١٩٠٩م بيروت ١٩٧٨م ص ٢٤-٢٧.

(٢) المرجع السابق (ص ٢٨).

(٣) مصطفى الدباغ: المرجع السابق (ص ٣٦-٣٧).

هرتزل)، وقد كرس هرتزل حياته لخدمة الصهيونية، والدعوة لإقامة دولة يهودية. وقد ألف هرتزل كتابا عن الدولة اليهودية تضمن أفكاره النظرية وخطته لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وعقد أول مؤتمر صهيوني بزعامته في مدينة (بال) بسويسرا في (٢٥ أغسطس ١٩١٥/١٨٩٧م)، وضم المؤتمر مختلف الهيئات والطوائف اليهودية في العالم<sup>(١)</sup>، ولا شك أن هذا المؤتمر كان بمثابة نقطة تحول بارزة في تاريخ اليهود في العصر الحديث؛ حيث تحددت بوضوح أهداف الحركة الصهيونية في إنشاء وطن قومي يضم شتات اليهود في العالم؛ ليقموا في فلسطين. كما حدد المؤتمر خطة تنفيذية لتحقيق تلك الأطماع السابقة، وذلك بناء على عدة دعائم هامة أبرزها:

- ١- العمل على استعمار فلسطين بواسطة العمال الزراعيين والصناعيين اليهود وفق أسس مناسبة.
- ٢- تنظيم اليهودية العالمية، وربطها بواسطة منظمات محلية ودولية تتلائم مع القوانين المتبعة في كل بلد.
- ٣- تقوية الشعور والوعي القومي اليهودي وتغذيته.
- ٤- اتخاذ الخطوات العملية التمهيدية للحصول على الموافقات الحكومية الضرورية لتحقيق غايات الصهيونية.
- ٥- جعل اللغة العبرية لغة رسمية للتخاطب بين اليهود في جميع ربوع العالم<sup>(٢)</sup>.

موقف السلطان عبد الحميد من المشروع اليهودي في فلسطين:

وفي هذا الإطار سعى هرتزل سعيا حثيثا للحصول على موافقة بريطانيا

(١) جعفر الخليلي: الملخص لكتاب العرب واليهود في التاريخ. الطبعة الثانية. بغداد ١٩٧٩م. (ص ١٠٨).

عبد الملك خلف التميمي: الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي (ص ١٠٧).

(٢) حسان علي الحلاق: المرجع السابق (ص ١٥٥-١٥٦). عبد الحليم عويس: دراسة لسقوط ثلاثين دولة

إسلامية. دار الوفاء ط ٤. المنصورة ٢٠٠٣م. (ص ١٩٢).

والدول الأوروبية الأخرى -فضلا عن الدولة العثمانية صاحبة السيادة على فلسطين- فقام هرتزل بزيارة للعاصمة العثمانية (إستانبول)، واستطاع في (١٧ يونيو عام ١٩٠١/٥) مقابلة السلطان (عبد الحميد)، بعد أن بذل المال والرشاوى للموظفين العثمانيين، وطلب من السلطان أن يصدر فرمانا بالسماح لليهود الأجانب بالهجرة إلى فلسطين والتوطن فيها، ومنحهم الحكم الذاتي، وأن يلتزم اليهود بالقوانين والتشريعات العثمانية، وفي المقابل يدفع (تيودور هرتزل) للسلطان مبلغ (مليون جنيه)، وذكرت بعض المصادر أنه ثلاثة ملايين جنيه، بالإضافة إلى جزية سنوية، ويضاف إلى ذلك المبلغ مبلغ آخر قدره (١٨ مليون جنيه)، يمكن استخدامه في تحرير الدولة العثمانية من الحماية الأوروبية وشراء سندات ديونها<sup>(١)</sup>.

وكان السلطان (عبد الحميد) أدهى من أن يستجيب لهرتزل، وكان من خلال مقابلاته معه مستمعا أكثر منه متكلمًا، ووجد أن إلحاح (هرتزل) قد زاد في طلب هذا فرمان، ولكن السلطان (عبد الحميد) رفض هذا الطلب لأسباب سياسية ودينية، كما رفض أيضًا طلب (تيودور هرتزل) لإنشاء جامعة عبرية في القدس لخدمة الدولة العثمانية<sup>(٢)</sup>.

وعن الأسباب السياسية، فهي تتعلق بفشل تجربة الحكم الذاتي في ولايات كثيرة، وعلى رأسها البلقان، وعدم رغبة السلطان (عبد الحميد الثاني) في زرع أقلية جديدة تضاف إلى باقي الأقليات، حتى لا تثير له مشاكل جديدة هو في غنى عنها. أما الأسباب الدينية ففلسطين بمقدساتها عزيزة على قلب كل مسلم، ومدينة القدس بما سكان عرب مسلمون يرفضون بالطبع أن تعيش بينهم حالات يهودية<sup>(٣)</sup>.

(١) حسان على الحلاق: المرجع السابق (ص ١٥٦-١٥٨).

(٢) محمد صبيح: المعتدون اليهود (ص ٣٠١).

(٣) محمد حرب: السلطان عبد الحميد الثاني (ص ٢٦١).

وفي (٢٨ يونيو ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م) أصدر السلطان (عبد الحميد الثاني) فرمانا يقضي بعدم بيع أراض للمهاجرين اليهود أو لليهود عامة في فلسطين، وأكد هذا فرمان بفرمان آخر في (٧ يوليو) من نفس العام<sup>(١)</sup>.

موقف الاتحاديين من المشروع اليهودي في فلسطين:

وبعد خلع السلطان (عبد الحميد الثاني) باندلاع ثورة الاتحاد والترقي في عام (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م)، وانتقال السلطة للاتحاديين، استبشر الصهيونيون خيراً؛ فقد كانوا أصحاب تأثير ونفوذ على جانب من زعماء (جمعية الاتحاد والترقي)، وفي الواقع لم يكن الاتحاديون بصفة عامة ذوي موقف صلب - كما هو الحال بالنسبة للسلطان عبد الحميد الثاني - تجاه هجرة اليهود إلى فلسطين؛ فقد عرف الصهيونيون الوسائل التي زادت من نزوح اليهود إلى فلسطين، ورغم أن الدولة العثمانية - من الناحية الرسمية - كانت ترفض ذلك، فقد اتبعوا أساليب الرشوة والفساد لإغراء المسئولين العثمانيين لتنفيذ أغراضهم<sup>(٢)</sup>.

موقف العرب من المشروع اليهودي في فلسطين:

وأمام هذا السيل المتزايد من الهجرة اليهودية، انتبهت شخصيات عربية لخطورة هذا الموقف، وما لبثت الصحف في مصر توضح للرأي العام العربي والإسلامي خطورة المحجرات اليهودية إلى فلسطين على المدى البعيد، وتبين مسؤولية الاتحاديين العثمانيين الذي أهملوا تلك الخطورة، وناشدت الصحافة المصرية - حيثئذ - كافة الزعامات العربية والإسلامية التكاتف والتآزر لمواجهة تلك الأخطار قبل استفحالها، ورغم تلك الجهود التي بذلتها مصر لم تكن الاستجابة واسعة النطاق؛ فقد ظل الوعي العام لدى العرب قاصراً ضعيفاً، ولم

(١) المرجع السابق (ص ٢٦٥).

(٢) مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين (١٠/١١٨-١١٩).

تناقش أبعاد المشكلة الصهيونية في المؤتمر الذي عقد في باريس عام (١٩٣٢/١٩١٣م) لتحديد العلاقات بين الاتحاديين العثمانيين وبين العرب على أيدي بعض الجمعيات السياسية العربية وعلى رأسها حزب اللامركزية<sup>(١)</sup>.

### مساعي هرتزل لدى بريطانيا:

واصل (تيودور هرتزل) مساعيه لدى بريطانيا في السنوات الأولى من القرن العشرين ليحظى بتأييدها لجعل شبه جزيرة سيناء مستعمرة يهودية لتكون بذلك خطوة نحو تحقيق هدفه بالزحف صوب فلسطين، ولما كانت مصر - في ذلك الوقت - ترزح تحت وطأة الاحتلال البريطاني؛ فقد رفض المندوب البريطاني هذا الاقتراح خاصة وأنه يتعارض مع مصالح الاحتلال، وأن شبه جزيرة سيناء جزء لا يتجزأ من الأراضي المصرية، وفي نفس الوقت لم تتخل بريطانيا عن حلفائها الصهاينة؛ بل عرضت على (هرتزل) مناطق أخرى في إفريقيا مثل أوغندا أو كينيا وغيرهما، بيد أن زعماء المؤتمرات الصهيونية رفضوا بشدة تلك البدائل وضمموا على منطقة فلسطين لتكون مقراً لإقامة الدولة اليهودية، وسعى الصهيوينيون - بشتى الوسائل - إلى فتح باب الهجرة اليهودية وتشجيع العناصر اليهودية المهاجرة إلى فلسطين في السنوات السابقة لنشوب الحرب العالمية الأولى، ولما كانت بريطانيا في تلك الأثناء في حاجة إلى دعم اليهود الاقتصادي فإنها قد غضت الطرف عن تيار الهجرة المستمرة، وإقامة المستعمرات اليهودية في فلسطين حتى بلغ تعداد اليهود في فلسطين قبيل نشوب الحرب سنة (١٩١٤/١٩١٣م) ما يقرب من المائة ألف يهودي يتوزعون على ثلاثة وأربعين مستعمرة، وهذا يفسر لنا مدى إصرار الصهاينة على تحقيق أطماعهم بشتى الطرق والوسائل واعتمادهم الأساسي على دولة كبرى تمثلت في ذلك الوقت في بريطانيا<sup>(٢)</sup>.

(١) حسان علي حلاق: المرجع السابق (ص ٣٨-٣٩).

(٢) أسعد عبدالرحمن: المنظمة الصهيونية العالمية تنظيمها وأعمالها (١٨٩٧-١٩٤٨م). بيروت ١٩٤٨م. (ص ١٤١-١٥٦).

وخلال الحرب العالمية الأولى، وبالتحديد في سنة (١٩١٦م/١٣٣٥هـ) اندلعت الثورة العربية بقيادة (الشريف حسين) شريف مكة ضد السيادة العثمانية على بلدان المشرق العربي، ونجحت بذلك بريطانيا في تنفيذ ما أرادت، وفي نفس الوقت اتبعت سياسة ملتوية وماكرة ضد العرب مع حليفها فرنسا، وفي نفس العام (مارس ١٩١٦م/١٣٣٥هـ) تأمرت على تقسيم منطقة الهلال الخصيب الذي يشمل العراق وبلاد الشام بعقد اتفاقية سرية هي اتفاقية (سايكس بيكو)، وأشير في الاتفاقية على أن تكون (فلسطين) منطقة دولية<sup>(١)</sup>.

### تصريح بلفور:

لم يدخر اليهود وسعًا لانتهاز فرصة نشوب الحرب واحتياج بريطانيا لدعمهم المالي، وراح زعمائهم يجرون اتصالاتهم المكثفة مع رجال السياسة البريطانية ويعقدون الصلات الوثيقة، حتى أثمرت تلك الجهود في وضع أساس المسألة الفلسطينية الحقيقية وهو (تصريح بلفور)، وزير خارجية بريطانيا في (٢ نوفمبر عام ١٩١٧م/١٣٣٦هـ) من خلال رسالة وجهها إلى أحد كبار زعماء اليهود (روتشيلد) جاء فيها: "أعبر لكم عن بالغ سروري؛ إذ أنقل إليكم باسم حكومة صاحب الجلالة التصريح التالي بالعطف على الأمانى اليهودية الصهيونية، وهو التصريح الذي عرض على مجلس الوزراء ونال موافقته. إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وستبذل أقصى مساعيها لتيسير تحقيق هذا الهدف على أن يكون مفهومًا أن شيئًا لن يعمل قد يكون من شأنه المساس بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف الحالية غير اليهودية في فلسطين ولا بالحقوق ولا بالوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في

(١). (Storrs. Ronald: Orientations. London ١٩٤٠. PP. (٢٨١-٢٨٥)).

كامل محمود خلة: فلسطين تحت الانتداب البريطاني. بيروت ١٩٧٧م. (ص ٣٥-٤٤).

أي بلد آخر، وأكون مسروراً إذا أحطتم المنظمات الصهيونية بهذا التصريح."<sup>(١)</sup>  
 لاشك أن هذا التصريح المؤسف كان نقطة تحول خطيرة في تطور القضية  
 الفلسطينية. ولنا أن نتساءل عن الدوافع التي حدثت ببريطانيا وحكومتها لاتخاذ  
 هذا الموقف الموالي لليهود؟

في ظروف الحرب العالمية الأولى اتجهت بريطانيا لاجتذاب العناصر الصهيونية  
 المقيمة في الدولة المتحاربة ضد الحلفاء (ألمانيا، النمسا) فضلا عن الولايات المتحدة  
 الأمريكية التي بقيت حتى السنوات الأولى على الحياد، ولا شك أن العناصر  
 اليهودية كان لها أثر فعال في تلك الدولة - وبخاصة في أمريكا - في المجالات  
 الإعلامية والمالية والتي كانت بريطانيا ودول الحلفاء في أشد الحاجة إليها، هذا من  
 ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن السياسة البريطانية البعيدة المدى قد اتجهت لضرورة  
 تأمين السيادة البريطانية في مصر - وبخاصة قناة السويس - وهذا لن يتم إلا بجعل  
 المنطقة التي تشمل فلسطين تحت نفوذها خاصة وأن العراق - بعد اتفاقية سايكس  
 بيكو عام ١٩١٦/٥١٣٣٥م - صارت من نصيب بريطانيا، وإذا كنت بريطانيا قد  
 اتفقت مع فرنسا في هذه الاتفاقية السرية على جعل (فلسطين) منطقة دولية، فإنها  
 سعت من جهة أخرى بالتآمر مع زعماء الصهيونية لجعل فلسطين تحت النفوذ  
 البريطاني مع تحقيق آمال اليهود في إقامة وطن قومي لهم في فلسطين، ومن ثم كانت  
 المصالح متشابكة ومتبادلة بين بريطانيا والصهاينة من ناحية أخرى<sup>(٢)</sup>.

وفيما يتعلق بقانونية وشرعية تصريح بلفور فإن بريطانيا قد منحت من

(١) Storrs. Ronald: Op. Cit., P. (٢٨١-٢٨٠).

(٢) كامل محمود حلة: المرجع السابق (ص ٤٤). جعفر الخليلي: الملخص لكتاب العرب واليهود في

تاريخ (ص ١١٠-١١١).

خلاله بلدًا - هي جزء لا يتجزأ من المنطقة العربية، ليس لها الحق في أن تتصرف فيها ويسكنها أغلبية من العرب هم سكانها الأصليون - كمساعدة لليهود في إقامة وطن قومي لهم في بلاد ليست بلادهم، وإنما جُلبوا إليها من مختلف أصقاع العالم. ومن الملاحظ أنه قد ورد في التصريح أنه "ينشأ في فلسطين" وهذا معناه أنها سوف تعمل على إقامة وطن لليهود في فلسطين دون إشارة إلى أنها ستكون بكاملها لليهود؛ بيد أن الصهاينة تمسكوا بأن تكون دولتهم الجديدة شاملة لكافة نواحي فلسطين ولم يكتفوا بذلك بل وضعوا في مخيلتهم وأطماعهم أنها سوف تتسع حدودها لتشمل النيل إلى الفرات، وحتى يطمئن الصهاينة لتنفيذ ما جاء بالتصريح فضلًا عن أطماعهم المستورة؛ فإنهم وثّقوا صلاتهم ببريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية فضلًا عن دول أوروبية أخرى، ومن الملفت للنظر في هذا التصريح أيضًا ما ورد بشأن "الطوائف غير اليهودية" التي تقطن في فلسطين وكان الأصل في السكان هو اليهود وما عداهم فهم أقليات وطوائف (عرب فلسطين)، ومن المعروف أن سكان فلسطين من العرب الأصليين وقت صدور التصريح كانوا يمثلون ما يزيد عن (٥٩٠%) من مجموع السكان، كما احتاط اليهود في التصريح - بعد أن أوغزوا إلى بريطانيا بذلك - بخصوص المحافظة على الحقوق التي يتمتع بها اليهود، وإلى مركزهم المالي والسياسي في البلدان التي يعيشون بها وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية ممن حملوا جنسيات الدول المختلفة<sup>(١)</sup>. وبهذا الشكل المؤسف جاء التصريح من كافة جوانبه لخدمة أغراض اليهود والدولة الخليفة بريطانيا، بينما أغفل تمامًا حقوق العرب الفلسطينيين الذي اعتُبروا في نظر (بلفور) طوائف غير يهودية ليست ذات أهمية تذكر.

(١) المرجع السابق (ص ١١١-١١٢).

## سلاطين الدولة العثمانية

١٢٩٩-١٣٢٦ م	٦٩٩-٧٢٧ هـ	١- عثمان الأول
١٢٢٦-١٥٣٩ م	٧٢٧-٧٦١ هـ	٢- أورخان
١٣٥٩-١٣٧٩ م	٧٦١-٧٨١ هـ	٣- مراد الأول
١٣٧٩-١٤٠٣ م	٧٨١-٨٠٦ هـ	٤- بايزيد الأول
١٤٠٣-١٤١٣ م	٨٠٦-٨١٦ هـ	فترة خلافات بين أولاد بايزيد ونفوذ أجنبي (مغولي)
١٤١٣-١٤٢١ م	٨١٦-٨٢٥ هـ	٥- انفراد بالسلطة محمد الأول
١٤٢١-١٤٥١ م	٨٢٥-٨٥٥ هـ	٦- مراد الثاني
١٤٥١-١٤٨١ م	٨٥٥-٨٨٦ هـ	٧- محمد الثاني
١٤٨١-١٥١٢ م	٨٨٦-٩١٨ هـ	٨- بايزيد الثاني
١٥١٢-١٥٢٠ م	٩١٨-٩٢٧ هـ	٩- سليم الأول
١٥٢٠-١٥٦٦ م	٩٢٧-٩٧٤ هـ	١٠- سليمان الأول (القانوني)
١٥٦٦-١٥٧٤ م	٩٧٤-٩٨٢ هـ	١١- سليم الثاني
١٥٧٤-١٥٩٥ م	٩٨٢-١٠٠٤ هـ	١٢- مراد الثالث
١٥٩٥-١٦٠٣ م	١٠٠٤-١٠١٢ هـ	١٣- محمد الثالث
١٦٠٣-١٦١٧ م	١٠١٢-١٠٢٦ هـ	١٤- أحمد الأول
١٦١٧-١٦١٨ م	١٠٢٦-١٠٢٧ هـ	١٥- مصطفى الأول
١٦١٨-١٦٢٣ م	١٠٢٧-١٠٣٣ هـ	١٦- عثمان الثاني
١٦٢٣-١٦٤٠ م	١٠٣٣-١٠٥٠ هـ	١٧- مراد الرابع
١٦٤٠-١٦٤٨ م	١٠٥٠-١٠٥٨ هـ	١٨- إبراهيم الأول
١٦٤٨-١٦٨٧ م	١٠٥٨-١٠٩٩ هـ	١٩- محمد الرابع

١٦٨٧-١٦٩١ م	١٠٩٩-١١٠٣ هـ	٢٠- سليمان الثاني
١٦٩٥-١٦٩١ م	١١٠٣-١١٠٧ هـ	٢١- أحمد الثالث
١٧٠٣-١٦٩٥ م	١١٠٧-١١١٥ هـ	٢٢- مصطفى الثاني
١٧٣٠-١٧٠٣ م	١١١٥-١١٤٣ هـ	٢٣- أحمد الثالث
١٧٥٤-١٧٣٠ م	١١٤٣-١١٦٨ هـ	٢٤- محمود الأول
١٧٥٧-١٧٥٤ م	١١٦٨-١١٧١ هـ	٢٥- عثمان الثالث
١٧٧٤-١٧٥٧ م	١١٧١-١١٨٨ هـ	٢٦- مصطفى الثالث
١٧٨٩-١٧٧٤ م	١١٨٨-١٢٠٤ هـ	٢٧- عبد الحميد الأول
١٨٠٧-١٧٨٩ م	١٢٠٤-١٢٢٢ هـ	٢٨- سليم الثالث
١٨٠٨-١٨٠٧ م	١٢٢٢-١٢٢٣ هـ	٢٩- مصطفى الرابع
١٨٣٩-١٨٠٨ م	١٢٢٣-١٢٥٥ هـ	٣٠- محمود الثاني
١٨٦١-١٨٣٩ م	١٢٥٥-١٢٧٨ هـ	٣١- عبد المجيد الأول
١٨٧٦-١٨٦١ م	١٢٧٨-١٢٩٣ هـ	٣٢- عبدالعزيز
١٨٧٦-١٨٧٦ م	١٢٩٣-١٢٩٣ هـ	٣٣- مراد الخامس
١٩٠٩-١٨٧٦ م	١٢٩٣-١٣٢٧ هـ	٣٤- عبد الحميد الثاني
١٩١٨-١٩٠٩ م	١٣٢٧-١٣٣٧ هـ	٣٥- محمد رشاد
١٩٢٢-١٩١٨ م	١٣٣٧-١٣٤١ هـ	٣٦- محمد وحيد الدين الخامس
١٩٢٤-١٩٢٢ م	١٣٤١-١٣٤٣ هـ	٣٧- عبد المجيد

(في عهده تمَّ إلغاء الخلافة)

## خلاصة الوحدة الثامنة

يرجع نسب الأتراك العثمانيين إلى قبائل الغزّ التركية في بلاد تركستان، وعندما اجتاحت المغول تركستان لَجَأَتْ هذه القبيلة التركية إلى جنوب القوقاز حيث توفي زعيمها (سليمان).

تنسب الدولة العثمانية من الناحية الاسمية إلى (عثمان بن أرطغرل بن سليمان) أقدم زعيم معروف لقبيلة قايي إحدى قبائل الغزّ التي ينتسب لها الأتراك العثمانيون. وعلى يد عثمان هذا تحولت الجماعات العثمانية من أسلوبها القبلي إلى أسلوب (الدولة) على حساب أملاك الدولة البيزنطية، وخلف عثمان ابنه (أورخان) سنة ٥٧٢٦هـ واستمر ملوكها يتتابعون: مراد الأول، بايزيد ابنه، محمد بن بايزيد، مراد الثاني بن بايزيد، محمد الثاني ومحمد الثاني هذا هو المعروف في التاريخ بمحمد الفاتح الذي ولي الأمور سنة ٨٥٤/١٤٥١م والذي نجح في الاستيلاء على القسطنطينية وقتل الإمبراطور البيزنطي "قسطنطين الحادي عشر" سنة ١٤٥٣م) ففضى بذلك على الإمبراطورية البيزنطية.

وفي ذلك الوقت كان المماليك في البلاد العربية في حالة اجترار ماضيهم، ولم يعد لديهم ما يمكن أن يعطوه للوجود الإسلامي. وفي عهد سليم الأول وقعت الحوادث المباشرة التي تمثل آخر خطوة من خطوات التاريخ حين يريد عبور إحدى مراحلها.

فقد زحف سليم الأول سنة ١٥١٦م/٩٢٢هـ على الشام وقتل قانصوه الغوري في مرج دابق، وشنق طومان باي على باب زويلة بالقاهرة بعد أن هزمه في موقعة الريدانية، واستولى سليم الأول بذلك على مصر والشام.

ولم يتوان سلطان الحجاز، فأرسل مفاتيح الكعبة للسلطان سليم، وحكم

الحجاز باسم العثمانيين. وفي عهد خليفة سليم الأول (سليمان القانوني) دخلت معظم البلاد العربية (اليمن - الجزائر - تونس - مراکش - العراق - ليبيا) في حوزة العثمانيين. ولم يمض أكثر من عشرين سنة على اتجاه العثمانيين نحو البلاد العربية حتى كان المشرق العربي كله خاضعاً لهم، ولمدة خمسة قرون ظلت الخلافة العثمانية قوية وتؤدي الدور الأول والوحيد في حماية المسلمين والعرب.

فلما بدأت سنوات الاضمحلال تحولت أسباب قوتها إلى أسباب ضعف، فأصبح الإنكشارية، وأصبحت وسائل الحرب التقليدية عالية على حركة التقدم العثماني، وانقلبت العسكرية العثمانية التي قدمت ما قدمت للحضارة الإسلامية إلى عبء تنوء به الدولة. وفي ظل قرون القوة التي عاشتها الدولة تمتعت بأنظمة ممتازة من حكومة مركزية، إلى مجلس وزراء يرأسه الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) إلى ديوان سلطاني، إلى القضاء، إلى نواب عن الجيش. أما في الولايات فكان يتولى أمر كل ولاية الوالي (الباشا) الذي يعين من قبل الخليفة، ويعاونه في أعمال إدارة الولاية (الديوان)، وقد قسمت الولايات إدارياً إلى سناجق، وفي كل ولاية كان يوجد حاكم عسكري وحامية عسكرية تساعد الباشا على حفظ الأمن.

كانت هذه هي خلاصة تنظيمات الدولة، وكانت هذه التنظيمات وسائل قوة، فلما انقلبت دفة الحضارة تحولت من أدوات قوة إلى أدوات ضعف، وقد ساعدت عوامل كثيرة هذا الضعف على تعجيز الدولة عن حماية الأراضي الخاضعة لها، ومن هذه العوامل ما يلي:

١ - ضعف بعض السلاطين وانغماسهم في الترقى.

٢ - فساد أجهزة الدولة وانتشار الرشوة.

٣ - تدخل رجال الحاشية في شؤون الحكم.

٤ - ظهور التيارات العقائدية والفكرية الفاسدة.

٥- جهود يهود الدوغة والماسون في إضعاف الخلافة العثمانية.

وكان أكبر عوامل نجاح اليهود والصليبيين في ضرب الخلافة العثمانية الإسلامية هو بعثهم لما يسمى بالنزعات العنصرية القومية، مثل الطورانية للترك والقومية العربية، والقومية الكردية، وعشرات القوميات المعروفة.

وقد حاول اليهود إقامة وطن قومي لهم فلسطين على عهد السلطان عبد الحميد رَحِمَهُ اللهُ الذي رفض تمويد فلسطين، فلم ينس له اليهود ذلك فاستخدموا ضده أسلحة العنصرية، والشعارات الماسونية في الإخاء والحرية والمساواة، وهلم جرا من الشعارات التي اصطنعها الماسون وروجوا لها واستعملوا بعض المخدوعين لإذاعتها وتفتيت راية الأمة وتشتيت قبيلتها وأهدافها.

وكانت جماعة (تركيا الفتاة) ثم (الاتحاد والترقي) الأديتين اللتين سخرهما اليهود وطوعوهما لهذا الغرض، وقد أقحم هؤلاء تركيا في الحرب العالمية الأولى دون مبرر أو سبب يتعلق بها. فلما هُزم الألمان أذعنّت تركيا للهزيمة التي أقحمها فيها الماسون، وتم تقسيم أملاكها على الدول الأوروبية بواسطة رجل من يهود الدوغة يدعى (مصطفى كمال أتاتورك)، نفذ لهم مخططاتهم وأطماعهم بخدافيرها، فحوّل مسجد (أيا صوفيا) إلى متحف، ومسجد (محمد الفاتح) إلى مستودع، وألغى تطبيق الشريعة الإسلامية وألغى الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م وأعلن الجمهورية التركية العلمانية اللادينية، ومن ثمّ انتخب هذا اليهودي مصطفى كمال أتاتورك -من قبل جمعية لقبّت نفسها بالجمعية الوطنية- رئيساً لتركيا.

## اختبار الوحدة الثامنة

أولاً: أسئلة الصواب والخطأ:

ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (x) أمام العبارة الخاطئة فيما يأتي:

- ١- التحق ابن سليمان بخدمة السلطان السلجوقي علاء الدين الثاني.
- ٢- قامت الدولة العثمانية في عهد السلطان علاء الدين السلجوقي.
- ٣- استولى عثمان على مدينة بورصة للمرة الثانية عام ٥٧١٧هـ.
- ٤- تم كسر شوكة البيزنطيين في عهد عثمان.
- ٥- اهتم السلطان مراد الأول بالتوسع في بلغاريا.
- ٦- قتل السلطان مراد الأول - بعد ما هزم الصليبين - من جندي صربي جريح في أرض المعركة.
- ٧- تولى بايزيد الأول ابن مراد مكان أبيه عام ٥٨٠٠هـ.
- ٨- قبض بايزيد الأول على ملك الصرب وقتله هو وأعوانه.
- ٩- انتصر العثمانيون على التكتل الأوربي الصليبي على نهر الدانوب.
- ١٠- حدثت موقعة "نيكوبوليس" في عام ٥٧٨٩هـ.
- ١١- هُزم العثمانيون على يد "تيمور لنك" المغولي.
- ١٢- أُسر السلطان بايزيد على يد "تيمور لنك" المغولي.
- ١٣- هزم موسى بن بايزيد أخاه سليمان وقتله بيديه.
- ١٤- قَتَلَ السلطان محمد أخاه موسى سنة ٥٨٢٠هـ.
- ١٥- هُزم العثمانيون بقيادة مراد الثاني في موقعة نيشي.
- ١٦- حكم السلطان العثماني مراد الثاني مدة أربعين سنة.
- ١٧- قتل آخر الأباطرة البيزنطيين "باليلوجويس دراغاسيس" في القسطنطينية.

- ١٨- دخل السلطان محمد الفاتح القسطنطينية بمشي على قدميه مترجلاً.
  - ١٩- حوّل محمد الفاتح كنيسة: "آيا صوفيا" إلى مسجد، وصلّى فيه.
  - ٢٠- شجع محمد الفاتح رغبة رجاله في تحطيم الأسرات الإسلامية الحاكمة الأخرى.
  - ٢١- دخل العثمانيون "تبريز" عاصمة الدولة الصفوية في سبتمبر عام ١٥١٤هـ.
  - ٢٢- كانت موقعة "جالديران" بين الصفويين والمغول.
  - ٢٣- انتصر العثمانيون على المماليك في معركة "مرج دابق".
  - ٢٤- شنق "طومان باي" على باب زويلة بالقاهرة في ٣٠ يناير عام ١٥٢٠م.
  - ٢٥- أقر الشريف بركات شريف مكة الدخول تحت ظلال حكم العثمانيين سلمًا.
  - ٢٦- كانت ولاية العهد في بداية الدولة العثمانية للابن الأوسط من أولاد السلطان.
  - ٢٧- الانكشارية هم رجال البلاط الملكي والوزراء في الدولة العثمانية.
  - ٢٨- انتهى عصر السلاطين الأقوياء في الدولة العثمانية بموت السلطان سليمان القانوني.
  - ٢٩- تكوّن الخلف المقدس ضد الدولة العثمانية من فرنسا والمسا وألمانيا.
  - ٣٠- كان ليهود الدونمة دور كبير في انهيار الدولة العثمانية.
  - ٣١- كان لإسلام اليهودي "شبتاي" أثر كبير في تصدع الدولة العثمانية.
  - ٣٢- أُلغيت الخلافة الإسلامية على يد المهالك كمال أتاتورك.
- ثانيًا: أسئلة الاختيار من متعدد:

أ- فتح العثمانيون القسطنطينية عام:

- ١٤٥٢م. - ١٤٥٣م. - ١٤٥٤م.

ب- انتصر العثمانيون على المماليك في معركة مرج دابق عام:

- ١٥١٥م. - ١٥١٦م. - ١٥١٧م.

ج- فتحت مصر في عهد السلطان العثماني:

- سليمان القانوني. - سليم الأول. - سليم الثاني.

د- حين نشأت الدول العثمانية اتخذت مدينة (.....) في آسيا الصغرى عاصمة لها:

- قونية. - بروسة. - إستانبول.

ه- صدر وعد بلفور عام:

- ١٩١٥م. - ١٩١٦م. - ١٩١٧م.

ثالثاً: الأسئلة المقالية:

١- اكتب ما تعرفه عن:

السلطان محمد الفاتح.

الثورة العربية.

القضاء العثماني.

الصدر الأعظم.

٢- اكتب مذكرات مختصرة حول:

النظام المالي في الدولة العثمانية.

السياسة الداخلية للسلطان عبد الحميد.

الحضارة العثمانية.

٣- اكتب بالتفصيل عن:

السلطان مراد الأول.

النهضة العلمية في الدولة العثمانية.

الأقاليم الأوربية في الدولة العثمانية.

ضعف الخلافة العثمانية وزوالها.

رابعاً: الأسئلة الحوارية:

١- إذا قال لك صديق: إن الدولة العثمانية لم تكن حامية للعالم العربي والإسلامي فماذا تقول له؟

٢- إذا قال لك صديق: إن الدولة العثمانية كان حكمها استبدادياً. فماذا تقول له؟

٣- إذا قال لك صديق: إن دور يهود الدونمة لم يكن له قيمة في تدهور أحوال الدولة العثمانية. فماذا تقول له؟

خامساً: الأسئلة التحليلية:

أ- ما أسباب سقوط الدولة العثمانية؟

ب- ما أسباب قيام الحركات الانفصالية في الدولة العثمانية؟

ج- كيف تمكن العثمانيون من فتح مدينة القسطنطينية؟

د- لماذا لجأت الدولة العثمانية إلى الإصلاحات في الجيش؟

هـ- لماذا وقع العداء بين العثمانيين والصفويين؟

## النشاط التعليمي للوحدة الثامنة

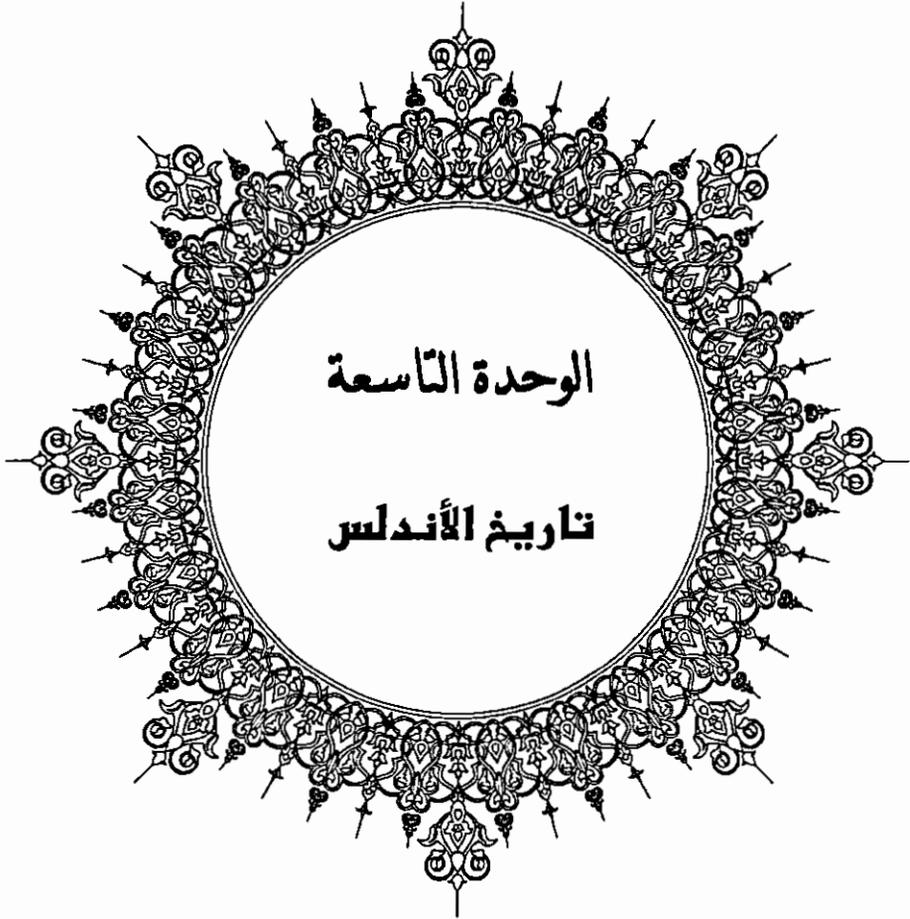
عزيزي الدارس: حتى تكتسب المزيد من المعلومات حول موضوعات هذه الوحدة عليك بإنجاز النشاط التعليمي التالي:

أ- اكتب بحثاً تتناول فيه مراحل قيام الدولة العثمانية.

ب- اكتب مقالاً تجمع فيه أبعاد القضية الفلسطينية، مقارناً بين موقف السلطان عبد الحميد وموقف القوميين العرب؟

ج- تناقش مع زملائك عن موقف السلطان عبد الحميد من يهود الدونمة والمؤامرات الغربية، وكيف حاول أن يقاومها؟





## الوحدة التاسعة

### تاريخ الأندلس

مبررات دراسة الوحدة:

بين سنتي ٩٣-٨٩٧ هـ أي: لثمانية قرون عاش المسلمون في الأندلس (أسبانيا) بعد أن فتحت بواسطة طارق بن زياد وموسي بن نصير. وخلال القرون الثمانية تقلبت الأندلس بين الولاة الأمويين، ثم دولة عبد الرحمن الداخل الأموية التي استمرت نحو ثلاثة قرون، ثم عاشت -تارة أخرى- عصر طوائف انقسمت فيه الأندلس الواحدة إلى اثنتين وعشرين دولة -مثل العرب اليوم- يتنافسون في الصغائر والكماليات ويهملون القضايا الكبرى والثوابت والأساسيات.

لكن شاء الله أن ينقذ الأندلس بدولتين مغريبتين هما دولتا: المرابطين والموحدين. وبقيت الأندلس حتى سقوط الموحدين في موقعة العقاب في بداية القرن السابع الهجري، وانحصر الإسلام في غرناطة نحو قرنين ونصف بعد أن ضاعت معظم البلاد الأندلسية، وكان لا بد أن يقضي نصارى الشمال في أسبانيا وفي قشتالة على هذه المدينة الدولة وسقطت غرناطة سنة ٨٩٧ هـ-١٤٩٢ م.

وقد قدمت الأندلس الإسلامية أروع حضارة عرفتها أوروبا قبل العصر الحديث، فيها تتلمذ الأوروبيون، حتى الباباوات أنفسهم، لكن المسلمين حملوا معهم أمراض العنصرية والقبلية، وتجاوزوا سنن الله في البقاء، فحقت عليهم كلمة الله، وطُردوا من الأندلس شر طردة، وبقيت الأندلس ذكرى، نتباهى بها دون أن ندرس بعمق تجربتها نستفيد من إيجابياتها وسلباتها؛ حتى لا تتحول بلادنا الإسلامية إلى (أندلسيات) أو فراديس مفقودة. ومن أجل هذا المهدف الأساسي: هدف دراسة التجربة الأندلسية، وفي ضوء سنن الله نقدم هذه لصفحات عن الأندلس، التجربة والعبرة!

## الأهداف التعليمية للوحدة:

عزيزي الدارس: يرجى بعد دراستك لهذه الوحدة أن تصبح قادراً على أن:

- ١- تعرف التصور الجغرافي للأندلس ودور ذلك في الفتوح.
- ٢- تعرف أهم العصور التاريخية التي مر بها تاريخ الأندلس حتى سقوطه.
- ٣- تعرف سمات عصر الولاة.
- ٤- تعرف دور الثورات والفتن في إضعاف المسلمين بالأندلس.
- ٥- تستنتج أبعاد استقلال الأمويين بالأندلس.
- ٦- تدرك دور العلاقة مع نصارى الشمال في تحديد تاريخ المسلمين بالأندلس.
- ٧- تعرف المراحل التي مرت بها الحياة الفكرية في الأندلس.
- ٨- تعرف أثر الصراعات العنصرية على تاريخ المسلمين في الأندلس.
- ٩- تدرك أبعاد ارتباط تاريخ المسلمين في المغرب بتاريخ المسلمين في الأندلس في عصر المرابطين والموحدين.
- ١٠- تعرف أثر عصر الطوائف على تاريخ الأندلس.
- ١١- تدرك أبعاد سقوط طليطلة في يد نصارى الشمال.
- ١٢- تعرف أهم المعارك المصرية التي دارت بين المسلمين ونصارى الشمال.
- ١٣- تعرف مصطلح الموريسكيين.
- ١٤- تعرف تاريخ الموريسكيين وما قاسوه من محن.

الوحدة  
التاسعة  
تاريخ  
الأندلس

- الموقع الجغرافي للأندلس ودوره في الفتوح الإسلامية.

- أهم العصور التاريخية التي مر بها تاريخ الأندلس حتى سقوطها.

- سمات عصر السوالة، ودور الثورات والفتن في إضعاف المسلمين بالأندلس.

- أبعاد استقلال الأمويين بالأندلس.  
- دور العلاقة مع نصارى الشمال في تحديد تاريخ المسلمين بالأندلس.

- أثر الصراعات العنصرية على تاريخ المسلمين في الأندلس.

- أثر عصر الطوائف على تاريخ الأندلس.  
- سقوط طليطلة على يد نصارى الشمال.

- أهم المعارك المصرية التي دارت بين المسلمين ونصارى الشمال.  
- تاريخ الموريثيين.

## الأندلس وفتح المسلمين لها

أ- جغرافية الأندلس:

أطلقت كلمة الأندلس على الأجزاء التي سيطر عليها المسلمون في شبه الجزيرة الأيبيرية، ثم على مملكة غرناطة في عهد بني نصر<sup>(١)</sup>. وأصول الكلمة يرجع إلى كلمة الوندال أو الفاندال (فندالوشيا) وهم قبائل جرمانية غزت أيبيريا واستقرت بها حتى طردهم القوط منها<sup>(٢)</sup>، وظلت كلمة (أندولوسيا) مستعملة حتى اليوم وتطلق على محافظات الجنوب الثمانية وهي: المرية، وغرناطة، وجيان وقرطبة ومالقة وقادش، ولبة، وإشبيلية.

والأندلس شبه جزيرة - وإن سماها العرب جزيرة مثل جزيرة العرب - مخمسة الشكل، ومساحتها ٦٠٠,٠٠٠ كم<sup>٢</sup>، في جنوب غربي أوروبا، وتحيط بها المياه من ثلاث جهات عدا الجهة الشمالية الشرقية<sup>(٣)</sup>. وهي هضبة متوسطة الارتفاع، بها سلاسل جبلية تشققها بالعرض، ويفصل بين كل سلسلة وأخرى وادٍ يجري فيه نهر بالعرض، وتتبع معظم أنهارها من وسط شبه الجزيرة وتصب في المحيط الأطلسي، ومن أنهارها: نهر الوادي الكبير الذي يمر بمديني: قرطبة وإشبيلية، ونهر وادي يانة شمالاً، ونهر التاجة وعليه تقع طليطلة. وتفصل جبال البرتات الأندلس (أسبانيا) عن أوروبا<sup>(٤)</sup>. وتقع شبه جزيرة أيبيريا بين خطي عرض ٣٦، ٤٤ شمالاً، وخط ٣ شرق جرينتش، و٩ غرباً، أي: أنها تقع في المنطقة المعتدلة الشمالية، ويحدها المحيط الأطلسي من الغرب، وجبال البرانس من الشمال، والبحر المتوسط من الشرق والجنوب، ومساحتها الإجمالية باستثناء البرتغال ٩٢٦ و٤٥٢ كم<sup>٢</sup>.

(١) الطاهر مكي: دراسات أندلسية. دار المعارف ١٩٨٨م (ص ٩-٢٨).

(٢) الحميري: الروض العطار. تحقيق إحسان عباس. مؤسسة ناصر للثقافة. بيروت ١٩٨٠ (ص ٢٠٠).

(٣) المقرئ: نفع الطيب. تحقيق إحسان عباس (١/٣٥٠. ١٢٥).

(٤) عنان: دولة الإسلام في الأندلس مكتبة الخانجي. مصر ١٩٦٩م (١/٥٣. ٨٢).

وقد كان الفتح الإسلامي للأندلس امتداداً طبيعياً لحركة الفتح على طول سواحل البحر المتوسط شرقاً وغرباً، وكان الاستيلاء على الساحل الأندلسي المواجه للمغرب تأميناً للفتوح الإسلامية في شمال إفريقيا، ولنشر الإسلام والتعريف به، كما أن العلاقات التاريخية بين العدوتين المتقابلتين من حوض البحر المتوسط الغربي مستمرة منذ فجر التاريخ، فكلما شعر حاكم إحدى العدوتين بقوته طمع في العدوّة المقابلة<sup>(١)</sup>.

### ب- الفتح الإسلامي للأندلس:

لقد مرّ فتح الأندلس بعدة خطوات هي:

١- تشجيع يوليان حاكم سبته -التابعة للقوط- المسلمين للتخلص من لذريق الذي اغتصب عرش القوط من الملك القوطي المخلوع غيطشة، وعرضه مساعدته على المسلمين في دخول الأندلس، مما دعى طارق بن زياد للاتصال بالقائد موسى بن نصير، وعرضه ما كان من أمر يوليان عليه<sup>(٢)</sup>.

٢- طلب موسى بن نصير من الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك الإذن بفتح الأندلس فكتب إليه الوليد: "أن خضها بالسرايا حتى ترى وتختير شأنها ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال، فراجعه (موسى): إنه ليس ببحر زخّار، ثم هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه، فكتب إليه! وإن كان، فلا بد من اختباره بالسرايا"<sup>(٣)</sup>.

فأرسل موسى بن نصير سرية إسلامية سنة (٧١١/٥٩١) مكونة من خمسمائة جندي بقيادة طريف بن مالك، ونزلت بأقصى الصرف الجنوبي للأندلس، ونزل المسلمون بجزيرة (باكوما) وعرفت بعد ذلك بجزيرة طريف وعادت السرية بالغنائم وتمهيد الأمور للفتح<sup>(٤)</sup>.

(١) طاهر راغب حسين: محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس. مكتبة الشباب ١٩٩٤م (ص ٣٠).

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب. حققه عبد المنعم عامر ب ت (ص ٢٠٥).

ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس (٨). تحقيق إبراهيم الإياري. دار الكتب. بيروت ١٦٨٢.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس. بيروت. دار الكتب الإسلامية ١٩٨١ (ص ٥٠٦).

ابن عذارى: البيان المغرب. تحقيق إحسان عباس. دار الثقافة. بيروت ١٩٦٧م (٥/٢).

(٤) نفع الطيب (١/٢٥٣). صفة جزيرة الأندلس (ص ١٢٨). التاريخ الأندلسي. دار القلم. دمشق ١٩٧٦ (ص ٤٥).

٣- أغرت السرية السابقة موسى بن نصير بالمضي في فتح الأندلس، فأعدَّ جيشًا من سبعة آلاف جندي معظمهم من البربر، وجعل طارق بن زياد قائدًا عليهم<sup>(١)</sup>. نزل طارق وجنوده عند جبل كالي، وهو الذي حمل بعد ذلك اسم جبل طارق، ومضى سائرًا إلى بلدة قرطاجنة، ثم عسكر عند رأس بارز بنيت فيه بعد ذلك مدينة الجزيرة الخضراء، وكان للزريق وقتها في طليطلة، فلما علم بجيش المسلمين جهَّز جيشًا يقدر بسبعين ألفًا، ويقدره بعضهم بمائة ألف، فأمدَّ موسى بن نصير المسلمين بخمسة آلاف، وتم اللقاء بين الجيشين على ساحل بحيرة الخندق، وهُزم القوط هزيمة ساحقة في (٢٨ رمضان ٩٢هـ/٧١١م). أما للزريق فلم يعرف مصيره، والغالب أنه قتل غريقًا في وادي لكَّة<sup>(٢)</sup>. وتعدَّ معركة وادي لكَّة من المعارك الفاصلة؛ إذ أن المعارك بعدها كانت أقل منها شأنًا، ولم يستغرق فتح الأندلس بعد معركة (لكَّة) أو (شذونة) أكثر من ثلاث سنوات<sup>(٣)</sup>.

٤- وبهذا الانتصار انفتح الطريق للمسلمين نحو طليطلة التي حاصرها طارق وفتحها بعد مقاومة عنيفة، وغنم المسلمون منها كثيرًا من الذخائر القيمة، ومنها مذبح كنيسة طليطلة والمسماة بمائدة سليمان، وليس لها علاقة بالنبي سليمان<sup>(٤)</sup>، ثم كتب طارق إلى قائده موسى بن نصير يخبره بالفتح، فأمره موسى بالتوقف حتى يلحق به ويعزز قواته؛ لأنه توغل كثيرًا في الأندلس، وليس صحيحًا أن موسى بن نصير أضمر الحسد والغيرة من طارق؛ لأنه تابعي جليل، وطارق بن زياد تحت إمرته، وكل ما فعله موسى

(١) البيان المغرب (١/٤٣). نفح الطيب (١/٢٥٤).

(٢) ابن عبدالحكم: فتوح مصر والمغرب (٢٠٦، ٢٠٧). البيان المغرب (٢/٨٢٧). نفح الطيب (١/٢٥٩).

(٣) العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس. مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية. (ص ٣٥) محمد عبدالحمد عيسى: الفتح الإسلامي للأندلس. مكتبة سعيد رأفت ١٩٨٥م. (ص ١٢٠) وهي من أشمل الدراسات في هذا الميدان.

(٤) البيان المغرب (٢/١٢). نفح الطيب (١/٦١، ٢٦٥، ٢٧٢). مؤنس: معالم تاريخ المغرب

والأندلس. دار المستقبل ١٩٨٦م (٢٣٦).

- بن نصير أن لام طارق بن زياد على إيغاله في الأندلس بغير إذنه<sup>(١)</sup>.
- ٥- اصطحب موسى بن نصير معه ثمانية عشر ألف رجل معظمهم من العرب، ونزل بالجزيرة الخضراء (٧١٢/٨٩٣م)، ولم يسلك طريق طارق، بل رأى أن يؤمن ظهره ويفتح ما لم يشملته الفتح، ففتح شذونة وقرمونة، وحاصر إشبيلية واستولى عليها، ثم على لقت، وحاصر ماردة واستولى عليها بعد مقاومة شديدة سنة (٧١٣/٨٩٤م)، ثم خرج إلى طليطلة لملاقاة طارق بن زياد، وأقام بطليطلة، ونظم موسى بن نصير شؤون الأندلس، فضرب عملة مزدوجة باللغة العربية واللاتينية<sup>(٢)</sup>.
- ٦- وفي ربيع سنة (٧١٤/٨٩٥م) خرج القائدان لمتابعة الفتح<sup>(٣)</sup>، فافتحا مدن: سرقسطة ووثة ولاردة وطركونة وبرشلونة، وهرب أهل المنطقة إلى قمم الجبال الوعرة المسماة صخرة بلاي (كوبا دونجا) وفي هذه المنطقة ولدت أول مقاومة نصرانية منظمة؛ وذلك لأن هذه المنطقة وعرة المسالك باردة المناخ، وقد اعتصم بمنطقة جليقية أحد أفراد الجيش القوطي المهزوم ويدعى (بلاي) ومعه مجموعة من الفارين، وقد تركهم المسلمون استخفافا بعددهم وبشأنهم<sup>(٤)</sup>، ونبتت في هذه المغارة "كوبا دونجا" حركة المقاومة النصرانية التي نمت واتسعت حتى أخرجت المسلمين من الأندلس.
- ٧- وهكذا فتح طارق بن زياد وموسى بن نصير الأندلس في مدة قياسية، ثم تركا الأندلس وعادا إلى دمشق لاستدعاء الخلافة الأموية لهما<sup>(٥)</sup>، وترك موسى بن نصير ولده عبدالعزيز في الأندلس ينظم البلاد، وبه بدأ عصر الولاية (٩٣-١٣٨هـ).

(١) الحلة السراء. تحقيق حسين مونس. الشركة العربية. مصر ١٩٦٣م (٣٢٤/٢). ابن الساط: تاريخ الأندلس (ص ١٤٩). الحجي: التاريخ الأندلسي (٩٠).

(٢) أخبار مجموعة (ص ١٦). البيان المغرب (١٤/٢). نفع الطيب (٢٧٠/١).

(٣) محمد عبد الحميد عيسى: الفتح الإسلامي للأندلس (ص ١٤٦).

(٤) نفع الطيب (٢٧٦/١). البيان المغرب (٢٩/٢).

(٥) نفع الطيب (٢٧٦/١). مونس: معالم تاريخ المغرب والأندلس (ص ٢٣٩).

محمد عبد الحميد عيسى: الفتح الإسلامي للأندلس (ص ١٦٢). وما بعدها.

## أسطورة إحراق طارق للسفن من قضايا الفتح الإسلامي للأندلس

لم يرد أي ذكر -ولا أدنى إشارة- حول قصة إحراق السفن لدى ابن القوطية الذي يعدّ مصدرًا من المصادر الأساسية في فتح الأندلس، وإن كان هذا المصدر يفيدنا شيئاً قريباً من قصة الإحراق، فهو يدلنا على أسلوب طارق الحربي؛ إذ أنه كان يؤمن بأسلوب التمويه وحرب الأعصاب.

أما صاحب "أخبار مجموعة" -الذي يعدّ أيضاً من أوثق المصادر في تاريخ الفتح الإسلامي للأندلس، والمنسوب إلى القرن الرابع الهجري- فهو من هؤلاء الذين لم يوردوا أي ذكر لحادثة إحراق السفن هذه، على الرغم من أن كتاب "أخبار مجموعة" من أقدم الكتب -بعد جيل ابن عبدالحكم وابن حبيب- في التأريخ لفتح الأندلس.

إن هذين المصدرين -تاريخ ابن القوطية وأخبار مجموعة- هما أقدم المصادر الأندلسية التي بين أيدينا، وهما يتميزان عن المصادر السابقة -والتي نعرف منها: "فتوح مصر والمغرب والأندلس" لابن عبدالحكم، و"مبتدأ خلق الدنيا" لابن حبيب -بأنهما مصدران ينتميان إلى المدرسة الأندلسية، بل هما الاستهلال للكتابة التاريخية الأندلسية، بينما كان ابن عبدالحكم وابن حبيب ينتميان إلى المدرسة المصرية التي سبقت في كتابه تاريخ الأندلس.

### ظهور رواية إحراق السفن:

ليس من المعقول -كما يقول الدكتور محمود مكي- أن يخفى هذا الخبر الهامّ على كل المؤرخين السابقين، فلا يعرفه إلا الإدريسي أبو عبد الله محمد، الذي توفي سنة (٥٦٠هـ) وألّف كتابه: "نزهة المشتاق" سنة (٥٤٨هـ)، ومعاصره أومروان عبد الملك بن الكردبوس الذي لم تُعرف سنة وفاته، على خلاف في

أيهما سبق الآخر وأخذ عنه، وهو خلاف لا طائل وراءه فهما متعاصران، وإن كنا نميل إلى سبق الإدريسي؛ لأنه أكثر تفصيلاً، وعنه أخذ الحميري محمد بن عبدالله صاحب "الروض المعطار" وهو الثالث الذي تبعهما في ترديد هذه الرواية. ولا أثر للقصة - كما يثبت رصدنا هذا الذي حاولنا أن يصل درجة الحصر - في بقية المصادر الأندلسية الأصل، سواء تلك التي سبقت هذه المصادر أو التي عاصرتها في القرن لسادس، أو التي لحقتها حتى نهاية القرن الثامن الهجري، كما ذكرنا سابقاً.

### إحراق السفن والأسطورة:

ربط بعض المفكرين بين قصة إحراق طارق بن زياد للسفن وبين عدد من الأساطير القرية من القصة والتي شاعت هي الأخرى في التاريخ، ونالت حظاً كبيراً من الاهتمام، ومن إضفاء العناصر الخيالية والأسطورية عليها. وقد عقد الدكتور محمود علي مكي مقارنة ضافية بين عدد من الأساطير تدور كلها حول إحراق القادة لسفنهم ووضعهم جيوشهم أمام مأزق (النصر أو الموت) وذلك خلال بحث يحمل العنوان نفسه "أسطورة إحراق السفن في التاريخ"<sup>(١)</sup>. وهكذا - ابتداءً جعل الدكتور مكي من قصة إحراق طارق للسفن واحدة من الأساطير التي شاعت في التاريخ، وعالجها في سياق عدد من الأساطير الشرقية والغربية، التي عرفت حول هذا الأمر.

ونحن لا نستبعد أن يكون التراث الشعبي الأسباني -الذي راعته بطولة المسلمين الفاتحة في واقعة الفتح- صاحب الفضل في نسج هذه القصة، تقليداً من شأن النصر؛ إذ هو لم يتم إلا بعمل انتحاري، وليس بإيمان في ظل ظروف عادية، ولقد ظهر نوع مستقل من الأغاني الشعبية الأسبانية المحسدة لقصة الصراع بين

(١) انظر: الكتاب التذكاري لقسم اللغة العربية وأدائها بجامعة الكويت ١٩٧٦/١٩٧٧م.

المسلمين والنصارى، وهي أغان كان يطلق عليها أغاني الحدود **Romances Franterizos**<sup>(١)</sup>، ولعل هذا النوع من الأدب هو الذي اخترع هذه القصة، ثم تلقفها بعض المسلمين فبدت وكأنها إسلامية المنشأ.

ولعل في ظهور هذه القصة بعد سقوط طليطلة (٥٤٧٨هـ) - وليس قبلها - وفي فترة تأجج الصراع فيما يعرف بعصر الاسترداد، وبداية تخاذل الجبهة الإسلامية الأندلسية وتفككها، لعل في ظهور هذه القصة في هذا الزمان - وليس قبله - دليلاً على أن موطن هذه الأسطورة كان أسبانيا النصرانية، ثم تسربت إلى الأندلس الإسلامية التي كانت في حاجة إلى بطولات تقوم على الأساطير؛ لأنها عجزت عن حل مشكلات حاضرها على ضوء حقائق تاريخها الذي صعب عليها ترسم خطاه. لقد كان حديث فتح الأندلس - في عصور اضمحلال أمر المسلمين وسقوط المدن الإسلامية بما في هذا الفتح من مشاهد بطولية رائعة - كان حديث الفتح هذا من أكثر ما يجري على ألسنة المسلمين في هذه البلاد، وما يثير في نفوسهم من مشاعر الفخر والاعتزاز، ولعلنا لا نبعد إذا قلنا: إن هذا الحديث كان يزداد تردده وإضافة المزيد إلى تفاصيله كلما تزايد ضعف المسلمين في الأندلس واشتد ضغط القوى النصرانية عليهم، فقد كانوا يحاولون أن يستمدوا من أحاديث الفتح وسير أبطاله ما يشد العزائم الخائرة، ويحيي الهمم المتهاكة. **إحراق السفن من الناحية الشرعية:**

كان لا بد من الوقوف مع قصة إحراق السفن وقفة تعتمد على أوثق مناهج النقد، ليس بمجرد إثبات وقوعها من عدمه؛ بل لأن لهذه القصة بعداً آخر غير بعدها التاريخي، وهو البعد التشريعي والإسلامي، فالحديث يدور عن فترة تنتمي إلى عصر التابعين، وجيوش طارق بن زياد، وموسى بن نصير كان فيها تابعيون

(١) د. مكي. المرجع السابق.

كذلك، ولقد كان بعض الصحابة المشهورين أحياء إلى أيام الوليد بن عبدالمك (١)، ولربما وجد عدد كبير من الصحابة من غير المشهورين، ومع ذلك فاتفق التابعين أو إقرارهم على عمل ما، دون أن يلقي الرفض أو المقاومة، إنما يمثل موافقة منهم، وهم أهل للاحتجاج بأعمالهم في عالم التشريع، فما يعقل أن يتواطأ التابعون على منكر لا يقره الإسلام.

وعلى هذا الأساس فإن لنا أن نتساءل:

كيف سكت التابعون على إحراق طارق للسفن؟

وهل يعني هذا مشروعية هذا العمل من الناحية الإسلامية؟

وفي عصر كعصر التابعين ولما بينته القرن الأول الهجري: هل تسمح هذه البيئة الإسلامية بإحراق السفن دون معارضة، ودون احتجاج من الساسة أو الفقهاء أو المفكرين أو الشعراء؟.

لقد اختلف الصحابة من قبل وتقاتلوا من أجل مقتل عثمان، والخلاف على أسبقية القصاص أو استتباب الحكم، كل منهم كان يؤمن بأنه يقاتل من مبدأ شرعي، ولجتهدهم المخطئ أجر وللمصيب أجران. فهل يتواطأ التابعون على إحراق أسطول إسلامي في وقت هم فيه أحوج ما يكونون إلى الأساطيل لمواجهة الرومان؟ ومن زاوية أخرى -شرعية أيضاً- هل يجوز في الإسلام مدأ المغامرات الانتحارية؟ لقد انسحب المسلمون بقيادة خالد بن الوليد في موقعه (مؤتة) بعد استشهاد جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة، حين أدرك خالد ومعظم الجيش أن المعركة انتحارية إزاء هذا الفارق في العدد بين جيش المسلمين وجيش الروم، وقد كان هناك مسلمون فدائيون يطلبون الاستمرار في القتال، ومع ذلك آثر الجيش الانسحاب بقيادة خالد بن الوليد، وسماهم الرسول ﷺ

(١) نحن نذكر منهم أنس بن مالك حادم الرسول ﷺ.

(الكُرَّار) ردًّا على من سخروا منهم في المدينة وسموهم (الفرار)، أليس هذا السلوك النبوي تشريعًا إسلاميًا يحرم المغامرات الجماعية الانتحارية في المعارك، ويجيز الانسحاب في حالة وجود مفاجآت تجعل المعركة إبادة للمسلمين؟

وبالنسبة لقصة إحراق طارق للسفن هل كان ثمة موجب لهذا الإحراق، مع أنه لم يكن يعلم شيئًا عن نتيجة المعركة؟ فإذا كان طارق قد توقع الهزيمة للجيش الإسلامي ومن أجل هذا أحرق السفن فإنه يدخل في باب المغامرات الانتحارية الجماعية التي يحرمها الإسلام، وهو بهذا -ومن معه من التابعين- لم يستوعبوا التوجيه النبوي في (مؤتة) وهو ما لا يمكن القبول به.

وإذا كان قد توقع النصر فما جدوى إحراق السفن؟

وهذه الخسارة المالية التي لا جدوى كبيرة وراءها في عصر يصعب فيه صناعة السفن، والتي يمكن أن توجد طرق بديلة عنها، هل هي جائزة شرعًا؟ إن كل هذه الجوانب، سواء تلك التي تتصل بالتضحية بالبشر الذين بلغ عددهم "اثني عشر ألف جندي وسبعمائة تقريباً"<sup>(١)</sup>، أم بالسفن تجعل من إقدام طارق على هذا الإحراق عملاً مخالفاً بالشرعية، وهو ما لا يمكن للتابعين -بشكل يشبه التواطؤ- أن يسكتوا عليه، أو على الأقل أن لا يظهر أي خلاف فقهي حوله. لكن هذا السكوت يعني أنه لم تكن هناك قضية من هذا القبيل، ولم يُثر -بالتالي- أيّ خلاف؛ لأنه لا يمكن إثارة أيّ خلاف حول قضية لم تحدث فعلاً، وهو ما نميل إليه بالنسبة لتابعي صالح مثل طارق بن زياد، وبالنسبة لمن معه من التابعين رضي الله عنهم أجمعين.

(١) أخبار مجموعة: مجهول (ص١٧). ونفح الطيب (١/٣٩٦. ٣٩٩).

## عصر الولاية (٩٥-١٣٨هـ / ٧١٤-٧٥٥م)

ببداية حكم عبدالعزيز بن موسى بن نصير -على الراجح- يبدأ ما عرف بعصر الولاية الذين يتبعون الحكومة الأموية في دمشق أو والي الشمال الأفريقي، واستمر عصر الولاية اثنتين وأربعين سنة، تولى خلالها عشرون والياً، وحكّم اثنان منهم مرتين، أي أن متوسط حكم الوالي لا يزيد على سنتين، وربما كان سبب التغيير السريع للولاية يرجع إلى خوف بني أمية من استقلال الولاية بالحكم؛ لبعدهم عن مركز الخلافة، وربما يعود للاضطراب السياسي في هذه المرحلة، وكان الوالي يعين من قبل الخليفة مباشرة وأحياناً من عامل مصر أو عامل إفريقية، أو ينتخبه أهل البلاد من بينهم.

وهذا ثبت بأسماء ولاية الأندلس ومدة حكم كل منهم:

- ١- عبدالعزيز بن موسى بن نصير، سنة وعشرة أشهر.  
ذي الحجة ٥٩٥ - رجب ٩٧هـ / ٧١٤-٧١٦م.
- ٢- أيوب بن حبيب اللحمي، ستة أشهر. رجب ٥٩٧ - ذي الحجة ٥٩٧هـ.
- ٣- الحرّ بن عبدالرحمن الثقفي، سنتان وثمانية أشهر.  
ذي الحجة ٥٩٧ - رمضان ١٠٠هـ / ٧١٦-٧١٩م.
- ٤- السمع بن مالك الخولاني، سنتان وثلاثة أشهر.  
رمضان ١٠٠هـ - ذي الحجة ١٠٢هـ / ٧١٩-٧٢١م.
- ٥- عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي، الولاية الأولى شهر - إلى صفر ١٠٣هـ.
- ٦- عنبسة بن سحيم الكلبي، أربع سنين وستة أشهر.  
صفر ١٠٣ - شعبان ١٠٧هـ / ٧٢١-٧٢٥م.
- ٧- غدره بن عبدالله الفهري، شهران - حتى شوال ١٠٧هـ.
- ٨- يحيى بن سلمة الكلبي، سنتان وستة أشهر أو أكثر.

- شوال ١٠٧هـ - ربيع الأول ١١٠هـ / ٧٢٦-٧٢٨م.
- ٩- حذيفة بن الأحوص القيسي، ستة أشهر أو أكثر.  
ربيع الأول ١١٠هـ - شعبان من العام نفسه.
- ١٠- عثمان بن أبي نسعة الخثعمي، خمسة أشهر ١١٠هـ.
- ١١- الهيثم بن عبيد الكناني ١١١هـ، عشرة أشهر.
- ١٢- محمد بن عبدالله الأشجعي، شهران ١١١هـ.
- ١٣- عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي، الولاية الثانية. سنتان وثمانية أشهر.  
صفر ١١٢هـ - رمضان ١١٤هـ / ٧٣٠-٧٣٢م.
- ١٤- عبدالملك بن قطن الفهري، الولاية الأولى - سنتان.  
(١١٤-١١٦هـ / ٧٣٢-٧٣٤م).
- ١٥- عقبة بن الحجاج السلولي، خمس سنوات وشهران.  
(١١٦-١٢٢هـ / ٧٣٤-٧٤٠م).
- ١٦- عبدالملك بن قطن، الولاية الثانية، سنة وشهر.  
(١٢٢-١٢٣هـ / ٧٤٠-٧٤١م).
- ١٧- بلج بن بشر القشيري، أحد عشر شهرا أو أقل.  
(١٢٣-١٢٤هـ / ٧٤١-٧٤٢م)
- ١٨- ثعلبة بن سلامة العاملي، عشرة أشهر. (١٢٤-١٢٥هـ / ٧٤٢-٧٤٣م).
- ١٩- أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي، ثلاث سنوات وستة أشهر.  
(١٢٥-١٢٧هـ / ٧٤٣-٧٤٥م).
- ٢٠- ثوابة بن سلامة الجذامي، سنة (١٢٨-١٢٩هـ / ٧٤٥-٧٤٧م).
- ٢١- عبدالرحمن بن كثير اللخمي، بضعة أشهر ١٢٩هـ / ٧٤٧م.
- ٢٢- يوسف بن عبدالرحمن الفهري. آخر الولاة (تسع سنوات).  
(١٢٩-١٣٨هـ / ٧٤٧-٧٥٥م)<sup>(١)</sup>.

(١) نفع الطيب (١/٢٣٥-٢٣٨. ٢٩٨-٢٩٩).

## سمات عصر الولاية

### ١- مواصلة الجهاد وإتمام الفتح:

أنفق عبدالعزيز بن موسى ولايته في استكمال الفتح، ففتح عدة مدن في شرق، وجنوب الأندلس وغربها، مثل بابة وشترين وفتيرية، غير أن المصادر لا تمدنا بتفاصيل حول فتوحاته، وإنما إشارات مثل: "أقام يفتح ما بقي عليه من مدائن الأندلس"<sup>(١)</sup>، و"انفتح في ولايته مدائن كثيرة"<sup>(٢)</sup>.

ورغم أن المصادر لا تفصل في دور كل والٍ في عملية الفتح، ولكن لم يخل عهد والٍ من عمليات جهاد وفتح، وهذا ما يصرح به صاحب كتاب "أخبار مجموعة" عقب الحديث عن كل والٍ "وكان مَنْ وَصَفْنَا من الولاية يجاهدون العدو، ويتوسعون في البلاد حتى بلغوا إفريقية، وحتى افتتحت عامة الأندلس"<sup>(٣)</sup>.

### ٢- الجهاد خلف جبال البرتات:

انقسمت بلاد غالة -الأرض الممتدة خلف جبال البرتات- إلى عدة ولايات مثل<sup>(٤)</sup>:

أ - ولاية سبتمانية: وتضم سبع مدن، وعاصمتها أربونة.

ب- ولاية أكيثانية: تقع شمال غرب سبتمانية، وعاصمتها برديل على نهر الجلاون.

ج - إقليم وفانس: شمال شرق سبتمانية، وعاصمته أبنوق على نهر الرون.

د - إقليم برغنديّة: غرب نهر لارون، وعاصمته لودون.

ويعد السمح بن مالك الخولاني أول من غزا بلاد غالة، فاستولى على أوروبا

(١) تاريخ افتتاح الأندلس (ص ٣٦).

(٢) نفتح الطيب (ص ٢٣٤/١).

(٣) أخبار مجموعة (ص ٢٥).

(٤) السيد سالم: تاريخ المسمين وآثارهم في الأندلس (١٣٧).

وطولوشة وتولوز، وعلى ولاية سبتمانية كلها، واتخذ من أربونة قاعدة للجهاد وراء جبال البرتات، واستشهد يوم عرفة (١٠٢هـ) بالقرب من طولوشة<sup>(١)</sup>.

وواصل عنبسة بن سُحيم الكلبي الجهاد، فافتتح إقليم بروفانس واتجه شرقاً حتى نهر الرّون، ووصل إلى مدينة ليون شمالاً، ووصل قرب باريس الحالية، وهي منطقة تبعد عن البرتات نحو ٨٠٠ كم، وهي أبعد نقطة وصل إليها المسلمون، واستشهد كذلك عنبسة في طريق عودته<sup>(٢)</sup> سنة (١٠٧هـ).

وقد أثارت هذه الحملات مخاوف حكام أوربا، فقام شارل مارتل بجمع القوات والسلاح، وصالح ملك الفرنجة أمراء برغنديّة، ووحد الجهود مع رجال سبتمانية وأكيتانية للوقوف في وجه الحملات الإسلامية<sup>(٣)</sup>.

ثم توقفت الحملات ما يقرب من خمس سنوات للمشكلات والخلافات بين المسلمين، ثم عين عبدالرحمن الغافقي سنة (١١٢هـ/٧٣٠م)، وكان من أفضل الولاة عدلاً وصلاًحاً، وتابع الغافقي الجهاد، فسار سنة (١١٤هـ/٧٣٢م) نحو الشمال عابراً جبال البرتات من طريق (بنبلونة) متجهاً إلى دوقية أكيتانيا ودخل عاصمتها بردويل عنوة، ثم استولى على مدينتي بواتيه وتور، وفي طريقه إلى باريس فوجئ الغافقي بجيوش الفرنجة بقيادة شارل مارتل، ف وقعت معركة بلاط الشهداء على بعد عشرين كم شمال بواتيه سنة (١١٤هـ/٧٣٢م). واستمرت المعركة ثمانية أيام، وانضم كثير من الأوربيين إلى جيش شارل مارتل، وهوجمت مؤخرة جيش المسلمين، وأصاب الغافقي سهماً فاستشهد، فانسحب المسلمون ليلاً<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس (١/٢٣٠). فتح الطيب (١/٢٣٥). البيان المغرب (٢/٢٦).

(٢) البيان المغرب (٢/٢٧).

(٣) مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس (٢٥٤).

(٤) الكامل (٤/٤٠٤). البيان المغرب (٢/٢٨). فتح الطيب (١/٢٣٦). (٣/١٥-١٦).

وحاول المؤرخون<sup>(١)</sup> تعليل هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء، فقيل إن الهزيمة بسبب الخلافات بين عناصر الجيش المسلم، ولابتعاد المسلمين عن بلادهم، فهم كانوا بعيدين عن جبال البرتات ٤٠٠ كم، وعن قرطبة ٩٠٠ كم، مما جعل وصول المؤن والإمدادات إليهم أمراً عسيراً، بينما إمدادات الفرنجة متواصلة، وأن المسلمين ساروا مثقلين بالغنائم، مما جعل الفرنجة يهاجمون مؤخرة الجيش الإسلامي فارتبكت صفوفه، هذا بالإضافة إلى تكتل إمارات غالة لمواجهة جيش المسلمين.

ولم تتوقف محاولات المسلمين لنشر الإسلام في هذه المناطق، فقد عبر عبدالملك ابن قطن جبال البرتات، وأعاد الهدوء في إقليم سبتمانيا وما يليه من بلاد الغال، وحصن المواقع التي بأيدي المسلمين، وانشغل عنه شارل مارتل بصراعاته مع كثيرين من أبناء جنسه في شمال المملكة<sup>(٢)</sup>. واختتمت محاولات الجهاد في هذه المنطقة بعقبة بن الحجاج السلولي الذي توغل في إقليم جليقية شمال غربي الأندلس، واتخذ ثغر أربونة قاعدة للجهاد واستشهد في المنطقة سنة (١٢١هـ)<sup>(٣)</sup>.

### ٣- تنظيم الأندلس:

أبدى عبدالعزيز بن موسى بن نصير همة كبيرة في تنظيم الأندلس، واختار إشبيلية عاصمة للبلاد، ثم انتقلت العاصمة إلى قرطبة بعد ثلاث سنوات في ولاية أيوب بن حبيب اللخمي<sup>(٤)</sup>.

وتبعت الأندلس في عصر الولاة لعامل إفريقية أو مصر، حتى زمن عمر بن عبدالعزيز (٩٩-١٠١هـ) فجعلها ولاية مستقلة عن إفريقية تابعة للخلافة الأموية مباشرة، وعين السمع بن مالك الخولاني، "وأمره أن يحمل الناس على طريق

(١) مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس (ص ٢٥٧). السيد سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم (ص ١٤٣).

(٢) فجر الأندلس (ص ١٧٦).

(٣) البيان المغرب (٢/٢٩). نفع الطيب (١/٢٣٦). (٣/١٩).

(٤) البيان المغرب (٢/٢٣). وما بعدها.

الحق، ولا يعدل بهم عن منهج الرفق"<sup>(١)</sup>. ولما توفي عمر بن عبدالعزيز رجح تعيين والي الأندلس إلى والي إفريقية وبموافقة الخلافة، ولما اضطرت الأمور عين الزعماء والقادة المحليون بالأندلس الوالي مثلما حدث مع يوسف بن عبدالرحمن الفهري سنة (١٢٩هـ/٧٤٧م)<sup>(٢)</sup>.

ومن أظهر التنظيمات الاقتصادية في عصر الولاة ما قام به السمح بن مالك الخولاني من مسح أرض الأندلس: مدنها وقراها وجبالها وأنهارها وطبيعة أرضها وأهم منتجاتها، وميز ما فتح عنوة، وما فتح صلحاً، وأعاد بناء قنطرة قرطبة الشهيرة على نهر الوادي الكبير، والتي وصفت بأنها من أعظم آثار الأندلس وأعجبها<sup>(٣)</sup>.

واتصفت سياسة الولاة بالعدل والإنصاف والتسامح، وفي هذا يقول دوزي<sup>(٤)</sup>:  
 "كان الفتح العربي خيراً على أسبانيا؛ فقد أحدث ثورة اجتماعية خطيرة، وقضى على شطر كبير من المساوي التي كانت البلاد ترزح تحتها منذ عدة قرون، أما سلطان أصحاب الامتيازات والكهنوت والأشراف فقد تضائل إلى حدّ التلاشي، وظهرت الملكيات الصغيرة؛ نظراً لتوزيع الأراضي على عدد كبير جداً من الناس انطوى على الخير العميم، وكان ذلك من أحد الأسباب التي أدت إلى ازدهار الزراعة، وكذلك عمل الفتح على تحسين حال الطبقات الدنيا، وكان الإسلام أميل من النصرانية إلى تحرير العبيد الذين يثسوا من تحريرهم على أيدي القسس أيام الحكم القوطي".

#### ٤ - نشر الإسلام:

عمل المسلمون على نشر الإسلام بعد استقرارهم في الأندلس وأثناء حركة الفتوح، ولا تُفصّل المصادر في هذا الجانب، ولكن يمكن القول "إن الإسلام"<sup>(٥)</sup> أخذ

(١) المصدر السابق (٢/٢٦).

(٢) المصدر السابق (٢/٣٥).

(٣) نفع الطيب (١/٤٨٠).

(٤) المسلمون في الأندلس (١/٤٨-٤٩).

(٥) عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي (١٥٧. ١٥٨). وأندلسيات (٢/٢٤).

طريقه للانتشار في أسانبا، واتباع الفاتحون الذين عبّروا عنه وشرحوا سلوكهم خطة لنشره، وبذلوا جهداً في بيانه والدعوة إليه، وكان ذلك هدفاً واضحاً لدى الفاتحين في أعمالهم كافة، فأنفقوا مهمتهم وحسنت قدرتهم في إظهار جمال الدعوة الإسلامية قولاً وعملاً، وحافظوا على إشراقها وجاذبيتها، فأقبل الأسبان على دين الله سبحانه مختارين حريصين، ودخلوه أفواجا، حتى إن من لم يسلم منهم مارس بعض العادات الإسلامية، وتسموا بأسماء المسلمين، وتكلموا لغتهم".

ومما ساعد على نشر الإسلام وجود مجموعة من التابعين في فتح الأندلس ومنهم: حنش بن عبدالله الصنعاني (ت ١٠٠هـ) وهو الذي أسس جامع سرقسطة<sup>(١)</sup>، وحبان بن أبي جبلة القرشي ت ١٣٢هـ<sup>(٢)</sup>.

ومن خلال النصوص التي بين أيدينا نجد ما يوضح مسيرة انتشار الإسلام بين الأسبان، فمما قيل لعمر بن عبدالعزيز عندما رغب في إجلاء المسلمين عن الأندلس لانقطاعهم وعزلتهم وراء البحر - "إن الناس - أي المسلمين - قد كثروا بما، وانتشروا في أقطارها"<sup>(٣)</sup>. وكان عقبه بن الحجاج السلولي (١١٦-١٢١هـ) إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام، ويبين له عيوب دينه، فأسلم على يده ألفا رجل".

#### ٥- الفتن والصراعات القبلية:

ثارت في عصر الولاة الفتن والصراعات القبلية بين العرب أنفسهم، واشتعلت العصبية بين عنصري العرب: المضريين واليمنيين (العدنانيين والقحطانيين)، فإذا كان الوالي من أحد الفريقين، أساء للفريق الآخر، حتى تقوم الثورات والفتن، حتى لم يكن للأندلس والعدة شهور، وبدأ النزاع بين القيسية (الشاميين) واليمانية (البلديين) عندما بعث حاكم إفريقية أبو عبيدة بن

(١) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس (١٤٨/١-١٥١) جذوة المقتبس (٣١٥/١).

(٢) ابن الفرضي: المصدر السابق (٤٦/١). نفع الطيب (٩/٣).

(٣) البيان المغرب (٢٦/٢).

عبدالرحمن السلمي القيسي قريبه الميثم بن عبيد الكناني واليا على الأندلس سنة (١١١هـ)، فتعصب للشاميين واضطهد اليمنية وسجن زعماءها<sup>(١)</sup>.

ولم تكن الأمور بين العرب والبربر بأحسن من العلاقات بين العرب أنفسهم، فكانت ولاية عبدالملك بن قطن مظالم كلها، مما أسخط الناس وأثارهم<sup>(٢)</sup>، غير أنه تولى بعده عقبه بن الحجاج السلولي الذي كان قيسياً صالحاً، فصرف وقته للجهاد، وكانت ثورة البربر على العرب في إفريقية على أشدها. ولم يكن بربر الأندلس مستريحين إلى سلوك بعض العرب الذين استبدوا بالسلطان، وكان الدولة الأموية دولتهم، وأساء بعض الولاة السيرة مع البربر في المغرب والأندلس، ففي المغرب أساء الوالي القيسي عبدالله بن الحبحاب (١١٦هـ-١٢٣هـ)، وتعدى في الصدقات والعشر، وأراد تخميس البربر، وزعم أنهم فيء للمسلمين، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، فكان فعله الذميمة هذا سبباً لتقص البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير من القتل للعباد<sup>(٣)</sup>.

ولهذا فما إن تسامع البربر في الأندلس بأخبار الثورة في المغرب حتى قاموا بثورتهم في الأندلس، وأخرجوا العرب من المناطق البعيدة عن مركز الإمارة الواقعة في أطراف الأندلس مثل المناطق الشمالية في جليقية وأشتوريس وغرب الأندلس، لأن أغلبها من البربر<sup>(٤)</sup>. وانضم عرب الأطراف إلى وسط الأندلس، إلا ما كان من عرب سرقسطة وثرغهم فإنهم كانوا أكثر من البربر.

وسار بربر الثورة في ثلاثة جيوش منتظمة متجهة إلى طليطلة وقرطبة والجزيرة الخضراء<sup>(٥)</sup>، وتخرج موقف العرب الذين فقدوا أي أمل في مدد يأتيهم

(١) مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس (ص ٢٤٣-٢٤٤).

(٢) مؤنس: فجر الأندلس (١٩٤).

(٣) البيان المغرب (١/٥٢).

(٤) أخبار مجموعة (ص ٣٨). تاريخ افتتاح الأندلس (ص ٢٣١). البيان المغرب (٢/٣٠).

(٥) أخبار مجموعة (ص ٣٨).

من المشرق، فاستعانوا ببلج بن بشر القشيري القيسي المحاصر في مدينة سبتة ومعه عشرة آلاف شريطة أن يتركوا الأندلس بعد انتهاء ثورة البربر، وبالفعل انتصر العرب على البربر في شذونة وقرطبة وطليلة سنة (١٢٤هـ/٧٤٢م)، وطاردوا البربر، فتركوا أماكن استقرارهم في الوسط والشمال الغربي، فخلت هذه الأراضي من العرب والبربر، فامتد إليها نفوذ نصارى الشمال وحسر المسلمون بذلك ربع شبه الجزيرة الأيبيرية<sup>(١)</sup>.

ورفض بلج بن بشر ومن معه مغادرة الأندلس، وثاروا على عبد الملك بن قطن وقتلوه، واستمرت المعارك بين الشاميين والبلديين فقتل فيها بلج، وانتصر الشاميون، وتولى ثعلبة بن سلامة العاملي (١٢٤هـ/٧٤٢م)؛ ثم انقسمت البلاد إلى مناطق نفوذ، وتولى أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي سنة (١٢٥هـ/٧٤٣م) الذي اجتهد في فض الصراعات العصبية، ثم ما لبث أن غير سياسته، ومال إلى قومه اليمينية، فتجددت المعارك من جديد، وقتل بعضهم بعضاً، واتفقت الكلمة على اختيار يوسف بن عبدالرحمن الفهري<sup>(٢)</sup>.

ثم قامت الحروب مرة أخرى بين الصميل بن أبي حاتم متحالفاً مع يوسف الفهري زعيم البلديين ضد زعيم يميني يسمى يحيى بن حُرَيْث الجذامي حاكم رية، واتفق الطرفان عند شقندة سنة (١٣٠هـ-٧٤٧م)، وقد وصفت هذه المعركة بأنها: "لم يعهد حرب مثلها في المسلمين بعد حرب الجمل وصفين"<sup>(٣)</sup>. وانتهت بهزيمة اليمينية ومقتل يحيى بن حريق وأبي الخطار، وانفرد الصميل ويوسف الفهري بالأمر<sup>(٤)</sup> في الأندلس.

(١) فخر الأندلس (ص ٢٠٦-٢٠٧).

(٢) البيان المغرب (٢/٣٢. ٣٥). نفع الطيب (١/٢٣٨).

(٣) البيان المغرب (٢/٣٦).

(٤) نفع لطيب (١/٢٣٨). عنان: دونة الإسلام في الأندلس (١/١٣١).

وأدت هذه الحروب العصبية القبلية إلى حدوث مجاعة شديدة بالأندلس سنة (١٣٦هـ/٧٥٣م)، فازداد المسلمون قلة عددية، مما أتاح لنصارى الشمال تكاثراً عددياً، واحتلوا الأرض التي تركها المسلمون<sup>(١)</sup>.

### إصلاحات المسلمين في الأندلس والمغرب خلال عصر الفتح والولادة:

نتحدث -بإيجاز شديد- عن بعض الإصلاحات المالية والإدارية في الأندلس خلال فترة الفتوحات والولادة (٩٣-١٣٨هـ)؛ وذلك لصلتها الوثيقة بتوفير الحقوق الإنسانية لجميع سكان أسبانيا بشتى طوائفهم مسلمين ويهوداً ونصارى، على أساس أنه لم تظهر أية أدلة تشير إلى أنّ ولادة الفتح الإسلامي قد أصدرت قوانين استثنائية خاصة باليهود والنصارى، بل إننا لنزيد الأمر وضوحاً فنقول: إن التنظيمات الإدارية والمالية التي استحدثها المسلمون في الأندلس كانت قليلة جداً، وكان هدفها الأساسي يتلخص في تحقيق العدل والتراحم في ظل الضوابط الشرعية الإسلامية التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية.

لقد أبقى المسلمون التنظيمات الإدارية والمالية السائدة، وعملوا على تطويرها، وحافظوا على التقسيم الإداري الذي كان انعكاساً بدوره للتقسيم الجغرافي، كما حافظوا أيضاً على نظام البلديات الذي يعود إلى العهد الروماني<sup>(٢)</sup>. بل إن المسلمين كانوا يقرون النصارى على أن يسيروا وفقاً لأعرافهم وقوانينهم ما دامت لا تتعارض مع الشريعة الإسلامية<sup>(٣)</sup>.

ومن المعروف أن موسى بن نصير اختار ولده عبدالعزيز لولاية الأندلس من بعده في شهر ذي الحجة سنة (٩٥هـ)، فكان أول ولايتها للمسلمين، وقد قضى

(١) مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس (٢٤٨).

(٢) نقلاً عن د. عبادة كحيل: تاريخ النصارى في الأندلس. طبعة أولى ١٩٩٣ مصر (ص ٨٤).

(٣) مرجع سابق (ص ٥٨).

عبدالعزیز بن موسیٰ فی ولايته زهاء عامين عني فيهما بتحسين الثغور، وقمع الخروج والعصيان، وافتتح عدة أماكن وحصون، وأبدى همة في تنظيم الحكومة الجديدة، وإدارتها، وأنشأ ديواناً لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها؛ لتوافق مشارب الرعايا الجدد، ولتجمع حولها كلمة المسلمين من مختلف القبائل، وشجع الزواج بين العرب والأسبان، وتزوج هو بالملكة إيجلونا أرملة لوزريق ملك القوط، واختار في إشبيلية -عاصمة الأندلس الجديدة- دير (ساتنا روفينا) ليكون مقاما له ولزوجه، وفيه أجريت أول تعديلات على الطراز العربي، ووفد عليه المهاجرون من مصر والشام والعراق وفارس، فأحيوا بالجزيرة سبل الزراعة والصناعة والتجارة<sup>(١)</sup>.

وعندما ولي الخليفة الأموي الراشد عمر بن عبدالعزیز (٩٩-١٠١هـ) وُلِّي على الأندلس السَّمح بن مالك الخولاني لضبط أمورها إدارياً ومالياً مع بداية استقرار قواعد الفتوح فيها، وقد أمر عمر السَّمح بأن يَخمس أرض الأندلس، فخمسها وبنى قنطرة قرطبة<sup>(٢)</sup>.

وقد انتدب عمر بن عبدالعزیز مولى من ثقافته يسمى جابراً وبعثه لمساعدة السَّمح<sup>(٣)</sup>، وقد أمر الخليفة عمر عامله السَّمح بأن يتبع الرفق والعدل، وأن يقيم كلمة الحق والدين، وكان السَّمح حاكماً وافر الخيرة والحكمة والعقل، فقبض على زمام الأمور بنجزم وهمة، وبأدب بقمع المنازعات والفتن، وإصلاح الإدارة والجيش، وخمس جميع أراضي الأندلس التي فتحت عنوة، أعني مسحها وقرر عليها الخراج بنسبة الخمس<sup>(٤)</sup>.

(١) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس -العصر الأول- القسم الأول - لطبعة الرابعة. مكتبة الخانجي بالقاهرة (ص ٧١-٧٢).

(٢) المقرئ: نفع الطيب (١/٢٣٥).

(٣) د. حسين مؤنس: فجر الأندلس (ص ١٣٧).

(٤) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس. (ص ٧٥).

وهكذا حقق النظام الإسلامي العدل لجميع الطبقات -مسلمين وغير مسلمين- واستفادت منه الطبقات العاملة الفقيرة، ولا سيما طبقات المزارعين وصغار الصناع والتجار والعييد.

الفتح الإسلامي للأندلس:

إنقاذ اليهود من الإبادة الجماعية:

في خلاصة شديدة وفي محاولة للتعبير عن تلك التفاصيل المخزية يحدثنا "ريموند شايندلين" (أستاذ الأدب العبري في معهد اللاهوت اليهودي الأمريكي) عن أوضاع اليهود في أسبانيا قبل الفتح الإسلامي، فيذكر أنه لم توجد مدونات تمكننا من وصف أحوال الجماعات اليهودية قبل الإسلام، إلا أنه في الفترة الفيزقوطية (العصر القوطي) ومنذ عهد سيسيبوت (Sisibut) (٦١٢-٦٢١م) وعلى الأخص في عهد إيجيكا Egica (٦٨٧-٧٠٢م) أخضع اليهود مرات عديدة لتشريعات قمعية، كما أكرهوا على التحول عن دينهم. ولم تكن التشريعات المعادية لليهود تفرض بشكل ثابت؛ إذ كان يتكرر تجديد هذه التشريعات في العهود المتتالية، ولكن الأساس في هذا التشريع كان موقف المسيحية المتأصل من اليهودية منذ أيام أغسطس<sup>(١)</sup>. وهو موقف التنصير القسري والإبادة الشاملة.

لكن هذا الإيجاز الذي أشار إليه "ريموند شايندلين" ليس حقيقة تاريخية مقبولة؛ فالحق أن ثمة كثيراً من الوقائع والقرارات التي صدرت في أسبانيا قبيل الفتح الإسلامي تؤكد الحالة البائسة التي كان اليهود يعيشونها في أسبانيا.

فمنذ سيطرت المسيحية بكنيستها العنيفة على أسبانيا واليهود يتعرضون لمحاولات اضطهاد مستمرة.

(١) ريموند شايندلين: اليهود في أسبانيا المسلمة (من بحوث ندوة الأندلس تاريخ وحضارة. مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٩م. تحرير سلمى الجيوشي. طبع بيروت.

- وقد بدأت رحلة الاضطهاد عندما اعتنق الملك ريكاردو (Recaredo) الكاثوليكية سنة (٥٨٧م)<sup>(١)</sup>، فازدادت سطوة الكنيسة، وفي آخر أيامه تقدم باقتراحات إلى المجلس الكنسي الذي انعقد في سنة (٥٨٩م) بطليطلة تلخص فيما يلي:
- ١- منع استخدام اليهود للمسيحيين في أي نوع من الأعمال.
  - ٢- ضرورة عتق أي عبد مسيحي مملوك ليهودي.
  - ٣- فصل كل اليهود الذين في خدمة الحكومة ومراعاة عدم تعيينهم مستقبلاً.
  - ٤- منع زواج المسيحيات باليهود.
  - ٥- منع الختان الذي كان يفرضه اليهود على عبيدهم وخدمهم، ومعاقبة أي يهودي يفرض الختان على خدمه وعبيده بمصادرة أملاكه.
  - ٦- ضرورة تعليق اليهودي شارة مميزة في مكان ظاهر حتى يعرفه الجميع<sup>(٢)</sup>.
- وعندما اعتلى العرش الملك سيسبت (sisebut) المتوفى (٦٢١م)، والمعروف عند ابن الأثير بسيسفوط، ضيق الخناق على اليهود وحرّموا من إقامة شعائرهم الدينية، وأعطى الملك سيسبت لليهود مهلة سنة للتفكير في اعتناق الديانة المسيحية أو الرحيل عن أسبانيا.
- وبعد سنة هاجر كثير من اليهود من أسبانيا، وتظاهر الذين بقوا باعتناق المسيحية؛ حرصاً على أملاكهم وأرواحهم.
- وعند اعتلاء الملك سيسناتد (Sisenand) رأى المجلس الكنسي أن يجدد قراراته السابقة الخاصة باليهود، ففي دورته الرابعة سنة (٦٣٣م). بمدينة طليطلة قرر -علاوة على قراراته السابقة- إضافة ما يأتي:

(١) د. عبادة كحينة: تاريخ النصرى في الأندلس. ط ١/١٩٩٣ مصر (ص ١٢).

(٢) الدكتور محمد بحر عبدالمجيد: اليهود في الأندلس. المكتبة الثقافية عود (٢٣٧). الهيئة المصرية العامة

للتأليف والنشر ١٩٧٠م (ص ١٤).

١- يتحتم على كل يهودي أن يسلم أبناءه عند بلوغهم السابعة للكنيسة؛ لتقوم بتعميدهم وتربيتهم تربية مسيحية.

٢- يسلم كل يهودي ارتد عن المسيحية لأحد المسيحيين؛ ليتخذه عبداً.

وفي عهد الملك ريسوند (Receswind) أصدر سنة (٦٥٣م) أمراً ملكياً ينص على أن أي إنسان يقوم بشعائر غير مسيحية في مملكته يعاقب إما بالقتل أو الحرق أو الرجم حتى الموت<sup>(١)</sup>.

ولما وجد المسيحيون أن اليهود لا يقيمون عهداً، ويكونون للمسيحية عداء أزلياً، أصدر الملك إجيكا (Egica) صهراً الملك إيرويغ (Erwig) أمراً بتسليم كل اليهود، سواء الذين اعتنقوا المسيحية، أو الذين بقوا على دينهم عبيداً للمسيحيين، ومصادرة جميع أملاكهم وتوزيعها هدايا على المسيحيين، ومعاقبة كل مسيحي يعتق عبداً يهودياً<sup>(٢)</sup>.

وفي سنة (٩٦٤م) اجتمع المجمع الديني للمرة الثالثة في عهد الملك إجيكا للحكم في المؤامرة التي دبرها يهود أسبانيا بالاشتراك مع يهود المغرب - كما قيل - لإسقاط الدولة القوطية والاستنجد بالعرب، وقد أصدر هذا المجمع مرسوماً بمصادرة أملاك اليهود، وفصل أبنائهم عنهم بعد سن السابعة، وتربيتهم في أوساط مسيحية حتى ينشأ هؤلاء الأبناء نشأة مسيحية<sup>(٣)</sup>.

وفي أواخر عهد الملك غيطشة الذي اعتلى عرش أسبانيا سنة (٧٠٠م) أساء الظن في اليهود، فاضطهدهم وأوقع بهم في أواخر أيامه.

فقد اتهمهم غيطشة بالتدبير له والتآمر مع من تسميهم النصوص الأسبانية

(١) د. محمد بحر عبدالمجيد: اليهود في الأندلس (ص ١٥ . ١٦).

(٢) الدكتور/ محمد بحر عبدالمجيد: اليهود في الأندلس (ص ١٧).

(٣) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس طبعة مؤسسة الثقافة الجامعية. الإسكندرية. مصر (ص ٥).

أهل ما وراء البحر<sup>(١)</sup>.

وكان بديهما -أمام هذا الوضع الخطير الذي انتهى إليه اليهود في أسبانيا- أن يكون الفتح الإسلامي لأسبانيا بالنسبة لهم طوق النجاة الذي أرسله الله لينقذ حياتهم وعقيدتهم وحقوقهم الإنسانية؛ ولهذا فإن وقوفهم مع الفاتحين المسلمين لم يكن بدافع الحب لهم، وإنما كان وقوفاً مع قوم أرسلهم الله لينقذوهم من هلاك محقق، ولا سيما وأنهم كانوا قد تسامعوا بأخلاق الفاتحين المسلمين والمبادئ التي تحكمهم من خلال إحوالهم اليهود في المغرب، وربما من غيرهم.

وبما أن المسلمين كانوا -من جانبهم- على علم بأوضاع اليهود، فإنهم كانوا مطمئنين إلى أية مساعدة يتقدم بها اليهود، بل كانوا يستخدمونهم في حراسة المدن التي يستولون عليها، ويضمونهم إلى قبضتها، مثلما حدث في غرناطة، فقد ضموا اليهود إلى قسبة غرناطة، وصار ذلك لهم سنة متبعة في كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده إلى القسبة مع قطعة من المسلمين لحفظها، ويمضي معظم الناس لغيرها، وإذا لم يجدوا يهوداً وفروا عدد المسلمين المخلفين لحفظ ما فتح، ثم صنعوا عند فتح كورة رية التي منها مالقة مثل ذلك<sup>(٢)</sup>.

وقد رفعوا عنهم جميع المظالم التي اعتدت على أبسط حقوقهم الإنسانية، كما عاملوهم برفق كبير، فازدادوا مالياً وفكرياً، وراحوا ينتشرون في جميع المدن الأسبانية في ظل الفتح الإسلامي، لكن على الرغم من هذا الانتشار في جميع المدن إلا أن منطقة غرناطة أو كورة ألبيرة كانت تعج بهم حتى شاع تعبير (غرناطة اليهود) على كل الألسن في ذلك الزمن<sup>(٣)</sup>.

(١) د. حسين مؤنس: فجر الإسلام (ص ١٤).

(٢) المقرئ: نفع الطيب تحقيق د. إحسان عيسى - دار صادر بيروت ١٣٨٨-١٩٦٨ م (١/٢٦٣).

وانظر مؤنس: فجر الأندلس (ص ٨٢).

(٣) د. أحمد بدر: دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها. مطابع ألف باء. دمشق ١٩٧٤ م (١-١٠٢).

وكما يقول أستاذنا الدكتور حسين مؤنس -بحق-: "لقد كانت الأندلس جنة اليهود خلال العصر الإسلامي كله، وقد بلغ بعضهم مبلغ الوزارة، ونظر إليهم المسلمون نظرهم إلى إخوان، حتى أصبح الأندلس موئلا لليهود؛ بل إن حركة بعث اللغة العبرية والأدب العبري بدأت في أسبانيا، ونشأت ونمت بين أظهر المسلمين وتحت أعينهم، بل كان بعض علماء المسلمين يُعينون اليهود على إنشاء نحو لغتهم. ولقد استعرب اليهود منذ زمن مبكر، فأخذوا لغة العرب وملابسهم واندرجوا في غمارهم"<sup>(١)</sup>.

وقد لا يكون لدينا -بالتفصيل المطلوب- مراجع عربية أو عبرية عن أحوال جماعات اليهود في الأندلس الإسلامي، ولكن -على سبيل المقابلة- تدلنا القوانين والمنشورات التي أصدرها ملوك أسبانيا النصرانية عندما سقطت بلاد الأندلس الإسلامي في أيديهم واحدة بعد الأخرى، تعطينا فكرة عن تنظيم هذه الجماعات اليهودية في ظلال الإسلام، فالجدير بالملاحظة أن أمراء المسلمين وخلفاءهم لم يصدروا تشريعات خاصة باليهود، وهذا يؤكد أنهم كانوا متساوين مع بقية السكان، فلم تكن هناك حاجة إلى تشريعات خاصة لهم، بعكس ما حدث عندما سيطرت النصرانية على البلاد، إذ أفرد اليهود بمعاملة خاصة، ومضايقات انتهت بالقضاء عليهم في أسبانيا كلها، وهذا وحده يكفي للدلالة على فضل المسلمين على يهود أسبانيا، وهو فضل لم يُعن مؤرخ يهودي واحد بالإشارة إليه<sup>(٢)</sup>.

لقد أظلمهم الإسلام واستنقذهم من أذى القوط والكنيسة، وبسط عليهم أمراء المسلمين أمانهم، فلما زال أمر المسلمين من أسبانيا كان ذلك إيذاناً بزوال أمر اليهود أيضاً.

(١) د. حسين مؤنس: فجر الأندلس (ص ٥٢٣).

(٢) د. حسين مؤنس: فجر الأندلس (ص ٥٢٤).

وتفيد بعض الوثائق أن اليهود ساعدوا النصارى ضد المسلمين في بعض المدن أيام زوال دولتهم، وهذه سنتهم المعروفة.

عصر الإمارة الأموية في الأندلس (١٣٨-٥٣١٦هـ/٧٥٦-٩٢٩م):

يمتد هذا العصر نحو ١٨٤ سنة، وسمي بذلك لأن الأندلس حُكمت من أمراء أمويين انتقلوا عن الخلافة العباسية ببغداد، وأهم الأمراء في هذا العصر هم:

١- عبدالرحمن بن معاوية المعروف بالداخل (٥١٣٨-١٧٢هـ/٧٥٦-٧٨٨م).

٢- هشام بن عبدالرحمن (١٧٢-٥١٨٠هـ/٧٩٦-٨٢٢م).

٣- الحكم بن هشام (الربضي) (١٨٠-٥٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢٢م).

٤- عبدالرحمن بن الحكم (عبدالرحمن الأوسط) (٢٠٦-٥٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢م).

٥- محمد بن عبدالرحمن (٣٢٨-٥٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م).

٦- المنذر بن محمد بن عبدالرحمن (٢٧٣-٥٢٧٥هـ/٨٨٦-٨٨٨م).

٧- عبدالله بن محمد (٢٧٥-٥٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢م).

٨- عبدالرحمن الناصر (٣٠٠ إلى ٣١٦ إمارة ثم خلافة).

ومن خلال الأحداث يمكن القول: إن عصر الإمارة انقسم إلى فترتين: فترة الأمراء الأقوياء، واستتباب الأمور، وتمتد من (١٣٨-٥٢٣٨هـ)، وفترة الاضطراب والصراعات والثورات، وسميت هذه الفترة "بديولات الطوائف الأولى"، وشملت الفترة (٢٣٨-٥٣٠٠هـ) حيث تولى الإمارة عبدالرحمن الناصر.

١- عبدالرحمن بن معاوية "الداخل" (١٣٨-٥١٧٢هـ/٧٨٨-٧٩٦م):

عندما سقطت الدولة الأموية بالشرق سنة (١٣٢هـ/٧٤٩م)، تعقب

العباسيون بني أمية وقتلوا كل من وجدوه من أعيانهم، لكن عبدالرحمن بن معاوية أفلت من القتل، وهرب متخفياً لاجئاً من مكان لآخر من شمال الشام إلى فلسطين إلى مصر، ثم التحأ إلى قبيلة تغزرة بطرابلس المغرب<sup>(١)</sup> ثم إلى مدينتي سبتة

(١) مجهول. أخبار مجموعة (ص ٥٥). البيان المغرب (٤١/٢).

ومليلة، واتصل بموالي الأمويين في الأندلس، حيث كانت طالعة بلج بن بشر الشامية من هؤلاء الموالي، وقام بالسفارة للداخل مولاه بدر الذي فاوض زعماء الموالي الشاميين، فعرضوا الأمر على الصميل بن أبي حاتم والوالي يوسف الفهري فرفضاً مساعدته، فعرض بدر الأمر على اليمنية الذين رحبوا بعبد الرحمن الداخل، فنزل الأندلس سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م<sup>(١)</sup>.

وتنازع يوسف الفهري مع عبد الرحمن الداخل، والتف مع الداخل موالي الأمويين من جند الشام اليمنية وبعض القيسية والبربر، والتقى الفريقان عند المصاراة على ضفاف الوادي الكبير بجوار أسوار قرطبة، وهزم الفهري والصميل وأتباعهما، ودخل عبد الرحمن قرطبة، ولقب بالإمارة<sup>(٢)</sup>.

ونظم عبد الرحمن الداخل الإمارة، وحاول أن يتجنب أخطاء الأمويين في المشرق؛ فلم يعترف بالعصبيات القبلية، فلم تعجب هذه السياسة اليمنية فثاروا في طليطلة والجزيرة الخضراء وإشبيلية وباجة<sup>(٣)</sup>، وأخطرت ثورات اليمنية تزعمها العلاء بن مغيث الحضرمي في باجة سنة (١٤٦هـ/٧٦٣م)، ودعا للعباسيين، فخرج إليه الأمير عبد الرحمن بقرمونة وقتل العلاء بن مغيث<sup>(٤)</sup>، وكانت من أطول الثورات وأخطرها ثورة شُقيّا بن عبدالواحد المكناسي البربري، والتي استمرت من سنة (١٥١-١٦٠ هـ/٧٦٨-٧٧٧م)، وامتدت بين ماردة وقورية غربا ووداي الحجاراة وقونفة شرقا، وادعى الانتساب إلى الحسين بن علي، فدبر له الأمير عبد الرحمن مؤامرة وقتله<sup>(٥)</sup>.

(١) المقرئ: نفع الطيب (١/٢٢٨-٢٣٠).

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب (٢/٤٠-٤٧). السيد سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (ص ١٧٩-١٩٦).

(٣) مجهول: أخبار مجموعة (١٠١). حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس (ص ٦٢).

(٤) البيان المغرب (٢/٥١-٥٢). نفع الطيب (١/٣٣٢).

(٥) أخبار مجموعة (ص ١١١). ابن الأثير: الكامل (٥/٢٠٠). محمود مكي: التشيع في الأندلس (ص ٩٨-٩٩).

وقام ملك الفرنجة شارلمان بمحاولة للاستيلاء على سرقسطة (١٦١هـ/٧٧٨م)، واتفق مع البشكونسي على مهاجمة المسلمين في الثغر الأعلى، وحاصر شارلمان سرقسطة ثم تركها ورحل، فانقض عليه المسلمون وقتلوا قائد مؤخرة جيشه رولان بطل الملحمة الشعبية الفرنسية "أنشودة رولان"<sup>(١)</sup>.

ويمكن القول: إن شخصية عبدالرحمن الداخل كانت من الشخصيات المؤثرة تاريخياً؛ لما تتمتع به من عبقرية، وقد وصفه ابن حيان بقوله: "كان عبدالرحمن راجح الحلم، واسع العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، ناقد العزم، بريئاً من العجز، متصل الحركة لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكمل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعاً مقداماً، بعيد الغور، شديد الجدة، قليل الطمأنينة، بليغاً مفوهاً، سمحاً سخياً، طلق اللسان، وكان قد أُعطي هبةً من وليه وعدوه، وكان يحضر الجنائز، ويصلي عليها، ويصني بالناس الجمع والأعياد، ويعود المرضى، ويكثر مباشرة الناس والمشى بينهم"<sup>(٢)</sup>.

٢- هشام بن عبدالرحمن (١٧٢-١٨٠هـ/٧٨٨-٧٩٦م):

خلف هشام والده في الإمارة بعهد منه؛ لأنه أفضل أبناء عبدالرحمن الداخل، فكان ليناً ورعاً حسن السياسة بصيراً بالأمور، وجذب الناس إليه بإقامته للحق، وتحرّيه للعدل، ومعاقبته الولاة المقصرين، وتأثر في سيرته بسيرة عمر بن عبدالعزيز، فكان يبعث بقوم ثقات إلى الكور يسألون الناس عن سير عماله. فإذا انتهى إليه حيفٌ من أحدهم أوقع به<sup>(٣)</sup>، وكان حاكماً بالكتاب والسنة، قبض الزكوات من طرقها ووضعها في حقها، ولم يأخذ في الله لومة لائم ولا تعلق به ظلم<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن الأثير: الكامل (٥/٣٢٢-٣٢٣).

(٢) نقلاً عن المقرئ: نفع الطيب (٣/٣٧).

(٣) المقرئ: نفع الطيب (١/٣٣٦-٣٣٧).

(٤) البيان المغرب (٢/٦٥).

ولم يعكر إمارته إلا ثورات أخويه سليمان وعبدالله البنلسي، وكان سليمان بطليطلة، فحشد الحشود والجنود، وانضم له أخوه عبدالله، فخرج إليهم الأمير هشام وحاصر طليطلة، ففر سليمان إلى ماردة، وطلب الأمان، فأمنه هشام، وأعطى أخويه مالاً ورحلهم إلى المغرب<sup>(١)</sup>.

ووجه الأمير هشام حملتين إلى منطقتي: ألبة وجليقية سنة (١٧٥/٧٩١م) نكلتا بهما تنكيلاً شديداً، وفي سنة (١٧٨/٧٩٤م) وجه الأمير جيشين إلى ألبا والقلاع وإلى مدينة أبيط عاصمة اشتوريس الجديدة<sup>(٢)</sup>.

### ٣- فترة الصراعات والفتن في عهد الإمارة:

وشملت هذه الفترة ثلاثة أمراء، امتد حكمهم نحو ثلثي قرن (٢٣٨-٣٠٠/٨٥٢-٩١٢م) وهؤلاء الأمراء هم:

أ - الأمير محمد بن عبدالرحمن بن الحكم (٢٣٨-٢٢٣/٨٥٢-٨٨٦م):

كان الأمير محمد بن عبدالرحمن حازماً فطنا بعيد النظر، إلا أنه واجه مشكلات داخلية كثيرة في مختلف نواحي الأندلس، كان أولها ثورات أهل طليطلة المستمرة منذ (٨٢٣٨/٨٥٢م)، فأرسلت الحملات إليهم، وحاصرت المدينة حتى ماتت الزروع حولها سنة (٨٤٢/٨٥٦م)، وخرج إليها الأمير بنفسه سنة (٨٤٤/٨٥٨م)، وقد قلّ عددهم وضائق معيشتهم<sup>(٣)</sup>، وثارت النواحي الغربية في ماردة وبطليوس سنة (٨٥٤/٨٦٨م)، وكان أغلب الثوار في حصون أقطعتها لهم الإمارة مثل: عبدالرحمن بن مروان الجليقي وخير بن شاكر؛ إذ أن الأمير محمد كان قد أعطى هذه الحصون القواد المولدين في قرطبة، إلا أن عبدالرحمن بن مروان

(١) البيان المغرب (٢/٦٢-٦٣). السيد سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (ص ٢١٤. ٢١٥).

(٢) البيان المغرب (٢/٦٣).

(٣) ابن حيان: المقتبس (ص ٢٩٣ وما بعدها). وابن الأثير الكامل (٧/٧١).

الجليقي هرب وتحصن بقلعة في ريف ماردة، واتفق مع الأمير محمد على النزول بقرية بطليوس وما حولها على أن يعفيه الأمير من المغارم والمكوس<sup>(١)</sup>.

وقامت في مدن الثغر الأعلى ثورات بني قسي المولدين سنة (٥٢٥٦هـ) واستمر الوضع مضطرباً بين الإمارة والثغر الأعلى إلى سنة (٨٧٢٣/٥٢٦٠م) حيث آل الأمر إلى مطرف بن لب بن قسي الذي حكم سرقسطة وتطيلة<sup>(٢)</sup>. ثم كانت ثورة رية مقدمة لفتنة عمر بن حفصون التي طغت على جميع فتن الأندلس<sup>(٣)</sup>.

ومن العوامل التي أثرت على الأحوال في عهد الأمير محمد الوضع الإداري في الدولة وسياسته الاقتصادية، فقد فشل الأمير محمد في استئلاف الرعية، والسرعة في رفع الظلم، رغم ما عرف عنه من الحزم في الأمور المالية وعلمه بعمال الإدارة<sup>(٤)</sup> ورغم أن هناك عمالاً عُرفوا بالشدة على الرعية في جباية الخراج فقد استمسك بهم الأمير محمد، وعزل من عُرف بالنزاهة والعدل لا لسبب إلا أنهم تخرجوا عن مملأته في بعض الأمور، وعين آخرين ممن ينفذ أمره، وإن كان ضالعا في ظلم الناس<sup>(٥)</sup>.

ب - الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣-٥٢٧٥/٨٨٦-٨٨٨م):

تولى الأمير المنذر بن محمد بعد وفاة والده، وكانت الأندلس عند وفاته قد "خُرقت فيها الهيبة، وزال ستر الحرمه، واستقبل ابنه المنذر نيران الفتنة"<sup>(٦)</sup>. وكانت فتنة عمر بن حفصون أكثر ما أقلق الأمير المنذر لإغارته على أرياف نور

(١) ابن حيان: المصدر السابق (٩٦/٢). نهاية الأرب (٣٨٩/٢٣).

(٢) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس (ص ١١١/١١٢).

(٣) ابن حيان: المقتبس (ص ١٤٨. ٣٩٣).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس (ص ١٠٠). ابن سعيد: المغرب (١/١٥٢-١٥٣).

(٦) ابن سعيد: المغرب (١/١٥٣).

حيان وألبيرة، فحاربه قوات الإمارة، وحاصرت حصن بيشترو وحطمت القرى حوله، وحاول ابن حفصون الصلح، ثم هرب، فصمم الأمير المنذر على محاصرته واستنزاله، إلا أنه توفي سنة (٢٧٥/٨٨٨م).

وهكذا حكم الأمير المنذر ما يقرب من سنتين، ولم يستطع فيها -لقصر مدته- رتق ما كان انفتق من الملك، مع حزم منه في ذلك وجد<sup>(١)</sup>، وأظهر المنذر العدل فأسقط عن أهل قرطبة عشور السنة، وقام بتغيرات إدارية فأصلح أمر كورة رية، وحصن معاقلها، واسترد الأملاك التي اغتصبها الوزير هاشم بن عبدالعزيز وردها لأصحابها<sup>(٢)</sup>.

ج - الأمير عبدالله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠/٨٨٨-٩١٢م):

بويح الأمير عبدالله بعد وفاة أخيه المنذر، وكانت له مزايا جعلته محبباً لدى الناس، فكان مقتصدًا في ملبسه وجميع أحواله، شديد التواضع منكرًا للسرف، مبعدًا لأهله، قويًا على ذوي الظلم والجور، ويعقد على أبواب قصره مجلسًا في أيام معلومة، فترفع إليه الظلامات، وتصل إليه الكتب، فلا يتعذر على ضعيف إيصال بطاقة بيده، ولا إتهاء مظلمة على لسانه<sup>(٣)</sup>.

وواجه الأمير عبدالله ظروفًا صعبة لتمزق الأندلس بالثورات، وأجمل ابن عذارى وصف الأندلس في عصره بقوله<sup>(٤)</sup>: "وأفضت إليه الخلافة وقد تحيفها الاختلاف ومزقتها الشقاق، وحل عراها النفاق، والفتنة مستولية، والقلوب مختلفة، وعصا الجماعة متصدعة، والباطل قد أعلن، والشر قد اشتهر، وتألب على أهل الإسلام أهل الشرك".

(١) أخبار مجموعة (ص ١٣٢).

(٢) البيان المغرب (٢/١٢٠). الحلة السراء (١/١٤٠).

(٣) ابن حيان: المقتبس (١٩٥-٢٠٠).

(٤) البيان المغرب (٢/١٨٤).

وتصدى الأمير عبدالله لمختلف مظاهر الفتنة بقوة وشجاعة مدة خمس وعشرين سنة دون تعب أو ملل، فقاتل الثائرين في كل مكان بالأندلس، وضرب بعضهم ببعض، ويعود للمنذر الجزء الأكبر من استقرار الأندلس وازدهاره في عصر عبدالرحمن الناصر بعد ذلك.

**الثورات والفتن: أسبابها وأشهر الثورات وأماكنهم:**

جمع ابن الخطيب<sup>(١)</sup> أسباب الثورات في ثلاثة أمور، فقال:  
"السبب في كثرة الثوار يومئذ ثلاثة أمور:

**الأول:** منعة البلاد وحصانة المعقل، وبأس أهلها بمقاربتهم عدو الدين، فهم شوكة وحد بخلاف سواهم.

**الثاني:** علو الهمم وشموخ الأنوف، وقلة الاحتمال لثقل الطاعة، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة أشرفا يأنف بعضهم من الإذعان لبعض.

**والثالث:** الاستناد عد الضيقة والاضطرار إلى الخبل الأشم والمقل الأعظم من ملك النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض.

ومن الأسباب التي أدت إلى الثورات كذلك توالي الأزمات الاقتصادية من قحط ومجاعات وأوبئة، فأثر ذلك على معظم أهل الأندلس، ويبدو أن الحكومة لم تواجه هذه الأزمات بالحرص وتخفيف وطأتهما، ف وقعت الأزمات في الفترة بين سنة (٢٥١-٢٥٥هـ/٨٦٥-٨٦٨م)<sup>(٢)</sup>، وكانت أشد سنوات القحط سنة (٢٦٠هـ/٨٧٣م) فعمت المجاعة وانعدمت الزراعة، وهلك كثير من الناس<sup>(٣)</sup>.

وحدث جفاف كبير ومجاعة سنة (٢٨٥هـ/٨٩٨م)<sup>(٤)</sup>، وتكرر ذلك سنة

(١) أعمال الأعلام (ص ٣٦).

(٢) ابن حيان: المقتبس (ص ٢٣١). ابن الأثير: الكامل (٧/١٩٠).

(٣) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس (ص ١٠٠).

(٤) البيان المغرب (٢/١٣٩).

(١٢٩٨/٩٠٩م) فعمت الأندلس بمجاعة كبيرة، وهلك كثير من الناس، حتى هاجر بعض الأندلسيين للمغرب<sup>(١)</sup>.

ومن أسباب الثورات سوء سيرة كثير من العمال والوزراء، فالأمير محمد عرف أن بعض الحياة اتصفوا بالظلم والشدة إلا أنه استمسك بهم<sup>(٢)</sup>، وتفق المصادر<sup>(٣)</sup> على سوء سيرة الوزير هاشم بن عبدالعزيز في عهد الأمير محمد، فألقى بأمره إليه "فلم يلبث أن أفسد عليه أمره بشرهه وصلفه، وحمله على غير المنهج من محمود طرقة، وجعله يعدل عن اختيار ثقات العمال من الشيوخ والكهول إلى غيرهم من الأحداث واللاحقين من أولي الشره والخيانة ودناءة الأصول والبراءة من عهدة الحياء والمروءة، فلم يلبث الأمر أن فسد بذلك حالا بعد حال، فنجمت الفتنة بأكثر البلاد، وكثر في الأرض الفساد، فما إن هلك الأمير محمد إلا وأكثر الأرض من الأندلس مضطربة ناراً".

وشملت الثورات معظم حواضر ومدن الأندلس وحصونها، فدخلت الإمارة في صراع مع الثوار الذين مثلوا معظم عناصر السكان من: عرب ومولدين وبربر. على أن أخطر الثورات والفتن وأطولها عمرا كانت ثورة عمر بن حفصون في كورة رية، فبدأت سنة (١٢٦٥/٨٣٩م) واستمرت حتى وفاته سنة (١٣٠٥/٩١٨م) أي نحو أربعين سنة، وتمركزت الثورة في منطقة مالقة وجبال رنذة<sup>(٤)</sup>، واعتصم أول أمره بقلعة بيشر، وكانت على صخرة عالية ضخمة منحدره عموديا، وهي أمنع قلاع الأندلس قاطبة<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن حيان: المقتبس (ص ١٦٨).

(٢) ابن سعيد: المغرب (١/١٥٢-١٥٣).

(٣) ابن حيان: المقتبس (ص ١٣١ وما بعدها).

(٤) أحمد بدر: دراسات في تاريخ الأندلس (ص ٢٤٤). الحريري: ثورة ابن حفصون (ص ١٥).

(٥) البيان المغرب (٢/١٠٦). ابن سعيد: المغرب (١/٧٣).

ومن الأسباب الاقتصادية للثورة بجانب الأسباب السياسية والاجتماعية: أن عامل الدولة في كورة رية "يحيى بن عبدالله بن يحيى" طالب أهلها بسداد ما تبقى من العشور، واشتد عليهم في الطلب<sup>(١)</sup>، واستغل ابن حفصون ذلك، فقاد الثوار<sup>(٢)</sup>، وحاول الاتصال بالأدراسة، وبني قسي، وبني حجاج، والنصارى وثائرين مولدين آخرين، وعاونه بعضهم حيناً<sup>(٣)</sup>.

وتحمل الجيش الأموي عبء محاربة ابن حفصون بقيادة أحمد بن أبي عبدة، وهاشم بن عبدالعزيز، وأغار ابن حفصون على المدن والقرى، وردت عليه القوات الأموية بنفس السلوك التدميري للزرع<sup>(٤)</sup>.

وضم ابن حفصون إليه: أرشدونة ومالقة وجيان وأستحة وباجة وقبرة وحصن أشر، فأحكم قبضته على المنطقة الممتدة ما بين جيان وأستحة غرباً، ومالقة على ساحل البحر المتوسط شرقاً<sup>(٥)</sup>.

دخل الأمير عبدالله في حروب حاسمة مع ابن حفصون لُحق فيها به هزائم حاسمة على يد اثنين من أمهر القواد هما: عبدالملك بن أمية، وعبيدالله بن أبي عبدة، فاستولوا على معقله بقلعة بلاي سنة (٨٢٧٨/٨٢٦١م)، وفي سنة (٨٢٨٦/٨٢٩٩م) أعلن ابن حفصون ارتداده عن الإسلام واعتناقه المسيحية، مما أفقده كثيراً من أنصاره المسلمين وقلصه سلطانه<sup>(٦)</sup>.

وقرر الخليفة الناصر حسم ثورة ابن حفصون فحصره في قلعة ببشتر،

(١) ابن الأثير: الكامل (٧/٣٦١). البيان المغرب (٢/١٠٦).

(٢) الحريري: ثورة ابن حفصون (ص٤٤).

(٣) عبادة كحينة: المولدون (ص٢٣٥ وما بعدها).

(٤) الحريري: ثورة ابن حفصون (ص٤٤).

(٥) البيان المغرب (٢/١٤٤). والحريري: ثورة ابن حفصون (ص٥٤).

(٦) ابن حيان: المتقنين (ص١٢٨).

واستولى على الحصون المهمة في كورتي جيان وألبيرة، فطلب ابن حفصون الصلح، ثم توفي سنة ٩١٧/٥٣٠٥م<sup>(١)</sup>.

وبهذا انتهت أهم الثورات في عصر الإمارة، ذلك العصر الذي بدأ قوياً فتياً ثم انتهى إلى (طوائف) متناحرة، تكبد في جمع شملها بنو أمية عبئاً كبيراً، فلما جاء عبدالرحمن الناصر (٣٠٠-٥٣٥٠) كان الرجل الذي هيأته العناية الإلهية؛ لينقذ الأندلس، وينقذ خلافة بني أمية في الأندلس أكثر من قرن من الزمان.

### الحضارة في عصر الإمارة:

تمكن الأمراء الأمويون من توطيد الأمر لهم -على الرغم من هذه الثورات-، فانقاد إليهم كل أبي وأطاعهم كل عصي، وكان هذا دأبهم وقانونهم<sup>(٢)</sup>، ومثل عصر الإمارة مرحلة انتقال حاسمة إلى حياة إسلامية في السلوك الاجتماعي والحياة اليومية، وقد بذل الأمراء والعلماء والدعاة الجهود في سبيل ذلك، فأصبحت قيم المجتمع مستمدة من القرآن والسنة، فوصف أهل الأندلس بأنهم "الأغلب عندهم إقامة الحدود وإنكار التهاون بتعطيها، وقيام العامة في ذلك وإنكاره إن تهاون فيه أصحاب السلطان"<sup>(٣)</sup>.

واستمرت الإمارة الأموية بين القوة والتوسط عامة، إلى قبيل الربع الأخير من القرن الثالث، حيث بدأت عوامل الضعف في السريان، فبدأ المجتمع يفقد تماسكه وأمنه. وازدهار الأندلس أو اضمحلاله مرتبط بالعلاقة بين المجموعات البشرية الممثلة للمجتمع وهي كثيرة<sup>(٤)</sup>، تتمثل في:

(١) ابن حيان: المقتبس (ص ٦٠).

(٢) المقرئ: نفع الطيب (١/١٩٨-١٩٩).

(٣) المقرئ: نفع الطيب: (١/٢٢٠).

(٤) طاهر راغب: في تاريخ المغرب بالأندلس (ص ١٤٠).

- ١- العرب: وهم ينقسمون بحسب النسب إلى: قحطانيين ومضريين أو بحسب الدخول للأندلس إلى: بلديين وشاميين، وتوزعت القبائل العربية من معظم الأماكن، فاستقر بعضهم في المدن والحواضر، وسكن بعضهم القرى والقلاع<sup>(١)</sup>.
- ٢- البربر: بفرعيهم الكبيرين البرانس والبتري، ويأتون بعد العرب أهمية، فلهم فضل كبير في فتح الأندلس، وأهم القبائل البربرية في الأندلس مطفرة، ومديونة، ومكناسة، وهوارة، وهم من زناته، ومنهم كذلك مغيلة ومعزوزة وأوربة ومصمودة<sup>(٢)</sup>، واشترك البربر في توجيه الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بالأندلس.
- ٣- المولدون: وهم الخليل الجديد الذي نشأ من آباء مسلمين وأمهات أسبانيات، والذين أسلموا من الأسبان، وكانوا من أصول متعددة لاتينية وقوطية وفينيقية وإفريقية<sup>(٣)</sup>، وازدادت أعداد المولدين مع انتشار الإسلام والتزاوج بين العرب والبربر وبين أهل أسبانيا<sup>(٤)</sup>، وقاموا بالعديد من الثورات في عصر الإمارة، كما رأينا.
- ٤- أهل الذمة: من النصارى واليهود، وكان عدد النصارى عند دخول المسلمين كبيراً، ولكن أعدادهم تناقصت، ولكن هناك أماكن وجد فيها النصارى واليهود بصورة واضحة مثل ألبيرة ورية وجيان<sup>(٥)</sup> وبطليوس. وتحرك النصارى الأسبان بإحساس أن الأندلس بلادهم، وأذكت الكنيسة هذا الإحساس واستغلته، فقام النصارى بثورات عدة في صليطنة والمناطق القريبة من الشمال النصراني<sup>(٦)</sup>.

(١) السيد سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم (ص ١١٩).

(٢) مؤنس: فجر الأندلس (ص ١٩٤).

(٣) الطاهر مكّي: دراسات عن ابن حرم (ص ١٧). السيد سالم: تاريخ الأندلس وآثاره (ص ١٢٨).

(٤) لوبون: حضارة العرب (ص ٢٨٩).

(٥) كحيلة: المعاهدون في الأندلس (ص ١٢٨ وما بعدها).

(٦) ابن حيان: المقتبس (ص ٢٩٢-٢٩٣). السيد سالم: تاريخ المسلمون وآثارهم (ص ٤٠).

٥- الصقالية: ظهوروا في عصر الإدارة، وهم مماليك جلبوا للأندلس من مناطق بين القسطنطينية وبلاد البلغار أو عن طريق الحروب<sup>(١)</sup> أو القرصنة، وتركز عملهم في الجيش والحراسة والخدمة في القصور، ثم تولوا خطأ مهمة أثرت على تاريخ الأندلس، حتى تدخلوا في تعيين الخلفاء والولاة، وكان لهم دور مؤثر في إنهاء الخلافة الأموية باشتراكهم في الفتنة البربرية<sup>(٢)</sup>.

وهذه العناصر والمجموعات السكانية إذا سيطر عليها الأمير الأموي ازدهر المجتمع، وإلا فالتشاحن والثورات والفتن، وما يستتبع ذلك من فقدان الأمن والنهيار الاقتصادي والعمران. فقبل الربع الأخير من القرن الثالث الهجري بدأ الأمراء الأمويون يفقدون السيطرة على بعض المجموعات السكانية المكونة للمجتمع، فأطلت العداوة والبغضاء بين العناصر السكانية، وشملت الأندلس الثورات والفتن، وانفك عقد المجتمع، فالمولدون يتعصبون ضد العرب والبربر، والعرب يردون بالتعصب ضد المولدين والبربر، وتحالف بعض العناصر مع بعضها.

وحاول الأمراء وقف هذه الثورات الكثيرة، لكن الأموال قليلة والدخل يتناقص، والأهالي يصرخون والشعور تترك للأعداء، فظهر عجز السلطة وقويت أطماع أهل الشر في كل مكان<sup>(٣)</sup>.

وظهرت النظم السياسية والإدارية في فترة الإمارة، فاتخذوا لقب الإمارة "لأنهم كانوا يشعرون بأن الخلافة واحدة لا تعدد، وأن الخليفة الشرعي هو حامي حمى الحرمين الشريفين، أي المسيطر على الحجاز أصل العرب والملة، وهو الخليفة العباسي في ذلك الوقت"<sup>(٤)</sup> إلى أن حول الخليفة الناصر الإمارة إلى خلافة سنة (٥٣١٦هـ).

(١) العبادي: الصقالين (ص ١٨).

(٢) يحيى أبو المعاطي: الحواضر الإسلامية في المغرب والأندلس (٢/٦٦ وما بعدها).

(٣) المقتبس: (ت منشور) (ص ٣٩ وما بعدها).

(٤) البيان المغرب: (٢/٤٨ . ٦٨ . ٨٠) وغيرها.

ويأتي منصب الوزارة بعد الإمارة، وتطورت هذه الخطة مع تطور أحوال الأندلس، فوضحت الخطة مع هشام بن عبدالرحمن<sup>(١)</sup>، ثم تطورت أكثر في عهد عبدالرحمن الأوسط، فقسمها إلى وزارات مختلفة، واتخذ لهم رئيساً يدعى الحاجب "رئيس الوزراء"، وجعل للوزراء بيتاً في قصره يجلسون فيه على كراسٍ منضدة، ويكون الأمر شورى بينهم، واختص كل منهم بشأن من شؤون الدولة، فوزير المال، ووزير للمظالم، ووزير للثغور أو الحرب<sup>(٢)</sup>.

وكان معظم الوزراء من موالي بني أمية، وتوارثت بعض البيوت الوزارة مثل: بني حُدَيْر وبني أبي عبدة وبني شهيد وبني فطيس<sup>(٣)</sup> وبني حزم.

ونالت خطة القضاء العناية والاحترام من الخاصة والعامة؛ لتعلقها بأمر الدين<sup>(٤)</sup>. وللقاضي شروط وصفات واختصاصات حددها المصادر<sup>(٥)</sup>. وللقضاة كبير سمي في عصر الولاة بقاضي الجند، ثم قاضي الجماعة في عصر الإمارة، وأسندت إلى القاضي بعض الخطط الأخرى كالشرطة والأجاس والموارث والصلاة<sup>(٦)</sup>.

وأظهر القضاة تعففاً في تولي القضاء، وحرصوا على استقلال القضاء، فاشتراط القاضي محمد بن بشير المعافري على الأمير الحكم الرضي أن يكون حكمه سارياً على الجميع من الأمير إلى الحارس، وإذا ظهر له العجز من ذلك أعفى<sup>(٧)</sup>، وعاون القاضي في أعماله خططاً أخرى كثيرة منها: خطة المشاورة

(١) المصدر السابق (٢/٢٢٠).

(٢) العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس (ص١٠٣). وان حيان: المقتبس (ص٢٩).

(٣) العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس (ص١٦٠). ويحيى أبوالمعاطي: الحواضر الإسلامية في المغرب والأندلس (٢/٣٦٤).

(٤) النباهي: المراقبة العليا (ص٢).

(٥) المصدر السابق (ص٥).

(٦) المصدر السابق (ص٥٩، ٦٠). الخشني: قضاة الأندلس (ص٩٢ وما بعدها).

(٧) النباهي: المصدر السابق (ص٤٧/٤٨).

والشرطة والحسبة والمظالم والفتيا والأحباس<sup>(١)</sup>.

العمران:

شهد عصر الإمارة كثرة عمرانية ضخمة صاحبت كثرة عدد السكان، وتغير الأموال عما كان قبل العصر الإسلامي، فبنيت المساجد والقصور والدور والحمامات، ودور الصناعة، والمنشآت الحربية كالقلاع والحصون والمنشآت المائية كالجسور والقناطر والسواقي والنواعير. فأسس المسلمون بالأندلس ما يقرب من خمسين مدينة مثل: ألمرية ومرسية والزاهرة والزهاء وبطليوس وغيرها<sup>(٢)</sup>.

ويعدّ مسجد قرطبة الجامع من أشهر المنشآت في عصر الإمارة، فبناه الداخل سنة (١٧٠هـ/٧٨٦م)، وأنفق عليه ثمانين ألف دينار<sup>(٣)</sup>. ثم وسع بعد ذلك في عهد الأمراء هشام وعبدالرحمن<sup>(٤)</sup>.

وجدير بالذكر أن نجاح عبدالرحمن الداخل الأموي في تأسيس دولة مستقرة في الأندلس قد أتاح الفرصة للهجرات الشرقية والأموية أن تدخل الأندلس بما تحمله من ثقافة وفكر وعلم، وبذلك وُجدت نواة الثقافة الإسلامية من منابعها الأصلية في المشرق. وليس من شك في أن شعلة الثقافة الأندلسية قد ذكّت عند قدوم كثير من الأمويين وأشياعهم الذين كانوا على قدر كبير من الثقافة، وليس من شك -أيضا- في أن وفودهم على الأندلس وطأاً للثقافة العربية الإسلامية سبل الانتشار والذيع<sup>(٥)</sup>. ويقول أحد المؤرخين: "إن من نتائج

(١) يحيى أبوالمعاطي: الحواضر الإسلامية في المغرب والأندلس (ص ٣٩٤/٢ وما بعدها).

(٢) المرجع السابق (١/١٢١ وما بعدها).

(٣) المقرئ: نفع الطيب (١/٣٢٩).

(٤) حسين مؤنس: المساجد (ص ١٩٤).

(٥) الديوني: الأدب في الأندلس (ص ١٠٦).

سياسة عبدالرحمن الداخل أن أخذت وفود المهاجرين تأتي على بلاد الأندلس؛ لدعم الدولة الناشئة وتعزيزها، وكون المرابطين ما يمكن أن نسميه بالطبقة الأرستقراطية أو الخواص<sup>(١)</sup>.

ومع تواصل الهجرات المشرقية إلى الأندلس اتسعت العمارة وكثرت أعداد المسلمين؛ فأنشئت المساجد الجامعة التي أصبحت مراكز للتعليم الإسلامي، فقد بلغت مساجد قرطبة -وحدها- على أيام عبدالرحمن الداخل أربعمائة وتسعين مسجداً، ثم زادت بعد ذلك<sup>(٢)</sup>، ولم يلبث الأندلسيون أن قاموا برحلات علمية إلى المشرق يطوفون بحواضره العلمية الكبرى مثل بغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة ومصر والقيروان، وقد حمل هؤلاء المتعلمون لواء الدفاع عن حقوق الرعية، فقد اشتركوا في الثورة على حكم الحَكَم بن هشام الرضي، مما يدل على أن رحلتهم كانت في عهد الأمير الداخل نفسه.

وبذلك مهد الداخل الطريق أمام التقدم العلمي والثقافي في الأندلس، وفي فترة حكم هشام بن عبدالرحمن الداخل سارت الأمور في الأندلس إلى مزيد من الاستقرار والتقدم، فقد اهتم بالعلماء والفقهاء، وكان له ديوان؛ لتوزيع الأرزاق والعطايا<sup>(٣)</sup>. وقد دفعه ورعه واتساع ثقافته إلى أن يميل باستمرار إلى التعامل مع فقهاء قرطبة الذين أتاحت لهم بمناسبة الحج زيارة الأماكن المقدسة الإسلامية والتعرف على المشرق. وفي عهد هذا الأمير انتشر مذهب الإمام مالك بن أنس<sup>(٤)</sup>؛ فقد كان هشام وأخوه سليمان يحضران مجلس العلم في جامع قرطبة. وقد أمر

(١) جودت الركابي: في الأدب الأندلسي (ص ١٦).

(٢) انقري: نفع الطيب (٧٨/٢).

(٣) أخبار مجموعة (ص ١٢٠).

(٤) يحيى بن عمر: أحكام السوق (ص ٧٢. ٧٧) محمود مكي: فجر الأندلس (ص ٦٥٢ ٦٥٥).

عبدالرحمن الداخل بأن يحضر هشام مع أخيه الأكبر سليمان المجلس العلمي للقاضي في المسجد الجامع حيث أظهر نباهة ونجاعة في كل مناسبة من المناسبات.

وفي عهد الأمير الحكم الربضي حدث الصدام بين الحكم بن هشام ممثلاً للسلطة السياسية، وبين الفقهاء ممثلين العلم، والناطقين باسم الرعية، وقد فطن الحكم الربضي إلى سلطة الفقهاء العلمية، فأصدر عفواً عن الفقهاء<sup>(١)</sup>. وفي عهد الأمير عبدالرحمن الأوسط بدأت الحضارة الإسلامية في الأندلس تتضح وتستقطب المبدعين من خارجها من العلماء. والموسيقين من كافة البلدان، ونبغ فيها عظماء من الأندلس كذلك، فظهر في القرن الثالث العالم الشهير عباس بن فرناس الأموي ولاءً، والذين ترجموا له ذكروا أنه توفي عام (٥٢٧٤/٨٨٧م)، عن عمر يقترب من الثمانين، فتكون ولادته حوالي سنة (٥١٩٥/٨١٠م)<sup>(٢)</sup>، وقد اتصل بثلاثة من الأمراء وهم: الحكم الربضي وابنه عبدالرحمن الأوسط، ومحمد بن عبدالرحمن، وأصبح ابن فرناس حكيم الأندلس، علماً في مجالات العلوم والمعارف مثل الكيمياء، والفلك والتنجيم، والعروض واللغة<sup>(٣)</sup> والموسيقى، وكان الأمير عبدالرحمن الأوسط "داعياً وحامياً لكافة الفنون والعلوم"<sup>(٤)</sup>، لتمييز عهده بالسلام الطويل.

وهكذا تواصلت العملية التعليمية والثقافية في عصر الإمارة في هذه البلاد، بعد أن ظلت بعد الفتح لا يكاد أهلها يتقبلون إلا علوم الشريعة واللغة إلى أن توطد الأمر لبني أمية، فتحرك دور المهتم لطلب العلوم<sup>(٥)</sup>.

(١) البيان المغرب (٢/٨٠٠).

(٢) سعيد الديوجي: الفكر العلمي في شخص عباس بن فرناس (ص ٢٨٢).

(٣) المصدر السابق (ص ٢٨٣-٤٨٦). سوادى بن محمد: عباس بن فرناس (ص ١٥٣-١٧١).

(٤) عبد الشافي غنيم: محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٥٧). دائرة المعارف الإسلامية (١/٥٣).

(٥) محمد يوسف موسى: بين الدين والفلسفة في رأي ابن رشد ط ٧. ١٩٦٨م.

عصر الخلافة (٣١٦-٥٤٢٢هـ):

امتد عصر الخلافة قرناً كاملاً تقريباً، وانتظم ثلاث فترات:

١- خلافة الناصر وولده الحكم المستنصر (٣١٦-٥٣٦٦هـ/٩٢٨-٩٧٦م).

٢- فترة الحجابة العامرية (٣٦٦-٥٣٩٩هـ/٩٧٦-١٠٠٨م).

٣- فترة الفتنة (٣٩٩-٥٤٢٢هـ/١٠٠٨-١٠٣١م).

١- الخليفة عبدالرحمن بن محمد الناصر (٣٠٠-٥٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م):

تولى عبدالرحمن الإمارة بعد موت جده (٥٢٩٩هـ/٩١٢م)، ولم يبق معارضة من البيت الأموي، مع أن سنه لا تتجاوز الحادية والعشرين؛ وذلك لأنهم فهموا خطورة الموقف، فالفتن والثورات محدقة بالأندلس وخزانة الدولة تكاد تكون خاوية<sup>(١)</sup>.

لكن الناصر باشر أمور دولته في حزم وعزم وكفاءة، فأراد إعادة وحدة الإدارة وهيبتها، فقام بتقوية الجيش وتزويده بقوات جديدة<sup>(٢)</sup>. وكانت سياسة الناصر القضاء على المناطق الثائرة الأقرب فالأقرب، فاستولى على إستجة وأحضع نحو سبعين حصناً من حصون كور جيان ورية وألبيرة<sup>(٣)</sup>، ثم استولى على الحصون القريبة من معقل برشتر التابع لكبير الثوار عمر بن حفصون<sup>(٤)</sup>.

ولما رأى ابن حفصون عبث مقاومته طلب الصلح من الناصر، فأقره الناصر على الصلح، ولم يثبت أن توفي ابن حفصون سنة (٥٣٠٥هـ/٩١٧م)، وترك ابن حفصون أربعة أبناء هم: جعفر وسليمان وعبدالرحمن وحفص، لكن لم يبلغ أحدهم مبلغ والده في الفجور، وقضى الناصر على ثوراتهم سنة

(١) ابن عذاري: البيان المغرب (٢/١٥٧). من خطيب: أعمال الأعلام (ص ٣٣). ابن خلدون العر (٤/١٧).

(٢) المقرئ: فتح الطيب (١/١٩٨).

(٣) ابن حبان: المقتبس (ص ٦٠). وابن عذاري: البيان المغرب (٢/١٦١، ١٦٢).

(٤) ابن عذاري: لبيان المغرب (٢/١٦٠). ابن خلدون: العر (٤/٢٩٨).

(١٦٣/٩٢٨م)<sup>(١)</sup>، ثم أخضع المناطق الشرقية والغربية بالقوة أو بالسلم، فأطاعته ضليطة وبطيوس والثغر الأعلى<sup>(٢)</sup>.

وكان أمر نصارى الشمال قد قوي في نهايات القرن الثالث الهجري، ولم يمنع ضعف الاقتصاد الأندلسي الخليفة الناصر من حماية حدوده مع نصارى الشمال، وبخاصة بعد قيام أردون الثاني ملك اشتوريش وليون من الإغارة على بابرة وحصن الحسن<sup>(٣)</sup>، فأخرج الناصر حملة تأديبية سنة (٣٠٦هـ/٩١٨م) أدبت ملك ليون وحليفه ملك نيرة شانجة بن غرسية، وأخرج الناصر بنفسه لردع أردون، فاستولى على قلعة أوسمة، وخشمة، وأحرقها، وهدم قلعة اشتين، وعندما تحالف ملك نيرة مع ملك ليون هزمهما الناصر وقتل من رجالهما الكثير، ومات ملك ليون كمدًا سنة (٣١٢هـ/٩٢٤م)<sup>(٤)</sup>.

وتولى بعد أردنيو الملك ردمير (٣١٩-٣٢٩هـ/٩٣١-٩٥٠م) وحاول التحالف مع طليطلة سنة (٣٢٠هـ/٩٣٢م)، فغزا الناصر مدينة ليون وهزم أعداءه، ثم قام الناصر بحملة على ليون سنة (٣٢٢هـ/٩٣٣م)<sup>(٥)</sup>.

غير أن رومير تحالف مع بني هاشم التحييين حكام سرقسطة، وانضمت إليهم الملكة طوطة "تبودا" ملكة نيرة، فهاجمهم جيش الناصر سنة (٣٢٥هـ/٩٤٦م)، وخرّب حصون نيرة، ودفعت له الجزية، فأخضع بذلك الشمال الشرقي للأندلس، وحصّن منطقة الثغور، فبنى مدينة سالم وشحنها بالمعدات والرجال سنة (٣٣٥هـ/٩٤٦م)، لتكون مركزاً للدفاع عن المسلمين<sup>(٦)</sup>.

(١) البيان المغرب (٢/١٨٢ . ١٨٩). عنان: دولة الإسلام في الأندلس (٢/٢٣١ . ٢٣٢).

(٢) ابن حيان: المقتبس (٥/٢٤٦ . ٢٨٠ . ٣١٨). وابن عذاري: البيان المغرب (٢/٣٠٠ . ٣٠٣).

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب (٢/١٧٣ . ١٧٥).

(٤) ابن عذاري: المصدر السابق (٢/١٨٥). ابن خلدون: العبر (٤/١٤١).

(٥) ابن حيان: المقتبس (٥/٣٣٣). ابن عبدربه: العقد الفريد (٢/٣٧٥).

(٦) ابن عذاري: البيان المغرب (١/٢١٣). المقرئ: نفع الطيب (١/١٦٩). العذري: نصوص عن

وفي أواخر سنوات حكم الناصر انشغلت مملكة ليون بالصراع على العرش بين ولديّ ردمير الثاني، فأغارت قوات المسلمين على حليقية وطنبية سنة (٩٤١/٩٥٢م)، وعلى قشتالة سنة (٩٤٤/٩٥٥م)، فطلب ملك ليون الصلح؛ خوفاً وسلمت بعض الحصون للناصر مقابل الصلح<sup>(١)</sup>.

**الناصر والفاطميون في المغرب:** عندما تولى الناصر حكم الأندلس كانت الدولة الفاطمية قد استولت على المغرب منذ أربع سنوات (٩٦٦/١٠٠٨م)، فأحدث ذلك صراعاً بين أمويي الأندلس، والفاطميين الشيعة في المغرب<sup>(٢)</sup>، فقام الناصر بخطوات تجاه هذا الصراع تمثلت في الآتي:

١- تقوية الأسطول الأندلسي وشحن الموانئ بالسفن والعتاد، وفرض الحراسة على جبل طارق وسائر القواعد الأندلسية<sup>(٣)</sup>.

٢- تحصين الثغور الأندلسية الجنوبية المواجهة للمغرب، وأهمها جزيرة طريف والجزيرة الخضراء التي تواجه مدينة سبتة، وذهب الناصر بنفسه للمنطقة سنة ٩٠٢/٩١٤م ليطمئن عليها<sup>(٤)</sup>.

٣- السيطرة على الثغور المغربية المطلّة على سواحل الأندلس مثل سبتة وضنجة ومليبية<sup>(٥)</sup>.

٤- اصطناع رؤساء قبائل المغرب مثل الأدراسة وبني صالح في نكور وقبيلة زناتة<sup>(٦)</sup>.

٥- تأييد ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الملقب بصاحب الحمار، وإمداده بالمساعدات المالية والعسكرية، وهو ثائر سنّي إباضي ضد الفاطميين الإسماعيلية، وتبادل

(١) ابن عذاري: البيان المغرب (٢/٢١٩ . ٢٢٠). لين بول: قصة العرب في أسبانيا (ص ١١٠).

(٢) العادي: في تاريخ المغرب والأندلس (ص ١٩٧ . ٢٠٠). نعمي: تاريخ الدولة الأموية (ص ٣٥٨).

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب (٢/٢٤٧).

(٤) المقرئ: نفع الطيب (١/١٥٧). الحموي: الروض المعطار (ص ٧٣ . ٧٤).

(٥) البكري: المغرب في ذكر إفريقية والمغرب (٨٩). ابن عذاري: البيان المغرب (٣/٣٠٧).

(٦) أحمد المكناسي: المدن المندرسة في شمال المغرب (٤٤/٤) مفاخر البربر (ص ٤).

السفارات مع أبي يزيد حتى اعترف له أبويزيد بالسيادة<sup>(١)</sup>.

## ٢- خلافة الحكم المستنصر:

تعد خلافة الحكم المستنصر امتدادا لعصر والده الناصر داخليا وخارجيا وتتويجا لعصر أبيه، فقد ترك له والده دولة قوية مستقرة غنية، وواصل الحكم المستنصر الاهتمام بتأمين حدود الدولة من نصارى الشمال، وبلاد المغرب في الجنوب<sup>(٢)</sup>.

فعندما توفي الناصر كان قد أعان (شانجة) على استرداد عرش مملكة ليون مقابل عشرة حصون على الثغور، وتراخى شانجة في الوفاء بوعدده، فلما لجأ أردون إلى الحكم المستنصر لاسترداد عرش ليون سارع شانجة بتسليم الحصون.

وحاول أمراء النصارى في ليون ونيرة وقشتالة وبرشلونة التحالف ومهاجمة أرض المسلمين، فشن المستنصر الحرب عليهم<sup>(٣)</sup>، واستولى على كثير من الحصون، ولقن نصارى الشمال درسا قاسيا، ثم تدهورت ممالك النصارى بوفاة شانجة الأول ملك ليون (٣٥٥هـ/٩٦٥م) ثم توفي فرناند أمير جليقية اشتوريس (٣٥٩هـ/٩٧٠م)، ولحقه غرسيه الأول ملك نيرة في السنة نفسها، وتوافد خلفاء أمراء نصارى الشمال معلنين الطاعة<sup>(٤)</sup>.

واختلفت سياسة الحكم في بلاد المغرب الخاضعة للفاطميين الإسماعيلية عن سياسة والده الذي اكتفى بالاستيلاء على سبتة ومليلة وطنجة، ولكن الحكم المستنصر تدخل فعليا في المغرب؛ وذلك لأسباب منها:

١- ضعف الممالك النصرانية وعدم قدرتها على الإغارة على حدود المسلمين.

(١) ابن عذاري: البيان المغرب (٢/٣١٨). العبادي: سياسة الفاطميين في المغرب والأندلس (ص ١٠٤).

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب (١/٢٢٥). إبراهيم بيضون: الدولة العربية في أسبانيا (٣٠٣).

(٣) المقرئ: نفع الطب (١/٣٨٤). ابن خلدون: العبر (٤/١٤٤).

(٤) محمود مكى: تاريخ الأندلس السياسي (ص ٩٠).

٢- إعلان بعض القبائل الزناتية التمرد على الولاء للأمويين.

٣- هذا فضلاً عن الهدف الاقتصادي وهو ذهب بلاد السودان<sup>(١)</sup>.

ولم تستهلك الأحداث السابقة وقتاً طويلاً مما ترك وقتاً طويلاً للمستنصر لإكمال ما بدأه، فخصصت أموال طائلة للعلم ولمعاونة الناس في الأزمات، وزيد في عصره المسجد الجامع بقرطبة<sup>(٢)</sup>.

إلا أن الحكم المستنصر ارتكب خطأين كبيرين كان لهما أوجم العواقب:

أولهما: الاستكثار من الجنود المرتزقة المغربية، ولاسيما قبائل صنهاجة الذين تحولوا إلى فئة عسكرية لها مكاسب اقتصادية، وكان لهم دور كبير في العتنة (٣٩٩-٤٢٢هـ/١٠٠٨-١٠٣٠م)، والتي سوف تطيح في النهاية بالخلافة الأموية نفسها.

والخطأ الثاني: هو تولية العهد لولده هشام الذي لم يتجاوز عمره الثانية عشرة في بلد يحتاج إلى رجل قوي لحكمه، وكان البيت الأموي حافلاً بأمراء أكفاء صالحين لتولي الخلافة، وبسبب هذه الولاية للعهد المخالفة لقواعد الشريعة فتحت الصراعات على أشدها للمنافسة<sup>(٣)</sup> على الحكم.

٣- الحجابة العامرية: المنصور بن أبي عامر (٣٦٦هـ-٣٩٢هـ/٩٧٦-١٠٠١هـ):

تحركت الأحزاب والأطماع لتوجيه السلطة السياسية بعد وفاة الحكم المستنصر وفق ما تراه في مصلحتها، فالتفت الفتيان الصقالبة حول (فائق وجوزر) وأرادوا تولية المغيرة عم هشام المؤيد بالله، وأرسلا إلى الحاجب جعفر المصحفي - كبير الوزراء- وعرضاً عليه ما أجمعاً عليه من الرأي، فجمع أصحاب هشام المؤيد مثل زياد بن أفلح مولى الحكم وقاسم بن محمد ومحمد بن أبي عامر وأشباههم،

(١) ابن حيان: المقتبس (ص ٢٦، ٧٩، ١٠٢، ١٠٨، ١٢٨). عبدالعزير الفيلاي: العلامات السياسية بين الدولة الأموية ودول المغرب (ص ١٨٣ وما بعده).

(٢) العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٢٤٧). مونس: العالم تاريخ المغرب والأندلس (ص ٣٣٨).

(٣) محمود مكّي: تاريخ الأندلس السياسي (ص ٩١).

واستدعى بني بزال بطانته من سائر جنده، واستحضر قواد الأجناد، واتفقوا على تولية هشام وقتل المغيرة، وبذلك اقتلعت شوكة الصقالبة<sup>(١)</sup>.

واستطاع المنصور - بعد ذلك - العمل لحساب نفسه، وتصفية الصقالبة أتباع الحكم ومؤيدي ولي العهد هشام المؤيد بالله<sup>(٢)</sup>، وتحالف مع آخرين لتحقيق أهدافه، وكان أولهم القائد الأعلى غالب بن عبدالرحمن صاحب مدينة سالم والشعر الأدنى وفارس والأندلس، وكانت بينه وبين الحاجب جعفر المصحفي عداوة قديمة ومنافسة<sup>(٣)</sup>، وبعد أن تخلص من جعفر المصحفي استعان بالجندي البربري؛ لتصفية غالب ابن عبدالرحمن والقيادات العسكرية بالثغور، ثم قرب البربر لتصفية العرب "ثم تجرد لرؤساء الدولة، وأنزلهم عن مراتبهم"<sup>(٤)</sup>، بما فيهم الكتاب والعمال والفقهاء والحكام وأصحاب السيوف والأقلام وفرقتهم وأقام بإزائهم من تخريجه رجالاً سدوا مكانهم<sup>(٥)</sup>.

وهذه الصراعات والتحالفات أخذت كثيراً من استقرار الأندلس، وجعلت الأندلس في وضع قابل للتفتت، فكان عهد المنصور المكون الأساسي لعصر الطوائف، فهناك - بإيجاز - ثلاثة أمور أضرت بالأندلس في عهد المنصور، وهي:

١ - إقامة المنصور نظامه على أكتاف المرتزقة من البربر والصقالبة، فضلاً عن حزبه العامري (نسبة إليه) من رجال الأندلس الذين سيحكمون في عصر الطوائف مثل: بني عباد في إشبيلية، وبني يعيش في طليطلة، وبني عجيب في الشعر الأعلى، وبني الأفطس في بطليوس.

(١) ابن الأبار: الحلة السبراء (٢٨٦/١). ابن عذاري: البيان المغرب (٢٦٠/٢).

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب (٢٦٣/٢).

(٣) ابن خلدون: العبر (١٤٧/٤).

(٤) ابن خلدون: العبر (١٤٧/٤).

(٥) ابن بسم: الذخيرة (٦١/٤).

٢- سياسة المنصور الشديدة مع كبار رجال الأندلس وبخاصة لبيت الأموي الحاكم، وهذا السلوك حطم معظم رجال هذا البيت.

٣- استخلاف المنصور لأولاده مع علمه أن أحدا منهما -عبدالمالك وعبدالرحمن- لن يملأ الفراغ الذي سيتركه.

أما سياسة المنصور مع نصارى الشمال فكانت أظهر أعماله وأقواها وهي سبب شهرته، فقد كثرت غزواته حتى بلغت أكثر من خمسين غزوة لم يهزم في واحدة منها قط، ومع ذلك فهي لم تغير أوضاع شبه الجزيرة، وأقصى ما فعلته إنما أضعفت نصارى الشمال فترة طويلة<sup>(١)</sup>.

أما سياسة المنصور في المغرب فقد تورط فيها بقواته، وفرض عليها سيطرته بتحالفه مع زيري بن عطية المغراوي وابنه المعز<sup>(٢)</sup>.

٤- عبدالمالك المظفر (٣٩٢-٥٣٩٩/١٠٠٢-١٠٠٨م):

ويعدّ عهد عبدالمالك المظفر استمرارا لعهد والده، وكان ذا نزعة دينية فاقت نزعة والده، فحارب نصارى الشمال، واستمرت الحملات في عهده، فزادت ممالك النصارى تمزقا وضعفا، وفي المغرب احتفظ بالسيطرة على المواقع الساحلية، وقرّب منه زناتة<sup>(٣)</sup>، ورفق بالرعية، فحط عنها بقايا المغارم، وأسقط سدس الجباية أول ولايته في جميع أقطار الأندلس<sup>(٤)</sup>، وكان يظهر لعدل ويحمي الشرع، وينصر المظلوم<sup>(٥)</sup>، ويرفق بالرعية<sup>(٦)</sup>.

(١) البيان المغرب (٢/٢٨٠). أعمال الأعلام (ص٢٧٧). الإحاطة (٢/١٠٦. ١٠٧). نفع الطيب (١/٤٠٠). الحلة السواء (١/٢١٦. ٢١٧).

(٢) ابن سمام: الذخيرة (٤/١٠٦). وابن عزاري: البيان المغرب: (٢/٢٦٦).

(٣) البيان المغرب (٣/٥). أعمال الأعلام (ص٧٨).

(٤) العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي (ص٤٥٩).

(٥) ابن سمام: الذخيرة (٤/٧٨). ابن الخطيب: أعمال الأعلام (ص٨٧).

(٦) أعمال الأعلام (ص٩٧).

٥- عبدالرحمن بن المنصور (شنجول) (٥٣٩٩/٨-١٠٠٨م):

خلف عبدالملك المظفر أخوه عبدالرحمن الملقب بالمأمون، وكان شابًا طائشًا، تعود أصوله من أمه إلى حفيدة سانشو غرسيه ملك نبرة، وكان سلوكه سببًا في أن كره الناس البيت العامري، وتسامعوا أن عبدالرحمن شنجول يريد استصدار مرسوم بولاية العهد، وكانت العلاقات بينه وبين كبار رجال الدولة سيئة<sup>(١)</sup>.

وقد استغل أحد أفراد البيت الأموي وهو محمد بن هشام بن عبدالجبار الملقب بالمهدي خروج شنجول لغزو نصارى الشمال، فثار وقتل صاحب المدينة، فعاد عبدالرحمن شنجول بسرعة رافضًا نصائح أعوانه بعدم العودة، لكنه أبى، وانتهى الأمر بالقبض عليه وقتله<sup>(٢)</sup>.

٦- فترة الفتنة البربرية (٣٩٩-٥٤٢٢/٨-١٠٠٨-١٠٣٠م):

اختلفت الأوضاع السياسية والاجتماعية منذ وفاة الحكم المستنصر؛ بتكاثر الصقالبة ثم البربر، وطميش دور القبائل العربية، وكان أن انتهز الأمير الأموي محمد بن هشام خروج عبدالرحمن شنجول، فثار هو وأنصاره واستولوا على الزاهرة التي بناها المنصور بن أبي عامر، وأحرقوها، ثم استولوا على قصر الخلافة ونهبوه، وخلع الخليفة هشام المؤيد، وبويع محمد بن هشام المهدي، وقتل المهدي الحاجب عبدالرحمن شنجول، وأخفى الخليفة المؤيد وأشاع موته<sup>(٣)</sup>.

وساءت سيرة المهدي، وانشغل باللهو والجون، واستخدم في وظائف الدولة أراذل العامة، وأساء إلى قواد الجيش وشيوخ البربر، واختفى بأمواله التي طولب بتقديمها للمهدي<sup>(٤)</sup>.

(١) مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس (ص٣٠٣).

(٢) البيان المغرب (٦٠/٣). نفع الطيب (٤٢٦/١).

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب (٧٧.٧٣/٣). ابن الخطيب: أعمال الأعلام (ص١١٢).

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب (٦٣/٣). ابن بشكوال: الصفة (٢٧/١).

وقام العامة بقتل من وجدوه من البربر، وكان قاضي الجماعة أكبر الناس نفوراً من البربر<sup>(١)</sup>، واستمال البربر الأمير هشام بن سليمان "الرشيد" ومال معهم أهل الصنائع والفتيان، وسبعة آلاف جندي ممن كان المهدي قد أسقطهم من الديوان، وتقاتل محمد المهدي ومعه أهل قرطبة مع جند هشام الرشيد والبربر. وقتل هشام الرشيد ومعه عدد من البربر واستحكم العداء بين الأندلسيين عربياً وبربراً. وأعلن المهدي عن مكافأة لكل من يأتي برأس بربري<sup>(٢)</sup>، وهو سلوك فاسد دينياً ودنياً.

وباع البربر الأمير الأموي سنيان بن الحكم المستنصر، وتلقب "بالمستعين"، وبدأت الحرب بين الحزب الأندلسي بقيادة المهدي، والحزب البربري بقيادة المستعين، وتحالف المهدي مع نصارى برشلونة، والمستعين مع نصارى قشتالة، وأصبح الوضع في قرطبة وما حولها من القرى والبوادي بالغ السوء، "فغصت أراضي قرطبة ومقابرها بأهل البوادي والمحشودين من مدائن الأندلس وأقاليمها"<sup>(٣)</sup>، وانهمز أهل قرطبة وقتل منهم عدد كبير<sup>(٤)</sup>، في وقعة "منتيش" سنة (٤٠٠/١٠٠٩م).

وترك المهدي قرطبة لسنيان المستعين، فاندفع البربر في أرض قرطبة يقتلون ويأسرون<sup>(٥)</sup>، وقطعت هذه التصرفات كل مودة بين أهل قرطبة والبربر، وتحالف المهدي مع الصقالبة، وتوجهوا ناحية قرطبة وأخرجوا البربر من قرطبة، واتخذ

(١) الساهي: المرتبة العليا (ص ٨٨).

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب (٣/٨٤، ٨٥).

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب (٣/٢٨٨).

(٤) الضي: بغية المنتمس (ص ١٨). ابن بسام: الذخيرة (١/٤٣). ابن الأبار: الحلة السراء (٢/٦).

(٥) ابن بسام: الذخيرة (١/٤٤).

المهدي واضحاً الفتي حاجباً له<sup>(١)</sup>، غير أن الصقالبة تخلصوا من المهدي فقتلوه، أملاً في التفاف البربر والمستعين حول هشام المؤيد بالله، إلا أن البربر والمستعين حاصروا قرطبة، واشتد بأهل قرطبة الجوع وعدمت الأقوات حتى باع هشام المؤيد ما في قصره من ذخائر وكتب وأدوية للحصول على المال، وباع الحاجب واضح أجزاءً كبيرة من مكتبة الحكم المستنصر<sup>(٢)</sup>، وساءت الأحوال وأراد واضح الفتي الهروب فقتله بعض الجنود<sup>(٣)</sup>، ونهب الوزير (ابن مناو) قصر الخليفة وهرب، وتقاتل أهل الأندلس مع البربر، وقتل عدد من أهل قرطبة.

وبعد أن ثبّت البربر أنفسهم، رأوا القضاء على الخلافة الأموية، فقبضوا على من وجدوه من بني أمية داخل قرطبة وقتل الخليفة المستعين وأخوه ووالدهما (٤٠٧هـ/١٠١٦م)<sup>(٤)</sup>، فانتقلت الخلافة من الأمويين إلى الحمدانيين، وأعاد علي بن حمود الأمن والاستقرار، لكنّ علي بن حمود تغير على أهل قرطبة حين علم بأمر مبايعة عبدالرحمن بن محمد المرتضي، فألزمهم المغارم<sup>(٥)</sup>، وقتل علي بن حمود الصقالبة، وقتل المرتضي من الصقالبة، واستدعى البربر القاسم بن حمود الذي أسقط عن أهل قرطبة ما كان قد طالبهم به أخوه وأقر الحكام.

وسار أعيان قرطبة ووزراؤها بزعامة أبي الحزم بن جمهور، وأوقفوا أعمال السلب والنهب، وأجمعوا على إبطال الخلافة، وإزالة الأمويين وطردهم من قرطبة، فهرب أمية بن عبدالرحمن وقتل سنة (٤٢٤هـ/١٠٣٢م)، وسجن الخليفة هشام

(١) البيان المغرب (٩٩/٣). ابن الخطيب: أعمال الأعلام (ص ١١٥).

(٢) المراكشي: المعجب (ص ٤٣). ابن الخطيب: أعمال الأعلام (ص ١١٧). ابن خلدون: العبر (٤/١٤٦).

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب (١٠٠/٣).

(٤) ابن بسام: الذخيرة (٢٨/١/١). ابن عذارى: البيان المغرب (٣/١٢٠).

(٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (ص ١٥١).

المعتمد بضعة أيام في المسجد الجامع يعيش على الصدقة، ثم سار إلى سليمان بن هود الجزائري في سرقسطة ولاروة وتوفي سنة (٥٤٢٨/١٠٣٦م)<sup>(١)</sup> وبموت هشام المعتد انتهت الدولة الأموية بالأندلس، وقام عصر الطوائف.

نظرة عامة تحليلية على (عصر الفتنة والطوائف) ٣٩٩-٥٤٢٢هـ:

فور سقوط دولة بني عامر عاشت الأندلس وقرطبة فترة الفتنة التي امتدت من سنة (٥٣٣٩هـ حتى سنة ٥٤٢٢هـ). ويكفي للدلالة على ما تمتاز به هذه الفترة من قلق واضطراب كبيرين أنه قد تقلب على الأمر فيها عشرة حكام تولى أربعة منهم الحكم مرتين. وبعض هؤلاء الحكام من الأمويين<sup>(٢)</sup>، وبعضهم من بني حمود<sup>(٣)</sup> الذين استولوا على السلطة في قرطبة سنة (٥٤٠٦هـ)، وأخذوا يعثون بالحكم فيولون ويعزلون كما يشاءون، ويطلقون من الألقاب ما يحلو لهم، وبديهي أن تولى بعض الخلفاء الحكم أكثر من مرة كان بتأثير الفتن الدائرة وأسلوب الانقلابات الدموية. وقد انفكت عروة الدين من النفوس، بعد أن تفككت مشروعية الحكم، فأصبح الأمر صراعاً جنسياً بين عرب وبربر وصقالبة<sup>(٤)</sup>، واستعان بعضهم بالنصارى على بعض.

لقد أحس الخليفة الشرعي هشام بن الحكم في أخريات أيام الدولة العامرية

(١) ابن عداري: البيان المغرب (١٥١/٣). المراكشي: المعجب (ص ٥٨). ابن الخطيب: أعمال الأعلام (١٦٢-١٦٣). ابن الأبار: الحلة السراء (٢٠٩/١).

(٢) وهم: محمد بن هشام. وسليمان بن الحكم. وهشام الثاني. وعبدالرحمن الرابع وعبدالرحمن الخامس ابن هشام. ومحمد الثالث بن عبدالرحمن. وهشام الثالث بن عبدالرحمن. راجع: القنقشندي: صح الأعشى (٢٤٥/٥). ٢٤٦.

(٣) وهم: علي الناصر بن حمود. القاسم المأمون بن حمود وبجي بن علي بن حمود. (راجع المصدر السابق).

(٤) انظر: د. علي حبيبة: مع المسلمين في الأندلس (ص ٢٢١. ٣٤٠). وانظر: محمد عبدالله عنان: دول الطوائف (ص ٢٠. ٢١).

بعمق الكارثة التي توشك أن تحيط بالأندلس والخلافة الأموية، كما أحس بأنه أمام بني عامر لا يعدو أن يكون أسيراً في قصره، محجوباً عن الناس مَقْصِيّاً عن دفة الحكم<sup>(١)</sup>.

ولئن كان ابن عم هشام الملقب بمحمد بن هشام الثاني (المهدي) قد استطاع -بمعاونة المؤمنين بضرورة الخلافة الأموية- أن يصل إلى الحكم في محاولة أخيرة؛ لإعادة خلافة بني أمية المتداعية<sup>(٢)</sup> (١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٣٩٩/١٠٠٨م) - فإن بني أمية في الأندلس، لم يكونوا قادرين على الصمود في ميدان النضال طويلاً؛ ذلك لأنهم لم تكن لديهم من العوامل الأدبية والدينية والتاريخية قوة مادية يعتد بها<sup>(٣)</sup>. كما أنه خلال الفترة التي أمضاها المنصور بن أبي عامر في الحكم كان قد اعتمد على البربر والصقالبة في تكوين جيوشه وفي بقية أعماله. وما إن توفي "المنصور" حتى أصبح هؤلاء قوة ليس من السهل القضاء عليها، فضلاً عن أنما أضعفت من كيان بني أمية كثيراً. ولم يعد ممكناً -في ظل هذا الوضع- لأية سلطة -أموية أو غير أموية- أن تثبت وتستقر<sup>(٤)</sup>؛ ولذا فلم يمض غير قليل حتى وقعت بين الخليفة المهدي والبربر فتنة أودت بحياته، وأعدت الخليفة "هشاماً المؤيد" إلى الخلافة بعد غيبة أربع وثلاثين سنة عنها. وكان ذلك على رأس القرن الرابع الهجري.

ويصف لنا "ابن بسام" -نقلاً عن "ابن حيان" - الأعوام السبعة الأولى للفتنة (٤٠٠-٤٠٧هـ/١٠٠٩-١٠١٦م) - بأنها "كانت شداداً نكدات صعباً مشثومات، كرهات المبدأ والفاحة، قبيحة المنتهى والخاتمة، لم يعد فيها حيف، ولا فورق فيها خوف، ولا تم سرور، ولا فقد محذور، مع تغير السيرة، وخرق

(١) انظر: بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية (ص ٣٠٤).

(٢) انظر المراكشي: المعجب (ص ٨٦، ٨٧). وانظر: محمد عبدالله عنان: الدولة العامرية. الطبعة الأولى مطبعة مصر ١٩٥٨م (ص ١٤٦).

(٣) انظر: محمد عبدالله عنان: دولة الطوائف. مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٦٠م (ص ١٣).

(٤) انظر: المراكشي: المعجب (ص ٨٦).

الهيبة واشتعال الفتنة، واعتلاء المعصية، وظعن الأمن، وحلول المخافة"<sup>(١)</sup>. كما يصف لنا- نقلاً عن ابن حيان كذلك- المستكفي الذي بويع على قرطبة سنة (٥٤١٤) بعد أن قتل ابن عمه عبدالرحمن "الخامس" ابن هشام المعروف بالمستظهر<sup>(٢)</sup>. بمساعدة بعض الأراذل، ويصف ابن بسام ذلك بقوله: "ولم يكن هذا المستكفي من هذا الأمر في ورد ولا صدر، وإنما أرسله الله تعالى على أهل قرطبة محنة وبليّة؛ إذ كان منذ عرف غفلاً عطلاً منقطعاً إلى البطالة، مجبولاً على الجهالة، عاطلاً عن كل خلة تدل على فضيلة، عضته الفتنة، فأملق حتى استحاز طلب الصدقة. رأته -أي ابن حيان مؤرخ الأندلس- أيام الخسف بأهل بيته في الدولة الحمودية -ولم يكن ممن لحقه الاعتقال لتحقير أمره- يَقْصِدُ أهل الفلاحة أو ان ضمهم لغلاظهم يسألهم عن زكاتها تكليماً ومخاطبة"<sup>(٣)</sup>.

والإنصاف يقتضينا أن نذكر أن مسئولية الفتنة لا تقع على طائفة بعينها، بل تقع على الجميع، ويتحمل فيها العرب والبربر وبنو أمية أقداراً تكاد تكون متساوية، وذلك على عكس ما يذهب إليه كثير من المؤرخين -ومهم ابن حزم- من تحميل البربر المسئولية وحدهم<sup>(٤)</sup>.

فالحق أن ما أصاب الأندلس في هذه الفترة كان فتنة عامة يتحمل الجميع مسئولياتها، وقد أدت في نهايتها إلى سقوط الأندلس -التي كانت تحكمها خلافة واحدة- فهوت إلى معترك مروّع من التمزق والفوضى، واستحالت الأندلس بعد أن كانت كتلة موحدة تمتد من ضفاف دويرة شمالاً إلى مضيق جبل طارق

(١) الذخيرة: القسم الأول المجلد الأول. مطبعة لجنة التأليف والترجمة (ص ٢٥). وانظر: المراكشي المعجب (ص ٩٠).

(٢) انظر: ترجمته في ابن الأبار: الحلة السراء (ص ٢-١٢ وما بعدها). وانظر: ابن سعيد: المغرب (١-٥٤).

(٣) الذخيرة: القسم الأول. المجلد الأول (ص ٣٨٠). وانظر: ابن عذارى: البيان المغرب (٣/١٤٠). وابن

سعيد: المغرب (١/٥٤. ٥٥).

(٤) انظر: المقرئ: نفع الطيب (١/٤٠٦) في حديثه عن دولة العلويين "بني حمود".

جنوبًا، ومن شاطئ البحر الأبيض من طرفه شرقًا حتى شاطئ المحيط الأطلسي غربًا، إلى أشلاء ممزقة ورقاع متناثرة لا تربطها أية رابطة مشتركة<sup>(١)</sup>.

وكان انقراض ملك بني مروان بالأندلس على رأس مائتين وثمان وستين سنة وثلاثة وأربعين يومًا<sup>(٢)</sup>.

ومن الضروري هنا أن نذكر أن سنة (٥٤٢٢هـ - ١٠٣٠م) - التي سقطت فيها الخلافة الأموية بالأندلس - كانت بداية انهيار الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأندلسية.

ولقد انتثر - عقب هذا - عقد الأندلس بين العناصر الثلاثة المتصارعة إلى أكثر من عشرين دولة<sup>(٣)</sup>: البربر في الجزء الجنوبي، والصقالبة في القسم الشرقي، أما باقي البلاد فكانت بين أسرات العرب<sup>(٤)</sup>.

ومن هذه الممالك:

١ - موالي العامرية (في الشرق الأندلسي)، ويندرج تحتها حكم (خيران العامري) للمرية ومرسية، وحكم (مجاهد العامري) وابنه لدانية والجزائر (٤٠٠ - ٥٤٦٨هـ) إلى أن ضمهما بنو هود إلى ملكهم.

٢ - بنو زيري (في الجنوب) في غرناطة ومالقة، ثم توسعت فضمت قبرة وجيان ومالقة، وبنو الأفطس أصحاب بطليوس، وبنو ذي النون في طليطلة، وبنو رزين أصحاب السهلة.

(١) عنان: الدولة العامرية (ص ١٧٨). دول الطوائف (ص ١١).

(٢) ابن الأبار: الحلة السراء (٨/٢).

(٣) انظر: عنان: دول الطوائف (ص ١٦).

(٤) انظر: بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية (طبعة بيروت الكاملة) (ص ٣٠٦).

٣- بنو عباد أصحاب أشيلية (٤١٤-٥٤٨٤هـ). الذين ظلوا يتوسعون حتى أصبحوا أكبر دولة من دول الطوائف<sup>(١)</sup>.

وبنو هود أصحاب سرقسطة، وبنو القاسم الفهريون في البونت، وبنو حمود الحسنيون بالجزيرة.

٤- بنو جهور (موالي الأموية) في قرطبة، وتشمل إمارتهم مدناً أخرى مثل: جيان وبياسة وأيد<sup>(٢)</sup>، وقد سقطت قرطبة بعد (٤٠ سنة) من حكمهم في يد بني عباد، وزالت -بالتالي- دولة بني جهور.

لقد وجد بين هذه الإمارات نوع من التنافس على السلطة، والتوسع على حساب بعضهم البعض، واتخاذ الألقاب والنعوت، بما استجلب نوعاً من السخرية منهم. وقد شوهد من بين حكام هذه الإمارات ست دول يحمل رئيس كل منها لقب ملك، وهذه الدول هي: قرطبة، وإشبيلية، وقرمونة، وإستجة، ومالقة، والجزيرة الخضراء، وغرناطة<sup>(٣)</sup>.

وكان استقلال هذه الإمارات استقلالاً شكلياً، فقد كان كثير منها يدفع الجزية للأذقونش ملك قشتالة.

أما من ناحية ما تنتهجه هذه الإمارات من سياسة وإدارة فليس بينها تفاوت يذكر، فكلها نظم مستبدة، مستهينة بالدماء، مكثرة من أسباب الترف وضروب

(١) انظر: المرجع السابق (ص٣٠٧).

(٢) انظر: القلقشندي: صحح الأعشى (ص٢٤٨ وما بعدها). وانظر: الدكتور أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي (٤/ وما بعدها). وانظر: إحسان عباس "تاريخ الأدب الأندلسي" عصر الطوائف والمرابطين (ص١٢ وما بعدها). وعني أدهم: المعتمد بن عباد (ص٧٠٨). وانظر: علي حبيبة "مع المسلمين في الأندلس" (ص٢٤٣). وحورجي زيدان "تاريخ التمدن الإسلامي" (٤/٢٢٦-٢٢٧).

(٣) سيديو: تاريخ العرب العام (ص٢٧٨).

العمران<sup>(١)</sup>، واستجلاب المنافقين من الكتاب والوزراء والشعراء. "وقد نشأ بينها من المفاسد ما أعوز دفعه، وتعدد وتره وشفعه، واستحكم ضرره حتى لم يمكن دفعه"<sup>(٢)</sup>.  
وعوضاً عن أن تتحد قواهم في مواجهة عدو صليبي مشترك، تشتتوا، وتقاتلوا حتى ضعفت قواهم، فلم يستطيعوا أن يصمدوا أمام هجمات النصارى، كذلك كانت حروبهم الداخلية سبباً في أن يستنجد بعض هؤلاء الملوك والأمراء بقوات من النصارى ليستعينوا بها على منافسيهم من الملوك المسلمين، مما أتاح الفرصة للنصارى أن يبدؤوا في استقطاع أجزاء من أرض الأندلس الإسلامية، وأن يبدؤوا -من هذا العصر الشاذ- رحلة الاسترداد الطويلة الكثيرة.

#### الحياة الاجتماعية في عصر الطوائف:

يقال إن دور العامة بقرطبة بلغت مائة ألف وثلاثة عشر ألفاً وسبعاً وسبعين داراً، أما دور الأكابر فكانت ستين ألفاً وثلاثمائة، كما يقال إن قرطبة كان بها من الحوانيت ثمانون ألفاً، وأربعمائة واثان وخمسون حانوتاً، ومن الفنادق والحانات (١٦٠٠) فندق، و(٤٥٢) حانة<sup>(٣)</sup>.

وهي أرقام -مهما قلنا في مبالغتها- تدلنا على الكثافة السكانية التي كانت تعج بها قرطبة جوهره العالم.

لقد تكون المجتمع الأندلسي من طوائف متعددة جنسياً، ما بين عرب وبربر وصقالبة وأسبان.

(١) د. إحسان عباس: عصر الطوائف المرابطين (ص ١٦٠، ١٧).

(٢) المقرئ: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض". بتحقيق: مصطفى السقا وآخرون. (٦٠/١) وانظر:

أيضاً: محمد عبدالله عنان: دول الطوائف (ص ٤١٩).

(٣) انظر: الحجي أندلسيات (ورقتنا ٣٢-٣٣).

وعندما كانت الدولة في قوتها تملك زمام الأمور وتمشي بالعدل الذي أقره الإسلام، كانت الطائفة الجنسية حامدة، لكن عندما انفرط عقد الأندلس وظهرت المظالم والاستغلال السياسي من جانب بعض المغامرين لهذه الطائفتين<sup>(١)</sup>، أصبح هذا التعدد الجنسي بلاءً دمر الأندلس وأحالها إلى أرض صراع أو فوضى.

وفي ظل الإسلام تمتعت الطوائف غير الإسلامية بتسامح اعتبر نشازاً في سيمفونية الحياة الأوربية خلال العصور الوسطى.

وكما حركت الظروف التكداء العنصريات الجنسية، كذلك أعطت الأقليات - التي لم يخفت حقدتها على حضارة الإسلام - فرصة إشعال نار عنصريات الدينية، فبعد أن ظهر ملوك الطوائف وأهملت خلافة بني أمية، ظهر اليهود - كعادتهم - على مسرح العمل السياسي والاجتماعي والفكري، وقاموا بنصيب وافر في بث بذور الشقاق، والانضمام إلى هؤلاء آناً، وإلى أولئك آناً آخر. وقد رأى البربر الاستعانة باليهود ففتحوا لهم صدورهم، ورحبوا بهم، فأنهالت موجهاتهم إلى الجنوب وإن كان كثير منهم قد بقوا في المدن الأخرى<sup>(٢)</sup> وعلى رأسها قرطبة، يعملون بروح جديدة على امتداد الأندلس، ويتحكمون في المسلمين ويستعلون عليهم، ولا يتورعون في كثير من الأحيان عن الهجوم على دينهم.

وقد كان الطريق مفتوحاً أمام اليهود والنصارى للوصول إلى منصب الوزارة، فضلاً عن غيره من المناصب، وقد احتل بعضهم مراكز مرموقة حسدهم عليها المسلمون.

وفيما بين هذه الطوائف الجنسية والدينية، وجدت ظاهرة الاختلاط والاتصال عن طريق التصاهر<sup>(٣)</sup>، وتبادل المنافع التجارية وغيرها في عهد السلم،

(١) انظر: محمد عبدالوهاب خلاف: غرناطة في عهد ملوك بني زيري رسالة ماجستير (ص ١٤).

(٢) المرجع السابق (ص ٢٨، ٢٠٥).

(٣) د. الحجي: أندلسيات (١، ٨١، ٨٢).

كما أن التفاوت الاجتماعي كان ينتظمها كلها، ففيها كلها وجد من ينتمي إلى الطبقة العليا ومن ينتمي إلى الطبقة الوسطى، ومن ينتمي إلى الطبقة الدنيا.

وكانت هناك أحياء ثلاثة مخصصة للطبقة العليا، هي الرصافة والزاهرة والزهاء. أما بقية الأرباض فكانت للطبقتين الوسطى والدنيا. وتقوم عظمة قرطبة الحقيقية على أهل الطبقة الوسطى الذي يقطنون بقية الأرباض، وإن كانت الأحياء القائمة على الضفة الغربية لنهر الوادي الكبير قد عرفت بأنها أحياء الصناع والعمال والطلاب وصغار الفقهاء والموظفين والكتاب<sup>(١)</sup>، أي أن الغالب على سكانها الانتماء إلى الطبقة الكادحة وإن كان هذا لا يعني خلوها ممن ينتمون إلى الطبقة الوسطى.

وفي هذا المجتمع كان للمرأة مكانها، وشأنها شأن الرجل بلا أي تفاوت من الناحية الإنسانية، وذلك في حدود ما أوجبه الإسلام، على أساس طبيعة المرأة وفطرتها. لقد كانت تتمتع بقسط كبير من الحرية، وكان بعضهن يتمتع بنفوذ كبير في الحياة العامة السياسية والمدنية، ولا ننسى ما كان لصباح أيام الحكم وابن أبي عامر<sup>(٢)</sup>.

وقد شارك بعضهن في رواية الحديث، فكانت "غالبية" بنت محمد المعلمة تروي الحديث، وكذلك كانت فاطمة بنت يحيى بن يوسف، وشارك أخريات في الشعر، ومنهن: عائشة بنت أحمد بن قادم القرطبية، وكانت تمدح ملوك زمانها وتخطبهم بما يعرض لها من حاجاتها، وقد جمعت لنفسها مكتبة قيمة، وصفية بنت عبدالله الرئيس الشاعرة التي توفيت دون الثلاثين، ومريم بنت أبي يعقوب الفيصولي الغانية الشاعرة التي كانت تمدح الملوك وعارضت ابن دراج في إحدى قصائده حين مدحت خيران العامري، وراضية مولاة الإمام عبدالرحمن بن محمد الناصر لدين الله، كانت قارئة كاتبة راوية وتوفيت سنة (٥٤٢٣هـ). وفاطمة بنت زكريا بن عبدالله

(١) الحجي: أندلسيات (١/٨١-٨٢).

(٢) د. إحسان عباس: عصر سيادة قرطبة (ص ٢٥، ٢٦).

الكاتب المعروف بالشيلاوي مولى بني أمية، ومريم بنت أبي يعقوب الفيصولي الشعبي الخاجة أديبة شاعرة وكانت تعلم النساء وتحتشم لدينها وفضلها<sup>(١)</sup>.

وقد اتصلت العمارة في مباني قرطبة بأحيائها في أيام بني أمية ثمانية فراسخ طولاً وفرسخين عرضاً<sup>(٢)</sup>. وكان يمشى فيها بضوء السرج المتصلة عشرة أميال<sup>(٣)</sup>.

وهذه الإضاءة الليلية المتصلة قد سبقتها نظافة للشوارع، بحيث يصح أن تكون قرطبة "جوهره". هذا بينما كانت في ذلك العصر بعض المراكز غير الإسلامية ترى أن النظافة معصية، فكانت بالتالي شوارع قرطبة آية في الجمال والاتساق وحسن الرونق<sup>(٤)</sup>.

ويحكى أن الواحد من أهل قرطبة كان إذا لم يملك إلا درهما واحدا اشترى به صابوناً ليغتسل، وكان الماء جارياً إلى بيوتهم بواسطة أنابيب الرصاص، ولا تزال آثارها باقية. أما عدد الحمامات بما فكان (ثمانمائة) على أقل تقدير، ويرى بعضهم أنها كانت (٣٠١١ حماماً)<sup>(٥)</sup>، ويذهب ابن حيان إلى إنها بلغت في عهد ابن أبي عامر تسعمائة حمام، وقيل (٩١١ حماماً)، يقع معظمها قرب المساجد<sup>(٦)</sup>. وكان لأهل قرطبة عناية بالملبس الأنيق الجيد، فكان القرطبي الأصيل لا يخرج من بيته إلا إذا أسبغ على نفسه رداء من القطن أو الكتان أو الصوف، ولبس فوق ذلك عباءة أو (عبا) كما كانوا يقولون، ولم يكونوا يضعون على رؤوسهم عمامة أو قلانس، إنما كانوا يسرون برعوسهم مكشوفة وشعورهم تسترسل على آذانهم<sup>(٧)</sup>.

(١) انظر: الحميدي: الجذوة (ص ١٢)، وما بعدها، وابن شكوان: الصلة (٦٩١/٢، ٦٩٣ وما بعدها)، وانظر: المقرئ: النفع الطيب (١٣٩/٣ وما بعدها).

(٢) مخطوط "ذكر بلاد الأندلس" الخزنة الملكية بالرباط (٥٥) (ورقة ٢٩).

(٣) القلقشندي: "رسالة فضل الأندلس" (ص ٥٥)، وانظر: باقوت مادة "قرطبة" معجم البلدان (٣٢٤/٤).

(٤) انظر: د. حسين مؤنس مقال "قرطبة" مجلة العربي عدد (٩٥).

(٥) مخطوط "في ذكر بلاد الأندلس" (ورقة ٣٢) بالخزنة الملكية بالرباط.

(٦) انظر: د. عبدالعزيز سالم دائرة معارف الشعب، مادة "قرطبة".

(٧) انظر: د. حسين مؤنس. مقال بمجلة العربي عدد (٩٥).

إننا ننظر إلى قرطبة في ظل ذلك كله، فراها مدينة تبلغ حدًا من الجمال والانسجام يجعلها تبدو كأرقى بلد أوروبي في العصر الوسيط. كان المسجد هو مركز الحياة الاجتماعية في قرطبة، فكانت تقام حوله الأسواق والحوانيت، بالإضافة إلى الدور الاجتماعي والديني والسياسي والعلمي الذي يقوم به المسجد، ففيه كانت تعقد الاجتماعات، وتقرأ به المنشورات والأوامر النظامية، وتحل كثير من المشكلات السهلة، أما المشكلات المعقدة فكانت تحال إلى المحاكم<sup>(١)</sup>.

وكانت تحيط بالمسجد الدور والقصور والفنادق والحمامات وغيرها. وكان قصر إمارة قرطبة يقع غربي المسجد الجامع، ويصله بالمسجد قصر ساباط على أزج معقود يمر تحته الناس<sup>(٢)</sup>، وقد كثرت المساجد في قرطبة كثرة عظيمة. ويرى القلقشندي أن عدد مساجدها بلغ ألفا وستمئة مسجد<sup>(٣)</sup>. ويرى الآخرون أنها كانت نحوًا من ٣٨٧٧ مسجدًا<sup>(٤)</sup>. ويرى صاحب مخطوط "ذكر بلاد الأندلس" أنها كانت ١٣٨٧٩<sup>(٥)</sup>. ويرى الحميري أنها كانت أربعمئة وتسعين مسجدًا<sup>(٦)</sup>. وهذا التقدير الأخير لا يتنافى مع التقدير السابق، فالذي يبدو لي أنه نظر إلى المساجد الكبيرة المستقلة التي يطلق عليها "الجوامع" أو "المسجد الجامع" الذي تقام فيه صلاة الجمعة، أما التقدير السابق، فقد نظر إلى المساجد التي تستعمل في أداء الصلوات الخمس بصفة عامة، فهذه كانت كثيرة في معظم العواصم الكبرى في العالم الإسلامي خلال هذه العصور<sup>(٧)</sup>.

(١) د. حسين مؤنس: مقال بمجلة العربي (عدد ٩٥).

(٢) انظر: د. عبدالعزيز سالم، "دائرة معارف الشعب"، مادة "قرطبة".

(٣) صبح الأعشى (٢٢٦).

(٤) د. عبدالعزيز سالم، "دائرة معارف الشعب"، مادة "قرطبة".

(٥) ورقة رقم (٣٢).

(٦) صفة جزيرة الأندلس (ص ١٥٧).

(٧) انظر: د. أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية (ص ١٠٥).

## عصر المرابطين في الأندلس

قامت في المغرب الأقصى حركة دينية في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، وهي حركة المرابطين، والتي خرجت من المناطق الجنوبية للمغرب الأقصى فيما بين نهر درعة جنوبًا والصحراء التي تليه جنوبًا - وهي صحراء تنس - حتى نهر السنغال، وعاشت هناك قبائل صنهاجة الصحراء، وأهمها: جدالة ولمقونة وسوفة ولطة وجزولة (وتقابل اليوم موريتانيا ومالي)<sup>(١)</sup>.

وفي سنة (٥٤٦٣/١٠٧١ م) سار أبوبكر بن عمر إلى الصحراء لعنمه بثورة قبيلة جدالة، واستخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين، ثم لم يلبث أن استشهد أبوبكر بن عمر، وآلت السلطة ليوسف بن تاشفين، الذي دخل فاس وتلمسان، وتسمى بأمر المسلمين<sup>(٢)</sup>.

وفي هذه الأثناء ساءت أحوال الأندلس، وتمكن ألفونسو السادس من الاستيلاء على أسبانيا الوسطى والغربية، فاستولى على قورية (٥٤٧٢/١٠٧٩ م)، وظليطة سنة (٥٤٧٨/١٠٨٥ م)، وفرض إلتاوات على ملوك الطوائف<sup>(٣)</sup>، فتزعم صلحاء العلماء والفقهاء الدعوة لتوحيد الأندلس، إلا أن الدعوة فشلت، فاتجهوا إلى المرابطين ومعهم ملوك الطوائف وعلى رأسهم المعتمد بن عباد أمير إشبيلية، وجاءت هذه الدعوة بعد سقوط ظليطة بثلاثة أشهر<sup>(٤)</sup>.

وأجاب المرابطون دعوة الجهاد إلى الأندلس سنة (٥٤٧٩/١٠٨٦ م)، فنزلت بمنطقة الجزيرة الخضراء، فترك ألفونسو السادس حصار سرقسطة، وسار بقواته إلى بطليوس بعد أن توافدت عليه جيوش جليقية السكونية وأشتوريش وقشتار وليون وأراجون، وانضمت إليهم إمدادات دول أوروبا، وبلغ عدد جيش نصارى

(١) ابن الأثير: الكامل (٩/٢٥٩)، حس محمود: قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي ١٩٥٨ (ص ٢١٣).

(٢) أحمد شني: موسوعة التاريخ الإسلامي (٦/١١٠)، جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية (٢/٨٢).

(٣) ابن بسام: الذخيرة (٤/١٣٠-١٣٢)، ابن الكردوس: تاريخ الأندلس (ص ٨٤، ٨٥).

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (ص ٢٤٥)، لين بول: العرب في أسبانيا (ص ١٦٥).

الشمال نحو ٨٠,٠٠٠، أما القوى الإسلامية فقد بلغت نحو خمسين ألفاً<sup>(١)</sup>.

ووقعت معركة الزلاقة -على بعد ثلاثة فراسخ من بطليوس- يوم الجمعة ١٢ رجب سنة (٥٤٧٩/١٠٨٦م)، وانهزمت جيوش الأسبان والأوربيين وفر ألفونسو السادس في خمسمائة من فرسانه<sup>(٢)</sup>، وكان من نتائج هذا الانتصار أن استرد المسلمون المدن التي احتلها ألفونسو مثل: الأشبونة وشتترين، كما انقطع أمراء الطوائف عن دفع الإتاوات للملوك نصارى الشمال<sup>(٣)</sup>.

ولم يستثمر ابن تاشفين هذا الانتصار -كما ينبغي- فلم يواصل زحفه لاسترداد طليطلة، وقيل لانشغاله بأحوال المرابطين في المغرب، وبخاصة بعد موت ولده وولي عهده أبي بكر، ولمّا كان يسود ملوك الطوائف من تخاذل وأنانية وضعف. إلا أن يوسف بن تاشفين ترك حاميات مرابطة تساعد الأندلسيين في التصدي لغارات نصارى الشمال<sup>(٤)</sup>.

وكان النصارى يتخذون حصن لبيط المنيع والقريب من لورقة للإغارة على أراضي مرسية وألمرية، ويعتصم بالحصن نحو ١٣,٠٠٠ من المحاربين<sup>(٥)</sup>.

فاستغاث أمراء الطوائف بالمرابطين، فعبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس العبور الثاني سنة (٥٤٨١/١٠٨٨م)، وحاصرت القوات المسلمة حصن لبيط لمدة أربعة أشهر، إلا أن الحصن لم يستسلم؛ لدخول الشتاء ومناعة الحصن<sup>(٦)</sup>. وتبين ليوسف بن تاشفين مدى الخلافات العميقة بين أمراء الطوائف، وتعاون بعضهم السري مع

(١) ابن عذاري: البيان المغرب (٤/١٣٠)، سعدون نصر الله: دولة المرابطين (ص ٩٥).

(٢) المراكشي: المعجب (١٩٥)، ابن الخطيب: الخلل (ص ٥٢، ٥٣).

(٣) سعدون نصر الله: دولة المرابطين (ص ٩٦ وما بعدها).

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢/٢٦٨)، حسن محمود: قيام دولة المرابطين (ص ٢٩٠).

(٥) المعجب (ص ١٩٢).

(٦) سعدون نصر الله: دولة المرابطين (ص ١٠٦، ١٠٧).

نصارى الشمال، فأضمر يوسف بن تاشفين خلع ملوك الطوائف<sup>(١)</sup>، وعزز موقفه بفتاوى فقهاء المشرق أمثال: الغزالي والطرطوشي، ودعوة فقهاء الأندلس وعامتهم؛ لتخليصهم من أمراء الطوائف، وكان على رأس الفقهاء أبو جعفر بن القليعي<sup>(٢)</sup>.

وسيطرت قوات المرابطين على ممالك أمراء الطوائف تباعاً، فسيطرت على غرناطة عام (١٠٩٠/٥٤٨٣م)، وعلى إشبيلية سنة (١٠٩١/٥٤٨٤م)، وعلى ألمرية (١٠٩١/٥٤٨٤م)، وعلى مرسية سنة (١٠٩١/٥٤٨٤م)، وعلى بضيوس سنة (١٠٩٥/٥٤٨٨م)، وعلى ألبونت سنة (١١٠٣/٥٤٩٦م)، وعلى شتمرية الشرق سنة (١٠٤٤/٥٤٩٧م) وعلى سرقسطة سنة (١١١٠/٥٥٠٣م)، وتمت السيطرة بعد جهود كبيرة قامت بها القوات المرابطية<sup>(٣)</sup>.

وتدخلت قوات المرابطين في بعض الإمارات؛ لإنقاذها من الخطر الأسباني مثل: إنقاذها لإمارة بلنسية والجزائر الشرقية، وإدخالهما في حوزة المرابطين<sup>(٤)</sup>. أما جهاد المرابطين أمام الممالك الأسبانية فكان جهادا مجيدا وهذا عرض مبسط له:

## ١- الجهاد ضد مملكة قشتالة وليون:

ويمكن تقسيمه إلى مرحلتين:

الأولى: من عام (٤٨٣-٥٥٢٣م)، وكان التفوق فيها للجيش المرابطية، فهاجمت طليطلة وأحوازها، واسترجعت بعض المدن والحصون، كما انتصر المرابطون في معركة أمليس شرقي طليطلة سنة (١١٠٨/٥٥٠١م)، وهي تلي الزلافة في الأهمية، وقتل في هذه المعركة شائجة بن ألفونسو الوحيد وولي عهده، كما قتل غرسية دونس وسائر قواد الجيش القشتالي، واستولى المسلمون على أمليس. ومات المنك

(١) عان: دول الطوائف (ص ٣٩٩).

(٢) الأمير عبدالله: النيان (ص ٣٢٠).

(٣) سعدون نصر الله: دولة المرابطين (ص ١١٧ وما بعدها).

(٤) العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية (ص ٢٤٤)، سالم: جزر الأندلس المنسية (ص ٢٦٨).

القشتالي كمدا سنة (١١٠٩/٥٥٠٢م)<sup>(١)</sup>، وتكررت محاولات علي بن يوسف بن تاشفين للاستيلاء على طليطلة مرة أخرى كما حدث سنة (١١١٤/٥٥٠٧م)<sup>(٢)</sup>.  
 الثانية: من عام (١١٢٨-١١٤٧م)، وفيها خسرت القوات المرابطية الكثير من المعارك، وتكرر هجوم المرابطين على المدن الإسلامية قبل مهاجمة قرطبة وحصونها ومدنها عدة مرات في عام (١١٣٠/٥٥٢٤م)، وفي عام (١١٣٣/٥٥٢٨م)، وفي عام (١١٤٢/٥٥٣٦م)، وفي عام (١١٤٣/٥٥٣٨م)، وعلى إشبيلية ومدنها عام (١١٣٢/٥٥٢٦م)، وفي عام (١١٤٢/٥٥٣٦م)، وفي عام (١١٤٣/٥٥٣٨م)<sup>(٣)</sup>.  
 وعلى بطليوس وغرب الأندلس في أعوام: (١١٤٣/٥٥٣٨م)، (١١٣٧/٥٥٣٢م)، (١١٤٢/٥٥٣٦م)<sup>(٤)</sup>.

٢- الجهاد ضد مملكة البرتغال (٤٨٣-٥٥٤٢/١٠٩٠-١١٤٧م):  
 وقد مرّ بمرحلتين:

الأولى من عام (١٠٩٠/٥٤٨٣م إلى ١١٣٨/٥٥٣٣م)، وفيها اتخذ المرابطون بطليوس قاعدة لهم، واسترجعوا بعض المدن التي أخذها الأسبان مثل: بابرّة وأشبونة وشتتين سنة (١١١٣/٥٥٠٥م)، وقلمرية سنة (١١١٧/٥٥١١م)<sup>(٥)</sup>.  
 والثانية من عام (١١٣٨/٥٥٥٣م) إلى عام (١١٤٧/٥٥٤٢م)، وفيها اشتدت هجمات البرتغاليين على المدن الأندلسية، ووقعت بعض الهزائم للمرابطين مثل هزيمتهم في موقعة أوريك على ضفة نهر التاجة<sup>(٦)</sup>. كما استغلت مملكة

(١) ابن أبي زبيح: روض القرطاس (ص ١٥٩ وما بعدها)، ابن القطان: نظم الجمان (٩، ١٠).

(٢) ابن الأبار: الحلة السراء (٩٠/٢) حاشية (٢)، ابن الأثير: الكامل (٤٩٠/١٠)، الذهبي: العبر (٩/٤).

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة (٤٦٠/١٠)، عنان: عصر المرابطين والموحدين (ص ٥٠٦، ٥٠٧).

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب (٨٨/٤).

(٥) ابن الأبار: الحلة السراء (١٩٤/٢)، عنان: عصر المرابطين والموحدين (ص ٣٠، ٣١).

(٦) المراكشي: المعجب (ص ٢٢٨، ٢٣٢)، ابن عذاري: البيان المغرب (٦٤/٤).

البرتغال ثورات الأندلسيين على المرابطين وسيطروا على مدن شتيرين وباجة وماردة وأشبونة<sup>(١)</sup>.

### ٣- الجهاد ضد مملكة برشلونة:

واصلت مملكة برشلونة توسعها على حساب أراضي الثغر الأعلى حيث سيطرت على مدينة طركونة، وحاول المرابطون استرجاع طركونة وبرشلونة فأرسلت قواتها سنة ٥٤٩٥/١١٠٢م، وسنة (٥٥٠٨/١١١٥م)، كما أرسلت حملة بحرية سنة (٥٥١١/١١١٧م) إلى منطقة برشلونة وأسرت الكثيرين من أهلها<sup>(٢)</sup>. وبعد سقوط ألمرية سنة (٥٥٤٢/١١٤٧م) تشجع النصارى على محاولة الاستيلاء على طرطوشة لاستخدام المرابطين لها في هجماتهم على مملكة برشلونة وأرغون وشواطئ فرنسا، وسيطروا بالفعل عليها سنة ٥٥٤٣/١١٤٨م<sup>(٣)</sup>.

### ٤- الجهاد ضد مملكة أرغون:

أعلن ملك أرغون الراهب راميرو (٥٢٩-٥٣٢) تبعيته ملك قشتالة ألفونسو السابع، وسار على هذا النهج ملكا برشلونة والنافار، فكان لألفونسو السابع (السليطين) السيطرة على سائر ملوك الأيبان<sup>(٤)</sup>. وازدادت هجمات النصارى على الثغر الأعلى للسيطرة على سرقسطة وما حولها من مدن، فاحتلوا مدينة تطيلة سنة (٥٥١١/١١١٧م)، وحوصرت سرقسطة مدة سبعة أشهر حتى احتلها ألفونسو السابع سنة (٥٥١٢/١١١٨م) وجعلها عاصمة لمملكة أرغون، ثم تتابع سقوط المدن مثل مدينة روطة سنة (٥٥١٢/١١١٨م)، وطرسونة وقلعة أيوب سنة (٥٥١٣/١١٢٠م)<sup>(٥)</sup>، وانتصر

(١) ابن الأثير: الكامل (١١/١٠٦).

(٢) البيان المغرب (٤/٦٦)، مونس: الثغر الأعلى (ص ١١٢).

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة (٢/١٢٦)، الخجعي: التاريخ الأندلسي (ص ٤٤١).

(٤) أشياح: تاريخ الأندلس (ص ١٧٦).

(٥) أرسلان: الحسن السندسية (١٠٥٠). التواتق: مأساة المبار الوجود العربي (ص ٦٠٥).

على القوات المرابطية في موقعة قنطرة سنة (٥١٤/١١٢٠م)، واستشهد فيها آلاف من المسلمين بينهم العديد من الفقهاء والعلماء<sup>(١)</sup>.

وفي سنتي (٥١٩-٥٢٠/١١٢٥-١١٢٦م) قام ألفونسو بحملة مدمرة اخترق فيها الأندلس من سرقسطة إلى بلنسية ومرسية منحدرًا إلى الجنوب مارًا بالقرب من أقاليم قرطبة وغرناطة إلى أن وصل إلى ساحل البحر المتوسط ونزل بيلسن، وساعده في ذلك النصارى المعاهدون، وأظهرت هذه الحملة الضعف الذي حلّ بالمرابطين، فأفقد أهل الأندلس الثقة فيهم، وبدأ التذمر والثورات التي قام بها أهل الأندلس على المرابطين<sup>(٢)</sup>.

وبعد ذلك بسنوات وقعت هزيمة أخرى للمرابطين في شرق الأندلس عند قرية جلبيرة قرب بلنسية سنة (٥٢٣/١١٢٩م)، وذهب فيها نحو ١٢,٠٠٠ بين شهيد وأسير<sup>(٣)</sup>.

وفي عام (٥٢٨/١١٣٤م) انتصر المسلمون على ألفونسو السابع في معركة إفراغة، وكان لذلك صدى عميق؛ إذ أعادت هذه المعركة سمعة المرابطين العسكرية<sup>(٤)</sup> إلى سابق مكانتها.

ضعف دولة المرابطين ونهايتها في الأندلس:

تميز عهد يوسف بن تاشفين (٤٥٤-٥٠٠هـ) بثبوت أركان دولة المرابطين في المغرب الأقصى وعبورها للأندلس لنجدتها ثم تحويلها إلى ولاية تابعة للمرابطين، ومن

(١) ابن الأبار: المعجم (٧) رقم (٣)، الذيل والتكملة (٦/٢١٩) رقم (٦٤٠)، الصلة (ص١٤٤) رقم (٣٣٠).

(٢) ابن القطان: نظم الجمان (ص١٠٩)، ابن عذاري: البيان المغرب (٤/٦٩)، ابن الخطيب الإحاطة (١/١٠٨).

(٣) نظم الجمان (ص١٨٠)، عنان: عصر المرابطين والموحدين (ص٥٤١، ٥٤٢).

(٤) نظم الجمان (ص٢٢٣)، الروض المطار (ص٢٥).

ثم تحمس المرابطون للجهاد ضد الممالك الأسبانية، واستشهد في هذه المعارك خيرة قواد المرابطين مثل الأمير فردلي عامل قرطبة والقائد محمد بن فردلي.

في حين تميز عهد الأمير علي بن يوسف (٥٠٠-٥٣٧/١٠٦-١١٤٢م)، والأمراء الثلاثة بعده (٥٣٧-٥٤٢/١١٤٢-١١٤٨م) بالاضطراب. يقول المراكشي<sup>(١)</sup>: "واختلف حال أمير المسلمين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعد الخمسمائة اختلافاً شديداً، فظهرت في بلاده مناكر كثيرة؛ وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد، وانتهوا في ذلك إلى التصريح، فصار كل منهم يصرح بأنه خير من أمير المسلمين وأحقّ بالأمر منه، وأمير المسلمين في ذلك كله يتزايد تغافله ويقوى ضعفه، وقنع باسم إمرة المسلمين وبما يرفع إليه من خراج، وعكف على العبادة والتبتل، وأهمل الرعية غاية الإهمال".

وقامت في السنوات الأخيرة من حكم علي بن يوسف ثورات كثيرة في نواحي الأندلس، والغريب أن يقوم بها القضاة والفقهاء والأدباء<sup>(٢)</sup>. ففي الجنوب الغربي الأندلسي قامت ثورة أحمد بن الحسين بن قسي المتصوف، وأطلق عليها ثورة المريدين<sup>(٣)</sup>، وتحالف مع الموحدين، ولما أراد الاستعانة بملك البرتغال على الموحدين قتله أهل شلب سنة (٥٤٦/١١٥١م)<sup>(٤)</sup>.

وثار في وسط جنوب الأندلس أهل قرطبة وعينوا الفقيه حمد بن محمد المنقّب بابن حمدين<sup>(٥)</sup>، كما تمرد في مالقة قاضيها أبوالحكم بن حسون<sup>(٦)</sup>، وفي

(١) المعجب (ص ٢٧٠).

(٢) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (ص ٣٩)، عنان: عصر المرابطين الموحدين (ص ٣١٨).

(٣) ابن الأبار: اخنة السراء (٢، ١٩٨)، المراكشي: المعجب (ص ٢٨١).

(٤) ابن الأبار: اخلة السراء (٢، ٢٠٠).

(٥) الإحاطة (٢، ٩٨).

(٦) أعمال الأعلام (ص ٢٥٥).

مدينة وادي آسن تمرّد أحمد بن محمد بن ملحان الطائي<sup>(١)</sup>، وثار في جيان قاضيها يوسف بن عبدالرحمن بن جزري<sup>(٢)</sup>، وتزعم تمرّد رندة الأديب أخيل بن إدريس الرندي<sup>(٣)</sup>، وفي شريس تمرّد أبو الغمر بن السائب بن عزون<sup>(٤)</sup>، وفي قادس تمرّد علي بن عيسى بن ميمون<sup>(٥)</sup>.

وثار في شرق الأندلس ثوار كثيرون، وآلت مرسية وبلنسية إلى حكم القاضي عبدالله بن عباد، فترك لصهره عبدالله بن مردنيس حكم بلنسية وسكن ابن عياض مرسية<sup>(٦)</sup>.

وهكذا امتلأت الأندلس خلال الفترة ما بين (٥٣٩-٥٥٤١) بحركات التمرد، وهي سنة دخول الموحدين للأندلس وإنهاء حكم المرابطين.

(١) الإحاطة (٢/٨٩).

(٢) عنان: عصر المرابطين الموحدين (ص ٣٢١).

(٣) ابن الأبار: الحلة السراء (٢/٢٤١، ٢٤٢).

(٤) روض القرطاس (ص ١٨٨).

(٥) المعجب (ص ٢٧٩).

(٦) ابن الأبار: التكملة (١/١٨٠)، رقم (٦٣٤).

## الموحدون في الأندلس

تدين دولة الموحدين بقيامها لمحمد بن تومرت الملقب بالمهدي، والذي جعل من قبائل المصامدة -الذين يعيشون في جبال الأطللس جنوب المغرب- قوة سياسية كبيرة، وابن تومرت شخصية يلفها الغموض وبعض المتناقضات، وقد ولد في تاريخ يتراوح بين (٥٤٧١-٤٧٤/١٠٧٨-١٠٨١م) في قبيلة هرغة البربرية والمنتمية إلى المصامدة، وطلب العلم في الأندلس، ثم رحل إلى المشرق سنة (١١٠٧/٥٠٠م)، وقضى هناك عشر سنوات<sup>(١)</sup>، وأثناء العودة التقى بعبدا المؤمن بن علي، وكان شاباً طموحاً يطلب العلم، فأصبح من أقرب تلاميذ ابن تومرت إليه، وخليفته في دعوته<sup>(٢)</sup>.

وجاهر ابن تومرت بتغيير ما رآه منكراً في مراکش، وهاجم الفقهاء ورجال السلطان، وتعرض للعامة والخاصة بالنكير، وتعرض لغضب الفقهاء، وناظر علماء المرابطين وتغلب عليهم، فحرضوا عليه الأمير عني بن يوسف فأخرجه من مراکش، وتوجه ابن تومرت إلى قبيلته هرغة، فجمع حوله الأنصار والتلاميذ، وواصل حملته الدعائية على المرابطين<sup>(٣)</sup>.

وبعد أن تأكد محمد بن تومرت من تكوين جماعة مخلصنة انتقل بهم إلى موضع في قلب جبال الأطللس قرب منابع وادي نفيس وهو مدينة تينممل<sup>(٤)</sup>، وقسم أتباعه إلى طائفتين: متشبهها بالمهاجرين والأنصار، فأصحاب محمد بن تومرت الأوائل هم (المهاجرون) ويسمّون طبقة العشرة، وهم أول من بايعه بأنه المهدي المنتظر، والأنصار وهم طبقة الخمسين، وهم الطبقة الثانية من أتباعه، ومن

(١) المعجب (ص ٢٤٥)، البديق: أخبار المهدي (ص ٢١)، روض القرطاس: (ص ١٧٢).

(٢) ابن القطان: نظم الحمام (ص ٢١)، علام: الدعوة الموحدية بالمغرب (ص ٨١).

(٣) المعجب (ص ٢٥٤، ٢٥٥)، علام: الدعوة الموحدية (ص ١٣٤ وما بعدها).

(٤) المعجب: (ص ٢٥٤).

ثم طبقة السبعين، وبعدها طبقة الطلبة، وطبقة الحفاظ وطبقة أهل الدار. أما الطبقات الأخرى من السابعة إلى الثالثة عشرة فهي طبقات القبائل.

وقد هدف ابن تومرت من ذلك إلى تنظيم زعماء القبائل في هذه الطبقات لكي يضمن ولائهم وولاء قبائلهم. كما هدف إلى نقل ولائهم القبلي إلى الطبقة<sup>(١)</sup>.

وسمى ابن تومرت دعوته بالموحدين، باعتبارهم المحافظين على التوحيد الإسلامي الصحيح - في نظرهم - على حين سمو المرابطين بالمجسمة، فوجّه علي بن يوسف عدة حملات إلى تينملل وإلى القبائل التي تبعت ابن تومرت، ولكنها فشلت في القضاء على الثورة، بل تزايدت قوة ابن تومرت، وحاصر مراكش، وقاد الجيش عبدالمؤمن بن علي، ودارت معركة البحيرة على أبواب مراكش سنة (٥٢٤/١١٣٠م)، لكن الموحدين هزموا، وتوفي ابن تومرت نفسه بعد أن ترك تلميذه عبدالمؤمن بن علي الكوفي<sup>(٢)</sup>.

استمرت مرحلة عبدالمؤمن بن علي من (٥٢٤-١١٣٠) حتى (٥٤٢/١١٤٨م)، وواصل حربه مع المرابطين، حتى كانت المواجهة الأخيرة مع تاشفين بن علي في وهران، فقتل تاشفين سنة ٥٣٩/١١٤٥م، وبعد سنة واحدة استولى عبدالمؤمن بن علي على مراكش حاضرة المرابطين<sup>(٣)</sup>.

عبور الموحدين الأندلس:

عبر أول جيش موحد للأندلس سنة (٥٤١/١١٤٦م) للإطاحة بسُلطان المرابطين بها، والقضاء على الزعامات المحلية التي ظهرت بالأندلس في نهاية دولة المرابطين، مع حماية كيان الموحدين في المغرب من أي هجوم مرابطي من الأندلس. ومما شجع الموحدين على العبور للأندلس الدعوات الرسمية والشخصية التي

(١) ابن القطان: نظم الجمان (ص ٣٠)، المراكشي: المعجب (ص ٢٥٥)، ابن الخطيب: الحلل (ص ٨٩).

(٢) البيدق: أخبار المهدي (ص ٦٧)، ابن الأثير: الكامل (٢٩٦/٨) ابن الخطيب: الحلل (ص ٩٥، ٩٦).

(٣) البيان المغرب (٤'٧٥)، العبر (٦/٢٢٨)، روض القرطاس (٧٨-٧٩)، الحلل (ص ٩٥-٩٦).

وصلتهم من العلماء والحكام المحليين الذين رحبوا بقدوم الموحدين وفي مقدمتهم علي ابن عيسى بن ميمون قائد الأسطول في قادس وزعيم حركة قرطبة ابن حمدين القاضي، وزعيم حركة مدينة شريس ابن عزون وغيرهم<sup>(١)</sup>.

جهز عبدالمؤمن بن علي ثلاثة جيوش عبرت للأندلس سنة (٥٥٤١) وسيطرت على مدن الجنوب مثل: طريف، والجزيرة الخضراء، وشريس<sup>(٢)</sup>، وسارت قواته إلى غربي الأندلس ودخلت مدن: لبله وبطليوس وباحة وتلب ويابرة، واستعصت عليهم إشبيلية، ثم استسلمت سنة (٥٥٤١/١١٤٧م)<sup>(٣)</sup>، ثم دخلت القوات الموحدية قرطبة سنة (٥٥٤٣/١١٤٨م)<sup>(٤)</sup>، ثم فتحت مدن وحصون وسط الأندلس مثل: أبدة وبياسة، وحصون شلير وأركس وبرشانة ومالقة<sup>(٥)</sup>، وقاومت مدينة غرناطة بقيادة حاكمها المرابطي ميمون بن بدر اللمتوني، ثم استسلم سنة (٥٥٥١/١١٥٦م) بعد أن حصل على الأمان من عبدالمؤمن بن علي<sup>(٦)</sup>.

وصممت القوات الموحدية على استرداد مدينة المرية التي استولى عليها سنة (٥٥٤٢/١١٤٧م)، وبعد حصار سبعة أشهر فتح الموحدون المدينة سنة (٥٥٥٢/١١٥٧م)<sup>(٧)</sup>.

وورث الموحدون دولة المرابطين في جهادهم للممالك النصرانية في الشمال وهي: مملكة قشتالة ومملكة البرتغال، ومملكة أراجون وبرشلونة، وكان ملك البرتغال ابن الزنك (٥٢٢-٥٥٣/١١٢٨-١١٥٨م) قد استغل الأوضاع

(١) أبو رمية: علاقات الموحدين بالممالك النصرانية (ص ١٩٦ وما بعدها).

(٢) السلاوي: (١١٣/٢).

(٣) الكامل (٤٧/١١)، (١١٣/٢-١١٤).

(٤) العمر (٢٣٤/٦)، (١١٤/٢-١١٥).

(٥) المؤنس: (ص ١١١)، أعمال الأعلام (ص ٢٢٥).

(٦) ابن خلدون: العمر (٢٣٥/٦)، (١١٥/٢).

(٧) المعجب (٢٨٠)، (١١٨/٢).

الأخيرة للمرابطين، فتعاون مع قوات أوربية واستولوا على مدينة لشبونة سنة (١١٤٧/٥٥٤٢م)، وعلى قصر أبي دانس سنة (١١٦٠/٥٥٥٥م)<sup>(١)</sup>، كما قام مغامر برتغالي يدعى جراندة الجليقي بالسيطرة على بعض مدن غربي الأندلس<sup>(٢)</sup>، فما كان من عبدالمؤمن بن علي إلا أن بنى مدينة الفتح على سفح جبل طارق، وكملّ بناءها عام (١١٦٠/٥٥٥٥م)؛ لتنتقل منها الجيوش لمجاهدة الأسيبان<sup>(٣)</sup>.

وتوفي عبدالمؤمن بن علي في هذه الأثناء سنة (١١٦٣/٥٥٥٨م) بعد أن أسس دولة كبرى امتدت من المحيط الأطلسي إلى حدود مصر، وأضاف لها ما بقي في أيدي المسلمين من أرض الأندلس.

وخلف يوسف بن عبدالمؤمن والده (٥٥٨-٥٨٠/١١٦٣-١١٨٤م)، وكان عاملاً على إشبيلية، فوجه اهتمامه إلى الأندلس، وكان عليه أن يقضي على محمد ابن سعد بن مردنيس الذي استولى على مدن شرق الأندلس، وفي عام (١١٦٥/٥٥٦٠م) تحرك جيش الموحدين من إشبيلية بقيادة السيد بن عمر وعثمان أخوي الخليفة إلى مرسية حيث التقيا بابن مردنيس في فحص الجلاب، وسهل على بعد عشرة أميال من مرسية، فأوقعا به هزيمة شديدة، وسيطر الموحدون على حصون كثيرة لابن مردنيس، وضعف أمر ابن مردنيس لسوء علاقته مع صهره يوسف بن هلان، وحليفه إبراهيم بن قمشك، وتذمر الرعية منه لثقل الضرائب عليهم، ثم توفي ابن مردنيس سنة (٥٦٧هـ)<sup>(٤)</sup>.

وعبر أبويعقوب يوسف للأندلس سنة (٥٦٦هـ)، وبقي فيها خمسة أعوام إلى سنة (٥٧١هـ)، وجهاز حملة توغلت في أرض قشتالة، ووصلت إلى ضفاف نهر

(١) الحلة السراء (٢/٢٧٢)، الحجي: التاريخ الأندلسي (ص ٤٦١).

(٢) المن بالإمامة (ص ٣٧٤ وما بعدها).

(٣) المصدر السابق (ص ١٢٩ وما بعدها).

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب "جزء الموحدين" (ص ٦٣، ٦٤)، المن بالإمامة (ص ٢٧٥، ٢٨٠).

تاجو، وعادت بغنائم كثيرة، وأنشأ العديد من المنشآت في إشبيلية، ومنها عدد من القصور الفخمة وتحصينات وأبراج ومنتزه البحيرة وقنطرة طريانة، وإنشاء المسجد الكبير<sup>(١)</sup>.

وفيما بين أعوام (٥٦٩ - ٥٧٣/١١٧٤-١١٧٨م) تبودلت الحملات بين الموحدين وفرناندو الثاني، واسترد الموحدون باجة التي أخذها البرتغاليون سنة (١١٧٥/٥٧١م)، ووجه الأمير الموحد أسطولاً وانتصر على أسطول نصارى الشمال في ميناء الأشبونة سنة (١١٨٢/٥٧٧م)<sup>(٢)</sup>، وأراد الأمير يوسف الاستيلاء على مدينة شنترين فتوجه إليها الملك فرناندو الثاني، فرفع الحصار عن شنترين، ومرض الأمير الموحد، وتوفي سنة (١١٨٤/٥٨٠م)<sup>(٣)</sup>.

وولي أمر الموحدين بعد يوسف ابنه يعقوب الملقب بالمنصور (٥٨٠-٥٩٥) فنظم أمور الدولة، ثم عبر إلى الأندلس، فشغل بالقضاء على ثورة بني غانية، وكان محمد ابن غانية المسوفي الصحراوي عاملاً للمرابطين على جزر البليار حين هزمت دولة المرابطين، ورفض طاعة الموحدين، وخلف محمداً ابنه إسحاق ثم ابنه علي بن إسحاق الذي لم يكتف برفض الاعتراف بالموحدين بل أرسل قواته للاستيلاء على ثغر بجاية، ودخل الموحدون مع بني غانية في صراع حتى دخلت الجزائر الشرقية في طاعة الموحدين سنة (١٢٠٢/٥٦٠م)<sup>(٤)</sup>.

ورد المنصور الموحدى اعتداءات ملك البرتغال الجديد شانحة لأول (٥٨٢-٦٠٨/١١٨٥-١٢١١م) الذي سيطر على مدينة شلب بمعاونة قوات صليبية في عام (١١٨٩/٥٨٥م)<sup>(٥)</sup>، واسترجع أمير الموحدين مدينة شلب وقصر أبي دانس

(١) الخنة السراء (٢/٢٥٨، ٢٦٠)، المن بالإمامة (ص ٢٧٥ وما بعدها).

(٢) المعجب (ص ٣٣٠ وما بعدها)، البيان المغرب (الموحدون) (ص ١٥٨).

(٣) المعجب (ص ٣٣٠).

(٤) المعجب (ص ٣٤٧ وما بعدها)، العبر (٦/٢٤٣)، الكامل (١١/٢١٣).

(٥) الحجى: التاريخ الأندلسي (ص ٤٦٢-٤٦٣).

سنة (٥٥٨٧/١١٩١م)، وعاد بعدها للمغرب<sup>(١)</sup>، غير أن ألفونسو الثامن ملك قشتالة هاجم منطقة إشبيلية، فعزم المنصور على تجهيز حملة تآديبية كبيرة، فسار من إشبيلية إلى قرطبة، ثم سار شمالاً؛ ليواجه الحملة النصرانية المشتركة والمؤلفة من جيوش قشتالة وأراجون والبرتغال بقيادة ألفونسو الثامن، وفي عام (٥٩١/١١٩٥م) دارت معركة عنيفة عرفت بالأرك، انتهت بهزيمة ساحقة لقوات نصارى الشمال، ولا يقل هذا الانتصار أهمية عن انتصار الزلاقة في العصر المرابطي<sup>(٢)</sup>؛ إذ استعاد الموحدون كثيراً من الحصون، وثبتت خطوط المسلمين في حوض وادي آنه. ثم قاد المنصور حملة سنة (٥٩٢/١١٩٧م) توغلت في أرض قشتالة شمالاً، فحاصرت طليبة ومكادة وطليلة وأوريلية ومجريط، ووصلت شمالاً إلى وادي الحجارة ثم وندة وأقليس وفونكة، وهي آخر حملة إسلامية تصل إلى هذه المواقع، وعقدت هدنة بين الطرفين ابتداء من (٥٩٤/١١٩٨م) لمدة عشر سنوات أو أكثر<sup>(٣)</sup>.

خلف المنصور ابنه محمد الناصر (٥٩٥-٦١٠/١١٩٩-١٢١٣م)، وفي عهده سنة (٦٠٦/١٢٠٩م)، وقبل انتهاء المدنة هاجم ألفونسو الثامن أراضي المسلمين بمعاونة بطره الثامن ملك أراجون، فاستنجد الأندلسيون بالناصر الموحد الذي أعد حملة على قشتالة سنة (٦٠٧/١٢١١م)، واسترد المسلمون حصن شليطرة، واستنفر ألفونسو ملوك إسبانيا النصرانية، فقدم عليه شانحة ملك نبرة، وملك أراجون بطره الثاني، وانتصر المسلمون في البداية، ثم تغيرت المعركة إلى هزيمة منكرة، وعرفت بمعركة العقاب<sup>(٤)</sup> سنة (٦٠٩/١٢١٢م)، ومات بعدها الناصر حزناً، وعُدّت هذه المعركة من أخطر ما مُني به المسلمون من هزائم<sup>(٥)</sup>.

(١) الحنة السراء (٢/٢٧٢، ٢٧٣)، الذيل والتكملة (٥/١٩١)، البيان المغرب (ص ٢١٠ وما بعدها).

(٢) المعجب (ص ٣٥٨ وما بعدها)، الروض العطار (ص ١٢، ١٣)، نفع الطيب (٤/٣٨١).

(٣) المعجب (ص ٣٦٠)، عنان: عصر المرابطين والموحدين (٢/٢٣٤، ٢٨٨).

(٤) المعجب (ص ٤٠١، ٤٠٢)، الروض العطار (ص ١٣٧)، وابن الخطيب: الإحاطة (١/٣٨٣).

(٥) الحجى: التاريخ الأندلسي (ص ٤٦٤).

وولي بعد الناصر ابنه المستنصر (٦١٠-٥٦٢٠هـ/١٢١٣-١٢٢٢م)، وفي عهده بدأ اختيار الدولة الموحدية، فتساقطت قواعد الأندلس، فتوحدت قشتالة مع ليون في ظل الملك فرناندو الثالث (١٢١٧-١٢٥٢م)، واستولى هذا الملك على بعض مدن الأندلس مثل: ماردة وبطليوس وإلبس، وبدأ ينظر إلى بقية مدن الأندلس في وسط الجنوب، فقد هبطت خطوط المسلمين الدفاعية من نهر وادي آنة إلى الوادي الكبير، وفي سنة (٥٦٢٢هـ/١٢٢٥م) استولى النصارى على: اندوجر وأبدة ومدلين وحصن الحنش وشتت أقروج وأم غزالة، وهي مواضع في غرب الأندلس<sup>(١)</sup>.

ونتيجة لوفاة المستنصر فجأة (٥٦٢٠هـ) حدث تبدل سريع في الأوضاع والصراعات، فقامت في الأندلس زعامات محلية استولت على ما تحت يدها مثل: ابن هود الجذامي ومحمد بن يوسف بن نصر، وزيان بن مدافع من سلالة ابن مردنيس وعزيز بن خطاب وغيرهم<sup>(٢)</sup>.

وفي هذه الأثناء سقطت عدة مدن أندلسية بيد القشتالين مثل مدينة قرطبة سنة (٥٦٣٣هـ/١٢٣٦م)، وتعرضت بلنسية لهجمات ملك أراجون جاميش الأول، وسقطت أخيراً، ولم ينعها مقاومة حاكمها أبي جميل زيان، والذي طلب العون من المغرب دون فائدة<sup>(٣)</sup>، وتلا ذلك سقوط جزيرة شقر عام (٥٦٣٩هـ) ومدينة ثانية سنة (٥٦٤١هـ)، وجيان (٥٦٤٣هـ)، وشاطبة (٥٦٤٤هـ)، وإشبيلية (٥٦٤٦هـ)، ومرسية (٥٦٦٤هـ)<sup>(٤)</sup>.

وبذلك أتمت قشتالة وأراجون فتح مناطق المسلمين في الغرب والوسط والشرق، ولم تبق إلا مملكة غرناطة التي أعلن محمد بن يوسف بن الأحمر نفسه ملكاً عليها في حين بدأت دولة الموحدين في الاحتضار تحت ضربات دولة فنية -

(١) الحنة السرياء (٢/٢٧٣، ٢٩٥)، التكملة (٢/٥٩٦) رقم (١٥٧٧).

(٢) الحجي: التاريخ الأندلسي (٤٧١، ٤٧٢).

(٣) الحنة السرياء (٢/١٢٧، ٣٠٣)، التكملة (١/١٢١، ٩٠٠، ٩٠١).

(٤) الحجي: التاريخ الأندلسي (ص ٤٧٣ وما بعدها).

كانت جزءاً منها- كدولة بني مرين.

ثامناً: عصر بني نصر في غرناطة:

كانت واقعة العقاب (٥٦٠٩/١٢١٢م) مؤشراً لانهيار الجبهات الإسلامية الثلاثة في الأندلس (الغرب والوسط والشرق) فأطبق البرتغاليون في الغرب وملك قشتالة فرولند في الوسط، وخايمي الأول في الشرق، أما ما بقي في أيدي المسلمين فلم يكن يجاوز عشر مساحة شبه الجزيرة<sup>(١)</sup>.

وتركت هذه الأحداث فرصة لذوي المغامرة والطموح، ففي تلك الأثناء ظهر رجل استطاع هو وذريته من بعده أن يحتفظوا بالبقية الباقية طيلة قرنين ونصف من الزمان، وهذا الرجل هو محمد بن يوسف بن نصر الذي ينتهي نسبة إلى الصحابي قيس ابن سعد بن عبادة الخزرجي، واستقرت أسرته قديماً في منطقة جيان، وانعقدت عليه الآمال والتف حوله الأنصار، وبويع يوم ٢٦ رمضان سنة (٥٦٢٩/١٢٣١م)، ودخل أهل غرناطة في طاعته سنة (٥٦٣٤/١٢٣٧م)<sup>(٢)</sup>، فدخل قصر باديس واتخذ غرناطة عاصمة دولته<sup>(٣)</sup>، واختار لمقره برجاً قائماً على ضفة نهر حدرة اليسرى فوق تل تربة حمراء شديدة الشبه بتربة رباط شالة التي لها لون صدف الحديد الأحمر، أو لون شعر جلده أحمر، أو لون تربة أرضه، فصاروا يدعون بني الأحمر، واتخذوا اللون الأحمر شعاراً لهم<sup>(٤)</sup>.

واستولى ابن الأحمر (الملقب بالشيخ) على مينائي: المرية ومالقة، فدعم ذلك دولته لما لهما من أهمية تجارية وبحرية<sup>(٥)</sup>. لكن ابن الأحمر واجه العديد من

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (ص ٢٧٠).

(٢) العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٣٧١) ابن الخطيب: الإحاطة (٣/٣٣٦).

(٣) الإحاطة (٢/٦٥)، اللوحة البدرية (ص ٣٥).

(٤) الإحاطة (٢/٦٥).

(٥) البيان المغرب (٣/٣٤٥)، المرقة العليا (ص ١١٣-١١٤).

المشكلات الداخلية والخارجية، فمن الداخل واجه مشكلة أصهاره بني أشقيلولة الذين عاونوه في إقامة الدولة ثم انقلبوا عليه، ومشكلة نقص الأموال ليدفع رواتب الموظفين وتكوين جيش قوي يحمي حدود الإمارة.

وعاصر محمد الأول من ملوك إسبانيا النصرانية ملكي قشتالة فرناندو الثالث (٦١٤-٦٥٠هـ/١٢١٧-١٢٥٢م) ثم ابنه ألفونسو العاشر (٦٥٠-٦٧٢هـ/١٢٥٢-١٢٧٣م)، وقد اتبع بنو الأحمر سياسة مرنة تتراوح بين المهادنة عند قوة خصومهم، واستعمال القوة إذا أنسوا ضعفا من جيرانهم، وعملوا على التضريب بين جيرانهم النصراني أو التدخل في شئونهم الداخلية متبعين السياسة نفسها التي يقوم بها خصومهم، فإذا رأوا أنهم لا طاقة لهم بمقاومتهم استعانوا بإخوانهم المسلمين في شمال إفريقيا. وهكذا كان سلوكهم السياسي مزيجاً من اللجوء للقوة والعمل الدبلوماسي، فسمح لهم بإقامة توازنات دقيقة بين القوى المحيطة بهم، وربما كان هذا من أكثر العوامل التي حافظت على تاريخ المسلمين في الأندلس<sup>(١)</sup>.

وقد اتفق محمد الأحمر مع ملك قشتالة فرناندو أن يكون من أتباعه، وأدى دوراً مهيناً، فكان يدفع إتاوة لقشتالة، ويشارك ببعض حملات قشتالة على حصار المدن وقتال الآخرين، مثل اشتراكهم في حصار القشتاليين لإشبيلية وإسقاطها سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م)<sup>(٢)</sup>.

وتوفي محمد الأول بعد أن أخذ البيعة لابنه محمد الثاني الذي حكم من (٦٧١-٧٠١هـ/١٢٧٢-١٣٠٢م)، وعرف بالفقيه لانشغاله بالفقه<sup>(٣)</sup>، وهو الذي رتب رسوم الدولة، ووضع ألقاب خدمتها ونظم الدواوين والخراج، واهتم بالجيش

(١) محمود مكي: تاريخ الأندلس السياسي (ص ١٢٨) ندوة الحضارة الإسلامية في الأندلس، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٩.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب (٣/٣٨٥).

(٣) الزركلي: الأعلام (٣/٩٧٤).

وفي عهده ظهرت دولة بني مرين، واستخدمها بنو نصر في التوازنات السياسية، فتحالف بنو نصر مع بني مرين عندما اشتد الضغط النصراني، وكانوا لا يفضلون هذا التحالف إذا لمحو تدخلاً في شئون بلادهم الداخلية، فلما اشترط السلطان أبو يوسف يعقوب أن ينزل ابن الأحمر له عن طريف ورندة والجزيرة الخضراء لإنجادهم شكَّ بنو نصر في نواياهم، إلا أن المرينيين دخلوا الأندلس برسم الجهاد، وأوقعوا بالجيش القشتالي هزائم متوالية، واتفقوا مع سلطان غرناطة على استقرار فرقة عسكرية مغربية، وقائدها قائد مريني يلقب بشيخ الغزاة<sup>(٢)</sup>.

ويرث عرش غرناطة محمد الثالث المعروف بالمخلوع<sup>(٣)</sup> (٧٠١-٧٠٨/١٣٠٢-١٣٠٩م)، وتسوء العلاقة مع القائد المريني باستيلاء محمد الثالث على سبتة عام (٥٧٠٥/١٣٠٦م)، وإغارته على منطقة بلنسية، فعقد خايمي الثاني ملك أراجون اتفاقاً مع فرناندو الرابع ملك قشتالة لغزو غرناطة<sup>(٤)</sup>، فاستولى فرناندو على جبل طارق، وحاصر الجزيرة الخضراء، ولم يستول عليها، وأراد محمد الثالث التخلي عن الجزيرة الخضراء ورندة، فثار عليه الغرناطيون وأحاطوا به.

ويتولى إسماعيل الأول بن فرج (٧١٣-٧٢٥/١٣١٤-١٣٢٥م)، وكان على عرش غرناطة الملك ألفونسو الحادي عشر الطفل، فقام بالوصاية عليه الأميران خوان وبطرة، فأرادا مهاجمة غرناطة، ووصلوا إلى حرجها الفسيح، إلا أن الغرناطيين هزموا القشتاليين وقتل الوصيان سنة (٥٧١٩/١٣١٩م)، واستولى السلطان النصري على حصن أشكر ومدينة أرتسن<sup>(٥)</sup>.

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات (٢٠٦/١)، ابن الخطيب: اللوحة البدرية (ص ٣٨).

(٢) ابن خلدون: العمر (١٧٢/٤)، مجهول: الذخيرة السنية (ص ١٥٩-١٧٠).

(٣) العمر (٢٢٨/٧-٢٢٩).

(٤) العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٤٠٨).

(٥) ابن خلدون: العمر (١٧٥/٤).

ويلى محمد الرابع العرش بعد مقتل والده إسماعيل غيلة (٧٢٥-٧٢٣هـ/١٣٢٥-١٣٣٣م)، ويهاجم قشتالة، ويستولي على مدينتي: قبرة وباعة، ولكن فتنة وقعت بين شيخ الغزاة والملك النصرى، فيستغل ملك قشتالة ذلك، ويستولى على حصن إطانة، ويعود التحالف مع السلطان على بن عثمان المربني (٧٣١-٧٥٢هـ/١٣٣١-١٣٥١م)، ويستردون جبل طارق من القشتاليين سنة (٧٢٣هـ/١٣٣٣م)<sup>(١)</sup>.

وخلف يوسف الأول أخاه بعد مقتله (٧٣٣هـ-٧٥٥هـ/١٣٣٣-١٣٥٤م)، واشترك مع السلطان المربني أبي الحسن لاسترداد ثغر طريف، فاشتبك مع قوات ملك قشتالة ألفونسو الحادي عشر وحموه ملك البرتغال ألفونسو الرابع، وانهم المسلمون في وقعة طريف في سنة (٧٤١هـ/١٣٤٠م)، واشتركت قوات أوربية في هذه المعركة، وسقطت بعد المعركة قلعة بني سعيد ومدينة باغة سنة (٧٤٢هـ/١٣٤١م)<sup>(٢)</sup>.

ثم حاصروا الجزيرة الخضراء وأخذوها سنة (٧٤٤هـ/١٣٤٤م)<sup>(٣)</sup>.

وهذه الهزائم لم تمنع يوسف الأول أن ينشئ المصانع ويحصن البلاد ويقوم الحصون مثل حصن البيول، وجدد حصن جبل فارة بمالقة، وأقام سوراً حول ريبض البيازين، وأضاف كثيراً من التشييدات إلى قصر الحمراء مثل باب الشريعة، وبرج قمارش والحمامات السلطانية وقصر متشوكة، وبرج الشريعة ومصلى البرطل<sup>(٤)</sup>.

وحدث في عهد السلطان يوسف الأول الوباء العظيم أو الوباء الأسود الذي اجتاح المشرق والمغرب (٧٤٩-٧٥٠هـ/١٣٤٧-١٣٤٨م)، وراح ضحيته عدد عظيم من علماء الأندلس ورجال الدين والسياسة والأدب، فمنهم:

(١) العادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٤٠٩).

(٢) مجهول: الذخيرة السنية (ص ١٧٤).

(٣) العادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٤١٨-٤١٩).

(٤) الإحاطة (١/٥١٧)، النعمة البدرية (ص ٩٦).

أبو الحسن بن الجياب أستاذ ابن الخطيب، ووصف ابن الخطيب ظهور هذا المرض في رسالة أسماها "مقنعة السائل عن المرض الهائل"<sup>(١)</sup>.

وأنقذ هذا الوباء حصار جبل طارق سنة (١٣٤٩/٥٧٥٠م)، لكن الطاعون دخل مملكة قشتالة، وقضى على ملك قشتالة سنة (١٣٥٠/٥٧٥١م) منقذاً مملكة غرناطة من كارثة كبيرة<sup>(٢)</sup>.

وخلف يوسف الأول ولده محمد الغني بالله (٧٥٥-٧٦٠، ٧٦٣-٧٩٣ هـ ١٣٤٥-١٣٥٩، ١٣٦٢-١٣٩١م)، وتوطدت العلاقة في عهده بين غرناطة وفاس.

وأراد السلطان المريني غزو الأندلس والسيطرة على مضيق جبل طارق، وأراد أن يتحالف مع بدرو الرابع ملك أراجون لذلك، لكن السلطان المريني توفي فجأة عام (١٣٥٩/٥٧٥٩م)، فتوقف التحالف، فتحالف السلطان المريني أبوسالم مع قشتالة وغرناطة<sup>(٣)</sup>.

ووثق محمد الغني بالله التحالف مع ملك قشتالة (بطره الأول الملقب بالقاسي) ضد ملك أراجون، واستغل سلطان غرناطة ذلك في سلامة بلاده، وتدخل في شئون أسبانيا النصرانية، وهي سياسة طبقها وزيره الكاتب الموسوعي لسان الدين ابن الخطيب وحاجبه أبو النعيم رضوان<sup>(٤)</sup>.

وعندما اندلعت الحرب بين قشتالة وأراجون ساعد محمد الغني بالله حليفه ملك قشتالة، وزوده بسفن حربية عبارة عن عشر شواني ببجارتها وأسلحتها<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن حدون: العمر (١٧٢/٤)، (٨٩/٧، ١٩١، ٢١٦)، ابن الخطيب: اللوحة البدرية (ص ٤٤).

(٢) محمود مكّي: تاريخ الأندلس السياسي (ص ١٣١).

(٣) العمر (٣٠٤/٧)، العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٤٢٤).

(٤) العمر (٢٩٩/٧).

(٥) العبادي: فترة مضطربة في تاريخ غرناطة (ص ٥٩).

وقام انقلاب على محمد الغني بالله، وتولى أخوه إسماعيل الثاني (٥٧٦٠/١٣٥٩م)، وخرج محمد الغني بالله إلى بني مرين<sup>(١)</sup>. ثم قتل السلطان إسماعيل الثاني سنة (٥٧٦١/١٣٦٠م)، وتولى بعده قاتله وزوج أخته وابن عمه أبوسعيد محمد البرينمو، وتحالف مع أراجون ضد قشتالة حليفة محمد الغني بالله، فصالح ملك قشتالة مع ملك أراغون ليتفرغ لقتال غرناطة بمساعدة السلطان المخلوع محمد الغني بالله، وانتهى الأمر باسترداد محمد الغني بالله سلطانه<sup>(٢)</sup>.

ثم نشبت حرب (٥٧٦٧/١٣٦٦م) بين بطرة الأول وأخيه أنريكي دي تراستمارا الذي يطلب عرش قشتالة، فأرسل إلى محمد الغني بالله حليفه، وأغارت هذه القوات على أطريرة وهاجمت جيان وأبدة وبياسة، وحاصرت قرطبة، وكادت أن تسقطها، واستغل محمد الغني بالله الصراع بين الأخوين لمصلحة بلاده مستولياً على ثغور عديدة بين غرناطة وقرطبة وجيان، واستولى على الجزيرة الخضراء سنة (٥٧٧٠/١٣٦٩م)، ودمر حصونها وأسوارها خوفاً من سقوطها في يد الأعداء.

وانتهت الحرب بين أنريكي وبطره بمقتل بطرة سنة (٥٧٧٠/١٣٦٩م)، فعقد السلطان محمد الصنح مع الملك الجديد سنة (٥٧٧١/١٣٧٠م)، ولمدة ثمانية أعوام بين غرناطة وفاس وقشتالة وأراجون<sup>(٣)</sup>.

وعمت الفوضى خلال هذه السنوات الدولة المرينية في فاس، فتمكن محمد الغني بالله من التدخل في شئون المغرب، وأخذ جبل طارق، وألغى وظيفة شيخ الغزاة، وتمتعت غرناطة بفترة سلم، سمحت للسلطان النصرى بتشديد لقسم الأكبر من قصر الحمراء، واهتم بالأمور الثقافية، وقامت العلاقات بين غرناطة وغيرها من

(١) العمر (٣٠٦/٧، ٣٠٩)، أرهاو الرياض (٢٠٣/١، ٢٠٧).

(٢) ابن الخطيب: النعمة الدرية (١١٧)، نفاضة الجراب (ص ١٨٤، ١٨٥).

(٣) الإحاطة (٥٦/٢، ٥٨)، العمر (٣٢٧/٧-٣٢٨).

ويعدّ عصر محمد الغني بالله آخر عصور قوة مملكة غرناطة، وكان الأمراء بعده ضعافاً، لم يعرفوا تطبيق سياسته التي زاوجت بين العمل الدبلوماسي واستعمال القوة عند الضرورة، وإن كانت الأمور لم تتغير خلال الفترة من (٧٩٣-٥٨٢٠/١٣٩١-١٤١٧م)، وحكم فيها ثلاثة سلاطين هم: يوسف الثاني، ومحمد السابع، ويوسف الثالث. ولأن معاصريهم من ملوك قشتالة كانوا ضعافاً، واشتغلوا بحروبهم الداخلية، ولم يحدث في هذه الفترة إلا استيلاء القشتاليين على مدينة أنتقيرة سنة (٥٨١٣/١٤١٠م)، وكانت من أحصن معاقل غرناطة، وتوجهت حملة قشتالية بقيادة الوزير ألبارودي لونا إلى ضواحي غرناطة، ووقعت معركة الشجرة، وانتصر فيها القشتاليون<sup>(٢)</sup>.

وقد بلغ اضطراب الأوضاع الداخلية في غرناطة أن تعاقب على عرشها خلال القرن التاسع الهجري (١٥م) اثنا عشر سلطاناً، ونتيجة للثورات المتكررة والانقلابات السياسية شهدت غرناطة اعتلاء هؤلاء السلاطين عشرين مرة بسبب عودة بعضهم إلى العرش أكثر من مرة مثل محمد التاسع الذي عاد للحكم أربع مرات<sup>(٣)</sup>. وأصاب غرناطة من جراء ذلك أن استولى القشتاليون على جبل طارق في عام (٥٨٦٦/١٤٦٢م)، فقطع خط الوصل بين الأندلس وسائر الشمال الأفريقي، وتزامن ذلك مع ضعف بني مرين وبني عبد الواد في تلمسان والحفصيين في تونس، وبعث الغرناطيون رسالة إلى المماليك في مصر، ولكن مصر لم تكن أحسن حالاً من غيرها، أما قوة العثمانيين فكانت مشغولة بفتحاتهم لبلاد المسلمين في الشرق.

(١) العبادي: دراسات في تاريخ الأندلس السياسي (ص ١٣٢).

(٢) محمود مكي: تاريخ الأندلس السياسي (ص ١٣٣).

(٣) عنان: وثيقة أندلسية - قشتالية من القرن التاسع الهجري (ص ٣٨-٤٠).

وفي هذا الوقت مرت أسبانيا النصرانية بهزيمة سياسية وحربية بزواج الملك فرناندو الثالث ملك أراجون بإيزابيلا ملكة قشتالة عام (١٤٦٩/١٤٨٧م)، وهذا يعني اتحاد المملكتين، مما يؤثر سلبيًا على غرناطة التي اعتادت استغلال الخلاف بين المملكتين، وبدأ هذان الملكان يعملان على إنهاء الوجود الإسلامي في الأندلس<sup>(١)</sup>. وفي هذه الأثناء يشتد الصراع بين أبي الحسن وأخيه محمد الزغل، فيطلب أبو الحسن من ملكي قشتالة وأراجون عقد الهدنة، ولكنهما يشترطان اعترافه بتبعيته لقشتالة، ودفع إتاوة كبيرة، فيرفض ذلك، فتقع الحروب بين الدولتين. وفي (١٤٨٢/١٤٨٧م) يستولي القشتاليون على الحامة ثم على لوشة، فيثور الغرناطيون على أبي الحسن، ويولّوا مكانه ابنه محمدًا، واستطاع أبو الحسن وأخوه محمد صدّ هجوم قشتالي على مالقة وأحرزا انتصارًا في معركة الشرقية سنة (١٤٨٣/١٤٨٨م)<sup>(٢)</sup>.

وأراد السلطان محمد القيام بحملة على منطقة قرطبة، ولكنه هزم عند أليسانة وأسره الملك فرناندو ملك قشتالة، وأطلق الملك سراحه، ونصّب أميرًا على وادي آسن. وفي عام (١٤٨٥/١٤٩٠م) احتل أبو عبد الله المرية، ثم توفي أبو الحسن علي ونودي بأخيه الزغل<sup>(٣)</sup>، وانتهز الأسبان فرصة الفتنة بين الزغل وابن أخيه، واستولوا على بعض المدن مثل رندة ولوشة ومالقة.

ووجد الزعماء المسلمون أنه من الأفضل اقتسام ما بقي من غرناطة بين العم وابن أخيه، وبعث الأسبان إلى الزغل يعرضون عليه وعلى قاده مالا كثيرا مقابل تسليم ما تحت يده من أراض، فوافقهم ورحل إلى فاس، فقام السلطان محمد الشيخ بوضعه في السجن، وصادر أملاكه وسمل عينيه، فأصبح أبو عبد الله

(١) العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٤٦٢-٤٦٣).

(٢) مجهول: نبرة العصر (ص ١٢)، المقرئ: نفع الطيب (٦/٢٦٢).

(٣) مجهول: نبرة العصر (ص ٣٧)، علي مظهر: محاكم التفتيش (ص ١٤-١٥).

محمد وحيداً في الميدان<sup>(١)</sup>.

وفي سنة (١٤٨٦/٥٨٩١م) استولى ملك قشتالة على لوشة ومقلين ومنفريد وقلميرة، وأسر أبا عبدالله من جديد، وفي (١٤٨٧/٥٨٩٢م) حاصر مالقة التي قاومت ببسالة منقطعة النظير، وفي (٥٨٩٥) استسلمت بسطة، وخلال سنة (٥٨٩٧/١٤٩٢هـ) شدد الملكان الأسبانيان الحصار على غرناطة، فبنوا مدينة شنتفي لتكون قاعدة للعمليات العسكرية وتفاوض أبو عبدالله على تسليم غرناطة<sup>(٢)</sup>.

وكانت الشروط المتفق عليها للتسليم متساهلة مع أهل غرناطة. وفي ليلة (٢٩ صفر ٥٨٩٧/١٤٩٢م) احتلت القوات الأسبانية غرناطة، واشتملت معاهدة التسليم على ضمانات كثيرة بتأمين أهل غرناطة على أنفسهم وأموالهم وحقوقهم المادية واحترام شعائرهم.

الموريكيون:

اشتملت معاهدة تسليم غرناطة على ضمانات كثيرة لتأمين المسلمين في حياتهم وأموالهم وعقائدهم، إلا أن قدوم الكاردينال فرانسيسكو خيمينيث دي ثيسنيروس إلى غرناطة (١٤٩٩م) دفع إلى نقص هذه الضمانات؛ إذ كان قساً متعصباً يرى إرغام المسلمين على اعتناق النصرانية، فاندلعت الثورات في حي البيازين وفي منطقة النشرات.

وأطلق على المسلمين في الفترة الأولى اسم المدجنين أي الخاضعين، وكانوا أكثر أهل الصناعات والحرف، ثم أطلق عليهم اسم الموريكسيين وهو تصغير للتحقير للفظ (Moso) أي المسلم، وكان هناك ديوان عرف بديوان التفتيش أنشئ منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ويتبع الكنيسة الكاثوليكية، ومهمته تعقب المارقين - في نظر

(١) مجهول: نبذة العصر (ص ٣٨) وما بعدها.

(٢) مجهول: نبذة العصر (ص ٣٨).

الكنيسة- وتوقيع العقوبات عليهم ومنها الإعدام والسجن والمصادرة، وإحراق الكتب مثل التلمود وفلسفة أرسطو. وأنشئت أول محكمة تفتيش في إشبيلية (١٤٨٢م)، ثم قامت دواوين التفتيش لمحاولات التنصير القهري لليهود والمسلمين، وحولت كثيراً من المساجد إلى كنائس، وجمع الكاردينال خيمينيث دي ثيسنيروس الكتب العربية، وأحرقها في ميدان باب الرملة، وقيل إنها بلغت ١٠٠,٠٠٠ مجلد. واستمرت الضغوط لتنصير المسلمين، فمنع المسلمون من حمل السلاح وإقامة الحفلات. كما تم تدمير الحمامات العربية. فلم يحتمل المسلمون ذلك، فأعدوا للثورة، إلا أن الثورة أخمدت بقوة واستشهد قائدها عبدالله محمد الأموي سنة (١٥٧١م)، ثم صدر قرار بنعي الموريكسيين وتفريقهم ومصادرة أملاكهم، وتعرض المسلمون للإبادة في كثير من الأماكن.

وفي سنة (١٦١٩م) بحثت مشكلة الموريكسيين، فصدر قرار بنفيهم من أسبانيا، فظلت السفن شهوراً وأعواماً تحمل المسلمين إلى الشمال الإفريقي ومصر ومختلف بلدان العالم الإسلامي، وقيل إن عدد هؤلاء الموريكسيين بلغ نحو المليون. ولم يكن طرد المسلمين من أسبانيا إلا نذيراً بمشكلات ضخمة اقتصادية، فعلى الرغم من أن أسبانيا اكتشفت القارة الأمريكية وما تضمنه من ثروات طائلة، وبسطت سلطانها على نصف أوربا، وبعض السواحل الإفريقية ولفلبين، رغم ذلك فإن المسلمين كانوا عماد الاقتصاد الأسباني لأنهم أهل الحرف والصناعات والتجارة والفنون، فحسر الأسبان بذلك اجتماعياً واقتصادياً.

وكان ذلك من أهم أسباب عدم استفادة الأسبان من توسعهم وتحولهم إلى قوة عالمية، كما أنهم خسروا الإسلام وحضارته التي قامت عليها نهضة أوربا كلها.

## سقوط الأندلس.. الأسباب والدروس

فتح المسلمون الأندلس بين سنتي (٩٢، ٥٩٣) على يد طارق بن زياد وموسى ابن نصير، ثم مرت الأندلس ببعض الأزمات نتيجة سقوط الدولة الأموية في المشرق، فعاشت في قلق واضطراب إلى سنة (٥١٣٨) حين فتحها عبدالرحمن الداخل الأموي وأقام فيها دولة لبني أمية بعد أن سقطت دولة الأمويين في المشرق، ولقد وصلت الأندلس إلى هذه القمة قريبا من تلك الأيام التي أعلن فيها عبدالرحمن الناصر (٣٠٠-٥٣٥٠) تحويل الأندلس من إمارة إلى خلافة سنة (٥٣١٦).

وفي هذه اللحظات الأندلسية الرائعة التي كانت الأندلس فيها دولة واحدة قوية بل خلافة قوية، وبينما كان الحكم بن عبدالرحمن الناصر يجاهد في سبيل تكوين أعظم مكتبة عرفها العالم كله -حسب علمنا- تتكون من أربعمئة ألف مجلد<sup>(١)</sup> كان والده عبدالرحمن الناصر يتجه بفكره إلى مجال آخر يظنه طريق المجد والعظمة، ويظنه الترجمة الضرورية والصحيحة المعبرة عن الواقع الرائع الذي تعيشه الأندلس في عهده، إنه طريق بناء القصور والمدن الراقية.

كانت مصادر الثروة المادية في الأندلس كثيرة ومتنوعة، وكان من أهم المصادرة المفضية إلى التكاثر المادي، سعة الأرض الأندلسية التي استولى عليها الفاتحون المسلمون الذين لم يزيدوا عن عشرات من الآلاف أصبحوا ملوكاً متوجين في شبه جزيرة تبلغ مساحتها أكثر من ١٩٦,٠٠٠ ميل مربع.

وعن هؤلاء توارث الأخلاف البربر والعرب فنجحوا -أو نجح أكثرهم- في زيادة ثرواتهم بينما لم ينجح إلا الأقلون في تنمية إيمانهم، بل مشت الثروة المادية في أكثر الأحيان في طريق مناقض للطريق الذي مشت فيه كتائب الإيمان والدعوة الإسلامية.

(١) في مقابل ١٩٢ كتاباً كانت هي أكبر عدد من الكتب ملكته كاتدرائية أوروبية حتى ذلك التاريخ.

ومن مجموع هذه الغنائم، ومن الثروات التي كانت تفيض بها بلاد الأندلس الواسعة الخضراء ذات الثمار الكثيرة والفواكه المتعددة من عنب وتين وتفاح وسفرجل وحمضيات وزيتون بالإضافة إلى الثروة المعدنية التي لم تخل منها بلاد الأندلس<sup>(١)</sup> من مجموع هذه المصادر تكونت ثروات مادية هائلة تركزت في يد الملوك والحكام المحيطين بهم.

وقد قرر الناصر بناء مدينة الزهراء، فابتدأ بنائها في أيام الناصر من أول سنة (٥٣٢٥هـ)، وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ستة آلاف صخرة "وجلب إليها الرخام من قرطاجنة إفريقية وتونس"<sup>(٢)</sup>.

ولم يكن الأمر محصوراً في الزهراء فحسب، بل كانت القصور الفخمة ممتدة على شاطئ الوادي الكبير مسافة عشرة أميال، وكانت أسواق قرطبة من أغنى أسواق الدنيا، فلم يسمع سامع بشيء من التوابل والعطور أو المنسوجات الفاخرة أو الكتب الخطية النادرة أو البسط والزراي البديعة أو آلات اللهو في أي من أرجاء الدنيا إلا وقد جلبت إلى تلك السوق، وحال أمريكا اليوم بالنسبة للدنيا هي حال الأندلس في ذلك الزمان بالنسبة إلى غيرها من البلاد، ولكن الأندلس كانت أعظم من وجهة المدينة<sup>(٣)</sup>، وكانت الحدائق العامة المعدة للتنزه نزهة للأبصار<sup>(٤)</sup>.

وإمعاناً في السقوط في حفرة التكاثر المادي لم يكتف الأندلسيون بما تضمه أرضهم، بل راحوا يستوردون وسائل البناء الفخم، فكانوا يستوردون المرمر من اليونان وإيطاليا وإفريقية، وكانت سفنهم تحمل المقادير العظيمة من خشب السدر والعاج والأبنوس وأحسن التوابل والطيب الذي يمدهم به الشرق، وكانوا يجلبون

(١) المقرئ: فصح الطيب (٢/٢٠٣)، نقلاً عن الدغلي "الحياة الاجتماعية" (ص ٥٦).

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، نشر دار الثقافة، تحقيق كولان وبروفنسال (٢/٢٣٠).

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق (ص ٧٧).

من هناك الذهب والفضة والجواهر والمخار والحجر الشفاف وحجر الأزورد وجلود السلاحف، وكل مادة معروفة من مواد الزينة. وقد عرفوا كيف يقفون أموالهم على فنون المعيشة إلى حدّ لم يصل إليه إلا قليل من الأمم، وقصور الأشراف وأرباب المناصب والأدباء كانت تقارب في الفخامة والسعة قصور الخليفة، وحتى منازل أرباب الحوانيت محتها أعاصير النكبة التي أنزلها الأسبانيون بالأندلس<sup>(١)</sup>.

وقد قامت معارضة كبيرة ضد عبدالرحمن الناصر؛ لتبذيره وإسرافه في بناء المدن والعمائر، وكانت المعارضة تحمل وجهة النظر الإسلامية ضد هذا التوجه المادي، الذي يعلي من أسهم حضارة الحجارة وقهر الإنسان في سبيل مجد شخصي زائل، وينفق وقت الأمة وأموالها في هذه الأشكال والرسوم، وقد تزعم المعارضة القاضي المجاهد المنذر بن سعيد البلوطي.

وكان من أقوال المنذر البلوطي في رد فلسفة الخليفة الناصر هذا الشعر الذي يقول فيه:

يا باني الزهراء مستغرقاً أوقاتـه فيها أما تهمل  
لله ما أحسنها رونقاً لو لم تكن زهرتها تذب

وفي يوم من أيام الجمع، اهتمك الناصر في استكمال زخارف الزهراء وأثاثها حتى فاته حضور الجمعة فحفظها له البلوطي، فلما احتفل بافتتاحها خطب البلوطي في مسجدتها فكان مما أورده في مجال مقاومة هذا الاتجاه قول الله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾<sup>(٢)</sup>. [الشعراء: ١٢٨-١٣٥]

(١) المصدر السابق.

(٢) محب الدين الخطيب: الزهراء، المطبعة السلفية ومكبتها القاهرة ١٣٤٣ هـ (ص ٣٨).

وقد امتدت ظاهرة الترف إلى بيوت الله، ومسجد قرطبة يعدّ من أبرز النماذج الأندلسية التي ننظر إليها هذه النظرة المريبة.

إن فقهنا بالمقاصد الإسلامية العليا وبطبيعة التوازن الإسلامي والتحرير والارتفاع عن المادة تجعلنا نرصد هذه الظاهرة المادية التي تسقط فسفتها حتى على بيوت الله، فتسعى إلى تحويلها إلى أشباه متاحف أو كنائس، وتبتعد بها عن البساطة والتحرير والطبيعة الجميلة التي تقاوم أي تكثيف للجوانب المظهرية والاحسية.

وبتكاليف مسجد واحد قد نستطيع بناء عشرين أو خمسين مسجداً<sup>(١)</sup>، ومدرسة لمسلمين فقراء في بلاد الإسلام قد لا يجدون ما يبنون به مسجداً بسيطاً أو مدرسة بسيطة.

ولئن كان الأمر مقبولاً في حدود طاقة الأمة وسُلم أولوياتها، وفي حدود نسبة المنفق على المساجد أو المباني إلى ميزانية الإنفاق العام، فقد بدأت النسبة تختل مع بداية بناء الزهراء<sup>(٢)</sup>، وتوجه الخليفة العظيم عبدالرحمن الناصر إلى التركيز على هذا المنحى - كما ذكرنا - دون تحديد دقيق لعواقبه الوخيمة وآثاره البعيدة.

وبما أن الناس - في التقليد - على دين ملوكهم، فقد أصبحت المدن الأندلسية تضم كثيراً من الضياع والمنيات، والتي انتشرت في بلاد الأندلس بشكل عام، وقد استمر نظام الضياع واتسع، ثم انتشرت المنيات، وكان هناك فرق بين الضياع والمنيات يميز إحداها عن الأخرى، فالضياع عبارة عن قرى تصير إلى منك مالك كبير، وكثيراً ما كان يسكن بها، أما المنية فعبارة عن ضيعة صغيرة ينشأ حولها قصر ريفي يبنيه المالك لتلك المدينة<sup>(٣)</sup>.

(١) بل إنه في العصر الحديث يمكن أن يبنى بتكاليف مسجد واحد أكثر من ألف مسجد ومدرسة!!

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب (٢/٢٣٠).

(٣) ابن القوطية (أبو بكر محمد بن عمر): تاريخ افتتاح الأندلس. تحقيق إبراهيم الأبياري. دار الكتب

الإسلامية ط. ١/٢٠٢ هـ (ص ٢٠٩).

وفي عصر الطوائف (٤٢٢-٥٤٧٨هـ) استمرت ظاهرة التكالب المادي ومظاهر البذخ، على الرغم من الصراعات التي كانت دائرة بين الإمارات الأندلسية (إمارات المدن)، وكانت الطبقة الحاكمة في الجملة ومن يلوذ بها، فضلا عن بقية أعضاء الطبقة الأرستقراطية تتفنن في بناء القصور وابتداع ألوان الزخارف فيها، وكانت قصور هؤلاء الأثرياء مئوى لفنون الغناء والرقص والموسيقى وما يدخل باجمها من صور الترف، وكان معظم هؤلاء الأثرياء من المعتكفين على الموسيقى والفتيات الحسان وهم ينفقون في سبيل ذلك الأموال الطائلة<sup>(١)</sup>.

وكان من الطبيعي في ظل هذا التوجه أن ينتشر الترف والتحلل، وأن يترجم الأدب هذا النمط من الحياة، ولهذا كانت القصائد التي صدرت عن أسرة بني عباد والأسر الأرستقراطية الإشبيلية مستوحاة من حياتهم الباذخة، فقد كانت مشاغلهم نادراً ما تتجاوز حياتهم المترفة في القصور كمجالس الأُنس والشراب والزهور والنساء والعلمان<sup>(٢)</sup>.

ولعل أهم الأدباء الذين وصلتنا أسماؤهم من ممثلي هذا الاتجاه المترف أبو عامر بن مسلمة، وأبو جعفر بن الأبار، وأبو بكر بن القوطية، وأبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميري، وأبو بكر بن نصر، وأبو الأصغ بن عبدالعزيز، وأبو الوليد بن العثماني، وأبو الحسن بن علي<sup>(٣)</sup>، وغيرهم.

وفي سرقسطة في عصر الطوائف -بالإضافة إلى إشبيلية وبلنسية وشاطبة - مال منذر بن يحيى صاحبها إلى السكون والدعة، وأبطل رسوم الجهاد وتقرب إلى النصارى حتى سالموه وتفرغ -بذلك- للترف هو ومن يلوذون به، وعندما قتله رجل من بني عمه يدعى عبدالله بن حكيم، غرة ذي الحجة سنة (٥٤٣٠هـ) استطاع هذا القاتل أن يهرب -بعد ملاحقته- بأفخر ما اشتمل عليه قصر منذر

(١) محمد عبدالله عنان: دول الطوائف، نشر مصر ١٩٦٠م (ص ٤٤١).

(٢) صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس الهجري. دار الثقافة. بيروت ١٩٦٥م (ص ١٥٢).

(٣) المصدر السابق.

من ذخائر الأموال، ونهبت العامة بعد هروب القاتل قصره، فأخذوا منه كثيراً من النفائس حتى قلعوا مرمره وطمسوا أثره<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا النهج كانت أوضاع أكثر المدن الأندلسية الطائفية، فكان ذلك - إلى جانب عوامل أخرى - سبباً في ضياع طليطلة قلب الأندلس، وانحيار بقية المدن واستعدادها للسقوط لولا أن قيض الله - بكرمه - المرابطين؛ ثم الموحدين فحموا الأندلس من السقوط نحو قرنين إلى أن هزم الموحدون بقيادة الخليفة الناصر أمام الأذفونش وجيوشه الأوروبية في موقعة العقاب يوم الاثنين الخامس عشر من صفر سنة (٦٠٩هـ/١٦ تموز ١٢١٢م)<sup>(٢)</sup>.

وبعد هذا التاريخ بدأت المدن الأندلسية تنداعى أمام النصارى ولم تستطع أن تفتن من هذا المصير - إلى حين - إلا مدينة غرناطة التي استطاع أبو عبدالله بن يوسف المعروف بالأحمر أن يحتفظ بها وبيعض المناطق في جنوبي الأندلس، مكونا ما عرف في التاريخ باسم مملكة غرناطة أو "الأندلس الصغرى" بين سنتي (٦٣٥-٥٨٩٧هـ).

وخلال العصر الغرناطي كله - باستثناء فترات قليلة - استمر منهاج التكاثر المادي والتنافس المعماري.

ففي عهد محمد الخامس من بني الأحمر وصلت عمارة الأندلس غايتها؛ إذ اشتعلت الفتى بين مملكتي قشتالة وأراجون النصرانيتين، وانتهز محمد الخامس هذا الهدوء بين النصارى والمسلمين، وكان هو نفسه ميالاً للذعة، فارتقى بغرناطة - من الناحية المادية والمعمارية - حتى غدت أكثر الممالك رقياً وازدهاراً<sup>(٣)</sup>، ولم يعتمد إلى استغلال الفرصة لتقوية بلاده وإعادة مجدها بالتعاون مع بني مرين، فضلاً عن الاهتمام بالإسلام ودعوته وصناعة الرجال الأكفاء، بل صرف همه إلى

(١) ابن عذارى: البيان المغرب (٣/١٨٠).

(٢) عبدالرحمن الخجى: التاريخ الأندلسى. دار القنم ط١. ١٣٩٦م (ص ٤٩٣).

(٣) العبادى: المجل (ص ١٧٣٠).

النواحي الفنية والمعمارية، وانصرف الناس تبعاً له إلى الآداب والفنون فعظمت العمارة في غرناطة، وتم ذلك كله في ظل تفكك أعدائه في قشتالة وأراجون، وقوته النسبية أمام ضعفهم.

وبعد محمد الخامس توالى ملوك من بني الأحمر على الترف والقصور الفارهة، ولم تكن لهم قوة أسلافهم الذين كانوا قريبين من مأساة سقوط المرحدين والمدن الأندلسية، وبالتالي كان لديهم شعور بالخطر والحذر، "وكانت سنة الله ماضية" على نهجها الذي يعرفه أصحاب البصائر والفقهاء الحضاري، فقد زامن هذا الانحلال والترف الذي أصاب ملوك غرناطة أن سلط الله عليهم عدوهم، فبدأت عوامل الوحدة والقوة تتجمع في أسبانيا النصرانية وانتهت مسيرة الأحداث إلى أن تزوج "فرديناند" ملك أراجون من "إيزابيلا" ملكة قشتالة، واتحدت المملكتان فكان هذا الاتحاد أكبر انتقام من الله لهؤلاء الملوك المترفين الذين نسوا الله فنسيهم، وسلط عليهم عدواً سليهم ما أنفقوا فيه أعمارهم، ونسوا بسببه دينهم ورسالتهم.

وفي الأيام الأخيرة لغرناطة كانت هذه الآفة المادية قد باضت وأفرخت وأصبحت فلسفة وهدفاً، ولهذا فأنا أتجرأ وأزعم أن غرناطة -مع تقديرنا لكل عوامل السقوط- لم تسقط بالحرب، بل سقطت بسيطرة هذا العامل المادي على منهج الحياة.

وقد كانت شروط تسليم غرناطة -كما جاءت في الوثيقة المعتمدة من الجانبيين وفي الرسائل التي تبودلت بين المتفاوضين، في غيبة الشعب المسلم المهجور- كانت هذه الشروط تؤكد أن الأمر كان صفقة تجارية، تخضع للرشاوى المباشرة والهدايا المشبوهة، وأن الأمر لم يكن خسارة معركة أو سقوط دولة، بل كان عبادة للمادة، وكفراً بالإسلام، فالذين سلموا غرناطة -أو باعوها- كانوا قد خلعوا ربة الإسلام قبل ذلك، وكانت المفاوضات -بالتالي- تتم بين كاثوليكين من جانب،

وغير مسلمين من جانب آخر.

كانت الأخوة الإسلامية التي صهرت جميع المسلمين في دولة المدينة المنورة، والشريعة الإسلامية القائمة على العدل، والتي لا محاباة فيها ولا ظلم، هما الطريق الذي يحتاج إليه المجتمع الأندلسي، لا سيما وأن هذا المجتمع يواجه أعداء دائمين متربصين به في الشمال خلف جبال البرتات، كما يواجه عناصر اجتماعية متعددة لا يصلح لإيجاد كيان واحد منها إلا الإسلام القائم على الأخوة والشريعة.

وإذا كان أعداء الشمال في منطقة القلاع (قشتالة) وما وراءها يمثلون عدوًا واضحًا متربصًا، فإن الشتات الجنسي - الذي تُركت بذور العداوة بين عناصره تنمو وتزدهر - كان يمثل مرضًا داخليًا يمتد في الجسم المسلم مثل السرطان، وكان أكبر عون للعدو الخارجي على تحقيق أهدافه.

وللأسف فإن المسلمين لم يفتنوا إلى هذه الحقيقة ولم يضعوا الخطط التي تكفل المزج الاجتماعي السليم بين أهل البلاد الأصليين والوافدين من العرب، والبربر، والمغاربية من سكان شمال إفريقيا الأصليين القادمين مع الفتح أو بُعيده، والموالي المنسويين إلى أقطار شرقية مختلفة، فضلًا عن المستعربين من النصارى، والمماليك وانصقابلة الوافدين من بلاد غربية متعددة، وهذه هي أبرز العناصر التي يتكون منها المجتمع الأندلسي<sup>(١)</sup>.

وقد كان هذا التركيب الاجتماعي المعقد في الأندلس، بالإضافة إلى وجود الأقلية النصرانية في داخله، ودول النصارى في الشمال، كان هذا كله يوجب الاحتكام الدائم للإسلام الذي يضمن الطاعة، والتماسك، والعدل وهيمنة قيم الأخوة الإسلامية، بالإضافة إلى وجود حكومة قوية قادرة على إخضاع الجميع للشريعة العادلة، غير محامية لجنس، أو ظالمة لجنس آخر.

لكننا نجد الأحداث تطورت في الأندلس بعيدًا عن هذه الضوابط إلا في

(١) أحمد هيكال: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة. الطبعة السابعة، القاهرة (ص ٣٠).

فترات معروفة، فقد أصبحت العنصرية مرضاً يبرز بين الحين والآخر على نحو عملي في شكل ثورة هنا أو معركة هناك، بل كان من تأثير هذا المرض أن فقدت عوامل الوحدة جدواها في بعض الفترات ودخلت الدولة الإسلامية في الأندلس في عهود كثيفة سميت بعصور الطوائف الأول والثاني.

وكانت أمور الأندلس تدار بالغبلة، سواء أكان الغالب قحطانياً أم عدنانياً. لكن هؤلاء العرب -بقحطانيهم وعدنانيهم- أو ولائهم وقبائلهم كانوا -إلا قليلاً- يحتقرون البرابرة لبدائهم وتخلفهم، مع أن الإسلام ابتعثهم ليحضروهم ويعلموهم لا ليحتقروهم، وكان البربر يشعرون بأن حكاهم من العرب ينظرون إليهم بعين الاحتقار. وهكذا كانت المسيرة الأولى في رحلة العنصرية في الأندلس خلال هذا العهد المبكر، أي: بعيد الفتح الأندلسي (٥٩٣هـ). بما لا يزيد عن عقد من الزمان، والذي استمر حتى قيام الدولة الأموية (٥١٣٨هـ) على يد عبدالرحمن الداخل الملقب بصقر قریش.

وفي إشبيلية التي تمتاز فيها العناصر العربية والمولودية والمستعربة - كمنموذج- كانت الفتن قوية تهدد وجود الدولة الأموية، فقد "ثار العرب بإشبيلية ثورة عارمة، وقبضوا على عاملها عنوة، وانتهبوا طارقه وامتدده، ولم يتركوا إلا أهله وولده، وقتلوا كثيراً من أعوانه وعاشوا ما شاءوا في سلطانه، فاجتمعت العساكر من قرمونة وسائر الأقطار، وأحاطت بإشبيلية إحاطة الفلك بالدوار فغلبوا على القائمين فيها، وقتلوا منهم فرقة، فكانت الوقعة المعروفة بالددعة"<sup>(١)</sup>.

وهكذا كان عهد ملوك الطوائف الأول حافلاً بالفتن العنصرية والطائفية القاتلة. وعندما سقطت دولة بني عامر سنة (٣٩٩هـ) كان ذلك مؤذناً بدخول الأندلس في فترة الفتنة الثانية التي امتدت من سنة (٣٩٩-٤٢٢هـ) ويكفي للدلالة على ما تمتاز به هذه الفترة من قلق واضطراب كبيرين أنه قد تقلب على الأمور فيها عشرة حكام تولى أربعة منهم الحكم في مرتين، وبعض هؤلاء الحكام من

(١) وهم محمد الثاني بن هشام، وسليمان بن الحكم، وهشام الثاني، وعبدالرحمن الرابع، وعبدالرحمن الخامس، ومحمد الثالث بن عبدالرحمن، وهشام الثالث. راجع القنقشندي: صبح الأعشى (٢٤٦/٥-٢٥٤).

الأمويين<sup>(١)</sup>، وبعضهم من بني حمود<sup>(٢)</sup> الذين استولوا على السلطة في قرطبة سنة (٥٤٠٦هـ) وأخذوا يعثون بالحكم فيولون ويعزلون كما يشاءون، ويطلقون من الألقاب ما يخلو لهم، وبديهي أن تولي بعض الخلفاء الحكم أكثر من مرة كان بتأثير الفتن الدائرة وأسلوب الانقلابات الدموية.

وقد انفكت عروة الدين من النفوس، بعد أن تفككت مشروعية الحكم، فأصبح الأمر صراعاً جنسياً بين عرب وبربر وصقالبة<sup>(٣)</sup>، واستعان بعضهم بالنصارى على بعض.

والإنصاف يقتضينا أن نذكر أن مسئولية الفتنة لا تقع على طائفة بعينها، بل تقع على الجميع، ويتحمل فيها العرب والبربر والصقالبة وبنو أمية أقداراً تكاد تكون متساوية، وذلك على العكس مما يذهب إليه كثير من المؤرخين - ومنهم ابن حزم - من تحميل البربر المسئولية وحدهم<sup>(٤)</sup>.

فالحق أن ما أصاب الأندلس في هذه الفترة كان فتنة عامة يتحمل الجميع مسئوليتها، وقد أدت في النهاية إلى سقوط الأندلس التي كانت تحكمها خلافة واحدة فهوت إلى معترك مروع من التمزق والفوضى، واستحالت الأندلس بعد أن كانت كتلة موحدة تمتد من ضفاف دويرة شمالاً إلى مضيق جبل طارق جنوباً، ومن شاطئ البحر الأبيض من تركونة شرقاً حتى شاطئ المحيط الأطلسي غرباً، إلى أشلاء ممزقة ورقاع متناثرة لا تربطها أية رابطة مشتركة<sup>(٥)</sup>، وقد انتثر عقب هذا عقد الأندلس بين العناصر الثلاثة المتصارعة على أكثر من عشرين دولة: البربر في الجزء الجنوبي، والصقالبة في القسم الشرقي، أما باقي البلاد فكانت بين أسرات العرب<sup>(٦)</sup>.

(١) وهم علي الناصر بن حمود، والقاسم المأمون، ويحيى بن علي بن حمود (المصدر السابق).

(٢) راجع: محمد عبدالله عنان "دول الطوائف". طبع مصر (ص ٢٠، ٢١).

(٣) المراكشي: المعجب، طبع مصر بتحقيق سعيد العريان (ص ٨٦).

(٤) عنان: دول الطوائف (ص ١١).

(٥) المرجع السابق (ص ١٦).

(٦) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية (ص ٣٠٦).

## أسباب السقوط والدورس الاستفادة بإيجاز

- ١- غلبة العوامل العنصرية من قبلية قومية على وشيخة الإسلام والأخوة الإسلامية:  
(يلاحظ الصراع بين العرب والبربر وبين العدنانيين والقحطانيين وبين العرب والمولدين).
- ٢- ضعف العقيدة الإسلامية في النفوس والضمائر، وتطويعها لخدمة القومية والعنصرية والوطنية.  
(يلاحظ تواطؤ العرب جميعاً في بعض المواقف ضد البربر جميعاً، وكذلك تواطؤ البربر جميعاً ضد العرب... وهكذا).
- ٣- تغلب المصالح على المبادئ، وبالتالي التحالف مع أعداء الإسلام ضد إخوان العقيدة وشركاء الحضارة والمصير.
- ٤- إلغاء الخلافة الجامعة وظهور الطوائف التي تغلب الحكم الطائفي الخاص على المصلحة الإسلامية الواحدة، وتنافس في البروز الطائفي لمواجهة بروز الآخرين.  
(كان ابن حزم يُقسم بأن ملوك الطوائف هؤلاء لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية لأموهم لعبودها).
- ٥- تحلّي جمهرة من العلماء والدعاة عن رسالتهم وحياتهم للإسلام عقيدة وحضارة وانغماسهم في متابعة الظالمين، وقد انحطت مكانة الفقهاء انحطاطاً كبيراً، ويعتبر الفقيه (ابن البقني) مثلاً صارخاً للخيانة حين تعاون مع ملكي قشتالة وأراجون لإتمام تسليم غرناطة.
- ٦- فساد القلوب والضمائر وانتشار الأمراض القلبية من حقد وبغضاء، وآفات لسان من غيبة ونميمة.
- ٧- انتشار اللهو والغناء والموسيقى والانحلال والخمر وشتى صور الفساد.  
(وقد حاول بعض المصلحين من أمثال: أبي الوليد الباجي، والإمام أبي محمد بن

- حزم وابن عبدالير، إصلاح الحكام ولم ينجحوا، بل كان ظلهم ثقيلاً عند الحكام).
- ٨- الاستهانة بالدماء مما سبب معارك ضارية بين المسلمين من أجل نزوات الحكم وشهوات النفس ودوافع العنصرية.
- (نلاحظ هنا عصري الطوائف: الأول: قبل الناصر، والثاني: بعده، ثم حروب غرناطة الداخلية).
- ٩- فساد النظام السياسي وقيامه على الحكم المطلق البعيد عن الشورى والعدل؛ مما أصاب الأمة بالظلم وعدم الولاء، وهما بداية خراب الممالك.
- ١٠- إبطال فريضة الجهاد ضد أعداء الإسلام، وإخضاع الأمة لمعاهدات استسلام وولاء للنصارى ضد المسلمين لمصالح سياسية، بل منع الأمة من الجهاد ضد الأعداء وتوجيه قوتها ضد المسلمين في معارك حدودية وعنصرية. (كما يحدث الآن في العالمين العربي والإسلامي).
- ١١- خيانة بعض العلماء والحكام للمسئولية الإسلامية العامة، فعلى مسمع من هؤلاء جميعاً، سقطت معظم المدن الأندلسية في أقل من ثلاثين سنة (٦٢٧-٥٦٥هـ)، وكانت الظروف تفرض التدخل.
- ١٢- لنساء نصيب في سقوط الأندلس؛ بتدخل بعضهن في شئون الحكم ونشرهن البغضاء والصراعات من وراء الكواليس، كما نشر بعضهن الفساد والانحلال.
- كما كان للنساء النصرانيات المتزوجات من أبناء الأسر الحاكمة دور بارز في الفساد، وقد اغتيل بتأثير مؤامراتن أبو الوليد إسماعيل وهو من أعظم حكام غرناطة، كما أن زواج أبي الحسن (العاق لوالده) من ثريا (إيزابيل) أفسد الأمور كلها.
- ١٣- المعاهدات السرية التي كانت تبرم مع النصارى بعيداً عن الشعب، وفيها من صور الخيانة الكثير، وأكثر ما تتضمن تنازلاً عن كور أو قلاع وتعاوناً مع النصارى ضد المسلمين.

وقد ظهر هذا الأمر في ملوك غرناطة بخاصة ولا سيما في عصرها الأخير.

١٤- تعويق حركة الدعوة بالوسائل الدعوية المعروفة المتدرجة، والاعتماد على الحروب من أجل الدولة لا الدعوة، وقد انتصر المنصور بن أبي عامر في سبع وخمسين غزوة (حروب دولة) ومع ذلك سقطت الأندلس في مستتق عصر الفتنة والطوائف بعد وفاته بأقل من عشر سنوات؛ لقيام حكمه على دكتاتورية الدولة والاستبداد.

١٥- تجلي الدور الخيالي لبعض العائلات المعروفة، مثل: عائلتي بني سراج وبني أشقيلولة اللتين استمرتتا على تواطؤهما مع النصارى؛ لتحقيق مآرب مصلحية ضد عائلة بني نصر في غرناطة.

١٦- ويعد عقوق الأبناء للآباء من أهم أسباب السقوط، ومن ذلك عقوق الأمير أبي الحسن (علي بن سعد ٨٦٩-٨٨٧هـ) لوالده سعد بن علي (٨٦٠-٨٦٩هـ)، وقيامه بخلعته؛ تحقيقاً لمؤامرة بني سراج الطامحين في الحكم؛ مما أدى إلى توغل النصارى واستعلائهم.

١٧- تركيز الفقهاء والمفكرين على الجزئيات والفروع، مع ضيق الصدر وسرعة التفكير على حساب الكلليات والمقاصد والغايات ووسائل توحيد الأمة، وكأن الأصل هو التفرقة لا الأخوة والوحدة.

١٨- كثرة الثائرين والمتمردين؛ نتيجة غياب الشورى والعدل وغياب المؤسسات الإسلامية الكفيلة بتحقيق المساواة بين الجميع.

١٩- ومن نتائج ضعف العقيدة والإيمان ضياع الغيرة، وفقدان الولاء للإسلام، وهبوط الشعور الإسلامي العام.

كما أن جيوش ملك قشتالة استولت على قرطبة في ٢٣ شوال سنة ٦٣٣هـ بمساعدة كتبية أرسلها ابن الأحمر، كما أن ابن الأحمر تنازل طواعية عن دانية وأرجونة وجيان وبيع الحجر وقلعة جابر وأرض الفرنتيرة.

ومن جرائم ابن الأحمر أيضاً: مساعدته للنصارى بكتيبة من كائب جيشه عند استيلائهم على أشبيلية. وقد سقطت حول أشبيلية عشرات المدن والقرى دون قتال بفضل تدخل ابن الأحمر ومنعه هذه المدن والقرى من القتال بدعوى عبث المقاومة وذلك من أجل عيون غرناطة التي كان يحلم بها ولو على أشلاء كل المدن الأندلسية، فقامت غرناطة على أسس ليس من بينها التقوى والأهداف الإسلامية، فكان مصيرها معروفاً لمن يدركون سنن الله.

٢٠- احتراق اليهود والنصارى للقلب الإسلامي وسيطرتهم على بعض مواقع التأثير.  
٢١- ولم يترك المسلمون في الأندلس الجهاد فقط على أساس أنه فرض عين وكفاية عامة، بل تركوا معه الإعداد للجهاد، ولوسائل الجهاد المادية والمعنوية، وتحولوا إلى جيوش نظامية متخلفة هدفها الحفاظ على الأسرة الحاكمة.

٢٢- إسناد المناصب المالية والإدارية والقيادية والفكرية في الدولة إلى أهل الثقة والولاء للنظام والدولة، وليس للمتممين لعقيدة الأمة وحضارتها وأهدافها، وكان هذا السلوك بطبيعة الحال تعبيراً منسجماً مع نسيج النظام السياسي القائم على العصبية الواحدة التي تحتكر الحكم والمال والتوجيه وترفض الحكم بالشورى والقيم الإسلامية والفقهاء الحضاري، وانتعش أهل الشعر والأدب والفنون، وبالتالي فقد أسند الأمر إلى غير أهله.

## خلاصة الوحدة التاسعة

- ١- مر تاريخ الأندلس بعدة عصور تاريخية سياسية وهي:
  - فترة الفتح من سنة ٩١- وإلى سنة ٥٩٣ عصر الولاة (٩٥-١٣٨هـ).
  - عصر الإمارة الأموية بالأندلس (١٣٨-٥٣١٦هـ).
  - عصر الخلافة الأموية بالأندلس (٣١٦-٥٤٢٢هـ).
  - عصر ملوك الطوائف (٤٢٢-٥٤٨٤هـ).
  - عصر المرابطين (٤٨٤-٥٥٤١هـ).
  - عصر الموحدين (٥٤١-٦٦٨هـ).
  - عصر ملوك بني نصر (٦٢٩-٨٩٧هـ) (١٤٩٢م).
- ٢- عرف تاريخ الأندلس الاجتماعي العديد من العناصر السكانية منها: العرب، والبربر، والمولدين، وعناصر دينية مثل: اليهود والنصارى وكان التسامح هو السمة الغالبة في معظم فترات التاريخ.
- ٣- اهتم حكام الأندلس بالنواحي الحضارية، فعرفت الأندلس أكبر نخضة عمرانية في تاريخها، فبنيت عشرات المدن ومئات القرى والحصون.
- ٤- كان العطاء الفكري الأندلسي كبيراً، فعرفت في الأندلس شخصيات كبرى في تاريخ الفكر الإسلامي مثل: ابن مزمر الأندلسي، وابن حيان، وابن عبد البر، وابن عبدبره، وابن مالك، وابن البيكار، وابن رشد، وابن الخطيب، وابن خلدون.
- ٥- كانت العلاقة مع ممالك النصارى في الشمال من العوامل التي حددت مصير المسلمين في الأندلس.

## اختبار الوحدة التاسعة

أولاً: أسئلة الصواب والخطأ:

- ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (x) أمام العبارة الخاطئة فيما يأتي:
- ١- الأندلس هي الأجزاء التي سيطر عليها المسلمون في شبه الجزيرة الأيبيرية.
  - ٢- مساحة الأندلس هي ٨٠٠,٠٠٠ كم<sup>٢</sup> في جنوب غربي أوروبا.
  - ٣- يمر نهر الوادي الكبير بمدنيتي قرطبة وإشبيلية.
  - ٤- كان ليوليان حاكم سبته دور كبير في تشجيع المسلمين على فتح الأندلس.
  - ٥- تكوّن جيش موسى بن نصير لفتح الأندلس من سبعة آلاف معظمهم من العرب.
  - ٦- نشبت الحرب بين جيش "لذريق" المسيحي وجيش طارق بن زياد على ساحل بحيرة الخندق.
  - ٧- هزم طارق بن زياد القوط هزيمة ساحقة في ٢٠ رمضان عام ٩٢هـ.
  - ٨- فتح طارق بن زياد مدينة طليطلة بدون مقاومة.
  - ٩- ولدت أول مقاومة نصرانية منظمة في جبال "كوفادونجا".
  - ١٠- إحراق طارق بن زياد للسفن الحربية الإسلامية أسطورة من الخيال.
  - ١١- يعدّ حكم عبد العزيز بن موسى بن نصير بداية عصر الولاة.
  - ١٢- حَكَمَ عبد العزيز بن موسى بن نصير الأندلس ثلاث سنوات.
  - ١٣- عمل عبد العزيز بن موسى إبان ولايته على إيقاف الفتح وتنظيم أمور الأندلس.
  - ١٤- اتسم عصر الولاة بالجهاد خلف جبال البرنات.
  - ١٥- استشهد عبد الرحمن الغافقي في معركة بلاط الشهداء.
  - ١٦- قاد جيوش الفرنجة في معركة بلاط الشهداء شارل مارتل.
  - ١٧- اختار أيوب اللخمي مدينة إشبيلية عاصمة للأندلس.

- ١٨- توقفت محاولات المسلمين في الجهاد خلف جبال البريات بموت عبد الرحمن الغافقي.
- ١٩- جعل عمر بن عبد العزيز الأندلس ولاية مستقلة عن إفريقية تابعة للخلافة الأموية مباشرة.
- ٢٠- أسس جامع سرقسطة حنش بن عبد الله الصنعاني.
- ٢١- كان الفتح الإسلامي للأندلس سبباً في نهاية الوجود اليهودي بالأندلس.
- ٢٢- امتدّ عصر الإمارة الأموية في الأندلس نحو ٣٠٠ سنة.
- ٢٣- أخطر ثورات اليمينية في عهد عبد الرحمن الداخل تزعمها يوسف الفهري.
- ٢٤- من أسباب الثورات والفتن في عهد الأمراء الأمويين بالأندلس: منعة البلاد وحصانة معاقلها.
- ٢٥- ظهر الصقالبة في عهد الإدارة، وهم من أشرف عائلات الأندلس.
- ٢٦- حول الخليفة الناصر الإمارة في الأندلس إلى خلافة سنة ٣١٦هـ.
- ٢٧- شهد عصر الإمارة كثرة عمرانية وزيادة في عدد السكان.
- ٢٨- امتدّ عصر الخلافة في الأندلس ثلاثة قرون.
- ٢٩- تمكن "ألفونسو السادس" من الاستيلاء على أسبانيا الوسطى والغربية سنة ٤٧٢هـ.
- ٣٠- هزمت جيوش الأسبان في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ.
- ٣١- أدت الثورات المتتالية في الأندلس إلى إضعاف دولة المرابطين وزوالها.
- ٣٢- عبر أول جيش موحد للأندلس سنة ٥٥٠هـ.
- ٣٣- الموريسكيون هم فئة من نصارى الأندلس.
- ثانياً: الأسئلة المقالية:
- ١- اكتب ما تعرفه عن معالم التاريخ السياسي في الأندلس.
- ٢- تحدث بالتفصيل عن حضارة المسلمين في الأندلس.
- ٣- اكتب مذكرات مختصرة عن عصر الطوائف.

٤- تحدث بالتفصيل عن أهم الأحداث التي تمت في المدن التالية:

طليطلة - غرناطة - قرطبة - أشبيلية - ليون - قشتالة - برشلونة.

٥- هل كان الفتح الإسلامي للأندلس إنقاذاً لليهود من الإبادة الجماعية؟ لماذا؟

٦- أكتب عن المراحل والخطوات التي مر بها الفتح الإسلامي للأندلس؟

ثالثاً: الأسئلة الحوارية:

أ- في حوار بينك وبين أحد زملائك دار الكلام حول العبر المستقاة من تاريخ المسلمين في الأندلس، صف لنا هذا الحوار.

ب- يدور بخلد الكثير من المسلمين أن المسلمين يمكن أن يستعيدوا الأندلس مرة أخرى فاكتب لنا الأمور والخطوات التي يجب على المسلمين اتباعها حتى يستعيدوا الأندلس.

رابعاً: الأسئلة التحليلية:

أ- اذكر خطوات فتح الأندلس.

ب- ما سمات عصر الولاة؟

ج- اذكر أهم أمراء بني أمية وأعمالهم في الأندلس.

د- اذكر ملامح عصر الطوائف وأهم الإمارات فيه.

هـ- تحدث بإيجاز عن الصراع بين ممالك نصارى الشمال مع كل من المرابطين والموحدين.

و- اذكر أهم أسباب سقوط الأندلس.

## النشاط التعليمي للوحدة التاسعة

عزيزي الدارس: حتى تكتسب المزيد من المعلومات حول موضوعات هذه الوحدة عليك بإنجاز النشاط التعليمي التالي:

- أ- أعد بحثًا تتناول فيه سمات عصر الولاة.
  - ب- اكتب مقالاً عن حضارة المسلمين في الأندلس.
  - ج- اكتب مقالاً عن عصر الطوائف وتأثيره على تاريخ الأندلس.
  - د- اكتب مقالاً عن دور المرابطين والموحدين في الجهاد بالأندلس.
  - هـ- تناقش مع زملائك في موضوع ظروف دولة بني نصر وسقوط الأندلس.
- يوصى بالرجوع إلى بعض هذه المراجع:

- د/ أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس. الإسكندرية عام ١٩٦٨م.
- د/ أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس. الإسكندرية عام ١٩٨٦م.
- د/ حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس. دار المستقبل عام ١٩٨٦م.
- د/ عبد الحليم عويس: ابن حزم الأندلسي. الزهراء للإعلام.
- د/ عبد الحليم عويس: التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس. دار الصحوة للإعلام.
- د/ عبد الحليم عويس: العصبية القومية وأثرها في سقوط الأندلس. دار الصحوة للإعلام.



الصفحة	الموضوع
٤	رسالة إلى الدارس
٥	لوحة المسار لدراسة وحدات الكتاب
٦	خريطة مكونات الكتاب
٧٣-٧	<b>الوحدة الأولى: الخلافة العباسية</b>
٨	مبشرات دراسة الوحدة الأولى
٩	الأهداف التعليمية للوحدة الأولى
١٠	الرسم الخطي للوحدة الأولى
١١	نسب العباسيين
١٤	الدولة العباسية في عصرها الأول (١٣٢-١٣٢٢هـ/٧٥٠-٨٤٦م).
١٤	الدعوة العباسية
١٤	العباسيون ومسألة الخلافة
١٥	مرحلة التخطيط النهائي
١٦	مرحلة التنفيذ العملي
١٩	أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٤-٧٧٥م)
٢٢	هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٨٧٦-٨٠٩م)
٢٦	حرب الأخوين (١٩٣-١٩٨هـ/٨٠٨-٨١٣م)
٢٨	المأمون "خليفة" (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٨٣م)
٣١	أبو إسحاق محمد المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٨٣-٨٤٢م)

٣٣	الواثق بالله (٢٢٧-٢٣٢/٨٤٢-٨٤٧م)
٣٣	الدولة العباسية في عصرها الثاني (٢٣٢-٥٩٠هـ/٨٤٦-١١٩٣م)
٣٤	الأترك
٣٩	بنو بويه
٤٢	السلاجقة
٤٥	الخلافة العباسية في عصرها الثالث والأخير (٥٩٠-٦٥٦هـ/١١٩٣-١٢٥٨م)
٤٥	أسباب سقوط الدولة العباسية
٤٧	حضارة العباسيين
٤٧	الإدارة ونظم الحكم
٥٠	النظام القضائي
٥٥	النظام الحربي
٥٧	تطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العصر العباسي
٦٣	الحياة الثقافية في بغداد
٦٨	خلاصة الوحدة الأولى
٦٩	اختبار الوحدة لأولى
٧٣	النشاط التعليمي للوحدة الأولى
١١١-٧٥	<b>الوحدة الثانية: الدولتان الطولونية والإخشيدية</b>
٧٦	ممرات دراسة الوحدة الثانية
٧٧	الأهداف التعميمية للوحدة الثانية
٧٨	الرسم الخطّي للوحدة الثانية

٧٩	الدولة الطولونية
٧٩	التعريف بالطولونيين
٨١	علاقة أحمد بن طولون بالخلافة العباسية
٨٣	السياسة الداخلية لابن طولون
٨٤	سياسة ابن طولون الخارجية
٨٥	خلفاء أحمد بن طولون
٨٩	لماية الدولة الطولونية
٩١	الدولة الإخشيدية
٩١	التعريف بالدولة الإخشيدية
٩٣	مجيء الإخشيد إلى مصر والياً وبسط نفوذه عليها
٩٤	الإخشيد والخلافة العباسية
٩٥	تحسن العلاقة بين العباسيين والإخشيد
٩٦	الإخشيد والحمدانيون
٩٦	خلفاء الإخشيد
٩٧	حضارة مصر في عهد الطولونيين والإخشيديين
١٠٧	خلاصة الوحدة الثانية
١٠٩	اختبار الوحدة الثانية
١١١	النشاط التعليمي للوحدة الثانية
١١٣-١٥١	<b>الوحدة الثالثة: دولتنا الأغالبة والأدارسة</b>
١١٤	مبررات دراسة الوحدة الثالثة
١١٥	الأهداف التعليمية للوحدة الثالثة

- ١١٦ الرسم الخطي للوحدة الثالثة
- ١١٧ دولة الأغالبة في المغرب الأدنى (تونس)
- ١١٩ أصل الأغالبة
- ١٢١ جهود بني الأغلب في تثبيت أركان الدولة
- ١٢٥ علاقة الأغالبة بالخلافة العباسية
- ١٢٦ علاقة الأغالبة بالإمارة الأموية في الأندلس
- ١٢٧ اهتمام الأغالبة بإنشاء الأسطول ونشاطهم في البحر المتوسط
- ١٢٩ فتح جزيرة صقلية
- ١٣١ نتائج الفتح الإسلامي لصقلية
- ١٣٢ حكام الأغالبة
- ١٣٣ دولة الأدارسة في المغرب الأقصى
- ١٣٣ معركة فنج
- ١٣٤ أحوال المغرب في هذه الفترة
- ١٣٤ اختيار مدينة ويلي وبيعة إدريس
- ١٣٥ جهود إدريس الأول في تثبيت الدولة
- ١٣٦ نهاية إدريس الأول
- ١٣٧ وفاة إدريس الثاني وتقسيم الدولة في عهد محمد بن إدريس
- ١٣٩ خلفاء محمد بن إدريس
- ١٤٠ الحضارة الإسلامية في عهد الدولة الإدريسية
- ١٤٢ بناء فاس حاضرة الأدارسة
- ١٤٣ بناء عدوة الأندلس

١٤٣	بناء عدوة القرويين
١٤٣	مدينة البصرة وقلعة النسر
١٤٤	بناء جامع القرويين وأثره الحضاري
١٤٥	الحياة الفكرية في عهد الأدارسة
١٤٦	ولاية الأدارسة
١٤٨	خلاصة الوحدة الثالثة
١٤٩	اختبار الوحدة الثالثة
١٥١	النشاط التعليمي للوحدة الثالثة
١٩٩-١٥٣	<b>الوحدة الرابعة: الدولة الفاطمية</b>
١٥٤	مبشرات دراسة الوحدة الرابعة
١٥٥	الأهداف التعليمية للوحدة الرابعة
١٥٦	الرسم الخطّي للوحدة الرابعة
١٥٧	الدولة الفاطمية في المغرب ومصر
١٦١	التأثير المذهبي في المغرب بعد رحيل الفاطميين
١٦١	دولة بني زيري
١٦٣	دولة بني حماد
١٦٨	قضية نسب الفاطميين
١٧٢	الدولة الفاطمية في مصر
١٧٧	العصر الفاطمي الثاني: (عصر نفوذ الوزراء)
١٨١	زوال الدولة الفاطمية (٥٦٧هـ)
١٨٤	الدعوة المذهبية الشيعية في مصر

١٨٧	موقف أهل السنة في مصر من الدعوة الإسماعيلية
١٩٠	الحالة الاقتصادية في الدولة الفاطمية
١٩٥	خلاصة الوحدة الرابعة
١٩٦	اختبار الوحدة الرابعة
١٩٩	النشاط التعليمي للوحدة الرابعة
٢٤٥-٢٠١	<b>الوحدة الخامسة: الدولة الأيوبية</b>
٢٠٢	مبشرات دراسة الوحدة الخامسة
٢٠٣	الأهداف التعليمية للوحدة الخامسة
٢٠٤	الرسم الخطي للوحدة الخامسة
٢٠٥	أصل الأيوبيين
٢٠٦	الأيوبيون في مصر
٢٠٧	حملة شيركوه الأولى على مصر
٢٠٨	صلاح الدين على رأس السلطة في مصر، وسقوط الخلافة الفاطمية
٢١٠	صلاح الدين يوسع سلطانه
٢١٢	صلاح الدين في الشام
٢١٣	استدعاء ابن المقدم لصلاح الدين الأيوبي
٢١٤	جهود صلاح الدين في توحيد الجبهة الشامية
٢١٨	ضعف دولة صلاح الدين وتقسيمها
٢٢٠	النزاع بين أبناء البيت الأيوبي
٢٢٣	الملك العادل سيف الدين (٥٠٧-٥٦١٥/١٢٠٠-١٢١٨م) وإعادة تنظيم الدولة الأيوبية

٢٢٤	خلفاء الملك العادل
٢٢٦	سقوط الدولة الأيوبية وأسبابه
٢٢٨	حضارة الأيوبيين
٢٢٩	التعاون بين أولي الأمر والعلماء في العصر الأيوبي
٢٤٠	خلاصة الوحدة الخامسة
٢٤٢	اختبار الوحدة الخامسة
٢٤٥	النشاط التعليمي للوحدة الخامسة
٣١٨-٢٤٧	<b>الوحدة السادسة: الدولة المملوكية</b>
٢٤٨	مبررات دراسة الوحدة السادسة
٢٤٩	الأهداف التعليمية للوحدة السادسة
٢٥٠	الرسم الخطي للوحدة السادسة
٢٥١	الدولة المملوكية (٦٤٨-١٢٥٠/١٢٥٠-١٥١٧م)
٢٥٢	العلاقات داخل المؤسسة الحكومية:
٢٥٥	دولة المماليك الأولى أو البحرية
٢٥٥	السلطانة شجرة الدر (١٠ صفر ٦٤٨هـ / مايو ١٢٥٠م)
٢٥٧	السلطان المعز أيك التركماني (٦٤٨-٦٥٥هـ / ١٢٥٠-١٢٥٧م)
٢٦١	السلطان سيف الدين قطز (٦٥٧-٦٥٨هـ / ١٢٥٩-١٢٦٠م)
٢٦٣	موقعة عين جالوت ٢٥ رمضان سنة (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م)
٢٦٤	السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م)
٢٦٥	إحياء الخلافة العباسية في مصر
٢٧١	دولة المماليك الثانية أو الجراكسة (البرجية)

٢٧١	نشأة فرقة الممالك الجراكسة
٢٧٢	ازدياد نفوذ الجراكسة أو البرجية
٢٧٤	قيام دولة الممالك الجراكسة
٢٧٦	خصائص دولة الممالك الجراكسة
٢٧٨	السلطان برفوق
٢٨٠	تيمورلنك
٢٨١	السلطان الناصر فرج
٢٨٢	السلطان المؤيد شيخ
٢٨٣	برسبای وفتح جزيرة قبرص
٢٨٤	السلطان حقمق وغازو جزيرة رودس
٢٨٦	الدولة المملوكية بعد وفاة السلطان حقمق
٢٨٧	السلطان الأشرف قايتباي
٢٨٨	الدولة المملوكية بعد وفاة السلطان قايتباي
٢٩٢	السلطان طومان باي وسقوط دولة الممالك
٢٩٣	أسباب سقوط دولة الممالك
٢٩٦	حضارة الممالك
٣٠٥	التنظيمات الحرفية في العصر المملوكي
٣٠٦	الحياة العلمية
٣١٢	خلاصة الوحدة السادسة
٣١٤	اختبار الوحدة السادسة
٣١٨	النشاط التعليمي للوحدة السادسة

## الوحدة السابعة: المغول

٣٤٥-٣١٩

- ٣٢٠ مبررات دراسة الوحدة السابعة
- ٣٢١ الأهداف التعليمية للوحدة السابعة
- ٣٢٢ الرسم الخطّي للوحدة السابعة
- ٣٢٣ التعريف بالمغول وبيئتهم
- ٣٢٤ المغول من جنكيزخان حتى هولاكو خان
- ٣٢٥ انتخاب أوكتاي خاقانًا للمغول
- ٣٢٦ توسع المغول في غرب آسيا
- ٣٣٠ حملة هولاكو على إيران
- ٣٣٢ دخول المغول بغداد وزوال الخلافة العباسية
- ٣٣٥ اعتناق الإيلخانيين للإسلام
- ٣٣٧ تأثير المغول بالحضارة الإسلامية
- ٣٤٢ خلاصة الوحدة السابعة
- ٣٤٣ اختبار الوحدة السابعة
- ٣٤٥ النشاط التعليمي للوحدة السابعة

## الوحدة الثامنة: الخلافة العثمانية

٤٤٩-٣٤٧

- ٣٤٨ مبررات دراسة الوحدة الثامنة
- ٣٤٩ الأهداف التعليمية للوحدة الثامنة
- ٣٥٠ الرسم الخطّي للوحدة الثامنة
- ٣٥١ أصل الأتراك العثمانيين
- ٣٥٢ السلطنة العثمانية وجهودها في شرق أوروبا

- ٣٥٥ المغول يعترضون التوسع العثماني
- ٣٥٨ محمد الثاني وفتح القسطنطينية
- ٣٦٢ علاقات الدولة العثمانية بالشرق الإسلامي (الصفويين - المماليك)
- ٣٦٤ دخول العثمانيين الشام
- ٣٦٦ دخول العثمانيين مصر
- ٣٦٧ دخول العثمانيين اليمن وشبه الجزيرة العربية
- ٣٦٨ دخول العثمانيين العراق
- ٣٦٨ دخول العثمانيين شمال أفريقيا
- ٣٦٩ الحكم العثماني في البلاد العربية
- ٣٧٥ خصائص الحكم العثماني
- ٣٧٧ حضارة العثمانيين
- ٣٩٣ الموقف العثماني تجاه القضية الأندلسية
- ٣٩٥ عوامل ضعف الدولة العثمانية
- ٤٠٢ المسألة الشرقية
- ٤٠٢ حركة الإصلاح في الدولة العثمانية
- ٤٠٥ انهيار الدولة العثمانية
- ٤٠٧ دور يهود الدومجة في انهيار الدولة العثمانية
- ٤١٣ موقف السلطان عبد الحميد من أطماع الدول الأوروبية في الدولة العثمانية
- ٤١٥ السلطان عبد الحميد الثاني والحركة الصهيونية
- ٤١٨ السلطان عبد الحميد والأحرار العثمانيون
- ٤١٨ السلطان عبد الحميد الثاني والجمعيات السرية

٤٢٢	سقوط عبد الحميد الثاني
٤٢٤	عهد الاتحاديين ونهاية الخلافة العثمانية
٤٢٦	مصطفى أتاتورك
٤٢٦	خطوات أتاتورك لإلغاء الخلافة
٤٣١	القضية الفلسطينية
٤٣١	الجذور التاريخية للأطماع اليهودية في فلسطين
٤٣٢	مشروع الوطن اليهودي في فلسطين
٤٣٢	تيودور هرتزل ومؤتمر بال
٤٣٥	موقف الاتحاديين من المشروع اليهودي في فلسطين
٤٣٥	موقف العرب من المشروع اليهودي في فلسطين
٤٣٧	تصريح بلفور
٤٤٠	سلاطين الدولة العثمانية
٤٤٢	خلاصة الوحدة الثامنة
٤٤٥	اختبار الوحدة الثامنة
٤٤٩	لنشاط التعليمي للوحدة الثامنة
٥٥٩-٤٥١	<b>الوحدة التاسعة: تاريخ الأندلس</b>
٤٥٢	مبررات دراسة الوحدة التاسعة
٤٥٣	الأهداف التعليمية للوحدة التاسعة
٤٥٤	الرسم الخطّي للوحدة التاسعة
٤٥٥	الأندلس وفتح المسلمين لها
٤٥٩	أسطورة إحراق طارق للسفن من قضايا الفتح الإسلامي للأندلس

٤٦٤	عصر الولاة (٩٥-١٣٨هـ / ٧١٤-٧٥٥م)
٤٦٦	سمات عصر الولاة
٤٧٣	إصلاحات المسلمين في الأندلس والمغرب خلال عصر الفتح والولاة
٤٧٥	إنقاذ اليهود من الإبادة
٤٨٠	عصر الإمارة الأموية في الأندلس (١٣٨-٣١٦هـ / ٧٥٦-٩٢٩م)
٤٨٦	الثورات والفتن: أسبابها وأشهر الثوار وأماكنهم
٤٨٩	الحضارة في عصر الإمارة
٤٩٦	عصر الخلافة (٣١٦-٤٢٢هـ)
٥١٦	عصر المرابطين في الأندلس
٥٢١	ضعف دولة المرابطين ونهايتها في الأندلس
٥٢٤	الموحدون في الأندلس
٥٢٥	عمور الموحدين الأندلس
٥٣٩	الموريسكيون
٥٤١	سقوط الأندلس.. الأسباب والدروس
٥٥٥	خلاصة الوحدة التاسعة
٥٥٦	اختبار الوحدة التاسعة
٥٥٩	النشاط التعليمي للوحدة التاسعة
٥٧٢-٥٦١	فهرس الكتاب